التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تفسير سورتى

الفاتحة والبقرة

الدكتور محمد سيد طنطاوى
مفتى جمهورية مصر العربية

المجلد الأول



دار المعارف
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

راجعة

د. عبد الرحمن العدوى

الأستاذ بكلية أصول الدين

تصميم الغلاف

أبو بكر الواحى

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم



صدق الله العظيم

فى هـذا المجلـد

صفحـة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لاإله إلا هو، وحده لا شريك له، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله رحمة للعالمين، وأنزل عليه كتابًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه، واتبعوا النور الذى أنزل معه، أولئك هم المفلحون.

وبعد: فإن القرآن الكريم هو كتاب الله الذي أنزله على قلب نبيه محمد - ﷺ -، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ولينقذهم من الكفر والظلم والفجور. ﴿كتاب أنزلناه إليك لتُخرِجَ الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد﴾[١].

وقد أنزل الله - تعالى - هذا القرآن على قلب نبيه ﷺ، لمقاصد عالية، وحكم سامية، وأغراض شريفة...

من أهمها أن يكون هذا القرآن هداية للإنس وللجن فى كل زمان ومكان إلى الصراط المستقيم، وإلى السعادة التى تصبو إليها النفوس، وتتطلع إليها الأفئدة والقلوب....

وقد أودع - تعالى - فى هذا الكتاب من العقائد السليمة، والعبادات القويمة، والأحكام الجليلة، والآداب الفاضلة، والعظات البليغة، والتوجيهات الحكيمة... ما به قوام الملة الكاملة، والأمة الفاضلة، والجماعة الراشدة، والفرد السليم فى عقيدته وسلوكه وفى كل شئونه.

فكان هذا الكتاب أفضل الكتب السماوية، وأوفاها بحاجة البشرية، وأجمعها للخير، وأبقاها على الدهر، وأعمها وأتمها وأصحها فى هدايته الناس إلى ما يصلحهم فى معاشهم ومعادهم.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ١.

قال - تعالى - : ﴿إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا كبيرًا﴾(١).

وقال تعالى : ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾(٢).

وقال - تعالى - ﴿قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن، فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبًا. يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدًا﴾(٣).

كذلك من أهم المقاصد التى من أجلها أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ هذا القرآن، أن يكون هذا القرآن معجزة ناطقة فى فم الدنيا بصدقه فيما يبلغه عن ربه.

ولقد جاء النبى - ﷺ - إلى الناس فدعاهم إلى وحدانية الله، وإلى مكارم الأخلاق، وقال لهم : معجزتى الدالة على صدقى هذا القرآن، فإن كنتم فى شك من ذلك فأتوا بمثله فعجزوا، فأرخى لهم العنان وتحداهم بأن يأتوا بعشر سور من مثله فما استطاعوا، فزاد فى إرخاء العنان لهم - وهم أرباب البلاغة والبيان - وتحداهم بأن يأتوا بسورة واحدة من مثله، فأخرسوا وانقلبوا صاغرين. فثبت أن هذا القرآن من عند الله، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا.

قال الله تعالى - : ﴿وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾(٤).

كذلك من أهم المقاصد التى من أجلها أنزل الله هذا القرآن على قلب نبيه - ﷺ -، أن يتقربَ الناس به إلى خالقهم عن طريق تلاوته، وحفظه، وتدبره، والعمل بتشريعاته وآدابه وتوجيهاته...

ولقد تكلم الإمام القرطبى بإسهاب فى مقدمة تفسيره عن فضائل القرآن، والترغيب فيه، وفضل طالبه، وقارئه، ومستمعه، والعامل به، وكيفيه تلاوته... فقال ما ملخصه :

اعلم أن هذا الباب واسع كبير. ألف فيه العلماء كتبًا كثيرة، نذكر من ذلك نكتا تدل على فضله، وما أعد الله لأهله إذا أخلصوا الطلب لوجهه، وعملوا به. فأول ذلك أن يستشعر المؤمن من فضل القرآن أنه كلام رب العالمين. كلام من ليس كمثله شىء....

---

(١) سورة الإسراء. الآية ٩.
(٢) سورة المائدة : الآيتان ١٥، ١٦.
(٣) سورة الجن : الايتان ١، ٢.
(٤) سورة البقرة : الآيتان ٢٣، ٢٤.

ومن الآثار التى جاءت فى هذا الباب ما أخرجه الترمذى عن أبى سعيد قال : قال رسول الله - ﷺ - يقول الله تعالى : «من شغله القرآن وذكرى عن مسألتى ، أعطيته أفضل ما أعطى السائلين . . ».

وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «إن هذا القرآن مأدبة الله ، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم . . . ».

وروى البخارى عن عثمان بن عفان عن النبى ﷺ قال : «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»، وروى مسلم عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : «مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجة[1] ريحها طيب وطعمها طيب. ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو. ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر. ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة لا ريح لها وطعمها مر».

وروى مسلم عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه - أى يقرؤه بصعوبة - وهو عليه شاق له أجران».

وروى الترمذى عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «من قرأ حرفًا من كتاب الله فله بكل حرف حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها. لا أقول آلم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»[2].

هذا جانب من الأحاديث الشريفة التى أوردها القرطبى ، وهو يتحدث عن فضائل القرآن، والترغيب فيه. . . . الخ.

ولقد حذر النبى ﷺ : أمته تحذيرًا شديدًا من نسيان القرآن، فقد روى الشيخان عن أبى موسى عن النبى ﷺ قال : «تعاهدوا القرآن؛ فو الذى نفسى بيده لهو أشد تفصيًا - أى : تفلتا - من الإبل فى عُقُلِها».

وروى الترمذى وأبو داود عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : «عرضت على ذنوب أمتى فلم أر ذنبًا أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها».

هذه أهم المقاصد والحكم التى من أجلها أنزل الله - تعالى - القرآن على نبيه ﷺ : أن

---

(١) الأترجة : ثمرة حلوة الطعم، طيبة الرائحة، جميلة اللون، تشبه التفاحة.
(٢) تفسير القرطبى : حـ ١ ص ٤ وما بعدها :

يكون هداية للناس، وأن يكون معجزة خالدة باقية شاهدة بصدق الرسول - ﷺ - : فيما يبلغه عن ربه، وأن يتقرب الناس بقراءته والعمل به إلى خالقهم - عز وجل - ولقد تكفل الله - تعالى - بحفظ هذا القرآن، وصانه من التحريف والتبديل، والتغيير والمعارضة. قال - تعالى - : ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[1].

وكان من مظاهر عنايته - سبحانه - بكتابه، أن جعله محفوظًا فى كل العصور بالتواتر الصادق القاطع، يرويه الخلف عن السلف بالكيفية المروية عن رسول الله - ﷺ -، وأن وفق له فى كل عصر حفاظًا متقنين جمعوه فى صدورهم، وعمروا به ليلهم ونهارهم...

وأن قيض له رجالا قضوا معظم أيام حياتهم فى خدمته ودراسة علومه، فمنهم من كتب فى إعجازه وبلاغته، ومنهم من كتب فى قصصه وأخباره، ومنهم من كتب فى أسباب نزوله، ومنهم من كتب فى قراءاته ورسمه، ومنهم من كتب فى محكمه ومتشابهه، ومنهم من كتب فى ناسخه ومنسوخه، ومنهم من كتب فى مكيه ومدنيه، ومنهم من كتب فى غريب ألفاظه..... إلى غير ذلك من ألوان علومه.

وكثير منهم كتبوا فى تفسيره. وتوضيح معانيه ومقاصده وألفاظه، وذلك لأن سعادة الأفراد والأمم لا تتأتى إلا عن طريق الاسترشاد بتعاليم القرآن وتوجيهاته، وهذا الاسترشاد لا يتحقق إلا عن طريق الكشف والبيان، لما تدل عليه ألفاظ القرآن. وهو ما يسمى بعلم التفسير.

فتفسير القرآن هو المفتاح الذى يكشف عن تلك الهدايات السامية، والتوجيهات النافعة، والعظات الشافية والكنوز الثمينة التى احتواها هذا الكتاب الكريم.

وبدون تفسير القرآن، تفسيرًا علميًا سليمًا مستنيرًا لا يمكن الوصول إلى ما اشتمل عليه هذا الكتاب من هدايات وتوجيهات، مهما قرأه القارئون وردد ألفاظه المرددون.

قال إياس بن معاوية : مثل الذين يقرءون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره، كمثل قوم جاءهم كتاب من مليكهم ليلا، وليس عندهم مصباح، فتداخلتهم روعة ولا يدرون ما فى الكتاب. ومثل الذى يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرأوا ما فى الكتاب»[2].

ولقد أفاض الامام ابن كثير فى بيان هذا المعنى «وفى بيان أحسن طرق التفسير فقال : «فالواجب على العلماء الكشف عن معانى كلام الله، وتفسير ذلك، وطلبه من مظانه، وتعلم ذلك وتعليمه.....

فإن قال قائل : فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب : أن أصح الطريق فى ذلك أن يفسر

---

(١) سورة الحجر. الآية ٩.

(٢) تفسير القرطبى جـ١ ص٢٦.

القرآن بالقرآن فما أجمل فى مكان فإنه قد بسط فى موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له. . . . وقد قال رسول الله ﷺ: «ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه»، يعنى السنة. . . .

والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده فمن السنة. . . . فإن لم تجده فمن أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوا من القرائن والأحوال التى اختصوا بها ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم كالخلفاء الراشدين، والأئمة المهتدين المهديين. . . قال عبد الله بن مسعود: والذى لا إله غيره، ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت. ولو أعلم أحدًا أعلم بكتاب الله منى تناله المطايا لأتيته». وقال: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن».

وقال أبو عبد الرحمن السلمى: «حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبى - ﷺ - وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعًا». . . .

فإذا لم تجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة فى ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر، وسعيد ابن جبير. وعكرمه مولى ابن عباس، وعطاء بن أبى رباح، والحسن البصرى وغيرهم»[1].

هذا، وأنت إذا سرحت طرفك فى المكتبة الإسلامية ترى العشرات من كتب التفسير، منها القديم والحديث، وترى منها الكبير والوسيط والوجيز، وترى منها ما يغلب عليه طابع التفسير بالمأثور، وترى ما يغلب عليه طابع التفسير بالرأى، وترى منها ما تغلب عليه الصبغه الفقهيه، أو البلاغيه، أو الفلسفيه، أو الصوفيه، أو العلميه، أو الاجتماعيه، أو الطائفيه. . . أو غير ذلك من الاتجاهات والميول التى تختلف باختلاف أفكار الكاتبين وثقافتهم ومذهبهم. . .

وترى منها المحرر أو شبه المحرر من الخرافات، والأقوال السقيمة، والقصص الباطلة. . . كما ترى منها ما هو محشو بذلك.

ولقد انتفعت كثيرًا بما كتبه الكاتبون عن كتاب الله - تعالى -، وهاأنذا - أخى القارئ - أقدم لك تفسيرًا وسيطًا لسورتى الفاتحه والبقرة، وقد بذلت فيه أقصى جهدى ليكون تفسيرًا علميًا محققًا، محررًا من الأقوال الضعيفة، والشبه الباطلة، والمعانى السقيمة. .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٤ وما بعدها - بتصرف وتلخيص -.

وستلاحظ خلال قراءتك له أننى كثيرًا ما أبدأ بشرح الألفاظ القرآنية شرحا لغويًا مناسبًا ثم أبين المراد منها - إذا كان الأمر يقتضى ذلك -.

ثم أذكر سبب النزول للآية أو الآيات - إذا وجد وكان مقبولا -.

ثم أذكر المعنى الإجمالى للآية أو الجملة، عارضا[1] ما اشتملت عليه من وجوه البلاغه والبيان، والعظات والآداب والأحكام. . .، مدعما ذلك بما يؤيد المعنى من آيات أخرى، ومن الأحاديث النبوية، ومن أقوال السلف الصالح.

وقد تجنبت التوسع فى وجوه الإعراب، واكتفيت بالرأى أو الآراء الراجحة إذا تعددت الأقوال. . .

وذلك لأننى توخيت فيما كتبت إبراز ما اشتمل عليه القرآن الكريم من هدايات جامعة، وأحكام سامية، وتشريعات جليلة، وآداب فاضلة، وعظات بليغة، وأخبار صادقة، وتوجيهات نافعة، وأساليب بليغة، وألفاظ فصيحة. . .

والله أسأل أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا، وأنس نفوسنا، وبهجة أفئدتنا، وأن يعيننا ويوفقنا لإتمام ما بدأناه من خدمة كتابه، وأن يجعل أعمالنا وأقوالنا خالصة لوجهه، ونافعة لعباده.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه الراجى عفو ربه

محمد سيد طنطاوى

مفتى الديار المصرية

---

(١) عرض الشيء: أظهره وأبرزه. المعجم الوسيط حـ ٢ ص ٥٩٣.

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾

مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

سورة الفاتحة هى السورة الوحيدة التى أمر الإسلام أتباعه أن يقرأوها فى كل صلاة. وفى جميع الركعات، وفى كل الأوقات، ولهذا أصبح حفظها ميسورًا لكل مؤمن.

وهذه السورة على صغر حجمها، وقلة آياتها، قد اشتملت بوجه إجمالى على مقاصد الدين من توحيد، وتعبد، وأحكام، ووعد ووعيد.

ونرى من الخير قبل أن نبدأ فى تفسيرها بالتفصيل، أن نمهد لذلك بالكلام عما يأتى:

أولا : متى نزلت سورة الفاتحة؟

للإجابة على هذا السؤال نقول : إن الرأى الراجح بين المحققين من العلماء أنها نزلت بمكة، بل هى من أوائل ما نزل من القرآن بمكة.

وقيل : إنها مدنية. وقيل : إنها نزلت مرتين مرة بمكة حين فرضت الصلاة ومرة بالمدينة حين حولت القبلة.

قال القرطبى : الأول أصح لقوله - تعالى - فى سورة الحجر : ﴿ولقد آتيناك سبعًا من المثانى والقرآن العظيم﴾ وسورة الحجر مكية بالإجماع. ولا خلاف فى أن فرض الصلاة كان بمكة، وما حفظ أنه كان فى الإسلام قط صلاة بغير ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ «يدل على ذلك قوله

ﷺ : «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب». وهذا خبر عن الحكم لا عن الابتداء»[1].

ثانيًا: عدد آياتها: وهى سبع آيات لقوله - تعالى - : ﴿ولقد آتيناك سبعًا من المثانى والقرآن العظيم﴾. قال العلماء: السبع المثانى هى الفاتحة.

وقال ابن كثير: هى سبع آيات بلا خلاف. وقال عمرو بن عبيد: هى ثمانى آيات لأنه جعل ﴿إياك نعبد﴾ آية. وقال حسين الجعفى: هى ست آيات وهذان القولان شاذان»[2].

ثالثًا: اسماؤها: لسورة الفاتحة أسماء كثيرة من أشهرها:

١ - «الفاتحة أو فاتحة الكتاب، وسميت بذلك لأنه تفتتح قراءة القرآن بها لفظًا. وتفتتح بها الكتابة فى المصحف خطا، وتفتتح بها الصلوات، وإن لم تكن هى أول ما نزل من القرآن. وقد اشتهرت بهذا الاسم فى أيام النبوة.

وقد أصبح هذا الاسم علمًا بالغلبة لتلك الطائفة من الآيات التى مبدؤها ﴿الحمد لله﴾.. ونهايتها.. ﴿ولا الضالين﴾.

٢ - «أم القرآن أو الكتاب» وسميت بذلك لاشتمالها إجمالا على المقاصد التى ذكرت فيه تفصيلا، أو لاشتمالها على ما فيه من الثناء على الله بما هو أهله، والتعبد بأمره ونهيه، وبيان وعده ووعيده، أو على جملة معانيه من الحكم النظرية، والأحكام العملية التى هى سلوك الصراط المستقيم، والاطلاع على معارج السعداء ومنازل الأشقياء.

قال ابن جرير: «والعرب تسمى كل أمر جامع أمّا، وكل مقدم له توابع تتبعه «أما» فتقول للجلدة التى تجمع الدماغ: «أم الرأس». وتسمى لواء الجيش ورايتهم التى يجتمعون تحتها «أما»[3].

٣ - «السبع المثانى» جمع مثنى كفعلى اسم مكان. أو مثنى - بالتشديد - من التثنية على غير قياس. وسميت بذلك لأنها سبع آيات فى الصلاة، أى تكرر فيها؛ أخرج الإمام أحمد، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه قال: «هى أم القرآن، وهى السبع المثانى، وهى القرآن العظيم»[4].

٤ - وتسمى - أيضًا - سورة «الحمد». ٥ - و«الكنز». ٦ - و«الواقية».

---

(١) تفسير القرطبى. جـ١ ص ١١٥ طبعه دار الكاتب العربى.

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٨ طبعه عيسى الحلبى.

(٣) تفسير ابن جرير جـ١ ص ١٠٧ طبعة دار المعارف.

(٤) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٩.

٧ - و « الشفاء »، لحديث. هي الشفاء من كل داء.

٨ - و « الكافية » لأنها تكفي عن سواها ولا يكفي سواها عنها.

٩ - و « الأساس ». ١٠ - و « الرقية ».

هذا، وقد ذكر القرطبي للفاتحة اثنى عشر اسمًا، كما ذكر السيوطي لها في كتابه « الإتقان » خمسة وعشرين اسمًا.

رابعًا: فضلها: ورد في فضل سورة الفاتحة أحاديث كثيرة منها:

ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي سعيد بن المعلى - رضي الله عنه - قال:

كنت أصلي في المسجد، فدعاني النبي ﷺ فلم أجبه فقلت: يا رسول الله، إني كنت أصلي. فقال: ألم يقل الله: ﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم﴾.

ثم قال لي: « لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد ». ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج، قلت: يا رسول الله. ألم تقل: لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن. قال: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته »[1].

وروى مسلم والنسائي، عن ابن عباس، قال:

بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضا من فوقه - أي: صوتا - فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم. فسلم وقال: أبشر بنورين قد أوتيتهما، ولم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لم تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته »[2].

وروى مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال:

« من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خِدَاج (ثلاثًا): غير تمام » فقيل لأبي هريرة: إنا نكون وراء الإمام؟ فقال: إقرأ بها في نفسك؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله - تعالى -: « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل »، فإذا قال العبد: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾. قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿الرحمن الرحيم﴾. قال الله تعالى: أثنى علي عبدي. وإذا قال: ﴿مالك يوم الدين﴾ قال الله: مجدني عبدي. فإذا قال: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾. قال الله: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل. فإذا قال:

---

(١) صحيح البخاري. كتاب التفسير. باب ما جاء في فاتحة الكتاب جـ ٦ ص ٢١

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها جـ ٢ ص ١٩٨.

﴿اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾.
قال الله : «هذا لعبدى ولعبدى ما سأل»(١).

وأخرج الإمام أحمد فى مسنده، عن عبد الله بن جابر، أن رسول الله - ﷺ - قال له : ألا أخبرك بأخير سورة فى القرآن؟ قلت : بلى يا رسول الله. قال : اقرأ : ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ حتى تختمها(٢).

تلك هى بعض الأحاديث التى وردت فى فضل هذه السورة الكريمة.

وقد ذكر العلماء أنه يسن للمسلم قبل القراءة أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، استجابة لقوله - تعالى - ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾(٣).

ومعنى «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» : ألتجىء إلى الله وأتحصن به، واستجير بجنابه من الشيطان الرجيم أن يضرنى فى دينى أو دنياى.

قال ابن كثير : «والشيطان فى لغة العرب كل متمرد من الجن والإنس والدواب وكل شىء. وهو مشتق من شطن إذا بعد، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، وبعيد بفسقة عن كل خير. وقيل : مشتق من شاط لأنه مخلوق من نار. والأول أصح إذ عليه يدل كلام العرب، فهم : يقولون تشيطن فلان إذا فعل أفعال الشيطان، ولو كان من شاط. لقالوا : تشيط، فالشيطان مشتق من البعد على الصحيح»(٤)

والرجيم : فعيل بمعنى مفعول أى أنه مرجوم مطرود من رحمة الله ومن كل خير، وقيل : رجيم بمعنى راجم لأنه يرجم الناس بالوساوس والشكوك.

قال بعض العلماء : «وإنما خصت القراءة بطلب الاستعاذة مع أنه قد أمر بها على وجه العموم فى جميع الشئون، لأن القرآن مصدر الهداية والشيطان مصدر الضلال، فهو يقف للإنسان بالمرصاد فى هذا الشأن على وجه خاص، فيثير أمامه ألوانًا من الشكوك فيما يقرأ، وفيما يفيد من قراءته، وفيما يقصد بها، فيفوت عليه الانتفاع بهدى الله وآياته، فعلمنا الله أن نتقى ذلك كله بهذه الاستعاذة التى هى فى الواقع عنوان صدق، وتعبير حق، عن امتلاء قلب المؤمن بمعنى اللجوء إلى الله، وقوة عزيمته فى طرد الوساوس والشكوك، واستقبال الهداية بقلب طاهر،

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الصلاة جـ ٢ ص ٩.
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٠.
(٣) سورة النحل الآية ٩٨.
(٤) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٤.

وعقل واع، وإيمان ثابت»[١].

قال القرطبي : وقد أجمع العلماء على أن التعوذ ليس من القرآن ولا آية منه، وهو قول القارئ : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم[٢].

والآن وبعد هذا التمهيد الموجز الذى تكلمنا فيه عن نزول سورة الفاتحة، وعن عدد آياتها، وعن أشهر أسمائها، وعن بعض الأحاديث التى وردت فى فضلها نحب أن نبدأ فى تفسير السورة الكريمة فنقول - وبالله التوفيق - :

«بسم الله الرحمن الرحيم»

الاسم : اللفظ الذى يدل على ذات أو معنى. وقد اختلف النحويون فى اشتقاقه على وجهين، فقال البصريون : هو مشتق من السمو، وهو العلو والرفعة، فقيل : اسم، لأن صاحبه بمنزلة المرتفع به.

وقال الكوفيون : إنه مشتق من السمة وهى العلامة، لأن الاسم علامة لمن وضع له، فأصل اسم على هذا «وسم».

ويرى المحققون أن رأى البصريين أرجح، لأنه يقال فى تصغير «اسم» سُمَىّ، وفى جمعه أسماء، والتصغير والجمع يردان الأشياء إلى أصولها. ولو كان أصله وسم - كما قال الكوفيون - لقيل فى جمعه : أوسام، وفى تصغيره وسيم.

ولفظ الجلالة وهو «الله» علم على ذات الخالق - عز وجل - تفرد به - سبحانه - ولا يطلق على غيره، ولا يشاركه فيه أحد.

قال القرطبى : قوله «الله» هذا الاسم أكبر أسمائه - سبحانه - وأجمعها حتى قال بعض العلماء : إنه اسم الله الأعظم ولم يتسم به غيره، ولذلك لم يثن ولم يجمع : فالله اسم للموجود الحق الجامع لصفات الإلهية، المنعوت بنعوت الربوبيه، المنفرد بالوجود الحقيقى، لا إله إلا هو - سبحانه -[٣]

و ﴿الرحمن الرحيم﴾ صفتان مشتقتان من الرحمة. والرحمة فى أصل اللغة : رقة فى القلب تقتضى الإحسان، وهذا المعنى لا يليق أن يكون وصفًا لله - تعالى -، ولذا فسرها بعض العلماء بإرادة الإحسان. وفسرها آخرون بالإحسان نفسه.

---

(١) تفسير القرآن الكريم ص ١٦ لفضيلة الإمام الأكبر المرحوم محمود شلتوت.
(٢) تفسير القرطبى جـ ١ ص ٨٦.
(٣) تفسير القرطبى جـ ١ ص ١٠٢.

والموافق لمذهب السلف أن يقال : هى صفة قائمة بذاته - تعالى - لا نعرف حقيقتها، وإنما نعرف أثرها الذى هو الإحسان.

وقد كثرت أقوال المفسرين فى العلاقة بين هاتين الصفتين، فبعضهم يرى أن ﴿الرحمن﴾ هو المنعم على جميع الخلق. وأن ﴿الرحيم﴾ هو المنعم على المؤمنين خاصه. ويرى آخرون أن ﴿الرحمن﴾ هو المنعم بجلائل النعم، وأن ﴿الرحيم﴾ هو المنعم بدقائقها.

ويرى فريق ثالث أن الوصفين بمعنى واحد وأن الثانى منهما تأكيد للأول. والذى يراه المحققون من العلماء أن الصفتين ليستا بمعنى واحد، بل روعى فى كل منهما معنى لم يراع فى الآخر، فالرحمن بمعنى عظيم الرحمة، لأن فعلان صيغة مبالغة فى كثرة الشيء وعظمته، ويلزم منه الدوام كغضبان وسكران. والرحيم بمعنى دائم الرحمة، لأن صيغته فعيل تستعمل فى الصفات الدائمة ككريم وظريف. فكأنه قيل : العظيم الرحمة الدائمة[١].

أو أن ﴿الرحمن﴾ صفة ذاتية هى مبدأ الرحمة والإحسان. ﴿والرحيم﴾ صفة فعل تدل على وصول الرحمة والإحسان وتعديها إلى المنعم عليه.

ولعل مما يؤيد ذلك أن لفظ الرحمن لم يذكر فى القرآن إلا مجرى عليه الصفات كما هو الشأن فى أسماء الذات. قال - تعالى - : ﴿الرحمن علم القرآن﴾ و ﴿الرحمن على العرش استوى﴾، ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾، وهكذا...

أما لفظ الرحيم فقد كثر فى القرآن استعماله وصفًا فعليًا، وجاء فى الغالب بأسلوب التعدية والتعلق بالمنعم عليه. قال - تعالى - ﴿إن الله بالناس لرءوف رحيم﴾ - ﴿وكان بالمؤمنين رحيمًا﴾، ﴿أنه كان بكم رحيمًا﴾ إلخ.

قال بعض العلماء «وهذا الرأى فى نظرنا هو أقوى الآراء، فإن تخصيص أحد الوصفين بدقائق النعم أو ببعض المنعم عليهم لا دليل عليه، كما أنه ليس مستساغًا أن يقال فى القرآن : إن كلمة ذكرت بعد أخرى لمجرد تأكيد المعنى المستفاد منها»[٢].

والجار والمجرور «بسم» متعلق بمحذوف تقديره ابتدئ.

والمعنى: ابتدئ قراءتى متبركًا ومتيمنًا باسم الله الذى هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، والذى رحمته وسعت كل شيء، وأتبرأ مما كان يفعله المشركون والضالون، من ابتدائهم قراءتهم وأفعالهم باسم اللات أو باسم العزى أو باسم غيرهما من الآلهة الباطلة.

---

(١) تفسير سورة الفاتحة لفضيلة المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين. مجلة لواء الإسلام العدد الأول من السنة الأولى ص ٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم ص ٢٤ لفضيلة المرحوم الشيخ محمود شلتوت.

هذا وقد أجمع العلماء على أن البسملة جزء آية من سورة النمل فى قوله – تعالى – ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾.

ثم اختلفوا بعد ذلك فى كونها آية مستقلة أنزلت للفصل بين السور مرة واحدة، أو هى آية من سورة الفاتحة ومن كل سورة ألخ.

فبعضهم يرى أن البسملة آية من الفاتحة ومن كل سورة، ومن حججهم أن السلف قد أثبتوها فى المصحف مع الأمر بتجريد القرآن مما ليس منه، ولذا لم يكتبوا «آمين». فثبت بهذا أن البسملة جزء من الفاتحة ومن كل سورة.

وبهذا الرأى قال ابن عباس وابن عمر وأبو هريرة وسعيد بن جبير والشافعى، وأحمد فى أحد قوليه.

ويرى آخرون أن البسملة ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور، وقالوا: إنها آية فذة[1]. من القرآن أنزلت للفصل والتبرك للابتداء بها، ومن حججهم أنها لو كانت آية من الفاتحة ومن كل سورة، لما اختلف الناس فى ذلك، ولما اضطربت أقوالهم فى كونها آية من كل سورة أو من الفاتحه فقط.

وكما وقع الخلاف بين العلماء فى كونها آية مستقلة أو آية من كل سورة، فقد وقع الخلاف بينهم – أيضًا – فى وجوب قراءتها فى الصلاة، وفى الجهر بها أو الإسرار إذا قرئت.

وتحقيق القول فى ذلك مرجعه إلى كتب الفقه، وإلى كتب التفسير التى عنيت بتفسير آيات الأحكام.

﴿الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم﴾

﴿الحمد﴾ هو الثناء باللسان على الجميل الصادر عن اختيار من نعمة أو غيرها.

﴿رب العالمين﴾ أى: مالكهم، إذ الرب مصدر «ربه يربه» إذا تعاهده بالتربية حتى يبلغ به شيئًا فشيئا درجة الكمال. وهو اسم من أسماء الله – تعالى – ولا يطلق على غيره إلا مقيدًا فيقال: رب الدار، ورب الضيعة أى: صاحبها ومالكها.

والعالمين: جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله – تعالى –

قال القرطبى: «وهو مأخوذ من العلم والعلامة لأنه يدل على موجده» وقيل: المراد بالعالمين أولو العلم من الإنس والجن والملائكة.

---

(١) فذة: مفردة مستقلة.

وقد افتتحت سورة الفاتحة بهذه الجملة الكريمة ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ لأنه سبحانه أول كل شيء وآخر كل شيء، ولكى يعلمنا - سبحانه - أن نبدأ كتبنا وخطبنا بالحمد والثناء عليه، حتى نبدأ ونحن فى صلة بالله تكشف عن النفوس أغشيتها، وتجلو عن القلوب أصداءها.

والمعنى - كما قال ابن جرير - «الشكر خالصًا لله - جل ثناؤه - دون سائر ما يعبد من دونه، ودون كل ما برأ من خلقه بما أنعم على عباده من النعم التى لا يحصيها العدد. ولا يحيط بعددها غيره أحد، فى تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم فى دنياهم من الرزق، وغذاهم به من نعيم العيش، عن غير استحقاق لهم عليه، ومع ما نبههم عليه ودعاهم إليه، من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود فى دار المقام فى النعيم المقيم. لربنا الحمد على ذلك كله أولا وآخرًا[1].

فالآية الكريمة قد قررت بصراحة ووضوح ثبوت الثناء المطلق الذى لا يحد لله - تعالى - وانه ليس لأحد أن ينازعه إياه - سبحانه - هو رب العالمين.

وجملة ﴿الحمد لله﴾ مفيدة لقصر الحمد عليه - سبحانه - نحو قولهم: «الكرم فى العرب». كما أن أل فى «الحمد» للاستغراق. أى: أن جميع أجناس الحمد ثابتة لله رب العالمين.

وإنما كان الحمد مقصورًا فى الحقيقة على الله، لأن كل ما يستحق أن يقابل بالثناء فهو صادر عنه ومرجعه إليه، إذ هو الخالق لكل شيء، وما يقدم إلى بعض الناس من حمد جزاء إحسانهم، فهو فى الحقيقة حمد لله، لأنه - سبحانه - هو الذى وفقهم لذلك وأعانهم عليه.

ولم تفتتح السورة بصيغة الأمر بأن يقال: احمدوا الله، وإنما افتتحت بصيغة الخبر ﴿الحمد لله﴾، لأن الأمر يقتضى التكليف: والتكليف قد تنفر منه النفوس أحيانًا، فأراد - سبحانه - وهو يبادئهم بشرعة جديدة وتكاليف لم يعهدوها، أن يؤنس نفوسهم، ويؤلف قلوبهم، فساق لهم الخطاب بصيغة الخبر، ترفقا بهم، حتى يديموا الإصغاء لما سيلقيه عليهم من تكاليف.

وقد تكلم بعض المفسرين عن الحكمة فى ابتداء السورة الكريمة بقوله - تعالى - ﴿الحمد لله﴾، دون قوله - تعالى -: المدح لله، أو: الشكر لله. فقال:

اعلم أن المدح أعم من الحمد، والحمد أعم من الشكر. أما بيان أن المدح أعم من الحمد فلأن المدح يحصل للعاقل وغير العاقل، ألا ترى أنه كما يحسن مدح الرجل العاقل على أنواع فضائله، فكذلك قد يمدح اللؤلؤ لحسن شكله. أما الحمد فإنه لا يحصل إلا للفاعل المختار على ما يصدر منه من الإنعام والإحسان، فثبت أن المدح أعم من الحمد.

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص ١٣٥ طبعة دار المعارف.

وأما بيان أن الحمد أعم من الشكر، فلأن الحمد عبارة عن تعظيم الفاعل لأجل ما صدر عنه من الإنعام. سواء أكان ذلك الإنعام واصلا إليك أم إلى غيرك. وأما الشكر فهو عبارة عن تعظيمه لأجل إنعام وصل إليك، فثبت بما ذكرنا أن المدح أعم من الحمد، وأن الحمد أعم من الشكر.

إذا عرفت هذا فنقول: إنما لم يقل: المدح لله، لأننا بينا أن المدح كما يحصل للفاعل المختار فقد يحصل لغيره. وأما الحمد فإنه لا يحصل إلا للفاعل المختار. فكان قوله «الحمد لله» تصريحًا بأن المؤثر فى وجود هذا العالم فاعل مختار خلقه بالقدرة والمشيئة... وإنما لم يقل: الشكر لله، لأننا بينا أن الشكر عبارة عن تعظيمه بسبب إنعام صدر منه ووصل إليك، وهذا يشعر بأن العبد إذا ذكر تعظيمه بسبب ما وصل إليه من النعمة. فحينئذ يكون المطلوب الأصلى له وصول النعمة إليه. وهذه درجة حقيرة. فأما إذا قال «الحمد لله»، فهذا يدل على أن العبد حمده لأجل كونه مستحقا للحمد لا لخصوص أنه - سبحانه - أوصل النعمة إليه، فيكون الإخلاص أكمل، واستغراق القلب فى مشاهدة نور الحق أتم، وانقطاعه عما سوى الحق أقوى وأثبت[1].

وقد أجرى - سبحانه - على لفظ الجلالة نعت الربوبيه للعالمين، ليكون كالاستدلال على استحقاقه - تعالى - للحمد وحده، وفى ذلك إشعار لعباده بأنهم مكرمون من ربهم، إذ الأمر بغير توجيه فيه إيماء إلى إهمال عقولهم، أما إذا كان موجهًا ومعللا فإنه يكون فيه إشعار لهم برعاية ناحية العقل فيهم، وفى تلك الرعاية تشريف وتكريم لهم.

فكأنه - سبحانه - يقول لهم: اجعلوا حمدكم وثناءكم لى وحدى. لأنى أنا رب العالمين. وأنا الذى تعهدتكم برعايتى وعنايتى وتربيتى منذ تكوينكم من الطين حتى استويتم عقلاء مفكرين.

وقد أتبع - سبحانه - هذا الوصف وهو ﴿رب العالمين﴾، بوصف آخر هو ﴿الرحمن الرحيم﴾ لحكم سامية من أبرزها: أن وصفه - تعالى - ﴿برب العالمين﴾ أى: مالكهم، قد يثير فى النفوس شيئًا من الخوف أو الرهبة، فإن المربى قد يكون خشنًا جبارًا متعنتًا، وذلك مما يخدش من جميل التربية، وينقص من فضل التعهد.

لذا قرن - سبحانه - كونه مربيًا، بكونه الرحمن الرحيم، لينفى بذلك هذا الاحتمال، وليفهم عباده بأن ربوبيته لهم مصدرها عموم رحمته وشمول إحسانه، فهم برحمته يوجدون، وبرحمته يتصرفون ويرزقون، وبرحمته يبعثون ويسألون.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٣ طبعة المطبعة الشرقية سنة ١٣٣٤ هـ.

ولا شك أن فى هذا الإفهام تحريضًا لهم على حمده وعبادته بقلوب مطمئنة، ونفوس مبتهجة، ودعوة لهم إلى أن يقيموا حياتهم على الرحمة والإحسان، لا على الجبروت والطغيان. فالراحمون يرحمهم الرحمن.

﴿مالك يوم الدين﴾

بعد أن بين - سبحانه - لعباده موجبات حمده، وأنه الجدير وحده بالحمد، لأنه المربى الرحيم، والمنعم الكريم، أتبع ذلك ببيان أنه - سبحانه - ﴿مالك يوم الدين﴾.

والمالك وصف من الملك - بكسر الميم - بمعنى حيازة الشىء مع القدرة على التصرف فيه. واليوم فى العرف: ما يكون من طلوع الشمس إلى غروبها، وليس هذا مرادًا هنا، وإنما المراد مطلق الزمن وهو يوم القيامة.

والدين: الجزاء والحساب، يقال: دنته بما صنع، أى: جازيته على صنيعه، ومنه قولهم. كما تدين تدان. أى: كما تفعل تجازى، وفى الحديث (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت) أى: حاسب نفسه: والمعنى: أنه - تعالى - يتصرف فى أمور يوم الدين من حساب وثواب وعقاب، تصرف المالك فيما يملك، كما قال - تعالى - ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا والأمر يومئذ لله﴾.

وهناك قراءة أخرى للآية وهى ﴿ملك يوم الدين﴾ من الملك - بضم الميم - وعليها يكون المعنى: أنه - تعالى - هو المدبر لأمور يوم الدين، وأن له على ذلك اليوم هيمنة الملوك وسيطرتهم، فكل شىء فى ذلك اليوم يجرى بأمره، وكل تصرف فيه ينفذ باسمه، كما قال - تعالى - ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾.

قال الإمام ابن كثير: «وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه، لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمين، وذلك عام فى الدنيا والآخرة. وإنما أضيف إلى يوم الدين، لأنه لا يدعى أحد هنالك شيئًا، ولا يتكلم أحد إلا بإذنه، كما قال - تعالى - ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفا. لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابًا﴾.

والملك فى الحقيقة هو الله، قال - تعالى - ﴿هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام﴾ وفى الصحيحين عن أبى هريرة، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «يقبض الله الأرض، ويطوى السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون، أين المتكبرون» ثم قال: وأما تسمية غيره فى الدنيا بملك فعلى سبيل المجاز كما قال - تعالى - ﴿إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا﴾[1].

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٥.

وفى هذه الأوصاف التى أجريت على الله تعالى، من كونه ربا للعالمين وملكا للأمر كله يوم الجزاء، بعد الدلالة على اختصاص الحمد به فى قوله: ﴿الحمد لله﴾ فى كل ذلك دليل على أنَّ من كانت هذه صفاته لم يكن أحد أحق منه للحمد والثناء عليه، بل لا يستحق ذلك على الحقيقة سواه، فإن ترتب الحكم على الوصف مشعر بعليته له»[1].

والمتدبر لهذه الآية الكريمة يراها خير وسيلة لتربية الإنسان وغرس الإيمان العميق فى قلبه، لأنه إذا آمن بأن هناك يوما يظهر فيه إحسان المحسن وإساءة المسيء، وأن زمام الحكم فى ذلك اليوم لله الواحد القهار، فإنه فى هذه الحالة سيقوى عنده خلق المراقبة لخالقه، ويجتهد فى السير على الطريق المستقيم

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِياكَ نَسْتَعِينُ﴾

كانت الآيات الثلاث التى تقدمت هذه الآية تقريرًا للحقيقة فى جانب الربوبية وعظمتها وعموم سلطانها وسعة رحمتها تقريرا جمع أمور الدنيا والآخرة ثم جاءت هذه الآية لتقرر أن الذى يجدر بنا أن نعبده وأن نستعين به إنما هو الله الذى تجلت أوصافه، ووضحت عظمته، وثبتت هيمنته على هذا الكون

ولفظ «إيا» ضمير منفصل، و«الكاف» الملحقة به للخطاب.

والعبارة تفيد أن الطاعة البالغة حد النهاية فى الخضوع والخشوع والتعظيم، والعبادة الصحيحة تتأتى للمسلم بتحقق أمرين: إخلاصها لله، وموافقتها لما جاء به النبى ﷺ.

قال ابن جرير: «لأن العبودية عند جميع العرب أصلها الذلة، وأنها تسمى الطريق المذلل الذى وطئته الأقدام وذللته السابلة معبدًا»[2].

والاستعانة: طلب المعونة، من أجل الاقتدار على الشيء والتمكن من فعله.

والمعنى: لك ياربنا وحدك نخشع ونذل ونستكين، فقد توليتنا برعايتك وغمرتنا برحمتك، فنحن نخصك بطلب الإعانة على طاعتك وعلى أمورنا كلها، ولا نتوجه بهذا الطلب إلى أحد سواك، فأنت المستحق للعبادة، وأنت القدير على كل شيء، والعليم ببواطن الأمور وظواهرها، لا تخفى عليك طوية، ولا تتوارى عنك نية.

وقدم - سبحانه - المعبود على العبادة فقال: ﴿إياك نعبد﴾، لإفادة قصر العبادة عليه، وهو ما يقتضيه التوحيد الخالص.

---

(١) «فتح البيان جـ١ ص ٢٩. الشيخ صديق حسن خان.

(٢) تفسير ابن جرير جـ١ ص ١٩١.

وقال : ﴿نعبد﴾ بنون الجماعة ولم يقل أعبد، ليدل على أن العبادة أحسن ما تكون فى جماعة المؤمنين، وللإشعار بأن المؤمنين المخلصين يكونون فى اتحادهم وإخائهم بحيث يقوم كل واحد منهم فى الحديث عن شئونهم الظاهرة وغير الظاهرة مقام جميعهم، فهم كما قال النبى ﷺ : «المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم».

وقدمت العبادة على الاستعانة، لكون الأولى وسيلة إلى الثانية. وتقديم الوسائل سبب فى تحصيل المطالب، وليدل على أنهم لا يستقلون بإقامة العبادات، بل إن عون الله هو الذى ييسر لهم أداءها.

ولم يذكر المستعان عليه من الأعمال، ليشمل الطلب كل ما تتجه إليه نفس الإنسان من الأعمال الصالحة.

وجاءت الآية الكريمة بأسلوب الخطاب على طريقة الالتفات، تلوينا لنظم الكلام من أسلوب إلى أسلوب. وقد وضح هذا المعنى صاحب الكشاف فقال : «فإن قلت : لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟ قلت : هذا يسمى الالتفات فى علم البيان. وهو قد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم... وذلك على عادة العرب فى افتنانهم فى الكلام وتصرفهم فيه. لأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظًا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد : وقد تختص مواضعه بفوائد. ومما اختص به هذا الموضع : أنه لما ذكر الحقيق بالحمد، وأجرى عليه تلك الصفات العظام، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن، حقيق بالثناء وغاية للخضوع والاستعانة فى المهمات، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات فقيل : إياك يا من هذه صفاته نخصك بالعبادة والاستعانة، ولا نعبد غيرك ولا نستعينه...»[1].

هذا، وقد جاءت فى فضل هذه الآية الكريمة آثار متعددة، ومن ذلك قول بعض العلماء : الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ فالأول تبرؤ من الشرك، والثانى تبرؤ من الحول والقوة والتفويض إلى الله»[2].

ثم بين - سبحانه - أن أفضل شىء يطلبه العبد من ربه، إنما هو هدايته إلى الطريق الذى يوصل إلى أسمى الغايات، وأعظم المقاصد، فقال - تعالى - :

﴿اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم. غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾،

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ١٣ طبعة بيروت.
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٥ طبعة الحلبى.

والهداية : هى الإرشاد والدلالة بلطف على ما يوصل إلى البغية، وتسند الهداية إلى الله وإلى النبى وإلى القرآن، وقد يراد منها الإيصال إلى ما فيه خير، وهى بهذا المعنى لا تضاف إلى الله - تعالى -.

قال أبو حيان فى البحر ما ملخصه : وقد تأتى بمعنى التبيين كما فى قوله - تعالى - ﴿وأما ثمود فهديناهم﴾ أى بينا لهم طريق الخير. أو بمعنى الإلهام كما فى قوله تعالى. ﴿قال : فمن ربكما يا موسى؟ قال : ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى﴾. قال المفسرون معناه : ألهم الحيوانات كلها إلى منافعها، أو بمعنى الدعاء كما فى قوله. تعالى : ﴿ولكل قوم هاد﴾ أى : داع. والأصل فى هدى أن يصل إلى ثانى معموليه باللام كما فى قوله. تعالى. ﴿إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم﴾ أو بإلى كما فى قوله تعالى : ﴿وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم﴾ ثم يتسع فيه فيعدى إليه بنفسه ومنه : ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾[1].

والصراط : الجادة والطريق، من سَرط الشىء إذا ابتلعه، وسمى الطريق بذلك لأنه يبتلع المارين فيه، وتبدل سينه صاد على لغة قريش.

والمستقيم : المعتدل الذى لا اعوجاج فيه.

وأنعمت عليهم : النعمة لين العيش وخفضه، ونعم الله كثيرة لا تحصى

﴿غير المغضوب عليهم﴾ الغضب هيجان النفس وثورتها، عند الميل إلى الانتقام، وهو ضد الرضا. وإذا أسند إلى الله فسر بمعنى إرادة الانتقام أو بمعنى الانتقام نفسه.

والموافق لمذهب السلف أن يقال : هو صفة له - تعالى - لائقة بجلاله لا نعلم حقيقتها مجردة عن اللوازم البشرية وإنما نعرف أثرها وهو الانتقام من العصاة، وإنزال العقوبة بهم.

والمعنى : اهدنا يا ربنا إلى طريقك المستقيم، الذى يوصلنا إلى سعادة الدنيا والآخرة، ويجعلنا مع الذين أنعمت عليهم من خلقك، وجنبنا يا مولانا طريق الذين غضبت عليهم من الأمم السابقة أو الأجيال اللاحقة بسبب سوء أعمالهم وطريق الذين هاموا فى الضلالات، فانحرفوا عن القصد، وحق عليهم العذاب.

وفى هذا الدعاء أسمى ألوان الأدب، لأن هذا الدعاء قد تضرع به المؤمنون إلى خالقهم بعد أن اعترفوا له - سبحانه - قبل ذلك بأنه هو المستحق لجميع المحامد، وأنه هو رب العالمين، والمتصرف فى أحوالهم يوم الدين.

قال الإمام ابن كثير : وهذا أكمل أحوال السائل. أن يمدح مسئوله ثم يسأل حاجته وحاجة

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ ١ ص ٢٥.

إخوانه المؤمنين بقوله : ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ لأنه أنجح للحاجة، وأنجع للإجابة، ولهذا أرشدنا الله إليه لأنه الأكمل[1].

وقد تكلم المفسرون كلامًا كثيرًا عن المراد بالصراط المستقيم الذى جعل الله طلب الهداية إليه فى هذا السورة أول دعوة علمها لعباده. والذى نراه : أن أجمع الأقوال فى ذلك أن المراد بالصراط المستقيم، هو ما جاء به الإسلام من عقائد وآداب وأحكام، توصل الناس متى اتبعوها إلى سعادة الدنيا والآخرة، فإن طريق السلام هو الطريق الذى ختم الله به الرسالات السماوية، وجعل القرآن دستوره الشامل، ووكل إلى النبى ﷺ أمر تبليغه وبيانه.

وقد ورد فى الأحاديث النبوية ما يؤيد هذا القول، ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد فى مسنده، عن النواس بن سمعان، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «ضرب الله مثلا صراطا مستقيما، وعلى جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول : يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعًا ولا تعوجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئًا من تلك الأبواب قال له : ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعى من فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم».

والمراد بقوله - تعالى - ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ أى : ثبتنا عليه، واجعلنا من المداومين على السير فى سبيله، فإن العبد مفتقر إلى الله فى كل وقت لكى يثبته على الهداية، ويزيده منها، ويعينه عليها. وقد أمر سبحانه المؤمنين أن يقولوا : ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾.

وجملة ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ بدل من الصراط المستقيم.

ولم يقل : اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم مستغنيًا عن ذكر الصراط المستقيم، ليدل أن صراط هؤلاء المنعم عليهم هو الصراط المستقيم.

وقال : ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ ولم يقل صراط الأنبياء أو الصالحين، ليدل على أن الدين فى ذاته نعمة عظيمة، ويكفى للدلالة على عظمتها إسنادها إليه - تعالى - فى قوله : ﴿أنعمت عليهم﴾ لأن المراد بالإنعام هنا - على الراجح - الإنعام الدينى. فالمنعم عليهم هم من عرفوا الحق فتمسكوا به، وعرفوا الخير فعملوا به.

قال بعض العلماء : (وإنما اختار فى البيان أن يضيف الصراط إلى المنعم عليهم لمعنيين :

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٦.

أولهما : هو إبراز نفسية المحب المخلص، وأنه يكون شديد الاحتياط دقيق التحرى عن الطريق الموصل إلى ساحة الرضا فى ثقة تملأ نفسه، وتفعم قلبه، ولا يجد فى مثل هذا المقام ما يملأ نفسه ثقة إلا أن يبين الطريق، بأنه الطريق الذى وصل بالسير عليه من قبله الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون.

وثانيهما : أن من خواطر المؤمل فى نعيم ربه أن يكون تمام أنسه فى رفقة من الناس صالحين، وصحب منهم محسنين)(١).

وقوله - تعالى - ﴿غير المغضوب عليهم﴾ بدل من ﴿الذين أنعمت عليهم﴾ وأتى فى وصف الإنعام بالفعل المسند إلى الله - تعالى - فقال : ﴿أنعمت عليهم﴾ وفى وصف الغضب باسم المفعول فقال : ﴿غير المغضوب عليهم﴾ وفى ذلك تعليم لأدب جميل، وهو أن الإنسان يجمل به أن يسند أفعال الإحسان إلى الله، ويتحامى أن يسند إليه أفعال العقاب والابتلاء، وإن كان كل من الإحسان والعقاب صادرًا منه، ومن شواهد هذا قوله - تعالى - حكاية عن مؤمنى الجن ﴿وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدًا﴾(٢).

وحرف (لا) فى قوله ﴿ولا الضالين﴾ جىء به لتأكيد معنى النفى المستفاد من كلمة غير. والمراد بالمغضوب عليهم اليهود. وبالضالين النصارى. وقد ورد هذا التفسير عن النبى ﷺ فى حديث رواه الإمام أحمد فى مسنده وابن حبان فى صحيحه.

ومن المفسرين من قال بأن المراد بالمغضوب عليهم من فسدت إرادتهم حيث علموا الحق ولكنهم تركوه عنادًا وجحودا، وأن المراد بالضالين من فقدوا العلم فهم تائهون فى الضلالات دون أن يهتدوا إلى طريق قويم.

وقدم المغضوب عليهم على الضالين، لأن معنى المغضوب عليهم كالضد لمعنى المنعم عليهم، ولأن المقابلة بينهما أوضح منها بين المنعم عليهم والضالين، فكان جديرًا بأن يوضع فى مقابلته قبل الضالين.

قال العلماء : ويستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها (آمين) ومعناه اللهم استجب وليس هذا اللفظ من القرآن بدليل أنه لم يثبت فى المصاحف والدليل على استحباب التأمين ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى عن وائل بن حجر قال : سمعت النبى ﷺ قرأ ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ فقال : (آمين) مد بها صوته.

---

(١) تفسير سورة الفاتحة لفضيلة الأستاذ الشيخ حامد محيسن بمجلة الأزهر السنة ٢٢ العدد ١٣ ص ٨٨٥

(٢) تفسير سورة الفاتحة لفضيلة الإمام الأكبر المرحوم محمد الخضر حسين بمجلة لواء الإسلام العدد الأول من سنة الأولى ص ١٠

وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمن الإمام فأمنوا، فإن من وافق تأمينه تأمين الملائكه غفر الله له ما تقدم من ذنبه».

هذا، وقد أفاض العلماء فى الحديث عما اشتملت عليه سورة الفاتحة من آداب وعقائد وعبادات وأحكام، ومن ذلك قول ابن كثير.

(اشتملت هذه السورة الكريمة، وهى سبع آيات - على حمد الله وتمجيده والثناء عليه بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين، وعلى إرشاد عبيده إلى سؤاله والتضرع إليه والتبرى من حولهم وقوتهم، إلى إخلاص العبادة له وتوحيده بالألوهية، وتنزيهه عن أن يكون له شريك أو نظير، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو الدين القويم وتثبيتهم عليه، واشتملت على الترغيب فى الأعمال الصالحة ليكونوا مع أهلها يوم القيامة، والتحذير من مسالك الباطل لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة، وهم المغضوب عليهم والضالون)(١).

وقال بعض العلماء: سورة الفاتحة مشتملة على أربعة أنواع من العلوم هى مناط الدين.

أحدها: علم الأصول وإليه الإشارة بقوله ﴿الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم﴾، ومعرفة النبوات وإليه الاشارة بقوله: ﴿أنعمت عليهم﴾ ومعرفة المعاد وإليه الاشارة بقوله ﴿مالك يوم الدين﴾.

وثانيها: علم الفروع وأعظمه العبادات وإليه الإشارة بقوله ﴿إياك نعبد﴾.

وثالثها: علم الأخلاق، وإليه الإشارة بقوله ﴿وإياك نستعين. اهدنا الصراط المستقيم﴾.

ورابعها: علم القصص والأخبار عن الأمم السابقة السعداء منهم والأشقياء، وهو المراد بقوله ﴿صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٠.

سورة البقرة

سورة البقرة أطول سورة فى القرآن الكريم، فقد استغرقت جزءين ونصف جزء تقريبًا من ثلاثين جزءًا قسم إليها القرآن. وتبلغ آياتها ستًا وثمانين ومائتى آية. وقيل سبع وثمانون ومائتا آية.

وسميت بذلك لأنها انفردت بذكر قصة البقرة التى كلف قوم موسى بذبحها بعد أن قتل فيهم قتيل ولم يعرفوا قاتله.

وهى مدنية بإجماع الآراء، وقد ابتدأ نزولها بعد هجرة النبى ﷺ إلى المدينة، وقد نزل معظمها فى السنوات الأولى من الهجرة، واستمر نزولها إلى قبيل وفاة النبى ﷺ بفترة قليلة. وكانت آخر آية من القرآن نزولا منها، هى قوله - تعالى - :

﴿واتقوا يومًا ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾.

مناسبتها لسورة الفاتحة : هناك مناسبة ظاهرة بين السورتين، لأن سورة الفاتحة قد اشتملت على أحكام الألوهية والعبودية وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم اشتمالا إجماليًا، فجاءت سورة البقرة ففصلت تلك المقاصد، ووضحت ما اشتملت عليه سورة الفاتحة من هدايات وتوجيهات.

فضلها : وقد ورد فى فضل سورة البقرة أحاديث متعددة، وآثار متنوعة منها ما جاء فى مسند أحمد وصحيح مسلم والترمذى والنسائى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، فإن البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان.

وروى ابن حبان فى صحيحه عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ (إن لكل شىء سنام وإن سنام القرآن البقرة، وإن من قرأها فى بيته لم يدخله الشيطان ثلاث ليال، ومن قرأها فى بيته نهارًا لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام).

وروى الترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة قال : (بعث النبى ﷺ بعثًا، وهم ذوو عدد فاستقرأ كل واحد منهم عما معه من القرآن، فأتى على رجل من أحدثهم سنًا فقال : ما معك يا فلان؟ فقال : معى كذا وكذا وسورة البقرة. فقال : أمعك سورة البقرة؟ قال : نعم. قال. اذهب فأنت أميرهم. فقال رجل من أشرافهم : والله ما منعنى أن أتعلم سورة البقرة إلا أنى خشيت ألا أقوم بها. فقال رسول الله ﷺ اقرأوا القرآن وتعلموه، فإن مثل القرآن

لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب أوكى أى أغلق - على مسك.

قال القرطبى : وهذه السورة فضلها عظيم، وثوابها جسيم، ويقال لها فسطاط القرآن، وذلك لعظمها وبهائها وكثرة أحكامها ومواعظها[1].

مقاصدها : عندما نفتح كتاب الله فنطالع فيه سورة البقرة بتدبر وعناية، نراها فى مطلعها تنوه بشأن القرآن الكريم، وتصرح بأنه حق لا ريب فيه، وتبين لنا أن الناس أمام هدايته على ثلاثة أقسام :

قسم آمن به وانتفع بهداياته فكانت عاقبته السعادة والفلاح.

﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾.

وقسم جحد واستكبر واستحب العمى على الهدى، فأصبح لا يرجى منه خير ولا إيمان، فكانت عاقبته الحرمان والخسران.

﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾.

ثم فصلت السورة الحديث عن قسم ثالث هو شر ما تبتلى به الأمم وهم المنافقون الذين يظهرون خلاف ما يبطنون. وقد تحدثت السورة عنهم فى ثلاث عشرة آية، كشفت فيها عن خداعهم، وجبنهم، ومرض قلوبهم، وبينت ما أعده الله لهم من سوء المصير، ثم زادت فى فضيحتهم وهتك سرائرهم فضربت مثلين لحيرتهم واضطرابهم، قال - تعالى - :

﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين. يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾.

إلى أن يقول : ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير﴾.

ثم وجهت السورة نداء إلى الناس جميعًا دعتهم فيه إلى عبادة الله وحده وأقامت لهم الأدلة الساطعة على صدق هذه القضية، وتحدتهم - إن كانوا فى ريب من القرآن - أن يأتوا بسورة من مثله. وبينت لهم أنهم لن يستطيعوا ذلك لا فى الحاضر ولا فى المستقبل.

ثم ختم الربع الأول منها ببشارة الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار، جمعت لذائذ المادة والروح، وهم فيها خالدون. ثم قررت السورة الكريمة أن الله -تعالى- لايمتنع عن ضرب الأمثال بما يوضح ويبين دون نظر إلى قيمة الممثل به فى ذاته أوعند

---

(١) تفسير القرطبى جـ١ ص١٥٢.

الناس، كما قررت أن المؤمنين يقابلون هذه الأمثال بالإيمان والإذعان، أما الكافرون فيقابلونها بالاستهزاء والإنكار.

وقد وبخت السورة بعد ذلك أولئك الكافرين على كفرهم، مع وضوح الدلائل على وحدانية الله فى أنفسهم وفى الآفاق فقالت:

﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتًا فأحياكم ثم يميتكم، ثم يحييكم، ثم إليه ترجعون. هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعًا، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم﴾.

ثم ذكرت السورة بعد ذلك جانبا من قصة آدم، وقد حدثتنا فيه عن خلافة آدم فى الأرض، وعما كان من الملائكة من استفسار بشأنه - وعن سكن آدم وزوجه الجنة، ثم عن خروجهما منها بسبب أكلهما من الشجرة المحرمة.

﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة، قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال: إنى أعلم ما لا تعلمون﴾.. الخ الآيات الكريمة.

هذا، وقد عرفنا قبل ذلك أن سورة البقرة نزلت بالمدينه بعد أن هاجر المسلمون إليها، وأصبحت لهم بها دولة فتية، وكان يجاورهم فيها عدد كبير من اليهود الذين كان أحبارهم يبشرون. بمبعث النبى ﷺ. فأخذت السورة الكريمة تتحدث عنهم - فى أكثر من مائة آية - حديثًا طويلا متشعبا..

فنراها فى أواخر الربع الثانى توجه إليهم نداء محببًا إلى نفوسهم، ندعوهم فيه إلى الوفاء بعهودهم، وإلى الإيمان بنبى الله محمد ﷺ فتقول:

﴿يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم، وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون. وآمنوا بما أنزلت مصدقًا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به، ولا تشتروا بآياتى ثمنًا قليلا وإياى فاتقون﴾.

ثم تذكرهم فى الربع الثالث بنعم الله عليهم، وبموقفهم الجحودى من هذه النعم، تذكرهم بنعمة تفضيلهم على عالمى زمانهم، وبنعمة إنجائهم من عدوهم، وبنعمة فرق البحر بهم، وبنعمة عفو الله عنهم مع تكاثر ذنوبهم، وبنعمة بعثهم من بعد موتهم، وبنعمة تظليلهم بالغمام، وبنعمة إنزال المن والسلوى عليهم. الخ.

ولقد كان موقف بنى إسرائيل من هذه النعم يمثل الجحود والعناد والبطر، فكانت نتيجة ذلك أن.

﴿ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وباءوا بغضب من الله﴾.

ثم تحدثت السورة بعد ذلك حديثًا مستفيضًا عن رذائلهم وقبائحهم ودعواهم الباطلة، والعقوبات التى حلتِ بهم جزاء كفرهم وجحودهم.

فنراها فى الربع الرابع تذكر لنا تنطعهم فى الدين وإلحافهم فى المسألة عندما قال لهم نبيهم موسى: ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾. ثم تذكر قسوة قلوبهم فتقول على سبيل التوبيخ لهم:

﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء. وإن منها لما يهبط من خشية الله، وما الله بغافل عما تعملون﴾.

ونراها فى الربع الخامس تحدثنا عن تحريفهم للكلم عن مواضعه عن تعمد وإصرار، وتتوعدهم على ذلك بسوء المصير:

﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلاً، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾.

ثم تحدثنا عن قولهم الباطل: ﴿لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة﴾.

وترد عليهم بما يبطل حجتهم، وعن نقضهم لعهودهم ومواثيقهم مع الله ومع الناس ومع أنفسهم، وعن عدائهم لرسول الله، وعن جحودهم للحق بدافع الحسد والعناد فتقول:

﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين. بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيًا، أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين﴾.

ثم نراها فى الربع السادس تحكى لنا نماذج من مزاعمهم الباطلة، ومن ذلك زعمهم أن الجنة خالصة لهم من دون الناس، ثم ترد عليهم بما يخرس ألسنتهم، وبصور جبنهم وحرصهم المشين على أية حياة حتى لو كانت ملطخة بالذل والهوان.

استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى ذلك بأسلوبه البليغ فيقول:

﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم

صادقين. ولن يتمنوه أبدًا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ولتجدنهم أحرص الناس على حياة، ومن الذين أشركوا، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة، وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون﴾.

ثم تسوق لنا نماذج من سوء أدبهم مع الله، وعداوتهم لملائكته؛ ونبذهم كتاب الله، واتباعهم للسحر والأوهام.

ثم نراها في الربع السابع تقص علينا بعض الصور من المجادلات الدينية، والمخاصمات الكلامية، التي استعملوها مع النبي ﷺ لحرب الدعوة الاسلامية، كجدالهم في قضية النسخ، وفي كون الجنة لن يدخلها إلا من كان هودا أو نصارى، وفي كون القرآن ليس معجزة - في زعمهم - وإنما هم يريدون معجزة كونية.. الخ.

وقد رد القرآن عليهم بما يزهق باطلهم، ويزيد المؤمنين إيمانًا على إيمانهم.

وكما ابتدأ القرآن الحديث معهم ابتداء محببا إلى نفوسهم ﴿يا بني إسرائيل﴾، فقد اختتمه - أيضًا - بالنداء نفسه، لكي يستحثهم على الإيمان فقال:

﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين. واتقوا يومًا لا تجزي نفس عن نفس شيئًا، ولا يقبل منها عدل، ولا تنفعها شفاعة، ولا هم ينصرون﴾.

ثم أخذت السورة بعد ذلك في الربع الثامن منها تحدثنا عن الكلمات التي اختبر الله بها نبيه إبراهيم، وعن قصة بناء البيت الحرام، وعن تلك الدعوات الخاشعات التي كان إبراهيم وإسماعيل يتضرعان بها إلى خالقهما وهما يقومان بهذا العمل الجليل.

﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، وأرنا مناسكنا، وتب علينا، إنك أنت التواب الرحيم﴾.

ثم أخذت تقيم الحجج الباهرة، والأدلة الساطعة على أن إبراهيم ما كان يهوديًا ولا نصرانيًا ولكن كان حنيفًا مسلمًا، وعلى أن يعقوب قد وصى ذريته من بعده أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئًا.

ثم ختمت تلك المحاورات والمجادلات التي أبطلت بها دعاوى أهل الكتاب الباطلة، ببيان سنة من سنن الله في خلقه، هذه السنة تتلخص في بيان أن كل إنسان سيجازى بحسب عمله يوم القيامة، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، وأن اتكال اليهود - أو غيرهم - على أنهم من نسل الأنبياء أو الصالحين دون أن يعملوا بعملهم لن ينفعهم شيئًا. فقال - تعالى -:

﴿تلك أمة قد خلت، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم، ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾.

ثم عادت السورة فى الربع التاسع منها إلى الحديث عن الشبهات التى أثارها اليهود عند تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، وقد رد القرآن عليهم بما يدحض هذه الشبهات، ويهوى باليهود ومن حذا حذوهم فى مكان سحيق، قال - تعالى - :

﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها، قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ إلى أن يقول : ﴿ومن حيث خرّجت فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره، لئلا يكون للناس عليكم حجة، إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشونى، ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون﴾.

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد فصلت الحديث عن بنى إسرائيل تفصيلا يحمل المسلمين على العظة والاعتبار، ويعرفهم طبيعة أولئك القوم الذين خسروا أنفسهم حتى يأخذوا حذرهم منهم، وينفروا من التشبه بهم.

أما المقدار الباقى من السورة الكريمة - وهو أكثر من نصفها بقليل - فعندما نراجعه بتفكر وتدبر، نراه زاخرًا بالتشريعات الحكيمة، والآداب العالية، والتوجيهات السامية.

نرى السورة الكريمة فى هذا المقدار منها تحدثنا فى الربع العاشر منها عن بعض شعائر الله التى تتعلق بالحج، وعن الأدلة على وحدانية الله.

﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم. إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾.

ثم بعد أن تصور لنا بأسلوب بليغ مؤثر حسرة المشركين يوم القيامة وهم يتبادلون التهم، ويتبرأ بعضهم من بعض، بعد كل ذلك توجه نداء عامًا إلى الناس، تأمرهم فيه أن يقيدوا أنفسهم بما أحل الله.. وأن يبتعدوا عن محارمه فتقول :

﴿يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبًا ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين. إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾.

فإذا ما وصلنا إلى الربع الحادى عشر منها، رأيناها تسوق لنا فى مطلعه آية جامعة لألوان البر، وأمهات المسائل الاعتقادية والعملية وهى قوله - تعالى - :

﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين﴾. إلخ.

ثم أتبعت ذلك بالحديث عن القصاص، وعن الوصية، وعن الصيام وحكمته، وعن الدعاء وآدابه، ونهت المسلمين فى ختامها عن مقارفة الحرام فى شتى صوره وألوانه فقالت :

﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام، لتأكلوا فريقًا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾.

وفى مطلع الربع الثانى عشر حكت بعض الأسئلة التى كان المسلمون يوجهونها إلى النبى ﷺ، وأجابت عنها بطريقة حكيمة تدعوهم إلى التدبر والاتعاظ، ثم حضت المسلمين على الجهاد فى سبيل الله، ونهتهم عن البغى والاعتداء. استمع إلى القرآن وهو يحرض المؤمنين على القتال ويرسم لهم حدوده وآدابه فيقول :

﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين. واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم، والفتنة أشد من القتل، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه، فإن قاتلوكم فاقتلوهم. كذلك جزاء الكافرين. فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم. وقاتلوهم حتى لا تكون فتنه ويكون الدين لله، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾.

ثم فصلت السورة الحديث عن الحج، فتحدثت عن جانب من آدابه وأحكامه، وحضت المسلمين على الإكثار من ذكر الله، وأن يتجنبوا التفاخر بالأحساب والأنساب، وأن يرددوا فى دعائهم قوله - تعالى - :

﴿ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾.

وفى الربع الثالث عشر نراها تبين لنا ألوان الناس فى هذه الحياة، وأن منهم من يسعى فى الإفساد وإهلاك الحرث والنسل، فإذا ما نصح أخذته العزة بالإثم، وتمادى فى طغيانه وإفساده، وأن منهم من يبيع نفسه عن طواعية واختيار ابتغاء مرضاة الله.

﴿ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله، والله رءوف بالعباد﴾.

ثم تبين لنا بأن الناس جميعًا كانوا أمة واحدة، وأن هذه الحياة مليئة بالمصائب والمحن والفتن، وأن العاقل هو الذى يقابل كل ذلك بإيمان عميق، وصبر جميل، حتى يفوز برضى الله يوم القيامة، ويظفر بنصره فى الحياة الدنيا.

﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله؟ ألا إن نصر الله قريب﴾.

ثم تحدثنا السورة الكريمة فى الربعين الرابع عشر والخامس عشر حديثًا جامعًا عن النكاح

وما يتعلق به من أحكام، فحدثتنا عن الإيلاء وعن الطلاق. وعن الرضاع، وعن العدة، وعن الخطبة، وعن غير ذلك مما يتعلق بهذا الشأن، ثم ختمت حديثها بهذه الآية الكريمة:

﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾.

ثم عادت السورة فى الربع السادس عشر منها إلى الحديث عن الملأ من بنى إسرائيل:

﴿الذين قالوا لنبى لهم: ابعث لنا ملكًا نقاتل فى سبيل الله﴾.

فساقت لنا قصتهم بأسلوب زاخر بالعظات والعبر، التى من أهمها أن الدين هو أساس العزة والمنعة، وأن الشدائد من شأنها أن تصهر النفوس فتجعلها تتجه إلى معالى الأمور، وأن الأمير يجب أن يكون له من قوة العقل وقوة الجسم وسعة العلم، وكمال التجربة - ما يقود به أمته إلى صالح الأمور، وأن العاقل هو الذى يسلك الوسائل السليمة لبلوغ غايته الشريفة، ثم يفوض الأمور بعد ذلك إلى الله.

وفى الربع السابع عشر منها أفاضت فى الحديث عن مظاهر قدرة الله ووحدانيته، وأقامت على ذلك من الأدلة ما يشفى الصدور، ويطمئن القلوب، ويزيد المؤمنين إيمانًا، استمع إلى آية الكرسى وهى تصور عظمة الله وقدرته فنقول

﴿الله لا إله هو الحى القوم لا تأخذه سنة ولا نوم، له ما فى السموات،وما فى الأرض، من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض، ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم﴾.

وبعد هذا الحديث عن مظاهر قدرة الله ساقت السورة فى أواخرها أنماطًا من التوجيهات التى تسعد المجتمع، وتنزع الأحقاد من قلوب الأفراد، فقد حضت المسلمين فى جملة من آياتها على الإنفاق والإحسان، وضربت لذلك أروع الأمثال ونهتهم عن المن والأذى، وصرحت بأن الكلمة الطيبة للسائل خير من العطاء الذى تتبعه الإساءة.

﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى، والله غنى حليم﴾.

ثم بعد أن عقدت مقارنه مؤثرة بين من ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله، وبين من ينفقونها رئاء الناس، بعد كل ذلك مدحت الفقراء الذين يتعففون عن السؤال، ولا يلجأون إليه إلا عند الضرورة القصوى فقالت:

﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء، وما تنفقوا من خير فلأنفسكم، وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله، وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون. للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربًا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، تعرفهم

بسيماهم لا يسألون الناس إلحافًا، وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾.

ثم حذرت السورة بعد ذلك المؤمنين من التعامل بالربا، ووصفت آكليه بصفات تنفر منها القلوب، وتعافها النفوس، ووجهت إلى المؤمنين نداء أمرتهم فيه بتقوى الله، وأنذرتهم بحرب من الله لهم إن لم يتوبوا عن التعامل بالربا فقالت:

﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين. فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون﴾.

ثم تحدثت بعد ذلك عن الديون والرهون، فصاغت للمؤمنين دستورًا هو أدق الدساتير المدنية فى حفظ الحقوق وضبطها وتوثيقها بمختلف الوسائل، ثم ختمت السورة حديثها الجامع عن العقائد والشرائع والآداب والمعاملات، بذلك الدعاء الخاشع:

﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصرًا كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا، أنت مولانا، فانصرنا على القوم الكافرين﴾.

تلك هى سورة البقرة، أرأيت وحدتها فى كثرتها؟ أعرفت اتجاه خطوطها فى لوحتها؟ أرأيت كيف التحمت لبناتها وارتفعت سماؤها بغير عمد تسندها؟ أرأيت كيف ينادى كل عضو فيها بأنه قد أخذ مكانه المقسوم وفقًا لخط جامع مرسوم، رسمه مربى النفوس ومزكيها، ومنور العقول وهاديها ومرشد الأرواح وحاديها. فتالله لو أن هذه السورة رتبت بعد تمام نزولها، لكان جمع أشتاتها على هذه الصورة معجزة، فكيف وكل نجم منها كان يوضع فى رتبته من فور نزوله، وكان يحفظ لغيره مكانه انتظارًا لحلوله. وهكذا كان ما ينزل منها معروف الرتبة، محدد الموقع قبل أن ينزل.

لعمرى لئن كانت للقرآن فى بلاغة تعبيره معجزات، وفى أساليب ترتيبه معجزات، وفى نبوءاته الصادقة معجزات، وفى تشريعاته الخالدة معجزات، وفى كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات لعمرى إنه فى ترتيب آياته على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات[1].

وبعد: فهذا عرض سريع لأهم مقاصد سورة البقرة، قدمناه بين يديها لنعطى القارئ الكريم صورة متميزة عنها. ومن هذا العرض نرى أنها بجانب احتوائها على أصول العقائد، وعلى كثير من أدلة التوحيد، قد وجهت عنايتها إلى أمرين اقتضتهما حالة المسلمين، بعد أن

---

(١) من كتاب «النبأ العظيم» ص ٢٠٨ لفضيلة الدكتور محمد عبد الله دراز.

أصبحت لهم دولة بالمدينة يجاورهم فيها عدد كبير من اليهود.

أما الأمر الأول فهو توجيه الدعوة إلى بنى إسرائيل، ومناقشتهم فيما كانوا يثيرونه حول الرسالة الإسلامية من مؤامرات. وإماطة اللثام عن تاريخهم المظلم، وأخلاقهم المرذولة حتى يحذرهم المسلمون.

وأما الأمر الثانى فهو التشريع للدولة الإسلامية الفتية، وقد رأينا أن سورة البقرة فى النصف الثانى منها قد تحدثت عن تلك الجوانب التشريعية حديثًا مفصلا منوعًا تناول أحكام القصاص، والوصية، والصيام والاعتكاف والحج، والعمرة، والقتال، والنكاح، والإنفاق فى سبيل الله. والمعاملات المالية. إلى غير ذلك من التشريعات التى سبق الحديث عنها. والآن فلنبدأ فى تفسير السورة الكريمة فنقول - وبالله التوفيق- :

تفسير سورة البقرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

سورة البقرة من السور التى ابتدئت ببعض حروف التهجى.

وقد وردت هذه الفواتح تارة مفردة بحرف واحد، وتارة مركبة من حرفين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة.

فالسور التى بدأت بحرف واحد ثلاثة وهى سور ص، ق، ن.

والسور التى بدأت بحرفين تسعة وهى : طه، يس، طس، ﴿وحم﴾ فى ست سور هى : غافر، فصلت، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف.

والسور التى بدأت بثلاثه أحرف ثلاث عشرة سورة وهى : ﴿ألم﴾ فى ست سور : البقرة، وآل عمران، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة و ﴿الر﴾ فى خمس سور هى : يونس، هود، يوسف، الحجر، إبراهيم و ﴿طسم﴾ فى سورتين هما : الشعراء، القصص.

وهناك سورتان بدئتا بأربعة أحرف وهما. الرعد، ﴿المر﴾، والأعراف، ﴿المص﴾، وسورتان – أيضًا – بدئتا بخمسة أحرف وهما : مريم ﴿كهيعص﴾، والشورى ﴿حم عسق﴾.

فيكون مجموع السور التى افتتحت بالحروف المقطعة تسعا وعشرين سورة.

هذا، وقد وقع خلاف بين العلماء فى المعنى المقصود بتلك الحروف المقطعة التى افتتحت بها بعض السور القرآنية، ويمكن إجمال خلافهم فى رأيين رئيسين :

الرأى الأول يرى أصحابه : أن المعنى المقصود منها غير معروف، فهى من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه.

وإلى هذا الرأى ذهب ابن عباس - فى إحدى رواياته - كما ذهب إليه الشعبى، وسفيان الثورى، وغيرهم من العلماء، فقد أخرج ابن المنذر وغيره عن الشعبى أنه سئل عن فواتح السور فقال : إن لكل كتاب سرًا، وإن سر هذا القرآن فى فواتح السور. ويروى عن ابن عباس أنه قال : عجزت العلماء عن إدراكها. وعن على - رضى الله عنه - أنه قال : «إن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجى». وفى رواية أخرى عن الشعبى أنه قال : «سر الله فلا تطلبوه».

ومن الاعتراضات التى وجهت إلى هذا الرأى، أنه إذا كان الخطاب بهذه الفواتح غير مفهوم للناس، لأنه من المتشابه، فإنه يترتب على ذلك أنه كالخطاب بالمهمل، أو مثله كمثل المتكلم بلغة أعجمية مع أناس عرب لا يفهمونها..

وقد أجيب عن ذلك بأن هذه الألفاظ لم ينتف الإفهام عنها عند كل الناس، فالرسول ﷺ كان يفهم المراد منها، وكذلك بعض أصحابه المقربين - ولكن الذى ننفيه أن يكون الناس جميعًا فاهمين لمعنى هذه الحروف المقطعة فى أوائل بعض السور.

وهناك مناقشات أخرى للعلماء حول هذا الرأى يضيق المجال عن ذكرها

أما الرأى الثانى فيرى أصحابه : أن المعنى المقصود منها معلوم، وأنها ليست من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه.

وأصحاب هذا الرأى قد اختلفوا فيما بينهم فى تعيين هذا المعنى المقصود على أقوال كثيرة، من أهمها ما يأتى :

١ - أن هذه الحروف أسماء للسور، بدليل قول النبى ﷺ (من قرأ حم السجدة حفظ إلى أن يصبح) وبدليل اشتهار بعض السور بالتسمية بها كسورة ﴿ص﴾ وسورة ﴿يس﴾.

ولا يخلو هذا القول من الضعف، لأن كثيرًا من السور قد افتتحت بلفظ واحد من هذه الفواتح، والغرض من التسمية رفع الاشتباه.

٢ - وقيل إن هذه الحروف قد جاءت هكذا فاصلة للدلالة على انقضاء سورة وابتداء أخرى.

٣ - وقيل : إنها حروف مقطعة، بعضها من أسماء الله - تعالى - وبعضها من صفاته، فمثلا ﴿ألم﴾ أصلها : أنا الله أعلم.

٤ - وقيل : إنها اسم الله الأعظم. إلى غير ذلك من الأقوال التى لا تخلو من مقال، والتى أوصلها السيوطى فى «الإتقان» إلى أكثر من عشرين قولا.

٥ - ولعل أقرب الآراء إلى الصواب أن يقال : إن هذه الحروف المقطعة قد وردت فى افتتاح بعض السور للإشعار بأن هذا القرآن الذى تحدى الله به المشركين هو من جنس الكلام المركب من هذه الحروف التى يعرفونها، ويقدرون على تأليف الكلام منها، فإذا عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله، فذلك لبلوغه فى الفصاحة والحكمة مرتبة يقف فصحاؤهم وبلغاؤهم دونها بمراحل شاسعة، وفضلا عن ذلك فإن تصدير السور بمثل هذه الحروف المقطعة يجذب أنظار المعرضين عن استماع القرآن حين يتلى عليهم إلى الإنصات والتدبر، لأنه يطرق أسماعهم فى أول التلاوة ألفاظ غير مألوفة فى مجارى كلامهم، وذلك مما يلفت أنظارهم ليتبينوا ما يراد منها، فيستمعوا حكما وحججًا قد تكون سببًا فى هدايتهم واستجابتهم للحق.

هذه خلاصة لأراء العلماء فى الحروف المقطعة التى افتتحت بها بعض السور القرآنية، ومن أراد مزيدًا لذلك فليرجع -مثلاً- إلى كتاب «الإتقان» للسيوطى، وإلى كتاب «البرهان» للزركشى، وإلى تفسير الالوسى.

ثم قال - تعالى - : ﴿ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين﴾.

﴿ذلك﴾ اسم إشارة واللام للبعد حقيقة فى الحس، مجازًا فى الرتبة، والكاف للخطاب، والمشار إليه - على الراجح - الكتاب الموعود به ﷺ فى قوله - تعالى - ﴿إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا﴾.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : أخبرنى عن تأليف ﴿ذلك الكتاب﴾ مع ﴿ألم﴾ قلت : إن جعلت ﴿ألم﴾ اسمًا للسورة ففى التأليف وجوه. أن يكون ﴿ألم﴾ مبتدأ و ﴿ذلك﴾ مبتدأ ثانيًا، و ﴿الكتاب﴾ خبره. والجملة خبر المبتدأ الأول.

ومعناه أن ذلك الكتاب هو الكتاب الكامل، كأن ما عداه من الكتب فى مقابلته ناقص، وأنه الذى يستأهل أن يسمى كتابًا، كما تقول : هو الرجل، أى : الكامل فى الرجولية، الجامع لما يكون فى الرجال من مرضيات الخصال.

وإن جعلت ﴿الم﴾ بمنزلة الصوت، كان «ذلك» مبتدأ خبره «الكتاب»، أى: ذلك الكتاب المنزل هو الكتاب الكامل[١]. . . اهـ ملخصًا.

وقيل: المشار إليه ﴿الم﴾ على أنه اسم للسورة والمراد المسمى.

و ﴿الكتاب﴾ مصدر كتب كالكتب، وأصل الكتب ضم أديم إلى أديم بالخياطة. واستعمل عرفا فى ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط، وأريد به هنا المنظوم عبارة قبل أن تنظم حروفه التى يتألف منها فى الخط، تسمية للشىء باسم ما يؤول إليه.

و (الريب) فى الأصل مصدر رابه الأمر إذا حصل عنده فيه ريبة، وحقيقة الريبة، قلق النفس واضطرابها، ثم استعمل فى معنى الشك مطلقًا. وقال ابن الأثير: الريب هو الشك مع التهمة.

و (هدى). مصدر هداه هدى وهداية وهدية - بكسرها - فهدى، ومعناه الدلالة الموصلة إلى البغية، وضده الضلال.

و (المتقون) جمع متق، اسم فاعل من اتقى وأصله اوتقى - بوزن افتعل - من وقى الشىء وقاية، أى: صانه وحفظه مما يضره ويؤذيه.

والمعنى: ذلك الكتاب الكامل، وهو القرآن الكريم، ليس محلا لأن يرتاب عاقل أو منصف فى أنه منزل من عند الله، وأنه هداية وإرشاد للمتقين الذين يجتنبون كل مكروه من قول أو فعل، حتى يصونوا أنفسهم عما يضرها ويؤذيها.

وكانت الإشارة بصيغة البعيد، لأنه سامى المنزلة أينما توجهت إليه، فإن نظرت إليه من ناحية تراكيبه فهو معجز للبلغاء، وإن نظرت إليه من ناحية معانيه فهو فوق مدارك الحكماء، وإن نظرت إليه من ناحية قصصه وتاريخه فهو أصدق محدث عن الماضين، وأدق محدد لتاريخ السابقين، فلا جرم أن كانت الإشارة فى الآية باستعمال اسم الإشارة للبعيد لإظهار رفعة شأن هذا القرآن، وقد شاع فى كلام البلغاء تمثيل الأمر الشريف بالشىء المرفوع فى عزة المنال، لأن الشىء النفيس عزيز على أهله، فمن العادة أن يجعلوه فى مكان مرتفع بعيد عن الأيدى.

وصحت الإشارة إلى الكتاب وهو لم ينزل كله بعد، لأن الإشارة إلى بعضه كالإشارة إلى الكل حيث كان بصدد الإنزال، فهو حاضر فى الأذهان، فشبه بالحاضر فى العيان.

ونفى عنه الريب على سبيل الاستغراق مع وقوع الريب فيه من المشركين حيث وصفوه بأنه

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣٣.

أساطير الأولين، لأنه لروعة حكمته، وسطوع حجته، لا يرتاب ذو عقل متدبر فى كونه وحيًا سماويًا، ومصدر هداية وإصلاح.

فالجملة الكريمة تنفى الريب فى القرآن عمن شأنهم أن يتدبروه، ويقبلوا على النظر فيه بروية، ومن ارتاب في القرآن فلأنه لم يقبل عليه بأذن واعية، أو ببصيرة نافذة، أو قلب سليم.

وقدم جملة ﴿لا ريب فيه﴾ على جملة ﴿هدى للمتقين﴾ لأنه أراد أن ينفى عن ساحة كونه كتابًا هاديًا غبار الريب، وغيوم الشكوك، حتى يستقر فى النفوس وصفه، وتطمئن القلوب لآثاره ومقاصده وهداياته.

وفصل جملة ﴿لاريب فيه﴾ عما قبلها لكمال الاتصال، حيث كانت جملة ﴿ذلك الكتاب﴾ مفيدة لكماله، وجملة ﴿لا ريب فيه﴾ مفيدة لنفى الريب عنه.

والمراد بكونه ﴿هدى للمتقين﴾ مع أنه هداية لهم ولغيرهم، لأنهم هم المنتفعون به دون سواهم.

قال تعالى: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمي، أولئك ينادون من مكان بعيد﴾.

ومعنى كونه هدى لهم أنه يزيدهم هدى على ما لديهم من الهدى كما قال - تعالى - : ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾.

ويصح أن يكون المعنى: هدى للناس الذين صاروا متقين بهذه الهداية، كما أقول: هديت مهتديا، أو كتبت مكتوبا، على معنى أنى هديت شخصًا صار مهديًا بهذه الهداية، وكتبت خطابًا صار مكتوبًا بهذه الكتابة، وهو أسلوب عربى صحيح. كما ورد فى حديث «من قتل قتيلا فله سلبه».

قال صاحب الكشاف: ومحل ﴿هدى للمتقين﴾ الرفع، لأنه خبر مبتدأ محذوف، أو خبر مع ﴿لا ريب فيه﴾ لـ «ذلك»... والذى هو أرسخ عرقًا فى البلاغة أن يضرب عن هذه المحال صفحًا، وأن يقال: إن قوله ﴿ألم﴾ جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة برأسها.

و﴿ذلك الكتاب﴾ جملة ثانية. و﴿لا ريب فيه﴾ ثالثة. و﴿هدى للمتقين﴾ رابعة. وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة وموجب حسن النظم، حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير نسق، وذلك لمجيئها متآخية آخذًا بعضها بعنق بعض. فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها، وهلم جرًا إلى الثالثة والرابعة: بيان ذلك أنه نبه أولا على أنه الكلام المتحدى به، ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال. فكان تقريرًا لجهة التحدى، وشدا من أعضاده ثم نفى عنه أن يتشبث به من طرف الريب، فكان شهادة وتسجيلا بكماله. لأنه لا كمال أكمل من الحق

واليقين. ولا نقص أنقص مما للباطل والشبه.

وقيل لبعض العلماء: فيم لذتك؟ فقال: فى حجة تتبختر اتضاحًا، وفى شبهة تتضاءل افتضاحا. ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين، فقرر بذلك كونه يقينًا لا يحوم الشك حوله، وحقًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ثم لم تخل كل واحدة من الأربع - بعد أن رتبت هذا الترتيب الأنيق - من نكتة ذات جزالة. ففي الأولى الحذف والرمز إلى الغرض بألطف وجه وأرشقه. وفى الثانية ما فى التعريف من الفخامة، وفى الثالثة ما فى تقديم الريب على الظرف، وفى الرابعة الحذف[1]...

ثم فصل القرآن بعد ذلك أوصاف المتقين، ومدحهم بجملة من المناقب الحميدة، فقال: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ أى: يصدقون بما غاب عن حواسهم، كالصانع وصفاته، وكاليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وثواب وعقاب.

والإيمان لغة التصديق والإذعان، وهو إفعال من الأمن. وشرعًا التصديق بما علم بالضرورة أنه من الدين، كالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر... الخ، وعدى ﴿يؤمنون﴾ بالباء لتضمينه معنى أقر واعترف.

والغيب: مصدر غاب يغيب، وكثيرًا ما يستعمل بمعنى الغائب، وهو الظاهر من هذه الآية الكريمة. ومعناه: ما لا تدركه الحواس، ولا يعلم ببداهة العقل.

قال بعض العلماء: وخص بالذكر الإيمان بالغيب دون غيره من متعلقات الإيمان، لأن الإيمان بالغيب هو الأصل فى اعتقاد إمكان ما تخبر به الرسل عن وجود الله والعالم العلوى، فإذا آمن به المرء تصدى لسماع دعوة الرسول وللنظر فيما يبلغه عن الله - تعالى - فسهل عليه إدراك الأدلة، وأما من يعتقد أنه ليس من وراء عالم الماديات عالم آخر، فقد راض نفسه على الإعراض عن الدعوة، كما هو حال الماديين الذين يقولون: «ما يهلكنا إلا الدهر[2]:

والإيمان بالغيب: يستلزم التصديق به على وجه الجزم، وهو لا يحصل إلا عن دليل. ولا شك أن قيام البراهين على صدق من أخبر بالغيب يجعل المؤمن بهذا الغيب مصدقًا عن دليل، فنحن لا نحتاج فى الإيمان بالملائكه والكتب السماوية السابقة، والرسل الذين أرسلوا من قبل، والبعث وما فيه من ثواب وعقاب، لا نحتاج فى الإيمان بكل ذلك إلى دليل زائد على الأدلة التى قامت على صدق نبينا محمد ﷺ.

والإيمان بالغيب دليل على اتساع العقول، وسلامة القلوب، إذ أن معنى الإيمان بالغيب هو

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣٦.

(٢) تفسير التحرير والتنوير جـ ١ ص ١١٨ للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور.

أن عقولهم قد سلم إدراكها، وتقشعت عنها غشاواتها، وامتد نظرها فى الكائنات فأدركت أن لها مبدعًا حكيمًا وخالقًا قديرًا، جعلها تسير بنظام محكم، فهذه كواكب تظهر وتغيب، وسماء مرفوعة بغير عمد، وأرض راسية لا تميد ولا تضطرب. . . ﴿صنع الله الذى أتقن كل شىء﴾ فكان من ذلك لتلك العقول براهين قاطعة على وجود خالق مدبر، وحكيم قدير، ومبدع لا تأخذه سنة ولا نوم.

والإيمان بالغيب الذى أخبر به الصادق المصدوق ﷺ يقوى ويعظم كلما قوى الإيمان فى القلوب، واستولى الصفاء على النفوس، وقد مدح النبى ﷺ المؤمنين بالغيب فى أحاديث متعددة، منها ما جاء عن خالد بن دريك، عن ابن محيريز قال: قلت لابن جمعة: حدثنا حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ قال: نعم أحدثك حديثًا. تغدينا مع رسول الله ﷺ ومعنا أبو عبيدة بن الجراح فقال: يا رسول الله، هل أحد خير منا؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك. قال: نعم، قوم من بعدكم يؤمنون بى ولم يرونى».

قال ابن كثير: فقد مدحهم على ذلك وذكر أنهم أعظم أجرًا من هذه الحيثية لا مطلقًا[١].

وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وابن منده وأبو نعيم عن بديلة بنت أسلم قالت: صليت الظهر أو العصر فى مسجد بنى حارثة، واستقبلنا مسجد إيلياء فصلينا سجدتين، ثم جاء من يخبرنا بأن رسول الله ﷺ قد استقبل البيت، فتحول الرجال مكان النساء، والنساء مكان الرجال، فصلينا السجدتين الباقيتين ونحن مستقبلون البيت الحرام، فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال: «أولئك قوم آمنوا بالغيب»[٢].

تلك أول صفة نتيجة التقوى وهى الإيمان بالغيب، أما الصفة الثانية التى مدح الله بها المتقين فهى قوله - تعالى -:

﴿ويقيمون الصلاة﴾.

الصلاة فى اللغة الدعاء، من صلى يصلى إذا دعا، واستعملها الشارع فى العبادة ذات الركوع والسجود لاشتمالها على الدعاء، والإقامة فى الأصل: الدوام والثبات، من قولك: قام الحق أى: ظهر وثبت.

ومعنى ﴿يقيمون الصلاة﴾: يؤدونها فى أوقاتها المقدرة لها، مع تعديل أركانها، وإيقاعها مستوفية لواجباتها وسننها وآدابها وخشوعها، فإن الصلاة المقامة بحق هى تلك التى يصحبها

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤١.
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٢.

الإخلاص، واستحضار جلال الله فى الركوع والسجود، وهى التى تترتب عليها الآثار العظيمة من تزكية النفس، وعفافها، وتركها لكل الشرور والآثام، كما قال - تعالى - : ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾.

وقدم الإيمان بالغيب على إقامة الصلاة تعظيمًا لعمل القلب، واعتدادًا بشرطية الإيمان فى صحة أعمال الجوارح.

وقدم إقامة الصلاة على الإنفاق، لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولأنها تتكرر فى اليوم خمس مرات، ولأنها صلة بين العبد وربه، والإنفاق صلته بالناس، ولأن مشروعيتها كانت سابقة على مشروعية الزكاة.

أما الصفة الثالثة التى مدح الله بها المتقين فهى قوله - تعالى - :

﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾.

أى : ومما أعطيناهم وملكناهم يتصدقون فى وجوه الخير، ويمدون أيديهم بالإحسان إلى الفقير والمسكين.

والرزق عند جمهور العلماء ما صلح للانتفاع به حلالا كان أو حرامًا، خلافًا للمعتزلة الذين يرون أن الحرام ليس برزق. والإنفاق : إخراج المال وإنفاده وصرفه، يقال : نفق - كفرح ونصر - نفد وفنى أو قلّ. وأنفق ماله أنفده، وأصل المادة يدل على الخروج والذهاب، ومنه : نافق فلان، والنافقاء، والنفق. وقال «ينفقون» ولم يقل أنفقوا، ليشعر بأن الإنفاق منهم يتجدد بين وقت وآخر. ولم يحدد وجوه الانفاق بل تركها مطلقة لتشمل الفرض والواجب وغيرهما من وجوه الإحسان.

وإيراد «من» فى قوله تعالى - ﴿ومما رزقناهم﴾ للإشارة إلى أن مواظبتهم على إنفاق أموالهم بين الحين والحين، كفيل بتوصيلهم إلى زمرة المهتدين المفلحين، وللإشعار بأنهم ينفقون بعض أموالهم مبتعدين عن الإسراف والتبذير حتى لا يتركوا ورثتهم عالة يتكففون وجوه الناس.

هذا، وقد عنى القرآن الكريم عناية فائقة بالحض على الإنفاق فى وجوه الخير، ومدح الذين يفعلون ذلك مدحًا عظيمًا فى عشرات الآيات، وذلك لأن الأمة التى يكثر فيها المنفقون لأموالهم فى وجوه الخير، لابد أن تعز كلمتها، وتسلم من كوارث شتى، كالجهل، والفقر، والمرض. فببذل المال تسد حاجات البؤساء، وتشاد معاهد التعليم، وتقام وسائل حفظ الصحة، وتنمو المحبة والمودة بين الأغنياء والفقراء.

قال تعالى : ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾.

ثم أضاف القرآن إلى صفات المتقين وصفًا رابعًا فقال :

﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾.

والمراد بقوله - تعالى - ﴿بما أنزل إليك﴾ القرآن الكريم، وإنما عبر عنه بلفظ الماضى - وإن كان بعضه مترقبًا - تغليبًا للموجود على ما لم يوجد.

والمراد بقوله - تعالى - ﴿وما أنزل من قبلك﴾، الكتب الإلهية السابقة التى أنزلها الله على أنبيائه كموسى وعيسى وداود. وهذا كقوله - تعالى - :

﴿يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله، والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل﴾[1].

والإيمان بما أنزل على الرسول ﷺ يستلزم الإيمان برسالته، ويستوجب العمل بما تضمنته شريعته.

وإيجاب العمل بما تضمنه القرآن الذى أنزله الله على محمد ﷺ باق على إطلاقه. أما الكتب السماوية السابقة فيكفى الإيمان بأنها كانت وحيًا وهداية، وقد تضمن القرآن الكريم ما اشتملت عليه هذه الكتب من هدايات وأصبح بنزوله مهيمنًا عليها، قال - تعالى - :

﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانًا لكل شىء﴾.

وصار من المحتم على كل عاقل أن يعمل بما جاء به القرآن من توجيهات.

وقدم الإيمان بما أنزل عليه على الإيمان بما أنزل على الذين من قبله- مع أن الترتيب يقتضى العكس- لأن إيمانهم بمن قبله لا قيمة له إلا إذا آمنوا بمحمد ﷺ :

ولم يقل : ويؤمنون بما أنزل من قبلك بتكرير يؤمنون، للإشعار بأن الإيمان به وبهم واحد، لا تغاير فيه وإن تعدد متعلقه.

ويرى بعض العلماء أن المراد من الآية الكريمة، أهل الكتاب الذين آمنوا بالكتب السماوية التى نزلت قبل القرآن، ثم لما نزل القرآن على النبى محمد ﷺ وعرفوا أنه الحق - آمنوا به أيضا -، فصار لهم أجران، كما جاء فى الحديث الشريف، الذى ثبت فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال : «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين يوم القيامة : رجل من

(١) سورة النساء الآية ١٢٦.

أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى، ورجل مملوك أدى حق الله وحق مواليه، ورجل أدب جاريته فأحسن تأديبها، ثم أعتقها.

ثم وصف الله المتقين بوصف خامس فقال: ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾ الآخرة تأنيث الآخر.

وهذا اللفظ تارة يجيء وصفًا ليوم القيامة مع ذكر الموصوف، كما فى قوله - تعالى - «وللدار الآخرة خير للذين يتقون» وتارة بهذا المعنى ولكن بدون ذكر الموصوف، كما فى الآية التى معنا، وكما فى قوله - تعالى - ﴿وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفصيلا﴾

وسميت آخرة لأنها تأتى بعد الدنيا التى هى الدار الأولى.

و ﴿يوقنون﴾ من الإيقان وهو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، بحيث لا يطرأ عليه شك، ولا تحوم حوله شبهة. يقال يقن الماء إذا سكن وظهر ما تحته، ويقال: يقنت - بالكسر - يقنًا، وأيقنت، وتيقنت، واستيقنت بمعنى واحد.

والمعنى: وبالدار الآخرة ومافيها من بعث وحساب وثواب وعقاب هم يوقنون إيقانًا قطعيًا، لا أثر فيه للادعاءات الكاذبة، والأوهام الباطلة.

وفى إيراد «هم» قبل قوله «يوقنون» تعريض، بغيرهم، ممن كان اعتقادهم فى أمر الآخرة غير مطابق للحقيقة أو غير بالغ مرتبة اليقين.

ولا شك أن الإيمان باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب، له أثر عظيم فى فعل الخيرات، واجتناب المنكرات، لأن من أدرك أن هناك يومًا سيحاسب فيه على عمله، فإنه من شأنه أن يسلك الطريق القويم الذى يكسبه رضى الله يوم يلقاه.

قال أبو حيان: وذكر لفظة ﴿هم﴾ فى قوله: ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾ ولم يذكرها فى قوله: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ لأن وصف إيقانهم بالآخرة أعلى من وصفهم بالإنفاق فاحتاج هذا إلى التوكيد ولم يحتج ذلك إلى تأكيد ولأنه لو ذكر ﴿هم﴾ هناك لكان فيه قلق لفظى، إذ يكون التركيب «ومما رزقناهم هم ينفقون»[1].

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك الثمار التى ترتبت على تقواهم فقال:

﴿أولئك على هدى من ربهم، وأولئك هم المفلحون﴾.

المفلحون: من الفلاح وهو الظفر والفوز بدرك البغية، وأصله من الفلح - بسكون اللام - وهو الشق والقطع، ومنه فلاحة الأرض وهو شقها للحرث. وأستعمل منه الفلاح فى الفوز، كأن الفائز شق طريقه وفلحه للوصول إلى مبتغاه، أو انفتحت له طريق الظفر وانشقت.

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ١ ص٤٢.

والمعنى : أولئك المتصفون بما تقدم من صفات كريمة، على نور من ربهم، وأولئك هم الفائزون بما طلبوا، الناجون مما منه هربوا، بسبب إيمانهم العميق، وأعمالهم الصالحة.

والآية الكريمة كلام مستأنف لبيان أن أولئك المتقين فى المنزلة العليا من الكمال الإنسانى، فقد وصفهم - سبحانه - بأنهم على هدى عظيم، ويدل على عظم هذا الهدى إيراده بصيغة التنكير، إذ من المعلوم عند علماء البيان أن التنكير يدل بمعونة المقام على التعظيم. كما يدل - أيضًا - على عظم هذا الهدى وصفه بأنه «من ربهم»، فهو الذى وفقهم إليه، ويسر لهم أسبابه.

وفى قوله - تعالى - : ﴿على هدى﴾ إشعار بأنهم تمكنوا منه تمكن من استعلى على الشىء، وصار فى قرار راسخ منه.

وجملة «وأولئك هم المفلحون» بيان لما ظفر به المتقون الحائزون لتلك الخصال، من سعادة فى الدنيا والآخرة.

وتعريف الخبر وهو ﴿المفلحون﴾ مع إيراد ضمير الفصل «هم» يفيد أن الفلاح مقصور على أولئك المتقين، فمن لم يؤمن بالغيب، أو أضاع الصلاة، أو بخل بالمال الذى منحه الله إياه فلم يؤده فى وجوهه المشروعة، فإنه لا يكون من المهتدين، ولا من المفلحين الذين سعدوا فى دنياهم وآخرتهم.

قال الإمام الرازى : «وفى تكرير» ﴿أولئك﴾ تنبيه على أنهم كما ثبت لهم الاختصاص بالهدى، فقد ثبت لهم الاختصاص بالفلاح - أيضًا - فقد تميزوا عن غيرهم بهذين الاختصاصين، فإن قيل : فلم جىء بالعاطف؟ وما الفرق بينه وبين قوله : ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾.

قلنا : قد اختلف الخبران ههنا فلذلك دخل العاطف، بخلاف الخبرين ثمة فإنهما متفقان، لأن التسجيل عليهم بالغفلة وتشبيههم بالبهائم شىء واحد، وكانت الثانية مقررة لما فى الأولى، فهى من العطف بمعزل»(١).

وقال صاحب الكشاف بعد تفسيره لهذه الآية الكريمة «. . . فانظر كيف كرر الله التنبيه على اختصاص المتقين بنيل ما لا يناله أحد على طرق شتى، وهى : ذكر اسم الاشارة، وتكريره، وتعريف المفلحين، وتوسيط ضمير الفصل بينه وبين أولئك، ليبصرك مرتباتهم، ويرغبك فى طلب ما طلبوا، وينشطك لتقديم ما قدموا، ويثبطك عن الطمع الفارغ والرجاء الكاذب

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١ ص ١٦٩.

والتمنى على الله ما لا تقتضيه حكمته ولم تسبق به كلمته...»[1].

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد مدحت القرآن الكريم بما يستحقه، وأثنت على من اهتدوا بهديه، ووصفتهم بالصفات السامية، وبشرتهم بالبشارات الكريمة.

وبعد أن انتهى القرآن من بيان شأن الكتاب وأثره فى الهداية والإرشاد، وتصوير حال المتقين الذين اهتدوا به، وما اكتسبوه بالهداية من أوصاف سامية، وما كان لهم على ذلك من خير العاقبة وحسن الجزاء، أقول بعد أن انتهى من بيان كل ذلك شرع فى بيان حال الكافرين، وما هم عليه من سوء الحال وقبيح الأوصاف فقال:

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

ففى هاتين الآيتين بيان لأحوال طائفة ثانية من الناس، على الضد فى طبيعتها وأوصافها ومآلها من الطائفة الأولى التى فازت برضوان الله.

والكفر - بالضم - ضد الإيمان. وأصله المأخوذ منه الكفر - بالفتح - وهو ستر الشىء وتغطيته، ومنه سمى الليل كافرًا، لأنه يغطى كل شىء بسواده، وسمى السحاب كافرًا لستره ضوء الشمس.

ثم شاع الكفر فى مجرد ستر النعمة، كأن المنعم عليه قد غطى النعمة بجحوده لها. ويستعمله الشارع فى عدم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

وسمى من لم يؤمن بما يجب الإيمان به بعد الدعوة إليه - كافرًا، لأنه صار بجحوده لذلك الحق وعدم الإذعان إليه كالمغطى له.

والمراد بالذين كفروا فى الآية التى معنا، طائفة معينة صمت آذانها عن الحق، عنادًا وحسدًا، وليس عموم الكافرين، لأن منهم من دخل فى الإسلام بعد نزول هذه الآية.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٤٦.

وسواء : اسم مصدر بمعنى الاستواء والمراد به اسم الفاعل أى : مستو ولذلك يوصف به كما يوصف بالمصدر، كما فى قوله - تعالى - :

﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾.

أى : مستوية.

والإنذار : إخبار معه تخويف فى مدة تتسع للتحفظ من المخوف، فإن لم تتسع له فهو إعلام وإشعار لا إنذار، وأكثر ما يستعمل فى القرآن فى التخويف من عذاب الله - تعالى -.

والمعنى : إن الذين كفروا برسالتك يا محمد مستو عندهم إنذارك وعدمه، فهم لا يؤمنون بالحق، ولا يستجيبون لداعى الهدى، لسوء استعدادهم، وفساد فطرهم.

وجاءت جملة «إن الذين كفروا : مستأنفة ولم تعطف على ما قبلها لاختلاف الغرض الذى سيق له الكلام، إذ فى الجمل السابقة حديث عن الكتاب وآثاره وعظمته، وهنا حديث عن الكافرين وأحوالهم.

وقد وضح هذا المعنى صاحب الكشاف فقال : «فإن قلت لم قطعت قصة الكفار عن قصه المؤمنين ولم تعطف كنحو قوله : ﴿إن الأبرار لفى نعيم. وإن الفجار لفى جحيم﴾. وغيره من الآيات الكثيرة؟ قلت : ليس وزان هاتين القصتين وزان ما ذكرت. لأن الأولى فيما نحن فيه مسوقه لذكر الكتاب وأنه هدى المتقين، وسيقت الثانية لأن الكفار من صفتهم كيت وكيت؛ فبين الجملتين تباين فى الغرض والأسلوب، وهما على حد لا مجال فيه للعاطف».

وقوله ﴿سواء﴾ خبر إن و ﴿عليهم﴾ متعلق به، و ﴿أأنذرتهم﴾ مؤول بمصدر فاعل سواء. أى : إن الذين كفروا سواء عندهم إنذارهم وعدم إنذارهم وإنما استوى لديهم الإنذار وعدمه؛ مع أن الإنذار إنما يواجههم به نبى قوى أمين مؤيد من الله - تعالى -، لأنهم لما جحدوا نعم الله، وعموا عن آياته، وحسدوا رسوله على ما آتاه الله من فضله، صاروا بسبب ذلك فى حضيض جمد معه شعورهم، وبرد فيه إحساسهم، فلا تؤثر فيهم موجعات القول، ولا تنفذ إلى قلوبهم بالغات الحجج. فهم كما قال الشاعر :

لقد أسمعت إذ ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادى

ولم يذكر - سبحانه - التبشير مع الإنذار، لأنهم ليسوا أهلا للبشارة، ولأن الإنذار أوقع فى القلوب، والذى لا يتأثر به يكون عدم تأثره بغيره أولى.

ولم يقل - سبحانه - سواء عليك أأنذرتهم أم لم تنذرهم.. الخ، لأنه بالنسبة له ﷺ لا يستوى الأمران، إذ هو فى حالة إنذاره لهم مثاب ومأجور، أما فى حالة عدم إنذاره فهو

مؤاخذ من الله - تعالى - لأنه مكلف بتبليغ ما أنزل إليه من ربه.

وجملة ﴿لا يؤمنون﴾ مفسرة لمعنى الجملة التى قبلها ومؤكدة لها، لأنه حيث كان الإنذار وعدمه سواء، فلا يتوقع منهم الإيمان. ولذلك فصلت.

وفى هذه الجملة إخبار بعدم إيمانهم ألبتة، وذلك لأن حرف «لا» إذا دخل على الفعل المضارع - كما هنا - أفاد أن الفعل لا يقع فى المستقبل حتى تقوم قرينة تقصر النفى فى المستقبل على وقت محدد.

والحكمة فى الإخبار بعدم إيمان هذه الطائفة المعينة من الكفار، تسلية النبى ﷺ حتى لا يكون فى صدره حرج من تمردهم وعدم إيمانهم بعد أن قام بواجب دعوتهم، وفى ذلك تذكرة لكل داع مصلح بأن لا يحترق قلبه أسفًا على قوم أعرضوا عن سلوك الصراط المستقيم بعد أن دعاهم إليه، وبذل قصارى جهده فى تبصيرهم وإرشادهم.

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك الموانع التى حالت بينهم وبين الاهتداء إلى الحق فى الماضى والمستقبل فقال تعالى:

﴿ختم الله على قلوبهم، وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة﴾.

والختم: الوسم بطابع ونحوه، مأخوذ من وضع الخاتم على الشىء وطبعه فيه للاستيثاق، لكى لا يخرج منه ما هو بداخله، ولا يدخله ما هو خارج عنه.

قال القرطبى: «والختم مصدر ختمت الشىء ختمًا فهو مختوم مختم، شدد للمبالغة، ومعناه التغطية على الشىء والاستيثاق منه، وقد يكون محسوسًا كما فى ختم الكتاب والباب، وقد يكون معنويًا كالختم على القلوب...»[1]

والقلوب: جمع قلب، وهو المضغة التى توجد بالجانب الأيسر من صدر الإنسان، ويستعمل فى القوة العاقلة التى هى محل الفهم والعلم.

والسمع: مصدر سمع. ويطلق على الآلة التى يقع بها السمع.

ولما كان الختم يمنع من أن يدخل فى المختوم عليه شىء، استعير لإحداث هيئة فى القلب والسمع تمنع من خلوص الحق إليهما.

الأبصار: جمع بصر، وهو فى الأصل الإدراك بالعين، ويطلق على القوة التى يقع بها الإبصار، وعلى العين نفسها. وهذا المعنى أقرب ما تحمل عليه الأبصار فى الآية. وهو الأنسب

---

(١) تفسير القرطبى جـ١ ص ١٨٦.

لأن تجعل عليه غشاوة. ومفاد الآية أن تصير أبصارهم بحيث لا تهتدى إلى النظر فى حكمة المخلوقات وعجائب المصنوعات. باعتبار وتدبر وحتى لكأنما جعلت عليها غشاوة.

والغشاوة: ما يغطى به الشيء، من غشاه إذا غطاه. يقال:

غشيه غشاوة - مثلثة - وغشاية. أى: ستره وغطاه.

فهذه الآية الكريمة تفيد عن طريق الاستعارة أو التمثيل أن هناك حواجز حصينة، وأقفالا متينة قد ضربت على قلوبهم وعلى أسماعهم، وغشاوات مطبقة على أبصارهم حتى أصبحوا لا يخيفهم نذير ولا يرغبهم بشير.

وعبر فى جانب القلب والسمع بالختم، وفى جانب البصر بالغشاوة، لمعنى سام، وحكمة رائعة، ذلك أن آفة البصر معروفة، إذ غشاوة العين معروفة لنا، فالتعبير فى جانب العين بالغشاوة مما يحدد لنا مدى عجزهم عن إدراك آيات الله بتلك الجارحة، وأما القلب والسمع فإنهما لما كانا لا تدرك آفتهما إلا بصعوبة، فقد صور لنا موانعهما عن الاستجابة للحق بصورة الختم.

وعبر فى جانب القلب والسمع بجملة فعلية تفيد التجدد والحدوث، وفى جانب البصر بجملة اسمية تفيد الثبات والاستقرار، لأنهم قبل الرسالة ما كانوا يسمعون صوت نذير، ولا يواجهون بحجة، وإنما كان صوت النذير وصياغة البراهين بعد ظهور النبى ﷺ. وأما ما يدرك بالبصر من دلائل وجود الله وآيات قدرته، فقد كان قائما فى السماوات وفى الأرض وفى الأنفس، ويصح أن يدرك قبل الرسالة النبوية، وأن يستدل به المتبصرون والمتدبرون على وجود ربهم وحكمته، فلم يكن عماهم عن آيات الله القائمة حادثًا متجددًا، بل هم قد صحبهم العمى من بدء وجودهم، فلما دعوا إلى التبصر والتدبر صمموا على ما كانوا عليه من عمى،

وجمع القلوب والأبصار وأفرد السمع، لأن القلوب تختلف باختلاف مقدار ما تفهمه مما يلقى إليها من إنذار أو تبشير، ومن حجة أو دليل، فكان عن ذلك تعدد القلوب بتعدد الناس على حسب استعدادهم، وكذلك شأن الناس فيما تنظره أبصارهم من آيات الله فى كونه، فإن أنظارهم تختلف فى عمق تدبرها وضحولته، فكان من ذلك تعدد المبصرين بتعدد مقادير ما يستطيعون تدبره من آيات الله فى الآفاق. وأما المسموع فهو بالنسبة للناس جميعًا شيء واحد هى الحجة يناديهم بها المرسلون، والدليل يوضحه لهم النبيون.

لذلك كان الناس جميعًا كأنهم على سمع واحد، فكان إفراد السمع إيذانًا من الله بأن حجته واحدة، ودليله واحد لا يتعدد.

ونرى القرآن هنا قدم القلب فى الذكر على السمع، بينما فى سورة الجاثية قدم السمع فى الذكر على القلب فقال:

﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه، وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله؛ أفلا تذكرون﴾.

وذلك لأنه - سبحانه - فى سورة الجاثية قد ذكر الختم معطوفا على قوله «اتخذ إلهه هواه»، ومن اتخذ إلهه هواه يكون أول ما يبدو منه للناس ويعرف هو إعراضه عن النصح، ولى رأسه عن استماع الحجة، فكان مظهر عدم السماع منه أول ما يبدو للناظرين، فلذلك قدم السمع على القلب.

وأما آيتنا هذه وهى قوله - تعالى - ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم﴾ فقد جاءت إثر الآية المختومة بقوله ﴿لا يؤمنون﴾. والإيمان تصديق يقوم على الحجة والبراهين، وإدراك الحجة والبرهان إنما هو بالقلب فكان التعليل المتصل الواضح لنفى الإيمان أن قلوبهم مغلقة لا تنفذ إليها الحجة، أولا يتسرب إليها نور البرهان لذلك قدم القلب على السمع.

هذا وقوله - تعالى - ﴿ختم الله على قلوبهم﴾.. إلخ. لا ينفى عنهم تبعة الكفر، لأنهم هم الذين باشروا من فاسد الأعمال، وذميم الخصال، ومتابعة الهوى، ما نسج على قلوبهم الأغلفة السميكة، وأصم إلى جانب ذلك آذانهم وأعمى أبصارهم، ﴿وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾.

ولعلماء الكلام كلام طويل حول هذه المسألة فليرجع إليه من شاء.

ثم بين - سبحانه - ما يستحقونه من عذاب بسبب إغراقهم فى الكفر، واستحبابهم للمعاصى فقال:

﴿ولهم عذاب عظيم﴾.

أى: ولهم بسبب سوء أعمالهم عذاب موجع مؤلم لأبدانهم وأجسامهم.

وأصل العذاب: المنع، يقال: عذب الفرس - كضرب - امتنع عن العلف. وعذب الرجل إذا ترك المأكل والنوم، فهو عاذب وعذوب. ثم أطلق على الإيجاع الشديد لما فيه من المنع عن اقتراف الذنب. والعظيم: الكبير، من عظم الشىء، وأصله كبر عظمه، ثم استعير لكل كبير محسوسا كان أو معقولا.

ووصف العذاب بالعظيم على معنى أن سائر ما يجانسه من العذاب يكون بالنسبة إليه حقيرًا هينًا.

قال أبو حيان فى البحر: وقد ذكروا فى هاتين الآيتين من ضروب الفصاحة، أنواعًا.

الأول: الخطاب العام اللفظ، الخاص المعنى.

الثانى: الاستفهام الذى يراد به تقرير المعنى فى النفس. أى: يتقرر أن الانذار وعدمه سواء عندهم.

الثالث: المجاز ويسمى الاستعارة وهو فى قوله - تعالى - ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم﴾ وحقيقة الختم وضع محسوس على محسوس يحدث بينهما رقم يكون علامة للخاتم، والختم هنا معنوى؛ فإن القلب لما لم يقبل الحق مع ظهوره استعير اسم المختوم عليه، فبين أنه من مجاز الاستعارة.

الرابع: الحذف وهو فى مواضع منها ﴿إن الذين كفروا..﴾ أى: القوم الذين كفروا بالله وبك وبما جئت به، ومنها ﴿لا يؤمنون﴾ أى بالله وبما أخبرتهم به عنه[1].

وإلى هنا يكون القرآن قد حدثنا عن طائفتين من الناس: طائفة المتقين ومالها من جميل الصفات، وجزيل الثواب، وطائفة الكافرين ومالها من ذميم النعوت، وشديد العقاب.

ثم ابتدأ القرآن بعد ذلك حديثه عن طائفة ثالثة ليس عندها إخلاص المتقين، وليس لديها صراحة الكافرين، وإنما هى طائفة قلقة مذبذبة لا إلى هؤلاء ولا إلى أولئك، تلك الطائفة الثالثة هى طائفة المنافقين الذين فضحهم القرآن. وأماط اللثام عن خفاياهم وخداعهم فقال:

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾

قال صاحب الكشاف: «افتتح - سبحانه - كتابه بذكر الذين أخلصوا دينهم لله، وواطأت قلوبهم ألسنتهم، ووافق سرهم علنهم، وفعلهم قولهم، ثم ثنى بالذين محضوا الكفر ظاهرًا

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ١ ص ٥٠.

وباطنًا، قلوبًا وألسنة، ثم ثلث بالذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وأبطنوا خلاف ما أظهروا. وهم الذين قال فيهم: ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾، وسماهم المنافقين وكانوا أخبث الكفرة وأبغضهم إليه وأمقتهم عنده، لأنهم خلطوا بالكفر تمويهًا وتدليسًا، وبالشرك استهزاء وخداعًا، ولذلك أنزل فيهم: ﴿إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار﴾ ووصف حال الذين كفروا فى آيتين ووصف حال الذين نافقوا فى ثلاث عشرة آية، نعى عليهم فيها خبثهم، ومكرهم، وفضحهم، وسفههم. واستجهلهم، واستهزأ بهم، وتهكم بفعلهم، وسجل طغيانهم، ودعاهم صما بكما عميا، وضرب لهم الأمثال الشنيعة. وقصة المنافقين عن آخرها معطوفة على قصة الذين كفروا، كما تعطف الجملة على الجملة»[١].

والناس: اسم لجماعة الإنس. قال القرطبى: «واختلف النحاة فى لفظ الناس فقيل: هو من أسماء الجموع، جمع إنسان وإنسانة على غير اللفظ، وتصغيره نويس، فالناس من النوس وهو الحركة، يقال: ناس، ينوس أى: تحرك. وقيل: أصله نسى، فأصل ناس نسى، قلب فصار نيس، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فانقلبت ألفًا، ثم دخلت الألف واللام فقيل: الناس، قال ابن عباس: نسى آدم عهد الله فسمى إنسانًا. وقيل: سمى إنسانًا لأنسه بربه، قال الشاعر:

وما سمى الإنسان إلا لأنسه ولا القلب إلا أنه يتقلب[٢]

واليوم الآخر: هو اليوم الذى يبتدئ بالبعث ولا ينقطع أبدًا، وقد يراد منه اليوم الذى يبتدئ بالبعث وينتهى باستقرار أهل الجنة فى الجنة. وأهل النار فى النار.

وقال القرآن فى شأن المنافقين ﴿ومن الناس﴾ مجردًا إياهم من الوصفين السابقين، وصف الإيمان ووصف الكفر، لأنهم لم يكونوا بحسب ظاهر الأمر مع الكافرين، ولا بحسب باطنه مع المؤمنين، لذا عبر عنهم بالناس لينطبق التعبير على ما حاولوه لأنفسهم من أنهم لاهم مؤمنون. ولاهم كافرون وفى ذلك مبالغة فى الحط من شأنهم. فهم لم يخرجوا عن كونهم ناسًا فقط، دون أن يصلوا بأوصافهم إلى أهل اليمين أوإلى أهل الشمال الصرحاء فى كفرهم، بل بقوا فى منحدر من الأرض، لايمر بهم سالك الطريق المستقيم ولاسالك المعوج من الطرق.

وعبر القرآن بلفظ ﴿يقول آمنًا﴾ ليفيد أنه مجرد قول باللسان، لا أثر له فى القلوب، وإنما هم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٥٤.

(٢) تفسير القرطبى جـ١ ص ١٩٢.

وحكى القرآن عن هؤلاء المنافقين أنهم اقتصروا فى إظهار الإيمان على ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر، ليزيدوا فى التمويه على المؤمنين بإدعاء أنهم أحاطوا بالإيمان من طرفيه، لأن من يؤمن بالله واليوم الآخر، استجابة لدعوة الرسول ﷺ فإن من شأنه أن يكون - أيضا - مؤمنًا برسل الله وملائكته وكتبه.

وقد كذبهم الله - تعالى - فى دعواهم الإيمان، فقال :

﴿وما هم بمؤمنين﴾.

فهذه الجملة الكريمة رد لما ادعوه من الإيمان، ونفى له على أبلغ وجه، إذ جاء النفى مؤكدًا بالباء فى قوله ﴿بمؤمنين﴾. ثم ان الجملة نفت عنهم الإيمان على سبيل الإطلاق، فهم ليسوا بمؤمنين لا بالله ولا باليوم الآخر، ولا بكتب الله ولا برسله ولا بملائكته.

ثم بين - سبحانه - الدوافع التى دفعتهم إلى أن يقولوا ﴿آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين﴾ فقال :

﴿يخادعون الله والذين آمنوا﴾.

والخدع فى أصل اللغة : الإخفاء والإبهام، يقال خدعه - كمنعه - خدعا، ختله وأراد به مكروها من حيث لا يعلم ؛ وأصله من خدع الضب حارسه إذ أظهر الإقبال عليه ثم خرج من باب آخر.

وخداعهم لله - تعالى - معناه إظهارهم الإيمان وإبطانهم الكفر ليحقنوا دماءهم وأموالهم، ويفوزوا بسهم من الغنائم، وسمى فعلهم هذا خداعًا لله - تعالى - لأن صورته صورة الخداع، فالجملة الكريمة مسوقة على أسلوب المشاكلة، ولا يجوز حملها على الحقيقة، لأنه - سبحانه - لا يخفى عليه صنع المنافقين؛ بل لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء. قال - تعالى - ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم﴾.

أما خداعهم للمؤمنين فمن مظاهره إظهارهم لهم أنهم إخوانهم فى العقيدة وأنهم لا يريدون لهم إلا الخير. بينما هم فى الحقيقة يضمرون لهم العداوة ويتربصون بهم الدوائر.

وجاءت الآية الكريمة هكذا بدون عطف، لأنها جواب سؤال نشأ من الآية السابقة، إذ أن قول المنافقين « آمنا » وما هم بمؤمنين، يثير فى نفس السامعين استفهاما عما يدعو هؤلاء لمثل تلك الحال المضطربة والحياة القلقة المقامة على الكذب، فكان الجواب : إنهم يفعلون ذلك محاولين مخادعة المؤمنين، جهلا منهم بصفات خالقهم.

وقال القرآن : ﴿يخادعون الله والذين آمنوا﴾. ولم يذكر مخادعتهم للرسول ﷺ، ولعل الحكمة فى ذلك أن القرآن يعتبر مخادعة الله مخادعة لرسوله، لأنه هو الذى بعثه إليهم، وهو المبلغ عن الله أحكامه وشرائعه. قال - تعالى - :

﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم﴾ وقال - تعالى - ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾.

ثم بين - سبحانه - غفلتهم وغباءهم فقال : ﴿وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾.

الأنفس : جمع نفس بمعنى ذات الشىء وحقيقته. وتطلق على الجوهر اللطيف الذى يكون به الحس والحركة والإدراك.

ويشعرون : مضارع شعر بالشىء - كنصر وكرم - يقال : شعر بالشىء أى : فطن له، ومنه الشاعر لفطنته، لأنه يفطن لما لا يفطن له غيره من غريب المعانى ودقائقها.

والشعور : العلم الحاصل بالحواس، ومنه مشاعر الإنسان أى : حواسه.

والمعنى : أن هؤلاء المنافقين لم يخادعوا الله لعلمه بما يسرون، ولم يخادعوا المؤمنين لأن الله يدفع عنهم ضرر خداع المنافقين، وإنما يخدعون أنفسهم لأن ضرر المخادعة عائد عليهم، ولكنهم لا يشعرون بذلك. لأن ظلام الغى خالط قلوبهم، فجعلهم عديمى الشعور، فاقدى الحس.

وأتى بجملة «وما يخدعون إلا أنفسهم»، بأسلوب القصر مع أن خداعهم للمؤمنين قد ينالهم بسببه ضرر، لأن أولئك المنافقين سيصيبهم عذاب شديد بسبب ذلك، أما المؤمنون فحتى لو نالهم ضرر فلهم عند الله ثوابه.

ونفى عنهم الشعور مع سلامة مشاعرهم، لأنهم لم ينتفعوا من نعمتها، ولم يستعملوها فيما خلقت له، فكانوا كالفاقدين لها.

ثم بين - سبحانه - العلة فى خداعهم لله وللمؤمنين فقال : ﴿فى قلوبهم مرض﴾.

والمرض : العلة فى البدن ونقيضه الصحة، وقد يستعمل على وجه الاستعارة فيما يعرض للمرء فيخل بكمال نفسه، كسوء العقيدة والحسد، والبغضاء والنفاق، وهو المراد هنا.

وسمى ما هم فيه من نفاق وكفر مرضا، لكونه مانعا لهم من إدراك الفضائل. كما أن مرض الأبدان يمنعها من التصرف الكامل.

وجعل القرآن قلوبهم ظرفا للمرض، للإشعار بأنه تمكن منها تمكنا شديدا كما يتمكن الظرف من المظروف فيه.

ثم أخبر - سبحانه - بأنهم بسبب سوء أعمالهم قد زادهم الله ضلالا وخسرًا فقال: ﴿فزادهم الله مرضًا﴾.

لأنهم استمروا فى نفاقهم وشكهم، ومن سنة الله أن المريض إذا لم يعالج مرضه زاد لا محالة مرضه، إذ المرض ينشئ المرض، والانحراف يبدأ يسيرًا ثم تنفرج الزاوية فى كل خطوة وتزداد.

والمعنى: أن هؤلاء المنافقين قد زادهم الله رجسًا على رجسهم، ومرضا على مرضهم، وحسدا على حسدهم، لأنهم عموا وصموا عن الحق، ولأنهم كانوا يحزنون لأى نعمة تنزل بالمؤمنين. كما قال -تعالى-: ﴿إن تمسسكم حسنة تسؤهم، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها﴾.

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبتهم فقال: ﴿ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾.

﴿أليم﴾ أى: مؤلم وموجع وجعًا شديدًا. من ألم - كفرح - فهو ألم، وآلمه يؤلمه إيلاما، أى: أوجعه إيجاعا شديدا.

والكذب: الإخبار عن الشيء بخلاف الواقع. ولقد كان المنافقون كاذبين فى قولهم «آمنا بالله وباليوم الآخر» وهم غير مؤمنين،

وجعلت الآية الكريمة العذاب الأليم مرتبا على كذبهم مع أنهم كفرة، والكفر أكبر معصية من الكذب، للإشعار بقبح الكذب، وللتنفير منه بأبلغ وجه، فهؤلاء المنافقون قد جمعوا الخستين، الكفر الذى توعد الله مرتكبه بالعذاب العظيم، والكذب الذى توعد الله مقترفه بالعقاب الأليم.

وعبر بقوله: ﴿كانوا يكذبون﴾ لإفادة تجدد الكذب وحدوثه منهم حينًا بعد حين، وأن هذه الصفة هى أخص صفاتهم، وأبرز جرائمهم،

ثم وصفهم الله - تعالى - بعد ذلك بجملة من الرذائل والقبائح مضافة إلى قبائحهم السابقة فقال:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

الفساد: خروج الشيء عن حالة الاعتدال والاستقامة، وعن كونه منتفعًا به، وضده الصلاح، يقال: فسد الشيء فسادًا، وأفسده إفسادًا.

والمراد به هنا كفرهم، ومعاصيهم، ومن كفر بالله وانتهك محارمه فقد أفسد فى الأرض، لأن الأرض لا تصلح إلا بالتوحيد والطاعة.

ومن أبرز معاصى هؤلاء المنافقين، ما كانوا يدعون إليه فى السر من تكذيب الرسول ﷺ وإلقاء الشبه فى طريق دعوته، والتحالف مع المشركين ضد المسلمين كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا.

وسلك القرآن هذا الأسلوب فقال: ﴿وإذا قيل لهم﴾ بالبناء للمفعول دون أن يسند الفعل إلى فاعله، لأن مصدر القول المعبر عن النهى عن الإفساد ليس مصدرًا واحدًا، فقد يصل آذانهم هذا النهى مرة من صريح القول. وأخرى مما كانوا يقابلون به من ناحية الرسول ﷺ وأصحابه من تجهم وإعراض.

وعلق بالفعل الذى هو الإفساد قوله: ﴿فى الأرض﴾ إيذانًا بأن الإفساد مهما ضاقت حدوده، فإنه لابد يومًا أن يتعدى الحدود إلى ما وراء ذلك فقد يعم ويشمل إذا لم يشتد فى الاحتياط له، لذلك جعل ظرف إفسادهم الأرض كلها مع أنهم موجودون فى بقعة محصورة هى المدينة المنورة.

ولقد حكى القرآن جوابهم على نصيحة الناصحين وما فيه من تبجح وادعاء فقال:

﴿قالوا: إنما نحن مصلحون﴾.

فقد بالغوا فى الرد فحصروا أنفسهم أولا فى الإصلاح مبالغة المفجوع الذى أذهلته المفاجأة بكشف أستار حقيقته، فتراهم لم يقتصروا على أن يقولوا: ﴿إنا مصلحون﴾ بل قالوا «إنما». ثم أكدوا الجملة بكونها اسمية ليدلوا بذلك على أن شأنهم فى الإصلاح ثابت لازم.

قال الراغب: صوروا إفسادهم بصورة الإصلاح لما فى قلوبهم من المرض، كما فى قوله - تعالى - ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنًا﴾. وقوله: ﴿وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾. وقوله: ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا. الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا﴾.

ولقد كذبهم الله - تعالى - تكذيبًا مؤكدًا فى دعواهم أنهم مصلحون فقال:

﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾.

فأنت ترى أن القرآن الكريم قد وضع فى الرد عليهم جملة صدرها بأداة الاستفتاح إيذانًا بأن

ما قالوه يجب أن يهمل إهمالا، بل يجب أن يكون وصفهم بالإفساد قضية مبتدأة مقررة حتى يتلقاها السامع وهو منتبه النفس، حاصر الذهن.

ثم أكد الجملة بعدة تأكيدات منها: وصل «ألا» «بإن» الدالة على تأكيد الخبر وتحقيقه، ومنها تأكيد الضمير بضمير منفصل حتى يتم التصاق الخبر بالمبتدأ، ومنها اسمية الجملة، ومنها إفادة قصرهم على الإفساد فى مقابل تأكيدهم أنهم هم المصلحون.

ولما كان هذا الرد المؤكد عليهم يستدعى عجبًا، لأنهم زعموا أنهم لا حال لهم إلا الاصلاح، مع أنهم فى الحقيقة لا حال لهم إلا الإفساد، لما كان الأمر كذلك، فقد أزال القرآن هذا العجب بقوله:

﴿ولكن لا يشعرون﴾.

أى: أنهم ما قالوه إلا عن غباء استولى على إحساسهم، ونفى عنهم الشعور بما يصدر عنهم من الفساد، فأمسوا لا يدركون من شأن أنفسهم شيئًا، ومن أسوأ ألوان الجهل أن يكون الإنسان مفسدًا ولا يشعر بذلك، مع أن أثر فساده ظاهر فى العيان، مرئى لكل ذى حس. فعدم شعورهم بالفساد الواقع منهم منبىء باختلاف آلات إدراكهم، حتى صاروا يحسبون الفساد صلاحا، والشر خيرًا.

وليس عدم شعورهم رافعًا العقاب عنهم، لأن الجاهل لا يعذر بجهله خصوصًا إذا كان جهله يزول بأدنى تأمل لوضوح الأدلة، وسطوع البراهين.

ثم بين القرآن أن الناصحين قد أمروهم بالمعروف بعد أن نهوهم عن المنكر فقال:

﴿وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء﴾.

المراد من الناس: المؤمنون بالرسول ﷺ الصادقون فى إيمانهم

السفهاء: جمع سفيه، وأصل السفه: الخفة والرقة والتحرك والاضطراب يقال: ثوب سفيه، إذا كان ردىء النسج خفيفه، أو كان باليا رقيقًا. وتسفهت الريح الشجر. أى: مالت به. وزمام سفيه: كثير الاضطراب، لمنازعة الناقة إياه، وشاع فى خفة العقل وضعف الرأى. وهو المعنى المقصود بالسفهاء فى الآية. فقد كان المنافقون يصفون المسلمين بذلك فيما بينهم. وروى أنهم كانوا يقولون: أنؤمن كما آمن سفيه بنى فلان، وسفيه بنى فلان؟! فأوحى الله للنبى ﷺ بهذا الذى كانوا يقولونه.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: لم وصفوهم بالسفه وهم العقلاء المراجيح؟ قلت لأن المنافقين لجهلهم وإخلالهم بالنظر، اعتقدوا أن ما هم فيه هو الحق، وأن ما عداه باطل، ومن

ركب متن الباطل كان سفيهًا، ولأنهم كانوا فى رياسة من قومهم ويسار، وكان أكثر المؤمنين فقراء ومنهم موال كصهيب وبلال وخباب، فدعوهم سفهاء تحقيرًا لشأنهم[١] ا هـ ملخصا.

وقد رد الله عليهم بما يكبتهم ويفضحهم فقال:

﴿ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾ لأنهم أعرضوا عن النظر فى الدليل وباعوا آخرتهم بدنياهم، وهذا أقصى ما يبلغه الإنسان من سفه العقل.

وقد تضمن هذا الرد تسفيههم وتكذيبهم فى دعوى سفه الصادقين فى إيمانهم، فإن قوله - تعالى - ﴿ألا إنهم هم السفهاء﴾ يفيد أن السفه مقصور عليهم فلا يتجاوزهم إلى المؤمنين، وقد تضمنت هذه الجملة من المؤكدات ما تضمنته الجملة السابقة فى قوله - تعالى - ﴿ألا إنهم هم المفسدون﴾.

وإنما قال فى الآية السابقة «ولكن لا يشعرون» وقال فى هذه الآية ﴿ولكن لا يعلمون﴾ لأن الآية السابقة وصفتهم بالإفساد، وهو من المحسوسات التى تدرك بأدنى نظر فيناسبه نفى الشعور الذى هو الإدراك بالمشاعر: الحواس، أما هذه الآية فقد وصفتهم بالسفه، وهو ضعف الرأى والجهل بالأمور، وهذا لا يدركه الشخص فى نفسه إلا بعد نظر وإمعان فكر. فيناسبه نفى العلم.

ثم بين القرآن ماهم عليه من سلوك ذميم، وأنهم يقابلون الناس بوجوه مختلفة فقال:

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

﴿وإذا لقوا الذين آمنوا﴾ يقال لقيته ولاقيته إذا استقبلته وصادفته وكان قريبًا منك. والمصدر

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٦٤.

اللقاء واللقي واللقية. والمقصود: استقبلوهم وكانوا فى مواجهتهم وقريبا منهم. ومرادهم بقولهم «آمنا» أخلصنا الإيمان بقلوبنا لأن الإقرار باللسان معلوم منهم.

وإذا خلوا إلى شياطينهم، أى: انفردوا مع رؤسائهم وقادتهم المشبهين الشياطين فى تمردهم وعنوهم وصدهم عن سبيل الحق. يقال: خلابه وإليه ومعه، خلوا وخلاء وخلوة: سأله أن يجتمع به فى خلوة ففعل وأخلاه معه.

أو المعنى: وإذا مضوا وذهبوا إلى شياطينهم، يقال: خلا بمعنى مضى وذهب، ومنه قوله تعالى ﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾. أى مضت.

وعبر عن حالهم مع المؤمنين بالملاقاة، وعن حالهم مع الشياطين بالخلوة إيذانا بأن هؤلاء المنافقين لا أنس لهم بالمؤمنين، ولا طمأنينة منهم إليهم فهم لا يجالسونهم ولا يسامرونهم، وإنما كل ما هنالك أن يلقوهم فى عرض طريق، أما شأنهم مع شياطينهم فهم إليهم يركنون، وإليهم يتسامرون ويتحادثون، لذلك هم بهم يخلون.

والمعية فى قولهم ﴿إنا معكم﴾، المراد منها موافقتهم فى دينهم، وأكدوا ما خاطبوا به شياطينهم بحرف التأكيد، إذ قالوا ﴿إنا معكم﴾ ليزيلوا ما قد يجرى فى خراطرهم من أنهم فارقوا دينهم وانقلبوا إلى دين الإسلام بقلوبهم

ولم يؤكدوا ماخاطبوا به المؤمنين، إذ قالوا لهم ﴿آمنا﴾ ولم يقولوا «إنا آمنا» ليوهموهم أنهم بمرتبة لاينبغى أن يترددوا فى إيمانهم حتى يحتاجوا إلى تأكيد.

وقوله - تعالى - حكاية عنهم: ﴿إنما نحن مستهزئون﴾. وارد مورد الجواب عما قد يعترض به عليهم شياطينهم إذا قالوا لهم: كيف تدعون أنكم معنا مع أنكم توافقون المؤمنين فى عقيدتهم وتشاركونهم فى مظاهر دينهم؟

فكان جوابهم عليهم ﴿إنما نحن مستهزئون﴾ والاستهزاء: السخرية والاستخفاف بالغير، يقال: هزأ منه وبه - كمنع وسمع - واستهزأ به، أى: سخر.

والمعنى: إننا نظهر للمؤمنين الموافقة على دينهم استخفافًا بهم وسخرية منهم، لا أن ذلك صادر منا عن صدق وإخلاص.

ثم بين - سبحانه - موقفه منهم فقال: ﴿الله يستهزئ بهم﴾.

حمل بعض العلماء استهزاء الله بهم على الحقيقة وإن لم يكن من أسمائه المستهزئ، لأن معناه يحتقرهم على وجه شأنه أن يتعجب منه، وهذا المعنى غير مستحيل على الله، فيصح إسناده إليه - تعالى - على وجه الحقيقة.

ويرى جمهور العلماء أن الاستهزاء لا ينفك عن التلبيس كأن يظهر المستهزئ استحسان الشيء وهو فى الواقع غير حسن، أو يقر المستهزأ به على أمر غير صواب، وهذا المعنى لا يليق بجلال الله، فيجب حمل الاستهزاء المسند إليه تعالى على معنى يليق بجلاله، فيحمل على ما يلزم على الاستهزاء من الانتقام والعقوبة والجزاء المقابل لاستهزائهم، وسمى ذلك استهزاء على سبيل المشاكلة[1] كما فى قوله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾.

وهذا دليل على غيرة الله على عباده المؤمنين، وانتقامه من كل من يستهزئ بهم أو يؤذيهم.

وعبر بالمضارع فى قوله ﴿يستهزئ﴾ للإيذان بأن احتقاره لهم، أو مجازاتهم على استهزائهم يتجدد ويقع المرة بعد الأخرى:

ثم بين - سبحانه - لونا آخر من ألوان غضبه عليهم فقال: ﴿ويمدهم فى طغيانهم يعمهون﴾.

المد: الإمهال والمطاولة والزيادة، من المد بمعنى الإمهال، يقال: مده فى غيه - من باب رد - أمهله وطول له، ويقال: مد الجيش وأمده إذا ألحق به ما يقويه ويكثره ويزيده، وقيل: أكثر ما يستعمل المد فى المكروه، والإمداد فى المحبوب، والطغيان: مجاوزة الحد، ومنه طغا الماء، أى: ارتفع.

ويعمهون: يعمون عن الرشد، أو يتحيرون ويترددون بين الإظهار والإخفاء، أو بين البقاء على الكفر وتركه إلى الإيمان. يقال: عمه - كفرح ومنع - عمها، إذا تردد وتحير، فهو عمه وعامه، وهم عمهون وعمه كركع والمعنى: أن الله تعالى يجازى هؤلاء المنافقين على استهزائهم وخداعهم، ويمكنهم من المعاصى أو يملى لهم ليزدادوا إثمًا. حال كونهم يعمون عن الرشد، فلا يبصرون الحق حقًا ولا الباطل باطلا.

ثم بين - سبحانه - لونا من ألوان غبائهم وبلادتهم فقال: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾.

الاشتراء: أخذ السلعة بالثمن. والمراد: أنهم استبدلوا ماكره الله من الضلالة بما أحبه من الهدى قال ابن عباس: أخذوا الضلالة وتركوا الهدى.

والمشار إليه بـ «أولئك» هم المنافقون: الموصوفون فى الآيات السابقة بالكذب والمخادعة، والإفساد فى الأرض، ورمى المؤمنين بالسفاهة واستهزائهم بهم.

والسر فى الإشارة اليهم والتعبير عنهم بأولئك تمييزهم وتوضيحهم بأكمل صورة وأجلى بيان.

---

(١) قال السكاكى: المشاكلة: أن تذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته ا هـ مفتاح العلوم ص ٢٢٥.

إذ من المعروف عند علماء البلاغة أن اسم الإشارة إذا أشير به إلى أشخاص وصفوا بصفات يلاحظ فيه تلك الصفات، فهو بمنزلة إعادة ذكرها وإحضارها فى أذهان المخاطبين. فتكون تلك الصفات، وهى هنا الكذب والمخادعة وما عطف عليها، كأنها ذكرت فى هذه الآية مرة أخرى ليعرف بها علة الحكم الوارد بعد اسم الإشارة، وهو هنا اشتراء الضلالة بالهدى. أى: اختيارها. واستبدالها به.

وعبرت الآية بالاشتراء على سبيل الاستعارة ليتحدد مقدار رغبتهم فى الضلالة، وزهدهم فى الهدى، فإن المشترى فى العادة يكون شديد الرغبة فيما يشترى، رغبة تجعله شديد الزهد فيما يبذله من ثمن. فهم راغبون فى الضلالة، زاهدون فى الهدى.

وقوله تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ لا يقتضى أنهم كانوا على هدى من ربهم فتركوه، بل يكفى فيه أن يجعل تمكنهم من الهدى لقيام أدلته. بمنزلة الهدى الحاصل بالفعل.

ثم بين سبحانه نتيجة أخذهم الضلالة وتركهم الهدى فقال:

﴿فما ربحت تجارتهم﴾ أى: أنهم لم يحصلوا من اشترائهم الضلالة بالهدى على الربح، وإذا كانت التجارة الحقيقية قد يفوت صاحبها الربح، ولكنه لا يقع فى خسارة بأن يبقى له رأس ماله محفوظًا، فإن التجارة المقصودة من الآية هى استبدال الضلالة بالهدى، لا يقابل الربح فيها إلا الخسران، فإذا نفى عنها الربح فذلك يعنى أنها تجارة خاسرة.

ثم قال - تعالى -: ﴿وما كانوا مهتدين﴾ أى: وما كانوا مهتدين إلى سبيل الرشاد وما تتجه إليه العقول الراجحة من الدين الحق، وما كانوا مهتدين إلى طرق التجارة الرابحة، فهم أولا لم يربحوا فى تجارتهم بل خسروها، وهم ثانيًا ذهب نور الهدى من حولهم فبقوا فى ظلمة الضلال.

وما أوجع أن يجتمع على التاجر خسارته وتورطه، وما أوجع أن يجتمع عليه أن ينقطع عن غايته، وأن يكون فى ظلمة تعوقه عن التبصر.

وبعد أن وصف الله تعالى حال المنافقين فى الآيات السابقة، ساق مثلين لتوضيح سوء تصرفهم، وشدة حيرتهم واضطرابهم. فقال تعالى:

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ

﴿ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿مثلهم﴾ أى: صفتهم، وأصل المثل بمعنى المثل - بكسر الميم وسكون الثاء - والمثل النظير والشبيه، ثم أطلق على القول السائر المعروف لمماثلة مضربه - وهو الذى يضرب فيه - لمورده الذى ورد فيه أولا، ولا يكون إلا فيما فيه غرابة ثم استعير للصفة أو الحال أو القصة إذا كان لها شان عجيب وفيها غرابة، وعلى هذا المعنى يحمل المثل فى هذه الآية،

وإنما تضرب الأمثال لإيضاح المعنى الخفى وتقريب المعقول من المحسوس، وعرض الغائب فى صورة الشاهد، فيكون المعنى الذى ضرب له المثل أوقع فى القلوب، وأثبت فى النفوس.

واستوقد النار: طلب وقودها بسطوع نارها واندلاع لهيبها، أو أوقدها لأن أوقد واستوقد قد يكونان بمعنى واحد كأجاب واستجاب.

والنار: جوهر لطيف حار محرق من نار ينور إذا نفر لحركتها واضطرابها، وأضاءت ما حوله: جعلت ما حوله مضيئًا، أو أشرقت فيما حوله. وحول الشىء: ما يحيط به من جميع نواحيه، ولذا قيل للعام حول، للفه ودورانه حتى يعود كما كان.

والنور: الضوء الذى يكون للشىء المضىء، وهو مأخوذ من النار..

ومعنى: ﴿ذهب الله بنورهم﴾ سلبه منهم، وفى إسناد ذهب إلى الله تعالى - إشعار بأن النور الذى سلب عنهم لن يستطيع أحد أن يرده عليهم، لأن الذى سلبه عنهم إنما هو الله الغالب على أمره.

وقال ﴿بنورهم﴾ ولم يقل بنارهم، لأن إيقاد النار يكون للإضاءة وللإحراق والمقصود من إيقاد النار الواردة فى المثل إنما هو الإضاءة.

وقال ﴿بنورهم﴾ ولم يقل بنوره، مع أن الضمير يعود على ﴿الذى استوقد﴾ وهو بحسب

الظاهر مفرد، لأن ﴿الذى﴾ قد يطلق أحيانا بمعنى الذين، كما فى قوله تعالى : ﴿وخضتم كالذى خاضوا﴾ أو لأن ﴿الذى﴾ أريد منه جنس المستوقد، لا مستوقد بعينه، فصار فى معنى جماعة من المستوقدين. وصح أن يعود عليه ضمير الجمع فى قوله ﴿بنورهم﴾ لذلك.

وأورد الظلمات بصيغة الجمع للمبالغة فى شدتها، فكأنها لشدة كثافتها ظلمات بعضها فوق بعض، وأكد هذا بقوله ﴿لا يبصرون﴾ أى : أن هذه الظلمات بالغة فى الشدة حتى أولئك المحاطين بها لا يتأتى لهم أن يبصروا، كما أن الشان كذلك بالنسبة للذين طمس على أعينهم.

وعبر - سبحانه - بقوله : ﴿وتركهم﴾ ولم يقل : ذهب بنورهم وبقوا فى ظلمات، ليدل بذلك على قطع الصلة بينهم وبين ربهم، وأنهم متروكون غضبًا عليهم ونكاية بهم.

هذا، وللعلماء رأيان فى تطبيق هذا المثل على المنافقين، أما الرأى الأول فيرى أصحابه، أن هذا المثل قد ضرب فى قوم دخلوا فى الإسلام عند وصول النبى ﷺ إلى المدينة، ثم تحولوا بعد ذلك إلى الكفر والنفاق فيقال فى تطبيق هذا المثل عليهم : إن قصة هؤلاء المنافقين الذين اكتسبوا بإيمانهم نورًا، ثم أبطلوا ذلك بنفاقهم، ووقعوا فى حيرة عظيمة، كقصة من استوقدوا نارًا؛ فلما أضاءت ما حولهم، سلب الله منهم الضوء فراحوا فى ظلام لا يهتدون إلى الخروج منه سبيلا.

وأما الرأى الثانى فيرى أصحابه أن هذا المثل إنما ضرب فى قوم لم يسبق لهم إيمان وإنما دخلوا فى الإسلام من أول أمرهم نفاقًا، فيقال فى تطبيق هذا المثل عليهم : إن قصة هؤلاء الذين دخلوا فى الإسلام نفاقًا، فظفروا بحقن دمائهم وبغنائم الجهاد وسائر أحكام المسلمين، وتمتعوا بذلك فى الدنيا قليلا ثم صاروا إلى ظلمات العذاب الدائم فى الآخرة - قصة هؤلاء كقصة من استوقدوا نارا لتضىء لهم وينتفعوا بها، فأضاءت ما حولهم قليلا، ثم طفئت وصاروا إلى ظلمة شديدة مطبقة.

ثم قال - تعالى - : ﴿صم بكم عمى فهم لا يرجعون﴾.

قال القرطبى : والصمم فى كلام العرب : الانسداد، يقال : قناة صماء إذا لم تكن مجوفة، وصممت القارورة إذا سددتها. فالأصم من انسدت خروق مسامعه. والأبكم الذى لا ينطق ولا يفهم، والعمى ذهاب البصر. وليس الغرض مما ذكرناه نفى الإدراكات عن حواسهم جملة، وإنما الغرض نفيها من جهة ما[1].

والآية الكريمة خبر لضمير مقدر يعود على المنافقين، أى : هم صم بكم عمى.

---

(١) تفسير القرطبى جـ١ ص ٢١٤.

ووصف المنافقون بهذه الصفات لأنهم وإن كانت لهم آذان تسمع، وألسنة تنطق، وأعين تبصر، إلا أنهم لا يسمعون خيرًا. ولا يتكلمون بما ينفعهم ولا يبصرون مسلكا من مسالك الهداية، ومن كان كذلك كان هو ومن فقد حواسه سواء، فقد صرف الله عنهم عنايته ووكلهم إلى أنفسهم.

ووردت هذه الصفات مجردة من حرف العطف، فلم يقل: صم وبكم وعمى، لما عرف من استعمالات البلغاء. أن تجريد أمثال هذه الأوصاف من حرف العطف يفيد تأكيدها، حيث إن المتكلم قد قصد إلى تقرير كل صفة منها على حدة.

ومعنى ﴿فهم لا يرجعون﴾، لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه، أو لا يرجعون عن الضلالة بعد أن اشتروها.

والفاء فى قوله - تعالى - ﴿فهم﴾ للتفريع أو التسبيب، لأنها توحى بأن عدم رجوعهم عما هم فيه من النفاق متفرع على تلك الآفات، ومسبب عن هذه العاهات.

ثم ساق - سبحانه - المثل الثانى فقال: ﴿أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق﴾. «أو» للتسوية بين الشيئين وهى مفيدة أن التمثيل بأيهما أو بمجموعهما يؤدى إلى المقصود، فهى مانعة خلو مجوزة للجمع بينهما.

و (الصيب) - كسيد - المطر، من الصوب وهو النزول. يقال: صاب صوبًا، إذا نزل أو انحدر، سمى به المطر لنزوله، وفى الجملة الكريمة إيجاز بحذف ما دل عليه المقام دلالة واضحة. والتقدير: أو كمثل ذوى صيب. والمعنى أن قصة هؤلاء المنافقين مشبهة بقصة الذى استوقد نارًا، أو بقصة ذوى صيب.

والسماء: كل ماعلاك من سقف ونحوه، والمراد بها السحاب.

والرعد: الصوت الذى يسمع بسبب اصطدام سحابتين محملتين بشحنتين كهربيتين أحداهما موجبة والأخرى سالبة.

والبرق: هو الضوء الذى يحدث بسبب الاصطدام ذاته.

وإيراد هذه الألفاظ بصفة التنكير للتهويل، ويكون المعنى: أو أن مثل هؤلاء المنافقين كمثل قوم نزل بهم المطر من السماء تصحبه ظلمات كأنها سواد الليل، ورعد يصم الآذان، وبرق يخطف الأبصار؛ وصواعق تحرق ما تصيبه.

ثم قال - تعالى -: ﴿يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت﴾.

الصواعق : جمع صاعقة من الصعق وهو شدة الصوت الذى يصحبه - غالبًا - قطعة من نار لا تأتى على شىء إلا أهلكته.

(ومن) فى قوله - تعالى - : ﴿ من الصواعق﴾ للتعليل. وإنما كانت الصواعق داعية إلى سدهم آذانهم بأصابعهم، من جهة أنها قد تفضى بصوتها الهائل إلى الموت، وجاء هذا مصرحًا به فى قوله - تعالى - ﴿حذر الموت﴾.

والمعنى : يسدون آذانهم من أجل الصواعق خوفًا من أن تقتلهم بشدة صوتها.

ومن المعروف أن الذى يجعل فى الآذان عند الفَزع بعض الأصابع لا كلها، إلا أنه عبر بالأصابع مبالغة فى فرط فزعهم وشدة اضطرابهم، ومسايرة للمألوف فى اللغة من نسبة ما يكون لبعض الشىء إلى ذلك الشىء، حيث يكون المراد جليًا واضحًا. وهو مجاز مرسل من باب إطلاق الكل وإرادة البعض.

وقوله : ﴿حذر الموت﴾ يدل على أنهم لم يموتوا من تلك المفزعات وهذه المروعات. إمدادا فى عذابهم. ومطاولة فى نكالهم.

وقوله - تعالى - : ﴿والله محيط بالكافرين﴾ جملة معترضة فى أثناء ضرب المثل بذوى الصيب.

وإحاطته - سبحانه - بالكافرين على معنى أنهم لا مهرب لهم منه، فهو محيط بهم إحاطة تامة وهو قادر على النكال بهم متى شاء وكيف شاء.

ولم يقل محيط بهم مع تقدم مرجع الضمير وهو أصحاب الصيب، إيذانًا بأنهم إنما استحقوا ذلك العذاب بكفرهم.

ثم قال - تعالى - : ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم﴾.

يكاد من الأفعال التى تدخل على اسم يسند اليه فعل بعده نحو ﴿البرق يخطف﴾. فتدل على أن المسند إليه وهو البرق قد قارب أن يقع منه الفعل وهو خطف الأبصار.

والخطف : الأخذ بسرعة. والأبصار : جمع بصر، وهو قوة مودعة فى العين يدرك بها الألوان والأشكال.

والمعنى : أن البرق لشدة لمعانه يقرب من أن يخطف أبصارها، وهو تصوير بليغ لشدة ذلك البرق، وترك بيان شدة الرعد اكتفاء بما ذكره فى جانب البرق، ولم يذكر توقيهم للأعين بوضع شىء عليها اكتفاء بما ذكره فى توقى الآذان أو لأنهم شغلوا بالآذان عن الأعين.

وقوله - تعالى - : ﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا﴾ وصف رائع لما يصنعه

أهل الصيب فى حالتى ظهور البرق واختفائه.

وكل ظرف، وما مصدرية ولا تصالها بكل أفادت الشرط والعامل فيها هو جوابها وهو ﴿مشوا﴾ و﴿أضاء﴾ بمعنى لمع، و﴿أظلم﴾ من الإظلام وهو اختفاء النور. و﴿قاموا﴾ أى وقفوا وثبتوا فى مكانهم. من قام الماء إذا جمد. ويقال: قامت الدابة إذا وقفت.

والمعنى: أنهم إذا صادفوا من البرق وميضًا انتهزوا ذلك الوميض فرصة، فخطوا خطوات يسيرة، وإذا خفى لمعانه وقفوا فى مكانهم، فالجملة الكريمة تدل على فرط حرصهم على النجاة من شدة ما هم فيه من أهوال

ثم قال - تعالى -: ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم﴾.

لو: أداة شرط، وشاء بمعنى أراد. أى: لو أراد الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لزاد فى قصف الرعد فأصمهم، وفى ضوء البرق فاعماهم. أو يقال: إن قصف الرعد ولمعان البرق المذكورين فى المثل سببان كافيان لأن يذهبا بسمع ذوى الصيب وأبصارهم لو شاء الله ذلك. فيكون قوله تعالى: ﴿ولو شاء الله لذهب﴾، إشعارًا بأن تأثير الأسباب فى مسبباتها إنما هو بإرادته - تعالى -.

وخص السمع والبصر بالذهاب مع أنها من جملة مشاعرهم، لأهميتها. ولأنها هى التى سبق ذكرها، أو من باب التنبيه بالأعلى على الأدنى، لأنه إذا كان قادرًا على إذهاب ما حافظوا عليه، كان قادرًا على غيره من باب أولى.

ثم ختم الآية بقوله - تعالى - ﴿إن الله على كل شىء قدير﴾.

الشىء فى أصل اللغة كل ما يصح أن يعلم ويخبر عنه، ويحمل فى هذه الآية على الممكن خاصة موجودًا كأن أو معدومًا، لأن القدرة إنما تتعلق بالممكنات دون الواجب والمستحيل.

والقدير: الفعال لما يريد، يقال: قدره على الشىء أقدره قدرة وقدرًا.

وهذه الجملة الكريمة بمنزلة الاستدلال على ما تضمنته الجملة السابقة من أن الله تعالى قادر على أن يذهب بأسماع أصحاب الصيب وأبصارهم متى شاء.

وتطبيق هذا المثل على المنافقين يقال فيه: إن أصحاب الصيب لضعفهم وخورهم لا يطيقون سماع الرعد الهائل، ولا يستطيعون فتح أعينهم فى البرق اللامع، فيجعلون أصابعهم فى آذانهم فزعًا من قصف الرعد، وخوفا من صواعق تجلجل فوق رءوسهم فتدعهم حصيدًا خامدين، وكذلك حال هؤلاء المنافقين فإنهم لضعف بصائرهم، وانطماس عقولهم، تشتد عليهم زواجر القرآن ووعيده وتهديده وأوامره ونواهيه، فتشمئز قلوبهم ويصرفون عنه أسماعهم

خشية أن تتلى عليهم آيات تقع على أسماعهم وقع الصواعق المهلكة.

قال ابن كثير: «وذهب ابن جرير ومن تبعه من المفسرين إلى أن هذين المثلين مضروبان لصنف واحد من المنافقين، وتكون «أو» فى قوله تعالى ﴿أو كصيب﴾ بمعنى الواو، كقوله تعالى «ولا تطع منهم آثمًا أو كفورًا» أو تكون للتخيير، أى، اضرب لهم مثلا بهذا وإن شئت بهذا، أو للتساوى مثل: جالس الحسن أو ابن سيرين. قلت: وهذا يكون باعتبار أجناس المنافقين، فإنهم أصناف ولهم أحوال وصفات كما ذكرها الله تعالى فى سورة براءة بقوله: ﴿ومنهم من يقول ائذن لى﴾. ﴿ومنهم من عاهد الله﴾. ﴿ومنهم من يلمزك فى الصدقات﴾. الخ. فجعل هذين المثلين لصنفين منهم أشد مطابقة لأحوالهم وصفاتهم[1].»

هذا، ويرى فضيلة المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز. أن المثلين لطائفتى الكافرين والمنافقين، فالمثل الأول وهو قوله تعالى «مثلهم كمثل الذين استوقد نارًا» ينطبق تمام الانطباق على الأوصاف التى ذكرها الله للكافرين وأن الذى ينطبق على صفات المنافقين إنما هو المثل الثانى وحده وهو قوله تعالى ﴿أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق..﴾ فقد ضرب الله لكلتا الطائفتين مثلا يناسبها.

قال فضيلته: فضرب مثلا للمصرّين المختوم على قلوبهم بقوم كانوا يسيرون فى ظلام الليل فيهم رجل استوقد لهم نارًا يهتدون بضوئها، فلما أضاءت ما حوله لم يفتح بعض القوم أعينهم لهذا الضوء الباهر، بل لأمر ما سلبوا نور أبصارهم، وتعطلت سائر حواسهم عند هذه المفاجأة، فذلك مثل النور الذى طلع به محمد ﷺ فى تلك الأمة على فترة من الرسل، فتفتحت له البصائر المستنيرة هنا وهناك، لكنه لم يوافق أهواء المستكبرين الذين ألفوا العيش فى ظلام الجاهلية، فلم يرفعوا له رأسا بل نكسوا على رؤسهم، ولم يفتحوا له عينًا بل خروا عليه صما وعميانا.

وضرب مثلا للمترددين المخادعين بقوم جامتهم السماء بغيث منهمر فى ليلة ذات رعد وبرق، فأما الغيث فلم يلقوا له بالا ولم ينالوا منه نيلا، فلا شربوا منه قطرة، ولا استنبتوا به ثمرة.. وأما تلك التقلبات الجوية من الظلمات والرعد والبرق فكانت هى مثار اهتمامهم، ومناط تفكيرهم، ولذلك جعلوا يترصدونها، ويدبرون أمورهم على وفقها، لابسين لكل حال لبوسها: سيرًا تارة، ووقوفًا تارة، واختفاء تارة أخرى.

فكانوا إذا رأوا عرضًا قريبًا وسفرًا قاصدًا وبرقت لهم (بروق) الأمل فى الغنيمة ساروا مع

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٥٦.

المؤمنين جنبًا إلى جنب، وإذا دارت رحا الحرب وانقضت ﴿صواعقها﴾ منذرة بالموت والهزيمة أخذوا حذرهم وفروا من وجه العدو قائلين «إن بيوتنا عورة» حتى إذا كانت الثالثة فلم يلمحوا من الآمال بارقة ولم يتوقعوا من الآلام صاعقة، بل اشتبهت عليهم الأمور فهناك يقفون متربصين لا يتقدمون ولا يتأخرون، ولكن يلزمون شقة الحياد ريثما تنقشع سحابة الشك ﴿فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم، وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين﴾.

ذلك دأب المنافقين فى كل أمرهم، إن توقعوا ربحًا عاجلا التمسوه فى أى صف وجدوه، وإن توقعوا أذى كذلك تنكروا للفئة التى ينالهم فى سبيلها شىء مكروه؛ وإذا أظلم عليهم الأمر قاموا بعيدًا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء؛ أما الذى يؤمن بالله واليوم الآخر فإن له قبلة واحدة يولى وجهه شطرها، هى قبلة الحق لا يخشى فيها لومة لائم:

وليس يبالى حين يقتل مسلما على أى جنب كان فى الله مصرعه[1]

هذا هو رأى فضيلة الدكتور دراز، وهو رأى مستساغ يتمشى مع روح الآيات وأهداف السورة، وأياما كان فالمثلان يصوران أحوال المبطلين بصورة حسية واضحة تتجلى فيها بلاغة القرآن الكريم فى إبراز المعانى المعقولة فى صورة محسة واضحة من شأنها أن تهدى الناس إلى طريق الحق والرشاد.

وبعد أن بينت السورة الكريمة أقسام الناس الثلاثة، وعاقبة كل قسم منهم، ساقت لهم نداء عامًا دعتهم فيه إلى عبادة الله وحده، قال تعالى:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

---

(١) من كتاب النبأ العظيم ص ١٦٤ لفضيلة المرحوم الدكتور الشيخ محمد عبد الله دراز.

ففى هاتين الآيتين توجيه للناس إلى الأمر الذى خلقوا من أجله وهو عبادة الله دون ما سواه، وبيان البراهين الساطعة التى تدل على وحدانية الله وعظيم قدرته.

و «يا» حرف نداء وهو أكثر حروف النداء استعمالا، فهو أصل حروف النداء.

و «أى» اسم مبهم لكن يزول إبهامه بالاسم المقصود بالنداء الذى يأتى بعده.

و «ها» المتصلة به مؤكدة للتنبيه المستفاد من النداء.

و «العبادة» الخضوع البالغ الغاية.

وقد كثر النداء فى القرآن الكريم بهذه الطريقة لما فيها من التأكيد الذى كثيرًا ما يقتضيه المقام.

وفى ذكره تعالى باسم الرب، وإضافته إلى المخاطبين، تقوية لداعية إقبالهم على عبادته.

فإن الإنسان إذا اتجه بفكره إلى معنى كون الله مالكا له، أو مربيًا له وتذكر ما يحفه به من رفق، وما يجود به عليه من إنعام، لم يلبث أن يخصه بأقصى ما يستطيع من الخضوع والخشوع والإجلال.

وإفراد اسم الرب دل على أن المراد رب جميع الخلق وهو الله تعالى، إذ ليس ثمة رب يستحق هذا الاسم بالإفراد والإضافة إلى جميع الناس إلا الله.

ثم بين - سبحانه - الموجبات التى من شأنها أن تحملهم على عبادته وحده فقال «الذى خلقكم والذين من قبلكم».

والخلق: أصله الإيجاد على تقدير وتسوية، ويطلق فى القرآن وفى عرف الشريعة على إيجاد الأشياء المعدومة، فهو إخراجها من العدم إلى الوجود إخراجًا لا صنعة فيه للبشر.

والمعنى: اجعلوا أيها الناس عبادتكم لله تعالى وحده، لأنه هو الذى أوجدكم فى أحسن تقويم بعد أن كنتم فى عدم، كما أوجد الذين تقدموكم.

وقدم وصفه بخلق المخاطبين مع أنه متأخر بالزمان عن خلق من تقدموهم، لأن علم الإنسان بأحوال نفسه أظهر من علمه بأحوال غيره.

وقوله تعالى: ﴿والذين من قبلكم﴾ فيه رد على الدهريين من المخاطبين الذين يزعمون أنهم إنما خلقهم آباؤهم فقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر.

فكان قوله: ﴿والذين من قبلكم﴾ تذكيرا لهم بأن آباءهم الأولين لابد أن ينتهوا إلى أب أول قد خلقه الله تعالى.

وجملة «لعلكم تتقون» تعليل للأمر بالعبادة، ولذلك فصلت.

و «لعل» حرف موضوع ليدل على الترجى، وهو توقع حصول الشىء عندما يحصل سببه وتنتفى موانعه. والشىء المتوقع حصوله فى الآية هو التقوى وسببه العبادة، إذ بالعبادة يستعد الإنسان لأن يبلغ درجة التقوى وهى الفوز بالهدى والفلاح، والترجى قد يكون من جهة المتكلم وهو الشائع وقد تستعمل لعل فى الكلام على أن يكون الترجى مصروفًا للمخاطب، فيكون المترجى هو المخاطب لا المتكلم، وعلى هذا الوجه يحمل الترجى فى هذه الآية، لاستحالة توقع حصول الشىء من عالم الغيب والشهادة، لأن توقع الإنسان لحصول الشىء هو أن يكون مترددًا بين الوقوع وعدمه مع رجحان الوقوع، وعليه فيكون المعنى : اعبدوا ربكم راجين أن تكونوا من المتقين، الذين بلغوا الغاية فى الهدى والفلاح.

ثم أضاف - سبحانه - أسبابًا أخرى تحمل الناس على عبادته وطاعته فقال : ﴿الذى جعل لكم الأرض فراشا﴾.

الفراش : ما يفترشه الإنسان ليستقر عليه بنحو الجلوس أو المنام. أى : اجعلوا عبادتكم لله الذى صير الأرض لأجلكم مهادًا كالبساط المفروش، فذللها لكم ولم يجعلها صعبة غليظة، لكى يتهيأ لكم الاستقرار عليها. والتقلب فى مناكبها، والانتفاع بما أودع الله فى باطنها من خيرات.

وتصوير الأرض بصورة الفراش لا ينافى كونها كروية، لأن الكرة إذا عظمت جدا كانت القطعة منها كالسطح فى إمكان الانتفاع بها.

﴿والسماء بناء﴾ يقال لسقف البيت بناء أى : جعل السماء كالسقف للأرض، لأنها تظهر كالقبة المضروبة فوقها كما قال - تعالى - ﴿وجعلنا السماء سقفًا محفوظًا وهم عن آياتها معرضون﴾.

وقدم خلق الأرض على خلق السماء لأن الأرض أقرب إلى المخاطبين، وانتفاعهم بها أظهر وأكثر من انتفاعهم بالسماء.

قال بعض الأدباء : «إذا تأملت هذا العالم وجدته كالبيت المعد فيه كل ما يحتاج إليه، فالسماء مرفوعة كالسقف، والأرض ممدودة كالبساط، والنجوم منورة كالمصابيح، والإنسان كمالك البيت المتصرف فيه وضروب النبات مهيأة لمنافعه، وضروب الحياة مصروفة لمصالحه «فهذه جملة واضحة دالة على أن العالم مخلوق بتدبير كامل، وتقدير شامل، وحكمة بالغة، وقدرة غير متناهية».

ثم قال - تعالى - ﴿وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقًا لكم﴾ :

السماء : السحاب. والثمرات : ما ينتجه الشجر. والرزق : ما يصلح لأن ينتفع به. والباء فى . (به) للسببية.

أى : أنه جعل الماء سببًا فى خروج الثمرة، وهو القادر على أن ينشئها بلا سبب كما أنشأ الأسباب.

وأورد ﴿ماء﴾ و ﴿رزقًا﴾ فى صيغة التنكير التى تستعمل عند إرادة بعض أفراد المعنى الذى وضع له اللفظ لغة، وذلك لأن من الماء ما لم ينزل من السماء، ومن الرزق ما لا يكون من الثمرات. فمعنى الجملة الكريمة : أنزل من السماء بعض الماء، فأخرج به من الثمرات بعض ما يكون رزقًا لكم.

ثم قال - تعالى - ﴿فلا تجعلوا لله أندادًا وأنتم تعلمون﴾.

الأنداد : جمع ند، وهو مثل الشىء الذى يضاده وينافره ويتباعد عنه.

وأصله من : ند البعير يند ندا ونداداً وندًا، إذا تفرد وذهب على وجهه شاردًا.

والمعنى : فلا تجعلوا لله أمثالا ونظراء تعبدونها وتسمونها آلهة، وتعتقدون فيها النفع والضر، وتجعلون لها ما لله تعالى وحده، وأنتم تعلمون أنها أشياء لا يصح جعلها أندادًا مساوية له تعالى ﴿وأنتم تعلمون﴾ أى : وأنتم من ذوى العلم والنظر، فلو تأملتم أدنى تأمل لانصرفتم بقوة إلى عبادة الله وحده. ولتركتم الإشراك به.

وصدرت الجملة الكريمة بالفاء لترتبها على الكلام السابق، المترتب على الأمر بعبادة الله وحده.

وسمى القرآن الشركاء المزعومين أندادًا تهكمًا بالعابدين لها، ولأن المشركين لما تركوا عبادة الله إلى عبادة الأوثان، وسموها آلهة شابهت حالهم حال من يعتقد أنها آلهة، قادرة على مخالفته ومضادته، وذلك معنى جعلها أندادًا الذى هو مصب النهى فى الآية.

وجملة (وأنتم تعلمون)، حالية، ومفعول تعلمون متروك، لأن الفعل لم يقصد تعليقه بمفعول، بل قصد إثباته لفاعله فقط فنزل منزلة اللازم، وفى هذه الجملة مبالغة فى زجرهم عن عبادة الأوثان من دون الله، لأن ارتكاب الباطل من الجاهل قبيح، وهو من العالم ببطلانه أشد قبحًا، وأدعى إلى أن يقابل بأغلظ ألوان الإنكار. كما أن فيها إثارة لهممهم ليقلعوا عن عبادة غير الله، فإن من كان من ذوى العلم لا يصح منه أن يفعل أفعال من لا عقل له، وهذا لون جليل من ألوان التربية، فإن من سمات المربى الناجح أن يجمع بين القسوة فى النهى عن القبيح، وبين إثارة همة الموعوظ حتى لا يقتل همته باليأس، لأن الإنسان إذا ساءت ظنونه بنفسه

خارت عزيمته، وفترت همته.

هذا، وقد استفاضت الأحاديث النبوية التى تدعو إلى توحيد الله، وتنهى عن الإشراك، ومن ذلك ما جاء فى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: قلت يا رسول الله أى الذنب أعظم عند الله؟ (قال أن تجعل لله ندًا وهو خلقك).

قال الإمام ابن كثير: وهذه الآية دالة على توحيده - تعالى - بالعبادة وحده لا شريك له، فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها ومنافعها، علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه، كما قال بعض الأعراب وقد سئل: ما الدليل على وجود الله - تعالى -؟ فقال: يا سبحان الله!! إن البعر ليدل على البعير؛ وإن أثر القدم يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا يدل هذا على وجود اللطيف الخبير[1].

وبعد أن ساق - سبحانه - فى هاتين الآيتين البراهين الساطعة الدالة على وحدانية الله؛ ونفى عقيدة الشرك، أورد بعد ذلك الدلائل الدالة على صدق النبى ﷺ فيما يبلغه عن ربه، وعلى أن هذا القرآن ليس من صنع بشر، وإنما هو كلام واهب القوى والقدر فقال - تعالى -:

وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

ففى هاتين الآيتين انتقال لإثبات الجزء الثانى من جزأى الإيمان، وهو صدق النبى - ﷺ - فى رسالته، بعد أن تم إثبات الجزء الأول من ذلك وهو وحدانية الله - تعالى - وعظيم قدرته.

والمعنى: إن رتبتم أيها المشركون فى شأن هذا القرآن الذى أنزلناه على عبدنا محمد على مهل وتدريج، فأتوا أنتم بسورة من مثله فى سمو الرتبة، وعلو الطبقة واستعينوا على ذلك بآلهتكم وبكل من تتوقعون منهم العون، ليساعدوكم فى مهمتكم، أو ليشهدوا لكم أنكم أتيتم بما يماثله، إن كنتم صادقين فى زعمكم أنكم تقدرون على معارضة القرآن الكريم.

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٥٨.

والمقصود بقوله : ﴿وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا. . .﴾ نفى الريب عن المنزل عليه - وهو محمد ﷺ - بنفيه عن المنزل وهو القرآن الكريم.

والتعبير عن اعتقادهم فى حقه بالريب للإيذان بأن أقصى ما يمكن صدوره عنهم هو الارتياب فى شأنه، أو للتنبيه على أن كلامهم فى شأن القرآن هو بمنزلة الريب الضعيف لكمال وضوح الدلائل الدالة على أن القرآن من عند الله - تعالى -.

وعبر بقوله : ﴿وإن كنتم فى ريب﴾ ولم يقل : وإن ارتبتم فيما نزلنا، للإشارة إلى أن ذات القرآن لا يتطرق إليها ريب، ولا يطير إلى أفقها شرارة من شك، وأنه إن أثير حوله أى شك فمرجعه إلى انطماس بصيرتهم، وضعف تفكيرهم، واستيلاء الحقد والعناد على نفوسهم.

وأتى بإن المفيدة للشك مع أن كونهم فى ريب مما نزل على النبى ﷺ أمر محقق، تنزيلا للمحقق منزلة المشكوك فيه، وتنزيهًا لساحة القرآن عن أن يتحقق الشك فيه من أى أحد، وتوبيخًا لهم على وضعهم الأمور فى غير مواضعها.

ووجه الإتيان بفى الدالة على الظرفية، للإشارة إلى أنهم قد امتلكهم الريب وأحاط بهم إحاطة الظرف بالمظروف.

وقال ﴿نزلنا﴾ دون أنزلنا، لأن المراد النزول على سبيل التدريج، ومن المعروف أن القرآن قد نزل منجما فى مدة تزيد على عشرين سنة.

قال صاحب الكشاف : (فإن قلت : لم قيل : (مما نزلنا) على لفظ التنزيل دون الإنزال؟ قلت : لأن المراد النزول على سبيل التدريج والتنجيم وذلك أنهم كانوا يقولون : لو كان هذا القرآن من عند الله، لم ينزل هكذا نجومًا سورة بعد سورة، وآيات عقب آيات، على حسب النوازل، وعلى سنن ما نرى عليه أهل الخطابة والشعر من وجود ما يوجد منهم مفرقًا حينًا فحينًا حسب ما يعن لهم من الأحوال المتجددة. . . فقيل لهم : إن ارتبتم فى هذا الذى وقع إنزاله هكذا على مهل وتدريج، فهاتوا أنتم نوبة واحدة من نوبه، وهاتوا نجما فردا من نجومه : سورة من أصغر السور، أو آيات شتى مفترقات، وهذا غاية التبكيت ومنتهى إزاحة العلل)[1] اهـ ملخصًا.

والمراد بالعبد فى قوله - تعالى - : ﴿على عبدنا﴾ محمد - ﷺ - وفى إضافته إلى الله - تعالى - تنبيه على شرف منزلته عنده، واختصاصه به.

وفى ذكره ﷺ باسم العبودية، تذكير لأمته بهذا المعنى، حتى لا يغالوا فى تعظيمه فيدعوا

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٩٧.

ألوهيته كما غالت بعض الفرق فى تعظيم أنبيائها أو زعمائهم فادعت ألوهيتهم.

والسورة: الطائفة من القرآن المسماة باسم خاص، والتى أقلها ثلاث آيات، والضمير فى قوله (من مثله) يعود على المنزل وهو القرآن.

والمراد من مثل القرآن: ما يشابهه فى حسن النظم، وبراعة الأسلوب وحكمة المعنى. وهذا الوجه من الإعجاز يتحقق فى كل سورة.

وقيل: إن الضمير فى قوله (من مثله) يعود على المنزل عليه القرآن، وهو النبى - ﷺ - ولكن الرأى الأول أرجح.

قال الإمام الرازى ما ملخصه: وعود الضمير إلى القرآن أرجح لوجوه:

أحدها: أن ذلك مطابق لسائر الآيات الواردة فى باب التحدى لاسيما ما ذكره فى سورة يونس من قوله: ﴿فأتوا بسورة مثله..﴾.

وثانيها: أن البحث إنما وقع فى المنزل وهو القرآن، لأنه قال: ﴿وإن كنتم فى ريب مما نزلنا..﴾ فوجب صرف الضمير إليه، ألا ترى أن المعنى، وإن ارتبتم فى أن القرآن منزل من عند الله فهاتوا أنتم شيئا مما يماثله، وقضية الترتيب لو كان الضمير مردودا إلى رسول الله ﷺ أن يقال: وإن ارتبتم فى أن محمدا منزل عليه فهاتوا قرآنا مثله.

وثالثها: أن الضمير لو كان عائدا إلى القرآن لاقتضى كونهم عاجزين عن الإتيان بمثله سواء اجتمعوا أو انفردوا وسواء كانوا أميين أو عالمين، أما لو كان عائدا إلى محمد ﷺ فذلك لا يقتضى إلا كون آحادهم من الأميين عاجزين عنه، لأنه لا يكون مثل محمد إلا الشخص الأمى، فأما لو اجتمعوا وكانوا قارئين لم يكونوا مثل محمد، لأن الجماعة لا تماثل الواحد. والقارىء لا يكون مثل الأمى، ولا شك أن الإعجاز على الوجه الأول أقوى.

ورابعها: أننا لو صرفنا الضمير إلى محمد ﷺ لكان ذلك يوهم أن صدور مثل القرآن مما لم يكن مثل محمد فى كونه أميا ممكن، ولو صرفناه إلى القرآن لدل ذلك على أن صدور مثله من الأمى ومن غير الأمى ممتنع فكان هذا أولى)[1].

وقوله - تعالى -: ﴿وادعوا شهداءكم من دون الله﴾ معطوف على قوله: ﴿فأتوا بسورة﴾.

وادعوا: من الدعاء، والمراد به هنا: طلب حضور المدعو أى: نادوهم.

وشهداءكم: أى: آلهتكم، جمع شهيد وهو القائم بالشهادة، فقد كانوا يزعمون أن آلهتهم

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١ ص ٢٢٢.

تشهد لهم يوم القيامة بأنهم على حق. وقيل: الشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر أو الناصر أو الإمام، وكأنه سمى به لأنه يحضر المجالس وتبرم بمحضره الأمور.

ودون: بمعنى غير: وتطلق فى أصل اللغة على أدنى مكان من الشىء، ومنه تدوين الكتب لأنه إدناء البعض من البعض، ودونك هذا أى: خذه من أدنى مكان منك، ثم استعير للتفاوت فى الرتب فقيل: زيد دون عمرو أى: فى الشرف، ومنه الشىء الدون، ثم اتسع فيه فاستعمل فى كل تجاوز حد إلى حد، وتخطى أمر إلى أمر.

قال الجمل: (والمعنى): وادعوا إلى المعارضة من حضركم أو رجوتم معونته من إنسكم وجنكم وآلهتكم غير الله، فإنه لا يقدر على أن يأتى بمثله إلا الله..، أو ادعوا من دون الله شهداء يشهدون لكم بأن ما أتيتم به مثله، ولا تستشهدوا بالله، فإن الاستشهاد به من عادة المبهوت العاجز عن إقامة الحجة، أو شهداءكم الذين اتخذتموهم من دون الله آلهة وزعمتم أنها تشهد لكم يوم القيامة[1]...).

وفى أمرهم بدعوة أصنامهم وهى جماد، وفى تسميتها شهداء مع إضافتها إليهم مع أنها لا تعقل ولا تنطق، فى كل ذلك أقوى ألوان التهكم، لكى يثير فى نفوسهم من الألم ما قد يكون سببًا لتنبيههم إلى جهلهم، وانصرافهم عن ضلالهم.

وقوله - تعالى -: ﴿إن كنتم صادقين﴾ جملة معترضة فى آخر الكلام وجواب الشرط محذوف دل عليه الكلام السابق دلالة واضحة حتى صار ذكره فى نظم الكلام مما ينزل به عن مرتبة البلاغة.

والمعنى: إن كنتم صادقين فى زعمكم أنكم تقدرون على معارضة القرآن فأتوا بسورة من مثله. وادعوا آلهتكم وبلغاءكم وجميع البشر ليعينوكم أو ليشهدوا لكم أنكم أتيتم بما يماثله فى حكمة معانيه وحسن بيانه.

وفى هذه الآية الكريمة إثارة لحماستهم، إذ عرض بعدم صدقهم، فتتوفر دواعيهم على المعارضة التى زعموا أنهم أهل لها.

ثم قال - تعالى -: ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة﴾.

المعنى: فإن لم تفعلوا أى: تعارضوا القرآن، وتبين لكم أن أحدًا لا يستطيع معارضته، فخافوا العذاب الذى أعده الله للجاحدين وهو النار التى وقودها الناس والحجارة».

والوقود: ما يلقى فى النار لإضرامها كالحطب ونحوه، والحجارة: الأصنام التى كانوا

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ٣٨.

يعبدونها من دون الله كما قال – تعالى – : ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾.

واقتران المشركين بما كانوا يعبدون فى النار مبالغة فى إيلامهم وتحسيرهم والاقتصار على ذكر الناس والحجارة لا يؤخذ منه أن ليس فى النار غيرهما بدليل ما ذكر فى مواضع أخرى من القرآن أن الجن والشياطين يدخلونها.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : انتفاء إتيانهم بالسورة واجب فهلا جىء بـ «إذا» الذى للوجوب دون «ان» الذى للشك؟ قلت : فيه وجهان :

أحدهما : أن يساق القول معهم على حسب حسبانهم وطمعهم، وأن العجز عن المعارضة كان قبل التأمل كالمشكوك فيه لديهم لا تكالهم على فصاحتهم واقتدارهم على الكلام.

والثانى : أن يتهكم بهم كما يقول الموصوف بالقوة الواثق من نفسه بالغلبة على من يعاديه : إن غلبتك لم أبق عليك وهو يعلم أنه غالبه ويتيقنه تهكمًا به[1].

وقال : فإن لم تفعلوا، ولم يقل فإن لم تأتوا بسورة من مثله، لأن قوله ﴿فإن لم تفعلوا﴾ جار مجرى الكناية التى تعطى اختصارًا ووجازة تغنى عن طول المكنى عنه، ولأن الإتيان ما هو إلا فعل من الأفعال، تقول : أتيت فلانا. فيقال لك : نعم ما فعلت.

وجملة ﴿ولن تفعلوا﴾ جملة معترضة بين الشرط والجزاء، جىء بها لتأكيد عجزهم عن معارضته. فإن فى نفيها فى المستقبل بإطلاق تأكيدا لنفيها فى الحال.

قال الإمام الرازى : (فإن قيل : فما معنى اشتراطه فى اتقاء النار انتفاء إتيانهم بسورة من مثله؟ فالجواب أنه إذا ظهر عجزهم عن المعارضة صح عندهم صدق رسول الله ﷺ وإذا صح ذلك ثم لزموا العناد استوجبوا العقاب بالنار، فاتقاء النار يوجب ترك العناد، فأقيم المؤثر مقام الأثر، وجعل قوله : ﴿فاتقوا النار﴾ قائمًا مقام قوله فاتركوا العناد، وهذا هو الإيجاز الذى هو أحد أبواب البلاغة، وفيه تهويل لشأن العناد، لإنابة اتقاء النار منابه متبعًا ذلك بتهويل صفة النار)[2].

ومعنى ﴿أعدت للكافرين﴾ هيئت لهم، لأنهم الذين يخلدون فيها، أو أنهم خصوا بها وإن كانت معدة للفاسقين – أيضا لأنه يريد بذلك نارًا مخصوصة لا يدخلها غيرهم كما قال – تعالى – ﴿إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار﴾.

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ١٠١.

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١ ص ٢٢٤.

وفى هذه الآية الكريمة معجزة من نوع الإخبار بالغيب، إذ لم تقع المعارضة من أحد فى أيام النبوة وفيما بعدها إلى هذا العصر.

قال صاحب الكشاف: (فإن قلت: من أين لك أنه إخبار بالغيب على ما هو عليه حتى يكون معجزة؟ قلت: لأنهم لو عارضوه بشىء لم يمتنع أن يتواصفه الناس ويتناقلوه، إذ خفاء مثله فيما عليه مبنى العادة محال، لاسيما والطاعنون فيه أكثف عددًا من الذابين عنه، فحين لم ينقل علم أنه إخبار بالغيب على ما هو به، فكان معجزة)[1].

وقال بعض العلماء: (هذه الآية الجليلة من جملة الآيات التى صدعت بتحدى الكافرين بالتزيل الكريم). وقد تحداهم الله فى غير موضع منه فقال فى سورة القصص:

﴿قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما اتبعه إن كنتم صادقين﴾ وقال فى سورة الإسراء: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾ وقال فى سورة يونس: ﴿أم يقولون افتراه، قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾. وكل هذه الآيات مكية.

ثم تحداهم أيضا فى المدينة بهذه الآية ﴿وإن كنتم فى ريب﴾.. إلخ. فعجزوا عن آخرهم، وهم فرسان الكلام، وأرباب النظام، وقد خصوا من البلاغة والحكم ما لم يخص به غيرهم من الأمم، جعل الله لهم ذلك طبعًا وخلقة وفيهم غريزة وقوة. يأتون منه على البديهة بالعجب ويدلون به إلى كل سبب، فيخطبون، ويمدحون، ويقدحون، ويتوسلون، ويتوصلون، ويرفعون، ويضعون، فيأتون بالسحر الحلال... ومع هذا فلم يتصد لمعارضة القرآن منهم أحد، ولم ينهض - لمقدار سورة منه - ناهض من بلغائهم، ولم ينبض منهم عرق العصبية مع اشتهارهم بالإفراط فى المضارة والمضادة. وقد جرد لهم النبى - ﷺ - الحجة أولا، والسيف آخرًا فلم يعارضوا إلا السيف وحده، وما أعرضوا عن معارضة الحجة إلا لعلمهم أنهم أعجز من المعارضة، وبذلك يظهر أن فى قوله - تعالى - ﴿ولن تفعلوا﴾ معجزة أخرى، فإنهم ما فعلوا، وما قدروا....

وحيث عجز عرب ذلك العصر فما سواهم أعجز فى هذا الأمر.... فدل على أن القرآن ليس من كلام البشر، بل هو كلام خالق القوى والقدر أنزله تصديقًا لرسوله، وتحقيقًا لمقوله[2]...

وبعد أن ذكر القرآن الكفار ومآلهم، عطف على ذلك ذكر المؤمنين وما يفوزون به من نعيم

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص١٠٢.

(١) تفسير القاسمى جـ٢ ص٧٧.

فى حياتهم الباقية، كما هى سنة القرآن فى الجمع بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد فقال - تعالى -:

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾

البشارة: الخبر السار فهو أخص من الخبر، سمى بذلك لأن أثره يظهر على البشرة وهى ظاهر جلد الإنسان، والمأمور بالتبشير هو النبى ﷺ أو كل من يتأتى منه تفخيمًا لأمره، وتعظيمًا لشأنه.

والصالحات: جمع صالحة وهى الفعلة الحسنة، وهى من الصفات التى جرت مجرى الأسماء فى إيلائها العوامل.

والجنات: جمع جنة، وهى كل بستان ذى شجر متكاثف، ملتف الأغصان، يظل ما تحته ويستره، من الجن وهو ستر الشيء عن الحاسة، ثم صارت الجنة اسمًا شرعيًا لدار النعيم فى الآخرة، وهى سبع درجات:

جنة الفردوس، وجنة عدن، وجنة النعيم، ودار الخلد، وجنة المأوى، ودار السلام، وعليون... وتتفاوت منازل المؤمنين فى كل درجة بتفاوت الأعمال الصالحة.

والأنهار جمع نهر - بفتح الهاء وسكونها والفتح أفصح - وهو الأخدود الذى يجرى فيه الماء على الأرض، وهو مشتق من مادة نهر الدالة على الانشقاق والاتساع، ويكون كبيرًا أو صغيرًا.

وأسند إليه الجرى فى الآية مع أن الذى يجرى فى الحقيقة هو الماء، أخذًا بفن معروف بين البلغاء، وهو إسناد الفعل إلى مكانه، توسعًا فى أساليب البيان.

وقوله: «من تحتها» وارد على طريقة الإيجاز بحذف كلمة «أشجار» اعتمادًا على تبادرها إلى الذهن، والمعنى: تجرى من تحت أشجارها الأنهار. ثم بين - سبحانه - أحوال هؤلاء المؤمنين الصالحين فقال:

﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقًا. قالوا هذا الذى رزقنا من قبل﴾.

أى : إن سكان الجنة كلما رزقوا فى الجنة ثمرة من ثمراتها، وجدوها مثل الذى رزقوه فيها من قبل، فى بلوغه الغاية من حسن المنظر ولذة الطعم.

وفى هذا إشارة إلى أن ثمار الجنة متماثلة فى حسن منظرها، ولذة طعمها بحيث لا تفضل ثمرة فى ذلك على أخرى، فجميع ثمرها يسر له القلب، ويستحليه الذوق، وإن اختلفت المناظر والطعوم.

ثم قال - تعالى - ﴿وأتوا به متشابهًا﴾ أى : يشبه بعضه بعضًا فى الصورة والرائحة، ويختلف فى اللذة والطعم، أو فى المزية والحسن، وعن ابن عباس : «ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسامى»؛ وهذه الجملة مؤكدة لما قبلها فى معنى أن كل ثمر يشابه ما قبله فى حسن المنظر ولذة الطعم مشابهة لا يفضل فيها ثمر على آخر؛ بخلاف ثمر الدنيا، فإنه يتفاوت فى مناظره حسنًا، وفى طعومه لذة.

ويرى بعض العلماء حمل قوله - تعالى - : ﴿قالوا هذا الذى رزقنا من قبل﴾ على تقدير : من قبل دخول الجنة، أى هذا الذى رزقناه فى الدنيا، وإلى هذا الرأى مال صاحب الكشاف فقد قال : «فإن قلت : كيف قيل. «هذا الذى رزقنا من قبل ؟ وكيف تكون ذات الحاضر عندهم فى الجنة هى ذات الذى رزقوه فى الدنيا؟ قلت : معناه هذا مثل الذى رزقناه من قبل وشبهه، بدليل قوله : ﴿وأتوا به متشابهًا﴾ فإن قلت : إلام يرجع الضمير فى قوله : ﴿وأتوا به﴾ ؟ قلت : إلى المرزوق فى الدنيا والآخرة جميعًا، لأن قوله : «هذا الذى رزقنا من قبل» انطوى تحته ذكر ما رزقوه فى الدارين. فإن قلت : لأى غرض يتشابه ثمر الدنيا وثمر الجنة؟ قلت : لأن الإنسان بالمألوف آنس؛ وإلى المعهود أميل، وإذا رأى ما لم يألفه نفر عن طبعه، وعافته نفسه[1]».

ثم قال - تعالى - : ﴿ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون﴾.

الأزواج : جمع زوج وهى المرأة يختص بها الرجل، والضمير فى «فيها» يعود إلى الجنات.

والمعنى : أن لهؤلاء المؤمنين نساء مختصات بهم، مطهرات غاية التطهير من كل دنس وقذر، حسى ومعنوى، لا كنساء الدنيا، وهم فى هذه الجنات باقون على الدوام، لأن النعيم إنما يتم باطمئنان صاحبه على أنه دائم، أما إذا كان محتملا للزوال فإن صاحبه يبقى منغص البال، إذ سيتذكر أنه سيفقده فى يوم من الأيام، فجملة «وهم فيها خالدون» جىء بها على سبيل الاحتراس من وهم الانقطاع.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص١٠٨.

وبعد هذا البيان الجامع عن أحوال المهتدين بهديه أو الناكبين عن صراطه، وما تخلل ذلك من المواعظ النافعة، والتمثيلات الرائعة، والبشارات الطيبة لمن آمن وعمل صالحًا، بعد كل ذلك بين - سبحانه - أنه لا يعبأ أن يضرب مثلا بشىء حقير أو غير حقير، فقال - تعالى - :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ (٢٦) ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ (٢٧)﴾

روى الواحدى فى أسباب النزول عن ابن عباس أن الله - تعالى - لما أنزل قوله - تعالى - ﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنقذوه منه﴾ وقوله - تعالى - : ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتًا﴾.

لما نزل قال المشركون : أرأيتم أى شىء يصنع بهذا؟! فأنزل الله ﴿إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها..﴾.

وروى عن الحسن وقتادة أن الله لما ذكر الذباب والعنكبوت فى كتابه وضرب بهما المثل ضحك اليهود وقالوا : ما يشبه أن يكون هذا من كلام الله! فأنزل الله هذه الآية ﴿إن الله لا يستحيى﴾. إلخ.

وقال السدى : لماضرب الله هذين المثلين للمنافقين، يعنى قوله تعالى : ﴿مثلهم كمثل الذى استوقد نارًا..﴾ وقوله تعالى : ﴿أو كصيب من السماء﴾ قال المنافقون : الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال! فأنزل الله هذه الآية.

ويبدو أن الآية الكريمة قد نزلت للرد على جميع تلك الفرق الضالة، فقد قرر العلماء أن لا مانع من تعدد أسباب النزول للآية الواحدة أو للطائفة من الآيات.

والاستحياء والحياء واحد، فالسين والتاء فيه للمبالغة مثل استقدم واستأجر واستجاب. وهو فى أصل اللغة انقباض النفس وانكسارها من خوف ما يعاب به ويذم. وهذا المعنى غير لائق بجلال الله، لذا ذهب جمع من المفسرين إلى تأويله بإرادة لازمه، وهو ترك ضرب الأمثال بها.

والمعنى: إن الله لايترك أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها، وإطلاق الفعل كالاستحياء على ما يترتب عليه كترك الفعل، مألوف فى الكلام البليغ حيث يكون المراد واضحًا.

ومذهب السلف: إمرار هذا وأمثاله على ما ورد، وتفويض علم كنهه وكيفيته إلى الله - تعالى - مع وجوب تنزيهه عما لا يليق بجلاله من صفات المحدثات.

أى: ليس الحياء بمانع لله - تعالى - من ضرب الأمثال بهذه المخلوقات الصغيرة فى نظركم؛ كالبعوض والذباب والعنكبوت، فإن فيها من دلائل القدرة، وبدائع الصنعة ما تحار فيه العقول، ويشهد بحكمة الخالق.

والمثل فى اللغة: الشبيه. وهو فى عرف القرآن: الكلام البليغ المشتمل على تشبيه بديع، كالمثلين السابقين اللذين ضربهما الله فى حال المنافقين؛ أو وصف غريب نحو قوله تعالى:

﴿يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له؛ وإن يسلبهم الذباب شيئا لايستنقذوه منه».

وضرب المثل: إيراده، وعبر عن إيراده بالضرب، لشدة ما يحدث عنه من التأثير فى نفس السامع.

و(ما) فى قوله (مثلا ما) هى ما الإبهامية، تجىء بعد النكرة فتزيدها شيوعًا وعمومًا، كقولك: أعطنى كتابًا ما، أى كتاب كان.

والبعوضة واحدة البعوض وهى حشرة صغيرة تطلق على الناموس وهى بدل أو بيان من قوله (مثلا).

وقوله: ﴿فما فوقها﴾ عطف على بعوضة، والمراد فما فوقها فى الحجم كالذباب والعنكبوت، والكلب والحمار، أو فما فوقها فى المعنى الذى وقع التمثيل فيه، وهو الصغر والحقارة كجناحها أو كالذرة.

قال صاحب الكشاف: سيقت هذه الآية لبيان أن ما استنكره الجهلة والسفهاء وأهل العناد

والمراء من الكفار واستغربوه من أن تكون المحقرات من الأشياء مضروبًا بها المثل، ليس بموضع للاستنكار والاستغراب، من جهة أن التمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب، وإدناء المتوهم من المشاهد. . وأن الله - تعالى - أن يتمثل للأنداد وحقارة شأنها بما لا شيء أصغر منه وأقل، كما لو تمثل بالجزء الذى لا يتجزأ أو بما لا يدركه لتناهيه فى صغره إلا هو وحده. . وقوله : ﴿فما فوقها﴾ فيه معنيان :

أحدهما : فما تجاوزها وزاد عليها فى المعنى الذى ضربت فيه مثلا وهو القلة والحقارة نحو قولك لمن يقول : فلان أسفل الناس وأنذلهم، هو فوق ذلك، تريد هو أعرق فيما وصف من السفالة والنذالة.

والثانى : فيما زاد عليها فى الحجم كأنه قصد بذلك رد ما استنكروه من ضرب المثل بالذباب والعنكبوت لأنهما أكبر من البعوضة[1].

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك موقف الناس أمام هذه الأمثال فقال :

﴿فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم﴾.

أما حرف مفيد للشرط والتفصيل والتأكيد، أما الشرط فلوقوع الفاء فى جوابها، وأما التفصيل فلوقوعها بعد مجمل مذكور أو مقدر، وأما التأكيد فلأنك إذا قلت : زيد ذاهب، ثم قصدت تأكيد ذلك وإفادة أن ذهابه واقع لا محالة قلت : أما زيد فذاهب.

والضمير فى قوله (أنه) يعود على المثل، أو على ضربه المفهوم من قوله : ﴿أن يضرب مثلا﴾.

والحق : خلاف الباطن، وهو الثابت الذى لايسوغ إنكاره.

ووجه كون المثل أو ضربه حقًا، أنه يوضح المبهم، ويفصل المجمل، فهو وسيلة إلى تقرير الحقائق وبيانها.

ووجه تفصيل الناس فى هذه الآية إلى قسمين، أنهم بالنسبة إلى التشريع والتنزيل كذلك، فهم مؤمن أو كافر.

والمقصود من ذكر المؤمنين هنا الثناء عليهم بثبات إيمانهم، وتيئيس الذين أرادوا تشكيكهم ببيان أن إيمانهم يحول بينهم وبين الشك.

وعبر فى جانب المؤمنين بيعلمون تعريضًا بأن الكافرين إنما قالوا ما قالوا عنادًا ومكابرة، وأنهم يعلمون أن ذلك تمثيل أصاب المحز.

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ١١١ وما بعدها.

وقال: ﴿أنه الحق﴾ معرفًا بأل، ولم يقل: أنه حق للمبالغة فى حقية المثل.

ومن المعروف فى علم البيان أن الخبر قد يؤتى به معرفًا بأل، للدلالة على أن المخبر عنه بالغ فى الوصف الذى أخبر به عنه مرتبة الكمال.

وقوله: ﴿من ربهم﴾ حال من الحق، ومن ابتدائية، أى: إن هذا الكلام وارد من الله، لا كما زعم الذين كفروا أنه مخالف للصواب، فهو مؤذن بأنه من كلام الخالق الذى لا يقع منه الخطأ.

ثم بين - سبحانه - موقف الكافرين من هذه الأمثال عندما تتلى عليهم فقال:

﴿وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا﴾.

كلمة (ماذا) مركبة من ما الاستفهامية وذا اسم الإشارة، غير أن العرب توسعوا فيها فاستعملوها اسم استفهام مركبًا من كلمتين، وذلك حيث يكون المشار إليه معبرًا عنه بلفظ آخر غير الإشارة، حتى تصير الإشارة إليه مع التعبير عنه بلفظ آخر لمجرد التأكيد نحو: ماذا التوانى؟ أو حيث لا يكون للإشارة موقع كقوله تعالى: ﴿وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر﴾ وقد يتوسعون فيها توسعًا أقوى فيجعلون ذا اسم موصول، وذلك حين يكون المسئول عنه معروفا للمخاطب بشىء من أحواله، فلذلك يجرون عليه جملة أو نحوها هى صلة ويجعلون ذا موصولا نحو ﴿ماذا أنزل ربكم﴾ ونحو ﴿ماذا أراد الله بهذا مثلا﴾، أى: ما الذى أراده الله بهذا المثل.

والإرادة فى أصل اللغة: نزوع النفس إلى الفعل، وإذا أسندت إلى الله دلت على صفة له تتعلق بالممكنات، فيترجح بها أحد وجهى المقدور، وقد كان جائز الوقوع وعدم الوقوع.

وقوله: ﴿مثلا﴾ واقع فى موقع التمييز لاسم الإشارة «هذا» كقولك لمن أجاب بجواب غير مقبول: ماذا أردت بهذا جوابًا؟

والاستفهام الذى حكاه القرآن على ألسنة هؤلاء الكافرين، المقصود به الإنكار والتحقير لهذه الأمثال، ولأن يكون الله - تعالى - قد ضربها للناس.

والمعنى: فأما المؤمنون الذين من عادتهم الإنصاف، والنظر فى الأمور بنظر العقل واليقين، فإنهم إذا سمعوا بمثل هذا التمثيل علموا أنه الحق الذى لا تمر الشبهة بساحته، وأما الكافرون فإنهم لانطماس بصيرتهم، وتغلب الأحقاد على قلوبهم فإنهم إذا سمعوا ذلك عاندوا وكابروا وقابلوه بالإنكار.

ثم ساق - سبحانه - جملتين بين فيهما الحكمة من ضرب الأمثال فقال : ﴿يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا﴾.

فقد دلت هاتان الجملتان على أن العلم بكون المثل حقًا، مما يزداد به المؤمنون رشدًا على رشدهم، وأن إنكاره ضلال يزداد به الكافرون تخبطًا فى ظلمات جهلهم.

ووصف كلا من فريقى المؤمنين والمنكرين له بالكثرة مع أن المهديين وصفوا بالقلة كثيرا كما فى قوله : ﴿وقليل من عبادى الشكور﴾، وذلك لأن أهل الهدى كثيرون فى أنفسهم، وإذا وصفوا بالقلة فبالقياس إلى أهل الضلال، وأيضًا فإن القليل من أهل الهدى كثير فى الحقيقة، وإن قلوا فى الصورة، فوصفوا بالكثرة ذهابًا إلى هذه الحقيقة.

وقدم الإضلال على الهداية، ليكون أول ما يقرع أسماع المبطلين عن الجواب أمرًا فظيعًا يسوءهم ويفت فى أعضادهم.

ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - : ﴿وما يضل به إلا الفاسقين﴾.

الفاسقون : جمع فاسق، من الفسق، وهو فى أصل اللغة : الخروج.

يقال : فسقت الرطبة من قشرها. أى : خرجت منه، وشرعًا : الخروج عن طاعة الله، فيشمل الخروج من حدود الإيمان، وهو الكفر، ثم ما دون الكفر من الكبائر والصغائر، ولكنه اختص فى العرف بارتكاب الكبيرة، ولم يسمع الفسق فى كلام الجاهلية، بمعنى الخروج عن الطاعة فهو بهذا المعنى من الألفاظ الإسلامية.

وقصر الإضلال بالمثل على الفاسقين، إيذان بأن الفسق هو الذى أعدهم لأن يضلوا به، حيث إن كفرهم قد صرف أنظارهم عن التدبر فيه حتى أنكروه وقالوا : ماذا أراد الله بهذا مثلا.

ثم وصف الله - تعالى - هؤلاء الفاسقين بثلاث خصال ذميمة فقال : فى بيان الخصلة الأولى : ﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾.

والنقض : فى اللغة حقيقة فى فسخ وحل ما ركب ووصل، بفعل يعاكس الفعل الذى كان به التركيب مثل نقض الحبل المفتول وقد استعمل هنا مجازًا فى إبطال العهد بقرينة إضافته إلى عهد الله.

وعبر عن إبطال العهد بالنقض، لأنه أبلغ فى الدلالة على الإبطال من القطع والصرم ونحوهما، لأن فى النقض إفسادًا لهيئة الحبل.

والعهد : اسم للموثق الذى يلزم مراعاته وحفظه، يقال : عهد إليه فى كذا، إذا أوصاه به ووثقه عليه.

وعهد الله : تارة يكون بما ركز فى العقول من الحجة على التوحيد، وتارة يكون بما أوجبه الله على الناس على لسان رسله - صلوات الله عليهم - وتارة بما يلتزمه المؤمن. وليس بلازم له فى أصل الشرع مما ليس بمعصية كالنذور وما يجرى مجراها.

والميثاق : التوثقة، وهى التقوية والتثبيت، والمراد به : ما قوى الله به عهده.

وقوله : ﴿من بعد ميثاقه﴾ متعلق بينقضون، ومن لابتداء الغاية، وميثاقه الضمير فيه يجوز أن يعود على العهد، وأن يعود على اسم الله - تعالى - فهو على الأول مصدر مضاف إلى المفعول، وعلى الثانى مضاف للفاعل.

أما الصفة الثانية التى وصفهم الله بها فهى قوله : «ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل» وهو عام فى كل قطيعة لا يرضاها الله، كقطع الرحم، والإعراض عن موالاة المؤمنين، وترك الجماعات المفروضة، وعدم وصل الأقوال الطيبة بالأعمال الصالحة، وسائر ما فيه رفض خير أو تعاطى شر،

وأما الصفة الثالثة التى وصفهم بها فهى قوله - تعالى - :

﴿ويفسدون فى الأرض﴾.

والفساد فى الأرض يقع بعبادة غير الله، وبالدعاية إلى الكفر به، وبالاستهزاء بالحق، وبالاعتداء على حقوق الغير، وبغير ذلك من الأمور التى حرمها الله - تعالى -.

وعبر بقوله : ﴿فى الأرض﴾ للإشعار بأن فسادهم لا يقتصر عليهم، وإنما هو يتعداهم إلى غيرهم.

ثم بين - سبحانه - بعد أن دمغهم بتلك الصفات المرذولة - عاقبة أمرهم فقال : ﴿أولئك هم الخاسرون﴾.

الخاسرون : جمع خاسر مأخوذ من الخسر والخسران وهو النقص، ومن نقض عهد الله، وقطع ما أمر الله بوصله، وأفسد فى الأرض، لا شك أنه قد نقص نفسه حظها من الفلاح والفوز، وكانت عاقبته الخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة.

قال ابن جرير : «والخاسرون جمع خاسر، وهم الناقصون أنفسهم حظوظهم من رحمة الله بسبب معصيتهم له، كما يخسر الرجل فى تجارته بأن يوضع من رأس ماله فى بيعه، وكذلك المنافق والكافر قد خسرا بحرمان الله لهما من رحمته التى خلقها لعباده[1] . . .».

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٤١٧ طبعة دار المعارف.

وبعد أن عدد القرآن مساوىء أولئك الضالين، وبين سوء مصيرهم، ومآلهم، وجه إليهم الإنكار والتوبيخ فخاطبهم بقوله:

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

﴿كيف﴾ اسم استفهام للسؤال عن الأحوال، وليس المراد به هنا استعلام المخاطبين عن حال كفرهم، وإنما المراد منه معنى تكثر تأديته فى صورة الاستفهام وهو الإنكار والتوبيخ، كما تقول لشخص: كيف تؤذى أباك وقد رباك؟؛ لا تقصد إلا أن تنكر عليه أذيته لأبيه وتوبيخه عليها.

وفى الآية الكريمة التفات من الغيبة إلى الخطاب؛ لزيادة تقريعهم والتعجب من أحوالهم الغريبة، لأنهم معهم ما يدعو إلى الإيمان ومع ذلك فهم منصرفون إلى الكفر.

وقوله: ﴿وكنتم أمواتًا فأحياكم﴾ جار مجرى التنبيه على أن كفرهم ناشىء عن جهل وعدم تأمل فى أدلة الإيمان القائمة أمام أعينهم.

والأموات: جمع ميت بمعنى المعدوم. والإحياء: بمعنى الخلق.

والمعنى: كيف تكفرون بالله وحالكم أنكم كنتم معدومين فخلقكم، وأخرجكم إلى الوجود كما قال - تعالى -:

﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا﴾.

ويصح أن يفسر الأموات بمعنى فاقدى الحياة. والإحياء بنفخ الروح فيهم فيكون المعنى: وكنتم أمواتًا يوم استقراركم نطفًا فى الأرحام إلى تمام الأطوار بعدها، فنفخ فيكم الأرواح؛ وأصبحتم فى طور إحساس وحركة وتفكير وبيان.

وبعد أن وبخهم على كفرهم بمن أخرجهم من الموت إلى الحياة، أورد جملا لاستيفاء الأطوار التى ينتقل فيها الإنسان من مبدأ الحياة إلى مقره الخالد فى دار نعيم أو عذاب فقال: ﴿ثم

يميتكم﴾ بقبض أرواحكم عند انقضاء آجالكم ﴿ثم يحييكم﴾ يبعثكم بعد الموت ﴿ثم إليه ترجعون﴾.

أى تصيرون إليه دون سواه، فيجمعكم فى المحشر؛ ويتولى حسابكم، والحكم فى أمركم بمقتضى عدله ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره﴾.

أما الإماتة فهم يشاهدونها بأعينهم بين الحين والحين، وأما البعث فقد أخبر الله عنه بما يدل على صحته وينفى استبعاده، أو استحالته، بأدلة عقلية ونقلية كثيرة، أما الأدلة العقلية، فمنها: أن الذى قدر على إحيائهم من العدم، قادر على إحيائهم وإعادتهم بعد موتهم فإن الإعادة أهون من البدء دائما، وأما الأدلة النقلية، فمنها قوله - تعالى -:

﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾.

وفى قوله - تعالى - ﴿ثم إليه ترجعون﴾ ترهيب لمن ينزع إلى الشر، ويرتكب المعاصى من غير مبالاة، وترغيب لمن يقبل على فعل الخير، ويقدم على الطاعات.

قال الجمل: «والفاء فى قوله ﴿فأحياكم﴾ على بابها من التعقيب، وثم على بابها من التراخى، لأن المراد بالموت الأول، العدم السابق، وبالحياة الأولى الخلق، وبالموت الثانى الموت المعهود، وبالحياة الثانية الحياة للبعث فجاءت الفاء وثم على بابيهما من التعقيب والتراخى، على هذا التفسير وهو أحسن الأقوال، ويعزى لابن عباس وابن مسعود ومجاهد، والرجوع إلى الجزاء أيضًا متراخ عن البعث»[1].

وبعد أن ذكر - سبحانه - ما يشهد بقدرته ووحدانيته عن طريق الأدلة المتعلقة بذوات المكلفين، أردف ذلك بالكلام عن الأدلة الكونية فقال تعالى:

﴿هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا﴾.

أى: أنه خلق جميع ما فى الأرض من نحو الحيوان والنبات والمعادن والجبال من أجلكم، فهو المنعم عليكم لتنتفعوا بها فى دنياكم، وتستعينوا بها على طاعته.

وقد أخذ العلماء من هذه الآية شاهدًا على أن الأشياء التى فيها منافع مأذون فيها حتى يقوم دليل على حرمتها.

ثم استدل - سبحانه - على مظاهر قدرته بخلق السموات فقال:

﴿ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم﴾.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ٣٥.

استوى إلى السماء: أقبل وعمد إليها بإرادته. وتسويتها معناه: تعديل خلقها وتقويمه. والسماء ليس المراد منها فردا من أفراد السموات، وإنما المراد منها الأجرام العلوية الشاملة لجميع السموات، فصح أن يعود عليها ضمير جمع الإناث فى قوله: ﴿فسواهن﴾، وكذلك علماء البيان يزيدون أن اللفظ إذا أريد منه جنس ما وضع له صار فى معنى الجمع.

فمعنى ﴿ثم استوى إلى السماء﴾ علا إليها وارتفع، من غير تكييف ولا تحديد ولا تشبيه، مع كمال التنزيه عن سمات المحدثات، وقد سئل الإمام مالك عن الاستواء على العرش فقال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

وقدم الأرض هنا لأنها أدل لشدة الملابسة والمباشرة.

وجملة ﴿ثم استوى﴾ معطوفة على جملة (خلق لكم)، وكان العطف بثم لعظم خلق السماء عن خلق الأرض.

وعبر بسواهن للإشعار بأنه - سبحانه - خلقهن فى استقامة، واستقامة الخلق هى انتظامه على وجه لا خلل فيه ولا اضطراب. قال - تعالى -:

﴿ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت﴾.

وجملة ﴿وهو بكل شىء عليم﴾ مقررة لما ذكر قبلها من خلق السموات والأرض وما فيهما على هذه الصورة الحكيمة، فقد دلت على أن ترتيب أجزاء تلك المصنوعات وموافقة جميعها للمنافع المقصودة منها، إنما حدث عن عالم بحقائق تلك الأجزاء وخواصها، ولإحاطته بكل شىء علمًا وضع كل جزء فى موضعه اللائق به.

وبعد أن بين سبحانه للناس أنه قد من عليهم بنعمة خلقه ما فى الأرض جميعًا، بدأ بعد ذلك يذكرهم بنعمة أخرى هى نعمة خلقه لأبيهم آدم، وخلق آدم مبدأ لخلق ذريته، وتكريمه موصول بتكريمهم فقال تعالى:

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ

﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣﴾

ففى هذه الآيات الكريمة عطف - سبحانه - قصة خلق آدم أبى البشر على قصة خلق الأنفس وخلق السماوات والأرض انتقالا فى الاستدلال على أن الله واحد، وجمعًا بين تعدد الأدلة وبين مختلف الحوادث وأصلها، حتى يكون التدليل أجمع، والإيمان بالله أقوى وأثبت.

وإذ وإذا ظرفان للزمان، الأول للماضى والثانى للمستقبل، فإن جاء إذ مع المضارع أفاد الماضى كقوله:

﴿وإذ تقول للذى أنعم الله عليه . . .﴾ وإن جاء إذا مع الماضى أفاد الاستقبال كقوله: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾.

وإذ هنا واقعة موقع المفعول به لعامل مقدر دل عليه المقام.

والمعنى: واذكر يا محمد وقت أن قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة.

وقد جاء هذا المقدر هنا مصرحًا به فى آيات أخرى كما قال تعالى:

﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾.

والملائكة جمع ملك. والتاء لتأنيث الجمع، وأصله ملأك، من ملك، نحو شمال من شمل، والهمزة زائدة وهو مقلوب مالك، وقيل: إن ملاك من لأك إذا أرسل، ومنه الألوكة، أى: الرسالة.

والملائكة، هم جند من خلق الله، ركز الله فيهم العقل والفهم، وفطرهم على الطاعة، وأقدرهم على التشكيل بأشكال مختلفة، وعلى الأعمال العظيمة الشاقة، ووصفهم فى القرآن بأوصاف كثيرة منها أنهم ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ ومنها: أنهم رسل الله أرسلهم بأمره «ومنهم رسل الوحى إلى من

اصطفاهم من خلقه للنبوة والرسالة. قال تعالى:

﴿جاعل الملائكة رسلا﴾ وقال تعالى: ﴿الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس﴾ وقال - تعالى -: ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده﴾.

و (الخليفة) من يخلف غيره وينوب منابه، فهو فعيل بمعنى فاعل،

والتاء فيه للمبالغة، والمراد به آدم - عليه السلام - لأنه كان خليفة من الله فى الأرض، وكذلك سائر الأنبياء استخلفهم الله - تعالى - فى عمارة الأرض، وسياسة الناس، وتكميل نفوسهم، وإجراء أحكامه عليهم، وتنفيذ أوامره فيهم. وقيل: آدم وذريته، لأنه يخلف بعضهم بعضًا فى عمارة الأرض، واستغنى بذكره عن ذكر ذريته لكونه الأصل.

وخطاب الله لملائكته بأنه سيجعل فى الأرض خليفة، ليس المقصود منه المشورة، وإنما خاطبهم بذلك من أجل ما ترتب عليه من سؤالهم عن وجه الحكمة من هذه الخلافة، وما أجيبوا به من بعد، أو من أجل تعليم العباد المشاورة فى أمورهم قبل أن يقدموا عليها وعرضها على ثقاتهم ونصائحهم وإن كان هو - سبحانه - بعلمه وحكمته البالغة غنيًا عن المشاورة. أو الحكمة تعظيم شأن المجهول، وإظهار فضله، بأن بشر بوجود سكان ملكوته، ونوه بعظيم شأن المجعول بذكره فى الملأ الأعلى قبل إيجاده، ولقبه بالخليفة.

ثم حكى - سبحانه - إجابة الملائكة فقال:

﴿قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾.

الفساد: الخروج عن الاعتدال والاستقامة ويضاده الصلاح. يقال فسد الشىء فسادًا وفسودًا وأفسده غيره.

والسفك: الصب والإهراق، يقال: سفكت الدم والدمع سفكًا - من باب ضرب - صببته. والفاعل سافك وسفاك، والمراد به حصول التقاتل بين أفراد بنى الإنسان ظلمًا وعدوانًا.

والتسبيح: مشتق من السبح وهو المر السريع فى الماء أو فى الهواء، فالمسبح مسرع فى تنزيه الله وتبرئته من السوء.

والتقديس: التطهير والتعظيم ووصفه بما يليق به من صفات الكمال.

فيكون التسبيح نفى ما لا يليق، والتقديس إثبات ما يليق، وقدم التسبيح على التقديس من باب تقديم التخلية على التحلية.

والمعنى: أتجعل فى الأرض يا إلهنا من يفسد فيها ويريق الدماء والحال أننا نحن ننزهك عما

لا يليق بعظمتك، تنزيهًا متلبسًا بحمدك والثناء عليك، ونطهر ذكرك عما لا يليق بك تعظيمًا لك وتمجيدًا.

وقولهم: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها. . . إلخ﴾ إنما صدر منهم على وجه استطلاع الحكمة فى خلق نوع من الكائنات يصدر منه الإفساد فى الأرض وسفك الدماء. وقطعهم بحكمة الله فى كل ما يفعل لا ينافى تعجبهم من بعض أفعاله، لأن التعجب يصدر عن خفاء سبب الفعل، فمن تعجب من فعل شىء وأحب الاطلاع على الحكمة الباعثة على فعله لا يعد منكرا.

والملائكة لا يعلمون الغيب، فلابد أن يكونوا قد علموا ماذا سيكون من الفساد فى الأرض وسفك الدماء بوجه من الوجوه التى يطلع الله بها على غيبه بعض المصطفين الأخبار من خلقه.

قال الإمام ابن كثير فى توضيح هذا المعنى: قوله - تعالى -: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية، فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمأ مسنون، أو فهموا من الخليفة أنه الذى يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم. ويردعهم عن المحارم والمآثم. . وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله ولا على وجه الحسد لبنى آدم كما قد يتوهمه البعض. . وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة فى ذلك، يقولون ياربنا ما الحكمة فى خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد فى الأرض، ويسفك الدماء فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك، ولا يصدر منا شىء من ذلك فهلا وقع الاقتصار علينا؟[1].

وقد رد الله - تعالى - على الملائكة بقوله: ﴿قال إنى أعلم ما لا تعلمون﴾.

أى: إنى أعلم من المصلحة الراجحة فى خلق هذا الصنف على المفاسد التى ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم، فإنى سأجعل فيهم الأنبياء، وأرسل فيهم الرسل ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعباد والزهاد والأولياء والأبرار والمقربون والعلماء العاملون والمحبون له - تعالى - المتبعون رسله.

فالجملة الكريمة إرشاد لهم إلى الأمر الذى من شأنه أن يقف بهم عند حدود الأدب اللائق بمقام الخالق - عز وجل - وتنبيه إلى أنه - تعالى - عالم بما لا يحيط به علم أحد من خلقه، فله أن يفعل ما يشاء ويأمر بما يشاء،

وليس من أدب المؤمنين بأنه العليم الحكيم أن يسألوه حين يأمرهم بشىء، أو يعلمهم بأنه

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٦٩.

سيفعل شيئًا، عن حكمة ما أمر به أو ما سيفعله، بل شأنهم أن يتجهوا إلى استطلاع حكمة الأفعال والأوامر من أنفسهم، فإذا أدركوها فقد ظفروا بأمنيتهم، وإن وقفت عقولهم دونها، ففى تسليمهم لقدر الله، وامتثالهم لأوامره الكفاية فى القيام بحق التكليف والفوز برضا الله، الذى هو الغاية من الإيمان به والإقبال على طاعته.

قال بعض العلماء: «وفى هذه الآية الكريمة تسلية للنبى ﷺ عن تكذيب بعض الناس له، لأنه إذا كان الملأ الأعلى قد مثلوا على أنهم يختصمون ويطلبون البيان والبرهان فيما لا يعلمون، فأجدر بالناس أن يكونوا معذورين - وبالأنبياء أن يعاملوهم كما عامل الله الملائكة المقربين، أى: فعليك يا محمد أن تصبر على هؤلاء المكذبين، وترشد المسترشدين، وتأتى أهل الدعوة بسلطان مبين[1].

ثم أخذ - سبحانه - فى بيان جانب من حكمة خلق آدم، وجعله خليفة فى الأرض، بعد أن أجاب الملائكة على سؤالهم بالجواب المناسب الحكيم فقال - تعالى - :

﴿وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾.

علم: من التعليم وهو التعريف بالشىء. وآدم: اسم لأبى البشر، قيل إنه عبرانى مشتق من أدمه، وهى لغة عبرانية معناها التراب، كما أن «حواء» كلمة عبرانية معناها «حى» وسميت بذلك لأنها تكون أم الأحياء.

و﴿الأسماء﴾ جمع اسم، والاسم ما يكون علامة على الشىء، وتأكيد الأسماء بلفظ «كلها» فى أنه علمه أسماء كل ما خلق من المحدثات من إنسان وحيوان ودابة، وطير، وغير ذلك. ويصح حمل الأسماء على خواص الأشياء ومنافعها، فإن الخواص والمنافع علامات على ما تتعلق به من الحقائق.

وقوله: ﴿ثم عرضهم على الملائكة﴾ عرض الشىء: إظهاره وإبانته والضمير فى ﴿عرضهم﴾ يعود على المسميات، وهى مفهومة من قوله: ﴿الأسماء كلها﴾ إذ الأسماء لابد لها من مسميات، فإذا أجرى حديث عن الأسماء حضر فى ذهن السامع ما هو لازم لها، أعنى المسميات.

ودل على المسميات بضمير جمع الذكور العقلاء فقال: ﴿عرضهم﴾ ولم يقل عرضها، لأن فى جملة هذه المسميات أنواعًا من العقلاء: كالملائكة، والإنس، ومن الأساليب المعروفة بين

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٢ ص ٧.

فصحاء العرب تغليب الكامل على الناقص، فإذا اشتركا فى نحو الجمع أو التثنية أتى بالجمع أو التثنية على ما يطلق حال الكامل منهما.

والأمر فى قوله: ﴿أنبئونى بأسماء هؤلاء﴾، ليس من قبيل الأوامر التى يقصد بها التكليف، أى: طلب الإتيان بالمأمور به، وإنما هو وارد على جهة إفحام المخاطب بالحجة.

والمعنى: أن الله - تعالى - ألهم آدم معرفة ذوات الأشياء التى خلقها فى الجنة، ومعرفة أسمائها ومنافعها، ثم عرض هذه المسميات على الملائكة. فقال لهم على سبيل التعجيز: ﴿أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾ فيما اختلج فى خواطركم من أنى لا أخلق خلقًا إلا وأنتم أعلم منه وأفضل.

قال ابن جرير: «وفى هذه الآيات العبرة لمن اعتبر والذكرى لمن ذكر، والبيان لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، عما أودع الله فى هذا القرآن من لطائف الحكم التى تعجز عن أوصافها الألسن، وذلك أن الله - تعالى - احتج فيها لنبيه ﷺ على من كان بين ظهرانيه من يهود بنى إسرائيل، بإطلاعه إياه من علوم الغيب التى لم يكن - تعالى - أطلع عليها من خلقه إلا خاصا، ولم يكن مدركا علمه إلا بالإنباء والإخبار ليقرر عندهم صدق نبوته، ويعلموا أن ما أتاهم به إنما هو من عند الله».

ثم حكى - سبحانه - ما كان من الملائكة فقال:

﴿قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾.

سبحان: اسم مصدر بمعنى التسبيح؛ أى التنزيه، وهو منصوب بفعل مضمر لا يكاد يستعمل معه.

وهذه الآية الكريمة واقعة موقع الجواب عن سؤال يخطر فى ذهن السامع للجملة السابقة، إذ الشأن أن يقال عند سماعهم قوله - تعالى-: ﴿أنبئونى بأسماء هؤلاء﴾، ماذا كان من الملائكة؟ هل أنبأوا بأسماء المسميات المعروضة عليهم؟ فقال - تعالى -: ﴿قالوا سبحانك لا علم لنا﴾ إلخ الآية.

ولو قال الملائكة: لا علم لنا بأسماء هذه المسميات لكان جوابهم على قدر السؤال، ولكنهم قصدوا الاعتراف بالعجز عن معرفة أسماء تلك المسميات المعروضة على أبلغ وجه فنفوا عن أنفسهم أن يعلموا شيئًا غير ما يعلمهم الله، ودخل فى ضمن هذا النفى العام الاعتراف بالقصور عن معرفة الأسماء المسئول عنها.

ومعنى ﴿إنك أنت العليم الحكيم﴾ أى: أنت يا ربنا العليم بكل شىء، الحكيم فى خلقك وأمرك وفى تعليمك ما تشاء ومنعك ما تشاء، لك الحكمة فى ذلك، والعدل التام.

وقدم الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة، ليكون وصفه بالعلم متصلا بنفيهم عن أنفسهم فى قولهم: ﴿لا علم لنا إلا ما علمتنا﴾.

وبعد أن بين القرآن أن الملائكة قد اعترفوا بالعجز عن معرفة ما سئلوا عنه، وجه - سبحانه - الخطاب إلى آدم، يأمره فيه بأن يخبر الملائكة بالأسماء التى سئلوا عنها، ولم يكونوا على علم بها، فقال - تعالى -:

﴿قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾.

ففى هذه الآية الكريمة أخبرنا الله - تعالى - أنه قد أذن لآدم فى أن يخبر الملائكة بالأسماء التى فاتتهم معرفتها ليظهر لهم فضل آدم، ويزدادوا اطمئنانا إلى أن إسناد الخلافة إليه، إنما هو تدبير قائم على حكمة بالغة.

وعلم الغيب يختص به واجب الوجود - سبحانه - لأنه هو الذى يعلم المغيبات بذاته، وأما العلم بشىء من المغيبات الحاصل من تعليم الله فلا يقال لصاحبه إنه يعلم الغيب.

وقوله - تعالى - ﴿ألم أقل لكم إنى أعلم...﴾ إلخ الآية، استحضار وتأكيد لمعنى قوله قبل ذلك، ﴿إنى أعلم ما لا تعلمون﴾. وإعادة له على وجه من التفصيل أفاد أن علمه يشمل ما يظهرونه بأقوالهم أو أفعالهم، وما يضمرونه فى أنفسهم.

وفى قوله: ﴿ألم أقل لكم...﴾ إلخ تعريض بمعاتبتهم على ترك الأولى، حيث بادروا بالسؤال عن الحكمة، وكان الأولى أن يأخذوا بالأدب المناسب لمقام الألوهية، فيتركوا السؤال عنها إلى أن يستبين لهم أمرها بوجه من وجوه العلم.

ومن الفوائد التى تؤخذ من هذه الآيات، أن الله - تعالى - قد أظهر فيها فضل آدم - عليه السلام - من جهة أن علمه مستمد من تعليم الله له، فإن إمداد الله له بالعلم يدل على أنه محاط منه برعاية ضافية، ثم إن العلم الذى يحصل عن طريق النظر والفكر قد يعتريه الخلل، ويحوم حوله الخطأ. فيقع صاحبه فى الإفساد من حيث إنه يريد الإصلاح، بخلاف العلم الذى يتلقاه الإنسان من تعليم الله، فإنه علم مطابق للواقع قطعًا، ولا يخشى من صاحبه أن يحيد عن سبيل الإصلاح، وصاحب هذا العلم هو الذى يصلح للخلافة فى الأرض، ومن هنا، كانت السياسة الشرعية أرشد من كل سياسة،والأحكام النازلة من السماء أعدل من القوانين الناشئة فى الأرض.

وبعد أن بين القرآن فى الآيات السابقة بعض الكرامات التى خص الله بها آدم، انتقل إلى

بيان كرامة أخرى أكرم الله بها آدم - عليه السلام - وهى أمره للملائكة بالسجود له، ثم بيان ما حصل بينه وبين إبليس، فقال - تعالى - :

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾

وقوله - تعالى - : ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم . .﴾ إلخ، معطوف على قوله - تعالى قبل ذلك ﴿وإذ قال ربك للملائكة . .﴾ إلخ، من باب عطف القصة على القصة، وإعادة (إذ) بعد حرف العطف المغنى عن إعادة ظرفه، تنبيه على أن الجملة مقصودة بذاتها، لأنها متميزة بهذه القصة العجيبة فجاءت على أسلوب يؤذن بالاستقلال والاهتمام.

والسجود : لغة التذلل والخضوع مع انخفاض بانحناء وغيره، وخص فى الشرع بوضع الجبهة على الأرض بقصد العبادة.

وللعلماء فى كيفية السجود الذى أمر الله به الملائكة لآدم أقوال : أرجحها أن السجود المأمور به فى الآية يحمل على المعنى المعروف فى اللغة، أى : أن الله - تعالى - أمرهم بفعل تجاه آدم

يكون مظهرًا من مظاهر التواضع والخضوع له تحية وتعظيمًا، وإقرارًا له بالفضل دون وضع الجبهة على الأرض الذى هو عبادة، إذ عبادة غير الله شرك يتنزه الملائكة عنه.

وعلى هذا الرأى سار علماء أهل السنة. وقيل: إن السجود كان لله، وآدم إنما كان كالقبلة يتوجه إليه الساجدون تحية له، وإلى هذا الرأى اتجه علماء المعتزلة، وقد قالوا ذلك هربًا من أن تكون الآية الكريمة حجة عليهم، فإن أهل السنة قالوا: إبليس من الملائكة، والصالحون من البشر أفضل من الملائكة، واحتجوا بسجود الملائكة لآدم، وخالفت المعتزلة فى ذلك، وقالت: الملائكة أفضل من البشر، وسجود الملائكة لآدم كان كالقبلة.

والذى نراه أن ما سار عليه أهل السنة أرجح، لأن ما ذهب إليه المعتزلة يبعده أن المقام مقام لإظهار فضل آدم على الملائكة، وإظهار فضله عليهم لا يتحقق بمجرد كونه قبلة للسجود.

وأمر الملائكة بالسجود لآدم هو لون من الابتلاء والاختبار، ليميز الله الخبيث من الطيب، وينفذ ما سبق به العلم، واقتضته المشيئة والحكمة:

ثم بين - سبحانه - ما حدث من الملائكة ومن إبليس فقال:

﴿فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾.

إبليس: اسم مشتق من الإبلاس، وهو الحزن الناشىء عن شدة اليأس، وفعله أبلس، والراجح أنه اسم أعجمى، ومنعه من الصرف للعلمية والعجمة وهو كائن حى، وقد أخطأ من حمله على معنى داعى الشر الذى يخطر فى النفوس، إذ ليس من المعقول أن يكون كذلك مع أن القرآن أخبرنا بأنه يرى الناس ولا يرونه. قال - تعالى - ﴿إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾.

وقوله: ﴿أبى واستكبر﴾ الإباء: الامتناع عن الفعل أنفة مع التمكن منه. والاستكبار: التكبر والتعاظم والغرور، بمعنى أن يرى الشخص فى نفسه علوًا على غيره، وهو خلق مذموم.

وكان فى قوله: ﴿وكان من الكافرين﴾ بمعنى صار.

وجاء العطف فى قوله ﴿فسجدوا . . .﴾ بالفاء المفيدة للتعقيب، للإشارة إلى أن الملائكة قد بادروا بالامتثال بدون تردد، ولم يصدهم ما كان فى نفوسهم من التخوف من أن يكون هذا المخلوق، مظهر فساد وسفك دماء، لأنهم منزهون عن المعاصى.

وللعلماء فى كون إبليس من الملائكة أم لا قولان:

أحدهما: أنه كان منهم لأنه - سبحانه - أمرهم بالسجود لآدم، ولولا أنه كان منهم لما توجه إليه الأمر بالسجود، ولو لم يتوجه إليه الأمر بالسجود لم يكن عاصيًا، ولما استحق الخزى والنكال.

ولأن الأصل فى المستثنى أن يكون داخلا تحت اسم المستثنى منه حتى يقوم دليل على أنه خارج عنه. وقد اختار هذا الرأى ابن عباس، وابن مسعود وجمهور المفسرين.

وقيل إنه ليس منهم لقوله - تعالى - ﴿إلا إبليس كان من الجن، ففسق عن أمر ربه﴾، فهو أصل الجن، كما أن آدم أصل الإنس، ولأنه خلق من نار، والملائكة خلقوا من نور، ولأن له ذرية ولا ذرية للملائكة. وقد اختار هذا القول الحسن وقتادة وغيرهما.

وقد حاول ابن القيم أن يجمع بين الرأيين فقال: والصواب التفصيل فى هذه المسألة، وأن القولين فى الحقيقة قول واحد، فإن إبليس كان مع الملائكة بصورته وليس منهم بمادته وأصله. كان من نار وأصل الملائكة من نور، فالنافى كونه من الملائكة. والمثبت لم يتواردا على محل واحد[1].

ولما كان استثناء إبليس من الساجدين لا يدل على أنه ترك السجود عصيانًا، إذ قد يكون تركه لعذر، دل بقول: ﴿أبى واستكبر﴾ على أنه امتنع من السجود أنفة، وتعاظمًا، وأردف هذا التعاظم والغرور باعتراضه على الله - تعالى - فى تفضيل آدم، فصار بذلك فى فريق الكافرين، ولذا ختمت الآية بقوله - تعالى - : ﴿وكان من الكافرين﴾ أى: صار بسبب عصيانه واستكباره من الكافرين بالله، الجاحدين لنعمه، البعيدين عن رحمته ورضوانه.

وقوله - تعالى - ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ معطوف على قوله (وإذ قلنا للملائكة . . . إلخ﴾ أى: بعد أن أمرنا الملائكة بالسجود لآدم، قلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة، فهذه تكرمة أكرمه الله بها بعد أن أكرمه بكرامة الإجلال من تلقاء الملائكة.

وقوله: ﴿اسكن﴾ أمر من السكنى بمعنى اتخاذ المسكن على وجه الاستقرار.

والزوج: يطلق على الرجل والمرأة والمراد به هنا حواء، حيث تقول العرب للمرأة زوج، ولا تكاد تقول زوجة.

والجنة: هى كل بستان ذى شجر متكاثف، ملتف الأغصان، يظلل ما تحته ويستره، من الجن، وهو ستر الشىء عن الحاسة.

وجمهور أهل السنة على أن المراد بها هنا دار الثواب. التى أعدها الله للمؤمنين يوم القيامة، لأن هذا هو المتبادر إلى الذهن عند الإطلاق.

ويرى جمهور علماء المعتزلة أن المراد بها هنا بستان بمكان مرتفع من الأرض، خلقه الله

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٢ ص ١٠٤.

لإسكان آدم وزوجه، واختلفوا فى مكانه، فقيل بفلسطين. وقيل بغيرها.

وقد ساق الإمام ابن القيم فى كتابه (حادى الأرواح) أدلة الفريقين دون أن يرجح شيئًا منها. والأحوط والأسلم: الكف عن تعيينها وعن القطع به، وإليه ذهب أبوحنيفة وأبومنصور الماتريدى فى التأويلات، إذ ليس لهذه المسألة تأثير فى العقيدة.

والمخاطب بالأمر، بسكنى الجنة آدم وحواء، ولكن الأسلوب جاء فى صيغة الخطاب لآدم وعطفت عليه زوجه، لأنه هو المقصود بالأمر وزوجه تبع له.

ثم بين - سبحانه - أنه قد أباح لهما أن يأكلا من ثمار الجنة أكلا واسعا فقال:

﴿وكلا منها رغدا حيث شئتما﴾ أى كلا من مطاعم الجنة وثمارها أكلا هنيئًا أو واسعًا فى أى مكان من الجنة أردتم.

يقال: رغد عيش القوم أى: اتسع وطاب، وأرغد القوم، أى: أخصبوا وصاروا فى رزق واسع.

والضمير فى قوله ﴿منها﴾ يعود إلى الجنة، والمراد بالأكل منها: الأكل من مطاعمها وثمارها، لأن الجنة تستلزم ثمارًا هى المقصودة بالأكل.

ثم بين - سبحانه - أنه نهاهم عن الأكل من شجرة معينة فقال: ﴿ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾.

القرب: الدنو، والمنهى عنه هو الأكل من ثمار الشجرة، وتعليق النهى بالقرب منها إذ قال ﴿ولا تقربا﴾القصد منه المبالغة فى النهى عن الأكل، إذ فى النهى عن القرب من الشىء قطع لوسيلة التلبس به، كما قال تعالى: ﴿ولا تقربوا الزنا﴾ فنهى عن القرب من الزنا ليقطع الوسيلة إلى ارتكابه وهى القرب منه. وأكد النبى بأن جعل عدم اجتناب الأكل من الشجرة ظلمًا فقال: ﴿فتكونا من الظالمين﴾ وقد ظلما أنفسهما إذ أكلا منها، فقد ترتب على أكلهما منها أن أخرجا من الجنة التى كانا يعيشان فيها عيشة راضية.

وقد تكلم العلماء كثيرًا عن اسم هذه الشجرة ونوعها فقيل هى التينة، وقيل: هى السنبلة، وقيل هى الكرم.. إلخ. إلا أن القرآن لم يذكر نوعها على عادته فى عدم التعرض لذكر ما لم يدع المقصود من سوق القصة إلى بيانه.

وقد أحسن الإمام ابن جرير فى التعبير عن هذا المعنى فقال: «والصواب فى ذلك أن يقال: إن الله - تعالى - نهى آدم وزوجه عن الأكل من شجرة يعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها، ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين، لأن الله لم يضع لعباده دليلا

على ذلك فى القرآن ولا من السنة الصحيحة، وقد قيل: كانت شجرة البر، وقيل كانت شجرة العنب. وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به[١].

ثم بين القرآن بعد ذلك ما وقع فيه آدم من خطأ فقال: ﴿فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه﴾ أى: اذهبهما عن الجنة بكذبه عليهما ومقاسمته أنه لهما من الناصحين.

وأزل من الإزلال وهو الإزلاق: زل يزل زلا وزللا، أى: زلق فى طين أو منطق، والاسم الزلة. وأزله غيره واستزله: أى أزلقه. أطلق وأريد به لازمه وهو الإذهاب.

وقرىء ﴿فأزالهما﴾ أى: نحاهما من الإزالة، تقول أزلت الشىء عن مكانه إزالة. أى: نحيته وأذهبته عنه.

ثم استعمل هذا اللفظ فى ارتكاب الخطيئة كما استعمل فى خطأ الرأى مجازًا. والضمير فى قوله: ﴿عنها﴾ يعود إلى الشجرة، ومعنى أزلهما عن الشجرة أوقعهما فى الزلة بسببها.

والتعبير بقوله: ﴿فأخرجهما مما كانا فيه﴾ أبلغ فى الدلالة على فخامة الخيرات التى كانا يتقلبان فيها مما لو قيل: فأخرجهما من النعيم أو من الجنة لأن من أساليب البلاغة فى الدلالة على عظم الشىء أن يعبر عنه بلفظ مبهم كما هنا. لكى تذهب نفس السامع فى تصور عظمته وكماله إلى أقصى ما يمكنها أن تذهب إليه.

ونسبة إخراجهما من الجنة إلى الشيطان فى قوله: ﴿فأخرجهما﴾ من قبيل نسبة الفعل إلى ما كان سببًا فيه، وذلك أن أكلهما من الشجرة الذى ترتب عليه إخراجهما من الجنة إنما وقع بسبب وسوسة الشيطان لهما.

وقوله - تعالى - ﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو﴾ الخطاب فيه لآدم وحواء، وإبليس، وقيل الخطاب لآدم وحواء ونسلهما.

والهبوط: النزول من أعلى إلى أسفل ضد الصعود. يقال: هبط يهبِط ويهبُط أى: نزل من علو إلى سفل.

والعداوة معناها التناكر والتنافر بالقلوب.

أى: قلنا لآدم وحواء والشيطان انزلوا إلى الأرض متنافرين متباغضين، يبغى بعضكم على بعض.

وعداوة الشيطان لآدم نشأت عن حسد وتكبر منذ أن أُمِر بالسجود له فأبى وامتنع وقال: أنا خير منه.

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٥٢١.

وعداوة آدم وذريته للشيطان من جهة أنه يكيد لهم بالوسوسة والإغراء وفى هذه الجملة الكريمة إرشاد لآدم وذريته، ونهى لهم عن اتباع خطوات الشيطان، لأنه عدو لهم، ومن شأن العدو أنه يسعى لمضرة عدوه.

قال - تعالى - : ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾.

ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - : ﴿ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾.

المستقر: موضع الاستقرار والثبات، وهو مقابل القلق والاضطراب، والمتاع: اسم لما يستمتع به من مأكل ومشرب وملبس وحياة وأنس وغير ذلك، مأخوذ من متع النهار متوعًا إذا ارتفع، ويطلق على الانتفاع الممتد الوقت.

والحين: الجزء من الزمان غير محدد بحد، والمراد به هنا وقت الموت أو يوم القيامة.

والمعنى: انزلوا إلى الأرض بعضكم لبعض عدو؛ ولكم فيها منزل وموضع استقرار. وتمتع بالعيش إلى أن يأتيكم الموت.

ومن كان على ذكر دائم من أن استقراره فى الأرض وتمتعه بنعيمها سينتهى فى وقت، لا يدرى متى يدركه، فشأنه أن ينتفع بخيراتها ويتمتع بطيب العيش فيها، وهو مقبل على العمل لمرضاة الله ما استطاع، وشاكر لأنعمه بالقلب واللسان، لا يشغله عن الشكر شاغل من ملذات هذه الحياة ومظاهر زينتها.

ثم حكى القرآن أن آدم قد بادر بطلب العفو والمغفرة من ربه فقال: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾.

التلقى فى الأصل: التعرض للقاء، ثم استعمل بمعنى أخذ الشىء وقبوله، تقول: تلقيت رسالة من فلان. أى أخذتها منه وقبلتها.

والكلمات: جمع كلمة، وهى اللفظة الموضوعة لمعنى، وأرجح ما قيل فى تعيين هذه الكلمات، ما أشار إليه القرآن فى سورة الأعراف بقوله:

﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾.

والتوبة فى أصل اللغة معناها: الرجوع، وإذا عديت بعن كان معناها الرجوع عن المعصية إلى الطاعة، وإذا عديت بعلى - كما فى هذه الآية - كان معناها قبول التوبة، فالعبد يتوب عن المعصية، والله يتوب على العبد أى: يقبل توبته.

وجملة ﴿إنه هو التواب الرحيم﴾ واردة مورد التعليل لقوله: ﴿فتاب عليه﴾.

والتواب وصف له - تعالى - من تاب، أى : قبل التوبة، وجاء التعبير بصيغة فعّال، للإشعار بأنه كثير القبول للتوبة من عباده، وليدل على أنه يقبل توبة العبد وإن وقعت بعد ذنب يرتكبه ويتوب منه ثم يعود إليه بعد التوبة ثم يتوب بعد العودة إليه توبة صادقة نصوحًا.

وبعد أن أخبر القرآن فى الآيات السابقة أن الله - تعالى - قد أمر آدم وحواء وإبليس بالهبوط من الجنة، نراه بعد ذلك قد أعاد خبر الأمر بالهبوط فقال :

﴿قلنا اهبطوا منها جميعًا، فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

وليست هذه الإعادة من قبيل التكرار الذى يقصد منه مجرد التوكيد، بل قص الأمر بالهبوط أولا ليعلق عليه معنى؛ هو كون بعضهم لبعض عدوًا.

ثم قصه ثانية ليعلق عليه معنى آخر هو ما ترتب على الهبوط من تفصيل لحال المخاطبين، وانقسامهم إلى مهتدين وضالين.

والفاء فى قوله ﴿فإما﴾ لإفادة ترتيب انقسام المخاطبين إلى مهتدين وكافرين على الهبـوط المفهوم من قوله : ﴿اهبطوا﴾.

و ﴿إما﴾ هى إن الشرطية دخلت عليها «ما» لإفادة التوكيد، ويغلب على فعل شرطها أن يكون مؤكدًا بالنون وأوجب بعضهم ذلك.

والهدى من الله معناه الدلالة على ما هو حق وخير بلسان رسول، أو بآيات كتاب.

وقد صرح - سبحانه - بأن الهدى صادر منه بقوله : ﴿منى هدى﴾ ثم أضافه إلى نفسه بقوله : ﴿هداى﴾ للإيذان بتعظيم أمر الهدى؛ وأنه أحق بأن يتبع، ويتخذ سبيلا لطمأنينة النفس فى الدنيا، والفوز بالسعادة فى الأخرى.

والخوف : الفزع وهو تألم النفس من مكروه يتوقع حصوله.

والحزن : الغم الحاصل لوقوع مكروه أو فقد محبوب.

ومعنى ﴿لا خوف عليهم﴾ أن نفوسهم آمنة مطمئنة بحيث لا يعتريها فزع، ولا ينتابها ذعر، كما أن قوله : ﴿ولا هم يحزنون﴾ ينفى عنهم الاغتمام لفوات مطلوب أو فقد محبوب.

ونفى الخوف والحزن ورد فى الآية على وجه الإطلاق، وظاهره أن المهتدين لايعتريهم الخوف ولاالحزن فى دنياهم ولا فى آخرتهم، ولكن قوله -تعالى- فيما يقابله من جزاء الكافرين ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾، يرجح أن يكون المراد نفى الخوف والحزن فى الدار الأخرة.

ونفى الخوف والحزن عن المهتدين يوم القيامة كناية عن سلامتهم من العذاب وفوزهم بالنعيم الخالد فى الجنة، فتمت المقابلة بين جزاء المهتدين وجزاء الكافرين المشار إليه بقوله - تعالى - :

﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

إذ هذه الآية الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - ﴿فمن تبع هداى﴾. إلخ، وواردة مورد المقابل له فى تفصيل أحوال من يأتيهم الهدى من الله.

ولم يقل : والذين لم يتبعوا هداى أولئك أصحاب النار. . وإنما قال : ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك. .﴾ إلخ، وذلك لأن من لم يتبع هدى الله يشمل من لم تبلغه الدعوة، وغير المكلفين مثل الصبيان وفاقدى العقل، وهؤلاء ليسوا من أصحاب النار. فظهر أن قوله : ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا. .﴾ جىء به على قدر من يستحقون الحكم عليهم بأنهم من أصحاب النار والمجازاة بالعذاب الخالد الأليم.

والآيات : جمع آية، وهى فى الأصل العلامة، وتستعمل فى الطائفة من الكتاب المنزل، وفيما يستدل به على وجود الله وتوحيده، من نحو بدائع مصنوعاته ومظاهر عنايته بالإنسان.

وأضاف - سبحانه - الآيات إلى نفسه فقال : ﴿بآياتنا﴾ ليكون قبح التكذيب بها أظهر، وأتى بنون العظمة فقال (بآياتنا) دون أن يقول «بآياتى» لبعث المهابة فى نفوس السامعين، وذلك أدعى إلى تلقى الوعيد باهتمام وخشية.

وأصحاب : جمع صاحب مأخوذ من الصحبة، وهى الاقتران والملازمة، ودل بقوله : ﴿هم فيها خالدون﴾ على أن صحبتهم للنار دائمة، وليست من الصحبة التى تستمر مدة ثم تنقطع.

هذا جانب من قصة آدم كما حكاه القرآن فى هذه السورة، ومن الحكم التى تؤخذ منها : أن سياسة الأمم على الطريقة المثلى إنما تقوم على أساس راسخ من العلم، وأن فضل العلم النافع فوق فضل العبادة، وأن روح الشر الخبيثة إذا طغت على نفس من النفوس، جعلتها لا ترى البراهين الساطعة، ولا يوجهها إلى الخير وعد، ولا يردعها عن الشر وعيد.

كما يستفاد منها كيف أن الرئيس يفسح المجال لمرؤسيه المخلصين، يجادلونه فى أمر يريد قضاءه، ولا يزيد عن أن يبين لهم وجهة نظره فى رفق، وإذا تجاوزوا حدود الأدب اللائق به راعى فى عتابهم ما عرفه فيهم من سلامة القلب، وتلقى أوامره بحسن الطاعة.

كما يؤخذ منها أن المتقلب فى نعمة يجب أن يحافظ عليها بشكر الله، ولا يعمل عملا فيه مخالفة لأوامر الله؛ لأن مخالفة أوامر الله، كثيرًا ما تؤدى إلى زوال تلك النعمة ، ومن أراد أن تزداد النعم بين يديه، فعليه أن يلتزم طاعة الله وشكره.

وقال بعض العلماء : وقد يتبادر إلى الذهن أن آدم قد ارتكب ما نهى عنه، ارتكاب من يتعمد المخالفة، فيكون أكله من الشجرة معصية، مع أنه من الأنبياء المرسلين، والرسل معصومون من مخالفة أوامر الله.

والجواب عن ذلك أن آدم تعمد الأكل من الشجرة، ناسيًا النهى عن الأكل منها، وفعل المنهى عنه على وجه النسيان لا يعد من قبيل المعاصى التى يرتكبها الشخص وهو متذكر أنه يرتكب محرمًا، إذ أن ارتكاب المحرم عن علم وتذكر هو الذى يجعل مرتكبه مستحقًا للعقاب، والأنبياء معصومون من ذلك.

وإذا عاتب الله بعض الأخيار من عباده عل ما صدر منهم على وجه النسيان، فلأن علمهم بالنهى يدعوهم إلى أن يقع النهى من نفوسهم موقع الاهتمام، بحيث يستفظعون مخالفته استفظاعًا يملأ نفوسهم بالنفور منها، ويجعلهم على حذر من الوقوع فى بلائها.

فالذى وقع من آدم - عليه السلام - هو أنه غفل عن الأخذ بالحزم فى استحضار النهى وجعله نصب عينيه حتى أدركه النسيان، ففعل ما نهى عنه غير متعمد للمخالفة، قال - تعالى - :

﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزمًا﴾.

هذا، وبعد أن ذكر القرآن الكريم الناس جميعًا بنعم الله عليهم، ليحملهم بذلك على إخلاص العبادة له، وتصديق رسوله ﷺ فيما جاء به، ومن بين هذه النعم خلق آدم وإظهار فضله على الملائكة، بعد كل ذلك اتجه إلى تذكير طائفة خاصة من الكافرين المعاصرين للنبى ﷺ وهم بنو إسرائيل، استمالة لقلوبهم نحو الإيمان بالله، وكسرا لعنادهم ولجاجتهم، فقال - تعالى - :

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۢ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾

وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن ابراهيم - عليهم السلام - وفى إضافتهم إلى أبيهم إسرائيل تشريف لهم وتكريم، وحث لهم على الامتثال لأوامر الله ونواهيه، فكأنه قيل : يا بنى العبد الصالح، والنبى الكريم، كونوا مثل أبيكم فى الطاعة والعبادة.

ويستعمل مثل هذا التعبير فى مقام الترغيب والترهيب، بناء على أن الحسنة فى نفسها حسنة وهى من بيت النبوة أحسن، والسيئة فى نفسها سيئة وهى من بيت النبوة أسوأ، ففى هذا النداء. خير داع لذوى الفطر السليمة منهم إلى الإقبال على ما يرد بعده من التذكير بالنعمة، واستعمالها فيما خلقت له.

ومعنى ﴿اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم﴾ تنبهوا بعقولكم وقلوبكم لتلك المنافع التى أتتكم على سبيل الإحسان منى، وقوموا بحقوقها وأكثروا من الحديث عنها بألسنتكم، فإن التحدث بنعم الله فيه إغراء بشكرها.

والمراد بالنعمة : المنعم بها عليهم، وتجمع على نعم، وقد وردت فى القرآن الكريم بمعنى الجمع كما فى قوله تعالى : ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ فإن لفظ العدد والإحصاء قرينة على أن المراد بالنعمة : النعم الكثيرة. ويبدو أن المراد بالنعمة فى الآية التى معنا كذلك النعم المتعددة حيث إنه لم يقم دليل على أن المراد بها نعمة معهودة، وعلماء البيان يعدون استعمال المفرد فى معنى الجمع - اعتمادًا على القرينة - من أبلغ الأساليب الكلامية.

ثم أمرهم - سبحانه - بالوفاء بما عاهدهم عليه، فقال تعالى : ﴿وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم﴾ العهد ما من شأنه أن يراعى ويحفظ، كاليمين والوصية وغيرهما، ويضاف إلى المعاهِد والمعاهَد جميعًا، يقال : أوفيت بعهدى، أى بما عاهدت غيرى عليه، وأوفيت بعهدك، أى بما عاهدتنى عليه، وعهد الله : أوامره ونواهيه، والوفاء به يتأتى باتباع ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، ويندرج فيه كل ما أخذ على بنى إسرائيل فى التوراة، من اتباع محمد ﷺ متى بعث، والإيمان بما جاء به من عند الله وتصديقه فيما يخبر عن ربه.

والمعنى : وأوفوا بما عاهدتمونى عليه من الإيمان بى، والطاعة لى، والتصديق برسلى، أوف بما عاهدتكم عليه من التمكين فى الأرض فى الدنيا والسعادة فى الآخرة.

ثم أمرهم - سبحانه - بأن يجعلوا خوفهم من خالقهم وحده، فقال - تعالى - : ﴿وإياى فارهبون﴾ أى : خافونى ولا تخافوا سواى، ولتكن قلوبكم عامرة بخشيتى وحدى، فإن ذلك يعينكم على طاعتى، ويبعدكم عن معصيتى.

وحذف متعلق الرهبة للعموم، أى ارهبونى فى جميع ما تأتون، وما تذرون، حتى لا أنزل

بكم من النقم مثل ما أنزلت بمن قبلكم من المسخ وغيره، فالآيات الكريمة قد تضمنت وعدًا ووعيدًا وترغيبًا وترهيبًا.

﴿وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم﴾.

وبعد أن أمر الله - عز وجل - بنى إسرائيل، أن يوفوا بعهده عمومًا أتبع ذلك بأمرهم بأن يوفوا بأمر خاص وهو القرآن الكريم، وفى التعبير عنه بذلك تعظيم لشأنه، وتفخيم لأمره. وأفرد - سبحانه - أمرهم بأن يؤمنوا به مع إندراجه فى قوله - تعالى - ﴿وأوفوا بعهدى﴾ للإشارة إلى أن الوفاء بالعهد لا يحصل منهم إلا إذا صدقوا به.

والمراد بما معهم التوراة، والتعبير عنها بذلك للإشعار بعلمهم بتصديقه لها. والمعنى: آمنوا يا بنى إسرائيل بالكتاب المنزل على محمد ﷺ وهو القرآن الكريم المصدق لكتابكم التوراة، ومن مظاهر هذا التصديق اشتمال دعوته على ما يحقق دعوتها، من الأمر بتوحيد الله - تعالى - والحث على التمسك بالفضائل، والبعد عن الرذائل، وإخباره بما جاء بها من الإشارة إلى بعثة النبى ﷺ، ومطابقة ما وصفته به مطابقة واضحة جلية وموافقته لها فى أصول الدين الكلية، وهيمنته عليها، ولذا قال - عليه الصلاة والسلام -: «لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا اتباعى»[١].

وفى إخبار بنى إسرائيل بأن القرآن الكريم مصدق لما معهم، إثارة لهممهم لو كانوا يعقلون - للإقبال عليه، متدبرين آياته، حتى تستيقن نفوسهم أنه دعوة الحق والإصلاح المؤدية إلى السعادة فى الدنيا والآخرة وحتى تطمئن قلوبهم إلى أن الإيمان به معناه الإيمان بما معهم، والكفر به، كفر بما بين أيديهم، حيث إن ما بين أيديهم قد بشر ببعثة محمد - ﷺ - المنزل عليه القرآن الكريم.

قال الإمام الرازى: (وهذه الجملة الكريمة تدل على صدق النبى - ﷺ - من وجهين:

أولهما: أن الكتب السابقة قد بشرت به، وشهاداتها لا تكون إلا حقًا

وثانيهما: أنه - عليه الصلاة والسلام - قد أخبرهم عما فى كتبهم بدون معرفة سابقة لها، وهذا لا يتأتى إلا عن طريق الوحى[٢].

وبعد أن أمرهم - سبحانه - بالإيمان الخالص، عرض بهم لتكذيبهم وجحوهم، فقال - تعالى -: ﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾ أى: لا تكونوا أول فريق من أهل الكتاب يكفر بالقرآن الكريم، فيقتدى بكم أناس آخرون وبهذا تصيرون أئمة للكفر مع أن من الواجب

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما -

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١ ص ٤٣٠

عليكم أن تسارعوا إلى الإيمان به لأنكم أدرى الناس بأنه من عند الله، وأكثرهم علمًا بأنه الرسول الذى نزل عليه هذا القرآن، وهو الصادق الأمين فيما يبلغه عن ربه.

والمقصود من هذه الجملة الكريمة، تبكيتهم على مسارعتهم فى الكفر، واستعظام وقوع الجحود منهم، وتوعدهم عليه بسوء المآل.

قال الإمام الرازى: (هذه الجملة خطاب لبنى إسرائيل قبل غيرهم فكأنه - سبحانه - يقول لهم: لا تكفروا بمحمد، فإنه سيكون بعدكم كفرة، فلا تكونوا أنتم أولهم لأن هذه الأولية موجبة لمزيد الإثم، وذلك لأنهم إذا سُبقوا إلى الكفر، فإما أن يقتدى بهم غيرهم أولا، فإن اقتدى بهم غيرهم كان عليهم وزره ووزر كل كافر إلى يوم القيامة، وإن لم يقتد بهم غيرهم، اجتمع عليهم أمران: السبق إلى الكفر؛ والتفرد به وكلاهما منقصة عظيمة، وتؤدى إلى العاقبة الوبيلة)[1].

ثم نهاهم عن أن يبيعوا دينهم بدنياهم، فقال - تعالى -: ﴿ولا تشتروا بآياتى ثمنًا قليلا﴾. والاشتراء هنا استعارة للاستبدال، والذى استبدل به الثمن القليل هو الإيمان بالآيات، والمراد بالآيات: البراهين المؤيدة لصدق النبى ﷺ وفى مقدمتها القرآن الكريم والتوراة.

والمراد بالثمن القليل: حظوظ الدنيا وشهواتها من نحو الرياسة والمال والجاه، وما إلى ذلك من الأمور التى خافوا ضياعها لو اتبعوا الرسول ﷺ.

والمعنى: لا تستبدلوا بالإيمان بما أنزلت مصدقًا لما معكم شيئًا من حطام الدنيا، ولا تختاروا على ثواب الله بديلا من الأموال، فإنها مهما كثرت فهى قليلة مسترذلة بالنسبة لما يناله أولو الإيمان الخالص من رعاية ضافية فى الدنيا، وخيرات حسان فى الأخرى.

وليس وصف الثمن بالقلة من الأوصاف المخصصة للنكرات، بل هو من الأوصاف اللازمة للثمن المحصل بالآيات؛ إذ لا يكون إلا قليلا وإن بلغ ما بلغ من أعراض الدنيا بجانب رضا الله - عز وجل -.

ونزل تمكينهم من الإيمان بالآيات لوضوحها منزلة حصوله بالفعل، فكأن الإيمان كان فى حوزتهم، ولكنهم خلعوه ونبذوه، مستبدلين الذى هو أدنى بالذى هو خير؛ فباءوا بغضب على غضب لكفرهم بالقرآن الكريم وبتوراتهم التى بشرت بالرسول - عليه الصلاة والسلام -.

ثم حذرهم - سبحانه - من التمادى فى الكفر بما أنزل، مصدقًا لما معهم، فقال - تعالى - «وإياى فاتقون» الاتقاء معناه الحذر، يقال: فلان اتقى الله أى حذر عقابه وبطشه، والحذر من

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١ ص ٤٣٢ بتصرف وتلخيص.

عقاب الله، يستلزم امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فمعنى «وإياى فاتقون» آمنوا بى، واتبعوا الحق وأعرضوا عن الباطل.

وبعد أن نهى القرآن الكريم بنى إسرائيل عن الكفر والضلال، عقب ذلك بنهيهم عن أن يعملوا لإضلال غيرهم، فقال - تعالى - : ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل، وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾.

اللبس - بفتح اللام - الخلط، وفعله : ليس، من باب : ضرب تقول : لبَست عليه الأمر، ألبِسه إذا مزجت بينه بمشكله، وحقه بباطله.

ولدعاة الضلالة طريقتان فى إغواء الناس :

إحداهما : طريقة خلط الحق بالباطل حتى لا يتميز أحدهما عن الآخر وهى المشار إليها بقوله تعالى : ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل﴾.

والثانية : طريقة جحد الحق وإخفائه حتى لا يظهر، وهى المشار إليها بقوله تعالى : ﴿وتكتموا الحق﴾.

وقد استعمل بنو إسرائيل الطريقتين لصرف الناس عن الإسلام، فقد كان بعضهم يؤول نصوص كتبهم الدالة على صدق النبى - ﷺ - تأويلا فاسدًا، يخلطون فيه الحق بالباطل، ليوهموا العامة أنه ليس هو النبى المنتظر، وكان بعضهم يلقى حول الحق الظاهر شبهًا، ليوقع ضعفاء الإيمان فى حيرة وتردد، وكان بعضهم يخفى أو يحذف النصوص الدالة على صدق النبى ﷺ، والتى لا توافق أهواءهم وشهواتهم، فنهاهم الله - تعالى - عن هذه التصرفات الخبيثة.

والمعنى : ولاتخلطوا الحق الواضح الذى نطقت به الكتب السماوية، وأيدته العقول السليمة، بالباطل الذى تخترعونه من عند أنفسكم، إرضاء لأهوائكم، ولا تكتموا الحق الذى تعرفونه، كما تعرفون أبناءكم، بغية انصراف الناس عنه «لأن من جهل شيئًا عاداه ، فالنهى الأول عن التغيير والخلط، والنهى الثانى عن الكتمان والإخفاء.

وقوله تعالى : ﴿وأنتم تعلمون﴾ جملة حالية، أى وأنتم من ذوى العلم، ولا يناسب من كان كذلك أن يكتم الحق، أو يلبسه بالباطل، وإذا كان هذا الفعل - وهو لبس الحق بالباطل، أو كتمانه وإظهار الباطل وحده - يعد من كبائر الذنوب، فإن وقعه يكون أقبح، وفساده أكبر، وعاقبته أشأم متى صدر من عالم فاهم، يميز بين الحق والباطل.

ففى هذه الجملة الكريمة بيان لحال بنى إسرائيل، المخاطبين بهذا النهى، وتبكيت لهم، لأنهم لم يفعلوا ما فعلوه عن جهالة، وإنما عن علم وإصرار على سلوك هذا الطريق المعوج.

قال أبو حيان فى البحر: «وهذه الحال، وإن كان ظاهرها أنها قيد فى النهى عن اللبس والكتم، فلا تدل بمفهومها على جواز اللبس والكتم حالة الجهل، إذ الجاهل بحال الشىء لا يدرى كونه حقًا أو باطلا، وإنما فائدتها بيان أن الإقدام على الأشياء القبيحة، مع العلم بها، أفحش من الإقدام عليها مع الجهل[1].

وبعد أن أمرهم - سبحانه - بأصل الدين الذى هو الإيمان به وبرسوله محمد ﷺ أردفه بركنين من أركانه العملية، إذا قاموا بهما لانت قلوبهم للحق، وانعطفت نفوسهم نحو خشية الله وحده، فقال تعالى: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين﴾ والمراد بإقامة الصلاة، أداؤها مستوفية لأركانها وشرائطها وآدابها. والمراد بإيتاء الزكاة دفعها لمستحقيها كاملة غير منقوصة.

والمعنى: عليكم يا معشر اليهود أن تحافظوا على أداء الصلاة، التى هى أعظم العبادات البدنية، وعلى إيتاء الزكاة التى هى أعظم العبادات المالية، وأن تخضعوا لما يلزمكم فى دين الله - تعالى - لأن فى محافظتكم على هذه العبادات تطهيرًا لقلوبكم، وتأليفًا لنفوسكم، وتزكية لمشاعركم، ولأنكم إن لم تحافظوا عليها كما أمركم الله - تعالى - فسيلحقكم الخزى فى الدنيا، والعذاب فى الأخرى.

هذا، ونرى من المناسب أن نختم تفسير هذه الآيات الكريمة، وبيان ما اشتملت عليه من توجيه سليم، وتركيب بليغ، بما قاله أبو حيان فى تفسيره، فقد قال - رحمه الله -:

«وفى هذه الجمل - وإن كانت معطوفات بالواو التى لا تقتضى فى الوضع ترتيبًا - ترتيبٌ عجيب من الفصاحة، وبناء الكلام بعضه على بعض، وذلك أنه تعالى أمرهم أولا بذكر النعمة التى أنعمها عليهم، إذ فى ذلك ما يدعو إلى محبة المنعم ووجوب طاعته: ثم أمرهم بإيفاء العهد الذى التزموه للمنعم، ثم رغبهم بترتيب إيفائه هو تعالى بعهدهم فى الإيفاء بالعهد، ثم أمرهم بالخوف من نقمه إن لم يوفوا، فاكتنف الأمر بالإيفاء أمر بذكر النعمة والإحسان، وأمر بالخوف من العصيان. ثم أعقب ذلك بالأمر بإيمان خاص وهو ما أنزل من القرآن، ورغب فى ذلك بأنه مصدق لما معهم، فليس أمرًا مخالفًا لما فى أيديهم، لأن الانتقال إلى الموافق أقرب من الانتقال إلى المخالف ثم نهاهم عن استبدال الخسيس بالنفيس، ثم أمرهم - تعالى - باتقائه ثم أعقب ذلك بالنهى عن لبس الحق بالباطل، وعن كتم الحق، فكان الأمر بالإيمان أمرًا بترك الضلال، والنهى عن لبس الحق بالباطل، وكتمان الحق تركًا للإضلال.

(١) تفسير «البحر المحيط» لأبى حيان جـ ١ ص ١٨٠، مطبعة السعادة سنة ١٣٢٧ هـ.

ولما كان الضلال ناشئًا عن أمرين :

إما تمويه الباطل حقًا، إن كانت الدلائل قد بلغت المستمع، وإما عن كتمان الدلائل إن كانت لم تبلغه، أشار إلى الأمرين بلا تلبسوا وتكتموا، ثم قبح عليهم هذين الوصفين مع وجود العلم، ثم أمرهم بعد تحصيل الإيمان، وإظهار الحق بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، لأن الصلاة آكد العبادات البدنية، والزكاة آكد العبادات المالية ثم ختم ذلك بالأمر بالانقياد والخضوع له - تعالى - مع جملة الخاضعين الطائعين.

فكان افتتاح هذه الآيات بذكر النعم واختتامها بالانقياد للمنعم، وما بينهما من تكاليف اعتقادية، وأفعال بدنية ومالية، وبنحو ما تضمنته هذه الآيات من الافتتاح والإرداف والاختتام يظهر فضل كلام الله - تعالى - على سائر الكلام، وهذه الأوامر والنواهى، وإن كانت خاصة ببنى إسرائيل فى الصورة، إلا أنها عامة فى المعنى، فيجب على كل مكلف فى كل زمان ومكان أن يعمل بها»[1].

وبعد كل هذه الأوامر والنواهى، وبخهم الله - تعالى - وقرعهم على ارتكابهم لأمور لا تصدر عن عاقل. وهى أنهم يأمرون الناس بالخير ولا يفعلونه، فقال تعالى :

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾

الأمر : طلب إيجاد الفعل. والبر : اسم يتناول كل عمل من أعمال الخير. والنسيان : ضد الذكر، وهو السهو الحادث بعد حصول العلم. والعقل : يطلق على قوة فى النفس، تستعد بها لقبول العلم. وإدراك الشيء.

والمعنى : كيف يليق بكم يا معشر اليهود، وأنتم تأمرون الناس بأمهات الفضائل، وألوان الخيرات، أن تنسوا أنفسكم، فلا تأتمروا بما تأمرون به غيركم، وأنتم مع ذلك تقرأون توراتكم، وتدركون أى عقوبة أليمة لمن يأمر الناس بالخير وينسى نفسه، أفلا عقل لكم يحبسكم عن هذا السفه الذى ترديتم فيه، ويحذركم من سوء عاقبته؟

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - كان يهود المدينة يقول الرجل منهم لصهره، ولذى قرابته، ولمن بينه وبينه صلة من المسلمين أثبت على الذى أنت عليه، وما يأمرك به هذا

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ١ ص ١٨١ مطبعة السعادة : الطبعة الأولى سنة ١٣٣٢ هـ.

الرجل - يريدون محمدًا ﷺ - فإن أمره حق، فكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلونه[١].

والمراد بالنسيان فى الآية الكريمة، تركهم العمل بما يأمرون به غيرهم، لأن الناسى حقيقة ليس مؤاخذا على مانسيه، فلا يستحق هذا التوبيخ الشديد الوارد فى الآية الكريمة، وليس التوبيخ متوجها إلى كونهم كانوا يأمرون الناس بالبر، لأنه فعل محمود، وإنما التوبيخ متوجه إلى كونهم تركوا العمل بما يرشدون إليه سواهم، فهم يداوون الناس، وقلوبهم مليئة بالأمراض والعلل.

وقوله تعالى: ﴿وأنتم تتلون الكتاب﴾ مزيد تقبيح لشأنهم، ذلك أن قراءتهم لكتبهم أبطلت اعتذارهم بالجهل الذى قد يتشبث به بعض الفاسقين على أمر الله عند ما ينكر الناس عليهم فسوقهم.

وفى قوله تعالى: ﴿أفلا تعقلون﴾ أسمى أنواع الهداية وآلإرشاد السليم، فإن من ألطف الأساليب فى الخطاب والتوجيه، أن يكون للموجه إليه النصح صفة من شأنها أن تسوقه إلى خير، ولكنه ينساق إلى غيره من أنواع الشرور فيقع فعله من الناس موقع الدهشة والغرابة، فيذكر له مسدى النصح تلك الصفة فى معرض الاستفهام بغية تذكيره بأن ما صدر منه لا يلتقى مع ما عرف عنه.

وتطبيقًا لهذا المبدأ نقول: إن المخاطبين بقوله تعالى: ﴿أفلا تعقلون﴾ يعقلون ويدركون الأشياء، وبهذا الإدراك توجه إليهم التكليف بالعقائد والشرائع، ولكنهم لم يسيروا على مقتضى مالديهم من عقول، حيث كانوا يأمرون الناس بالخير، ويصرفون أنفسهم عنه، فكأنه - سبحانه - يقول لهم: إن ما أتيتم من أفعال سقيمة. يجعل الناظر إليكم يحكم عليكم بلا أدنى تردد بأنكم لا عقول لكم، ولا فضيلة لديكم، وفى هذا الأسلوب ما فيه من الترغيب فى فعل الخير؛ والترهيب من فعل الشر.

ولما كانت الأمور التى كلفهم الله بها قبل ذلك فيها مشقة لا يتحملها كل أحد بسهولة. فقد أرشدهم إلى الوسائل التى تقوى عزائمهم، وتطهر قلوبهم، وتعالج أمراض نفوسهم فقال تعالى:

وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾

---

(١) تفسير القرطبى جـ١ ص ٣٦٥: طبعة دار الكتب سنة ١٢٤٥ هـ (سنة ١٩٢٥ م).

قوله تعالى : ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ الاستعانة : طلب المعونة ، والصبر حبس النفس على ما نكره . يقال : صبر على الطاعة . أى حبس نفسه عليها متحملا ما يلاقيه فى أدائها من مشاق وصبر عن المعصية . أى كف نفسه عما تنزع إليه من أهواء .

والمعنى : واستعينوا على ترك ما تحبون من شهوات الدنيا ، والدخول فيما تستثقله نفوسكم من قبول الإسلام ، والتقيد بتكاليفه بفضيلة الصبر التى تحجز أنفسكم من غشيان الموبقات ، وبفريضة الصلاة التى تنهاكم عن الفحشاء والمنكر .

قوله تعالى : ﴿وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ كبيرة : أى صعبة شاقة . يقال كبر الشىء إذا شق وثقل ، ومنه قوله تعالى : ﴿كبر على المشركين ما تدعوهم إليه﴾ أى ثقل وصعب - والخاشعين : من الخشوع وهو فى الأصل اللين والسهولة « ومعناه فى الآية الكريمة . الخضوع والاستكانة لله تعالى ، والضمير فى - إنها - للصلاة لعظيم شأنها واستجماعها لضروب من الصبر ، والاستثناء مفرغ . أى كبيرة على كل الناس إلا على الخاشعين .

والمعنى : إن الصلاة صعبة إلا على الخاضعين المخبتين المتطامنة قلوبهم وجوارحهم لله تعالى لأنهم موقنون أنها من أهم وسائل الفلاح فى الدنيا ، والسعادة فى الآخرة ، ولأنهم يجدون عند أدائها اغتباطًا وسرورًا يجعل نفوسهم تنشط إليها كلما حل وقتها بهمة وإخلاص .

قال الإمام الرازى : « فإن قيل : إن كانت ثقيلة على هؤلاء سهلة على الخاشعين ، فيجب أن يكون ثوابهم أكثر ، وثواب الخاشع أقل ، وذلك منكر من القول؟ قلنا : ليس المراد أن الذى يلحقهم من التعب أكثر مما يلحق الخاشع . وكيف يكون ذلك ، والخاشع يستعمل فى الصلاة جوارحه وقلبه ، ولا يغفل فيها ؛ وإذا كان هذا فعل الخاشع فالثقل عليه يفعل الصلاة أعظم . وإنما المراد بقوله تعالى : ﴿وإنها لكبيرة﴾ . أى ثقيلة على غير الخاشع ؛ لأنه لا يعتقد فى فعلها ثوابًا ، ولا فى تركها عقابًا ، فيصعب عليه فعلها ، فالحاصل أن الملحد لاعتقاده عدم المنفعة فى أدائها ثقل عليه فعلها ، لأن الاشتغال بما لا فائدة فيه يثقل على الطبع . أما الموحد فلما اعتقد فى فعلها أعظم المنافع ، وفى تركها أكبر المضار ، لم يثقل عليه أداؤها . بل أداها وهو سعيد بها ، ألا ترى إلى قول الرسول ﷺ : « جعلت قرة عينى فى الصلاة » وصفها بذلك لأنها كانت لا تثقل عليه .

ثم وصف - سبحانه - الخاشعين وصفًا يناسب المقام ، ويظهر وجه الاستعانة ، فقال - تعالى - : ﴿الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون﴾ .

الظن : يرد فى أكثر الكلام بمعنى الاعتقاد الراجح ، وهو ما يتجاوز مرتبة الشك ، وقد يقوى حتى يصل إلى مرتبة اليقين والقطع ، وهو المراد هنا ؛ ومثل ذلك قوله - تعالى - ﴿ألا يظن

أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم﴾ أى ألا يعتقد أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم. وقوله تعالى: ﴿إنى ظننت أنى ملاق حسابيه﴾ أى علمت أنى ملاق حسابيه.

وملاقاة الخاشعين لربهم معناها الحشر إليه بعد الموت، ومجازاتهم على ما قدموا من عمل.

والمعنى: إن الصلاة لثقيلة إلا على الخاشعين، الذين يعتقدون لقاء الله - تعالى - يوم الحساب، وأنهم عائدون إليه لينالوا ما يستحقونه من جزاء على حسب أعمالهم.

قال ابن جرير - مرجحًا أن المراد بالظن هنا العلم واليقين -: «إن قال لنا قائل: وكيف أخبر الله - تعالى - عمن قد وصفه بالخشوع له بالطاعة أنه يظن أنه ملاقيه، والظن شك، والشاك فى لقاء الله كافر؟ قيل له: إن العرب قد تسمى اليقين ظنًا: والشك ظنًا؛ نظير تسميتهم الظلمة سدفة. والضياء سدفة، والمغيث صارخًا، والمستغيث صارخًا، وما أشبه ذلك من الأسماء التى يسمى بها الشيء وضده، ومما يدل على أنه يسمى به اليقين، قول دريد بن الصمة: (فقلت لهم ظنوا بألفى مدجج...).

يعنى بذلك: تيقنوا أن ألفى مدجج تأتيكم، ثم قال: والشواهد من أشعار العرب وكلامها على أن الظن فى معنى اليقين أكثر من أن تحصى، وفيما ذكرنا لمن وفق فى فهمه كفاية، ومنه قوله تعالى: ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها﴾ وعن مجاهد قال: «كل ظن فى القرآن فهو علم»[1].

والذين قالوا إن الظن هنا على معناه الحقيقى، وهو الاعتقاد الراجح، فسروا «ملاقاة الخاشعين لربهم» بمعنى قربهم من رضاه يوم القيامة «ورجوعهم إليه» بمعنى حلولهم بجواره الطيب، واستقرارهم فى جناته، أى: وإن الصلاة لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يتوقعون قربهم من ربهم، ودخولهم جناته عند رجوعهم إليه.

وإلى هذا التفسير ذهب صاحب الكشاف، فقد قال: (فإن قلت: مالها لم تثقل على الخاشعين والخشوع فى نفسه مما يثقل؟ قلت: لأنهم يتوقعون ما ادخر للصابرين على متاعبها فتهون عليهم. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم﴾ أى يتوقعون لقاء ثوابه، ونيل ما عنده ويطمعون فيه)[2].

وإنما كان شعور الخاشعين بذلك كله ظنًا لا يقينًا، لأن خواتيم الحياة لا يعلمها كيف تكون

---

(١) تفسير ابن جزير جـ١ ص ٢٦٢.
(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص ١٣٤.

سوى علام الغيوب، ففى وصفهم بأنهم ﴿يظنون﴾ إشارة إلى خوفهم، وعدم أمنهم مكر الله - تعالى - وهكذا يكون المؤمن دائمًا بين الخوف والرجاء.

ومن هذا العرض لمعنى الآية الكريمة يتبين لنا، أن من فسر الظن هنا بمعنى اليقين والعلم، يرى أن لقاء الخاشعين لله معناه الحشر بعد الموت، ورجوعهم إليه معناه مجازاتهم على أعمالهم. والحشر والمجازاة يعتقد صحتهما الخاشعون اعتقادًا جازمًا.

أما من فسر الظن هنا بمعنى الاعتقاد الراجح، فيرى أن لقاء الخاشعين لله معناه توقعهم لقاء ثوابه، ورجوعهم إليه معناه ظفرهم بجناته، وتوقع الثواب والظفر بالجنات يرجح الخاشعون حصولهما لأن مرجعهما إلى فضل الله وحده.

والذى نراه أن الرأى الأول أكثر اتساقًا مع ظاهر معنى الآية الكريمة وبه قال قدماء المفسرين، كمجاهد وأبى العالية وغيرهما.

وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة توبيخ أحبار اليهود على نصحهم لغيرهم وتركهم لأنفسهم وإرشادهم إلى العلاج الذى يشفيهم من هذا الخلق الذميم، ومن غيره متى استعملوه بصدق وإخلاص، وهذا العلاج يتمثل فى تذرعهم بالصبر. ومداومتهم على الصلاة، وشكرهم لله - تعالى - على نعمه التى فصلت الآيات بعد ذلك الحديث عنها، وها نحن نذكرها مرتبة كما ساقها القرآن الكريم.

أولا : نعمة تفضيلهم على العالمين : قال - تعالى - :

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

أعاد القرآن الكريم نداءهم، تأكيدًا لتذكيرهم بواجب الشكر، واهتمامًا بمضمون الخطاب وما يشتمل عليه من أوامر ومنهيات، وتفصيلا لما أسبغه الله عليهم من منن بعد أن أجملها فى النداء الأول، ليكون التذكير أتم والتأثير أشد، والشكر عليها أرجى.

وقد جرت سنة القرآن الكريم أن يكرر الجمل المشتملة على أمور تستوجب المزيد من العناية كما فى حال ذكر النعم، لأن تكرارها يغرى النفوس الكريمة بطاعة مرسلها، والسير على الطريق القويم.

وقوله تعالى : ﴿وأنى فضلتكم على العالمين﴾ عطف على نعمتى، أى واذكروا تفضيلى إياكم على العالمين، وهذا التفضيل نعمة خاصة، فعطفه على ﴿نعمتى﴾ من عطف الخاص على العام للعناية به، وهو- أى : التفضيل مبدأ تفصيل النعم وتعدادها، والمقصود منه الحض على الاتصاف بما يناسب تلك النعم، ويستبقى ذلك القضل.

وقد ذكر الله - تعالى - بنى إسرائيل المعاصرين للعهد النبوى بهذه النعم مع أنها كانت لآبائهم. كما يدل عليه سياق الآيات؛ لأن النعم على الآباء نعم على الأبناء لكونهم منهم، ولأن شرف الأصول يسرى إلى الفروع، فكان التذكير بتلك النعم فيه شرف لهم، وحسن سمعة تعود عليهم، وتغريهم بالإيمان والطاعة - لو كانوا يعقلون -.

ومن مظاهر، تفضيل الله لبنى إسرائيل على عالمى زمانهم، جمعه لهم من المحامد قبل بعثة النبى ﷺ. ما لم يجمع لغيرهم. فقد حياهم بكثير من النعم، وبعث فيهم عددًا كبيرًا من الأنبياء، ونجاهم من عدوهم، ولم يعجل العقوبة عليهم رغم عصيانهم واعتدائهم، واقترافهم شتى ألوان المنكرات عن تعمد وإصرار، ولم ينزل بهم قارعة تستأصلهم بذنوبهم كما استأصل غيرهم كقوم عاد وثمود.

ولكن بنى إسرائيل لم يقابلوا نعم الله بالشكر والعرفان. بل قابلوها بالجحود والطغيان فسلبها الله عنهم، ومنحها لقوم آخرين لم يكونوا أمثالهم

ولقد حكى القرآن ألوانا من النعم التى منحها الله لبنى إسرائيل ولكنهم قابلوها بالبطر والكفران فأزالها الله عنهم. من ذلك قوله تعالى :

﴿سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة، ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب﴾[1].

أى : سل - يا محمد - بنى إسرائيل المعاصرين لك. سؤال تقريع وتوبيخ. كم آتاهم الله على أيدى أنبيائهم من النعم الجليلة، والمعجزات الباهرة، ولكنهم بعد أن جاءتهم هذه الآيات، وتمكنوا منها وعقلوها قابلوها بالعناد والاستهزاء، وجعلوها من أسباب ضلالهم مع أنها مسوقة لهدايتهم وسعادتهم، فكانت نتيجة ذلك أن ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة فى الدنيا، وتوعدهم بشديد العقاب فى الآخرة.

ومن الآيات التى صرحت بأن الله - تعالى - أعطى بنى إسرائيل نعمًا وفيرة، ولكنهم لم يحمدوه عليها. قوله تعالى :

---

(١) سورة البقرة الآية ٢١١.

﴿ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين * من فرعون إنه كان عاليًا من المسرفين. ولقد اخترناهم على علم على العالمين * وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين﴾[١].

أى : ولقد نجينا بفضلنا وكرمنا بنى إسرائيل من العذاب المهين الذى كان ينزله بهم فرعون وجنده، بأن أغرقناه ومن معه أمام أعينهم؛ لأنه كان ظلومًا غشومًا، وفضلا عن ذلك فقد اصطفينا بنى إسرائيل - على علم منا بما يكون منهم - على عالمى زمانهم وآتيناهم من النعم والمعجزات. ما فيه اختبار لقلوبهم، وامتحان لنفوسهم. فكانت نتيجة هذا الاختبار والامتحان أن كفروا بنعم الله، وكذبوا برسله وقتلوهم. فتوعدهم الله فى الدنيا بأن يسلط عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة. أما فى الآخرة فمأواهم جهنم وبئس المهاد.

- وأيضا - من الآيات التى ساقت أنواعًا من نعم الله على بنى إسرائيل ولكنهم لم يشكروه عليها قوله تعالى :

﴿ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين. وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيًا بينهم. إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾[٢].

والمعنى : ولقد آتينا بنى إسرائيل التوراة لتكون هداية لهم ومنحناهم الحكمة والفقه فى الدين، وجعلنا النبوة فى عدد كبير منهم، ورزقناهم من طيبات الأغذية والأشربة، وفضلناهم على من عاصرهم من الأمم قبل بعثة النبى ﷺ وفضلا عن ذلك فقد سقنا لهم على أيدى أنبيائهم الكثير من المعجزات والدلائل التى تقوى إيمانهم، وتهديهم إلى الطريق المستقيم ولكنهم لم ينتفعوا بهذه النعم. بل جعلوا علمهم بالدين الحق سببًا للخلاف والشقاق، والسير فى طريق الضلال، وسيعاقبهم الله بما يستحقونه جزاء جحودهم وعنادهم.

والعبرة التى نستخلصها من هذه الآيات وأمثالها. أن الله - تعالى - فضل بنى إسرائيل على غيرهم من الأمم السابقة على الأمة الإسلامية. ومنحهم الكثير من النعم، ولكنهم لم يقابلوا ذلك بالشكر. بل قابلوه بالتمرد والحسد والبطر. فسلب الله عنهم ما حباهم من نعم، ووصفهم فى كتابه بأقبح الصفات وأسوأ الطباع. كقسوة القلب، ونقض العهد، والتهالك على شهوات الدنيا، والتعدى على الغير. والتحايل على استحلال محارم الله، ونبذهم للحق واتباعهم الباطل... إلى غير ذلك من الصفات التى توارد ذكرها فى القرآن الكريم.

---

(١) سورة الدخان الآيات ٣٠ - ٣٣.

(٢) سورة الجاثية الآية ١٧، ١٨.

وهذا مصير كل أمة بدلت نعمة الله كفرًا؛ لأن الميزان عند الله للتقوى والعمل للصالح، وليس للجنس أو اللون أو النسب.

قال الإمام الرازى ما ملخصه: فإن قيل: إن تفضيلهم على العالمين يقتضى تفضيلهم على أمة محمد ﷺ، وهذا باطل. فكيف الجواب؟ قلنا: الجواب من وجوه أقربها إلى الصواب أن المراد: فضلتكم على عالمى زمانكم وذلك لأن الشخص الذى سيوجد بعد ذلك وهو الآن ليس بموجود لم يكن من جملة العالمين حال عدمه، وأمة محمد ﷺ ما كانت موجودة فى ذلك الوقت، فلا يلزم من كون بنى إسرائيل أفضل العالمين فى ذلك الوقت. أنهم أفضل من الأمة المحمدية. وهذا هو الجواب أيضًا عن قوله - تعالى - : ﴿إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكًا وآتاكم ما لم يؤت أحدًا من العالمين﴾. وعن قوله تعالى: ﴿ولقد اخترناهم على علم على العالمين﴾[1].

وبهذا يتعين بطلان دعوى اليهود أنهم شعب الله المختار. استنادًا إلى هذه الآية الكريمة وأمثالها، لأنها دعوى لا تؤيدها النصوص، ولا يشهد لها العقل السليم. ثم قال تعالى:

وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٤٨﴾

بعد أن ذكرهم - سبحانه - فى الآية السابقة بنعمة عظمى من نعمه حذرهم فى هذه الآية الكريمة من التقصير فى العمل الصالح، وذلك لأن وصفهم بالتفضيل على عالمى زمانهم قد يحملهم على الغرور، ويجعلهم يتوهمون أنهم مغفور لهم لو أذنبوا. فجاءت هذه الآية الكريمة لتقتلع من أذهانهم تلك الأوهام بأحكم عبارة وأجمع بيان.

والمراد باتقاء اليوم، وهو يوم القيامة، الحذر مما يحدث فيه من أهوال وعذاب، والحذر منه يكون بالتزام حدود الله - تعالى - وعدم تعديها، فهو من إطلاق الزمان على ما يقع فيه كما تقول «مكان مخيف» وتنكير النفس فى الموضعين وهو فى حيز النفى يفيد عموم النفوس. أى: لاتقضى فيه نفس كائنة من كانت عن نفس أخرى شيئًا من الحقوق.

ووصف اليوم بهذا الوصف، ولم يقل «يوم القيامة» مثلا، للإشعار بأن التصرف فى ذلك اليوم لله وحده. فليس فيه ما اعتاد الناس فى هذه الدنيا من دفاع بعضهم عن بعض.

---

(١) تفسير الرازى جـ ١ ص ٣٥٥.

والمعنى : احذروا - يا بنى إسرائيل - يومًا عظيمًا أمامكم، سيحصل فيه من الحساب والجزاء مالا منجاة من هوله إلا بتقوى الله فى جميع الأحوال والإخلاص له فى كل الأعمال، فهو يوم لا تقضى فيه نفس مهما كان قدرها عظيما عن نفس شيئًا ما، مهما يكن ذنبًا صغيرًا.

ثم وصف القرآن الكريم ذلك اليوم بوصف آخر يناسب المقام. فقال تعالى : ﴿ولا يقبل منها شفاعة﴾ الضمير فى (منها) يعود إلى النفس المحاسبة فى ذلك اليوم. والشفاعة : من الشفع ضد الوتر، وهى انضمام الغير إلى الشخص ليدفع عنه، أى لا يقبل منها أن تأتى بشفيع ليحصل لها نفعًا، أو يدفع عنها ضررًا.

والآية الكريمة قد نفت قبول الشفاعة من أحد نفيًا مطلقًا، ولكن هنالك آيات كريمة تنفى قبول الشفاعة إلا ممن أذن له الرحمن فى ذلك، من هذه الآيات قوله تعالى : ﴿من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه﴾[١] وقوله تعالى : ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا﴾[٢].

وللجمع بين هذه الآيات، تحمل الآيات التى تنفى الشفاعة نفيًا مطلقًا على أنها واردة فى شأن النفوس الكافرة، وتحمل الآيات التى تبيح الشفاعة على أنها واردة فى شأن المؤمنين إذا أذن الله فيها للشافعين، وقد وردت أحاديث صحيحة بلغت مبلغ التواتر المعنوى فى أن النبى ﷺ ستكون له شفاعة فى دفع العذاب عن أقوام المؤمنين، وتخفيفه عن أهل الكبائر من المسلمين، من ذلك ما أخرجه البخارى عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : «أعطيت خمسًا لم يعطهن نبى قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا وجعلت أمتى خير الأمم، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة[٣].

قال الإمام ابن جرير : (وهذه الآية وإن كان مخرجها عامًا فى التلاوة فإن المراد بها خاص فى التأويل، لتظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ. أنه قال : شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى، وأنه قال : ليس من نبى إلا وقد أعطى دعوة، وإنى خبأت دعوتى شفاعة لأمتى، وهى نائلة إن شاء الله منهم من لا يشرك بالله شيئا. فقد تبين بذلك أن الله جل ثناؤه قد يصفح لعباده المؤمنين بشفاعة نبينا محمد ﷺ لهم عن كثير من عقوبة إجرامهم بينه وبينهم، وأن قوله ﴿ولا يقبل منها

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٥.

(٢) سور طه الآية ١٠٩.

(٣) صحيح البخارى «باب التيمم» جـ ١ ص ٩١.

شفاعة﴾ إنما هى لمن مات على كفره غير تائب إلى الله - عز وجل - » هـ[1].

ثم وصف اليوم بوصف ثالث فقال تعالى : ﴿ولا يؤخذ منها عدل﴾.

العدل : العوض والفداء. سمى بالمصدر لأن الفادى يعدل المفدى بمثله فى القيمة أو العين ويسويه به. يقال : عدل كذا بكذا : أى سواه به.

والمعنى : لا يؤخذ منها فداء أو بدل فى ذلك اليوم إن هى استطاعت إحضاره على سبيل الفرض والتقدير.

ثم وصفه بوصف رابع فقال تعالى : ﴿ولاهم ينصرون﴾ والنصر هو الإعانة فى الحرب وغيره بقوة الناصر، وقدم المسند إليه لزيادة التأكيد المفيد أن انتفاء نصرهم محقق. فضلا عما استفيد من نفى الفعل وإسناده للمجهول وجاء الضمير فى قوله تعالى : ﴿ولاهم ينصرون﴾ جمعًا مع أنه عائد على النفس وهو قوله تعالى : ﴿لا تجزى نفس﴾؛ لأن النكرة إذا وقعت فى سياق النفى تناولت كل فرد من أفرادها، وبهذا صارت فى معنى الجمع، وصح أن يعود عليها ضمير الجمع وهو (هم).

والمعنى. أنهم لا يجدون من يعينهم ويمنعهم من عذاب الله يوم القيامة

ولما كان اليهود يعتقدون أنهم شعب مميز، وأن نسبتهم إلى الأنبياء ستجعلهم فى مأمن من العقاب رغم عصيانهم وفسوقهم، وأن آباءهم سيشفعون لهم... لما كانوا كذلك جاءت هذه الآية الكريمة لتبطل ما اعتقدوه، وتقطع ما أمّلوه، ولتنقض كل ما يحتمل أن يكون وسيلة للنجاة يوم القيامة سوى الإيمان والعمل الصالح.

فقد نفت الآية الكريمة وجود من ينوب عنهم بقولها ﴿لا تجزى نفس عن نفس شيئًا﴾.

ونفت انتفاعهم بشفاعة الشافعين يوم الحساب بقولها (ولا يقبل منها شفاعة).

ونفت قبول البدل أو الفداء عما ارتكبوه من خطايا بقولها ﴿ولا يؤخذ منها عدل﴾.

ونفت وجود من ينتصر لهم أو يدافع عنهم بقولها ﴿ ولاهم ينصرون﴾

وهكذا سدت عليهم الآية الكريمة كل منفذ يتوهمون نجاتهم من عذاب الله بسببه، ما داموا مصرين على كفرهم وجحودهم.

هذا، وقد اشتملت هاتان الآيتان على أسلوب حكيم فى التوجيه، وطريقة فريدة فى الإرشاد، جمعت بين الترغيب والترهيب، فإن الآية الأولى ابتدأت بندائهم باسم أبيهم

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٢٦٨.

إسرائيل - عليه السلام - الذى هو أصل عزهم، ومنشأ تفضيلهم لتحيى الشعور بالكرامة فى نفوسهم، ولتغرس الإحساس بالشرف فى مشاعرهم، ولتحملهم على الترفع عن الدنايا؛ لأن الذى يشعر أنه من منبت كريم تعاف نفسه الحقد والكذب والصغار، ثم جاءت الآية الثانية فأرشدتهم إلى أن التقوى هى سبب السلامة والفوز، وحذرتهم من أهوال يوم القيامة وأفهمتهم بأن انتسابهم إلى أولئك الآباء لن يغنى من الله شيئًا يوم الجزاء، وإنما الذى ينفعهم فى ذلك اليوم هو اتباع تعاليم الإسلام، التى أتى بها النبى - عليه الصلاة والسلام - وفى ذلك ما فيه من كبح غرورهم، وإبطال ظنونهم.

ثانيا: نعمة إنجائهم من عدوهم:

ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة جليله الشأن، هى نعمة إنجائهم من عدوهم فقال تعالى:

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾

الآية الكريمة معطوفة على قوله تعالى: ﴿اذكروا نعمتى﴾ فى الآية السابقة، من باب عطف المفصل على المجمل: أى: اذكروا نعمتى، واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون.

وإذ: بمعنى وقت، «وهى مفعول به لفعل ملاحظ فى الكلام وهو اذكروا أى: اذكروا وقت أن نجيناكم، والمراد من التذكير بالوقت تذكيرهم بما وقع فيه من أحداث.

وآل الرجل: أهله وخاصته وأتباعه، ويطلق غالبًا على أولى الخطر والشأن من الناس، فلا يقال آل الحجام أو الإسكاف.

وفرعون: اسم لملك مصر كما يقال لملك الروم قيصر، ولملك اليمن تبع ويسومونكم: من سامه خسفا إذا أذله واحتقره وكلفه مالا يطيق.

والابتلاء: الامتحان والاختبار، ويكون فى الخير والشر، قال - تعالى - ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾[1].

والمعنى: اذكروا يا بنى إسرائيل وقت أن نجيناكم من آل فرعون الذين كانوا يعذبونكم أشق

(١) سورة الأنبياء الآية ٣٥.

العذاب وأصعبه، ويبغونكم مافيه إذلال لكم واستئصال لأعقابكم، وامتهان لكرامتكم، حيث كانوا يزهقون أرواح ذكوركم، ويستبقون نفوس نسائكم، وفى ذلكم العذاب، وفى النجاة منه امتحان لكم بالسراء لتشكروا، ولتقلعوا عن السيئات التى تؤدى بكم إلى الإذلال فى الدنيا، والعذاب فى الأخرى.

قال الإمام الرازى - رحمه الله - ما ملخصه: واعلم أن الفائدة فى ذكر هذه النعمة - أى نعمة إنجائهم من عدوهم - يتأتى من وجوه أهمها:

١ - أن هذه الأشياء التى ذكرها الله - تعالى - لما كانت من أعظم ما يمتحن به الناس من جهة الملوك والظلمة، صار تخليص الله - عز وجل - لهم من هذه المحن من أعظم النعم، وذلك لأنهم عاينوا هلاك من حاول إهلاكهم، وشاهدوا ذل من بالغ فى إذلالهم، ولا شك فى أن ذلك من أعظم النعم، وعظم النعمة يوجب المبالغة فى الطاعة والبعد عن المعصية، لذا ذكر الله هذه النعمة العظيمة ليلزمهم الحجة، وليقطع عذرهم.

٢ - أنهم لما عرفوا أنهم كانوا فى نهاية الذل. وكان عدوهم فى نهاية العز، إلا أنهم كانوا محقين، وكان خصمهم مبطلا، لا جرم زال ذل المحقين، وبطل عز المبطلين، فكأنه تعالى يقول لهم: لا تغتروا بكثرة أموالكم ولا بقوة مركزكم، ولا تستهينوا بالمسلمين لقلة ذات يدهم، فإن الحق إلى جانبهم. ومن كان الحق إلى جانبه، فإن العاقبة لابد أن تكون له) اهـ[1]

وخوطب بهذه النعمة اليهود الذين كانوا فى زمن النبى ﷺ ومع أن هذا الإنجاء كان لأسلافهم، لأن فى نجاة أسلافهم نجاة لهم، فإنه لو استمر عذاب فرعون للآباء لأفناهم، ولما بقى هؤلاء الأبناء، فلذلك كانت منة التنجية تحمل فى طياتها منتين، منة على السلف لتخليصهم مماكانوا فيه من عذاب ومنة على الخلف لتمتعهم بالحياة بسببها، فكان من الواجب عليهم جميعًا أن يقدروا هذه النعمة قدرها، وأن يخلصوا العبادة لخالقهم الذى أنجاهم من عدوهم. ولأن الإنعام على أمة يعتبر إنعامًا شاملا لأفرادها سواء منهم من أصابه ذلك الإنعام ومن لم يصبه. ولأن الآثار التى تترتب عليه كثيرا ما يرثها الخلف عن السلف، ولأن فى إخبارهم بذلك تصديقًا للنبى - عليه الصلاة والسلام - فيما يبلغه عن ربه، فقد أخبرهم بتاريخ من مضى منهم بصدق وأمانة، وفى ذلك دليل على أنه صادق فى نبوته ورسالته.

وجعلت النجاة هنا من آل فرعون ولم تجعل منه، مع أنه الآمر بتعذيب بنى إسرائيل، للتنبيه على أن حاشيته وبطانته كانت عونًا له فى إذاقتهم سوء العذاب، وإنزال الإذلال والاعنات بهم.

(١) تفسير الرازى جـ١ ص ٣٦٠.

وجعلت الآية الكريمة استحياء النساء عقوبة لليهود - وهو فى ظاهره خير - لأن هذا الإبقاء عليهن، كان المقصود منه الاعتداء على أعراضهن واستعمالهن فى الخدمة بالاسترقاق. فبقاؤهن كذلك بقاء ذليل وعذاب أليم، تأباه النفوس الكريمة، والطباع الطيبة.

قال الإمام الرازى ما ملخصه: (فى ذبح الذكور دون الإناث مضرة من وجوه:

أحدها: أن ذبح الأبناء يقتضى فناء الرجال، وذلك يقتضى انقطاع النسل، لأن النساء إذا انفردن فلا تأثير لهن البتة فى ذلك، وهذا يقضى فى نهاية الأمر إلى هلاك الرجال والنساء جميعًا.

ثانيها: أن هلاك الرجال يقتضى فساد مصالح النساء فى أمر المعيشة، فإن المرأة لتتمنى الموت إذا انقطع عنها تعهد الرجال. لما قد تقع فيه من نكد العيش بالانفراد. فصارت هذه الخطة عظيمة فى المحن، والنجاة منها تكون فى العظم بحسبها.

ثالثها: أن قتل الولد عقب الحمل الطويل، وتحمل التعب، والرجاء القوى فى الانتفاع به، من أعظم العذاب، فنعمة الله فى تخليصهم من هذه المحنة كبيرة.

رابعها: أن بقاء النساء بدون الذكران من أقاربهم، يؤدى إلى صيرورتهن مستفرشات الأعداء وذلك نهاية الذل والهوان)[١].

وقد رجح كثير من المفسرين أن المراد بالأبناء فى قوله تعالى: ﴿يذبحون أبناءكم﴾ الأطفال دون البالغين، لأن اللفظ من حيث وضعه يفيد ذلك، ولأن قتل جميع الرجال لا يفيدهم حيث أنهم كانوا يستعملونهم فى الأعمال الشاقة والحقيرة، ولأنه لو كان المقصود بالذبح الرجال، لما قامت أم موسى بإلقائه فى اليم وهو طفل صغير لتنجيه من الذبح.

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالأبناء الرجال لا الأطفال، لأن لفظ الأبناء هنا جعل فى مقابلة النساء، والنساء هن البالغات.

والذى نرجحه هو القول الأول لما ذكرنا، ولأنه أتم فى إظهار نعمة الإنجاء، حيث كان أهل فرعون يقتلون الصغار قطعًا للنسل، ويسترقون الأمهات استعبادا لهن، ويبقون الرجال للخدمة حتى ينقرضوا على سبيل التدرج، وبقاء الرجال على هذه الحالة أشد عليهم من الموت.

وقد جاءت جملة ﴿يذبحون أبناءكم﴾ فى هذه الآية الكريمة بدون عطف وجاءت فى سورة إبراهيم معطوفة بالواو[١]. لأنها هنا بيان وتفسير لجملة ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ فيكون

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١ ص٣٥٨.

(٢) آية سورة إبراهيم هى قوله تعالى: ﴿وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾. الآية ٦.

المراد من سوء العذاب هنا تذبيح الأبناء واستحياء النساء.

وأما فى سورة إبراهيم. فقد جاء سياق الآيات لتعداد المحن التى حلت ببنى إسرائيل، فكان المراد بجملة ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ نوعًا منه، والمراد بجملة ﴿ويذبحون أبناءكم﴾ نوعًا آخر من العذاب، لذا وجب العطف، لأن الجملة الثانية ليست مفسرة للأولى وإنما هى تمثل نوعا آخر من المحن التى حلت بهم.

هذا، وقد تكرر تذكير بنى إسرائيل بنعمة إنجائهم من عدوهم فى مواضع متعددة من القرآن الكريم، وذلك لجلال شأنها، ولحملهم على الطاعة والشكر.

١ - من ذلك قوله تعالى فى سورة الأعراف: ﴿وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾[(١)].

٢ - وقوله تعالى فى سورة طه: ﴿يا بنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى * كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى، ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى * وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى﴾[(٢)].

فهذه الآيات الكريمة وغيرها مما هى فى معناها فيها تذكير لبنى إسرائيل بنعمة من أجل نعم الله عليهم، حيث أنجاهم - سبحانه - ممن أراد لهم السوء، وعمل على قتلهم وإبادتهم واستئصال شأفتهم، وفى ذلك ما يدعوهم إلى الاجتهاد فى شكر الله - عز وجل - لو كانوا ممن يحسنون شكر النعم.

ثالثا: نعمة فرق البحر بهم.

ثم ذكرهم - سبحانه - بعد ذلك بنعمة ثالثة عظيمة حصل بها تمام الانجاء وتجلى فيها إكرام الله لهم، وهى نعمة فرق البحر بهم فقال تعالى:

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾

والمعنى: واذكروا يا بنى إسرائيل من جملة نعمنا عليكم، نعمة فرق البحر بكم، وانفصاله بعد اتصاله، حين ضربه موسى بعصاه، فأصبحت فيه طريق يابسة فولجتموها، وسرتم فيها

(١) الآية ١٤١. (٢) الآيات ٨٠ - ٨٢.

هربًا من فرعون وجنده؟ بذلك تمت لكم النجاة، وحصل الغرق لأعدائكم، وقت أن عبروا وراءكم وقد شاهدتموهم والبحر يلفهم بأمواجه، مشاهدة لا لبس فيها ولا غموض. ولقد كان فيما رأيتم ما يدعو إلى الاتعاظ، ويحمل على الشكر الجزيل لله العزيز الرحيم.

فالآية الكريمة تشير إلى قصة نجاة بنى إسرائيل وغرق فرعون وقومه، وملخصها:

أن الله - عز وجل أوحى إلى نبيه - موسى - عليه السلام - أن يرحل ببنى إسرائيل ليلا من أرض مصر التى طال عذابهم فيها إلى أرض فلسطين، ونفذ موسى - عليه السلام - ما أمره به الله - تعالى - وعلم فرعون أن موسى وقومه قد خرجوا إلى أرض الشام، فتبعهم بجيش كبير، وأدركهم مع طلوع الشمس قرب ساحل البحر الأحمر، وأيقن بنو إسرائيل عندما رأوه أنه مهلكهم لا محالة. ولجأوا إلى موسى - عليه السلام - يشكون إليه خوفهم وفزعهم، ولكنه رد عليهم بقوله: ﴿إن معى ربى سيهدين﴾ وأوحى الله إليه ﴿أن اضرب بعصاك البحر﴾ فضربه ﴿فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم﴾ وأمر موسى - عليه السلام - بنى إسرائيل أن يعبروا فعبروا بين فرقى الماء دون أن يمسهم أذى. واقتفى فرعون وجنوده أثرهم طمعا فى إدراكهم وعندما عبر بنو إسرائيل البحر ولم يبق منهم أحد بين المياه المنحسرة، كان فرعون وجنده ما زالوا بين فرقى البحر، فاطبق عليهم وعاد كما كان أولا، فغرقوا جميعًا، وبنو إسرائيل ينظرون إليهم فى دهشة وسرور.

وأسند - سبحانه - فرق البحر إلى ذاته الكريمة. ليدل على أن القوم عبروه وقطعوه وهم بعنايته، وقوله تعالى: ﴿فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون﴾ بيان للمنة العظمى التى امتن بها عليهم، والتى ترتبت على فرق البحر، لأن فرق البحر لهم ترتب عليه أمران.

أولهمـــا: نجاتهم.

وثانيهما: إهلاك عدوهم وكلاهما نعمة عظيمة.

والإيمان الصحيح يقضى بأن تفهم واقعة انفصال البحر لموسى وقومه على أنها معجزة كونية له، وقد زعم البعض أنها كانت حادثة طبيعية منشؤها المد والجزر، وهو زعم لا سندله ولا دليل عليه.

واقتصرت الآية هنا على ذكر إغراق آل فرعون أى جنده وأنصاره، وصرحت آيات أخرى بغرقه مع آله، من ذلك قوله تعالى: ﴿فأغرقناه ومن معه جميعًا﴾[1] وقوله تعالى: ﴿فأخذناه

---

(١) سورة الإسراء الآية ١٠٣.

وجنوده فنبذناهم فى اليم وهو مليم﴾[1] ومن تمام النعمة أن الله - تعالى - أهلك مع فرعون كل مناصر له :

وقوله تعالى ﴿وأنتم تنظرون﴾ أى : أغرقنا آل فرعون وأنتم تشاهدونهم بأعينكم، فكان ذلك أدعى لليقين بهلاك عدوكم، وأبلغ فى الشماتة به، وأرجى لشكر النعمة - ولا شك أن مشاهدة المنعم عليه للنعمة فيها لذة كبرى، ورؤيته لهلاك عدوه فيها عبرة عظمى، ومعاينته لا نفراق البحر فيها تقوية لإيمانه، وتثبيت ليقينه، إذا كانوا ممن يحسنون الانتفاع بما يشاهدون.

قال الإمام الرازى ما ملخصه : (اعلم أن هذه الواقعة - أى واقعة فلق البحر - تضمنت نعمًا كثيرة على بنى إسرائيل فى الدين والدنيا، أما نعم الدنيا فمن وجوه :

أولها : أنهم لما اقتربوا من البحر أصبحوا فى موقف حرج، لأن فرعون وجنوده من ورائهم والبحر من أمامهم، فإن هم توقفوا أدركهم عدوهم وأهلكهم، وإن هم تقدموا أغرقوا. فحصل لهم خوف عظيم، جاءهم بعده الفرج بانفلاق البحر وهلاك عدوهم.

ثانيها : أن الله - تعالى - خصهم بهذه النعمة العظيمة والمعجزة الباهرة تكريمًا ورعاية لهم.

ثالثها : أنهم بإغراق فرعون وآله تخلصوا من العذاب، وتم لهم الأمن والاطمئنان، وذلك نعمة عظمى، لأنهم لو نجوا دون هلاك فرعون لبقى خوفهم على حاله، فقد يعود لتعذيبهم مستقبلا، لأنهم لا يأمنون شره، فلما تم الغرق تم الأمان والاطمئنان لبنى إسرائيل.

أما نعم الدين فمن وجوه :

أولها : أن قوم موسى لما شاهدوا تلك المعجزة الباهرة. زالت عن قلوبهم الشكوك والشبهات، لأن دلالة مثل هذا المعجز على وجود الصانع الحكيم وعلى صدق موسى، تقترب من العلم الضرورى.

ثانيها : أنهم لما شاهدوا ذلك صار داعيًا لهم على الثبات والانقياد لأوامر نبيهم.

ثالثها : أنهم عرفوا أن الأمور كلها بيد الله، فإنه لاعز فى الدنيا أكمل مما كان لفرعون، ولا ذل أشد مما كان لبنى إسرائيل، ثم إن الله - تعالى - فى لحظة واحدة جعل العزيز ذليلا، والذليل عزيزًا، والقوى ضعيفًا، والضعيف قويًا، وذلك يوجب انقطاع القلب عن علائق الدنيا، والإقبال كلية على اتباع أوامر الخالق - عز وجل -[2].

هذا، ونعمة فرق البحر لبنى إسرائيل، وإنجائهم من عدوهم قد تكرر ذكرها فى القرآن،

---

(١) سورة الذاريات الآية ٤٠.

(٢) تفسير الرازى بتصريف جـ ١ ص ٣٦٠.

من ذلك قوله تعالى فى سورة الشعراء : ﴿فلما تراء الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون. قال كلا إن معى ربى سيهدين. فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم. وأزلفنا ثَمَّ الآخرين. وأنجينا موسى ومن معه أجمعين. ثم أغرقنا الآخرين﴾[1]

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ذكرت بنى إسرائيل بنعمة من أجل النعم - وهى نعمة فرق البحر بهم - لكى يشكروا خالقهم عليها، ويتبعوا نبيه محمدًا ﷺ ولكنهم ما قاموا بواجب الشكر لخالقهم، فحقت عليهم اللعنة فى الدنيا والعقوبة فى الآخرة، جزاء جحودهم وطغيانهم وما ربك بظلام للعبيد.

رابعا : نعمة عفوه - سبحانه - عنهم بعد عبادتهم للعجل :

ثم ذكرهم - سبحانه - بعد ذلك بنعمة رابعة وهى عفوه عنهم رغم جحودهم وكفرهم وعبادتهم لغيره، فقال تعالى :

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

المواعدة : مفاعلة من الجانبين، وهى هنا على غير بابها، لأن المراد بها هنا أمر الله - تعالى - لموسى أن ينقطع لمناجاته أربعين ليلة تمهيدًا لإعطائه التوراة، ويؤيد ذلك قراءة أبى عمرو وأبى جعفر (وعدنا). وقيل : المفاعلة على بابها، على معنى أن الله - تعالى - وعد نبيه موسى - عليه السلام - أن يعطيه التوراة وأمره بالحضور للمناجاة، فوعد موسى ربه بالطاعة والامتثال فكان الوعد حاصلا من الطرفين.

وملخص هذه القصة أن قوم موسى بعد أن نجاهم الله، وأغرق عدوهم أمام أعينهم، طلبوا من نبيهم موسى أن يأتيهم بكتاب من عند الله ليعملوا بأحكامه، فوعده - سبحانه - أن يعطيه التوراة بعد أربعين ليلة ينقطع فيها لمناجاته، وبعد انقضاء تلك الفترة وذهاب موسى لتلقى التوراة من ربه اتخذ بنو إسرائيل عجلا جسدًا له خوار فعبدوه من دون الله، وأعلم الله موسى

---

(١) الآيات من ٦١ - ٦٥.

بما كان من قومه بعد فراقه، فرجع إليهم غاضبًا حزينًا، وأعلمهم بأن توبتهم لن تكون مقبولة إلا بقتل أنفسهم، فلما فعلوا ذلك عفا الله تعالى عنهم لكى يشكروه، ويلتزموا الصراط المستقيم.

ومعنى الآيتين الكريمتين: واذكروا يا بنى إسرائيل وقت أن وعدنا موسى أن نؤتيه التوراة بعد انقضاء أربعين ليلة من هذا الوعد، فلما حل الوعد وجاء موسى لميقاتنا عبدتم العجل فى غيبته، ولا شك أنكم ظلمتم أنفسكم بعبادة غير الله، وبوضعكم الأمور فى غير مواضعها، ومع هذا فلم نعاجلكم بالعقوبة، بل قبلنا توبتكم، وعفونا عنكم، لتكونوا من الشاكرين لله تعالى.

وهذا التذكير يحمل فى طياته التعجيب من حالهم، لأنهم قابلوا نعم الله بأقبح أنواع الكفر والجهالة، حيث عبدوا فى غيبة نبيهم ما هو مثال فى الغباوة والبلادة وهو العجل.

وفى اختيار حرف العطف (ثم) المفيد للتراخى الرتبى فى جملة ﴿ثم اتخذتم العجل من بعده﴾ إشعار بأنهم انحدروا إلى دركات سحيقة من الجحود والجهل، وأن ما ارتكبوه هو من عظائم الأمور فى القبح والمعصية وحذف المفعول الثانى لاتخذتم وهو «إلهًا أو معبودًا لشناعة ذكره ولعلمهم بأنهم اتخذوه إلهًا.

وقوله تعالى: ﴿من بعده﴾ معناه: من بعد مضيه لميقات ربه إلى الطور وغيابه عنهم. وفى ذلك زيادة تشنيع عليهم، حيث وصفهم - سبحانه - بعدم الوفاء، لأنهم كان من الواجب عليهم - لو كانوا يعقلون - أن يستمروا على توحيد الله فى غيبة نبيهم لاسيما وقد رأوا من المعجزات والنعم، ما يطمئن النفوس، ويقوى الإيمان ويغرس فى القلوب الطاعة لله تعالى.

وجملة ﴿وأنتم ظالمون﴾ حالية مقيدة لاتخذتم، ليكون اتخاذهم العجل معبودًا، مقرونًا بالتعدى والظلم من بدئه إلى نهايته، وللإشعار بانقطاع عذرهم فيما فعلوا.

وقوله تعالى ﴿ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون﴾ معناه ثم تركنا معاجلتكم بالعقوبة، ومحونا ذنوبكم، لتوبتكم من بعد اتخاذكم العجل معبودًا من دون الله، رجاء أن تشكروا خالقكم على عفوه عنكم وتستعملوا نعمه فيما خلقت له وتتبعوا رسوله ﷺ.

وقد تضمنت هاتان الآيتان الكريمتان، ما يدل على غباء بنى إسرائيل وقصر نظرهم. لأنهم اتخذوا العجل إلهًا بعد أن شاهدوا البراهين على صدق نبيهم، كما تضمنتا تسلية للرسول ﷺ عما كان يشاهده من اليهود المعاصرين للدعوة الإسلامية، فكأنه سبحانه يقول: إن ما قام به بنو إسرائيل المعاصرون لك من أذى وحقد قد فعل ما يشبهه آباؤهم الأقدمون مع نبيهم موسى - عليه السلام - فلقد اتخذوا فى غيبته عجلا جسدًا له خوار دون أن يفطنوا إلى أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا، اتخذوه وكانوا ظالمين.

خامسا : نعمة إيتاء موسى التوراة لهدايتهم.

ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة خامسة فيها صلاح أمورهم، وانتظام شئونهم ألا وهى إعطاء نبيهم موسى - عليه السلام - التوراة، فقال تعالى :

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾

ومعنى الآية الكريمة : اذكروا يابنى إسرائيل نعمة إعطاء نبيكم موسى - عليه السلام - التوراة، وفيها الشرائع والأحكام، لكى تهتدوا بها إلى طريق الفلاح والرشاد فى الدنيا، وإلى الفوز بالسعادة فى الآخرة.

فالمراد بالكتاب التوراة التى أوتيها موسى - عليه السلام - فأل للعهد.

والفرقان - بضم الفاء - مأخوذ من الفرق وهو الفصل، استعير لتمييز الحق من الباطل؛ وقد يطلق لفظ الفرقان على الكتاب السماوى المنزل من عند الله كما فى قوله تعالى ﴿تبارك الذى نزل الفرقان على عبده﴾[1] كما يطلق على المعجزة كما فى قوله تعالى ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان﴾[2] أى المعجزات لأن هارون لم يؤت وحيًا.

والمراد بالفرقان هنا التوراة نفسها ويكون المراد بالعطف التفسير.

قال ابن جرير ما ملخصه : (وأولى الأقوال بتأويل الآية ما روى عن ابن عباس وأبى العالية ومجاهد، من أن الفرقان الذى ذكر الله تعالى أنه آتاه موسى فى هذا الموضع، هو الكتاب الذى فرق به بين الحق والباطل وهو نعت للتوراة وصفة لها، فيكون تأويل الآية حينئذ.

وإذ آتينا موسى التوراة التى كتبناها له فى الألواح، وفرقنا بها بين الحق والباطل. فيكون الكتاب نعتًا للتوراة، أقيم مقامها استغناء به عن ذكر التوراة ثم عطف عليه بالفرقان، إذ كان من نعتها)[3].

وقوله تعالى : ﴿لعلكم تهتدون﴾ بيان لثمرة المنة والنعمة بإيتاء التوراة؛ لأن إتيان موسى الكتاب والفرقان، المقصود منه هدايتهم، وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

ولكن ماذا كان موقف بنى إسرائيل من التوراة التى أنزلها الله لهدايتهم وسعادتهم؟ كان

---

(١) سورة الفرقان الآية ١.

(٢) سورة الأنبياء الآية ٤٨.

(٣) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٢٨٥ طبعة الحلبى.

موقفهم منها - كما هى عادتهم - موقف الجاحد لنعم الله فقد امتدت أيديهم الأثيمة إليها فحرفوها كما شاءت لهم أهواؤهم وشهواتهم ولقد وبخهم القرآن الكريم على ذلك، وشبههم فى تركهم العمل بها وعدم انتفاعهم بما فيها، بالحمار الذى يحمل كتب العلم ولكنه لا يدرى ما فيها.

فقال تعالى فى سورة الجمعة: ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا. بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله. والله لا يهدى القوم الظالمين﴾[(١)].

حملوا التوراة: أى علموها وكلفوا العمل بها، ثم لم يحملوها: أى: لم يعملوا بها ولم ينتفعوا بما اشتملت عليه. والأسفار: جمع سفر وهو الكتاب الكبير، لأنه يسفر عن المعنى إذا قرىء.

ومعنى الآية الكريمة: مثل هؤلاء اليهود الذين علموا التوراة وكلفوا العمل بأحكامها ولكنهم لم يعملوا بها، مثلهم كمثل الحمار يحمل الكتب ولكنه لا يدرى ما فيها، ولا يناله من حملها إلا التعب، بئس مثلا مثل هؤلاء اليهود الذين كذبوا بآيات الله التى تشهد بصدق النبى ﷺ، وتذر صفاته التى لا تنطبق إلا عليه، وقد جرت سنة الله - تعالى - فى خلقه ألا يهدى إلى طريق الحق أمثال هؤلاء القوم الظالمين، لأنهم استحيوا العمى على الهدى، وباعوا دينهم بدنياهم.

قال صاحب الكشاف: «شبه الله - تعالى - اليهود فى أنهم حملة التوراة وقراؤها، وحفاظ ما فيها ثم إنهم غير عاملين بها، ولا منتفعين بآياتها وذلك أن فيها نعت رسول الله ﷺ والبشارة به، ولم يؤمنوا به - شبههم بالحمار يحمل أسفارًا، أى: كتبًا كبارًا من كتب العلم، فهو يمشى بها ولايدرى منها إلا ما يمر بجنبيه وظهره من الكد والتعب، وكل من علم ولم يعمل، فهذا مثله وبئس المثل»[(٢)].

وقال الإمام ابن القيم: «شبه الله - تعالى - من حمله كتابه ليؤمن به ويتدبره ويعمل به ويدعو إليه، ثم خالف ذلك، ولم يحمله إلا على ظهر قلب، فقراءته بغير تدبر ولا تفهم ولا اتباع له، ولا تحكيم لنصوصه - شبهه - بحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدرى ما فيها، وحظه منها حملها على ظهره ليس إلا، فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التى على ظهره، فهذا المثل، وإن كان قد ضرب لليهود، فهو متناول من حيث المعنى، لمن حمل القرآن فترك العمل به ولم يؤد حقه، ولم يرعه حق رعايته»[(٣)].

---

(١) الآية ٥.
(٢) تفسير الكشاف جـ٣ ص ١٧٥.
(٣) أعلام الموقعين لابن القيم (نقلا عن تفسير القاسمى) جـ١٦ ص ٨٥.

ومن هذا نرى أن اليهود قد أنعم الله عليهم بالتوراة، وجعلها نورًا وهدى لهم، ولكنهم تركوها، ولم يعملوا بما فيها، واستحبوا العمى على الهدى، ﴿فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين﴾.

سادسا: (نعمة إرشادهم إلى ما به يتخلصون من ذنوبهم):

ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة جليلة، وهى إرشادهم إلى ما به يتخلصون من ذنوبهم، وإخبارهم بقبول توبتهم، فقال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾

والمعنى: واذكروا يا بنى إسرائيل - لتنتفعوا وتعتبروا - وقت أن قال موسى لقومه الذين عبدوا العجل حين كان يناجى ربه بعيدًا عنهم: يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم وهبطتم بها إلى الحضيض بعبادتكم غير الله - تعالى - فإذا أردتم التكفير عن خطاياكم. فتوبوا إلى ربكم توبة صادقة نصوحًا، واقتلوا أنفسكم لتنالوا عفو ربكم، فذلكم خير لكم عند خالقكم من الإقامة على المعصية، ففعلتم ذلك فقبل الله توبتكم؛ لأنه هو الذى يقبل التوبة عن عباده على كثرة ما يصدر عنهم من ذنوب؛ لأنه هو الواسع الرحمة لمن ينيب إليه ويستقيم على صراطه الواضح.

وفى نداء موسى - عليه السلام - لهم بقوله: «ياقوم» تلطف فى الخطاب ليجذب قلوبهم إلى سماعه، وليحملهم على تلقى أوامره بحسن الطاعة، وليشعرهم بأنهم قومه فهو منهم وهم منه، والشأن فيمن كان كذلك ألا يكذب عليهم أو يخدعهم، وإنما يريد لهم الخير.

والبارئ هو الخالق للمخلوقات بدون تفاوت أو اضطراب، فهو أخص من الخالق، ولذا قال تعالى: ﴿هو الخالق البارئ المصور﴾.

وفى هذا التعبير الحكيم، تحريض لهم على التوبة والاستجابة للبارئ الذى أحسن كل شىء خلقه، وفيه أيضًا تقريع لهم على غباوتهم، حيث تركوا عبادة بديع السموات والأرض، وعبدوا عجلا ضرب به المثل فى الغباوة فقالوا «أبلد من ثور» فكأنه - سبحانه - يقول لهم: لقد اتخذتم هذا العجل إلهًا لتشابهكم معه فى البلادة وضيق الأفق.

قال صاحب الكشاف : «فإن قلت : من أين اختص هذا الموضع بذكر البارئ؟ قلت : البارئ هو الذى خلق الخلق بريئًا من التفاوت، ﴿ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت﴾ ومتميزًا بعضه عن بعض بالأشكال المختلفة والصور المتباينة، فكان فيه تقريع بما كان منهم من ترك عبادة العالم الحكيم الذى برأهم بلطف حكمته على الأشكال المختلفة، أبرياء من التفاوت والتنافر إلى عبادة البقر التى هى مثل فى الغباوة والبلادة، حتى عرضوا أنفسهم لسخط الله ونزول أمره بأن يفك ما ركبه من خلقهم، وينثر ما نظم من صورهم وأشكالهم، حين لم يشكروا النعمة فى ذلك، وغمطوها بعبادة مالا يقدر على شىء منها» هـ[1].

وقوله تعالى : ﴿فاقتلوا أنفسكم﴾ أمر من موسى - عليه السلام - لهم بقتلهم أنفسهم حتى تكون توبتهم مقبولة، وهذا الأمر بلغه موسى إياهم عن ربه، إذ مثل هذا الأمر لا يصدر إلا عن وحى لأنه تشريع من الله - تعالى -.

والمراد بقتلهم أنفسهم أن يقتل من لم يعبد العجل منهم عابديه، فيكون المعنى : ليقتل بعضكم بعضًا، كما فى قوله تعالى : ﴿فإذا دخلتم بيوتًا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة﴾ أى فليسلم بعضكم على بعض

وقيل : المراد أن يقتل كل من عبد العجل نفسه قتلا حقيقيًا حتى يكفر عن ردته بعبادته لغير الله، وقد ورد أنهم فعلوا ذلك، وأن الله - تعالى - رفع عنهم القتل وعفا عمن بقى منهم على قيد الحياة كرما منه وفضلا، وهذا هو معنى التوبة فى قوله تعالى «فتاب عليكم»، ومعنى العفو فى قوله تعالى : فى الآية السابقة ﴿ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون﴾.

وقد ساق ابن كثير وغيره من المفسرين كثيرًا من الآثار التى تحدثت عن كيفية حصول هذا القتل، من ذلك ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، أنه قال : «قال تعالى لموسَى : إن توبة عبدة العجل أن يقتل كل واحد منهم من لقى من والد وولد فيقتله بالسيف ولا يبالى من قتل فى ذلك الموطن فتاب أولئك الذين كانوا خفى على موسى وهارون، ما اطلع الله على ذنوبهم فاعترفوا بها. وفعلوا ما أمروا به، فغفر الله للقاتل والمقتول»[2].

وأخرج ابن جرير عن ابن شهاب الزهرى أنه قال : «لما أمر بنو إسرائيل بقتل أنفسهم برزوا ومعهم موسى، فتضاربوا بالسيوف، وتطاعنوا بالخناجر وموسى رافع يديه، حتى إذا فتروا أتاه بعضهم، فقال له : يا نبى الله ادع الله لنا، وأخذوا بعضديه يشدون يديه. فلم يزل أمرهم على

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ١٤٠.
(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٩٢.

ذلك حتى إذا قبل الله توبتهم قبض أيدى بعضهم عن بعض، فألقوا السلاح، وحزن موسى وبنو إسرائيل للذى كان من القتل فيهم، فأوحى الله - جل ثناؤه - إلى موسى. ﴿لا تحزن﴾ أما من قتل فحى عندى يرزق، وأما من بقى، فقد قبلت توبته، فسر بذلك موسى وبنو إسرائيل »[1].

وجملة ﴿ذلكم خير لكم عند بارئكم﴾ تعليلية، جىء بها لتحريضهم على الامتثال والطاعة لما أمرهم به نبيهم - عليه السلام - واسم الإشارة ﴿ذلكم﴾ يعود إلى التوبة والقتل المفهومين مما تقدم.

وقال ﴿عند بارئكم﴾ ولم يقل عنده، لأن فى هذا التكرير حملا للمخاطبين على التفكير والتذكير والطاعة، وإشعارًا لهم بأن عبادة من برأهم وذرأهم وخلقهم فى أحسن تقويم، خير لهم فى دنياهم وأخراهم.

وجملة ﴿فتاب عليكم﴾ جواب لشرط محذوف للإيجار، أى فامتثلتم ما أمرتم به، فقبل البارى توبتكم، وهى خطاب من الله - تعالى - لبنى إسرائيل على لسان موسى، فيه تذكير بنعمته، وإرشاد لهم إلى موطن المنة والفضل وهو قبول توبتهم.

وعطفت هذه الجملة ﴿فتاب عليكم﴾ بالفاء، لإشعارهم بأنه - سبحانه - لم يتركهم ليستأصلوا أنفسهم جميعًا بالقتل، بل تداركهم بلطفه ورحمته، فقبل توبتهم، ورفع عقوبة القتل عمن بقى منهم.

وقوله تعالى: ﴿إنه هو التواب الرحيم﴾ إخبار وثناء على الله - تعالى - بما هو أهله من عفو ورحمة. وأكدها - سبحانه - لتنزيلهم منزلة من يشك فى قبول توبته، لعظم جريمتهم وضخامة خطيئتهم وسيرهم إلى أمد بعيد فى طريق الشيطان.

وهذه الآية الكريمة قد تضمنت نعمة كبرى على بنى إسرائيل فإن الله - تعالى - لطف بهم، ورحمهم، وقبل توبتهم، وعفا عن قتلهم أنفسهم، بعد أن صدر منهم ما يدل على صدقهم فى توبتهم، كما تضمنت - أيضًا - تذكير بنى إسرائيل المعاصرين للعهد النبوى بنعم الله عليهم، لأنه لولا عفوه - سبحانه - عن آبائهم لما وجدوا هم، وفيها - كذلك - إشارة إلى سماحة الشريعة التى أتى بها محمد ﷺ وإغراء لليهود المعاصرين له بالدخول فى الإسلام لأنه إذا كان آباؤهم لم تقبل توبتهم إلا بقتلهم أنفسهم فإن شريعة الإسلام تقول لهم: لقد جاءكم النبى الذى رفع عنكم إصركم والأغلال التى كانت على أسلافكم، فآمنوا به واتبعوه لعلكم ترحمون.

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص٢٨٦ طبعة الحلبى.

سابعًا: نعمة بعثهم من بعْد موتهم:

ثم ذكرهم - سبحانه - بعد ذلك بنعمة جليلة، أسبغها الله عليهم رغم مطالبهم المتعنتة، وهذه النعمة تتجلى فى بعثهم من بعد موتهم، فقال تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

جهرة: فى الأصل مصدر من قولك جهرت بالقراءة والدعاء واستعيرت للمعاينة لما بينهما من الاتحاد فى الوضوح والانكشاف، إلا أن الأول فى المسموعات والثانى فى المبصرات.

والصاعقة: - كما قال ابن جرير - «كل أمر هائل رآه الرائى أو عاينه أو أصابه، حتى يصير من هوله وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب وذهاب عقل. صوتًا كان ذلك أو نارًا أو زلزلة أو رجفة، ومما يدل على أن الشخص قد يكون مصعوقًا وهو حى غير ميت، قوله - تعالى -: ﴿وخر موسى صعقًا﴾ يعنى مغشيًا عليه، فقد علم أن موسى لم يكن حين غشى عليه وصعق ميتًا، لأن الله أخبر عنه أنه لما أفاق قال: ﴿سبحانك تبت إليك..﴾[1].

وأصل البعث فى اللغة: إثارة الشىء من محله، وتحريكه بعد سكون ومنه: بعث فلان الناقة: إذا أثارها من مبركها للسير، ويستعمل بمعنى الإيقاظ، كما ورد فى قصة أهل الكهف ﴿فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددًا. ثم بعثناهم...﴾ أى: أيقظناهم.

ويستعمل - أيضًا - بمعنى الإحياء. وهو المراد فى الآية التى معنا، بدليل قوله تعالى: ﴿من بعد موتكم﴾.

ومعنى الآيتين الكريمتين: واذكروا يا بنى إسرائيل وقت أن تجاوزتم حدودكم، وتعنتم فى الطلب، فقلتم لنبيكم موسى بجفاء وغلظة: لن نؤمن لك، ولن نقر بما جئتنا به، حتى نرى الله عيانًا وعلانية، فيأمرنا بالإيمان بك، وبما جئت به، فأخذتكم العقوبة التى صعقتكم - بسبب جهلكم وتطاولكم - وأنتم تشاهدونها بعيونكم، ثم مننا عليكم بلطفنا ورحمتنا فأحييناكم من

---

(١) ابن جرير جـ١ ص ٢٩٠ طبعة الحلبى.

بعد أن أخذتكم الصاعقة، لكى تشكروا الله على نعمه التى من جملتها إعادتكم إلى الحياة من بعد موتكم.

قال الإمام ابن جرير: ذكرهم الله - تعالى - بذلك اختلاف آبائهم. وسوء استقامة أسلافهم مع أنبيائهم، مع كثرة معاينتهم من آيات الله وعبره ما تثلج بأقلها الصدور، وتطمئن بالتصديق معها النفوس، وذلك مع تتابع الحجج عليهم وسبوغ النعم من الله لديهم، وهم مع ذلك مرة يسألون نبيهم أن يجعل لهم إلهًا غير الله، ومرة يعبدون العجل من دون الله، ومرة يقولون: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾. وأخرى يقولون له إذا دعوا إلى القتال: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾ ومرة يقال لهم: ﴿قولوا حطة وادخلوا الباب سجدًا نغفر لكم خطاياكم﴾ فيقولون حنطة فى شعيرة، ويدخلون الباب من قبل أستاهم، مع غير ذلك من أفعالهم القبيحة التى يكثر إحصاؤها، فأعلم الله - تعالى - الذين خاطبهم بهذه الآيات من يهود بنى إسرائيل الذين كانوا بين ظهرانى مهاجر رسول الله ﷺ أنهم لن يعدوا أن يكونوا فى تكذيبهم محمدًا ﷺ وجحودهم نبوته كآبائهم وأسلافهم، الذين فصل عليهم قصصهم فى ارتدادهم عن دينهم مرة بعد أخرى، وتمردهم على نبيه موسى - عليه السلام - تارة بعد أخرى مع ابتلاء الله لهم، وسبوغ آلائه عليهم[1].

والقائلون لموسى - عليه السلام -: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ يرى جمهور المفسرين أنهم هم السبعون الذين اختارهم موسى للذهاب معه إلى ميقات ربه، وقد وردت آثار تؤيد هذا الرأى.

من ذلك ما أخرجه ابن جرير عن الربيع بن أنس فى قوله تعالى: ﴿فأخذتكم الصاعقة﴾ أنه قال: هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه. وقالوا: اطلب لنا ربك لنسمع كلامه. قال: سمعوا كلاما، فقالوا: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ قال: فسمعوا صوتًا فصعقوا يقول: ماتوا، فذلك قوله: ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ فبعثوا من بعد موتهم، لأن موتهم ذلك عقوبة لهم، فبعثوا لبقية آجالهم.

وقال ابن كثير: الذين قالوا لموسى: ﴿أرنا الله جهرة﴾ المراد بهم السبعون المختارون منهم ولم يحك كثير من المفسرين سواه.

وقيل: إن الذين طلبوا من موسى رؤية الله جهرة هم عامة بنى إسرائيل بدون تحديد لهؤلاء

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٢٦٨.

السبعين، فقد روى عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه قال فى تفسير هذه الآية. «قال لهم موسى لما رجع من عند ربه بالألواح قد كتب فيها التوراة، فوجدهم يعبدون العجل. فأمرهم بقتل أنفسهم، ففعلوا، فتاب الله عليهم، فقال لهم موسى: (إن هذه الألواح فيها كتاب الله فيه أمركم الذى أمركم به، ونهيكم الذى نهاكم عنه، فقالوا: ومن يأخذ بقولك أنت؟ لا والله حتى نرى الله جهرة، حتى يطلع الله علينا فيقول: هذا كتابى فخذوه، فما له لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى؟! وقرأ قول الله تعالى: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾؛ قال: فجاءت غضبة من الله - تعالى -، فجاءتهم صاعقة بعد التوبة. فصعقتهم فماتوا جميعًا. قال: ثم أحياهم الله من بعد موتهم، وقرأ قوله تعالى: ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾. فقال لهم موسى: خذوا كتاب الله، فقالوا لا، فقال: أى شىء أصابكم؟ فقالوا: أصابنا أننا متنا ثم أحيينا. قال: خذوا كتاب الله، قالوا لا، فبعث الله ملائكة فنتقت الجبل فوقهم)[1].

قال الإمام ابن كثير: (وهذا السياق يدل على أنهم كلفوا بعدما أحيوا ثم قال: وقد حكى الماوردى فى ذلك قولين:

أحدهما: أنهم سقط التكليف لمعاينتهم الأمر جهرة حتى صاروا مضطرين إلى التصديق.

والثانى: أنهم مكلفون لئلا يخلو عاقل من تكليف[2].

وهذا هو الصحيح لأن معاينتهم للأمور الفظيعة لا تمنع تكليفهم، لأن بنى إسرائيل قد شاهدوا أمورًا عظاما من خوارق العادات وهم مع ذلك مكلفون؛ وهذا واضح، والله أعلم)[3].

وقال ابن جرير: «ولا خبر عندنا بصحة شىء مما قاله من ذكرنا قوله فى سبب قيلهم ذلك لموسى تقوم به حجة، فنسلم لهم، وجائز أن يكون ذلك بعض ما قالوه، فإذا كان لاخبر بذلك تقوم به حجة فالصواب من القول فيه أن يقال: إن الله - جل ثناؤه - قد أخبر عن قوم موسى أنهم قالوا له ﴿يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ كما أخبر عنهم أنهم قالوه...»[4]

وفى ندائهم لنبيهم باسمه «يا موسى» سوء أدب منهم معه، لأنه كان من الواجب عليهم،

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٩٤.
(٢) تفسير ابن كثير ص٩٤.
(٣) تفسير ابن كثير ص٩٤.
(٤) تفسير ابن جرير جـ١ ص٢٩٣ طبعة الحلبى.

أن يقولوا له : يا رسول الله أو يا نبى الله ، من الصفات التى تشعر بصفات التعظيم والتوقير، وقد تكررت نداءاتهم باسمه مجردًا فى كثير من المواطن.

ومن أدب الصحابة مع الرسول ﷺ أنهم كانوا يقولون له : يا رسول الله ، استجابة لأمر الله – تعالى – فى قوله : ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضًا﴾.

وقولهم : ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ دليل على تمردهم وعصيانهم، وقلة اكتراثهم بما أوتوا من نعم، وما شاهدوا من معجزات، إذ أنهم طلبوا منه أن يروا الله عيانًا، فإن لم يروه داخلهم الشك فى صدق نبيهم.

وعبر عنهم القرآن الكريم بأنهم يريدون الرؤية (جهرة) لإزالة احتمال أنهم يكتفون بالرؤية المنامية، أو العلم القلبى، فهم لا يعتقدون إلا بالرؤية الحسية، لغلظ قلوبهم، وجفاء طباعهم.

وقوله تعالى : ﴿فأخذتكم الصاعقة﴾ إشارة إلى أن العقوبة قد فاجأتهم بعد وقت قصير من مطالبهم المتعنتة، لأن الفاء تفيد التعقيب.

وجملة ﴿وأنتم تنظرون﴾ تفيد أن العقوبة نزلت عليهم وهم يشاهدونها وفى مشاهدتها رعب وخوف أخذ بمجامع قلوبهم، قبل أن يأخذ العذاب أجسادهم، وإن إصابتهم بهذه العقوبة كان فى حالة إساءتهم وتمردهم وطمعهم فى أن ينالوا ما ليس من حقهم.

والآية الكريمة تفيد أن بنى إسرائيل طلبوا من نبيهم رؤية الله جهرة فى الدنيا، وأنهم علقوا إيمانهم عليها، ولم يأبهوا للآيات الدالة على صدق. موسى – عليه السلام – فكان ذلك محض تعنت وعناد منهم، فأخذتهم الصاعقة عقوبة لهم على ذلك، وليس على مجرد سؤالهم رؤية الله – تعالى – ومن هنا يتبين أن الآية لا تدل على استحالة الرؤية كما يقول المعتزلة.

وجملة ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ هى محل النعمة والمنة، وهى معطوفة على قوله تعالى ﴿فأخذتكم الصاعقة﴾ ودل العطف بثم على أن بين أخذ الصاعقة والبعث زمانًا نتصور فيه المهلة والتأخير.

والمراد ببعثهم : إحياؤهم من بعد موتهم، وهو معجزة لموسى – عليه السلام – استجابة لدعائه.

وقد اشتملت الآيتان الكريمتان على تحذير اليهود المعاصرين للعهد النبوى، من محاربة الدعوة الإسلامية، حتى لا يصابوا بما أصيب به أسلافهم من الصواعق وغيرها؛ وفيهما أيضًا تسلية للنبى ﷺ عما لاقاه من اليهود، لأن ما فعلوه معه قد فعل ما يشبهه آباؤهم مع أنبيائهم، وفيها كذلك لون جديد من نعم الله عليهم ما أجدرهم بشكرها لو كانوا يعقلون.

ثامنًا : نعمة تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم :

ثم عطف - سبحانه - على نعمة بعثهم من بعد موتهم نعمة أخرى بل نعمتين، وهما تظليلهم بالغمام ومنحهم المن والسلوى، فقال تعالى :

وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

الغمام : جمع غمامة، وهى السحابة، وخصه بعض علماء اللغة بالسحاب الأبيض.

والمن : اسم جنس لا واحد من لفظه، وهو - على أرجح الأقوال - مادة صمغية تسقط على الشجر تشبه حلاوته حلاوة العسل.

والسلوى : اسم جنس جمعي، واحدته سلواة، وهو طائر برى لذيذ اللحم، سهل الصيد، يسمى بالسمانى، كانت تسوقه لهم ريح الجنوب كل مساء، فيمسكونه قبضًا بدون تعب.

وتظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم، كان فى مدة تيههم بين مصر والشام المشار إليه بقوله - تعالى - ﴿قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض﴾.

قال السدى : «لما دخل بنو إسرائيل التيه، قالوا لموسى -عليه السلام- كيف لنا بما هاهنا، أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المن فكان ينزل على شجرة الزنجبيل، والسلوى وهو طائر يشبه السمانى أكبر منه فكان يأتى أحدهم فينظر إلى الطير فإن كان سمينًا ذبحه وإلا أرسله، فإذا سمن أتاه فقالوا هذا الطعام فأين الشراب؟ فأمر الله - تعالى - موسى أن يضرب بعصاه الحجر فضربه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، فشرب كل سبط من عين، فقالوا : هذا الشراب فأين الظل؟ فظلل الله عليهم الغمام. فقالوا : هذا الظل فأين اللباس؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما تطول الصبيان ولا يتمزق لهم توب، فذلك قوله تعالى : ﴿وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى..﴾.

ومعنى الآية الكريمة : واذكروا يا بنى إسرائيل من بين نعمى عليكم نعمة إظلالكم بالغمام وأنتم فى التية ليقيكم حر الشمس، وحرارة الجو، ولولا منحى إياكم الطعام اللذيذ المشتهى بدون تعب منكم فى تحصيله لهلكتم، وقلنا لكم كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الذى

رزقكم هذه النعم، ولكنكم كفرتم بها، فظلمتم أنفسكم دون أن ينالنا من ذلك شيء، لأن الخلق جميعًا لن يبلغوا ضرى فيضرونى ولن يبلغوا نفعى فينفعونى.

فالآية الكريمة قد أشارت إلى جحودهم النعمة بقوله تعالى: ﴿وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾.

وقوله تعالى: ﴿وما ظلمونا﴾ معطوف على محذوف، أى فعصوا ولم يقابلوا النعم بالشكر. ويرى البعض أنه لا حاجة إلى التقدير، وأن جملة ﴿وما ظلمونا﴾ معطوفة على ما قبلها لأنها مثلها فى أنها من أحوال بنى إسرائيل.

والتعبير عن ظلمهم لأنفسهم بكلمة ﴿كانوا﴾ والفعل المضارع ﴿يظلمون﴾ يدل على أن ظلمهم لأنفسهم كان يتكرر منهم، لأنك لا تقول فى ذم إنسان كان يسيء إلى الناس إلا إذا كانت الإساءة تصدر منه المرة تلو الأخرى.

قال الإمام ابن جرير - رحمه الله - فى تفسير قوله تعالى: ﴿وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ ما ملخصه: (هذا من الذى استغنى بدلالة ظاهره على ما ترك منه، وذلك أن معنى الكلام: كلوا من طيبات ما رزقناكم فخالفوا ما أمرناهم به، وعصوا ربهم، ثم رسولنا إليهم، وما ظلمونا فاكتفى بما ظهر عما ترك، وقوله ﴿وما ظلمونا﴾ أى: ما ظلمونا بفعلهم ذلك ومعصيتهم، وما وضعوا فعلهم ذلك وعصيانهم إيانا موضع مضرة علينا ومنقصة لنا، ولكنهم وضعوه من أنفسهم موضع مضرة عليها ومنقصة لها فإن الله - تعالى - لا تضره معصية عاص، ولا يتحيف خزائنه ظلم ظالم، ولا تنفعه طاعة مطيع، ولا يزيد فى ملكه عدل عادل، بل نفسه يظلم الظالم وحظها يبخس العاصى، وإياها ينفع المطيع، وحظها يصيب العادل)(١).

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ذكرت بنى إسرائيل بنعمة من أعظم النعم وهى تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم، ولكن بنى إسرائيل لم يشكروا الله على نعمه، ولذا أرسل الله عليهم رجزًا من السماء بسبب ظلمهم وفسقهم.

تاسعًا: نعمة تمكينهم من دخول بيت المقدس ونكولهم عن ذلك.

ثم ذكرهم - سبحانه - بعد ذلك بمنة عظيمة مكنوا منها فما أحسنوا قبولها وما رعوها حق رعايتها - وهى تخليصهم من عناء التيه، والإذن لهم فى دخول بلدة يجدون فيها الراحة والهناء، وإرشادهم إلى القول الذى يخلصهم مما استوجبوه من عقوبات ولكنهم خالفوه فقال تعالى:

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص٣٩٧، ٣٩٨

وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

القرية : هى البلدة المشتملة على مساكن، والمراد بها بيت المقدس على الراجح.

والرغد : الواسع من العيش الهنىء، الذى لا يتعب صاحبه، يقال : أرغد فلان : أصاب واسعًا من العيش الهنىء.

الحطة : من حط بمعنى وضع، وهى مصدر مراد به طلب حط الذنوب

قال صاحب الكشاف : (حطة) فعلة من الحط كالجلسة. وهى خبر مبتدأ محذوف، أى مسألتنا حطة، والأصل فيها النصب بمعنى : حط عنا ذنوبنا حطة، وإنما رفعت لتعطى معنى الثبات..)[1].

والمعنى : اذكروا يا بنى إسرائيل - لتتعظوا وتعتبروا - وقت أن أمرنا أسلافكم بدخول بيت المقدس بعد خروجهم من التية، وأبحناهم أن يأكلوا من خيراتها أكلا هنيئًا ذا سعة وقلنا لهم : ادخلوا من بابها راكعين شكرًا لله على ما أنعم به عليكم من نعمة فتح الأرض المقدسة متوسلين إليه - سبحانه - بأن يحط عنكم ذنوبكم، فإن فعلتم ذلك العمل اليسير وقلتم هذا القول القليل غفرنا لكم ذنوبكم وكفرنا عنكم سيئاتكم، وزدنا المحسن منهم خيرًا جزاء إحسانه، ولكنهم جحدوا نعم الله وخالفوا أوامره، فبدلوا بالقول الذى أمرهم الله به قولا آخر أتوا به من عند أنفسهم على وجه العناد والاستهزاء، فأنزلنا على الذين ظلموا رجزًا من السماء بما كانوا يفسقون.

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - : (وهذا كان لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون - عليه السلام - وفتحها الله عليهم عشية جمعة، وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلا

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٢١٦

حتى أمكن الفتح، ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب (باب البلد) سجدًا أى شكرًا لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر ورد بلدهم عليهم وإنقاذهم من التيه والضلال)(١)

وقوله تعالى: ﴿فكلوا منها حيث شئتم رغدًا﴾ فيه إشعار بكمال النعمة عليهم واتساعها وكثرتها. حيث أذن لهم فى التمتع بثمرات القرية وأطعمتها من أى مكان شاءوا.

وقوله تعالى: ﴿وادخلوا الباب سجدًا وقولوا حطة﴾ إرشاد لهم إلى ما يجب عليهم نحو خالقهم من الشكر والخضوع، وتوجيههم إلى ما يعينهم على بلوغ غاياتهم. بأيسر الطرق وأسهل السبل، فكل ما كلفوا به أن يدخلوا من باب المدينة التى فتحها الله لهم خاضعين مخبتين وأن يضرعوا إليه بأن يحط عنهم آثامهم، ويمحو سيئاتهم.

وقوله تعالى: ﴿نغفر لكم خطاياكم﴾ بيان للثمرة التى تترتب على طاعتهم وخضوعهم لخالقهم، وإغراء لهم على الامتثال والشكر، - لو كانوا يعقلون - لأن غاية ما يتمناه العقلاء غفران الذنوب.

قال الإمام ابن جرير: يعنى بقوله تعالى: ﴿نغفر لكم خطاياكم﴾ نتغمد لكم بالرحمة خطاياكم، ونسترها عليكم، فلا نفضحكم بالعقوبة عليها. وأصل الغفر: التغطية والستر، فكل ساتر شيئًا فهو غافر.. والخطايا: جمع خطية - بغير همز - كالمطايا جمع مطية..(٢).

وقوله تعالى: ﴿وسنزيد المحسنين﴾ وعد بالزيادة من خيرى الدنيا والآخرة لمن أسلم لله وهو محسن، أى: من كان منكم محسنًا زيد فى إحسانه ومن كان مخطئًا نغفر له خطيئاته.

وقد أمرهم - سبحانه - أن يدخلوا باب المدينة التى فتحوها خاضعين وأن يلتمسوا منه مغفرة خطاياهم، لأن تغلبهم على أعدائهم، ودخولهم الأرض المقدسة التى كتبها الله لهم، نعمة من أجل النعم، وهى تستدعى منهم أن يشكروا الله عليها بالقول والفعل لكى يزيدهم من فضله، فشأن الأخيار أن يقابلوا نعم الله بالشكر.

ولهذا كان النبى ﷺ يظهر أقصى درجات الخضوع لله تعالى عند النصر والظفر وبلوغ المطلوب، فعندما تم له فتح مكة دخل إليها من الثنية العليا، وإنه لخاضع لربه، حتى إن رأسه الشريف ليكاد يمس عنق ناقته شكرًا لله على نعمة الفتح، وبعد دخوله مكة اغتسل وصلى ثمانى ركعات سماها بعض الفقها صلاة الفتح.

ومن هنا استحب العلماء للفاتحين من المسلمين إذا فتحوا بلدة أن يصلوا فيها ثمانى ركعات

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٩٨.

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٢٠٢.

عند أول دخولها شكرًا لله - تعالى - وقد فعل ذلك سعد بن أبى وقاص عندما دخل إيوان كسرى، فقد ثبت أنه صلى بداخله ثماني ركعات.

ولكن، ماذا كان من بنى إسرائيل بعد أن أتم الله لهم نعمة الفتح؟

إنهم لم يفعلوا ما أمروا بفعله، ولم يقولوا ما كلفوا بقوله، بل خالفوا ما أمروا به من قول وفعل، ولذا قال تعالى: ﴿فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم﴾.

أخرج البخارى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ أنه قال: (قيل لبنى إسرائيل: ادخلوا الباب سجدًا وقولوا حطة فبدلوا ودخلوا يزحفون على أستاهم، وقالوا: حبة فى شعيرة)[1].

قال الإمام ابن كثير: (وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق، أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل، فأمروا أن يدخلوا الباب سجدًا، فدخلوا يزحفون على أستاههم رافعين رؤسهم، وأمروا أن يقولوا: حطة، أى احطط عنا ذنوبنا وخطايانا فاستهزءوا وقالوا: حنطة فى شعيرة، وهذا فى غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة، ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم وخروجهم عن طاعته)[2].

فقوله تعالى: ﴿فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم﴾ بيان للسبب الذى من أجله نزل عليهم العذاب، وتوبيخ لهم على مخالفتهم أوامر الله - تعالى -، لأن تبديل الشيء معناه تغييره وإزالته عما كان عليه بإعطائه صورة تخالف التى كان عليها.

والفعل (بدل) يقتضى بدلا ومبدلا منه، إلا أن مقام الإيجاز فى الآية استدعى الاكتفاء بذكر البدل - وهو القول الذى لم يقل لهم - دون ذكر المبدل منه - وهو القول الذى قيل لهم - والتقدير: فاختار الذين ظلموا بالقول الذى أمرهم الله به، قولا آخر اخترعوه من عند أنفسهم على وجه المخالفة والعصيان.

قال صاحب الكشاف: ﴿فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم﴾ أى: وضعوا مكان ﴿حطة﴾ قولا غيرها، يعنى أنهم أمروا بقول معناه التوبة والاستغفار فخالفوه إلى قول ليس معناه معنى ما أمروا به، ولم يمتثلوا أمر الله، وليس الغرض أنهم أمروا بلفظ بعينه. وهو لفظ الحطة فجاءوا بلفظ آخر، لأنهم لو جاءوا بلفظ آخر مستقل، بمعنى ما أمروا به لم يؤاخذوا به كما لو قالوا مكان حطة: نستغفرك ونتوب إليك. أو اللهم أعف عنا وما أشبه ذلك»[3].

---

(١) صحيح البخارى. باب (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية جـ ١ ص ٢٢.

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٩٩. (٣) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢١٨.

والعبرة التى تؤخذ من هذه الجملة الكريمة، أن من أمره الله - تعالى - بقول أو يفعل، فتركه وأتى بآخر لم يأذن به الله، دخل فى زمرة الظالمين، وعرض نفسه لسوء المصير.

وقوله تعالى: ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزًا من السماء بما كانوا يفسقون﴾ تصريح بأن ما أصابهم من عذاب كان نتيجة عصيانهم وتمردهم وجحودهم لنعم الله - تعالى - والرجز فى لغة العرب: هو العذاب سواء أكان بالأمراض المختلفة أو بغيرها.

وفى النص على أن الرجز قد أتاهم من جهة السماء إشعار بأنه عذاب لا يمكن دفعه وأنه لم يكن له سبب أرضى من عدوى أو نحوها، بل رمتهم به الملائكة من جهة السماء. فأصيب به الذين ظلموا دون غيرهم، ولم يقل القرآن «فأنزلنا عليهم»، بالإضمار، وإنما قال ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا﴾ بالإظهار، تأكيدًا لوصفهم بأقبح النعوت وهو الظلم، وإشعارًا بأن ما نزل عليهم كان سببه بغيهم وظلمهم.

وقد تضمنت الآيتان الكريمتان أن بنى إسرائيل مكنوا من النعمة فنفروا منها، وفتحت لهم أبواب الخير فأبوا دخولها، وأرشدوا إلى القول الذى يكفر سيئاتهم فخالفوا ما أرشدوا إليه مخالفة لا تقبل التأويل، فكانت نتيجة جحودهم ومخالفتهم لأمر الله حرمانهم من تلك النعمة إلى حين، ومعاقبتهم لظلمهم بالعذاب الأليم، وفى هذا التذكير امتنان عليهم ببذل النعمة، لأن عدم قبولهم لها لا يمنع كونها نعمة، وفيه إثارة لحسرة اليهود المعاصرين للعهد النبوى على ما ضاع من أسلافهم بسبب مخالفتهم وتمردهم وفيه أيضًا تحذير لهم من سلوك طريق آبائهم حتى لا يصيبهم ما أصاب أسلافهم من عذاب أليم.

عاشرًا: نعمة إغاثتهم بالماء بعد أن اشتد بهم العطش.

ثم ذكرهم - سبحانه - بعد ذلك بنعمة من أجل نعمه عليهم، وهى إغاثتهم فى التيه بالماء بعد أن اشتد بهم العطش، فقال تعالى:

۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾

الاستسقاء : طلب السقيا عند عدم الماء أو حبس المطر، وذلك عن طريق الدعاء لله - تعالى - فى خشوع واستكانة، وقد سأل موسى ربه أن يسقى بنى إسرائيل الماء بعد أن استبد بهم العطش، عندما كانوا فى التيه، فعن ابن عباس أنه قال : «كان ذلك فى التيه، ضرب لهم موسى الحجر، فصارت منه اثنتا عشرة عينًا من ماء، لكل سبط منهم عين يشربون منها[١]

وهذه النعمة كانت نافعة لهم فى دنياهم؛ لأنها أزالت عنهم الحاجة الشديدة إلى الماء ولولاه لهلكوا، وكانت نافعة لهم فى دينهم؛ لأنها من أظهر الأدلة على وجود الله. وعلى قدرته وعلمه، ومن أقوى البراهين على صدق موسى - عليه السلام - فى نبوته[٢].

ومعنى الآية الكريمة : واذكروا يا بنى إسرائيل وقت أن أصاب آباءكم العطش الشديد وهم فى صحراء مجدبة، فتوسل إلينا نبيهم موسى - عليه السلام - فى خشوع وتضرع أن أمدهم بالماء الذى يكفيهم، فأجبناه إلى ما طلب، إذ أوحينا إليه أن اضرب بعصاك الحجر. ففعل، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا بمقدار عدد الأسباط، وصار لكل سبط منهم مشرب يعرفه ولا يتعداه إلى غيره، وقلنا لهم : تمتعوا بما من الله به عليكم من مأكول طيب ومشروب هنيء رزقكم الله إياه من غير تعب ولا مشقة، ﴿ولا تعثوا فى الأرض مفسدين﴾ فتتحول النعم التى بين أيديكم إلى نقم وتصبحوا على ما فعلتم نادمين.

وقوله تعالى : ﴿وإذ استسقى موسى لقومه﴾ يفيد أن الذى سأل ربه السقيا هو موسى - عليه السلام - وحده، لتظهر كرامته عند ربه لدى قومه، وليشاهدوا بأعينهم إكرام الله - تعالى - له، حيث أجاب سؤاله، وفجر الماء لهم ببركة دعائه.

واللام فى قوله - تعالى - ﴿لقومه﴾ للسببية، أى لأجل قومه.

والفاء فى قوله - تعالى - ﴿فقلنا اضرب بعصاك الحجر﴾، عطفت الجملة بعدها على محذوف، والتقدير : فأجبناه إلى ما طلب، وقلنا اضرب بعصاك الحجر.

وآل فى ﴿الحجر﴾ لتعريف الجنس أى اضرب أى حجر شئت بدون تعيين، وقيل للعهد، ويكون المراد حجرًا معينًا معروفًا لموسى - عليه السلام - بوحى من الله تعالى. وقد أورد المفسرون فى ذلك آثارًا حكم المحققون بضعفها ولذلك لم نعتد بها.

والذى نرجحه أنها لتعريف الجنس، لأن انفجار الماء من أى حجر بعد ضربه أظهر فى إقامة البرهان على صدق موسى - عليه السلام - وأدعى لإيمان بنى إسرائيل وانصياعهم للحق بعد

---

(١) وقيل كان الاستسقاء فى البرية ولكن الآثار التى تدل على أنه كان فى التيه أصح وأكثر.
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٠٠.

وضوحه، وأبعد عن التشكيك فى إكرام الله لنبيه موسى - عليه السلام - إذ لو كان انفجار الماء من حجر معين لأمكن أن يقولوا : إن تفجير الماء كان لمعنى خاص بالحجر لا لكرامة موسى عند ربه - تعالى -.

والفاء فى قوله تعالى : ﴿فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا﴾ كسابقتها للعطف على محذوف تقديره : فضرب فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، وقد حذفت هذه الجملة المقدرة لوضوح المعنى.

وكانت العيون اثنتى عشرة عينًا؛ لأن بنى إسرائيل كانوا اثنى عشر سبطًا، والاسباط فى بنى إسرائيل كالقبائل فى العرب. وهم ذرية أبناء يعقوب - عليه السلام - الاثنى عشر، ففى انفجار الماء من اثنتى عشرة عينًا إكمال للنعمة عليهم، حتى لا يقع بينهم تنازع وتشاجر :

وقال - سبحانه - : ﴿فانفجرت﴾. وقال فى سورة الأعراف ﴿فانبجست﴾ والانبجاس خروج الماء بقلة. والانفجار خروجه بكثرة، ولا تنافى بينهما فى الواقع؛ لأنه انبجس أولا. ثم انفجر ثانيًا، وكذا العيون يظهر الماء منها قليلا ثم يكثر لدوام خروجه.

وقوله تعالى : ﴿قد علم كل أناس مشربهم﴾ إرشاد وتنبيه إلى حكمة الانقسام إلى اثنتى عشرة عينًا أى : قد عرف كل سبط من أسباط بنى إسرائيل مكان شربه، فلا يتعداه إلى غيره، وفى ذلك ما فيه من استقرار أمورهم، واطمئنان نفوسهم، وعدم تعدى بعضهم على بعض.

وقوله تعالى : ﴿كلوا واشربوا من رزق الله﴾ مقول لقول محذوف تقديره : وقلنا لهم : كلوا واشربوا من رزق الله.

وقد جمع - سبحانه - بين الأكل والشرب - وإن كان الحديث عن الشراب - لأنه قد تقدمه إنزال المن والسلوى، وقد قيل هنالك : ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ فلما أتبع ذلك بنعمة تفجير الماء لهم اجتمعت المنتان

وقوله تعالى : ﴿ولا تعثوا فى الأرض مفسدين﴾ تحذير لهم من البطر والغرور واستعمال النعمة فى غير ما وضعت له، بعد أن أذن لهم فى التمتع بالطيبات، لأن النعمة عند ما تكثر قد تنسى العبد حقوق خالقه فيهجر الشريعة، ويعيث فى الأرض فسادًا. قال تعالى : ﴿كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾.

والمعنى : ولا تسعوا فى الأرض مفسدين، وتقابلوا النعم بالعصيان فتسلب عنكم. قال ابن جرير - رحمه الله - : (وأصل العثا شدة الإفساد بل هو أشد الإفساد، يقال منه :

عثى فلان فى الأرض : إذا تجاوز الحد فى الإفساد إلى غايته، يعثى، عثًا مقصورًا، ويقال للجماعة يعثون . .)[1].

وبذلك تكون الآية الكريمة قد ذكرت بنى إسرائيل بنعمة جليلة، ونصحتهم بأن يعملوا على شكرها : وحذرتهم عاقبة الإفساد فى الأرض وجحودهم النعمة واستبدالهم الذى هو أدنى بالذى هو خير :

ثم ذكرهم - سبحانه - بما كان منهم من جحود النعمة واستخفافهم بها وإيثارهم - بسوء اختيارهم - ما هو أدنى على ما هو خير، فقال تعالى :

وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

الصبر : حبس النفس على الشيء، بمعنى إلزامها إياه، ومنه الصبر على الطاعات، أو يطلق على حبسها بمعنى كفها. ومنه الصبر عن المعاصى. والطعام : ما رزقوه فى التيه من المن والسلوى : والبقل : ما تنبته الأرض من الخضر مما يأكله الناس والأنعام من نحو النعناع والكراث وغيرهما. والفوم : قيل هو الثوم، وقيل هو الحنطة. والقثاء : نوع من المأكولات أكبر حجمًا من (الخيار).

قال ابن جرير : (وكان سبب مسألتهم موسى - عليه السلام - ذلك فيما بلغنا عن قتادة أنه قال : كان القوم فى البرية قد ظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى : فملوا ذلك،

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣٠٨ طبعة الحلبى.

وذكروا عيشًا كان لهم بمصر، فسألوه موسى، فقال الله تعالى : ﴿اهبطوا مصرًا فإن لكم ما سألتم﴾[(١)] .

ثم ساق ابن جرير رواية، فيها تصريح بأن سؤالهم لم يكن فى البرية بل كان فى التيه فقال : حدثنى يونس بن عبد الأعلى، قال : أخبرنا ابن وهب قال : أنبأنا ابن زيد قال :

« كان طعام بنى إسرائيل فى التيه واحدًا، وشرابهم واحدًا. كان شرابهم عسلا ينزل لهم من السماء يقال له المن، وطعامهم طير يقال له السلوى، يأكلون الطير ويشربون العسل، لم يكونوا يعرفون خبزًا ولا غيره، فقالوا يا موسى : ﴿إنا لن نصبر على طعام واحد، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها﴾ فقرأ حتى بلغ قوله تعالى ﴿اهبطوا مصرًا فإن لكم ما سألتم﴾[(٢)] .

وقد جرى أبو حيان وصاحب الكشاف - فى تفسيريهما - على أن سؤالهم لموسى - عليه السلام كان فى التيه.

قال أبو حيان عند تفسير قوله تعالى ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد﴾ : « لما سئموا من الإقامة فى التيه. والمواظبة على مأكول واحد لبعدهم عن الأرض التى ألفوها، وعن العوائد التى عهدوها، أخبروا عما وجدوه من عدم الصبر على ذلك، وتشوقهم إلى ما كانوا يألفون، وسألوا موسى أن يسأل الله لهم »[(٣)] .

وقال صاحب الكشاف : « كانوا أهل فلاحة فنزعوا إلى عكرهم[(٤)] فأجموا - أى ملوا وكرهوا - ما كانوا فيه من النعمة وطلبت أنفسهم عدم البقاء ﴿على طعام واحد﴾ أرادوا ما رزقوه فى التيه من المن والسلوى »[(٥)] .

ومعنى الآية الكريمة إجمالا : واذكروا يا بنى إسرائيل بعد أن أسبغنا عَليكم نعمنا ما كان من سوء اختيار أسلافكم، وفساد أذواقهم، وإعناتهم لنبيهم موسى - عليه السلام - حيث قالوا له ببطر وسوء أدب : لن نصبر على طعام المن والسلوى فى كل وقت، فسل ربك أن يخرج لنا مما تنبته الأرض من خضرها وفاكهتها وحنطتها وعدسها وبصلها، لأن نفوسنا قد عافت المن والسلوى، فوبخهم نبيهم موسى - عليه السلام - بقوله : أتختارون الذى هو أقل فائدة وأدنى

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣٠٩.
(٢) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣٠٩.
(٣) تفسير ابن حيان جـ ١ ص ٣٣١.
(٤) فنزعوا إلى عكرهم : أى حنوا إلى أصلهم وعادتهم.
(٥) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٧١.

لذة، وتتركون المن والسلوى وهو خير مما تطلبون لذة وفائدة؟ انزلوا إلى مصر من الأمصار فإنكم تجدون به ما طلبتموه من البقول وأشباهها.

وأحاطت ببنى إسرائيل المهانة والاستكانة كما تحيط القبة بمن ضربت عليه، وحق عليهم غضب الله.

ثم بين الله - تعالى - السبب فى جحودهم للنعم وفى أنه ضرب عليهم الذلة والمسكنة وأنزل عليهم غضبه بقوله: ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير الحق﴾ إلخ أى: إن الكفر بآيات الله قد تأصل فيهم، وقتل أنبيائهم بغير الحق قد تكرر منهم حتى صار كالطبيعة الثانية والسجية الثابتة، فليس غريبًا على هؤلاء أن يقولوا لن نصبر على المن والسلوى وأن ينزل بهم غضب الله ونقمته من أجل جحودهم وكفرهم.

وقوله تعالى: ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد﴾ تذكير لهم برغبة من رغباتهم الناشئة عن ذوق سقيم. لا يقدر النعمة قدرها، وفيه انتقال من تعداد النعم عليهم إلى بيان موفقهم الجحودى منها، وانسياقهم وراء شهواتهم وأهوائهم وحماقاتهم، وفيه إشعار بسوء أدبهم فى مخاطبتهم لنبيهم موسى - عليه السلام - إذ عبروا عن عدم رغبتهم فى تناول المن والسلوى بحرف ﴿لن﴾ المفيد تأكيد النفى فقالوا ﴿لن نصبر﴾.. إلخ فكأنهم يقولون له مهددين، ليلجئوه إلى دعاء ربه سريعًا: إننا ابتداء من هذا الوقت الذى نخاطبك فيه إلى أن نموت، لن نحبس أنفسنا عن كراهية على تناول طعام واحد، لأننا قد سئمناه ومللناه، ولن نعود إليه: فالتعبير «بلن» يشعر بشدة ضجرهم، وبلوغ الكراهية لهذا الطعام منهم منتهاها.

قال الحسن البصرى - رضى الله عنه -: «بطروا طعم المن والسلوى فلم يصبروا عليه، وذكروا عيشهم الذى كانوا فيه، وكانوا قومًا أهل أعداس وبصل وبقل وثوم»[1].

ووصفوه بالوحدة مع أن المن والسلوى نوعان، لأنهم أرادوا من الوحدة أنه طعام متكرر فى كل يوم لا يختلف بحسب الأوقات، والعرب تقول لمن يفعل على مائدته فى كل يوم من الطعام أنواعا لا تتغير، إنه يأكل من طعام واحد.

وسألوا موسى - عليه السلام - أن يدعو لهم، لأن دعاء الأنبياء أقرب إلى الإجابة من دعاء غيرهم، وكذلك دعاء الصالحين، حيث يصدر من قلوب عامرة بتقوى الله وجلاله، فيلاقى من الإجابة ما لا يلاقيه دعاء نفوس تستهويها الشهوات، وتستولى عليها السيئات.

وقولهم: ﴿فادع لنا ربك﴾ ولم يقولوا ربنا، لعدم رسوخ الإيمان فى قلوبهم، ولأنه سبحانه- قد اختصه بما لم يعط مثله من مناجاته وتكميله وإيتائه التوراة.

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٠١.

وقولهم : ﴿يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها﴾ هو مضمون ما طلبوه من موسى - عليه السلا- وهو فى معنى مقول قول محذوف والتقدير : أى قل لربك يخرج لنا.

وجاء التعبير بالفعل ﴿يخرج﴾ مجزومًا - مع أن مقتضى الظاهر أن يقال : «أن يخرج - للإيماء إلى أنهم واثقون بأنه إن دعا ربه أجابه، حتى لكأن إخراج ما تنبت الأرض متوقف على مجرد دعاء موسى ربه، وأنه لو لم يدع لهم، لكان شحيحًا عليهم بما فيه نفعهم[١].

والجملة الكريمة : ﴿أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير﴾ من مقول موسى - عليه السلام - لهم، وفيها توبيخ شديد لهم على سوء اختيارهم، وضعف عقولهم. لإيثارهم الأدنى وهو البقل وما عطف عليه، على ما هو خير منه وهو المن والسلوى.

قال ابن جرير عند تفسيره للآية الكريمة : «أى قال لهم موسى : أتاخذون الذى هو أخس خطرًا وقيمة وقدرًا من العيش، بدلا بالذى هو خير منه خطرًا وقيمة وقدرًا، وذلك كان استبدالهم، وأصل الاستبدال : هو ترك شىء لآخر غيره مكان المتروك، ومعنى قوله : ﴿أدنى﴾ أخس وآضع وأصغر قدرًا وخطرًا، وأصله من قولهم : هذا رجل دنى بين الدناءة، وإنه ليدنى فى الأمور- بغير همز- إذا كان يتتبع خسيسها. ثم قال : ولاشك أن من استبدل بالمن والسلوى : البقول والقثاء والعدس والبصل والثوم، فقد استبدل الوضيع من العيش بالرفيع منه»[٢].

ثم أضاف موسى - عليه السلام - إلى توبيخهم السابق على بطرهم وجحودهم توبيخًا آخر فقال لهم : ﴿اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم﴾ أى إذا كان هذا هو مرغوبكم، فاتركوا هذا المكان، وانزلوا إلى مصر من الأمصار، لكى تجدوا ما سألتمونى إياه من البقل والثوم وأشباههما، لأن ما اخترتموه لا يوجد فى المكان الذى حللتم به، وإنما يوجد فى الأمصار والقرى.

وقوله تعالى : ﴿مصرًا﴾.

قال ابن كثير : «هكذا هو منون مصروف مكتوب بالألف فى المصاحف الأئمة العثمانية وهو قراءة الجمهور بالصرف»[٣].

وقال ابن جرير : «فأما القراءة فإنها بالألف والتنوين ﴿اهبطوا مصرًا﴾ وهى القراءة التى

---

(١) تفسير «التحرير والتنوير» جـ ١ ص ٥٠٠ الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور طبعة عيسى البابى الحلبى سنة ١٩٦٤.

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣١٢.

(٣) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٠١.

لا يجوز عندى غيرها، لاجتماع خطوط مصاحف المسلمين واتفاق قراءة القراء على ذلك . . » اهـ[١].

وقال أبو حيان فى البحر : «وقرأ الحسن وطلحةوالأعمش وأبان ابن تغلب (مصر) بغير تنوين، وقد وردت كذلك فى مصحف أبى بن كعب وعبد الله بن مسعود، وبعض مصاحف عثمان - رضى الله عنه» اهـ[٢].

والمعنى على القراءة الأولى : اهبطوا مصرا من الأمصار لأنكم فى البدو، والذى طلبتم لا يكون فى البوادى والفيافى وإنما يكون فى القرى والأمصار، فإن لكم إذا هبطتموه ما سألتم من العيش.

والمعنى على القراءة الثانية : اتركوا المكان الذى أنتم فيه، واهبطوا مصر التى كنتم تسامون فيها سوء العذاب فإنكم تجدون فيها ما تبغونه، لأنكم قوم لا تقدرون نعمة الحرية، ولا ترتاحون للفضائل النفسية، بل شأنكم - دائما - أن تستبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير.

ومن حجة الذين قالوا إن الله أراد بالمصر فى الآية الكريمة، مصر فرعون، قوله تعالى فى سورة الشعراء : ﴿فأخرجناهم من جنات وعيون. وكنوز ومقام كريم. كذلك وأورثناها بنى إسرائيل﴾[٣].

وقوله تعالى فى سورة الدخان : ﴿كم تركوا من جنات وعيون. وزروع ومقام كريم. ونعمة كانوا فيها فاكهين. كذلك وأورثناها قوما آخرين﴾[٤].

قالوا : فأخبر الله - تعالى - أنه قد ورثهم ذلك، وجعلها لهم، فلم يكونوا يرثونها، ثم لا ينتفعون بها، ولا يكونون منتفعين إلا بمصير بعضهم إليها

قال ابن جرير : «ومن حجة من قال إن الله - تعالى - إنما عنى بقوله : ﴿اهبطوا مصرا﴾ أى : مصرا من الأمصار دون مصر فرعون بعينها، أن الله - تعالى - جعل أرض الشام لبنى إسرائيل مساكن بعد أن أخرجهم من مصر، وإنما ابتلاهم بالتيه. بامتناعهم عن موسى فى حرب الجبابرة، إذ قال لهم ﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾. . إلى قوله تعالى : ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣١٥.
(٢) تفسير أبى حيان جـ ١ ص ٢٣٣.
(٣) الآيات ٥٧ - ٥٩.
(٤) الآيات من ٢٥ - ٢٨.

قاعدون﴾. فحرم الله - تعالى - على قائل ذلك - فيما ذكر لنا - دخولها حتى هلكوا فى التيه وابتلاهم بالتيهان فى الأرض أربعين سنة. ثم أهبط ذريتهم الشام، فأسكنهم الأرض المقدسة، وجعل هلاك الجبابرة على أيديهم مع «يوشع بن نون» بعد وفاة موسى بن عمران. فرأينا أن الله - تعالى - قد أخبر عنهم أنه كتب لهم الأرض المقدسة، ولم يخبرنا عنهم أنه ردهم إلى مصر بعد إخراجه إياهم منها، فيجوز لنا أن نقرأ ﴿اهبطوا مصر﴾ ونتأوله أنه ردهم إليها. قالوا: فإن احتج محتج بقوله تعالى: ﴿فأخرجناهم من جنات وعيون. وكنوز ومقام كريم. كذلك وأورثناها بنى إسرائيل﴾؟ قيل لهم: فإن الله - تعالى - إنما أورثهم ذلك فملكهم إياها. ولم يردهم إليها وجعل مساكنهم الشام» اهـ[1].

قال أبو حيان فى البحر: (ولم يصرح أحد من المفسرين والمؤرخين أنهم هبطوا من التيه إلى مصر) اهـ[2].

ومع أن ابن جرير - رحمه الله - قد رد على من قال، إن المراد بالمصر مصر فرعون: استنادًا إلى قراءة غير الجمهور، إلا أنه لم يرجح أحد الرأيين فقد قال: (والذى نقول به فى ذلك، أنه لا دلالة فى كتاب الله - تعالى - على الصواب من هذين التأويلين، ولا خبر به عن الرسول ﷺ يقطع مجيئه العذر، وأهل التأويل متنازعون تأويله، فأولى الأقوال فى ذلك عندنا بالصواب أن يقال: إن موسى سأل ربه أن يعطى قومه ماسألوه من نبات الأرض على مابينه الله - تعالى - فى كتابه وهم فى الأرض تائهون فاستجاب الله لموسى دعاءه وأمره أن يهبط بمن معه من قومه قرارًا من الأرض التى تنبت ما سأل لهم من ذلك، إذا صاروا إليه، وجائز أن يكون ذلك القرار مصر، وجائز أن يكون الشام...»[3].

ومن هذا النص الذى نقلناه عن ابن جرير، نرى أنه لم يقطع برأى فى المكان الذى أمر بنو اسرائيل بالهبوط فيه وأنه يرى أن الله - تعالى - قد استجاب لموسى - عليه السلام - دعاءه، وأن موسى وقومه قد هبطوا - فعلا - إلى قرار من الأرض التى تنبت البقول وأشباهها.

وقد عارض الإمام ابنُ كثير فى تفسيره رأىَ ابن جرير فقال:

وهذا الذى قاله - أى ابنُ جرير - فيه نظر، والحق أن المراد مصر من الأمصار، كما روى عن ابن عباس وغيره والمعنى على ذلك، لأن موسى - عليه السلام - يقول لهم: هذا الذى سألتم ليس بأمر عزيز، بل هو كثير فى أى بلد دخلتموها وجدتموه، فليس يساوى مع دناءته

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٣١٤.
(٢) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ١ ص ٢٣٤.
(٣) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٣١٣.

وكثرته فى الأمصار أن أسأل الله فيه، ولهذا قال: ﴿أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم﴾ أى ما طلبتم، ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر ولا ضرورة فيه لم يجابوا إليه والله أعلم[1].

وبذلك يظهر لنا أن ابن كثير - رحمه الله - يرى أن المراد بالمصر مكان غير معين وأن موسى - عليه السلام - لم يسأل ربه إجابة طلبهم لأنهم كانوا متعنتين. بطرين، والله - تعالى - يكره من كان كذلك، وأن قول موسى - عليه السلام - لهم «اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم» من باب التوبيخ والتجهيل لهم، إذ ليس حينئذ بلد قويب يستطيعون الوصول إليه.

هذا، والذى نرجحه فى هذا المقام هو ما ذهب إليه الإمام ابن كثير لما يأتى:

أولا: أن القراءة بالتنوين متواترة، وابن جرير نفسه لم يجوز القراءة بغيرها، وهذه القراءة المتواترة، نص فى أن المراد من مصر، أى بلد كان، لا مصر فرعون، ثم إذا كان المراد به ذلك فليس لنا أن نقول إنه يصدق على مصر فرعون، وذلك لأن الأمصار التى تنبت ما طلبوا من البقول والخضر أقرب إليهم من مصر، فليس من المعقول أن يؤمروا بالذهاب إلى مصر فرعون وهى بغيدة عن مكانهم بعدًا شاسعًا، ويتركوا الأمصار الأقرب إليهم وفيها ما يريدون.

ثانيًا: لم ينقل أحد من المؤرخين أنهم رجعوا إلى مصر بعد خروجهم منها كما قال أبو حيان وغيره، بل الثابت أن بنى إسرائيل خرجوا من مصر، وأمروا بعد خروجهم بدخول الأرض المقدسة لقتال الجبارين ولكنهم أبوا طاعة نبيهم - عليه السلام - فعذبوا بالتيه أربعين سنة لتخلفهم عن قتال الجبارين، ولعصيانهم أمر نبيهم وماتوا جميعًا فى التيه، وبقى أبناؤهم فامتثلوا أمر الله - تعالى - وهبطوا إلى الشام. وقاتلوا الجبارين ودخلوا الأرض المقدسة بقيادة يوشع بن نون.

ثالثًا: ليس فى الآية ما يشعر بأن موسى - عليه السلام - طلب من ربه أن يجيبهم إلى رغبتهم فكيف نقول بما لم يدل عليه القرآن الكريم ولو من طريق الإشارة؟

رابعًا: دخولهم فى التيه كان عقوبة لهم على نكوصهم عن قتال الجبارين، ليدخلوا الأرض المقدسة التى كتبها الله لهم. فالتيه والحالة هذه كان بمثابة سجن لهم يعاقبون فيه، كما يشعر بذلك قوله تعالى: ﴿فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض﴾ فكيف يخرج السجين من سجنه تلبية لبعض رغباته المنكرة. وبناء على ذلك يكون الأمر فى قول موسى لهم: ﴿اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم﴾ للتهديد والتوبيخ والتجهيل.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٠٢.

ثم بين - سبحانه - العقوبات التى حلت بهم جزاء ظلمهم وفجورهم فقال تعالى: ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله﴾:

ضرب الذلة والمسكنة عليهم كناية عن لزومها لهم، وإحاطتها بهم، كما يحيط السرادق بمن بداخله.

قال صاحب الكشاف: (جعلت الذلة محيطة بهم، مشتملة عليهم، فهم فيها كمن يكون فى القبة من ضربت عليه، أو ألصقت به حتى لزمتهم ضربة لازب كما يضرب الطين على الحائط فيلزمه، فاليهود صاغرون أذلاء أهل مسكنة ومدقعة)[1].

وأصل الضرب فى كلام العرب يرجع إلى معنى التقاء ظاهر جسم، بظاهر جسم آخر بشدة، يقال: ضرب بيده الأرض إذا ألصقها بها، وتفرعت عن هذا معان مجازية ترجع إلى شدة اللصوق.

والذلة: على وزن فعلة من قول القائل: ذل فلان يذل ذلة وذلة، والمراد بها الصغار والهوان والحقارة.

والمسكنة: مفعلة من السكون، ومنها أخذ لفظ المسكين، لأن الهم قد أثقله فجعله قليل الحركة والنهوض، لما به من الفاقه والفقر، والمراد بها فى الآية: الضعف النفسى، والفقر القلبى الذى يستولى على الشخص، فيجعله يحس بالهوان، مهما يكن لديه من أسباب القوة.

والفرق بينها وبين الذلة. أن الذلة هوان تجىء أسبابه من الخارج، كأن يغلب المرء على أمره نتيجة انتصار عدوه عليه فيذل لهذا العدو.

أما المسكنة فهى هوان ينشأ من داخل النفس نتيجة بعدها عن الحق واستيلاء المطامع والشهوات عليها، وتوارث الذلة قرونًا طويلة يورث هذه المسكنة، ويجعلها كالطبيعة الثابتة فى الشخص المستذل. ولقد عاش اليهود قرونًا وأحقابًا مستعبدين لمختلف الأمم، فأكسبهم هذا الاستعباد ضعفًا نفسيًا جعلهم لا يفرقون بين الحياة الذليلة والكريمة، بل إنهم ليفضلون الأولى على الثانية ما دامت تجلب لهم غرضًا من أغراض الدنيا، ومهما كثر المال فى أيديهم، فإنهم لا يتحولون عن فقرهم النفسى وظهورهم أمام الناس بمظهر البائس الفقير.

وقوله تعالى: ﴿وباءوا بغضب من الله﴾ بيان لسوء عاقبتهم فى الآخرة ومبالغة فى إهانتهم وتحقيرهم، فهم فى الدنيا أذلاء حقراء، وفى الآخرة سيرجعون بغضب من الله بسبب أفعالهم القبيحة.

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢١٧.

قال ابن جرير - رحمه الله - يعنى بقوله تعالى ﴿وباءوا بغضب من الله﴾ : انصرفوا ورجعوا، ولا يقال باءوا إلا موصولا إما بخير وإما بشر يقال منه باء فلان بذنبه يبوء بوأ وبواء، ومنه قوله تعالى : ﴿إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك﴾ يعنى تنصرف متحملهما، وترجع بهما قد صارا عليك دونى، فمعنى الكلام إذا. ورجعوا منصرفين متحملين غضب الله، قد صار عليهم من الله غضب، ووجب عليهم منه سخط(١).

وقال صاحب الكشاف : ﴿وباءوا بغضب من الله﴾ من قولك باء فلان بفلان، إذا كان حقيقًا بأن يقتل به لمساواته له ومكافأته، أى صاروا أحقاء بغضبه(٢).

ثم صرح - سبحانه - بعد ذلك بسبب ما أحاط بهم من الذلة والمسكنة واستحقاقهم غضب الله وسخطه، فقال تعالى : ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير الحق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾. والجملة الكريمة استئناف بيانى جواب عن سؤال تقديره : لم فعل بهم كل ذلك؟ فكان الجواب، فعلنا بهم بسبب جحودهم لآيات الله، وبسبب قتلهم لأنبيائه، وخروجهم عن طاعته؛ ومجاوزتهم حدودهم والآيات تطلق ويراد بها الأدلة الشاهدة على وحدانية الله تعالى وربوبيته، وتطلق ويراد بها النصوص التى تشتمل عليها الكتب السماوية، وتطلق ويراد بها الأدلة الشاهدة على صدق الرسل - عليهم الصلاة والسلام - فيما يبلغون عن الله - تعالى - وهى التى يسميها علماء التوحيد المعجزات، وقد كفر اليهود بكل هذه الضروب من الآيات، ومردوا على ذلك كما يفيده التعبير بالفعل المضارع ﴿يكفرون﴾.

وقوله تعالى : ﴿ويقتلون النبيين بغير الحق﴾ أى ويقتلون أنبياء الله الذين بعثهم مبشرين ومنذرين، ولقد قتل اليهود - فيمن قتلوا من الأنبياء - زكريا وابنه يحى - عليهما السلام - لأنهما أبيا الانقياد وراء شهواتهم وأهوائهم.

وقال - سبحانه - ﴿بغير الحق﴾ مع أن قتل الأنبياء لا يكون بحق أبدًا، لإفادة أن قتلهم لهم كان بغير وجه معتبر فى شريعتهم لأنها تحرمه، ﴿أنه من قتل نفسًا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا﴾ فهذا القيد المقصود به الاحتجاج عليهم بأصول دينهم وتخليد مذمتهم، وتقبيح إجرامهم، حيث إنهم قتلوا أنبياءهم بدون خطأ فى الفهم، أو تأول فى الحكم، أو شبهة فى الأمر، وإنما فعلوا ما فعلوا وهم عالمون بقبح ما ارتكبوا، وخالفوا شرع الله عن تعمد وإصرار.

قال صاحب الكشاف : «فإن قلت : قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير الحق فما فائدة ذكره؟

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣١٥. (٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢١٧.

قلت: معناه أنهم قتلوهم بغير الحق عندهم، لأنهم لم يقتلوا ولا أفسدوا فى الأرض فيقتلوا، وإنما نصحوهم ودعوهم إلى ما ينفعهم فقتلوهم، فلو سئلوا وأنصفوا من أنفسهم لم يذكروا وجهًا يستحقون به للقتل عندهم»(١).

وقال الإمام الرازى: «فإن قيل: قال هنا ﴿ويقتلون النبيين بغير الحق﴾ وقال فى آل عمران ﴿ويقتلون النبيين بغير حق﴾ فما الفرق؟ قلت. إن الحق المعلوم فيما بين المسلمين الذى يوجب القتل يتجلى فى حديث: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: «كفر بعد إيمان، وزنًا بعد إحصان، وقتل نفس بغير حق» فالحق المذكور هنا بحرف التعريف إشارة إلى هذا وأما الحق المنكر فالمراد به تأكيد العموم، أى لم يكن هناك أى حق يستندون إليه، لا هذا الذى يعرفه المسلمون ولا غيره البتة»(٢).

ثم قال تعالى: ﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾.

العصيان: الخروج عن طاعة الله. والاعتداء: تجاوز الحد الذى حده الله - تعالى - لعباده إلى غيره. وكل متجاوز حد شيء إلى غيره فقد تعداه إلى ما جاوز إليه. وللمفسرين فى مرجع الإشارة «ذلك» رأيان:

أحدهما: أنه يعود إلى كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء، وعليه يكون المعنى:

إن هؤلاء اليهود قد مرنوا على عصيانهم لخالقهم، وتعديهم حدوده بجرأة وعدم مبالاة فنشأ عن هذا التمرد والطغيان أن كفروا بآيات الله - تعالى - وامتدت أيديهم الأثيمة إلى قتل الأنبياء بقلوب كالحجارة أو أشد قسوة.

والجملة الكريمة على هذا الرأى تفيد أن التردى فى المعاصى وارتكاب المناهى، وتجاوز الحدود المشروعة، يؤدى إلى الانتقال من صغير الذنوب إلى كبيرها، ومن حقيرها إلى عظيمها، لأن هؤلاء اليهود لما استمرأوا المعاصى وداوموا على تعدى الحدود، هانت على نفوسهم الفضائل، وانكسرت أمام شهواتهم كل المثل العليا، فكذبوا بآيات الله تكذيبًا وقتلوا من جاءهم بالهدى ودين الحق.

والثانى: يرى أصحابه أن اسم الاشارة الثانى يعود إلى نفس المشار إليه باسم الإشارة الأول، وتكون الحكمة فى تكرار الإشارة هو تمييز المشار إليه حرصًا على معرفته ويكون العصيان والاعتداء سببين آخرين لضرب الذلة والمسكنة عليهم، واستحقاقهم لغضب الله - تعالى -

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢١٧.
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ١ ص ٣٩٠.

كما بينا، والإشارة حينئذ من قبيل التكرير المغنى عن العطف كما فى قوله تعالى: ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾.

والمعنى أن هؤلاء اليهود قد لزمتهم الذلة والمسكنة، وصاروا أحقاء بسخط الله بسبب كفرهم بآياتنا. وقتلهم أنبياءنا، وخروجهم عن طاعتنا وتعديهم لحدودنا.

وعلى هذا الرأى يكون ذكر أسباب العقوبة التى حلت بهم فى الدرجة العليا من حسن الترتيب، فقد بدأ - سبحانه - بما فعلوه فى حقه وهو كفرهم بآياته، ثم ثنى بما يتلوه فى العظم وهو قتلهم لأنبيائه، ثم وصمهم بعد ذلك بالعصيان والخروج عن طاعته ثم ختم أسباب العقوبة بدمغهم بالاعتداء، وتخطى الحدود، وعدم المبالاة بالعهود، وهذا الترتيب من لطائف أسلوب القرآن الكريم فى سوق الأحكام، مشفوعة بعللها وأسبابها.

وبهذا تكون الآية الكريمة قد وصفت بنى إسرائيل بجحود النعم، وسوء الأدب وحمق التفكير، وهوان النفس، وبلادة الطبع، وبطر الحق، والبغى على أنفسهم وعلى غيرهم، وما وصفتهم به أيدته الأيام وصدقته الأحداث فى كل زمان ومكان.

وبعد أن بين القرآن الكريم ما حل باليهود من عقوبات بسبب جحودهم لنعم الله، وكفرهم بآياته - أردف بذلك ما وعد الله به المؤمنين من جزيل الثواب.

فقال - تعالى -:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٦٢﴾

ففى هذه الآية الكريمة حدثنا القرآن عن أربع فرق من الناس:

أما الفرقة الأولى: فهى فرقة الذين آمنوا، والمراد بهم الذين آمنوا بالنبى ﷺ، وصدقوه.

وابتدأ القرآن بهم للإشعار بأن دين الإسلام دين قائم على أساس أن الفوز برضا الله لا ينال إلا بالإيمان الصادق والعمل الصالح، ولا فضل لأمة على أمة إلا بذلك، كما قال - تعالى -: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

وأما الفرقة الثانية: فهى فرقة الذين هادوا، أى: صاروا يهودًا، يقال: هاد وتهود، أى دخل فى اليهودية، وسموا يهودًا نسبة إلى يهوذا أكبر أولاد يعقوب - بقلب الذال دالا فى

التعريب - أو سموًا يهودا حين تابوا من عبادة العجل، من هاد يهود هودا بمعنى تاب. ومنه (إنا هدنا إليك) أى : تبنا.

والفرقة الثالثة : هى فرقة النصارى، جمع نصران بمعنى نصرانى، كندامى وندمان والياء فى نصرانى للمبالغة، وهم قوم عيسى - عليه السلام - قيل سموًا بذلك لأنهم كانوا أنصارًا له، وقيل إن هذا الاسم مأخوذ من الناصرة وهى القرية التى كان عيسى - عليه السلام - قد نزلها.

وأما الفرقة الرابعة : فهى فرقة الصابئين جمع صابىء، وهو الخارج من دين إلى دين، يقال : صبًا الظلف والناب والنجم - كمنع وكرم - إذا طلع. والمراد بهم الخارجون من الدين الحق إلى الدين الباطل، وهم قوم يعبدون الكواكب أو الملائكة، ويزعمون أنهم على دين صابىء بن شيث بن آدم.

وذكر القرآن الصابئة فى هذا المقام وهم من أبعد الأمم ضلالا. لينبه على أن الإيمان الصحيح والعمل الصالح يرفعان صاحبهما إلى مرتقى الفلاح. حتى ولو سبق له أنه بلغ فى الكفر والفجور أقصى غاياته.

والإيمان المشار إليه فى قوله - تعالى - : ﴿من آمن بالله واليوم الآخر﴾. الخ، يفسره بعض العلماء بالنسبة لليهود والنصارى بمعنى صدور الإيمان منهم على النحو الذى قرره الدين الحق، فمن لم تبلغه منهم دعوة الإسلام، وكان ينتمى إلى دين صحيح فى أصله بحيث يؤمن بالله واليوم الآخر ويقدم العمل الصالح على الوجه الذى يرشده إليه دينه، فله أجره على ذلك عند ربه.

أما الذين بلغتهم دعوة الإسلام من تلك الفرق ولكنهم لم يقبلوها؛ فإنهم لا يكونون ناجين من عذاب الله مهما ادعوا بأنهم يؤمنون بغيرها، لأن الشريعة الإسلامية قد نسخت ما قبلها والرسول ﷺ يقول : «لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا اتباعى».

ويفسرونه - أى الإيمان - بالنسبة للمؤمنين المشار إليهم بقوله تعالى : ﴿إن الذين آمنوا..﴾ على أنه بمعنى الثبات والدوام والإذعان، وبذلك ينتظم عطف قوله - تعالى - : ﴿وعمل صالحًا﴾ على قوله ﴿آمن﴾ مع مشاركة هؤلاء المؤمنين لتلك الفرق الثلاث فيما يترتب على الإيمان والعمل الصالح من ثواب جزيل، وعاقبة حميدة.

وبعض العلماء يرى أن معنى ﴿من آمن﴾ أى : من أحدث من هذه الفرق إيمانًا بالنبى ﷺ وبما جاء من عند ربه، قالوا : لأن مقتضى المقام هو الترغيب فى دين الإسلام، وأما بيان من مضى على دين آخر قبل نسخه فلا ملابسة له بالمقام، فضلا عن أن الصابئين ليس لهم دين تجوز رعايته فى وقت من الأوقات.

ثم بين - سبحانه - عاقبتهم فقال : ﴿فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ .

الأجر : الجزاء على العمل، وسمى الله ما يعطيه للمؤمن العامل أجرًا على سبيل التفضل منه .

وقال : ﴿عند ربهم﴾ ليدل على عظم الثواب، لأن ما يكون عند الله من الجزاء على العمل لا يكون إلا عظيمًا، ولأن المجازى لهم هو ربهم المنعوت بصفات الكرم والرحمة وسعة العطاء .

والمعنى : إن هؤلاء الذين آمنوا بالله عن تصديق وإذعان، وقدموا العمل الصالح الذى ينفعهم يوم لقائه، هؤلاء لهم أجرهم العظيم عند ربهم، ولا يفزعون من هول يوم القيامة كما يفزع الكافرون، ولا يفوتهم نعيم، فيحزنون عليه كما يحزن المقصرون .

ثم واصل القرآن حديثه مع بنى إسرائيل، فذكرهم بنعمة شمول الله إياهم برحمته وفضله رغم توليهم عن طاعته ونقضهم لميثاقه فقال تعالى :

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾

قال ابن جرير : « وكان سبب أخذ الميثاق عليهم فيما ذكره ابن زيد، ما حدثنى به يونس بن عبد الأعلى، قال : أخبرنا ابن وهب، قال ابن زيد : لما رجع موسى من عند ربه بالألواح قال لقومه بنى إسرائيل : إن هذه الألواح فيها كتاب الله، وأمره الذى أمركم به ونهيه الذى نهاكم عنه . فقالوا : ومن يأخذ بقولك أنت، لا والله حتى نرى الله جهرة، حتى يطلع الله علينا فيقول : « هذا كتابى فخذه » فما له لا يكلمنا كما كلمك أنت يا موسى : قال فجاءت غضبة من الله، فجاءتهم صاعقة فصعقتهم فماتوا جميعًا، قال : ثم أحياهم الله بعد موتهم فقال لهم موسى : خذوا كتاب الله . فقالوا : لا . قال : أى شىء أصابكم ؟ قالوا : متنا جميعًا، ثم حيينا ؛

قال: خذوا كتاب الله. قالوا: لا. فبعث الله ملائكة فنتقت الجبل فوقهم، فقيل لهم: أتعرفون هذا؟ قالوا نعم، هذا الطور. قال: خذوا الكتاب وإلا طرحناه عليكم، قال: فأخذوا بالميثاق. قال: ولو كانوا أخذوه أول مرة لأخذوه بغير ميثاق»(١).

ومعنى الآيتين الكريمتين: واذكروا - يا بنى إسرائيل - لتعتبروا وتنتفعوا وقت أن أخذنا عليكم جميعًا العهد بأن تعبدوا الله وحده، وتتبعوا ما جاءكم به رسله، وتعملوا بما فى التوراة، واذكروا كذلك وقت أن رفعنا فوق أسلافكم الطور تهديدًا لهم بالعقوبة إذا لم يطيعوا أوامر الله، وليشهدوا آية من آيات الله الدالة على قدرته، وقلنا لكم جميعًا. خذوا ما آتيناكم فى كتابكم من تكاليف بجد وعزم واجتهاد، واذكروا ما فيه وتدبروه وسيروا على هديه لتتقوا الهلاك فى الدنيا والعذاب فى الآخرة، ولكن الذى حصل منكم جميعًا أنكم أعرضتم عن العمل بما أخذ عليكم، فتركتم تعاليم كتابكم وآذيتم أنبياءكم، ولولا أن الله - تعالى - رأف بكم، ووفقكم للتوبة، وعفا عن زلاتكم، لكنتم من الهالكين فى دنياكم وآخرتكم.

وقوله تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾ تذكير لبنى إسرائيل بنعمة من أمثال النعم الواردة فى الآيات السالفة، لأن أخذ الميثاق عليهم ليعملوا بما فى التوراة من الأمور العائد عليهم نفعها.

وقوله تعالى: ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾ أى: أعليناه، وجعلناه فوق رءوسكم كالمظلة.

والطور: اسم للجبل الذى ناجى عليه موسى ربه - تعالى - كان بنو إسرائيل بأسفله فرفع فوق رءوسهم.

وقوله تعالى: ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ مقول لقول محذوف، دل عليه المعنى، والتقدير: وقلنا لهم: خذوا ما آتيناكم بقوة، أى: تمسكوا به، واعملوا بما فيه بجد ونشاط، وتقبلوه، واجتنبوا نواهيه، واعملوا ما جاء به بدون تردد.

والمراد «بما آتيناكم» التوراة التى أنزلها الله تعالى على موسى لتكون هدى ونورًا لهم. وقوله تعالى: ﴿واذكروا ما فيه﴾ أى احفظوه وتدبروه وتدارسوه، وامتثلوا أوامره، واجتنبوا نواهيه، واعملوا بكل ما جاء فيه بلا تعطيل لشىء منه.

قال الإمام القرطبى: «وهذا هو المقصود من الكتب، العمل بمقتضاها لا تلاوتها باللسان - فحسب -، فقد روى النسائى عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ، قال: «إن من أشر الناس رجلا فاسقًا يقرأ القرآن، لا يرعوى إلى شىء منه»(٢).

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٣٢٤.

(٢) تفسير القرطبى جـ١ ص ٣٤٧.

و «لعل» فى قوله تعالى : ﴿لعلكم تتقون﴾ إما للتعليل، فيكون المعنى : خذوا الكتاب بجد وعزم، واعملوا بما فيه بصدق وطاعة، لتتقوا الهلاك فى عاجلتكم وآجلتكم، وإما للترجى، وهو منصرف إلى المخاطبين، فيكون المعنى : خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه ولا تنسوه، وأنتم ترجون أن تكونوا من طائفة المتقين.

وقوله تعالى : ﴿ثم توليتم من بعد ذلك﴾ بيان لنقضهم وإعراضهم عن العمل بالميثاق الذى أخذ عليهم، ونبذوه خلف ظهورهم.

والمشار إليه بقوله تعالى : ﴿ذلك﴾ أخذ الميثاق عليهم، وقبول ما أوتوه من الكتاب، والمعنى : ثم أعرضتم وانصرفتم عن طاعتى بعد أخذ الميثاق عليكم، ومشاهدتكم للآيات التى تستكين لها القلوب؛ لأن قلوبكم كالحجارة أو أشد قسوة.

وقوله تعالى : ﴿فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين﴾ تصريح بما حباهم به - سبحانه - من رأفة بهم، وقبول لتوبتهم، وعفو عن خطيئاتهم، فكأنه - سبحانه - يقول لهم : إنكم بإعراضكم عن طاعتى، ونقضكم لعهدى، وإهمالكم العمل بكتابى، وعدم تأثركم بآياتى ونذرى، قد استحققتم غضبى وعذابى، ولكن حال دون حلولهما بكم. فضلى الذى تدارككم ورحمتى التى وسعتكم، ولطفى وإمهالى لكم، ولولا ذلك لكنتم من الخاسرين فى دنياكم وآخرتكم، بسبب ما اجترحتم من نقض ميثاقكم

وبذلك تكون الآيتان قد ذكرتا بنى إسرائيل المعاصرين للعهد النبوى بما كان من أسلافهم من جحود النعمة، ونقض للعهد، وفى هذا التذكير تحذير لهم من السير على طريقتهم، ودعوة لهم إلى الدخول فى الإسلام واتباع محمد ﷺ.

ثم ذكرهم - سبحانه - بسوء عاقبة الذين اعتدوا منهم فى السبت، وحذرهم من أن ينهجوا نهجهم فقال - تعالى - :

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾

الاعتداء : مجاوزة الحد، يقال : اعتدى فلان وتعدى إذا ظلم.

والسبت : المراد به اليوم المسمى بهذا الاسم، وأصل السبت - كما قال ابن جرير - الهدوء

والسكون فى راحة ودعة، ولذلك قيل للنائم : مسبوت لهدوئه وسكون جسده واستراحته. كما قال - جل ثناؤه - ﴿وجعلنا نومكم سباتًا﴾ أى راحة لأبدانكم، وهو مصدر، من قول القائل سبَت فلان يَسبِت سبتًا[1].

وملخص قصة اعتداء بنى إسرائيل فى يوم السبت، أن الله - تعالى - أخذ عليهم عهدًا بأن يتفرغوا لعبادته فى ذلك اليوم، وحرم عليهم الاصطياد فيه دون سائر الأيام، وقد أراد - سبحانه - ان يختبر استعدادهم للوفاء بعهودهم، فابتلاهم بتكاثر الحيتان فى يوم السبت دون غيره، فكانت تتراءى لهم على الساحل فى ذلك اليوم قريبة المأخذ سهلة الاصطياد فقالوا : لو حفرنا إلى جانب ذلك البحر الذى يزخر بالأسماك يوم السبت حياضًا تنساب إليها المياه فى ذلك اليوم ثم نصطادها من تلك الحياض فى يوم الأحد وما بعده، وبذلك نجمع بين احترام ما عهد إلينا فى يوم السبت، وبين ما تشتهيه أنفسنا من الحصول على تلك الأسماك، فنصحهم فريق منهم بأن عملهم هذا إنما هو امتثال ظاهرى لأمر الله، ولكنه فى حقيقته خروج عن أمره من ترك الصيد فى يوم السبت، فلم يعبأ أكثرهم بذلك، بل نفذ تلك الحيلة، فغضب الله عليهم ومسخهم قردة، وجعلهم عبرة لمن عاصرهم ولمن أتى بعدهم..

والحديث عن أصحاب السبت قد جاء ذكره مفصلا فى سورة الأعراف[2] كما جاءت الإشارة إليه فى سورتى النحل[3] والنساء[4].

ثم بين - سبحانه - العقوبة التى حلت بهم بسبب اعتدائهم فى يوم السبت، وتحايلهم على استحلال محارم الله فقال - تعالى - :

﴿فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾.

أى : صاغرين مطرودين مبعدين عن الخير أذلاء.

والخسوء : الطرد والإبعاد. يقال : خسأت الكلب خسأ وخسوءًا - من باب منع - طردته وزجرته، وذلك إذا قلت له : اخسأ.

وجمهور المفسرين على أنهم مسخوا على الحقيقة ثم ماتوا بعد ذلك بوقت قصير.

ويرى مجاهد أنهم لم تمسخ صورهم ولكن مسخت قلوبهم، أى : إنهم مسخوا مسخًا نفسيًا فصاروا كالقردة فى شرورها وإفسادها لما تصل إليه أيديها.

وتلك العقوبة كانت بسبب إمعانهم فى المعاصى، وتأبيهم عن قبول النصيحة، وضعف إرادتهم أمام مقاومة أطماعهم، وانتكاسهم إلى عالم الحيوان لتخليهم عن خصائص الإنسان،

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص٣٢٧.
(٢) الآيات من ١٦٣ - ١٦٦.
(٣) الآية ١٢٤.
(٤) الآية ١٥٤.

فكانوا حيث أرادوا لأنفسهم من الصغار والهوان.

والضمير فى قوله: ﴿فجعلناها﴾ يعود إلى العقوبة التى هى مسخهم قردة و «نكالا» أى عبرة تنكل المعتبر بها بحيث تمنعه وتردعه من ارتكاب الشر.

يقال: نكل به تنكيلا إذا صنع به صنعًا يردعه ويجعل غيره يخاف ويحذر. والاسم النكال وهو ما نكلت به غيرك، وأصله من النكل - بالكسر - وهو القيد الشديد وجمعه أنكال.

وقوله: «لما بين يديها وما خلفها. أى: للذين كانوا قبل هذه العقوبة وعاشوا حتى شاهدوها، وللذين أتوا بعدها وعرفوا عن يقين خبرها.

والمعنى: فجعلنا هذه العقوبة عبرة زاجرة لمن كان قبلها وعاش حتى رآها ولمن أتى بعدها وعلم يقينًا بحال العادين فى السبت الذين مسخوا بسبب عصيانهم تحذيرًا له من أن يعمل عملهم، فيمسخ كما مسخوا، ويحل به العذاب الذى حل بهم. كما جعلناها أيضًا ﴿موعظة للمتقين﴾ الذين يسمعون قصتها فهم الذين من شأنهم أن ينتفعوا بالعظات، ويعتبروا بالمثلات.

ثم ساق القرآن بعد ذلك قصة من قصص بنى إسرائيل تدل على تنطعهم فى الدين، ومحاولتهم تضييق ما وسعه الله عليهم، وتهربهم من الانصياع لكلمة الحق، وتشككهم فى صدق أنبيائهم، وتعنتهم فى السؤال. وهذه القصة هى قصة أمرهم على لسان نبيهم موسى - عليه السلام - بذبح بقرة. استمع إلى القرآن الكريم، وهو يحكى هذه القصة بأسلوبه البليغ الحكيم فيقول.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾

قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

روى المفسرون أنه كان فى بنى إسرائيل رجل غنى، وله ابن عم فقير لا وارث له سواه، فلما طال عليه موته قتله ليرثه، وحمله إلى قرية أخرى فالقاه فيها، ثم أصبح يطلب ثأره وجاء بناس إلى نبيهم موسى - عليه السلام - يدعى عليهم القتل، فسألهم موسى - عليه السلام - فجحدوا فسألوه أن يدعو الله ليبين لهم بدعائه القاتل الحقيقى، فدعا موسى ربه فأوحى الله - تعالى - إليه أن يطلب منهم أن يذبحوا بقرة، فقال لهم موسى: ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة...﴾[1].

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٩٧ بتصرف وتلخيص وهناك روايات أخرى فى شأن هذه القصة ذكرها ابن جرير وأبو حيان وغيرهما لم نذكرها لأنها لا تختلف عن النص الذى سقناه إلا فى التفاصيل.

وقد ساق القرآن الكريم هذه القصة بأسلوبه البديع الذى يأخذ بمجامع القلوب، ويحرك النفوس إلى النظر والاعتبار، فقال تعالى:

﴿وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، قالوا أتتخذنا هزوًا، قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾.

ومعنى الآية الكريمة: واذكروا يا بنى إسرائيل - لتعتبروا وتتعظوا وقت أن حدث فى أسلافكم قتيل ولم يعرف الجانى. فطلب بعض أهله وغيرهم ممن يهمه الأمر من موسى - عليه السلام - أن يدعو الله - تعالى - ليكشف لهم عن القاتل الحقيقى، فقال لهم ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ فدهشوا وقالوا بسفاهة وحماقة ﴿أتتخذنا هزوًا﴾؟ أى أتجعلنا موضع سخريتك؟ ﴿قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ الذين يخبرون عنه بما لم يأمر به.

والذى عليه جمهور المفسرين أن أمرهم بذبح البقرة كان بعد تنازعهم فى شأن القاتل من هو؟ وذلك ليعرف القاتل الحقيقى إذا ضرب القتيل ببعضها، كما سيأتى فى قوله تعالى: ﴿وإذ قتلتم نفسًا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾.

وقد أمرهم الله - تعالى - بذبح بقرة دون غيرها من الحيوانات؛ لأنها من جنس ما عبدوه وهو العجل، وفى أمرهم بذلك تهوين لشأن هذا الحيوان الذى عظموه وعبدوه وأحبوه فكأنه - سبحانه - يقول لهم: إن هذا البقر الذى يضرب به المثل فى البلادة، لا يصلح أن يكون معبودًا من دون الله، وإنما يصلح للحرث والسقى والعمل والذبح.

وقولهم ﴿أتتخذنا هزوا﴾؟ يدل على سفههم وسوء ظنهم بنبيهم وعدم توقيرهم له وجهلهم بعظمة الله - تعالى - وما يجب أن يقابل به أمره من الانقياد والامتثال، لأنهم لو كانوا عقلاء لامتثلوا أمر نبيهم، وانتظروا النتيجة بعد ذلك. ولكنهم قوم لا يعقلون.

ولما كان قولهم هذا القول يدل على اعتقادهم بأن موسى - عليه السلام - قد أخبر عن الله بما لم يؤمر به، أجابهم موسى بقوله: ﴿أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾: أى ألتجىء إلى الله وأبرأ إليه من أن أكون من السفهاء الذين يروون عنه الكذب والباطل، وفى هذا الجواب تبرؤ وتنزه عن الهزء، وهو المزاح الذى يخالطه احتقار واستخفاف بالممازح معه - لأنه لا يليق بعقلاء الناس فضلا عن رسل الله - عليهم السلام - كما أن فيه - أيضا - ردًا لهم - عن طريق التعريض بهم - إلى جادة الأدب الواجب فى جانب الخالق، حيث بين لهم أن ما ظنوه به لا يليق إلا بمن يجهل عظمة الله - تعالى -.

قال فضيلة المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين عند تفسيره للآية الكريمة:

(وقد نبهت الآية الكريمة، على أن الاستهزاء بأمر من أمور الدين جهل كبير، ومن الجهل ما يلقى صاحبه فى أسوأ العواقب، ويقذف به فى عذاب الحريق، ومن هنا منع المحققون من أهل العلم استعمال الآيات كأمثال يضربونها فى مقام المزح والهزل، وقالوا: إنما أنزل القرآن الكريم ليتلى بتدبر وخشوع، وليعمل به بتقبل وخضوع)[1].

هذا وما أرشدهم إليه نبيهم - عليه السلام - كان كافيًا لحملهم على أن يذبحوا أى بقرة تنفيذًا لأمر ربهم، ولكن طبيعتهم الملتوية المعقدة لم تفارقهم، فأخذوا يسألون كما أخبر القرآن عنهم بقوله: ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى﴾؟

أى: قال بنو إسرائيل لموسى اطلب لنا من ربك أن يبين لنا حالها وصفاتها[2]. وسبب سؤالهم عن صفتها، تعجبهم من بقرة مذبوحة بأيديهم، يضرب ببعضها ميت لتعود إليه الحياة، وكأنهم - لقلة فهمهم - قد توقعوا أن البقرة التى يكون لها أثر فى معرفة قاتل القتيل، لابد أن تكون لها صفة متميزة عن سائر جنسها.

وسؤالهم بهذه الطريقة يوحى بسوء أدبهم مع الله - تعالى - ومع نبيهم موسى - عليه السلام - لأنهم قالوا ﴿ادع لنا ربك﴾ فكأنما هو رب موسى وحده، لا ربهم كذلك، وكأن المسألة لا تعنيهم هم إنما تعنى موسى وربه ومع هذا فقد أجابهم إجابة المربى الحكيم للأتباع السفهاء الذين ابتلى بهم فقال: ﴿قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض[3] ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون﴾.

أى: قال لهم موسى بعد أن أخبره الله بصفتها: إنه - تعالى - يقول: إن البقرة التى آمركم بذبحها لا مسنة ولا صغيرة، بل نصف بينهما، فاتركوا الإلحاح فى الأسئلة، وسارعوا إلى امتثال ما أمرتم به.

---

(١) مجلة لواء الإسلام العدد السابع السنة الثانية ص ٨.

(٢) ﴿ما﴾ هنا مراد بها السؤال عن الصفة كما يقول من يسمع الناس يتكلمون عن حاتم أو الأحنف وقد علم أنهما رجلان، ولم يعلم صفتيهما ما حاتم؟ أو ما الأحنف؟ فيقال: كريم أو حليم.

(٣) الفارض المسنة اسم للبقرة التى انقطعت ولادتها من الكبر، وسميت بذلك لأنها فرضت سنها أى قطعتها وبلغت آخرها. والبكر هى الفتية مشتقة من البكرة - بالضم - وهى أول النهار، والمراد بها هنا التى لم تلد. قال ابن جرير (البكر من إناث البهائم وبنى آدم ما لم يفتحله الفحل) والعوان هى المتوسطة فى السن: وصح إضافة (بين) إلى اسم الإشارة (ذلك) لأنه أشير إلى القارض والبكر. قال ابن جرير: (العوان النصف التى قد ولدت بطنًا من بطن.. وجمعها عون. يقال: امرأة عوان من نسوة عون، وحرب عوان إذا كانت حربًا قد قوتل فيها مرة بعد أخرى).

وقد أكد - سبحانه - جملة ﴿قال إنه يقول إنها بقرة﴾ تنزيلا لهم منزلة المنكرين لتعنتهم فى السؤال ومحاولتهم التنصل مما أمروا به.

ولم يقل القرآن الكريم من أول الأمر: إنها بقرة عوان بل جاء بالوصفين السابقين ﴿لا فارض ولا بكر﴾ للتعريض بغباوتهم، والتلميح بعدم فهمهم للأساليب الموجزة، لذا لجأ فى جوابهم إلى تكثير التوصيف حتى لا يعودوا إلى تكرار الأسئلة.

وقوله تعالى: ﴿فافعلوا ما تؤمرون﴾ يقصد به قطع العذر مع الحض على الطاعة والامتثال. وما موصولة، والعائد محذوف بعد حذف جاره، على طريقة التوسع، أى: إذا كان الأمر كذلك، فبادروا إلى تنفيذ ما تؤمرون به، لتصلوا إلى معرفة القاتل الحقيقى بأيسر طريق، ولا تضيقوا على أنفسكم ما وسعه الله لكم، ولا تكثروا من المراجعة، فإنها ليست فى مصلحتكم.

ومع ذلك فقد أبوا إلا تنطعًا، واستقصاء فى السؤال، فأخذوا يسألون عن لونها بعد أن عرفوا سنها، فقالوا كما حكى القرآن عنهم:

﴿قالوا ادع لنا ربك يبين ما لونها. قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين﴾.

والمعنى: قال بنو إسرائيل لنبيهم، مشددين على أنفسهم بعد أن عرفوا صفة البقرة من جهة سنها: سل لنا ربك يبين لنا ما لونها، لكى يسهل علينا الحصول عليها، فأجابهم بقوله: إنه - تعالى - يقول إن البقرة التى أمرتكم بذبحها صفراء فاقع لونها، تعجب فى هيئتها ومنظرها وحسن شكلها الناظرين إليها...

قال ابن جرير: «والفقوع فى الصفرة نظير النصوع فى البياض، وهو شدته وصفاؤه»[1].

وقال صاحب الكشاف: «الفقوع أشد ما يكون مع الصفرة، وأنصعه يقال فى التوكيد أصفر فاقع ووارس، كما يقال: أسود حالك،.. ثم قال فإن قلت: فهلا قيل: صفراء فاقعة، وأى فائدة فى ذكر اللون؟ قلت: الفائدة فيه التوكيد، لأن اللون اسم للهيئة وهى الصفرة، فكأنه قيل: شديد صفرتها فهو من قولك: جد جده»[2].

وإلى هنا يكونون قد عرفوا وصف البقرة من حيث سنها ووصفها من حيث لونها، فهل أغنتهم هذه الأوصاف؟، كلا! ما أغنتهم. فقد أخذوا يسألون للمرة الثالثة عما هم فى غنى عنه فقالوا كما حكى القرآن عنهم: ﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى إن البقر تشابه علينا. وإنا

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣٣٥.
(٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢١٩.

إن شاء الله لمهتدون. قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول، تثير الأرض ولا تسقى الحرث، مسلمة لا شية فيها: قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾.

ومعنى الآيتين الكريمتين: قال بنو إسرائيل لموسى بعد أن عرفوا سن البقرة ولونها: سل من أجلنا ربك أن يزيدنا إيضاحًا لحال البقرة التى أمرنا بذبحها. حيث إن البقر الموصوف بالوصفين السابقين كثير، فاشتبه علينا أيها نذبح، وإنا إن شاء الله بعد هذا البيان منك لمهتدون إليها، ومنفذون لما تكلفنا به، فأجابهم موسى بقوله: «إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث، مسلمة لاشية فيها» أى قال إنه - سبحانه - يقول: أنها بقرة سائمة ليست مذللة بالعمل فى الحراثة ولا فى السقى، وهى بعد ذلك سليمة من كل عيب، ليس فيها لون يخالف لونها الذى هو الصفرة الفاقعة، فلما وجدوا أن جميع مشخصاتها ومميزاتها قد اكتملت ﴿قالوا الآن جئت بالحق﴾ الواضح، ولم يبق إشكال فى أمرها، وبحثوا عنها، وحصلوها ﴿فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾ لكثرة أسئلتهم وترددهم.

فقوله - تعالى -: ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى﴾ حكاية لسؤالهم الثالث الذى وجهوه إلى نبيهم - عليه السلام - ليزدادوا معرفة بحال البقرة وصفتها من حيث نفاستها، بعد أن عرفوا سنها ولونها.

فكأنهم يقولون له: إن فى أجوبتك السابقة عنها تقصيرًا يشق معه تمييزها، فسل من أجلنا ربك ليزيدنا بيانًا لحالها، وكأنما أحسوا بأنهم قد أثقلوا عليه وتجاوزوا الحدود المعقولة فى الطلب، فعللوا ذلك بقولهم.

﴿إن البقر تشابه علينا﴾ أى: لا تتضايق من كثرة أسئلتنا، فإن لنا عذرنا فى هذا التكرار. لأن البقر الموصوف بالعوان وبالصفزة الفاقعة كثير، فاشتبه علينا أمر تلك البقرة التى تريدنا أن نذبحها.

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: «وإنما لم يعتذروا فى المرتين الأولين واعتذروا فى الثالثة، لأن للثلاثة فى التكرير وقعًا من النفس فى التأكيد والسآمة وغير ذلك، ولذا كثر فى أحوال البشر وشرائعهم التوقيت بالثلاثة»[١]

وقولهم: ﴿وإنا إن شاء الله لمهتدون﴾ حض لنبيهم موسى - عليه السلام - على الدعاء، ووعد له بالطاعة والامتثال، ودفع للسآمة عن نفسه من كثرة أسئلتهم، وتبرير لمسلكهم فى كثرة المراجعة حتى بتفادوا غضبه، فكأنهم يقولون له:

---

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ١ ص ٥٣٣.

اجتهد فى الدعاء من أجل أن يزيدنا ربك إيضاحًا، وكشفًا لحال تلك البقرة التى تريد منا أن نذبحها، وإنا - إن شاء الله - بسبب هذا الإيضاح سنهتدى إليها، ثم إلى القاتل الحقيقى، وبذلك ندرك الحكمة، التى من أجلها أمرتنا بذبحها.

قال ابن جرير: وأما قوله تعالى: ﴿وإنا إن شاء الله لمهتدون﴾ فإنهم عنوا وإنا إن شاء الله لمبين لنا ما التبس علينا وتشابه من أمر البقرة التى أمرنا بذبحها. ومعنى اهتدائهم فى هذا الموضع تبينهم ذلك الذى لزمهم ذبحه مما سواه من أجناس البقر»[1].

وفى قوله تعالى: ﴿قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض، ولا تسقى الحرث مسلمة لاشية فيها﴾ إضافة أوصاف جديدة للبقرة المطلوبة، كانوا فى غنى عنها لو أطاعوا نبيهم من أول الأمر، ولكنهم للجاجتهم، وسوء اختيارهم، وبعد أفهامهم عن مقاصد الشريعة، ضيقوا على أنفسهم دائرة الاختيار، فأصبحوا مكلفين بالبحث عن بقرة موصوفة بأنها متوسطة السن، لونها أصفر فاقع، تبهج الناظرين إليها، وهى، بعد ذلك، سائمة نفيسة غير مذللة ولا مدربة على حرث الأرض أو سقى الزرع، سليمة من العيوب، ليس فيها لون يخالف لونها الذى هو الصفرة الفاقعة.

وقوله تعالى: ﴿لا ذلول﴾[2] صفة لبقرة، يقال: بقرة ذلول، أى: ريضة زالت صعوبتها، وإثارة الأرض: تحريكها وقلبها بالحرث والزراعة والحرث: شقها لإلقاء البذور فيها.

والمراد: نفى التذليل ونفى إثارة الأرض وسقى الزرع عن البقرة المطلوبة.

أى: هى بقرة صعبة لم يذللها العمل فى حراثة الأرض، ولا فى سقى الزرع، فهى معفاة من العمل فى هذه الأشياء. و ﴿لا﴾ فى قوله تعالى: ﴿لا ذلول﴾ للنفى، وفى قوله تعالى: ﴿ولا تسقى الحرث﴾ مزيدة لتوكيد الأولى، لأن المعنى: لا ذلول تثير وتسقى، وأعيد فى قوله تعالى ﴿ولا تسقى الحرث﴾ مراعاة للاستعمال الفصيح.

وقوله - تعالى -: ﴿مسلمة لا شية فيها﴾ صفتان للبقرة، ومسلمة مفعلة من السلامة.

والشية: اللون المخالف لبقية لون الشىء، وأصله من وشى الشىء، وهو تحسين عيوبه التى تكون فيه بضروب مختلفة من ألوان سداه ولحمته.

والمعنى: إن هذه البقرة سليمة من العيوب المختلفة، وليس فيها لون يخالف لون جلدها من

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص٣٥٨.

(٢) الذلول - بفتح الذال - فعول من ذل ذلا - بكسر الذال - فى المصدر بمعنى لأن وسهل، وأما الذل - بضم الذال - فهو ضد العز، وهما مصدران لفعل واحد خص فى الاستعمال أحد المصدرين بأحد المعنيين﴾.

بياض أو سواد أو غيرهما، بل هى صفراء كلها.

وأرادوا بالحق فى قوله تعالى: ﴿ قالوا الآن جئت بالحق﴾ الوصف الواضح الذى لا اشتباه فيه ولا احتمال، فكأنهم يقولون له: الآن - فقط - جئتنا بحقيقة وصف البقرة، فقد ميزتها عن جميع ما عداها، من جهة اللون وكونها من السوائم لا العوامل، وبذلك لم يبق لنا فى شأنها اشتباه أصلا.

والفاء فى قوله تعالى: ﴿فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾ قد عطفت ما بعدها على محذوف يدل عليه المقام، والتقدير فظفروا بها فذبحوها، أى: فذبح قوم موسى البقرة التى وصفها الله - تعالى - لهم، بعد ما قاربوا أن يتركوا ذبحها، ويدعوا ما أمروا به، لتشككهم فى صحة ما يوجه إليهم من إرشادات ولكثرة مما طلثهم.

قال صاحب الكشاف: وقوله تعالى: ﴿وما كادوا يفعلون﴾ استثقال لاستقصائهم، وأنهم لتطويلهم المفرط. وكثرة استكشافهم، ما كادوا يذبحونها وما كادت تنتهى سؤالاتهم، وما كاد ينقطع خيط إسهابهم فيها وتعمقهم، وقيل: ما كادوا يذبحونها لغلاء ثمنها، وقيل لخوف الفضيحة فى ظهور القاتل»[1].

ثم كشف الله - تعالى - بعد ذلك عن الغاية التى من أجلها أمروا بذبح البقرة فقال تعالى: ﴿وإذ قتلتم نفسًا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾.

المعنى: واذكروا يا بنى إسرائيل إذ قتلتم نفسًا، فاختلفتم وتنازعتم فى قاتلها، ودفع كل واحد منكم التهمة عن نفسه، والله - عز وجل - مخرج لا محالة ما كتمتم من أمر القاتل، فقد بين - سبحانه - الحق فى ذلك فقال على لسان رسوله موسى - عليه السلام - اضربوا القتيل بأى جزء من أجزاء البقرة، فضربتموه ببعضها فعادت إليه الحياة - بإذن الله - وأخبر عن قاتله، وبمثل هذا الإحياء لذلك القتيل بعد موته، يحيى الله الموتى للحساب والجزاء يوم القيامة، ويبين لكم الدلائل الدالة على أنه قدير على كل شىء رجاء أن تعقلوا الأمور على وجهها السليم.

وجمهور المفسرين على أن واقعة قتل النفس وتنازعهم فيها، حصلت قبل الأمر بذبح البقرة، إلا أن القرآن الكريم أخرها فى الذكر ليعدد على بنى إسرائيل جناياتهم وليشوق النفوس إلى معرفة الحكمة من وراء الأمر بذبحها، فتتقبلها بشغف واهتمام.

قال صاحب الكشاف. فإن قلت فما للقصة لم تفص على ترتيبها، وكان حقها أن يقدم ذكر

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٣٠.

القتيل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها، وأن يقال : وإذ قتلتم نفسًا فادارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها؟ قلت : كل ما قص من قصص بنى إسرائيل إنما قص تعديدًا لما وجد منهم من الجنايات، وتقريعًا لهم عليها، ولما جدد فيهم من الآيات العظام، وهاتان قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع وإن كانتا متصلتين متحدتين.

فالأولى : لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك.

والثانية : للتقريع على قتل النفس المحرمة وما تبعه من الآية العظيمة، وإنما قدم قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل، لأنه لو عمل على عكسه لكانت القصة واحدة، ولذهب الغرض من تثنية التقريع، ولقد روعيت نكتة بعد ما استؤنفت الثانية استئناف قصة برأسها، أن وصلت بالأولى، دلالة على اتحادهما، بضمير البقرة لا باسمها الصريح فى قوله : ﴿اضربوه ببعضها﴾ حتى تبين أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع ونيته، بإخراج الثانية مخرج الاستئناف مع تأخيرها، وأنها قصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة»(١).

وقد أسند القرآن الكريم القتل إلى جميعهم فى قوله تعالى : ﴿وإذ قتلتم﴾ مع أن القاتل بعضهم، للإشعار بأن الأمة فى مجموعها وتكافلها كالشخص الواحد.

وأسند القتل - أيضًا - إلى اليهود المعاصرين للعهد النبوى، لأنهم من سلالات أولئك الذين حدث فيهم القتل، وكثيرًا ما يستعمل القرآن الكريم هـذا الأسلوب للتنبيه على أن الخلف قد سار على طريقة السلف فى الانحراف والضلال.

وقوله تعالى : ﴿فادارأتم فيها﴾ بيان لما حصل منهم بعد قتل النفس التى ذكرنا قصتها ومعنى ادارأتم فيها : اختلفتم وتخاصمتم فى شأنها لأن المتخاصمين يدرأ بعضهم بعضا أى يدفعه ويزحمه، أى تدافعتم بمعنى طرح قتلها بعضكم على بعض فدفع المطروح عليه الطارح، ليدفع الجناية عن نفسه ويتهم غيره.

وقوله تعالى : ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ معناه : والله - تعالى - مظهر ومعلن ما كنتم تسترونه من أمر القتيل الذى قتلتموه، ثم تنازعتم فى شأن قاتله، وذلك ليتبين القاتل الحقيقى بدون أن يظلم غيره.

وهذه الجملة الكريمة ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ معترضة بين قوله تعالى ﴿فادارأتم﴾ وبين قوله تعالى : ﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾. وفائدته إشعار المخاطبين قبل أن يسمعوا ما أمروا بفعله، بأن القاتل الحقيقى سينكشف أمره لا محالة.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٢٠.

قال صاحب تفسير التحرير والتنوير: «وإنما تعلقت إرادة الله بكشف حال من قتل هذا القتيل - مع أنه، ليس أول قتيل طل دمه فى الأمم - إكرامًا لموسى - عليه السلام - أن يضيع دم فى قومه وهو بين أظهرهم، وبمرأى ومسمع منه، لاسيما وقد قصد القاتلون استغفاله ودبروا المكيدة فى إظهار المطالبة بدمه، فلو لم يظهر الله - تعالى - هذا الدم ويبين سافكه - لضعف يقين القوم برسولهم موسى - عليه السلام - ولكان ذلك مما يزيد شكهم فى صدقه فينقلبوا كافرين، فكان إظهار القاتل الحقيقى إكرامًا من الله تعالى - لموسى، ورحمة بالقوم لئلا يضلوا»(١).

وقوله تعالى: ﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾ إرشاد لهم إلى الوسيلة التى عن طريقها سيهتدون إلى القاتل الحقيقى، والضمير فى قوله ﴿اضربوه﴾ يعود على النفس، وتذكيره مراعى فيه معناها هو الشخص أو القتيل.

وضرب القتيل ببعضها - أيا كان ذلك البعض - دليل على كمال قدرة الله تعالى. وفيه تيسير عليهم. واسم الإشارة فى قوله تعالى: ﴿كذلك يحيى الله الموتى﴾ مشار به إلى محذوف دل عليه سياق الكلام.

والتقدير: فقلنا لقوم موسى الذين تنازعوا فى شأن القتيل اضربوه ببعض البقرة ليحيا، فضربوه فأحياه الله، وأخبر القتيل عن قاتله، وكمثل إحيائه يحيى الله الموتى فى الآخرة للثواب والعقاب.

وبذلك تكون الآية ظاهرة فى أن الذى ضرب ببعض البقرة قد صار حيًا بعد موته.

قال الإمام ابن جرير - رحمه الله -: فإن قيل: وما كان معنى الأمر بضرب القتيل ببعضها؟ قيل: ليحيا فينبىء نبى الله والذين ادارءوا فيه عن قاتله.

فإن قال: وأين الخبر عن أن الله - تعالى - أمرهم بذلك؟ قيل: ترك ذلك اكتفاء بدلالة ما ذكر من الكلام الدال عليه، والمعنى: فقلنا اضربوه ببعضها ليحيا فضربوه فحيى، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾(٢).

والمقصود بالآيات فى قوله تعالى: ﴿ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾ الدلائل الدالة على أن الله على كل شىء قدير والتى منها ما شاهدوه بأعينهم من ترتب الحياة على ضرب القتيل بعضوميت، وأخباره عن قاتله، واهتدائهم بسبب ذلك إلى القاتل الحقيقى. وذلك لكى تستعملوا عقولكم فى الخير. وتوقنوا بأن من قدر على إحياء نفس، واحدة فهو قادر على إحياء الأنفس جميعا لأنه - سبحانه - لا يصعب عليه شىء.

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ١ ص ٥٢٩. (٢) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٣٠٩.

هذا ولصاحب المنار - رحمه الله - رأى فى تفسير الآية الكريمة، فهو يرى أن المراد بالإحياء فى قوله تعالى ﴿كذلكُ يحيى الله الموتى﴾ حفظ الدماء وأستبقاؤها وليس المراد به عنده الإحياء الحقيقى بعد الموت.

فقد قال فى تفسيره: وأما قوله تعالى: ﴿فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى﴾ فهو بيان لإخراج ما يكتمون، ويروون فى هذا الضرب روايات كثيرة. قيل: إن المراد اضربوا المقتول بلسانها وقيل بفخذها وقيل بذنبها، وقالوا: أنهم ضربوه فعادت إليه الحياة، وقال قتلنى أخى أو ابن فلان، الخ ما قالوه، والآية ليست أيضًا نصًا فى مجمله فكيف بتفصيله؟ والظاهر مما قدمنا أن ذلك العُمل كان وسيلة عندهم للفصل فى الدماء عند التنازع فى القاتل إذا وجد القتيل قرب بلد ولم يعرف قاتله ليعرف الجانى من غيره فمن غسل يده وفعل ما رسم لذلك فى الشريعة برىء من الدم ومن لم يفعل ثبتت عليه الجناية.

ومعنى إحياء الموتى على هذا حفظ الدماء التى كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف فى قتل تلك النفس، أى يحييها بمثل هذه الأحكام، وهذا الإحياء على حد قوله تعالى ﴿ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا﴾ وقوله تعالى ﴿ولكم فى القصاص حياة﴾.

فالإحياء هنا معناه الاستبقاء كما هو المعنى فى الآيتين[1]...

والذى نراه أن المراد بالإحياء فى قوله تعالى: ﴿كذلك يحيى الله الموتى﴾ الإحياء الحقيقى للميت بعد موته، وأن تفسيره بحفظ الدماء واستبقائها ضعيف لما يأتى:

أولا: مخالفته لما ورد عن السلف فى تفسير الآية الكريمة فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: «لما ضرب المقتول ببعضها - يعنى ببعض البقرة - جلس حيًا، فقيل له من قتلك؟ قال: بنو أخى قتلونى ثم قبض[2]..

ثانيًا: ما ذهب إليه صاحب المنار لا يدل عليه القرآن الكريم لا إجمالا ولا تفصيلا، ولا تصريحًا ولا تلميحًا، لأن قوله تعالى ﴿كذلك يحيى الله الموتى﴾ ظاهر كل الظهور، فى أن المراد بالأحياء رد الحياة إليهم بعد ذهابها عنهم، إذ الموتى هم الذين ماتوا بالفعل، وإحياؤهم رد أرواحهم بعد موتهم وليس هناك نص صحيح يعتمد عليه فى مخالفة هذا الظاهر، ولا توجد أيضًا قرينة مانعة من إرادة هذا المعنى المتبادر من الآية بأدنى تأمل وما دام الأمر كذلك فلا يجوز تأويله بما يخالف ما يدل عليه اللفظ دلالة واضحة، ومن التعسف الظاهر أن يراد من الموتى

---

(١) تفسير المنار جـ ١ ص ١٥١.

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣٤٢.

الأحياء من الناس، وبإحياء الموتى تشريع العقوبات صونًا لدماء الأحياء منهم والله تعالى حينما أراد أن يدل على هذا المعنى قال ﴿ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون﴾.

فهذه الآية الكريمة تدل على أن القصاص من الجناة يحفظ على الناس حياتهم بدون التواء أو تعمية.

ثالثًا: تفسير الإحياء برد الحياة إلى الموتى، كما قال المفسرون، يؤدى إلى غرس الإيمان بصحة البعث فى القلوب، لأن المعنى عليه، كهذا الإحياء العجيب - وهو إحياء القتيل بضربه ببعض البقرة ليخبر عن قاتله - يحيى الله الموتى بأن يبعثهم من قبورهم يوم القيامة، ليحاسبهم على أعمالهم، فيكون إثباتًا للبعث عن طريق المشاهدة حتى لا ينكره منكر.

رابعًا: قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾ قرينة قوية على أن المراد بالإحياء، رد الحياة إلى الموتى بعد موتهم لأن المراد ﴿بآياته﴾ فى هذا الموضع، - كما قال المفسرون - الدلائل الدالة على عظم قدرته - تعالى - وذلك إنما يكون فى خلق الأمور العجيبة الخارقة للعادة والتى ليست فى طاقة البشر، كإحياء الموتى وبعثهم من قبورهم للحساب والجزاء.

ثم بين القرآن الكريم، بعد ذلك أن هذه المعجزات الباهرة التى تزلزل المشاعر، وتهز القلوب، وتبعث فى النفوس الإيمان، لم تؤثر فى قلوب بنى إسرائيل الصلدة لأنه قد طرأ عليهم بعد رؤيتها ما أزال آثارها من قلوبهم، ومحا الاعتبار بها من عقولهم، فقال تعالى: ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله، وما الله بغافل عما تعملون﴾.

والمعنى: ثم صلبت قلوبكم - يا بنى إسرائيل - وغلظت من بعد أن رأيتم ما رأيتم من معجزات منها إحياء القتيل أمام أعينكم، فهى كالحجارة فى صلابتها ويبوستها، بل هى أشد صلابة منها، لأن من الحجارة ما فيه ثقوب متعددة، وخروق متسعة، فتتدفق منه مياه الأنهار التى تعود بالمنافع على المخلوقات، ولأن من بينها ما يتصدع تصدعًا قليلا فيخرج منه ماء العيون والآبار ولأن منها ما يتردى من رأس الجبل إلى الأرض والسفح من خوف الله وخشيته، أما أنتم - يا بنى إسرائيل - فإن قلوبكم لا تتأثر بالمواعظ ولا تنقاد للخير، ولا تفعل ما تؤمر به، مهما تعاقبت عليكم النعم والنقم والآيات، وما الله بغافل عما تعملون:

وقوله تعالى: ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة﴾ بيان لما طرأ على قلوب بنى إسرائيل من بعد عن الاعتبار، وعدم تأثر بالعظات وإعراض عن الإنابة والإذعان لآيات الله وتحلل من المواثيق التى أقروا بها على أنفسهم.

وجيء (بثم) التى هى للترتيب والتراخى . لاستبعاد استيلاء الغلظة والقسوة على قلوبهم بعد أن رأوا الكثير من المعجزات، فكأنه - سبحانه - يقول لهم - بعد أن ساق لهم قصة البقرة وما ترتب عليها من منافع وعبر : ومع ذلك كله لم تلن قلوبكم - يا بنى إسرائيل - ولم تفدكم المعجزات : فقست قلوبكم وكان من المستبعد أن تقسوا.

وقوله تعالى : ﴿من بعد ذلك﴾ فيه زيادة تعجيب من إحاطة القساوة بقلوبهم، بعد توالى النعم، وتكاثر المعجزات التى أشار القرآن الكريم إلى بعضها فى الآيات السابقة.

واسم الإشارة (ذلك) مشار به إلى إحياء القتيل بعد ضربه بجزء من البقرة أو إلى جميع النعم والمعجزات الواردة فى الآيات السابقة.

و (أو) فى قوله تعالى : ﴿فهى كالحجارة أو أشد قسوة﴾ قيل : للتنويع، فإن قلوبهم متفاوتة فى القسوة، فمنها ما هو قاس كالحجارة، ومنها ما هو أشد منها قسوة، أى : فبعض قلوبكم كالحجارة فى صلابتها وبعضها أشد من الحجارة فى صلابتها.

وقيل : للتشكيك بالنسبة للمخاطبين، لا إلى المتكلم، كأن يقول أحد الناس لآخر، إن هذه القلوب قسوتها تشبه الحجارة أو تزيد عليها.

والأظهر أن تكون للإضراب على طريقة المبالغة والمعنى : ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة بل هى أشد منها قسوة، إذ لا شعور فيها يأتى بخير، والحجارة ليست كذلك.

وشبه - سبحانه - قلوبهم بالحجارة فى القسوة، لأن صلابة الحجر أعرف للناس وأشهر، حيث إنها محسوسة لديهم ومتعارفة بينهم ولذا جاء التشبيه بها.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت لم قيل أشد قسوة، وفعل القسوة مما يخرج منه أفعل التفضيل وفعل التعجب؟ قلت : لكونه أبين وأدل على فرط القسوة، ووجه آخر، وهو أن لا يقصد معنى الأقسى ولكن قصد وصف القسوة بالشدة. كأنه قيل اشتدت قسوة الحجارة، وقلوبهم أشد قسوة»[1].

وقوله تعالى : ﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾ بيان لفضل الحجارة على قلوبهم القاسية، قصد به إظهار زيادة قسوة قلوبهم عن الحجارة، لأن هذا الأمر لغرابته يحتاج إلى بيان سببه.

فكأنه - سبحانه - يقول لهم. إن هذه الحجارة على صلابتها ويبوستها منها ما تحدث فيه المياه خروقًا واسعة تتدفق منها الأنهار الجارية النافعة، ومنها ما تحدث فيه المياه شقوقًا مختلفة

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٢١.

تنجم عنها العيون النابعة، والآبار الجوفية المفيدة. ومنها ما ينقاد لأوامر الله عن طواعية وامتثال. أما قلوبكم أنتم فلا يصدر عنها نفع، ولا تتأثر بالعظات والعبر، ولا تنقاد للحكم التى من شأنها هداية النفوس.

وقوله تعالى: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ تهديد وتخويف، حيث إنه - سبحانه - سيحاسبهم على أعمالهم، وسيذيقهم ما يستحقونه من عقاب جزاء جحودهم لنعمه، وعصيانهم لأمره.

وبذلك تكون الآية الكريمة قد وصفت بنى إسرائيل بما هم أهله. من قساوة القلب وانطماس البصيرة، وعدم التأثر بالعظات مهما كثرت. وبالآيات مهما توالت.

ما يؤخذ من هذه القصة من العظات والعبر:

اشتملت هذه القصة على كثير من العظات والتوجيهات الإلهية من ذلك.

١ - دلالتها على ما جبل عليه بنو إسرائيل من فظاظة وغلظة، وسوء أدب مع مرشديهم، وإحفاء فى الأسئلة بلا موجب، وعدم استعداد للتسليم بما يأتيهم به الرسل، ومماطلة فى الانصياع للتكاليف، وانحراف عن الطريق المستقيم.

٢ - دلالتها على صدق النبى ﷺ فيما يبلغه عن ربه، فقد أخبر فى هذه القصة الواقعية التى لم يشهد حوادثها بما أوحاه الله إليه وهذا الإخبار من أعلام نبوته ﷺ كما أنها تدل على صدق نبوة موسى - عليه السلام - وأنه رسول من رب العالمين.

٣ - دلالتها على أن التنطع فى الدين، والإلحاف فى المسألة يؤديان إلى التشديد فى الأحكام، لأن بنى إسرائيل لو أنهم أول الأمر عمدوا إلى ذبح أى بقرة لأجزأتهم ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم.

أخرج ابن جرير - رحمه الله - عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: «لو أن القوم أخذوا أدنى بقرة لأجزأتهم. لكنهم شددوا فشدد الله عليهم»[١].

وقد أدى بهم هذا التنطع والتشديد إلى تضييق دائرة اختيارهم، وتكثير للشروط التى يجب توافرها فى البقرة المطلوبة، وذلك لتأديبهم على مماطلتهم وبلادة عقولهم، وسوء تلقيهم للشريعة بأنواع من التقصير عملا وشكرا وفهما، وبذلك يعلم أن ما كلفهم الله به أولا هو ذبح بقرة ما، وأن ما أمروا به بعد ذلك من كونها صفراء سالمة من آثار الخدمة ليس من باب تأخير

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٣٤٧.

البيان عن وقت الخطاب، وإنما هو تشريع طارئ قصد منه تأديبهم على تعنتهم ولجاجهم وكثرة أسئلتهم.

وقد جاءت تعاليم الإسلام بالنهى عن كثرة السؤال قال تعالى:

﴿يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم، وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين﴾.

وفى الحديث الشريف: «ذرونى ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوه، وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا عنه ما استطعتم»[١].

قال صاحب المنار: «وقد امتثل سلفنا لأمر الله فلم يشددوا على أنفسهم، فكان الدين عندهم فطريًا وحنيفيًا سمحًا، ولكن من خلفهم عمد إلى ما عفا الله عنه فاستخرج له أحكامًا استنبطها باجتهاده، حتى صار الدين حملا ثقيلا على الأمة فسئمته وملت وألقته وتخلت»[٢].

٤ - قال الإمام ابن القيم - رحمه الله -: وفى هذه القصة أنواع من العبر منها.

(أ) أنه لا يجوز مقابلة أمر الله الذى لايعلم المأمور به وجه الحكمة فيه بالإنكار، فإن القوم لما قال لهم نبيهم ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ قابلوا هذا الأمر بقولهم: ﴿أتتخذنا هزوا﴾ فلما لم يعلموا وجه الحكمة فى ارتباط هذا الأمر بما سألوا عنه قالوا «أتتخذنا هزوًا». وهذا من غاية جهلهم بالله ورسوله، فإنه أخبرهم عن أمر الله لهم بذلك، ولم يكن هو الآمر به، ولو كان هو الآمر به لم يجز لمن آمن بالرسول أن يقابل أمره بذلك فلما قال لهم: ﴿أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ وتيقنوا أن الله - تعالى - أمره بذلك، أخذوا فى التعنت بسؤالهم عن عينها ولونها، فلما أخبروا عن ذلك رجعوا إلى السؤال مرة ثالثة، فلما تعينت لهم ولم يبق إشكال توقفوا فى الامتثال، ولم يكادوا يفعلون.

ثم من أقبح جهلهم وظلمهم قولهم لنبيهم: ﴿الآن جئت بالحق﴾ فإن أرادوا بذلك: أنك لم تأت بالحق قبل ذلك فى أمر البقرة، فتلك ردة وكفر ظاهر، وإن أرادوا: أنك الآن بينت لنا البيان التام فى تعيين البقرة المأمور بذبحها فذلك جهل ظاهر، فإن البيان قد حصل بقوله: ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ فإنه لا إجمال فى الأمر ولا فى الفعل ولا فى المذبوح فقد جاء رسول الله بالحق من أول مرة.

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص٣٤٧.

(٢) تفسير المنار جـ١ ص٣٤٦.

قال الإمام بن جرير : « وقد كان بعض من سلف يزعم أن القوم ارتدوا عن دينهم وكفروا بقولهم لموسى « الآن جئت بالحق » وزعم أن ذلك نفى منهم أن يكون موسى - عليه السلام - أتاهم بالحق فى أمر البقرة قبل ذلك، وأن ذلك كفر منهم، وليس الأمر كما قال عندنا، لأنهم قد أذعنوا بالطاعة بذبحها، وإن كان قولهم الذى قالوه لموسى يعد من جهالاتهم وهفوة من هفواتهم ».

(ب) ومنها : الدلالة على صحة ما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم من معاد الأبدان، وقيام الموتى من قبورهم.

(جـ) ومنها : إقامة أنواع الآيات والبراهين والحجج على عباده بالطرق المتنوعات، زيادة فى هداية المهتدى، وإعذارا وإنذارا للضال :

(د) ومنها : الإخبار عن قساوة هذه الأمة وغلظها، وعدم تمكن الإيمان فيها.

قال عبد الصمد بن معقل عن وهب : كان ابن عباس يقول « إن القوم بعد أن أحيا الله - تعالى - الميت فأخبرهم بقاتله، أنكروا قتله، وقالوا : والله ما قتلناه بعد أن رأوا الآيات الحق ».

(هـ) ومنها : مقابلة الظالم الباغى بنقيض قصده شرعًا وقدرًا، فإن القاتل قصد ميراث المقتول، ودافع القاتل عن نفسه، ففضحة الله - تعالى - وهتكه، وحرمه ميراث المقتول.

(و) ومنها : أن بنى إسرائيل فتنوا بالبقرة مرتين من سائر الدواب ففتنوا بعبادة العجل وفتنوا بالأمر بذبح البقرة، والبقرة من أبلد الحيوان حتى ليضرب به المثل فى البلادة.

ثم قال الإمام ابن القيم فى ختام حديثه عن هذه القصة : والظاهر أن هذه كانت بعد قصة العجل؛ ففى الأمر بذبح البقرة تنبيه على أن هذا النوع من الحيوان الذى لا يمتنع من الذبح والحرث والسقى، لا يصلح أن يكون إلهًا معبودًا من دون الله، وأنه إنما يصلح للذبح والحرث والسقى والعمل »[1]

٥ - دلالتها على قدرة الله - تعالى - فإن إحياء الميت عن طريق الضرب بقطعة من جسم بقرة مذبوحة - دليل على قدرة الله - تعالى - على الإحياء والإماتة وما هذا الضرب إلا وسيلة كشفت للناس عن طريق المشاهدة عن آثار قدرته - تعالى - التى لا يدرون كيف تعمل، فهم يرون آثارها الخارقة ولكنهم لا يعرفون كنهها، وصدق الله حيث يقول : ﴿فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾.

---

(١) إغاثة اللهفان جـ٢ ص ٣٠ لابن القيم.

وإلى هنا تكون هذه القصة قد دمغت بنى إسرائيل برذيلة التنطع فى الدين، والتعنت فى الأسئلة، والإساءة إلى نبيهم - عليه السلام - وعدم اعتبارهم بالعظات والمثلات. لقساوة قلوبهم، وسوء طباعهم، وانطماس بصيرتهم ﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾.

ثم ساق القرآن بعد ذلك لونًا آخر من ألوان رذائلهم. ويتمثل هذا اللون فى تحريفهم للكلم عن مواضعه، واشترائهم بآيات الله ثمنًا قليلا، وذلك لقسوة قلوبهم، وانطماس بصيرتهم، وبيعهم الدين بالقليل من حطام الدنيا، قال - تعالى -.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)﴾

والآيات الكريمة التى معنا قد افتتحت بتيئيس المؤمنين من دخول اليهود فى الإسلام ولكن هذا التيئيس قد سبق بما يدعمه ويؤيده، فقد بينت الآيات السابقة عليها «موقف اليهود الجحودى من نعم الله - عز وجل - كما بينت تنطعهم فى الدين، وسوءه إدراكهم لمقاصد الشريعة، وقساوة قلوبهم من بعد أن رأوا من الآيات البينات ما رأوا، وبعد هذا البيان الموحى بالقنوط من استجابتهم للحق، خاطب الله المؤمنين بقوله:

﴿أفتطمعون[١] أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه[٢] من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾.

ومعنى الآية الكريمة : أفتطمعون - أيها المؤمنون - بعد أن وصفت لكم من حال اليهود ما وصفت من جحود ونكران، أن يدخلوا فى الإسلام. والحال أنه كان فريق من علمائهم وأحبارهم يسمعون كلام الله ثم يميلونه عن وجهه الصحيح من بعد ما فهموه، وهم يعلمون أنهم كاذبون بهذا التحريف على الله تعالى، أو يعلمون ما يستحقه محرفه من الخزى والعذاب الأليم.

فالخطاب فى الآية الكريمة للمؤمنين، والاستفهام يقصد به الإنكار عليهم، إذ طمعوا فى استجابة اليهود لدعوة الحق، بعد أن علموا سوء أحوالهم، وفساد نفوسهم. والنهى عن الطمع فى إيمانهم لا يقتضى عدم دعوتهم إلى الإيمان، فالمؤمنون مأمورون بدعوتهم إليه، لإقامة الحجة عليهم فى الدنيا عند إجراء أحكام الكفر عليهم، ولقطع عذرهم فى الآخرة وقد تصادف الدعوة إلى الإسلام نفوسًا منصفة تستجيب لدعوة الحق، وتهتدى إلى الطريق المستقيم، وهذا ما فعله رسول الله ﷺ معهم هو وأصحابه من بعده. ولكن اليهود صموا آذانهم عن الحق بعد ما عرفوه فأصبحت دعوتهم إلى الإسلام غير مجدية، وهنا يأتى النهى عن الطمع فى إيمانهم بهذه الآية وأمثالها.

وجملة ﴿وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله﴾ حالية، مشتملة على بيان أحد الأسباب الداعية إلى القنوط من إيمانهم، وبذلك يكون التقنيط من إيمانهم قد علل بعلتين :

إحداهما : ما سبق هذه الآية من تصوير لأحوالهم السيئة.

والثانية : ما تضمنته هذه الجملة الكريمة من تحريفهم لكلام الله عن علم وتعمد.

والمراد بالفريق فى قوله تعالى : ﴿وقد كان فريق منهم﴾ أحبارهم وعلماؤهم الذين عاصروا الرسل الكرام، فسمعوا منهم، أو الذين أتوا بعدهم فنقلوا عنهم.

والتحريف أصله انحراف الشىء عن جهته وميله عنها إلى غيرها. والمراد به هنا : إخراج الوحى والشريعة عما جاءت به، بالتغيير والتبديل فى الألفاظ، أو بالكتمان والتأويل الفاسد، والتفسير الباطل.

---

(١) الطمع تعلق النفس بالحصول على شىء مرغوب تعلقًا قويًا.

(٢) التحريف أصله مصدر حرف الشىء يحرفه إذا مال به إلى الحرف، وهو يقتضى الخروج عن جادة الطريق، ولما شاع تشبيه الحق والصواب بالجادة وبالصراط المستقيم، شاع فى تشبيه ما خالف ذلك بالانحراف.

وقوله تعالى : ﴿ثم يحرفونه من بعدما عقلوه وهم يعلمون﴾ زيادة تشنيع عليهم، حيث إنهم حرفوا كلام الله بعد فهمهم له عن تعمد وسوء نية، وارتكبوا هذا الفعل الشنيع، رغم علمهم بما يستحقه مرتكبه من عقوبة دنيوية وأخروية.

ففى هذين القيدين من النعى عليهم مالا مزيد عليه، حيث أبطل بهما عذر الجهل والنسيان، وسجل عليهم تعمد الفسوق والعصيان.

وإنما كان قيام الفريق من أحبار اليهود بتحريف الكتاب سببًا فى اليأس من إيمان عامتهم، لأن هؤلاء العامة المقلدون، قد تلقوا دينهم عن قوم فاسقين، دون أن يلتفتوا إلى الحق، أو يتجهوا إلى النظر فى الأدلة الموصلة إليه، وأمثال هؤلاء الذين شبوا على عماية التقليد، وغواية الشيطان، لا يرجى منهم الوصول إلى نور الحق، وجلال الصدق، ولأن أمة بلغ الحال بعلمائها - وهم مظهر محامدهم - أن يجرؤوا على كلام الله فيحرفوه لا تنتظر من دهمائها أن يكونوا خيرًا منهم حالا أو أسعد مآلا.

ثم أخبر القرآن الكريم عن بعضهم، بأنهم قد ضموا إلى رذيلة التحريف رذيلة النفاق والتدليس فقال تعالى : ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنًا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون. أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾.

والمعنى : وإذا ما تلاقى المنافقون من اليهود مع المؤمنين، قالوا لهم نفاقًا وخداعًا. صدقنا أن ما أنتم عليه هو الحق. وأن محمدًا ﷺ رسول من عند الله، وإذا ما انفرد بعض اليهود ببعض قال الذين لم ينافقوا لإخوانهم الذين نافقوا معاتبين : أتخبرون المؤمنين بما بينه الله لكم فى كتابكم مما يشهد بحقية ما هم عليه، لتكون لهم الحجة عليكم يوم القيامة، أفلا تعقلون أن هذا التحديث يقيم الحجة لهم عليكم؟

فالآية الكريمة فيها بيان لنوع آخر من مساوىء اليهود ومخازيهم التى تدعو إلى اليأس من إيمانهم وتكشف النقاب عما كانوا يضمرونه من تدليس[١].

قال الإمام الرازى : «وإنما عذلوهم على ذلك لأن اليهودى إذا اعترف بصحة التوراة، واعترف بشهادتها على صدق النبى ﷺ كانت الحجة قوية عليه، فلا جرم كان بعضهم يمنع بعضًا من الاعتراف بذلك أمام المؤمنين»[٢].

---

(١) والضمير فى (قالوا) الأولى يعود إلى فريق اليهود الذين أظهروا الإسلام نفاقًا، وفى (قالوا) الثانية يعود إلى فريق اليهود الذين بقوا على يهوديتهم، والذين كانوا يلومون من نافقوا منهم لتحديثه المؤمنين بما يشهد بصدق محمد ﷺ.

(٢) تفسير الرازى جـ ١ ص ٤٠٠.

والاستفهام فى قوله تعالى : ﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ للإنكار والتوبيخ والفتح يطلق على القضاء ومنه قوله تعالى : ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾ أى : افض بيننا وبين قومنا بالحق.

قال ابن جرير : «أصل الفتح فى كلام العرب القضاء والحكم والمعنى أتحدثونهم بما حكم الله به عليكم وقضاه فيكم؟ ومن حكمه - تعالى - وقضائه فيهم أخذه ميثاقهم بأن يؤمنوا بمحمد ﷺ فقد بشرت به التوراة»[1].

وقوله تعالى : ﴿ليحاجوكم به عند ربكم﴾ متعلق بالتحديث ومرادهم تأكيد النكير على إخوانهم الذين أظهروا إيمانهم نفاقًا، فكأنهم يقولون لهم : أتحدثون المؤمنين بما يفضحكم يوم القيامة أمام الخالق - عز وجل - وفى حكمه وقضائه، لأنهم سيقولون لكم. ألم تحدثونا فى الدنيا بما فى كتابكم من حقيقة ديننا وصدق نبينا؟ فيكون ذلك زائدًا فى ظهور فضيحتكم وتوبيخكم على رءوس الخلائق يوم الموقف العظيم، لأنه ليس من اعترف بالحق ثم كتم كمن ثبت على الإنكار.

وجملة ﴿أفلا تعقلون﴾ من بقية مقولهم لمن نافق منهم. وقد أتوا بها لزيادة توبيخهم لهم حتى لا يعودوا إلى التحدث مع المؤمنين.

والمعنى : أليست لكم عقول تحجزكم عن أن تحدثوا المؤمنين بما يقيم لهم الحجة عليكم يوم القيامة؟

ثم وبخهم الله على جهلهم بحقيقة علمه فقال تعالى : ﴿أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ أى : أيقول الذين لم ينافقوا من اليهود لإخوانهم الذين نافقوا ما قالوا، ويكتمون من صفات النبى ﷺ ما كتموا، ويحرفون من كتاب الله ما حرفوا، ولا يعلمون أن الله يعلم. ما يخفون من كفر وحقد، وما يظهرون من إيمان وود؟

فالآية الكريمة فيها توبيخ وتجهيل لليهود الذين عاتبوا المنافقين منهم على تحديث المؤمنين بما فى توراتهم مما يؤيد صدق النبى ﷺ لأنهم لو كانوا مؤمنين إيمانًا صادقًا بإحاطة علمه بسرهم وعلانيتهم، لمانهوا إخوانهم عن تحديث المؤمنين بما فيها فإن ما فيها من صفات للنبى ﷺ من الحقائق التى أمرهم الله ببيانها ونهاهم عن كتمانها.

ثم بين القرآن الكريم بعد ذلك حال عوام اليهود ومقلديهم، بعد أن بين حال علمائهم

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٣٨٠.

ومنافقيهم فقال تعالى : ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون﴾[(١)] أى : ومن اليهود قوم أميون لا يحسنون الكتابة، ولا يعلمون من كتابهم التوراة سوى أكاذيب اختلقها لهم علماؤهم أو أمنيات باطلة يقدرونها فى أنفسهم بدون حق، أو قراءات عارية عن التدبر والفهم، وقصارى أمرهم الظن من غير أن يصلوا إلى مرتبة اليقين المبنى على البرهان القاطع والدليل الساطع.

فالآية الكريمة فيها زيادة تيئيس للمؤمنين من إيمان كافة اليهود بفرقهم المختلفة. فإنهم قد وصلوا إلى حال من الشناعة لا مطمع معها فى هداية، فعلماؤهم محرفون لكتاب الله على حسب أهوائهم وشهواتهم، وعوامهم لا يعرفون من كتابهم إلا الأكاذيب والأوهام التى وضعها لهم أحبارهم، وأمة هذا شأن علمائها وعوامها لا ينتظر منها أن تستجيب للحق أو أن تقبل على الصراط المستقيم.

و (الأمانى) - بالتشديد - جمع أمنية، مأخوذة من تمنى الشيء أى : أحب أن يحصل عليه، أو من تمنى إذا كذب، أو من تمنى الكتاب أى قرأه.

فإن فسرنا الأمانى بالأول كان قوله تعالى : ﴿إلا أمانى﴾ معناه : إلا ماهم عليه من أمانيهم فى أن الله لا يؤاخذهم بخطاياهم، وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، وأن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودات.

وإن فسرناها بالكذب، كان قوله تعالى : ﴿إلا أمانى﴾ معناه : إلا أكاذيب مختلقة، سمعوها من أحبارهم فقبلوها على التقليد.

وإن فسرنا الأمنية بالقراءة كان قوله تعالى : ﴿إلا أمانى﴾ معناه : إلا ما يقرءونه من قراءات خالية من التدبر، وعارية عن الفهم. من قوله تمنى كتاب الله أول ليله... أى قرأ.

هذا، وقد رجح ابن جرير تفسير (الأمانى) بالأكاذيب فقال : ما ملخصه «وأولى ما روينا فى تأويل قوله تعالى : ﴿إلا أمانى﴾ بالصواب، أن هؤلاء الأميين لا يفقهون من الكتاب الذى أنزله الله على موسى شيئًا، ولكنهم يتخرصون الكذب، ويتقولون الأباطيل كذبًا وزورًا، والتمنى فى هذا الموضع هو تخلق الكذب وتخرصه وافتعاله بدليل قوله تعالى بعد ﴿وإن هم إلا يظنون﴾ فأخبر عنهم أنهم يتمنون ما يتمنون من الأكاذيب ظنًا منهم لا يقينًا»[(٢)].

والذى نراه أن المعانى الثلاثة للأمانى تنطبق على اليهود، وكلها حصلت منهم؛ وما دام

---

(١) الأميون جمع أمى، وهو الذى لا يحسن الكتابة والقراءة.

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٢٧٥.

يصدق عليهم المعانى الثلاثة لغة فجميعها مرادة من الآية، ولا معنى لأن نشتغل بترجيح بعضها على بعض كما فعل ابن جرير وغيره.

وعلى أى تفسير من هذه التفاسير للأمانى، فالاستثناء منقطع، لأن أى واحد من هذه المعانى ليس من علم الكتاب الحقيقى فى شىء.

وفى قوله تعالى: ﴿وإن هم إلا يظنون﴾ زيادة تجهيل لهم، لأن أمنياتهم هذه من باب الأوهام التى لا تستند إلى دليل أو شبه دليل، أو من باب الظن الذى هو ركون النفس إلى وجه من وجهين يحتملهما الأمر دون أن تبلغ فى ذلك مرتبة القطع واليقين. وهذا النوع من العلم لا يكفى فى معرفة أصول الدين التى يقوم عليها الإيمان العميق، فهم ليسوا على علم يقينى من أمور دينهم، وإنما هم يظنونها ظنًا بدون استيقان، والظن لا يغنى من الحق شيئًا.

وبعد أن بين القرآن الكريم فرق اليهود، توعد الذين يحرفون الكلم عن مواضعه بسوء المصير فقال تعالى: ﴿فويل[1] للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلا، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾:

والمعنى: فهلاك وفضيحة وخزى لأولئك الأحبار من اليهود الذين يكتبون ا لكتابات المحرفة والتأويلات الفاسدة بأيديهم، بدلا مما اشتملت عليه الكتب من حقائق، ثم يقولون لجهالهم ومقلديهم كذبًا وبهتانًا هذا من عند الله، ومن نصوص التوراة التى أنزلها الله على موسى، ليأخذوا فى نظير ذلك عرضًا يسيرًا من حطام الدنيا، فعقوبة عظيمة لهم بسبب ما قاموا به من تحريف وتبديل لكلام الله، وخزى كبير لهم من أجل ما اكتسبوه من أموال بغير حق.

فالآية الكريمة فيها تهديد شديد لأحبار اليهود الذين تجرءوا على كتاب الله بالتحريف والتبديل، وباعوا دينهم بدنياهم، وزعموا أن ما كتبوه هو من عند الله.

وصرح - سبحانه - بأن الكتابة ﴿بأيديهم﴾ ليؤكد أنهم قد باشروها عن تعمد وقصد، وليدفع توهم أنهم أمروا غيرهم بكتابتها، ولتصور حالتهم فى النفوس كما وقعت، حتى ليكاد السامع لذلك أن يكون مشاهدًا لهيئتهم.

وقوله تعالى: ﴿ثم يقولون هذا من عند الله﴾ كشف عن كذبهم وفجورهم، فهم يحرفون الكلم عن مواضعه، ثم يزعمون أنه من عند الله ليتقبله أتباعهم بقوة واطمئنان.

ثم بين - سبحانه - العلة التى حملتهم على التحريف والكذب فقال تعالى: ﴿ليشتروا به

---

(١) الويل لفظ دال على الشر أو الهلاك، وهو مصدر لا فعل له من لفظه وقد يستعمل بدون حرف نداء كما هنا، وقد يستعمل مع حرف النداء كما فى قوله تعالى «يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا».

ثمنًا قليلا﴾ أى كتبوا الكتابة بأيديهم، ونسبوها إلى الله زورًا وبهتانًا؛ ليحصلوا على عرض قليل من أعراض الدنيا، كاجتلاب الأموال الحرام، وانتحال العلم لأنفسهم والطمع فى الرئاسة والجاه، وإرضاء العامة بما يوافق أهواءهم.

وعبر - سبحانه - عن الثمن بأنه قليل، لأنه مهما كثر فهو قليل بالنسبة إلى ما استوجبوه من العذاب، وحرموه من الثواب المقيم.

وقوله تعالى: ﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾ تهديد لهم مرتب على كتابة الكتاب المحرف، وعلى أكلهم أموال الناس بالباطل، فهو وعيد لهم على الوسيلة - وهى الكتابة - وعلى الغاية - وهى أخذ المال بغير حق -.

قال الشيخ القاسمى: قال الراغب: فإن قيل: لم ذكر ﴿يكسبون﴾ بلفظ المستقبل، و﴿كتبت﴾ بلفظ الماضى؟ قيل: تنبيهًا على ما قاله النبى ﷺ، «من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» فنبه بالآية إلى أن ما أثبتوه من التأويلات الفاسدة التى يعتمدها الجهلة هو اكتساب وزر يكتسبونه حالا فحالا، وعبر بالكتابة دون القول لأنها متضمنة له وزيادة، فهى كذب باللسان واليد. وكلام اليد يبقى رسمه، أما القول فقد يضمحل أثره»[1].

وبهذا تكون الآيات الكريمة قد دمغت اليهود برذيلة التحريف لكلام الله عن تعمد وإصرار ووصفتهم بالنفاق والخداع، ووبختهم على بلادة أذهانهم وسوء تصورهم لعلم الله - تعالى - وتوعدتهم بسوء المصير جزاء كذبهم على الله.

ثم حكى القرآن بعد ذلك لونًا من ألوان دعاواهم الباطلة، وأقاويلهم الفاسدة، ورد عليهم بما يخرس ألسنتهم ويقطع حجتهم، فقال تعالى:

وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ

---

(١) تفسير القاسمى جـ١ ص ١٧٤

﴿فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات آثارًا، منها ما روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: «إن اليهود كانوا يقولون إن هذه الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نعذب بكل ألف سنة يومًا فى النار، وإنما هى سبعة أيام معدودة»، فأنزل الله تعالى: ﴿وقالوا لن تمسنا النار..﴾ الآيات[1].

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: «حدثنى أبى أن الرسول ﷺ قال لليهود أنشدكم بالله وبالتوراة التى أنزلها الله على موسى يوم طور سيناء، من أهل النار الذين أنزلهم الله فى التوراة؟ قالوا: إن ربنا غضب علينا غضبة، فنمكث فى النار أربعين ليلة، ثم نخرج فتخلفوننا فيها، فقال رسول الله ﷺ كذبتم والله لا نخلفكم فيها أبدًا، فنزل القرآن تصديقًا لقول النبى ﷺ وتكذيبًا لهم - نزل قوله تعالى - ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿هم فيها خالدون﴾[2].

وأخرج ابن جرير - أيضًا - عن ابن عباس أنه قال فى قوله تعالى: ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة﴾ ذلك أعداء الله اليهود، قالوا: لن يدخلنا الله النار إلا تحلة القسم. الأيام التى أصبنا فيها العجل أربعين يومًا، فإذا انقضت عنا تلك الأيام انقطع عنا العذاب والقسم[3].

هذه بعض الآثار التى وردت فى سبب نزول الآيات الكريمة، والمعنى:

وقالت اليهود - يامحمد - إن النار لن تصيبنا، ولن نذوق حرها، إلا أيامًا قلائل - قل لهم - يا محمد - ردًا على دعواهم الكاذبة هل اتخذتم من الله عهدًا بذلك حتى يكون الوفاء به متحققًا؟ أم تقولون على الله الباطل جهلا وجراءة عليه؟

ثم أبطل القرآن الكريم دعواهم بأصل عام يشملهم ويشمل غيرهم فقال. ليس الأمر كما تدعون، بل الحق أنه من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته ومات عليها دون أن يتوب إلى

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢١٨

(٢) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٢٨٣ طبعة الحلبى.

(٣) لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى ص ١١

الله - تعالى - منها ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾.

وقوله تعالى: ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة﴾ بيان لضرب من ضروب غرورهم وكذبهم، معطوف على رذائلهم السابقة التى حكاها القرآن الكريم، إذ الضمير فى قوله تعالى (وقالوا) يعود على اليهود الذين مر الحديث عنهم ولما ينته بعد.

والمس: اتصال أحد الشيئين بآخر على وجه الإحساس والإصابة..

والمراد من النار: نار الآخرة. والمراد من المعدودة: المحصورة القليلة، يقال: شيء معدود أى قليل. وشيء غير معدود أى كثير فهم يدعون أن النار لن تمسهم إلا مدة يسيرة قد تكون سبعة أيام، وقد تكون أربعين يومًا، وبعدها يخرجون إلى الجنة لأن كل معدود منقض.

ثم أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يرد عليهم فيما زعموه فقال تعالى: ﴿قل أتخذتم عند الله عهدًا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله مالا تعلمون﴾ أى: قل لهم - يا محمد - إن مثل هذا الإخبار الجازم بأن النار لن تمسكم إلا أيامًا معدودة، لا يكون إلا ممن اتخذ عهدًا من الله بذلك، فهل تقدم لكم من الله عهد بأن النار لن تمسكم إلا أيامًا معدودة، فكان الوفاء متحققًا، لأن الله - تعالى - لا يخلف وعده، أم تقولون على الله شيئًا لا علم لكم به.

فالاستفهام للإنكار، وهو متوجه إلى زعمهم أن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة، فكأنه - سبحانه - يقول لهم. إن قولكم هذا يحتمل أمرين لا ثالث لهما: إما اتخاذ عهد عند الله به، وإما القول عليه - سبحانه - بدون علم، وما دام قد ثبت أن انخاذ العهد لم يحصل، إذا أنتم - يا معشر اليهود - كاذبون فيما تدعون من أن النار لن تمسكم إلا أيامًا معدودة.

قال الإمام الرازى: قوله تعالى: ﴿أتخذتم﴾ ليس باستفهام بل هو إنكار؛ لأنه لا يجوز أن يجعل الله - تعالى - حجة رسوله فى إبطال قولهم أن يستفهمهم بل المراد التنبيه على طريقة الاستدلال، وهى أنه لا سبيل إلى معرفة هذا التقدير إلا بالسمع، فلما لم يوجد الدليل السمعى وجب ألا يجوز الجزم بهذا التقدير[1].

وإنما ساق القرآن الكريم الرد عليهم فى صورة الاستفهام، لما فيه من ظهور القصد إلى تقريرهم بأنهم قالوا على الله مالا يعلمون، إذ هم لا يستطيعون أن يثبتوا أن الله وعدهم بما ادعوه من أن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة، ولا يوجد عندهم نص صحيح من كتابهم يؤيد مدعاهم.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٣ ص١٤٣ طبعة عبد الرحمن محمد.

وبذلك تكون الآية الكريمة قد أبطلت مدعاهم إبطالا يحمل طابع الإنكار والتوبيخ.

ثم ساق - سبحانه - آية أبطلت مدعاهم عن طريق إثبات ما نفوه فقال تعالى: ﴿بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

بلى حرف جواب يجيء لإثبات فعل ورد قبلها منفيًا، والفعل المنفى هنا هو قول اليهود «لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة» فجاءت «بلى» لإثبات أن النار تمسهم أكثر مما زعموا فهم فيها خالدون جزاء كفرهم وكذبهم.

ومعنى الآية الكريمة: ليس الأمر كما تدعون أيها اليهود، من أن النار لن تمسكم إلا أيامًا معدودة، بل الحق أنكم ستخلدون فيها. فكل من كسب شركًا مثلكم، واستولت عليه خطاياه، وأحاطت به كما يحيط السرادق بمن فى داخله، ومات على ذلك دون أن يدخل الإيمان قلبه ويتوب إلى ربه فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

فالآية الكريمة فيها إبطال لمدعاهم، وإثبات لما نفوه، على وجه يشملهم ويشمل جميع من يقول قولهم، ويكفر كفرهم.

هذا والمراد بالسيئة هنا الشرك بالله كما قال جمهور المفسرين لورود الآثار عن السلف بذلك، وفائدة الإتيان بقوله تعالى ﴿وأحاطت به خطيئته﴾ بعد ذلك، الإشعار بأن الخطيئة إذا أحاطت بصاحبها أخذت بمجامع قلبه فحرمته الإيمان، وأخذت بلسانه فمنعته عن أن ينطق به.

وقوله تعالى ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ بيان لما أعد لهم من عقوبات جزاء كفرهم وكذبهم على الله، فهم يوم القيامة سيكونون أصحابًا للنار ملازمين لها على التأبيد لإيثارهم فى الحياة الدنيا ما يوردهم سعيرها، وهو الكفر وسوء الأفعال على ما يدخلهم الجنة وهو الإيمان وصالح الأعمال.

وبعد أن ذكر - سبحانه - ما أعد لهؤلاء اليهود وأمثالهم من الكافرين الذين يفترون على الله الكذب، عقب ذلك ببيان ما أعده - سبحانه - لأهل الإيمان والتقوى فقال تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ أى: والذين آمنوا بالله ورسوله، وأطاعوا الله فأقاموا حدوده، وأدوا فرائضه، واجتنبوا محارمه، فأولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون خلودًا أبديًا، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ردت على اليهود أبلغ رد. حيث كذبتهم فى دعواهم أن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة، وأنهم صائرون بعد ذلك إلى الجنة، وأخبرتهم بخلودهم وخلود كل كافر فى النار، وأما الجنة فهى لمن آمن وعمل صالحًا واتبع سبيل المرسلين فهؤلاء أصحابها وهم فيها خالدون.

ثم تحدث القرآن بعد ذلك عن رذيلة من أبرز الرذائل التى طبع عليها بنو إسرائيل، وهى رذيلة نقضهم للعهود والمواثيق فقال تعالى:

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

ومعنى الآية إجمالا: واذكروا يا بنى إسرائيل لتعتبروا وتستجيبوا للحق - وليذكر معكم كل من ينتفع بالذكرى - وقت أن أخذنا عليكم العهد، وأمرناكم بالعمل به على لسان رسلنا - عليهم السلام - وأمرناكم فيه بألا تعبدوا سوى الله، وأمرناكم فيه كذلك، بأن تحسنوا إلى آبائكم وتقوموا بأداء ما أوجبه الله لهما من حقوق، وأن تصلوا أقرباءكم وتعطفوا على اليتامى الذين فقدوا آباءهم، وعلى المساكين الذين لا يملكون ما يكفيهم فى حياتهم، وأمرناكم فيه - أيضًا - بأن تقولوا للناس قولا حسنا فيه صلاحهم ونفعهم، وأن تحافظوا على فريضة الصلاة، وتؤدوا بإخلاص ما أوجبه الله عليكم من زكاة، ولكنكم نقضتم أنتم وأسلافكم الميثاق، وأعرضتم عنه، إلا قليلا منكم استمروا على رعايته والعمل بموجبه.

والمراد ببنى إسرائيل فى الآية الكريمة، سلفهم وخلفهم، لأن هذه الأوامر والنواهى التى تناولتها الآية الكريمة، والتى هى مضمون العهد المأخوذ عليهم، قد أخذت عليهم جميعًا على لسان أنبيائهم ورسلهم.

والدليل على أن المقصود ببنى إسرائيل ما يتناول الخلف المعاصرين منهم للعهد النبوى، قوله تعالى فى ختام هذه الآية ﴿ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون﴾ فإنه قد أسند إليهم فيه أنهم تولوا عن الميثاق معرضين، والاعراض عنه لا يكون إلا بعد أخذه عليهم كما سيأتى.

وقوله تعالى ﴿لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا. . .﴾ إلى قوله تعالى ﴿ثم توليتم. . .﴾ بيان للميثاق وتفصيل له. وجاء التعبير بقوله تعالى ﴿لا تعبدون إلا الله﴾ فى صورة الخبر المنفى والمراد منه النهى عن عبادة غير الله، لإفادة المبالغة والتأكيد، فكأن الأمر والنهى قد امتثلا فيخبر

بوقوعهما، أو أنهما لأهميتهما يخبر عنهما بأنهما سيتلقيان بحسن الطاعة حتما، فينزل ما يجب وقوعه منزلة الواقع، ويخبر عن المأمور بأنه فاعل لما أمر به ومجتنب لما نهى عنه فى الحال، وفى ذلك ما فيه من إفادة المبالغة فى وجوب امتثال الأمر والنهى.

وقد تضمنت الآية الكريمة لونًا فريدًا من التوجيه المحكم الذى لو اتبعوه لحسنت صلتهم مع الخالق والمخلوق، لأنها ابتدأت بأمرهم بأعلى الحقوق وأعظمها وهو حق الله - تعالى - عليهم، بأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، ثم ثنت ببيان حقوق الناس فبدأت بأحقهم بالإحسان وهما الوالدان لما لهما من فضل الولادة والعطف والتربية، ثم الأقارب الذين تجمع الناس بهم صلة قرابة من جهة الأب والأم، ورعايتهم تكون بالقيام بما يحتاجون إليه على قدر الاستطاعة، ثم باليتامى لأنهم فى حاجة إلى العون بعد أن فقدوا الأب الحانى، ثم بالمساكين لعجزهم عن كسب ما يكفيهم، ثم بالإحسان إلى سائر الناس عن طريق الكلمة الطيبة، والمعاملة الحسنة، لأن الناس إن لم يكونوا فى حاجة إلى المال، فهم فى حاجة إلى حسن المقال، ثم أرشدتهم إلى العبادات التى تعينهم على إحسان صلتهم بالخالق والمخلوق فأمرتهم بالمداومة على الصلاة بخشوع وإخلاص، وبالمحافظة على أداء الزكاة بسخاء وطيب خاطر، ولعظم شأن هاتين العبادتين البدنية والمالية ذكرتا على وجه خاص بعد الأمر بعبادة الله، تفخيمًا لشأنهما وتوكيدًا لأمرهما، وكان من الواجب على بنى إسرائيل أن ينتفعوا بهذه الأوامر الحكيمة، لكنهم عموا وصموا عنها فوبخهم القرآن الكريم بقوله: ﴿ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون﴾.

أى: ثم توليتم - أيها اليهود - عن جميع ما أخذ عليكم من مواثيق فأشركتم بالله وعققتم الوالدين، وأسأتم إلى الأقارب واليتامى والمساكين وقلتم للناس أفحش الأقوال، وتركتم الصلاة، ومنعتم الزكاة، وقطعتم ما أمر الله به أن يوصل.

وقوله تعالى: ﴿إلا قليلا منكم﴾ إنصاف لمن حافظ على العهد منهم، حيث إنه لا تخلو أمة من المخلصين الذين يرعون العهود، ويتبعون الحق، وإرشاد للناس إلى أن وجود عدد قليل من المخلصين فى الأمة، لا يمنع نزول العقاب بها متى فشا المنكر فى الأكثرين منها.

وقوله تعالى: ﴿وأنتم معرضون﴾ جملة حالية تفيد أن الأعراض عن الطاعة، وعدم التقيد بالمواثيق التى أقروا بها، عادة متأصلة فيهم ووصف ثابت لهم، وسجية معروفة منهم.

قال صاحب المنار: «قد يتولى الإنسان منصرفًا عن شىء وهو عازم على أن يعود إليه ويوفيه حقه، فليس كل متول عن شىء معرضًا عنه ومهملا له على طول الدوام، لذلك كان ذكر هذا القيد «وأنتم معرضون لازما لابد منه، وليس تكرارًا كما يتوهم، ثم قال: وقد كان سبب ذلك التولى مع الإعراض أن الله أمرهم ألا يأخذوا الدين إلا من كتابه فاتخذوا أحبارهم أربابًا من دون الله، يحلون برأيهم ويحرمون، ويبيحون باجتهادهم ويحظرون ويزيدون فى الشرائع

والأحكام ويضعون ما شاءوا من الشعائر فصدق عليهم أنهم اتخذوا من دونه شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله، فإن الله هو الذى يضع الدين وحده وإنما العلماء أدلاء يستعان بهم على فهم كتابه، وما شرع على ألسنة رسله... »(١)

وخلاصة الفرق بين التفسير الذى بدأنا به وبين تفسير صاحب المنار، لقوله تعالى: ﴿وأنتم معرضون﴾ أن هذه الجملة على التفسير الأول تبين عادة فى القوم تأصلت فيهم حتى كأنها سجية، والمعنى: «ثم توليتم، أى أعرضتم وأنتم قوم عادتكم الإعراض. وعلى تفسير صاحب المنار تكون هذه الجملة مبينة. لنوع التولى ومتممة لمعناه: والتفسير الأول - الذى سقناه - أدخل فى باب الذم، وأوفى ببيان ما عليه حال اليهود.

ثم قال تعالى:

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

(١) تفسير المنار جـ١ ص ٣٧٠.

بعد أن بين - سبحانه - فى الآية السابقة أن الله - تعالى - قد أخذ على بنى إسرائيل عهدًا بأن يعبدوه ويؤدوا فرائض الله، إلا أنهم نقضوا هذا العهد وتولوا عنه سوى قليل منهم بعد ذلك بين فى هذه الآيات الكريمة أنه - سبحانه - أخذ عليهم عهدًا آخر ولكنهم نقضوه كما هو دأبهم.

وملخص هذا العهد الذى ذكرته الآيات الكريمة، أن الله تعالى أخذ عليهم الميثاق ألا يقتل بعضهم بعضًا، وألا يخرج بعضهم بعضًا من داره، وأنهم إذا وجدوا أسيرًا منهم فى يد غيرهم فإن عليهم أن يبذلوا أموالهم لفدائه من الأسر، وتخليصه من أيدى أعدائهم، ثم لما نشبت الحرب بين قبيلتى الأوس والخزرج، انضمت قبيلة بنى قريظة إلى الأوس، وانضمت قبيلة بنى قينقاع وبنى النضير إلى الخزرج، وصارت كل طائفة من طوائف اليهود تقاتل بجانب أبناء ملتهم المنضمين إلى حلفائهم الآخرين فإذا وضعت الحرب أوزارها، بذل جميع اليهود أموالهم لتخليص الأسرى من أعدائهم كما أمرهم - تعالى - وبهذا يكونون قد آمنوا ببعض الكتاب وهو بذل الفداء لتخليص الأسرى، وكفروا ببعضه وهو تحريم سفك دماء إخوانهم وإخراجهم من ديارهم، ويحكى التاريخ أن العرب كانوا يعيرونهم فيقولون لهم: كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم بأموالكم؟ فكان اليهود يقولون: قد حرم علينا قتالهم ولكنا نستحى أن نخذل حلفاءنا وقد أمرنا أن نفتدى أسرانا.

وقد توعدهم - سبحانه - بالخزى فى الدنيا والآخرة، جزاء نقضهم لعهوده، وتفريقهم بين أحكامه.

والمعنى الإجمالى للآيات الكريمة: واذكروا - أيضًا - يا بنى إسرائيل وقت أن أخذنا عليكم العهد، وأوصيناكم فيه بألا يتعرض بعضكم لبعض بالقتل، وبألا يخرج بعضكم بعضًا من مساكنهم، ثم أقررتم وأنتم تشهدون على الوفاء بهذا العهد، والالتزام بما جاء فيه، ثم أنتم هؤلاء - يا معشر اليهود - بعد إقراركم بالميثاق، وبعد شهادتكم المؤكدة على أنفسكم بأنكم قد قبلتموه، خرجتم على تعاليم التوراة، فنقضتم عهودكم، وأراق بعضكم دماء بعض، وأخرجتم إخوانكم فى الملة والدم من ديارهم ظلمًا وعدوانًا، وتعاونتم على قتلهم وإخراجهم مع من ليسوا من ملتكم أو قرابتكم، ومع ذلك فإذا وقع إخوانكم الذين قاتلتموهم وأخرجتموهم من ديارهم فى الأسر فاديتموهم، فلم لم تتبعوا حكم التوراة فى النهى عن قتالهم وإخراجهم كما اتبعتم حكمها فى مفاداتهم؟ وكيف تستبيحون القتل والإخراج من الديار، ولا تستبيحون ترك الأسرى فى أيدى عدوهم؟ إن هذا التفريق بين أحكام الله جزاء فاعله الهوان فى الدنيا. والعذاب الدائم فى الأخرى، وما الله بغافل عما تعملون. ولا شك أن أولئك اليهود الذين

نقضوا عهودهم، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، قد باعوا دينهم بدنياهم، فلا يخفف عنهم العذاب ولاهم ينصرون.

وقوله تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم﴾ معناه: اذكروا حين أخذنا العهد عليكم يا بنى إسرائيل ألا يسفك أحد منكم دم غيره، وألا يخرجه من دياره. على حد قوله: ﴿فإذا دخلتم بيوتًا فسلموا على أنفسكم﴾(١) أى فليسلم بعضكم على بعض.

وفائدة هذا التعبير، التنبيه إلى أن الأمة المتواصلة بالدين، يجب أن يكون شعورها بالوحدة قويًا وعميقًا، بحيث يكون قتل الرجل لغيره قتلا لنفسه، وإخراجه له من داره إخراجًا لها.

قال صاحب المنار: (وقد أورد - سبحانه - النهى عن سفك بعضهم دم بعض، وإخراج بعضهم بعضا من ديارهم وأوطانهم، بعبارة تؤكد وحدة الأمة، وتحدث فى النفس أثرًا شريفًا، يبعثها على الامتثال إن كان هناك قلب يشعر، ووجدان يتأثر فقال تعالى:

﴿لا تسفكون دماءكم﴾ فجعل دم كل فرد من أفراد الأمة كأنه دم الآخر عينه حتى إذا سفكه كان كأنه بخع نفسه وانتحر بيده، وقال تعالى: ﴿ولا تخرجون أنفسكم من دياركم﴾ على هذا النسق، وهذا التعبير المعجز ببلاغته خاص بالقرآن الكريم»(٢).

وقوله تعالى: ﴿ثم أقررتم وأنتم تشهدون﴾ تسجيل عليهم بأنهم قد قبلوا العمل بالميثاق والتزموا به، إذ المعنى. ثم اعترفتم بهذا الميثاق - أيها اليهود - ولم تنكروه، فكان من الواجب عليكم أن تفوا به، فماذا كان موقفهم بعد هذا الاقرار والإشهاد؟.

لقد بين القرآن الكريم بعد ذلك أنهم نقضوا عهودهم، وارتكبوا ما نهوا عن ارتكابه، فقال تعالى: ﴿ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقًا منكم من ديارهم..﴾ أى: ثم أنتم - يا معشر اليهود - بعد اعترافكم بالميثاق، والتزامكم به، نقضتم عهودكم، وارتكبتم فى حق إخوانكم ما نهيتم عنه، من القتل والإخراج، وفعلتم ما لا يليق بالعقلاء، ومن يحترم المواثيق.

ولما كان قتل بعضهم لبعض، وإخراجهم من أماكنهم يحتاج إلى قوة وغلبة، بين - سبحانه - أنهم يرتكبون ذلك وهم متعاونون عليه بالشرور ومجاوزة الحدود، فقال تعالى: ﴿تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان﴾ تظاهرون: من التظاهر وهو التعاون، وأصله من الظهر، كأن المتعاونين يسند كل واحد منهم ظهره إلى الآخر. والمعنى: تتعاونون على قتل إخوانكم

---

(١) سورة النور الآية ٦١.
(٢) تفسير المنار جـ ١ ص ٣٧٢.

وإخراجهم من ديارهم مع من ليسوا من أقاربكم وليسوا من دينكم، وأنتم مرتكبون ذلك الإثم والعدوان.

وقوله تعالى: ﴿وإن يأتوكم أُسارى تفادوهم، وهو محرم عليكم إخراجهم﴾ بيان لتناقضهم وتفريقهم لأحكام الله تعالى.

وأُسارى: جمع أسير بمعنى مأسور، وهو من يؤخذ على سبيل القهر فيشد بالإسار وهو القد - بكسر القاف -، والقد: سير يقد من جلد غير مدبوغ. وتفادوهم: تنقذوهم من الأسر بالفداء، يقال: فاداه وفداه: أعطى فداءه فأنقذه.

أى: أنتم - يا معشر اليهود - إن وجدتم الذين قاتلتموهم وأخرجتموهم من ديارهم أسرى تسعون فى فكاكهم، وتبذلون عرضًا لإطلاقهم، والشأن أن قتلهم وإخراجهم محرم عليكم كتركهم أسرى فى أيدى أعدائكم، فلماذا لم تتبعوا حكم التوراة فى النهى عن قتالهم وإخراجهم كما اتبعتم حكمها فى مفاداتهم؟

وصدرت الجملة الكريمة «وهو محرم عليكم إخراجهم» بضمير الشأن للاهتمام بها. والعناية بشأنها، وإظهار أن هذا التحريم أمر مقرر مشهور لديهم، وليس خافيًا عليهم.

وقوله تعالى: ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾ توبيخ وتقريع لهم على تفريقهم بين أحكام الله.

والمعنى: أفتتبعون أحكام كتابكم فى فداء الأسرى، ولا تتبعونها فى نهيكم عن قتال إخوانكم وإخراجهم من ديارهم؟ فالاستفهام للإنكار والتوبيخ على التفريق بين أحكامه - تعالى - بالإيمان ببعضها والكفر بالبعض الآخر.

وبعض الكتاب الذى آمنوا به هو ما حرم عليهم من ترك الأسرى فى أيدى عدوهم، وبعضه الذى كفروا به ما حرم عليهم من القتل والإخراج من الديار، فالإنكار منصب على جمعهم بين الكفر والإيمان.

قال فضيلة المرحوم للشيخ محمد الخضر حسين: «وإنما سمى - سبحانه - عصيانهم بالقتل والإخراج من الديار كفرًا؛ لأن من عصى أمر الله - تعالى - بحكم عملى معتقدًا أن الحكمة والصلاح فيما فعله، بحيث يتعاطاه دون أن يكون فى قلبه أثر من التحرج، ودون أن يأخذه ندم وحزن من أجل ما ارتكب. فقد خرج بهذه الحالة النفسية عن سبيل المؤمنين، وفى الآية الكريمة دليل واضح على أن الذى يؤمن ببعض ما تقرر فى الدين بالدليل القاطع ويكفر ببعضه، يدخل فى زمرة الكافرين لأن الإيمان كل لا يتجزأ»(١).

---

(١) مجلة لواء الإسلام العدد ١١ السنة الثانية.

ثم بين - سبحانه - العقاب الدنيوى والأخروى الذى استحقه أولئك المفرقون لأحكامه فقال تعالى: ﴿فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون﴾

اسم الإشارة (ذلك) مشار به إلى القتل والإخراج من الديار، اللذين نقضوا بهماعهد الله بغيًا وكفرًا والخزى فى الدنيا هو الهوان والمقت والعقوبة ومن مظاهره: ما لحق اليهود بعد تلك الحروب من المذلة بإجلاء بنى قينقاع والنضير عن ديارهم، وقتل بنى قريظة وفتح خيبر، وما لحقهم بعد ذلك من هوان وصغار، وتلك سنة الله فى كل أمة لا تتمسك بدينها ولا تربط شئونها بأحكام شريعتها وآدابها.

ولما كان البعض قد يتوهم أن خزيهم فى الدنيا قد يكون سببًا فى تخفيف العذاب عنهم فى الأخرى، نفى - سبحانه - هذا التوهم، وبين أنهم يوم القيامة سيصيرون إلى ما هو أشد منه. لأن الله - تعالى - ليس ساهيًا عن أعمالهم حتى يترك مجازاتهم عليها.

فالمراد من نفى الغفلة نفى ما يتسبب عنها من ترك المجازاة لهم على شرورهم.

وفى ذلك دليل على أن الله - تعالى - يعاقب الحائدين عن طريقه المستقيم، بعقوبات فى الدنيا، وفى الآخرة، جزاء طغيانهم، وإصرارهم على السيئات.

ثم أكد - سبحانه - هذا الوعيد الشديد وبين علته فقال تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون﴾.

والمعنى: أولئك اليهود الذين فرقوا أحكام الله، وباعوا دينهم بدنياهم، وآثروا متاع الدنيا على نعيم الآخرة قد استحقوا غضب الله فلا يخفف عنهم العذاب يوم القيامة، ولا يجدون من دون الله وليا ولا نصيرا.

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد دمغت اليهود بنقضهم للعهد، وإيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم ببعض، فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين.

ثم ذكرهم - سبحانه - بعد ذلك بلون آخر من ألوان جناياتهم، فقال تعالى:

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ

اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

ففى هاتين الآيتين تذكير لبنى إسرائيل بضرب من النعم التى أمدهم الله بها ثم قابلوها بالكفر والإجرام.

والمراد بالكتاب الذى أعطاه الله لموسى التوراة، فقد أنزلها عليه لهدايتهم ولكنهم حرفوها وبدلوها وخالفوا أوامره وأولوها تأويلا سقيما.

ومعنى ﴿وقفينا من بعده بالرسل﴾ أردفنا وأرسلنا من بعد موسى رسلا كثيرين متتابعين، لإرشاد بنى إسرائيل، وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

يقال: قفا أثره يقفوه قفوًا وقفوًا، إذا تبعه. وقفى على أثره بفلان إذا أتبعه إياه. وقفيته زيدًا وبه: أتبعته إياه. واشتقاقه من: قفوته إذا أتبعت قفاه، والقفا مؤخر العنق، ثم أطلق على كل تابع ولو بعد الزمن بينه وبين متبوعه.

والرسل: جمع رسول بمعنى مرسل، وقد أرسل الله - تعالى - رسلا بعد موسى - عليه السلام -: منهم: داود، وسليمان، وإلياس، واليسع، ويونس، وزكريا، ويحيى - عليهم الصلاة والسلام -.

فمن مظاهر نعم الله على بنى إسرائيل، أنه لم يكتف بإنزال الكتب لهدايتهم، وإنما أرسل فيهم بجانب ذلك رسلا متعددين، لكى يبشروهم وينذروهم، ولكن بنى إسرائيل قابلوا نعم الله بالجحود والكفران، فقد حرفوا كتب الله، وقتلوا بعض أنبيائه.

والمراد بالبينات فى قوله: ﴿وآتينا عيسى بن مريم البينات﴾ الحجج والبراهين والآيات الدالة على صدقه وصحة نبوته، فتشمل كل معجزة أعطاها الله لعيسى كإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، والإخبار ببعض المغيبات، وغير ذلك من المعجزات التى أيد الله بها عيسى - عليه السلام -.

وخص القرآن عيسى بالذكر لكونه صاحب كتاب هو الإنجيل، ولأن شرعه نسخ أحكاما من شريعة موسى - عليه السلام -.

وفى إضافة عيسى إلى أمه إبطال لما يزعمه اليهود من أن له أبًا من البشر.

وقوله: ﴿وأيدناه بروح القدس﴾ أى: قويناه مأخوذ من الأَيْدِ وهو القوة.

وروح القدس هو جبريل - عليه السلام -، قال - تعالى -:

﴿قل نزله روح القدس من ربك بالحق﴾، والإضافة فيه من إضافة الموصوف إلى الصفة، أى: الروح المقدس. ووصف بالقدس لطهارته وبركته. وسمى روحًا لمشابهته الروح الحقيقى فى أن كلا منهما مادة لحياة البشر. فجبريل من حيث ما يحمل من الرسالة الإلهية تحيا به القلوب. والروح تحيا به الأجسام.

أى: أننا أعطينا عيسى بن مريم الحجج الدالة على صدقه فى نبوته وقويناه على ذلك كله بوحينا الذى أوحيناه إليه عن طريق جبريل - عليه - السلام -.

ثم وبخ الله اليهود على أفعالهم القبيحة فقال: ﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقًا كذبتم وفريقًا تقتلون﴾.

أى: أفكلما جاءكم يابنى إسرائيل رسول بما لا تحبه أنفسكم الشريرة استكبرتم عن اتباعه والإيمان به وأقبلتم على هؤلاء الرسل ففريقًا منهم كذبتم، وفريقًا آخر منهم تقتلونه غير مكتفين بالتكذيب:

وتهوى: من هوى إذا أحب «والهوى يكون فى الحق ويكون فى الباطل كما فى هذه الآية.

واستكبرتم: تكبرتم، والتكبر ينشأ عن الاعجاب بالنفس الذى هو أثر الجهل بها. وهو من الصفات التى متى تمكنت فى النفس أوردتها المهالك، وساقتها إلى سوء المصير.

وقدم تكذيبهم للرسل على قتلهم إياهم، لأن التكذيب أول ما يصدر عنهم من الشر.

وعبر فى جانب القتل بالفعل المضارع فقال: ﴿تقتلون﴾ ولم يقل قتلتم كما قال كذبتم، لأن الفعل المضارع كما هو المألوف فى أساليب البلاغة. يستعمل فى الأفعال الماضيه التى بلغت من الفظاعة مبلغًا عظيما. ووجهه أن المتكلم يعمد بذلك الفعل القبيح كقتل الأنبياء، ويعبر عنه بالفعل المضارع الذى يدل بحسب وضعه على الفعل الواقع فى الحال. فكأنه أحضر صورة قتل الأنبياء أمام السامع، وجعله ينظر إليها بعينه، فيكون إنكاره لها أبلغ، واستفظاعه لها أعظم.

ثم حكى القرآن بعض الدعاوى الباطلة التى كان يدعيها اليهود فى العصر النبوى ورد عليها بما يدحضها فقال:

﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾ أى: قال اليهود الذين كانوا فى العهد النبوى: قلوبنا يا محمد مغطاة بأغطية حسية مانعة من نفوذ ما جئت به فيها. ومقصدهم من ذلك، إقناطه ﷺ من إجابتهم لدعوته حتى لا يعيد عليهم الدعوة من بعد.

والغلف : جمع أغلف، وهو الذى جعل له غلاف، ومنه قيل للقلب الذى لا يعى ولا يفهم، قلب أغلف، كأنه حجب عن الفهم بالغلاف.

قال ابن كثير: وقرأ ابن عباس - بضم اللام - وهو جمع غلاف. أى : قلوبنا أوعية لكل علم فلا نحتاج إلى علمك.

وقد رد الله - تعالى - على كذبهم هذا بما يدحضه ويفضحه فقال :

﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾ أى : أن قلوبهم ليست غلفًا بحيث لا تصل إليها دعوة الحق بل هى متمكنة بأصل فطرتها من قبول الحق، ولكن الله أبعدهم من رحمته بسبب كفرهم بالأنبياء واستحبابهم العمى على الهدى.

والفاء فى قوله : ﴿فقليلا ما يؤمنون﴾ للدلالة على أن ما بعدها متسبب عما قبلها و ﴿ما﴾ فى قوله ﴿فقليلا ما﴾ لتأكيد معنى القلة.

والمعنى أن الله لعنهم وكان هذا اللعن سببًا لقلة إيمانهم فلا يؤمنون إلا إيمانًا قليلا، وقلة الإيمان ترجع إلى معنى أنهم لا يؤمنون إلا بقليل مما يجب عليهم الإيمان به. وقد وصفهم الله - تعالى - فيما سبق بأنهم كانوا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض.

ثم نبه القرآن المؤمنين إلى نوع آخر من رذائل اليهود، ويتجلى هذا النوع فى جحودهم الحق عن معرفة وعناد، وكراهتهم الخير لغيرهم بدافع الأنانية والحسد، وتحولهم إلى أناس يتميزون من الغيظ إذا ما رأوا نعمة تساق لغير أبناء ملتهم.

استمع إلى القرآن وهو يصور كل ذلك بأسلوبه البليغ الحكيم فيقول :

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٠﴾

روى المفسرون فى سبب نزول الآية الأولى من هاتين الآيتين آثارا متعددة، من ذلك ما جاء عن عاصم بن عمرو بن قتادة الأنصارى عن رجال من قومه قالوا : مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه، أنا كنا نسمع من رجال يهود حين كنا أهل شرك وكانوا أهل كتاب، عندهم علم ليس عندنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فكنا إذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : قد تقارب زمان نبى يبعث الآن، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث الله محمدًا ﷺ رسولا من عند الله أجبنا حين دعانا إلى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه، فآمنا به وكفروا به، ففينا وفيهم نزل قوله - تعالى - ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله﴾ . . . إلخ الآية »[1].

ومعنى الآيتين الكريمتين : ولما جاء إلى اليهود محمد ﷺ ومعه القرآن الكريم وهو الكتاب الذى أوحاه الله إليه، مصدقًا لما معهم من التوراة فيما يختص ببعثة النبى ﷺ ونعته، وكانوا قبل ذلك يستنصرون به على أعدائهم، لما جاءهم النبى المرتقب ومعه القرآن الكريم جحدوا نبوته، وكذبوا كتابه ﴿فلعنة الله على الكافرين﴾. بئس الشىء الذى باعوا به أنفسهم. الكفر بما أنزل الله على نبيه محمد ﷺ، وكفرهم هذا كان من أجل البغى الذى استولى على نفوسهم، والحسد الذى خالط قلوبهم، وكراهية لأن ينزل الله وحيه على محمد العربى ﷺ فباءوا بسبب هذا الخلق الذميم، بغضب مترادف متكاثر من الله[2] - تعالى - ﴿وللكافرين عذاب مهين﴾ جزاء كفرهم وحسدهم.

والمراد بالكتاب فى قوله تعالى ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم﴾ القرآن الكريم، وفى تنكيره زيادة تعظيم وتشريف له، وفى الأخبار عنه بأنه من عند الله، إشارة إلى أن ما يوحى به - سبحانه - جدير بأن يتلقى بالقبول وحسن الطاعة لأنه صادر من الحكيم الخبير، والذى مع اليهود هو التوراة، ومعنى كون القرآن مصدقًا لها، أنه يؤيدها ويوافقها فى أصول الدين، وفيما يختص ببعثة النبى ﷺ وصفته.

وفى وصف القرآن الكريم بأنه مصدق لما معهم، زيادة تسجيل عليهم بالمذمة لأنهم لم يكفروا بشىء يخالف أصول كتابهم وإنما كفروا بالكتاب الذى يصدق كتابهم.

وقوله تعالى : ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾.

بيان لحالتهم قبل البعثة المحمدية، فإن اليهود كانوا عندما يحصل بينهم وبين أعدائهم نزاع،

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٢٣.

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح جـ ٣ ص ٢٨٢ للإمام ابن تيمية وقد ساق - رحمه الله - أكثر من عشرة آثار فى هذا المعنى عند حديثه عن هذه الآية.

يستنصرون عليهم بالنبى ﷺ قبل بعثته فيقولون اللهم انصرنا عليهم بالنبى الذى نجد نعته فى التوراة،

والاستفتاح معناه: طلب الفتح وهو الفصل فى الشىء والحكم فيه، كما فى قوله تعالى: ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾. ويستعمل بمعنى النصر لأن فيه فصلا بين الناس قال تعالى: ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ أى: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر، فالمراد به فى الآية الاستنصار.

ثم بين - سبحانه - حقيقة حالهم بعد أن جاءهم الكتاب والرسول فقال تعالى:

﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾ أى: فلما جاءهم ما كانوا يستفتحون به على أعدائهم ويرتقبونه جحدوه وكفروا به.

وقال - سبحانه - ﴿فلما جاءهم ما عرفوا﴾ ولم يقل فلما جاءهم الكتاب أو الرسول، ليكون اللفظ أشمل، فيتناول الكتاب والرسول الذى جاء به لأنه لا يجىء الكتاب إلا عن طريق رسول.

ومعرفتهم بصدق الرسول ﷺ وما أنزل عليه حاصلة بانطباق العلامات والصفات الواردة فى التوراة عن النبى ﷺ فكان من الواجب عليهم أن يؤيدوا هذه المعرفة بالإيمان به، ولكن خوفهم على زوال رياستهم وأموالهم، وفوات ما كانوا يحرصون عليه من أن يكون النبى المبعوث منهم لا من العرب، ملأ قلوبهم غيظًا وحسدًا، وأخذ هذا الغيظ والحسد يغالب تلك المعرفة حتى غلبها، وحال بينها وبين أن يكون لها أثر نافع لهم لعدم اقترانها بالقبول والتصديق.

ولقد حاول رئيسهم (عبد الله بن سلام) - رضى الله عنه - أن يصرفهم عن العناد وأقسم لهم بأن ما جاء به النبى ﷺ هو الحق المصدق لما معهم أن يتبعوه ولكنهم عموا وصموا وتنقصوه ولذا لعنهم الله تعالى، وأبعدهم عن رحمته كما قال تعالى: ﴿فلعنة الله على الكافرين﴾.

وقال - سبحانه - ﴿على الكافرين﴾ ولم يقل عليهم، للإشعار بأن حلول اللعنة عليهم كان بسبب كفرهم.

ثم ذكر - سبحانه - أنهم بكفرهم قد باعوا أنفسهم بثمن بخس. فقال تعالى: «بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله» أى: بئس الشىء الذى باع به اليهود أنفسهم كفرهم بما أنزل الله بغيًا وحسدًا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده.

وجمهور المفسرين على أن ﴿اشتروا﴾ هنا بمعنى باعوا، لأن أولئك اليهود، لما كانوا متمكنين من الإيمان الذى يفضى بهم إلى السعادة الأبدية بعد أن جاءهم ما عرفوا من الحق فتركوه،

واستمروا على كفرهم بغيًا وحسدًا وحبًا فى الرياسة وتعصبًا لجنسيتهم لما كانوا كذلك، صار اختيارهم للكفر على الإيمان، بمنزلة اختيار صاحب السلعة ثمنها على سلعته، فكأنهم بذلوا أنفسهم التى كان باستطاعتهم الانتفاع بإيمانها، وقبضوا الكفر عوضًا عنها فأنفسهم بمنزلة السلعة المبيعة وكفرهم بمنزلة ثمنها المقبوض، فبئس هذا الثمن الذى أوردهم العذاب الأليم.

وعبر - سبحانه - عن كفرهم بصيغة المضارع ﴿أن يكفروا﴾ وعن بيعهم لأنفسهم بالماضى، ﴿اشتروا﴾ للدلالة على أنهم صرحوا بكفرهم بالقرآن الكريم من قبل نزول الآية، وإن بيعهم أنفسهم بالكفر طبيعة فيهم مستقرة منذ وقت بعيد، وأنهم ما زالوا مستمرين على تلك الطبيعة المنحرفة.

وقوله تعالى: ﴿بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده﴾، تعليل لكفرهم وبيان للباعث عليه، أى كفروا بما أنزل الله على عبده ورسوله محمد ﷺ بدافع من البغى والحقد، وكراهة أن ينزل الله الوحى من فضله على من يشاء من عباده، فالبغى هنا مصدر بغى يبغى إذا ظلم. والمراد به ظلم خاص هو الحسد، وإنما عد الحسد ظلما، لأن الظلم معناه المعاملة التى تبعد عن الحق وتجافيه. والحسد معناه تمنى زوال النعمة عن الغير والظالم والحاسد قد جانب كل منهما الحق فيما صنع، والحاسد لن يناله نفع من زوال نعمة المحسود، كما أنه لن يناله ضر من بقائها، وما دام الأمر كذلك فالحاسد ظالم للمحسود بتمنى زوال النعمة وصدق الشاعر فى قوله.

وأظلم خلق الله من بات حاسدًا - لمن بات فى نعمائه يتقلب -.

فاليهود قد كفروا بما أنزل الله، من أجل حسدهم للنبى ﷺ على النبوة ولأنه لم يكن منهم وكان من العرب، وكراهية لأن ينزل الله الوحى على من يصطفيه للرسالة من غيرهم، فعدم إيمانهم بما عرفوه وارتقبوه سببه أنانيتهم البغيضة، وأثرتهم الذميمة التى حملتهم على أن يحسدوا الناس على ما آتاهم الله من فضله، وأن يتوهموا أن النبوة مقصورة عليهم، فليس لله - تعالى - فى زعمهم - أن ينزعها من ذرية إسحاق ليجعلها فى ذرية إسماعيل عليهما السلام -.

ولم يصرح - سبحانه - بأن المحسود هو النبى ﷺ لعلم ذلك من سياق الآيات الكريمة وللتنبيه على أن الحسد فى ذاته مذموم كيفما كان حال المحسود.

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما آل إليه أمرهم من خسران مبين فقال تعالى:

﴿فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين﴾: باء بإثمه يبوء أى: رجع أى: فرجعوا من أجل كفرهم وحسدهم للنبى ﷺ بغضب مضموم إلى غضب آخر كانوا قد استحقوه بسبب كفرهم بعيسى - عليه السلام - وبسبب تحريفهم للكلم عن مواضعه،

وتضييعهم لأحكام التوراة. فهم بسبب كفرهم المستمر الذى تعددت أسبابه، يصيبهم غضب كثير متعاقب من الله - تعالى -.

ويصح أن يكون معنى قوله: ﴿فباءوا بغضب على غضب﴾ أنهم رجعوا بغضب شديد مؤكد، لصدوره من الله - تعالى -.

والمراد بالكافرين، اليهود الذين تحدث عنهم فيما سبق، فهم الذين عرفوا صدق محمد ﷺ فى نبوته بما نطقت به التوراة، ومع ذلك كفروا به فاستحبوا العمى على الهدى.

وعبر عنهم بهذا العنوان للتنبيه على أن ما أصابهم من عذاب مذل لهم كان بسبب كفرهم، ويصح أن يراد بالكافرين: كل كافروهم يدخلون فيه دخولا أوليا؛ وإنما كان لهم العذاب المهين لأن كفرهم لما كان سببه البغى والحسد والتكبر والأنانية، قوبلوا بالإهانة والصغار.

وبذلك تكون الآيتان الكريمتان قد كشفتا عن لون من صفات اليهود الذميمة وهو إعراضهم عن الإيمان بمحمد ﷺ الذى كانوا يستنصرون به على أعدائهم قبل بعثته، وبيعهم الإيمان الذى كان فى مكنتهم الظفر به بالكفر بما أنزل الله من دين قويم، وكتاب كريم إرضاء لغريزة الحقد الذى استحوذ على قلوبهم، وتمشيًا مع أثرتهم التى أبت عليهم أن يؤمنوا بنبى ليس من نسل إسرائيل ولو جاءهم بالحق المبين، فحق عليهم قول الله - تعالى - : ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾.

ثم حكى القرآن بعد ذلك بعض المعاذير الكاذبة التى كان اليهود يعتذرون بها عندما يدعون إلى الدخول فى الإسلام، فقد كانوا يقولون إننا مكلفون ألا نؤمن إلا بكتابنا التوراة، فنحن نكتفى بالإيمان به دون غيره. استمع إلى القرآن - وهو يعرض دعاواهم الكاذبة ثم يقذفها بالحق فيدمغها - حيث يقول:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

ومعنى الآيات الكريمة. أن اليهود المعاصرين للعهد النبوى كانوا إذا عرض عليهم الإيمان بما أنزل الله من القرآن على محمد ﷺ أجابوا بقولهم : نؤمن بما أنزل علينا وهو التوراة التى أنزلها الله - تعالى - على موسى، ويجحدون غيرها وهو القرآن الكريم المصدق لها فى الأمر باتباع محمد ﷺ ثم أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يكذبهم فى دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم فقال : ﴿قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾ بالتوراة فإنها تنهاكم عن قتلهم ثم كذبهم القرآن الكريم مرة أخرى فقال : ﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات﴾ أى : بالآيات الواضحات الدالة على صدقه، ولكنكم ﴿اتخذتم العجل من بعده﴾ أى : من بعد ذهابه لميقات ربه ﴿وأنتم ظالمون﴾ لعبادتكم غير الله تعالى.

ثم كذبهم القرآن الكريم - فى دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم - بصورة أخرى سوى ما سبقها فقال تعالى : ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور﴾ وقلنا لكم : ﴿خذوا ما آتيناكم - من التوراة - بقوة﴾ أى بجدو حزم ﴿واسمعوا﴾ ما أمرتم به فيها سماع تدبر وطاعة. ولكن أسلافكم الذين أنتم على شاكلتهم قالوا لنبيهم : « سمعنا » قولك « وعصينا » أمرك. وخالط حب العجل قلوبهم كما يخالط الماء أعماق البدن، وكل هذه الأفاعيل منكم لا تناسب دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم، وإذا فبئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين بالتوراة كما تزعمون، فالواقع أن التوراة بريئة من أعمالكم، وأنتم بعيدون عن الإيمان بها.

وقوله تعالى : ﴿وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا﴾ تصوير لنوع آخر من قبائح اليهود، وإخبار عن إعراضهم عن الحق بدعوى أنهم مكلفون بعدم الإيمان إلا بما أنزله الله على موسى وهو التوراة.

والمقصود ﴿بما أنزل الله﴾ القرآن الكريم. ولم يذكر المنزل عليه وهو محمد ﷺ للعلم به أو للتنبيه على أن وجوب الإيمان بالكتاب، يكفى فيه العلم بأنه منزل من عند الله - تعالى - ومتى

استقر فى النفس أن القرآن الكريم من عند الله، استتبع ذلك استحضار أنه أنزل على محمد ﷺ.

وقولهم: ﴿نؤمن بما أنزل علينا﴾ معناه: نؤمن بالتوراة التى أنزلها الله على نبينا موسى دون غيرها مما أنزله الله عليك - يا محمد -، وجوابهم هذا يدل على غبائهم وعنادهم. لأن الداعى لهم إلى الإيمان، يطلب منهم أن يؤمنوا بكل ما أنزل الله من الكتب السماوية، ولكنهم قيدوا أنفسهم بالإيمان ببعض ما أنزل الله وهو ما أنزل عليهم، فلم يكن إيمانهم مطابقًا لما أمر الله به وهو التصديق بجميع الكتب السماوية، ولا شك أن من آمنَ ببعض الكتب السماوية وكفر ببعضها يكون كافرًا بجميعها.

وقوله تعالى: ﴿ويكفرون بما وراءه﴾ قصد به بيان التصريح بكفرهم بالقرآن الكريم بعد أن لمحوا بذلك فى قولهم: ﴿نؤمن بما أنزل علينا﴾. والضمير فى ﴿وراءه﴾ يعود على ﴿ما أنزل علينا﴾ المكنى به عن التوراة، أى: قالوا نؤمن بما أنزل علينا والحال أنهم يكفرون بما سوى التوراة أو بما بعدها وهو القرآن الكريم.

قال ابن جرير - رحمه الله -: «وتأويل وراء فى هذا الموضع: سوى، كما يقال للرجل المتكلم بالحسن، ما وراء هذا الكلام الحسن شىء. يراد به: ليس من عند المتكلم به شىء سوى ذلك الكلام، فكذلك معنى قوله تعالى: ﴿ويكفرون بما وراءه﴾ أى بما سوى التوراة، وبما بعده من كتب الله التى أنزلها على رسله»(١).

والضمير «هو» فى قوله تعالى: ﴿وهو الحق مصدقًا لما معهم﴾ يعود إلى القرآن الكريم المكنى عنه بقوله «بما وراءه». والحق: الحكم المطابق للواقع. ووصف به القرآن الكريم لاشتماله على الأحكام المطابقة للواقع.

ومعنى كون القرآن مصدقًا لما مع اليهود وهو التوراة، أنه يدل على نبوة النبى ﷺ. وبهذا كان مؤيدًا للتوراة التى بشرت بالنبى ﷺ وذكرت له نعوتًا لا تنطبق إلا عليه، وبذلك يكون اليهود الذين يدعون الإيمان بما أنزل عليهم كاذبين فى دعواهم، لأنهم لم يؤمنوا بمحمد ﷺ الذى بشرت به توراتهم وأمرتهم بالأيمان به وأيدها القرآن الكريم فى ذلك.

قال صاحب الكشاف: وفى قوله تعالى: ﴿وهو الحق مصدقًا لما معهم﴾ رد لمقالتهم ﴿نؤمن بما أنزل علينا﴾ لأنهم إذ كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها»(٢).

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٤١٨.
(٢) تفسير الكشاف بتصرف جـ ١ ص ٢٢٤.

ثم أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يوبخهم ويبطل دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم بدليل إلزامى فقال تعالى: ﴿قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾.

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء اليهود الذين إذا دعوتهم إلى الإيمان بك قالوا. ﴿نؤمن بما أنزل علينا﴾ قل لهم: إن كنتم حقًا مؤمنين بما أنزل عليكم وهو التوراة، فلأى شىء تقتلون أنبياء الله مع أن التوراة تحرم عليكم قتلهم، بل هى تأمركم باتباعهم وتصديقهم وطاعتهم لأنه أرسلهم لهدايتكم وسعادتكم.

إن قتلكم لهم أكبر دليل على أنكم لم تؤمنوا لا بما أنزل عليكم ولا بغيره وأنكم كاذبون فى مدعاكم لأن جميع ما أنزل الله من وحى يحرم قتل الأنبياء، ويأمر الناس باتباعهم وطاعتهم.

ويرجع معنى الآية إلى نفى فعل الشرط وهو كونهم مؤمنين، إذ لا وجه لقتلهم الأنبياء إلا عدم إيمانهم بالتوراة، وهذا كما تريد أن تنفى عن رجل العقل لفعله ما ليس من شأنه أن يصدر من عاقل، فتقول له: إن كنت عاقلا فلم فعلت كذا؟ أى أنت لست بعاقل.

والفاء فى قوله تعالى: ﴿فلم تقتلون﴾ واقعة فى جواب محذوف دل عليه ما بعده، والتقدير إن كنتم مؤمنين بما أنزل عليكم فلم تقتلون أنبياء الله - تعالى -

والإتيان بالمضارع فى قوله - تعالى -: ﴿تقتلون﴾ مع أن القتل للأنبياء وقع من أسلافهم بقرينة قوله تعالى: ﴿من قبل﴾ لقصد استحضار تلك الجناية الشنيعة، وللتنبيه على أن ارتكابهم لتلك الجريمة البشعة يتجدد ويقع منهم المرة تلو الأخرى، وللإشعار بأن الخلف يمشون على عماية السلف، فى التعدى والعصيان، فلقد حاول اليهود المعاصرون للعهد النبوى قتل الرسول ﷺ ولكن الله - تعالى - عصمه منهم، ونجاه من مكرهم.

وأضاف سبحانه - الأنبياء إليه فقال: ﴿أنبياء الله﴾ للتنبيه على شرفهم العظيم، وللدلالة على فظاعة عصيان اليهود واجتراحهم المنكر، إذ قابلوا بالقتل من يجب عليهم أن يقابلوهم بالتصديق والتوقير والطاعة.

ثم ذكر القرآن الكريم لهم جنايات أخرى تدل على أنهم لم يؤمنوا بما أنزل عليهم كما يدعون. ومن تلك الجنايات عبادتهم العجل، فقال تعالى: ﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات، ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾.

البينات: جمع بينة وهى الآيات والمعجزات الدالة على صدقه وحقية نبوته، كانقلاب العصا ثعبانًا، وفلق البحر، وانفجار العيون من الحجر... إلخ.

وإنما سماها الله بينات، لأنها لما كانت لا يقدر على أن يأتى بها بشر إلا بتسخير الله ذلك له

دلت على صدق موسى - عليه السلام - فى نبوته ورسالته.

والمعنى : ولقد جاءكم - يا بنى إسرائيل - نبينا موسى بالآيات الواضحات الدالة على صدقه، وحقية نبوته، وكان من الواجب عليكم أن تتبعوه وتطيعوه ولكنكم لم تفعلوا فقد اتخذتم العجل إلهًا من بعد مفارقة نبيكم موسى لكم لمناجاة ربه، ومن بعد مشاهدتكم لتلك المعجزات، التى استبان بها صدقه فيما يبلغكم عن ربه فأنتم ظالمون بذلك، لأنكم تركتم عبادة من يستحق العبادة وهو الله - تعالى - وعبدتم العجل الذى لا يملك ضرًا ولا نفعًا.

فالآية الكريمة فيها أبطال لدعواهم الإيمان بما أنزل عليهم، لأنهم لو كانوا مؤمنين حقًا بنبيهم الذى جاءهم بالبينات، لما تركوا ما أمرهم به وهو عبادة الله، وفعلوا ما نهاهم عنه وهو عبادة العجل.

ثم ذكر القرآن الكريم جناية أخرى تكذبهم فى دعواهم : أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم - وهى إباؤهم التوراة عنادًا واستكبارًا فقال تعالى :

﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور، خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا، قالوا سمعنا وعصينا، وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم، قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾.

ومعنى الآية الكريمة : واذكروا - يا بنى إسرائيل - وقت أن أخذنا الميثاق عليكم بأن تعملوا بما فى التوراة، وتتلقوا أحكامها بالتقبل والطاعة ورفعنا فوقكم الطور لنريكم آية من آياتنا العظمى التى تقوى قلوبكم، وتجعلكم تقبلون على تعاليم التوراة برغبة واستجابة، وقلنا لكم خذوا ما آتيناكم بجد وحزم، واسمعوا ما أمرناكم به سماع تدبر وطاعة، ولكنكم - يا بنى إسرائيل - يا من تدعون الإيمان بما أنزل عليكم - أعرضتم عما أمرتم به من قبول التوراة وقلتم لنبيكم سمعنا قولك وعصينا أمرك، وخالط حب عبادة العجل قلوبكم كما يخالط الماء أعماق البدن ولم تأبهوا بما جاءكم فى التوراة من الهدى والنور وبما صحب عرضها عليكم من الآية البينة وهى رفع الجبل فوقكم حتى ظننتم أنه واقع بكم فكفرتم بذلك كله ولازالت نفوسكم تحن إلى عبادة العجل ولقد سرتم على منهج أسلافكم فى العناد والجحود والإعراض عما ينزله الله من الحق، وإذا كان هذا شأنكم فكيف تدعون الإيمان بما أنزل عليكم؟

ثم أمر الله نبيه ﷺ أن يوبخهم على تخرصاتهم فقال تعالى : ﴿قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾.

وقوله تعالى : ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾ معناه : أننا حركناه ونقلناه معلقًا فوقكم فى الهواء، لتروا بأعينكم آية كونية من شأنها أنها تحملكم على الإيمان والطاعة إن كانت لكم عقول تعقل.

ومعنى قوله تعالى : ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا﴾ : قلنا لكم خذوا ما أمرناكم به فى التوراة بجد واجتهاد فى تأديته، واسمعوا ما تؤمرون به سماع طاعة وتفهم. فقوله تعالى ﴿واسمعوا﴾ ليس المراد به مجرد السماع للقول فقط، بل المقصود منه السماع الذى يصحبه التدبر والاستجابة للأمر: فهو مؤكد ومقرر لقوله تعالى : ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾.

ثم حكى - سبحانه - جوابهم الذى يدل على عنادهم فقال : ﴿قالوا سمعنا وعصينا﴾.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف طابق قوله جوابهم ؟ قلت طابقه من حيث إنه قال لهم اسمعوا : وليكن سماعكم سماع تقبل وطاعة، فقالوا سمعنا ولكن لا سماع طاعة[1].

وقد اختلف المفسرون هل صدر منهم هذا اللفظ حقيقة باللسان نطقًا أو أنهم فعلوا فعلا مقام القول فيكون مجازًا؟

قال الفخر الرازى : الأكثرون من المفسرين على أنهم قالوا هذا القول حقيقة. وقال أبو مسلم : وجائز أن يكون المعنى سمعوه فتلقوه بالعصيان فعبر عن ذلك بالقول ولم يقولوه، كقوله تعالى ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعًا أو كرهًا قالتا أتينا طائعين﴾. قال : والأول أولى لأن صرف الكلام عن ظاهره بغير دليل لا يجوز[2].

وقوله تعالى : ﴿وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم﴾ عطف على قولهم سمعنا وعصينا والإشراب ؛ السقى وجعل الشىء شاربًا، واستعمل على وجه التجوز فى خلط لون بآخر كأن أحد اللونين سقى الآخر، يقال : بياض مشرب بحمرة أى مختلط، وفلان أشرب قلبه حب كذا بمعنى خالط حبه قلبه.

قال الإمام الرازى : قوله تعالى : ﴿وأشربوا فى قلوبهم العجل﴾ فى وجه هذه الاستعارة وجهان : الأول : معناه تداخلهم حبه والحرص على عبادته كما يتداخل الصبغ الثوب، وقوله فى قلوبهم بيان لمكان الإشراب كقوله : ﴿إنما يأكلون فى بطونهم نارًا﴾، الثانى : كما أن الشرب مادة لحياة ما تخرجه الأرض، فكذا تلك المحبة كانت مادة لجميع ما صدر عنهم من الأفعال[3].

وفى الجملة الكريمة ﴿وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم﴾ مضاف محذوف وهو لفظ (حب) لدلالة المعنى عليه.

والمعنى : إن هؤلاء اليهود الذين مردوا على العصيان قد خالط حب العجل نفوسهم حتى

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٢٥.
(٢) الفخر الرازى جـ ١ ص ٤٣٢.
(٣) تفسير الرازى جـ ١ ص ٤٣٢.

استقر فى قلوبهم كما يخالط الماء أعماق الجسد. وحذف لفظ الحب من الجملة الكريمة، يشعر بشدة تعلق قلوبهم بالعجل حتى لكأنهم أشربوا ذاته.

والتعبير بقوله: ﴿أشربوا﴾ يشير إلى أنه بلغ حبهم العجل مبلغ الأمر الذى لا اختيار لهم فيه كأن غيرهم أشربهم إياه.

وقوله تعالى: ﴿بكفرهم﴾ دليل على أن محبتهم للعجل ناشئة عن كفر سابق، وجحود متأصل فكفرهم الذى ترتب على عبادتهم للعجل، قد سبقه كفر آخر، فهو كفر على كفر.

ثم أمر الله - تعالى - نبيه فى ختام الآية الكريمة بتوبيخهم فقال تعالى:

﴿قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾ أى: قل - يا محمد - لهؤلاء اليهود الذين يدعون الإيمان بما أنزل عليهم - قل لهم - بئس الشىء الذى يأمركم به إيمانكم قتل الأنبياء وعبادة العجل والعصيان إن كنتم مصدقين - كما زعمتم - بالتوراة، والحق أن التوراة ما أمرتكم بشىء من ذلك فما أنتم بمؤمنين بها ولا بغيرها من كتب الله، لأنها لا تأمر بالفحشاء.

فالجملة الكريمة خلاصة لإبطال قولهم «نؤمن بما أنزل علينا» بعد أن أبطله الله - تعالى - فيما سبق بشواهد متعددة، لأنهم لما زعموا ذلك، وكانوا مع هذا يفعلون أفعالا قبيحة تناقض الإيمان بأى كتاب سماوى، أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يذمهم على هذه الأفعال التى تناقض الإيمان بما أنزل عليهم لكى يعلم الناس جميعًا أن دعواهم لا أساس لها من الصحة.

وأضاف - سبحانه - الإيمان إليهم فقال ﴿إيمانكم﴾ ولم يقل الإيمان، لأنه ليس إيمانًا صحيحًا وإنما هو إيمان مزعوم، فإضافة الإيمان إليهم من باب التهكم بهم والاستهزاء بعقولهم.

وقوله تعالى: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ تشكيك فى إيمانهم بالتوراة، وقدح فى صحة دعواهم فإن الإيمان الحق إنما يأمر بعبادة الله وحده، وينهى عن عبادة سواه وعن ارتكاب السوء والفحشاء.

فالجملة الكريمة فى معنى النفى لادعائهم الإيمان بالتوراة لأنها ما أمرت بشىء يبغضه الله تعالى.

قال الإمام ابن جرير: وقوله: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أى إن كنتم مصدقين كما زعمتم بما أنزل الله عليكم. وإنما كذبهم الله بذلك لأن التوراة تنهى عن ذلك كله، وتأمر بخلافه، فأخبرهم أن تصديقهم بالتوراة إن كان يأمرهم بذلك، فبئسُ الأمر تأمر به. وإنما ذلك نفى من الله - تعالى - عن التوراة أن تكون تأمر بشىء مما يكرهه الله من أفعالهم وأن يكون التصديق بها يدل على شىء من مخالفة أمر الله، وإعلام منه - جل ثناؤه - أن الذى يأمرهم بذلك أهواؤهم،

والذى يحملهم عليه البغى والعدوان»[١].

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد أقامت الأدلة المتعددة، والبراهين القاطعة على كذب اليهود فى دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم، ووبختهم على مزاعمهم الباطلة، وأقوالهم الفاسدة.

هذا، ولفضيلة أستاذنا الدكتور محمد عبد الله دراز كلام رصين عند حديثه عن هذه الآيات، فقد قال - رحمه الله - :

يقول الله تعالى فى ذكر خجاج اليهود: ﴿وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله، قالوا: نؤمن بما أنزل علينا، ويكفرون بما وراءه، وهو الحق مصدقا لما معهم، قل: فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين...﴾.

هذا قطعة من فصل من قصة بنى إسرائيل، والعناصر الأصلية التى تبرزها لنا هذه الكلمات القليلة تتلخص فيما يلى:

١ - مقالة ينصح بها الناصح لليهود: إذ يدعوهم إلى الإيمان بالقرآن.
٢ - إجابتهم لهذا الناصح بمقالة تنطوى على مقصدين.
٣ - الرد على هذا الجواب بركنيه من عدة وجوه.

وأقسم لو أن محاميًا بليغًا وكلت إليه الخصومة بلسان القرآن فى هذه القضية، ثم هدى إلى استنباط هذه المعانى التى تختلج فى نفس الداعى والمدعو لما وسعه فى أدائها أضعاف أضعاف هذه الكلمات، ولعله بعد ذلك لا يفى بما حولها من إشارات واحتراسات وآداب وأخلاق.

قال الناصح لليهود: آمنوا بالقرآن كما آمنتم بالتوراة، ألستم قد آمنتم بالتوراة التى جاء بها موسى لأنها أنزلها الله؟ فالقرآن الذى جاء به محمد ﷺ أنزله الله، فآمنوا به كما آمنتم بها.

فانظر كيف جمع القرآن هذا المعنى الكثير فى هذا اللفظ الوجيز ﴿آمنوا بما أنزل الله﴾. وسر ذلك أنه عدل بالكلام عن صريح اسم القرآن إلى كنايته. فجعل دعاءهم إلى الإيمان به دعاء إلى الشىء بحجته، وبذلك أخرج الدليل والدعوى فى لفظ واحد.

ثم انظر كيف طوى ذكر المنزل عليه فلم يقل: آمنوا بما أنزل الله (على محمد)، مع أن هذا جزء متمم لوصف القرآن المقصود بالدعوة.

أتدرى لم ذلك؟ لأنه لو ذكر لكان فى نظر الحكمة البيانية زائدًا، وفى نظر الحكمة الإرشادية مفسدًا.

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٤٢٤.

أما الأول فلأن هذه الخصوصية لا مدخل لها فى الإلزام، فأدير الأمر على القدر المشترك وعلى الحد الأوسط الذى هو عمود الدليل.

وأما الثانى فلأن إلقاء هذا الإسم على مسامع الأعداء من شأنه أن يخرج أضغانهم ويثير أحقادهم فيؤدى إلى عكس ما قصده الداعى من التأليف والإصلاح...

كان جواب اليهود أن قالوا: إن الذى دعانا للإيمان بالتوراة ليس هو كونها أنزلها الله فحسب، بل إننا آمنا بها لأن الله أنزلها علينا. والقرآن لم ينزله علينا، فلكم قرآنكم ولنا توراتنا، ولكل أمة شرعة ومنهاج.

هذا هو المعنى الذى أوجزه القرآن فى قوله: ﴿نؤمن بما أنزل علينا﴾ وهذا هو المقصد الأول، وقد زاد إيجاز هذه العبارة أن حذف منها فاعل الإنزال وهو لفظ الجلالة، لأنه تقدم ذكره فى نظيرتها.

ومن البين أن اقتصارهم على الإيمان بما أنزل عليهم يومىء إلى كفرانهم بما أنزل على غيرهم، وهذا هو المقصد الثانى، ولكنهم تحاشوا التصريح به لما فيه من شناعة التسجيل على أنفسهم بالكفر، فأراد القرآن أن يبرزه، أنظر كيف أبرزه؟ إنه لم يجعل لازم مذهبهم مذهبًا له، ولم يدخل مضمون قولهم فى جملة ما نقله من كلامهم، بل أخرجه فى معرض الشرح والتعليق على مقالتهم فقال:

﴿ويكفرون بما وراءه﴾ أليس ذلك هو غاية الأمانة فى النقل؟.. ثم جاء دور الرد والمناقشة فيما أعلنوه وما أسروه.

فتراه لا يبدأ بمحاورتهم فى دعوى إيمانهم بكتابهم، بل يتركها مؤقتًا كأنها مسلمة ليس عليهم وجوب الإيمان بغيره من الكتب فيقول: كيف يكون الإيمان بكتابهم باعثًا على الكفر بما هو حق مثله؟ لا بل هو الحق كله، وهل يعارض الحق الحق حتى يكون الإيمان بأحدهما موجبا للكفر بالآخر؟

ثم يترقى فيقول: وليس الأمر بين هذا الكتاب الجديد وبين الكتب السالفة عليه كالأمر بين كل حق وحق، فقد يكون الشىء حقًا وغيره حقًا فلا يتكاذبان، ولكنهما فى شأنين مختلفين، فلا يشهد بعضها لبعض، أما هذا الكتاب فإنه جاء شاهدًا ومصدقًا لما بين يديه من الكتب، فكيف يكذب به من يؤمن بها.

فانظر إلى الإحكام فى صنعة البيان: إنما هى كلمة رفعت وأخرى وضعت فى مكانها عند الحاجة إليها، فكانت هذه الكلمة حسما لكل عذر، وسدًا لكل باب من أبواب الهرب، بل

كانت هذه الكلمة وحدها بمثابة حركة تطويق للخصم. تمت خطوة واحدة، وفى غير ما جلبة ولا طنطنة.

ولما قضى وطر النفس من هذا الجانب المطوى الذى ساقه مساق الاعتراض والاستطراد، استوى إلى الرد على المقصد الأصلى الذى تبجحوا بإعلانه والافتخار به، وهو دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم، فأوسعهم إكذابًا وتفنيدًا. وبين أن داء الجحود فيهم داء قديم، قد أشربوه فى قلوبهم ومضت عليه القرون حتى أصبح مرضًا مزمنًا وأن الذى أتوه اليوم من الكفر بما أنزل على محمد ما هو إلا حلقة متصلة بسلسلة كفرهم بما أنزل عليهم، وساق على ذلك الشواهد التاريخية المفظعة التى لا سبيل لإنكارها فى جهلهم بالله، وانتهاكهم لحرمة أنبيائه، وتمردهم على أوامره ﴿قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾.

تأمل كيف أن هذا الانتقال كانت النفس قد استعدت له فى آخر المرحلة السابقة، إذ يفهم السامع من تكذيبهم لما يصدق كتابهم أنهم صاروا مكذبين لكتابهم نفسه، وهل الذى يكذب من يصدقك يبقى مصدقًا لك؟؟...

ثم انظر بعد أن سجل القرآن على بنى إسرائيل أفحش الفحش وهو وضعهم البقر الذى هو مثل فى البلادة موضع المعبود الأقدس، وبعد أن وصف قسوة قلوبهم فى تأبيهم على أوامر الله مع حملهم عليها بالآيات الرهيبة. بعد كل ذلك تراه لا يزيد على أن يقول فى أول الأمر: إن هذا «ظلم» ، وفى الثانية (بئسما) صنعتم، أذلك كل ما تقابل به هذه الشناعات؟ نعم إنهما كلمتان وافيتان بمقدار الجريمة لو فهمتا على وجههما، ولكن أين حدة الألم وحرارة الاندفاع فى الانتقام؟ بل أين الإقذاع والتشنيع؟ وأين الإسراف والفجور الذى تراه فى كلام الناس، إذا أحفظوا بالنيل من مقامهم.

تالله ما أعف هذه الخصومة وما أعز هذا الجناب، وأغناه عن شكر الشاكرين وكفر الكافرين، وتالله إن هذا الكلام لا يصدر عن نفس بشر»[1].

ثم أمر الله - تعالى - نبيه «ﷺ» أن يرد على اليهود فى دعواهم أن الجنة لن يدخلها إلا من كان على ملتهم فقال - تعالى - :

قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾

(١) عن كتاب ﴿النبأ العظيم﴾ من ص ١١٤ : ص ١٢٢ لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد الله دراز.

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

ومعنى الآيات الكريمة إجمالا :

قل - يا محمد - لأولئك اليهود الذين ادعوا أن الجنة لن يدخلها إلا من كان هودا : إن كانت الجنة مختصة بكم، وسالمة لكم دون غيركم، وليس لأحد سواكم فيها حق. فتمنوا الموت إن كنتم صادقين فى دعواكم، لأن من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق اليها وأحب الوصول إليها.

ثم أخبر الله أن هذا التمنى لن يحصل منهم فقال : ﴿ولن يتمنوه أبدًا﴾ أى الموت ﴿بما قدمت أيديهم﴾ أى بسبب ما ارتكبوه من كفر ومعصية ﴿والله عليم بالظالمين﴾ الذين وضعوا الأمور فى غير موضعها، فادعوا ما ليس لهم، ونفوه عمن هو لهم.

ثم أخبر القرآن بأن حرصهم على الحياة لا نظير له ولا مثيل فقال : ﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة﴾ متطاولة ﴿ومن الذين أشركوا﴾ أى : وأحرص عليها - أيضًا - من الذين أشركوا الذين لا يعرفون إلا الحياه الدنيا ﴿يود أحدهم لو يعمر ألف سنة﴾ أى يتمنى الواحد من هؤلاء اليهود أن يعيش السنين الكثيرة ولو تجاوزت الحدود المعقولة لعمر الإنسان والحال أنه ما أحد منهم بمزحزحه ومنجيه تعميره من العذاب ﴿والله بصير بما يعملون﴾ أى : لا يخفى عليه أعمالهم، فهو محاسبهم عليها، ومجازيهم بما يستحقونه من عقاب.

وقوله تعالى : ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ رد على زعمهم الباطل أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هودًا، والمراد بالدار الآخرة : الجنة ونعيمها، ومعنى « خالصة » سالمة لكم مختصة بكم، لا يشارككم فيها أحد من الناس.

قال الإمام ابن جرير : « يقال : خلص لى فلان بمعنى صار لى وحدى وصفا لى، ويقال منه خلص هذا الشىء، فهو يخلص خلوصًا وخالصة، والخالصة مصدر مثل العافية. . »[1].

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٤٢٦.

وقوله تعالى : ﴿فتمنوا الموت﴾ التمنى هو ارتياح النفس ورغبتها القوية فى الشىء. بحيث توده وتحب المصير إليه، وهو يستعمل فى المعنى القائم بالقلب كما بينا، ويستعمل فى اللفظ الدال على هذا المعنى، كأن يقول الإنسان بلسانه، ليتنى أحصل على كذا.

والاستعمال الثانى هو المراد بقوله تعالى : ﴿فتمنوا الموت﴾ أى اذكروا بألسنتكم لفظًا يدل على أنكم تحبون الموت وترغبون فيه. وإنما قلنا إن ذلك هو المراد من الآية لأن المعنى الكائن بالقلب لا يعرفه أحد سوى الله - تعالى - والتحدى لا يقع بتحصيل المعانى القائمة بالضمائر والقلوب.

ومعنى الآية الكريمة. قل يا محمد لليهود : إن كانت الجنة خاصة بكم، ولا منازع لكم فيها ولا مزاحم كما تزعمون، فتمنوا الموت بألسنتكم لكى تظفروا بنعيمها الدائم، إن كنتم صادقين فى دعواكم أنها خالصة لكم، وإلا فإنكم لا تكونون صادقين فى دعواكم، إذ لا يعقل أن يرغب الإنسان عن السعادة المحضة الدائمة المضمونة له فى الآخرة، إلى سعادة ممزوجة بالشقاء فى الدنيا.

قال الإمام الرازى : (وبيان هذه الملازمة أن نعم الدنيا قليلة حقيرة بالقياس إلى نعم الآخرة. ثم إن نعم الدنيا على قلتها كانت منغصة عليهم بسبب ظهور محمد ﷺ ومنازعته معهم، بالجدال والقتال، ومن كان فى النعم القليلة المنغصة. ثم تيقن أنه بعد الموت لابد أن ينتقل إلى تلك النعم العظيمة، فإنه لابد أن يكون راغبًا فى الموت، لأن تلك النعم العظيمة مطلوبة ولا سبيل إليها إلا بالموت وحيث كان الموت يتوقف عليه المطلوب وجب أن يكون هذا الإنسان راضيًا بالموت متمنيًا له، فثبت أن الدار الآخرة لو كانت خالصة لهم، لوجب أن يتمنوا الموت. ثم إن الله - تعالى - أخبر أنهم ما تمنوا الموت، بل لن يتمنوه أبدًا، وحينئذ يلزم قطعًا بطلان ادعائها فى قولهم : «إن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس»[(١)].

وتحديهم بتمنى الموت يكون بأن يقولوا بألسنتهم ليتنا نموت، أو يقولوا ما فى معنى هذه الكلمة كما أشرنا إلى ذلك سابقًا، وهذا رأى جمهور المفسرين.

وروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن ذلك يكون عن طريق المباهلة، بأن يحضروا مع المؤمنين فى صعيد واحد، ثم يدعو الفريقان بالموت على الكاذب منهما.

ويبدو لنا أن الرأى الأول أرجح لأنه أقرب إلى موافقة اللفظ الذى نطقت به الآية وأقرب أيضًا إلى معناها. إذ ليس فى الآية إشارة ما إلى طلب المباهلة، والقرآن حينما دعا إليها نصارى

(١) تفسير الرازى جـ ١ ص ٤٣٣.

نجران، جاء اللفظ بها صريحًا فى قوله تعالى: ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم، ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾[1].

ثم أخبر - سبحانه - بأن هؤلاء اليهود لن يتمنوا الموت أبدًا بسبب ما فعلوا من شرور فقال تعالى: ﴿ولن يتمنوه أبدًا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين﴾.

أى: لا يتمنى اليهود الموت أبدًا بسبب ما قدمت أيديهم من آثام، والله - عز وجل - لا تخفى عليه خافية من سيئاتهم واعتداءاتهم بل هو سيسجلها عليهم، ويجازيهم عليها الجزاء الذى يستحقونه، والآية الكريمة خبر من الله - تعالى - عن اليهود بأنهم يكرهون الموت، ويمتنعون عن الإجابة إلى ما دعوا إليه من تمنيه، لعلمهم بأنهم إن فعلوا فالموت نازل بهم، وذلك لأن رسول الله ﷺ لم يخبرهم خبرًا إلا كان حقًا كما أخبر فهم يحذرون أن يتمنوا الموت، خوفًا من أن يحل بهم عقاب الله بما كسبت أيديهم من الذنوب.

وقد صح من عدة طرق عن ابن عباس أنه قال: «لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه».

وقال ابن جرير فى تفسيره: «وبلغنا أن النبى ﷺ قال: «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا؛ ولرأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلا ولا مالا» قال حدثنا بذلك أبو كريب، حدثنا زكريا بن عدى، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن عبد الكريم عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ[2].

وقال الإمام ابن كثير: ورواه الإمام أحمد عن اسماعيل بن يزيد الرقى حدثنا فرات عن عبد الكريم به»[3].

وقال صاحب الكشاف: قوله: ﴿ولن يتمنوه أبدًا﴾ من المعجزات لأنه إخبار بالغيب وكان كما أخبر به، كقوله تعالى: ﴿ولن تفعلوا﴾ فإن قلت: ما أدراك أنهم لم يتمنوا الموت: قلت لو تمنوا لنقل ذلك عنهم كما نقلت سائر الحوادث، ولكان ناقلوه من أهل الكتاب وغيرهم من أولى المطاعن فى الإسلام أكثر من الذر وليس أحد منهم نقل عنه ذلك»[4].

ويكفى فى تحقيق هذه المعجزة، ألا يصدر تمنى الموت عن اليهود الذين تحداهم النبى ﷺ بذلك، وهم الذين كانوا يضعون العراقيل فى طريق دعوته، ويصرون على جحود نبوته؛ فلا يقدح فى هذه المعجزة أن ينطق يهودى بعد العهد النبوى بتمنى الموت وهو حريص على الحياة، لأن المعنيين بالتحدى هم اليهود المعاصرون للعهد النبوى.

(١) آل عمران الآية ٦١.
(٢) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٤٢٧.
(٣) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٤٢٧.
(٤) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٢٥.

وقوله تعالى : ﴿والله عليم بالظالمين﴾ وارد مورد التهديد والوعيد لهم وكان اليهود ظالمين بسبب ما قدمت أيديهم وبسبب كونهم قد كذبوا على الله فى دعواهم أن الجنة لا يدخلها إلا من كان منهم .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بأن هؤلاء اليهود الذين يزعمون أن الجنة خالصة لهم فى غاية الحرص على الحياة فقال تعالى : ﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون﴾ .

ومعنى الآية الكريمة : ولتجدن - يا محمد - أولئك اليهود - الذين يزعمون أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس - لتجدنهم أحب الناس للحياة، وأحرصهم عليها، وأشدهم كراهية للموت « وليس ذلك عندما يكونون متمتعين بالطمأنينة والعافية فقط بل هم كذلك حتى ولو زالت عنها كل معانى الراحة والطمأنينة، فهم أحرص عليها حتى من المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث، والذين يعتبرون نعيمهم الأكبر هو ما يتمتعون به من اللذائذ فى هذه الدنيا، وهم فى حرصهم على الحياة يتمنون أن تطول أعمارهم دهورًا طويلة، لا يصل إليها خيال أحد ممن يحرصون عليها كما قال تعالى : ﴿يود أحدهم لو يعمر ألف سنة﴾. وبذلك تكون الآية الكريمة قد كذبتهم فى دعواهم أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس لأن الأمر لو كان كما يزعمون لرحبوا بالانتقال إليها، ولكنهم لا يحبون الموت ولا يكاد يخطر ببالهم، ويحرصون كل الحرص على البقاء حتى مع سوء الحالة ورذالة العيش، كما يشعر بذلك التنكير فى قوله تعالى ﴿على حياة﴾ .

والمراد بالناس جميعهم، وأفعل التفضيل فى « أحرص » على بابه، لأن الحرص على الحياة غريزة فى البشر إلا أنهم متفاوتون فيه قوة وكيفية وأسبابًا، كما قال الشاعر :

أرى كلنا يهوى الحياة بسعيه ... حريصًا عليها مستهامًا بها صبا
فحب الجبان النفس أورده التقى ... وحب الشجاع النفس أورده الحربا

فالناس جميعًا وإن كانوا يشتركون مع اليهود فى الحرص على الحياة، إلا أن اليهود يزيدون على سائر الناس أنهم أحرصهم، وأنهم من أجل حرصهم عليها يضحون بدينهم وبكرامتهم وبكل شيء .

ونكر - سبحانه - الحياة التى يحرصون عليها، زيادة فى تحقيرهم، فكأنه - سبحانه - يقول : إنهم شديدو الحرص على الحياة، ولو كانت حياة بؤس وشقاء، وللإشعار بأن ما يهمهم

هو مطلق حياة كيفما كانت، بصرف النظر عن العزة والكرامة، فمن أمثال اليهود المشهورة «الحياة وكفى».

ولا شك أن شدة التهالك على الحياة، تؤدى إلى الجبن، واحتمال الضيم، وتجعل الأمة التى تنتشر فيها هذه الرذيلة لا تفرق بين الحياة الكريمة والحياة الذليلة.

وقوله تعالى: ﴿ومن الذين أشركوا﴾ عطف على الناس، لأنه لما كان قوله تعالى: ﴿أحرص الناس﴾ فى معنى: أحرص من جميع الناس صح أن يراعى المعنى، فيكون قوله: ﴿ومن الذين أشركوا﴾ معطوف عليه، فيكون المعنى: أحرص من جميع الناس، وأحرص من الذين أشركوا على الحياة.

والذين أشركوا، هم الذين جعلوا لله شركاء وإنما أفردوا بالذكر مع أنهم من الناس، مبالغة فى توبيخ اليهود وذمهم، لأنهم إذا زاد حرصهم على الحياة - وهم أهل كتاب - على المشركين الذين لا كتاب لهم ولا يدينون ببعث أو نشور كان ذلك دليلا على هوان نفوسهم، وابتذال كرامتهم وعدم اعتدادهم بوصايا كتبهم التى تنهاهم عن الحرص على الحياة الذليلة.

قال صاحب الكشاف: «وفيه توبيخ عظيم، لأن الذين أشركوا لا يؤمنون بعاقبة ولا يعرفون إلا الحياة الدنيا، فحرصهم عليها لا يستبعد لأنها جنتهم، فإذا زاد عليها فى الحرص من له كتاب وهو مقر بالجزاء، كان حقيقًا بأعظم التوبيخ، فإن قلت: لم زاد حرصهم على حرص المشركين؟ قلت: لأنهم علموا أنهم صائرون إلى النار لا محالة والمشركون لا يعلمون ذلك»[1].

ثم بين - سبحانه - مظهرا من مظاهر حرصهم على الحياة فقال تعالى: ﴿يود أحدهم لو يعمر ألف سنة﴾ أى يتمنى الواحد منهم أن يعيش دهورًا كثيرة، ليس من عادة الناس أن يحبوا بلوغها، لأنها تؤدى بهم إلى أرذل العمر، وعدم طيب العيش.

فالجملة الكريمة مستأنفة لإظهار مغالاتهم فى التهالك على الدنيا ولتحقيق عموم النوعية فى الحياة المنكرة، ولدفع ما يظنه بعض الناس من أن حرصهم على الحياة مهما اشتد فلن يصل بهم إلى تمنى أن يعيش الواحد منهم ألف عام، أو أكثر، فجىء بهذه الجملة الكريمة. لتحقيق أن تعلقهم بالدنيا يشمل حتى هذه السن المتطاولة، التى لا هناء فيها ولا راحة، والتى استعاذ من بلوغها المؤمنون.

ثم بين - سبحانه - أن تعميرهم الطويل لن ينجيهم من العقوبة، لأن الموت لا يتركهم مهما

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٣٥.

طال عمرهم، فقال تعالى: ﴿وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر﴾ أى: وما أحد منهم بمبعده تعميره عن العذاب المعد له، ولا بمنجيه منه.

والجملة الكريمة فيها بيان مصيرهم المحتوم، وقطع لحبال مطامعهم، لأن الموت سيلحقهم مهما بلغ عمرهم، وسيلقون جزاءهم على سوء صنيعهم.

وفى التعبير ﴿بمزحزحه﴾ أشارة إلى أن طول عمرهم، ليس له أى أثر فى تخفيف العذاب عنهم، وقوله: ﴿والله بصير بما يعملون﴾ تهديد ووعيد لهم لأنه - سبحانه - عليم بأعمالهم، محيط بما يخفون وما يعلنون، وسيجازيهم على كل ذلك بما يستحقون.

ومن هذا العرض للآيات الكريمة نرى أنها قد ردت على اليهود فى دعواهم أن الجنة خالصة لهم، ردًا يبطل حجتهم، ويفضح مزاعمهم، ويكبت نفوسهم، ويخرس ألسنتهم، ويعلن أن الجنة إنما هى لمن أسلم وجهه لله وهو محسن، وهم ليسوا من هذا النوع من الناس ولذا حرصوا على الحياة وفزعوا من الموت، لأنهم يعلمون أن من ورائهم النار وبئس القرار بسبب ما ارتكبوا من سيئات، واقترفوا من أكاذيب.

ثم ساق القرآن بعد ذلك لونًا عجيبًا من ألوان رذائل اليهود وهو مجاهرتهم بالعداوة لأمين الوحى جبريل - عليه السلام - فقال - تعالى -:

قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾

فهاتان الآيتان تكشفان عن رذيلة غريبة حقًا من رذائل اليهود وهى عداوتهم لملك من ملائكة الله، لا يأكل مما يأكلون، ولا يشرب مما يشربون وإنما هو من الملائكة المقربين، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وإذا فليس هناك مقتض لعداوته، فلماذا هذا التصريح منهم ببغضه وكراهيته؟

لقد سمعوا أن جبريل - عليه السلام - ينزل بالوحى من عند الله على محمد ﷺ وهم

يحسدونه على النبوة، فلج بهم الحقد والغيظ إلى أن أعلنوا عن عدائهم لجبريل - أيضًا - وهذه حماقة وجهالة منهم، لأن جبريل - عليه السلام - نزل بالخير لهم فى دينهم وفى دنياهم. ولكن الحقد والحسد إذا استوليا على النفوس جعلاها لا تفرق بين الخير والشر.

ومعنى الآيتين الكريمتين، قل - يا محمد - لهؤلاء اليهود الذين أعلنوا عداءهم لجبريل أنه لا وجه لعداوته لأنه لم ينزل بالقرآن من تلقاء نفسه وإنما نزل على قلبك بأمر الله ليكون مؤيدًا لما نزل قبله من الكتب السماوية وليكون هداية إلى طريق السعادة وبشارة للمؤمنين بالجنة، وقل لهم كذلك من كان معاديًا لله أو لملك من ملائكته أو لرسول من رسله، فقد كفر وباء بغضب من الله، ومن غضب الله عليه، فجزاؤه الخزى وسوء المصير.

قال الإمام ابن جرير: (أجمع أهل العلم بالتأويل جميعًا، على أن هذه نزلت جوابًا ليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وميكائيل ولى لهم)(١).

وروى البخارى فى صحيحه - عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال: سمع عبد الله بن سلام بقدوم النبى ﷺ وهو فى أرض يخترف - أى يجنى ثمارها - فأتى النبى ﷺ فقال له: إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى، فيم أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة، وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: أخبرنى بهن جبريل آنفًا. قال: جبريل؟ قال: نعم قال ذلك عدو اليهود من الملائكة - فقرأ النبى ﷺ هذه الآية: ﴿قل من كان عدوًا لجبريل فإنه نزله على قلبك...﴾ الآية ثم قال: أما أول أشراط الساعة، فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب! وأما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة نزعت فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله. يا رسول الله: إن اليهود قوم بهت، وإنهم إن يعلموا بإسلامى قبل أن تسألهم يبهتونى، فجاءت اليهود فقال النبى ﷺ: أى رجل فيكم عبد الله؟ قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا: قال «أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟ فقالوا: أعاذه الله من ذلك؟ فخرج عبد الله فقال: «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله»، فقالوا: شرنا وابن شرنا، وانتقصوه، قال: فهذا الذى كنت أخاف يا رسول الله(٢).

وأخرج الإمام أحمد عن ابن عباس: «أن اليهود بعد أن سألوا النبى ﷺ أسئلة أجابهم عنها، قالوا صدقت فحدثنا من وليك من الملائكة فعندها نجامعك أو نفارقك. قال: وليى جبريل، لم يبعث الله نبيًا قط إلا وهو وليه، قالوا: فعندها نفارقك، ولو كان وليك سواه من

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٤٣١.

(٢) صحيح البخارى كتاب التفسير باب قوله تعالى: «قل من كان عدو لجبريل» جـ ٦ ص ٢٣.

الملائكة لتابعناك وصدقناك، قال: فما يمنعكم أن تصدقوه؟ قالوا: إنه عدونا، فأنزل الله - تعالى - قوله: ﴿قل من كان عدوًا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقًا لما بين يديه...﴾ الآيات.

وفى حديث للإمام أحمد والترمذى والنسائى «قال اليهود للنبى ﷺ بعد أن سألوه عن أشياء أجابهم عنها إنما بقيت واحدة وهى التى نتابعك إن أخبرتنا بها، إنه ليس من نبى إلا وله ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال جبريل - عليه السلام - قالوا: جبريل ذلك الذى ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا، لو قلت ميكائيل الذى ينزل بالرحمة والقطر والنبات لكان. فأنزل الله - تعالى -: ﴿قل من كان عدوًا لجبريل﴾ الآية(١).

فيؤخذ من هذه الأحاديث وما فى معناها أن اليهود فى عهد النبى ﷺ كانوا يجاهرون بعداوتهم لجبريل - عليه السلام - وأن هذه المجاهرة بالعداوة، قد تكررت منهم فى مواقف متعددة بينهم وبين النبى ﷺ وأن الذى حملهم على ذلك هو حسدهم له، وغيظهم من جبريل، لأنه ينزل بالوحى عليه.

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: «ومن عجيب تهافت اعتقادهم أنهم يثبتون أنه ملك مرسل من عند الله، ومع ذلك يبغضونه، وهذا أحط درجات الانحطاط فى العقل والعقيدة، ولاشك أن اضطراب العقيدة من أكبر مظاهر انحطاط الأمة لأنه ينبىء عن تضافر آرائهم على الخطأ والأوهام»(٢).

وفى أمر اللرسول ﷺ بلفظ (قل) كى يرد على اليهود، تثبيت له، وتطمين لنفسه وتوبيخ لهم على معاداتهم لأمين الوحى، وهو جبريل - عليه السلام -.

وقوله تعالى: ﴿من كان عدوًا لجبريل﴾، شرط عام قصد الإتيان به ليعلموا أن الله - تعالى - لا يعبأ بهم ولا بغيرهم ممن يعادى جبريل، إن وجد معاد آخر له سواهم.

وقوله تعالى: ﴿على قلبك﴾ زيادة تقرير للتنزيل، ببيان محل الوحى، وإشارة إلى أن السبب فى تمكنه ﷺ من تلاوة القرآن الكريم، وإبلاغه للناس، ثباته فى قلبه.

وقوله تعالى: ﴿فإنه نزله على قلبك بإذن الله﴾ معناه: فلا موجب لعداوته. لأنه نزل القرآن على قلبك يا محمد بإذن الله وأمره. وإذًا فعداوته عداوة لله فى الحقيقة والواقع، ومن هنا يتبين أن هذه الجملة تعليل لجواب الشرط وقائمة مقامه.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٢٩.

(٢) تفسير التحرير والتنوير جـ ١ ص ٢٢٦.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف استقام قوله تعالى : ﴿فإنه نزله على قلبك﴾ جزاء للشرط؟ قلت : فيه وجهان :

أحدهما : إن عادى جبريل أحد من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته، حيث نزل كتابًا مصدقًا للكتب التى بين يديه، فلو أنصفوا لأحبوه وشكروا له صنيعه فى إنزاله ما ينفعهم ويصحح المنزل عليهم.

والثانى : إن عاداه أحد فالسبب فى عداوته أنه نزل عليك القرآن مصدقًا لكتابهم، وموافقًا له، وهم كارهون للقرآن ولموافقته لكتابهم، ولذلك يحرفونه ويجحدون موافقته له. كقولك : «إن عاداك فلان فقد آذيته وأسأت إليه»[1].

وقوله - تعالى - : ﴿بإذن الله﴾ أى بأمره، وهو توبيخ لهم على عداوتهم لجبريل، الذى أنزل بالقرآن بإذن الله، لا من تلقاء نفسه، وهذه حجة أولى عليهم.

وقوله تعالى : ﴿مصدقًا﴾ حال من الضمير العائد على القرآن الكريم، فى قوله ﴿نزله﴾ أى أنزله حالة كونه مؤيدًا للكتب السماوية التى قبله ومن بينها التوراة، وهذه حجة ثانية عليهم.

ثم عززها بثالثة ورابعة - فقال تعالى : ﴿وهدى وبشرى للمؤمنين﴾ أى هذا القرآن الذى نزل مصدقًا لكتبكم، هو هاد إلى طريق الفلاح والنجاح، والعاقل لا يرفض الهداية التى تأتيه وتنقذه مما هو فيه من ضلالات ولو كان الواسطة فى مجيئها عدوًا له، وهو - أيضًا - مبشر للمؤمنين برضا الله تعالى - عنهم فى الدنيا والآخرة، أما الضالون فقد أنذرهم بسوء العقبى فعليكم أن تتبعوا طريق الإيمان لتكونوا من المفلحين وبذلك يكون القرآن قد أقام حججًا متعددة على حماقتهم وعنادهم وجحودهم للحق بعد ما تبين. وتكون الآية الكريمة قد مدحت القرآن بخمس صفات.

أولها : أنه منزل من عند الله وبإذنه.

وثانيها : أنه منزل على قلب النبى ﷺ.

وثالثها : أنه مصدق لما نزل قبله من الكتب السماوية.

ورابعها: أنه هاد إلى الخير أبلغ هدى وأقواه.

وخامسها : أنه بشارة سارة للمؤمنين.

ثم بين - تعالى - حقيقة الأمر فيمن يعادى جبريل وأن عداوته عداوة لله - تعالى - فإنه أمين وحيه إلى رسله ليس له فى ذلك شىء إلا أن يبلغ ما أمر به فقال تعالى : ﴿من كان عدوًا لله

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٢٦.

وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين﴾.

والمعنى :. أن عداوة جبريل عداوة لله، وأن عداوة محمد ﷺ عداوة لله - أيضًا - فالإيمان بالله وملائكته ورسله وحدة لا تتجزأ فمن كفر بواحد منهم فهو كافر بالجميع.

ومعنى عداوة العبد لله : كفره به ومخالفته لأوامره ونواهيه ومعنى عداوته لملائكته : إنكار فضلهم ووصفهم بما ينافى عصمتهم ورفعة منزلتهم. ومعنى عداوته لرسله : تكذيبه لهم وتعمده إلحاق الأذى بهم ومعنى عداوة الله لعبده : غضبه سبحانه - عليه، ومجازاته له على كفره. وصدر - سبحانه - الكلام باسمه الجليل تفخيمًا لشأن ملائكته ورسله وإشعارًا بأن عداوتهم إنما هى عداوة له - تعالى -.

وأفرد - سبحانه - جبريل وميكال بالذكر، مع اندراجهما تحت عموم ملائكته، لتصريح اليهود بعداوة جبريل وتعظيم ميكائيل، فأفردهما بالذكر للتنبيه على أن المعاداة لأحدهما معاداة للجميع، وأن الكفر بأحدهما كفر بالآخر.

قال ابن جرير : «فإن قال قائل : أو ليس جبريل وميكائيل من الملائكة؟ قيل بلى، فإن قال : فما معنى تكرير ذكرهما بأسمائهما فى الآية فى جملة أسماء الملائكة؟ قيل : معنى إفراد ذكرهما بأسمائهما أن اليهود لما قالت جبريل عدونا وميكائيل ولينا، وزعمت أنها كفرت بمحمد ﷺ من أجل أن جبريل صاحبه، أعلمهم الله - تعالى - أن من كان لجبريل عدوًا فإن الله عدو له وأنه من الكافرين، فنص عليه باسمه وعلى ميكائيل باسمه، لئلا يقول منهم قائل : إنما قال الله : من كان عدوًا لله وملائكته ورسله، ولسنا لله ولا لملائكته ولا لرسله أعداء، لأن الملائكة اسم عام محتمل خاصًا، وجبريل وميكائيل غير داخلين فيه، وكذلك قوله ورسله فلست يا محمد داخلا فيهم، فنص الله - تعالى - على أسماء من زعموا أنهم أعداؤه بأعيانهم ليقلع بذلك تلبيسهم على أهل الضعف منهم، ويحسم تمويهم أمورهم على ضعاف الإيمان»(1).

وقال - سبحانه - فى ختام الآية الكريمة ﴿فإن الله عدو للكافرين﴾ ولم يقل فإن الله عدوٌ له أو لهم، ليدل على أن عداوة كل واحد ممن اشتملت الآية الكريمة على ذكرهم كفر وجحود، وليكون اندراجهم تحت هذا الحكم العام من باب إثبات الحكم بالدليل، وللإشعار بأن عداوة الله - تعالى - لهم سببها كفرهم فإن الله لن يعادى قومًا لذواتهم ولا لأنسابهم، وإنما يكره لهم الكفر ويعاقبهم عليه معاقبة العدو للعدو.

قال صاحب المنار : «فهذه الآية الكريمة وعيد لهم بعد بيان فساد العلة التى جاءوا بها، فهم لم يدعوا عداوة هؤلاء كلهم، لكنهم كذلك فى نفس الأمر، فأراد أن يبين حقيقة حالهم فى

---

(1) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٤٤٩.

الواقع، وهى أنهم أعداء الحق وأعداء كل من يمثله ويدعو إليه، فالتصريح بعداوة جبريل كالتصريح بعداوة ميكائيل الذى يزعمون أنهم يحبونه. وأنهم كانوا يؤمنون بالنبى ﷺ لو كان هو الذى ينزل بالوحى عليه، ومعاداة القرآن الكريم كمعاداة سائر الكتب الإلهية لأن المقصود من الجميع واحد فقولهم السابق وحالهم يدلان على معاداة كل من ذكر. وهذا من ضروب إيجاز القرآن الكريم التى انفرد بها»(١).

وبهذا تكون الآيتان الكريمتان قد دمغتا اليهود بالكفر والجهالة، لمعاداتهم لجبريل وتكذيبهم لمحمد ﷺ وبينتا ما عليه أمرهم من خزى وهوان بسبب هذه العداوة التى لا باعث عليها إلا الحسد، وكراهية أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده.

ثم أخذ القرآن فى تثبيت فؤاد النبى ﷺ وتسليته عما يفعله معه اليهود فقال تعالى:

وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾

أى: لقد أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دالة على معانيها وعلى كونها من عند الله، وبينا لك فيها علوم اليهود، ومكنونات سرائرهم وأخبارهم، وما حرفه أوائلهم وأواخرهم من كتبهم، وما بدلوه من أحكامهم قال تعالى:

﴿إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون﴾.

وإن هذه الآيات التى أنزلها الله إليك يا محمد، ما يكفر بها، ويجحد صدقها إلا المتمردون من الكفرة، الخارجون على حدود الله المنتهكون لحرماته.

والهمزة فى قوله ﴿أوكلما﴾ للإنكار، والواو للعطف على محذوف يقتضية المقام: أى أكفروا بالآيات البينات، وكلما عاهدوا عهدًا نبذه فريق منهم، أى: طرحوه ونقضوه من النبذ وهو إلقاء الشىء وطرحه لقلة الاعتداد به ومنه سمى النبيذ وهو التمر والزبيب إذا طرحا فى الماء وهو حقيقة فى الأجرام وإسناده إلى العهد مجاز.

(١) تفسير المنار جـ١ ص ٣٩٤.

والضمير فى قوله : ﴿منهم﴾ يعود لليهود الذين اشتهروا بنقض العهود وقوله : ﴿بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ يفيد الترقى إلى الأغلظ فالأغلظ، أى أن فريقًا منهم عرف بنقضه للعهد، وأكثرهم عرف بكفره وجحده للحق.

قال صاحب الكشاف، واليهود موسومون بالغدر ونقض العهود، وكم أخذ الله الميثاق منهم ومن آبائهم فنقضوا، وكم عاهدوا رسول الله فلم يفوا ﴿الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لايتقون﴾.(١)

وقال الرازى : «والمقصود من هذا الاستفهام الإنكار وإعظام ما يقدمون عليه لأن مثل ذلك إذا قيل بهذا اللفظ كان أبلغ فى التوبيخ والتبكيت. ودل بقوله : ﴿أوكلما عاهدوا﴾ على عهد بعد عهد نبذوه ونقضوه، بل يدل على أن ذلك كالعادة منهم، فكأنه - تعالى - أراد تسلية النبى ﷺ عند كفرهم بما أنزل عليه من الآيات، بأن بين له أن ذلك ليس ببدع منهم، بل هو سجيتهم وعادتهم وعادة سلفهم. . . »(٢)

ثم تحدث القرآن بعد ذلك عن نبذ اليهود لكتاب الله، واتباعهم للسحر والأوهام، فقال - تعالى - :

وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٢٧.
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١ ص ٤١٧.

فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

والمعنى: وحين جاء اليهود وأحبارهم رسول من عند الله، وهو محمد ﷺ الذى يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة، طرح فريق كبير منهم تعاليم التوراة التى تشهد بصدقه، وراء ظهورهم، حتى لكأنهم يجهلون أنها من عند الله، واتبعوا ما قصته واختلقته الشياطين من السحر والأوهام والمفتريات على عهد سليمان - عليه السلام - ومن هذه المفتريات والأكاذيب زعمهم أن سليمان - عليه السلام - كان ساحرًا، وما تم له ملكه العريض، ولا ظهرت على يديه المعجزات الباهرة من تسخير الجن والريح إلا بهذا.

وقد أكذبهم الله - تعالى - فى هذا الزعم بقوله: ﴿وما كفر سليمان﴾ أى: بتعلم السحر والعمل به، كما يزعم هؤلاء «ولكن الشياطين» هم الذين «كفروا» بتعلم السحر وتعليمه للناس، وتعليمهم - أيضًا - ضربًا آخر منه وهو ﴿ما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت﴾ من وصف السحر وماهيته وكيفية الاحتيال به، ولقد كان الملكان لا يعلمان أحدا من الناس السحر حتى ينصحاه بقولهما: إن السحر الذى نعلمك إياه.. القصد منه التمييز بين المطيع والعاصى، وبين السحر والمعجزة، فحذار أن تستعمله فيما نهيت عنه فتكون من الكافرين، بخلاف الشياطين فإنهم تعلموه وعلموه لغيرهم لاستعماله فى الشرور والآثام، ولإحداث التفرقة بين الزوجين، ولكن هذا السحر الذى يتعاطاه الشياطين وأتباعهم لن يضر أحدًا بذاته، وإنما ضرره يتأتى إذا أراد الله تعالى - ذلك وشاءه، ولقد علم أولئك النابذون لكتاب الله المؤثرون عليه اتباع السحر، أن من استبدل السحر بكتاب الله، فليس له نصيب من نعيم الجنة، ﴿ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾ علمًا نافعًا. ﴿ولو أنهم آمنوا﴾

بالله ورسوله محمد ﷺ كما أرشدتهم إليه التوراة، ﴿واتقوا﴾ المعاصى والاثام لأثيبوا مثوبة من عند الله هى خير لهم مما آثروه واختاروه على كتاب الله ﴿لو كانوا يعلمون﴾.

وقوله تعالى : ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم﴾ . . إلخ الآية.

بيان لما صدر عن اليهود من تكذيب للرسول ﷺ وطرح لتعاليم كتابهم التى أمرتهم باتباعه.

أخرج ابن جرير عن السُدى قال فى قوله تعالى : ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب : كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان﴾. أى لما جاءهم محمد ﷺ عارضوه بالتوراة فخاصموه بها. فاتفقت التوراة والقرآن، فنبذوا التوراة والقرآن وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت، فذلك قول الله ﴿كأنهم لا يعلمون﴾ أى كأن هؤلاء الذين نبذوا كتاب الله من علماء اليهود، فنقضوا عهد الله، لا يعلمون ما فى التوراة من الأمر باتباع محمد ﷺ وتصديقه[1].

وفى وصف الرسول بأنه آت من عند الله تعظيم له، ومبالغة فى انكار عدم إيمانهم به، وإغراء للناس جميعًا بالدخول فى دعوته، لأنه ليس رسولا من تلقاء نفسه، وإنما هو رسول من عند الله - تعالى -.

والمراد «بما معهم» التوراة. وتصديق الرسول ﷺ لها، معناه أن ما جاء به من تعاليم موافق لها فى أصول الدين، وأن ما جاءت به من صفات للرسول المنتظر بعد عيسى - عليه السلام - لا تنطبق إلا عليه ﷺ.

وعبر - سبحانه - عن تركهم العمل بالكتاب الذى نزل لهدايتهم بالنبذ، مبالغة فى عدم اعتدادهم، وتناسيهم إياه، لأن أصل النبذ طرح وإلقاء ما لا يعتد به.

وفى إسناد النبذ إلى فريق من الذين أوتوا الكتاب، سخرية بهم، واستجهال لهم، لأن الذين أوتوه هم الذين نبذوه، ولو كان النابذون من المشركين لكان لهم بعض العذر لجهلهم، ولكن أن يكون التاركون للنور هم الذين أوتوه وأكرموا به، فذلك هو الضلال المبين.

والمراد من ﴿كتاب الله﴾ الذى نبذوه لما جاءهم رسول الله - ﷺ - التوراة، لأنهم لو كانوا مؤمنين بها حقًا، لاتبعوا الرسول ﷺ الذى ذكرت صفاته فيها، والذى وجب عليهم بمقتضى كتابهم التوراة الإيمان به، فهم بجحودهم لنبوته، يكونون جاحدين لتوراتهم التى شهدت له بالصدق.

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٤٤٣ بتصرف وتلخيص.

وقيل المراد بكتاب الله الذى نبذوه القرآن، لأنهم لم يؤمنوا به، بل تركوه بعد سماعه، وتناسوا ما اشتمل عليه من هداية وإرشاد، مع أنه كان من المتحتم عليهم أن يتلقوه بالقبول.

والذى نراه أن الرأى الأول أرجح، لأن النبذ يقتضى سابقة الأخذ، فى الجملة. وهو متحقق بالنسبة للتوراة، بخلاف القرآن الكريم فإنهم لم يسبق لهم أن تمسكوا به، ولأن مذمتهم تكون أشد وجحودهم أكثر، إذاً كان المراد بالكتاب الذى نبذوه، هو عين الكتاب الذى نزل لهدايتهم وآمنوا به وهو التوراة.

وقوله تعالى: ﴿وراء ظهورهم﴾ كناية عن إعراضهم الشديد عنه، وتوليهم عن تعاليمه.

تقول العرب: جعل هذا الأمر وراء ظهره، أى تولى عنه معرضًا، لأن ما يجعل وراء الظهر لا ينظر إليه، ففى هذه الجملة الكريمة تصوير صادق لإعراضهم عن كتاب الله - تعالى - حيث شبه - سبحانه - تركهم لكتابه، بحالة شيء يرمى به وراء الظهر استهانة به. وفى إضافة الوراء إلى الظهر، تأكيد لنبذ ما ترك بحيث لا يؤخذ بعد ذلك.

قال الأستاذ الإمام: ليس المراد بنبذ الكتاب وراء ظهورهم أنهم طرحوه برمته، وتركوا التصديق به فى جملته وتفصيله. وإنما المراد أنهم طرحوا أجزاء منه وهو ما يبشر بالنبى ﷺ ويبين صفاته ويأمرهم بالإيمان به واتباعه. فهو تشبيه لتركهم إياه وإنكاره، بمن يلقى الشيء وراء ظهره حتى لا يراه فيتذكره، وترك الجزء منه كتركه كله، لأن ترك البعض يذهب بحرمة الوحى من النفس، ويجرىء على ترك الباقى[1]...

وقوله تعالى: ﴿كأنهم لا يعلمون﴾ جملة حالية، أى طرحوه وراء ظهورهم مشبهين بحال من لا يعلم منه شيئًا، ومن لا يعرف أنه كتاب الله.

وشبههم بمن لا يعلمون مع أنهم فى الواقع يعلمون أنه من عند الله - حق العلم - لأنهم نبذوه مكابرة وعنادًا، ولأنهم لم يعملوا بمقتضى علمهم ومن كان هذا شأنه فهو والجاهل سواء، فى جحود الحق والانغماس فى الآثام.

وقال - سبحانه -: ﴿كأنهم لا يعلمون﴾ بنفى الحال والاستقبال للإشعار بأنهم قوم لا أمل فى توبتهم وإنابتهم، بل هم تمر بهم الأيام، وتتوالى عليهم العظات، ومع ذلك لا يتوبون ولا يرجعون إلى الحق، فهم مستمرون على طرح كتاب الله فى كل وقت وآن، ومصممون على ذلك.

ثم حكى - سبحانه - لونًا آخر من زيغهم وضلالهم واتباعهم للأباطيل بعد أن وبخهم على

(١) تفسير المنار جـ١ ص ٣٤٦.

نبذهم لكتابه فقال تعالى : ﴿واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان﴾.

اتبعوا : من الاتباع وهو الأقتداء، والضمير فيه يعود على اليهود المعاصرين للنبى ﷺ.

وتتلو : من التلاوة بمعنى الاتباع أو القراءة، وقال الراغب : تلا عليه كذب عليه.

والشياطين : جمع شيطان، وهو كائن حى خلق من النار، ويطلق على الممتلىء شرًا من الأنس.

والمعنى : إن هؤلاء اليهود نبذوا كتاب الله، واتبعوا الذى كانت تتلوه وتقصه الشياطين على عهد ملك سليمان، وفى زمانه، من الأكاذيب والكفر ومن ذلك زعمهم أن ملكه قام على أساس السحر، وأنه ارتد فى أواخر حياته، وعبد الأصنام إرضاء لنسائه الوثنيات إلى غير ذلك من الأكاذيب التى ألصقوها به - عليه السلام - وهو برىء منها.

قال صاحب الكشاف : وقوله تعالى : ﴿على ملك سليمان﴾ أى على عهد ملكه وفى زمانه، وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع ثم يضمون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفقونها ويلقونها إلى الكهنة، وقد دونوها فى كتب يقرءونها ويعلمونها للناس، وفشا ذلك فى زمان سليمان - عليه السلام - حتى قالوا : إن الجن تعلم الغيب، وكانوا يقولون : ماتم لسليمان ملكه إلا بهذا العلم وبه يسخر الإنس والجن والريح التى تجرى بأمره[1].

وقوله تعالى : ﴿وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا﴾ معناه : وما كفر سليمان ولكن الشياطين هم الذين كفروا إذ تعلموا السحر وعلموه لغيرهم بقصد إضلالهم، وصرفهم عن عبادة - الله - تعالى - إلى عبادة غيره من المخلوقات.

ففى الجملة الكريمة تنزيه لسليمان - عليه السلام - عن الردة والشرك وتبرئة له من عمل السحر الذى كان يتعاطاه أولئك الشياطين وينسبونه إليه زورا وبهتانًا، ودلالة على أن ذلك السحر الذى نسبوه إليه وباشرته الشياطين نوع من الكفر.

وقد كان اليهود يعتقدون كفر سليمان، وأنه ارتد فى آخر عمره، وعبد الأصنام وبنى لها المعابد، وكانوا عندما يذكر النبى ﷺ سليمان بين الأنبياء يقولون : انظروا إلى محمد يخلط الحق بالباطل، يذكر سليمان مع الأنبياء، وإنما كان ساحرًا يركب الريح.

فإن قال قائل : ما الحكمة فى نفى الكفر عن سليمان مع أن صدر الآية لا يفيد أن أحدًا نسب إليه ذلك.

فالجواب : أن اليهود الذين نبذوا كتاب الله، واتبعوا ما تلته الشياطين من السحر أضافوا

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٢٢.

هذا السحر إلى سليمان، وقالوا إنه كان يسخر به الجن والإنس والريح، فأكذبهم الله - تعالى - بقوله: ﴿وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا﴾ كما بينا.

والضمير فى قوله تعالى: ﴿يعلمون الناس السحر﴾ يعود على الشياطين الذين افتروا الأكاذيب على سليمان - عليه السلام -.

ويجوز أن يعود على اليهود الذين نبذوا كتاب الله واتبعوا ما تلته الشياطين على سليمان.

قال الأستاذ الإمام: فى قوله تعالى ﴿ يعلمون الناس السحر﴾: وجهان:

أحدهما: أنه متصل بقوله تعالى: ﴿ولكن الشياطين كفروا﴾ أى: أن الشياطين هم الذين يعلمون الناس السحر.

والثانى: وهو الأظهر أنه متصل بالكلام عن اليهود وأن الكلام فى الشياطين قد انتهى عند قوله تعالى ﴿كفروا﴾ وانتحال اليهود لتعليم السحر أمر كان مشهورًا فى زمن التنزيل ولا يزالون ينتحلون ذلك إلى اليوم، أى أن فريقًا من اليهود نبذوا كتاب الله واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وههنا يقول القائل: بماذا اتبعوا أولئك الشياطين الذين كذبوا على سليمان فى رميه بالكفر وزعمهم أن السحر استخرج من كتبه التى كانت تحت كرسيه؟ فأجاب على طريق الاستئناف البيانى ﴿يعلمون الناس السحر﴾.

ونفى الكفر عن سليمان والصاقه بالشياطين الكاذبين ذكر بطريق الاعتراض، فعلم - أيضًا - أنهم اتبعوا الشياطين بهذه الفرية، وإنما كان القصد إلى وصف اليهود بتعلم السحر، لأنه من السيئات التى كانوا متلبسين بها، ويضرون بها الناس خداعًا وتمويها وتلبسًا[1].

وإنما أضاف الله - تعالى - إلى اليهود أنهم اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان خاصة مع أنه كان معروفًا قبل سليمان - عليه السلام - كما أخبر به القرآن عن سحرة فرعون، وإنما أضاف ذلك إليهم، لأن هذا كان هو الواقع منهم، ولأن سحر هؤلاء الشياطين الذين كانوا على عهد سليمان، كان مدونًا فى صحف اليهود من قديم، وتوارثه خلفهم عن سلفهم إلى أن وصل إلى من عاصر النبى ﷺ منهم ولأن سليمان - عليه السلام - أعطاه الله تعالى ملكًا واسعًا، وسخر له الإنس والجن والريح، فعزت الشياطين ذلك كله إلى تعلمه السحر.

و ﴿ما﴾ فى قوله تعالى: ﴿وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت﴾ موصولة، وهى معطوفة على السحر فى قوله تعالى: ﴿يعلمون الناس السحر﴾ أى يعلمون الناس السحر، ويعلمونهم الذى أنزل على الملكين.

---

(١) تفسير المنار جـ١ ص ٤٠١.

والذى أنزل عليهما هو وصف السحر وماهيته وكيفية الاحتيال به. ليعرفاه الناس فيجتنبوه، على حد قول الشاعر:

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه،

فالشياطين عرفوه فعملوا به، وعلموه للناس ليستعملوه فى الشرور والمآثم بينما المؤمنون عرفوه واستفادوا من الاطلاع عليه فتجنبوه[1].

هذا، واختصت بابل[2] بالإنزال، لأنها كانت أكثر البلاد عملا بالسحر، وكان سحرتها قد اتخذوا السحر وسيلة لتسخير العامة لهم فى أبدانهم وعقولهم وأموالهم، ثم جروهم إلى عبادة الأصنام والكواكب فحدث فساد عظيم، وعمت الأباطيل فألهم الله - تعالى - هاروت وماروت أن يكشفا للناس حقيقة السحر ودقائقه، حتى يعلموا أن السحرة الذين صرفوهم عن عبادة الله إلى عبادة الكواكب وغيرها قد خدعوهم وأضلوهم، وبذلك يعودون إلى الصراط المستقيم.

واللام فى ﴿الملكين﴾ مفتوحة فى القراءات العشر المتواترة، وقرىء شاذًا ﴿الملكين﴾ بكسر اللام.

قال بعض المفسرين: المراد بالملكين - بفتح اللام - رجلان صالحان اطلعا على أسرار السحر التى كانت تفعلها السحرة، فعلماها للناس ليحذراهم من الانقياد لتلبيسات الشياطين، وسميا ملكين مع أنهما من البشر لصلاحهما وتقواهما، ويؤيد هذا الرأى قراءة الملكين - بكسر اللام - وإن كانت شاذة:

وقال جمهور المفسرين: إنهما ملكان على الحقيقة أنزلهما الله - تعالى - ليعلما الناس السحر ابتلاء لهم، ليفضحا مزاعم السحرة الذين كانوا يدعون النبوة كذبا، ويسخرون العامة لهم ويخرجونهم إلى عبادة غير الله، (وهاروت وماروت) اسمان للملكين الذين أنزل عليهما السحر، وهما بدل أو عطف بيان للملكين.

---

(١) ويجوز أن تكون (ما) معطوفة على قوله تعالى: ﴿ما تتلو الشياطين﴾ والمعنى على هذا الرأى. واتبع اليهود بعد أن نبذوا كتاب الله السحر الذى تلته الشياطين على عهد سليمان واتبعوا كذلك السحر الذى أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وعلى هذا الرأى يكون قوله تعالى: ﴿ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر جملة معترضة بين المتعاطفين قصد بها تبرئة سليمان من السحر وإضافته إلى الشياطين، وبيان أنهم هم الذين تعلموه وعلموه الناس بقصد إضلالهم. هذا وفى إعراب (ما) فى قوله تعالى: (وما أنزل على الملكين) آراء أخرى إكتفينا عنها بما ذكرناه لوفاته بالغرض.

(٢) بابل: مدينة بالعراق ينسب اليها السحر والخمر.

وقوله تعالى : ﴿وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾ بيان لما كان،ينصح به الملكان من يريد تعلم السحر منهما. والجملة حالية من هاروت وماروت.

والفتنة، المراد بها هنا الابتلاء والاختبار، تقول : فتنت الذهب فى النار، أى : اختبرته لتعرف جودته ورداءته.

والمعنى : أن الملكين لا يعلمان أحدًا من الناس السحر إلا وينصحانه بقولهما إن ما نعلمك إياه من فنون السحر الغرض منه الايتلاء والاختبار لتمييز المطيع من العاصى. فمن عمل به ضل وغوى، ومن تركه فهو على هدى ونور من الله، ولإظهار الفرق بين المعجزة والسحر. فحذار أن تستعمل ما تعلمته فيما نهيت عنه فتكون من الكافرين. كما كفر السحرة بنسبتهم التأثيرات إلى الكواكب وغيرها من المخلوقات.

فالمقصود من تعليم الملكين للناس السحر، فضح أمر السحرة الذين كثروا فى تلك الأيام، وادعوا مالم يأذن به الله، وإظهار الفرق بين المعجزة والسحر حتى يعلم الناس أن هؤلاء السحرة الذين قد يزعمون بمرور الأيام أنهم أنبياء ليسوا كذلك، وإنما هم أفاكون، وأخبروا على أنفسهم بطريق القصر بأنهم فتنة للمبالغة فى الاقرار بأنهما لا يملكان نفعًا ولا ضراً لأحد، وإنما هما فتنة محضة، وابتلاء من الله لعباده لتمييز المطيع من العاصى.

ثم بين - سبحانه - لونًا من السحر البغيض الذى استعمله أولئك السحرة فى الأذى فقال تعالى : ﴿فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾ أى فيتعلم بعض الناس من الملكين ما يحصل به الفراق بين المرء وزوجه.

فالجملة الكريمة تفريع عما دل عليه قوله تعالى قبل ذلك : ﴿وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة﴾ لأنه يقتضى أن التعليم حاصل، وأن بعض المتعلمين قد استعملوه فى التفريق بين الزوجين.

وخصص سبحانه هذا اللون من السحر بالنص عليه للتنبيه على شدة فساده. وعلى شناعة ذنب من يقوم به. لأنه تسبب عنه التفريق بين الزوجين اللذين جمعت بينهما أواصر المودة والرحمة.

والضمير فى قوله تعالى : ﴿فيتعلمون﴾ راجع لأحد، وصح عود ضمير الجمع عليه مع أنه مفرد، لوقوعه فى سياق النفى، والنكرة إذا وردت بعد نفى كانت فى معنى أفراد كثيرة، فصح أن يعود ضمير الجمع إليه كذلك.

ثم نفى - سبحانه - أن يكون السحر مؤثرًا بذاته فقال تعالى : ﴿وما هم بضارين به من

أحد إلا بإذن الله﴾ أى : أن أولئك السحرة لن يضروا أو ينفعوا أحدًا بسحرهم إلا بإذن الله وقدرته، فالسحر سبب عادى لما ينشأ عنه من الأضرار ويجوز أن يتخلف عنه مسببه إذا أذن الله بذلك.

والجملة الكريمة معترضة لدفع توهم أن يكون السحر مضرًا بذاته، بحيث لا يتخلف عنه الضرر متى تعاطاه الساحر.

والمراد ﴿بإذن الله﴾ هنا. تخليته - سبحانه - بين المسحور وضرر السحر، أى : إن شاء حصل الضرر بسبب السحر، وإن شاء منعه فلا يصيب المسحور منه شيء من الأذى.

وعبر - سبحانه - عن هذا المعنى بطريق القصر، مبالغة فى نفى أى تأثير للسحر بذاته، وإغراء للناس بتكذيب ما يزعمه السحرة من أن لهم قوى غيبية سوى الأسباب التى ربط الله بها المسببات، وإرشادًا لهم إلى حسن الاعتقاد، وسلامة اليقين.

ثم بين - سبحانه - أن أولئك المتعلمين السحر للأذى وللتفرقة بين المتحابين يتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم، فقال تعالى : ﴿ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم﴾ أى : أن أولئك الذين تعلموا السحر ليضروا به غيرهم، ولم يتعلموه ليفرقوا به بين الحق والباطل، أو ليدفعوا به الشر عن أنفسهم، قد سلكوا بهذا التعليم الطريق الذى يضرهم ولا ينفعهم، وأصبحوا بذلك عاصين لما نصحهم به الملكان عند تعليم السحر.

وفى هذه الجملة الكريمة زيادة تنبيه على تفاهة عقول المشتغلين بالسحر للأذى ومبالغة فى تجهيل المصدقين لهم، لأن الساحر - مهما بلغت براعته - فلن يستطيع أن يمنع شيئًا أراده الله، ولا أن يأتى بشيء منعه الله ما دام الأمر كذلك فالمشتغل به، والمصدق له كلاهما وقع فى ضلال مبين.

وقد أفادت الجملة الكريمة بجمعها بين إثبات الضر ونفى النفع مفاد الحصر فكأنه - سبحانه - يقول : ويتعلمون ما ليس إلا ضررًا بحتًا.

ثم بين - سبحانه - مآل أولئك اليهود التاركين للحق، والمتبعين للباطل فقال تعالى : ﴿ولقد علموا لمن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق﴾ أى : ولقد علم أولئك اليهود الذين نبذوا تعاليم كتابهم واتبعوا السحر، أن من استبدل السحر بكتاب الله ليس له من حظ فى الجنة، لأنه قد اختار الضلال وترك الهدى، وعلمهم مرجعه إلى أن التوراة قد حرمت عليهم تعلم السحر أو تعليمه للأذى والضرر، وشددت العقوبة على مرتكبه، وعلى متبع الجن والشياطين والكهان.

فالضمير فى ﴿علموا﴾ يعود إلى أولئك اليهود الذى تركوا كتاب الله واستبدلوا به السحر.

والاشتراء هو اكتساب شيء ببذل غيره، والمراد أنهم اكتسبوا السحر الذى تتلوه الشياطين بعد أن بذلوا فى سبيل ذلك إيمانهم ونصيبهم من الجنة، وغدوا مفلسين من حظوظ الآخرة، لإقبالهم على التمويه والكذب، واستبدالهم الذى هو أدنى بالذى هو خير.

وأكد - سبحانه - علمهم بضرر السحر بقوله ﴿ولقد علموا﴾ للإشارة إلى أن اختيارهم للسحر لم ينشأ عن جهلهم بضرره، وإنما هم الذين اختاروه ومالوا إليه متعمدين وعالمين بعاقبته السيئة.

ثم قال تعالى: ﴿ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾.

شروا: بمعنى باعوا، وبيع الأنفس هنا معناه بيع نصيبها من الجنة. ونعيمها.

والمعنى: ولبئس شيئا باع به أولئك السحرة حظوظ أنفسهم تعلم ما يضر من السحر والعمل به، ولو كانوا ممن ينتفعون بعلمهم لما فعلوا ذلك.

وأثبت لهم العلم فى قوله تعالى: ﴿ولقد علموا لمن اشتراه﴾ ثم نفاه عنهم فى قوله تعالى: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ جريًا على الأسلوب المعروف فى فنون البلاغة من أن العالم بالشيء إذا لم يعمل بموجب علمه نزل منزلة الجاهل ونفى عنه العلم كما ينفى عن الجاهلين.

وإلى هذا المعنى الذى قررناه أشار صاحب الكشاف بقوله.

فإن قلت كيف أثبت لهم العلم أولا فى قوله: ﴿ولقد علموا لمن اشتراه﴾ على سبيل التوكيد القسمى، ثم نفاه عنهم فى قوله: ﴿لو كانوا يعلمون﴾؟

قلت: معناه لو كانوا يعملون بعلمهم. جعلهم حين لم يعملوا به كأنهم منسخلون عنه[١].

ثم بين - سبحانه - المنافع التى تعود عليهم لو اتبعوا الحق، بعد أن بين الأضرار التى ترتبت على اتباعهم للباطل فقال تعالى: ﴿ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون﴾ أى: لو أن أولئك اليهود النابذين لكتاب الله المتبعين للأوهام والأباطيل، آمنوا بمحمد ﷺ أو بالتوراة إيمانًا حقًا، واتقوا الله، فاجتنبوا ما يؤثمهم ومنه السحر والتمويه، لكانت لهم مثوبة[٢] من عند الله، هى خير لهم من السحر وغيره، ولو كانوا من أولى العلم النافع لفهموا ذلك، واستبدلوا بالسحر الإيمان والتقوى، ولكنهم قوم لا يعقلون.

فقوله تعالى: ﴿لمثوبة من عند الله خير﴾ جواب للو الشرطية، وأصل التركيب، لأثيبوا مثوبة

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٢٨.

(٢) المثوبة: اسم مصدر أثاب أعطى الثواب، والثواب الجزاء الذى يعطى للغير.

من عند الله خيرًا مما شروا به أنفسهم، فحذف الفعل، وغير السبك إلى ما عليه النظم الكريم، للدلالة على ثبوت المثوبة لهم والجزم بخيريتها.

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف[1] بقوله: (فإن قلت: كيف أوثرت الجملة الاسمية على الفعلية فى جواب لو؟ قلت: لما فى ذلك من الدلالة على ثبات المثوبة واستقرارها، كما عدل عن النصب إلى الرفع فى سلام عليكم لذلك.

وقال الإمام الآلوسى: (المثوبة: اسم مصدر أثاب إذا أعطى الثواب، والثواب الجزاء الذى يعطى للغير. ولم يقل - سبحانه - لمثوبة الله مع أنه أخصر، ليشعر التنكير بالتقليل فيفيد أن شيئًا قليلا من ثواب الله - تعالى - فى الآخرة الدائمة، خير من متاع كثير فى الدنيا الفانية، فكيف وثواب الله - تعالى - كثير دائم، وفيه من الترغيب والترهيب المناسبين للمقام ما لا يخفى[2].

وقوله تعالى: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ شرط آخر محذوف الجواب لدلالة ما تقدم عليه، وحذف مفعول ﴿يعلمون﴾ لدلالة ﴿لمثوبة من عند الله خير﴾ عليه. أى: لو كانوا يعلمون مثوبة الله لما اشتروا السحر بالإيمان.

وبذلك تكون الآيات الكريمة التى سقناها فى هذا المبحث قد دمغت بنى إسرائيل بجحود الحق، ونبذهم لتعاليم كتابهم وإيثارهم عليها الأكاذيب والأباطيل، وسيرهم فى طريق الشر عن تعمد وإصرار، وعدم عملهم بما يعلمون لانحراف طباعهم، وحماقة تفكيرهم وسوء تدبيرهم. واستحواذ الشيطان عليهم.. ﴿فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب أليم﴾.

هذا، ويحسن بنا قبل أن نختم هذا البحث، أن نذكر كلمة موجزة عن السحر فنقول:

السحر: فى أصل اللغة معناه: الصرف، ومنه قوله تعالى ﴿فأنى تسحرون﴾ أى: فكيف تصرفون عن الحق إلى الباطل.

وقد ذكر السحر فى القرآن والسنة، واتفق علماء المسلمين على أن هناك شيئا يسمى سحرًا، إلا أنهم اختلفوا فى تصويره.

فجمهور أهل السنة ذهب إلى أن للسحر آثارا حقيقية، وأن الساحر قد يأتى بأشياء غير عادية، إلا أن الفاعل الحقيقى فى كل ذلك هو الله - تعالى - واستدلوا على ذلك بأدلة منها.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٢٢٨.

(٢) تفسير الآلوسى جـ١ ص٣٨٤.

أولا : أن الله - تعالى - قد أمر نبيه ﷺ، أن يستعيذ به ﴿من شر النفاثات فى العقد﴾ وهم السحرة - على أرجح الأقوال.

قال الإمام ابن كثير : قوله تعالى ﴿ومن شر النفاثات فى العقد﴾ قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك، يعنى السواحر قال مجاهد «إذا رقين ونفثن فى العقد»(١).

فالآية الكريمة تدل على أن للسحر آثارا حقيقية، وإلا لما أمر الله - تعالى - نبيه ﷺ أن يستعيذ من شرور السحرة.

ثانيًا : قال الإمام البخارى : - فى باب هل يستخرج السحر - : حدثنى عبد الله بن محمد، قال : سمعت سفيان بن عيينة يقول : أول من حدثنا به ابن جريج يقول : حدثنى آل عروة عن عروة، فسألت هشامًا عنه فحدثنا عن أبيه عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ سحر حتى كان يرى أنه يأتى النساء ولا يأتيهن، قال سفيان : وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذلك. فقال : «يا عائشة أعلمت أن الله قد أفتانى فيما استفتيته فيه؟ أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى، فقال الذى عند رأسى للآخر، ما بال الرجل : مطبوب، قال ومن طبه؟ قال : لبيد بن الأعصم - رجل من بنى زريق حليف اليهود كان منافقًا - قال. وفيم : قال : فى مشط ومشاطه، قال : وأين؟ قال فى جف طلعة ذكر تحت راعوفة فى بئر ذروان. قالت : فأتى البئر حتى استخرجه، فقال : «هذه البئر التى أريتها وكأن نخلها رءوس الشياطين» قال فاستخرج - أى السحر - قالت : فقلت أفلا - أى - تنشرت؟ فقال : «إن الله قد شفانى وأكره أن أثير على أحد من الناس شرًا»(٢).

فهذا الحديث الصحيح يفيد أن السحر قد أثر فى جسم الرسول ﷺ بنوع من المرض أو الثقل، دون أن يكون لذلك أدنى تأثير فى عقله.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٥٧٣.

(٢) فتح البارى : لابن حجر جـ ١٢ ص ٢٤٥ طبعة الحلبى.

وهذا تفسير موجز لمفردات الحديث : «هشام» هو ابن عروة بن الزبير ومعنى : «أفتانى فيما استفتيه فيه» : أجابنى فيما دعوته من أن يطلعنى على حقيقة ما «مطبوب» أى مسحور يقال : طب الرجل - بالضم - إذا سحر. «المشط» : الالة التى يسرح بها شعر الرأس واللحية «والمشاطة» : ما يخرج من الشعر إذا مشط «وجف طلع نخلة ذكر» هو الغشاء الذى يكون على الطلع ويطلق على الذكر والأنثى فلهذا قيده بالذكر. «والراعوفة» حجر يوضع على رأس البئر يقوم عليه المستقى وقد يكون فى أسفلها «وبئر ذروان» : اسم لموضع البئر» كأن ماءها نقاعة الحناء» : يعنى أحمر اللون. «أفلا أى تنشرت» : النشرة - بالضم - ضرب من العلاج يعالج به من يظن أن به سحرا أومسا من الجن قيل لها ذلك : لأنه يكشف بها عما خالطه من الداء.

قال الإمام ابن القيم : هذا هو الحديث الذى رواه البخارى، وهو ثابت عند أهل العلم بالحديث لا يختلفون فى صحته، وقد اتفق أصحاب الصحيحين على تصحيحه، ولم يتكلم فيه أهل الحديث بكلمة واحدة، والقصة مشهورة عند أهل التفسير والسنن والحديث والتاريخ والفقه، وهؤلاء أعلم بأحوال الرسول ﷺ وأيامه[١].

وقال الإمام القرطبى «الأدلة متوفرة على أن للسحر حقيقة، فهو مقطوع به بإخبار الله - تعالى - ورسوله على وجوده ووقوعه، وعلى هذا أهل الحل والعقد الذين ينعقد بهم الإجماع ولا عبرة مع اتفاقهم بحثالة المعتزلة ومخالفتهم أهل الحق، ولقد شاع السحر وذاع فى سابق الزمان، وتكلم الناس فيه، ولم يبد من الصحابة ولا من التابعين إنكار لأصله[٢].

وقال الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى. قال المازرى : «مذهب أهل السنة وجمهور علماء الأمة على إثبات السحر وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء الثابتة. خلافا لمن أنكر ذلك ونفى حقيقته وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة لا حقائق لها. وقد ذكره الله - تعالى - فى كتابه وذكر أنه مما يتعلم. وذكر فيه إشارة إلى أنه مما يكفر به. وأنه يفرق بين المرء وزوجه. وهذا كله لا يمكن فيما لا حقيقة له، وهذا الحديث أيضًا مصرح بإثباته. وأنه أشياء دفنت وأخرجت ولا يستنكر فى العقل أن الله - سبحانه - يخرق العادة عند النطق بكلام ملفق أو تركيب أجسام، أو المزج بين قوى على ترتيب لا يعرفه إلا الساحر. قال : وقد أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث لسبب آخر. فزعم أنه يحط من منصب النبوة ويشكك فيها، وأن تجويزه يمنع الثقة بالشرع وهذا الذى ادعاه بعض المبتدعة باطل لأن الدلائل القطعية قد قامت على صدقه وصحته وعصمته فيما يتعلق بالتبليغ والمعجزة شاهدة بذلك. قال القاضى عياض : وقد جاءت روايات مبينة أن السحر إنما تسلط على جسده وظواهر جوارحه، لا على قوله وقلبه واعتقاده، ويكون معنى قوله فى الحديث : «حتى يظن أنه يأتى أهله ولا يأتيهن» أن يظهر من نشاطه ومتقدم عادته القدرة عليهن، فإذا دنا منهن أخذته أخذة السحر فلم يأتهن ولم يتمكن من ذلك كما يعترى المسحور[٣].

أما المعتزلة فقد ذهبوا إلى أن السحر لا حقيقة له، وإنما هو تخييل وتمويه كما قال تعالى فى سحرة فرعون ﴿فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾ فأخبر - سبحانه -

---

(١) التفسير القيم لابن القيم - تفسير سورة الفلق.

(٢) تفسير القرطبى جـ ٢ ص ٦٤.

(٣) صحيح مسلم «كتاب السلام» باب السحر جـ ٤ ص ١٧١٩ شرح وتحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى.

أن ماظنوه سعيًا منها لم يكن سعيًا على الحقيقة إنما كان تخييلا وتمويهًا. وقال تعالى فى سحرة فرعون أيضًا ﴿فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم﴾ أى فلما ألقوا عصيهم موهوا على الناس حتى ظنوا أن حبالهم وعصيهم تسعى، وأرهبوهم بما فعلوه، وجاءوا بسحر عظيم فى فنه.

والذى نراه أن السحر على أضرب منها:

أولا: ضرب يترتب على مزاولته قلب الحقائق كقلب الإنسان حيوانًا وعكسه، وهذا قد منعه المعتزلة بحجة أن الساحر لو أمكنه ذلك لا لتلبس فعله هذا بمعجزات الأنبياء. وأهل السنة أجازوا وقوعه وإن كان لم يقع فعلا. ويفرقون بينه وبين المعجزة إن وقع، بأن المعجزة خارق يظهر على يد من يدعى النبوة على سبيل التحدى والمعارضة، والسحر ليس فيه دعوى نبوة ولا معارضة.

هذا، مع ملاحظة أن السحر يمكن تعلمه وتعليمه، ولا يظهر إلا على يد شرير بخلاف المعجزة.

قال فضيلة المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين: وهذا النوع لم يقع لنا دليل فى الشريعة على وقوعه، وربما كانت الحاجة إلى الفرق بين المعجزة والسحر فرقًا واضحًا تقتضى عدم وقوعه، فالساحر لا يبلغ أن يقلب العصا ثعبانًا، ولا أن يفلق البحر فتمر بين فرقيه الجيوش ولا أن يجعل الماء ينبع بين الأصابع فتروى منه العطاش، أعنى أنه لا يجرى على يده من خوارق العادات، مثل ما يجرى على أيدى الأنبياء للإعجاز[١].

ثانيًا: أن يزاول بعض أرباب النفوس الخبيثة أفعالا يترتب عليها الضرر بدون مماسة ولا ملابسة لمن وقع عليه الضرر، وهذا الضرب قد جوز وقوعه أهل السنة ومنعه المعتزلة، ومن أمثلته ما يفعله السحرة للتفريق بين المرء وزوجه والظاهر فى هذا الضرب قول أهل السنة لأن القرآن الكريم قد حكى عن السحرة انهم يتعلمون من السحر ما يفرقون به بين المرء وزوجه، وقد صح الحديث أن لبيد بن الأعصم اليهودى سحر رسول الله ﷺ وأنه حينما استخرج السحر خف جسمه ﷺ كأنما نشط من عقال.

ثالثًا: مزاولة أسباب يترتب عليها آثار ظاهريه لا حقيقية وهذا الضرب واقع باتفاق بين أهل السنه والمعتزلة، وقد حكاه القرآن الكريم عن سحرة فرعون فى قوله تعالى: ﴿فلما ألقوا سحروا

---

(١) مجلة لواء الإسلام السنة الثالثة العدد الثالث ص ٨.

أعين الناس واسترهبوهم﴾ وفى قوله تعالى : ﴿فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾ .

هذا، وقد حذر الإسلام من تعاطى السحر للاذى، وجاءت تعاليمه بذمه وتحريمه، وتوعدت مرتكبه بالعقوبات الأليمة، ففى الحديث الشريف «حد الساحر ضربه بالسيف».

وقد أفتى بعض الفقهاء بقتل الساحر لأنه زنديق، وبعضهم أفتى بأن الساحر إذا كان قد أحدث فى المسحور جناية توجب القصاص اقتص منه، وإن كان قد أحدث به ما لا قصاص فيه، حكم عليه بدية مناسبة.

وبعد : فهذه كلمة ذكرناها عن السحر، لم نقصد بها الخوض فى تفصيلاته. وإنما قصدنا بها إعطاء القارئ فكرة مختصرة عنه بمناسبة حديثنا عن رذائل اليهود التى منها نبذهم لكتاب الله واتباعهم للاوهام والأباطيل والأكاذيب.

ثم وجه القرآن نداء إلى المؤمنين نهاهم فيه عن مخاطبة النبى ﷺ بألفاظ معينة حتى لا يتخذها اليهود ذريعة للإساءة إلى النبى ﷺ فقال تعالى :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾

﴿راعنا﴾ من المراعاة، وهى المبالغة فى الرعى بمعنى حفظ الغير، وإمهاله، وتدبير أموره، وتدارك مصالحه، وكان المؤمنون يقولون لرسول الله ﷺ إذا حدثهم بحديث راعنا يا رسول الله، أى : راقبنا وانظرنا حتى نفهم كلامك ونحفظه، فتلقف اليهود هذه الكلمة لموافقتها كلمة سيئة عندهم، وأخذوا يلوون بها ألسنتهم، ويقولون «راعنا» يا أبا القاسم، يظهرون أنهم يريدون طلب المراعاة والإنتظار، وهم يريدون فى الحقيقة الإساءة إليه - ﷺ إذ أن هذه الكلمة عبرية كانوا يتسابون بها يقصدون جعله راعيا من رعاة الغنم أو من الرعونة التى هى الحمق والخفة، فنهى الله - تعالى - المسلمين عن استعمال هذه الكلمة حتى لا يتخذها اليهود وسيلة إلى إيذاء النبى ﷺ والتنقيص من شأنه.

قال قتادة : «كانت اليهود تقول للنبى ﷺ راعنا سمعك، يستهزئون بذلك وكانت - هذه الكلمة - فى اليهود قبيحة».

وقال الإمام ابن كثير : «نهى الله - تعالى - عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين فى مقالهم وفعالهم،

وذلك أن اليهود كانوا يعلنون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص فإذا أرادوا أن يقولوا : اسمع لنا، يقولوا راعنا يورون بالرعونة كما قال تعالى :

﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا، واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنًا فى الدين، ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم، ولكن لعنهم الله بكفرهم، فلا يؤمنون إلا قليلا﴾. وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم بأنهم كانوا إذا سلموا، إنما يقولون السام عليكم والسام هو الموت ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بقولنا وعليكم، وأنما يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا، والغرض أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولا وفعلا»[1].

وقال الإمام ابن تيميه : «كان المسلمون يقولون راعنا يا رسول الله وأرعنا سمعك، يعنون المراعاة، وكانت هذه اللفظة سبًا قبيحًا بلغة اليهود فلما سمعتها اليهود اغتنموها وقالوا فيما بينهم : كنا نسب محمدًا سرًا فأعلنوا له الآن بالشتم، وكانوا يأتونه ويقولون : راعنا يا محمد ويضحكون فيما بينهم، فسمعها «سعد بن معاذ» ففطنَ لهم، - وكان يعرف لغتهم - فقال لليهود : عليكم لعنة الله، والذى نفسى بيده يا معشر اليهود لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله ﷺ لأضربن عنقه، فقالوا : أولستم تقولونها، فأنزل الله - تعالى - ﴿يأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا﴾ لكى لا يتخذ اليهود ذلك سبيلا إلى شتم الرسول ﷺ»[2].

ثم أرشد الله - تعالى - المؤمنين إلى ما يقولونه بدل هذه الكلمة فقال تعالى : ﴿وقولوا انظرنا﴾ أى : لا تقولوا تلك الكلمة - وهى ﴿راعنا﴾ أيها المؤمنون لئلا يتخذها اليهود ذريعة لسب نبيكم ﷺ وقولوا مكانها «انظرنا» أى : انتظرنا وتأن معنا حتى نفهم عنك، من نظر بمعنى انتظر تقول نظرت الرجل انظره إذا انتظرته وارتقبته، وبهذا المعنى ورد قوله تعالى ﴿انظرونا نقتبس من نوركم﴾ أى : انتظرونا نقتبس من نوركم.

فالآية الكريمة تنبيه وإرشاد إلى الأدب الجميل، وهو أن يتجنب الإنسان فى مخاطباته الألفاظ التى توهم جفاء أو تنقيصًا فى مقام يقتضى إظهار مودة أو تعظيم.

ثم بين - سبحانه - مصير اليهود المؤلم جزاء تعديهم على رسول الله ﷺ فقال : ﴿وللكافرين عذاب أليم﴾، أى : لهؤلاء اليهود الذين اتخذوا كلمة ﴿راعنا﴾ وسيلة إلى سب الرسول ﷺ عذاب أليم جزاء كفرهم وتطاولهم وسفاهتهم.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص١٤٨.

(٢) كتاب «الصارم المسلول على شاتم الرسول» ص١٤١ للإمام ابن تيمية.

هذا، وقد وردت أحاديث صحيحة صرحت بأن اليهود كانوا يحيون رسول الله ﷺ بكلام محرف لا يفطن له أكثر الناس يقصدون به الدعاء عليه بالموت، فكان الرسول ﷺ يرد عليهم بما يكبتهم ويخزيهم ومن هذه الأحاديث ما أخرجه البخارى عن أنس بن مالك قال:

١ - مر يهودى برسول الله ﷺ فقال السام عليك، فقال رسول الله ﷺ (وعليك)، ثم قال رسول الله ﷺ لأصحابه - أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال يقول (السام عليك) قالوا يا رسول الله ألا نقتله. قال: (لا، إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم)[١].

٢ - وأخرج الشيخان عن عائشة - رضى الله عنها - قالت:

دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا:

السام عليك قالت عائشة: ففهمتها، فقلت: عليكم السام واللعنة، قالت: فقال رسول الله ﷺ «مهلا يا عائشة إن الله يحب الرفق فى الأمر كله» فقلت يا رسول الله ألم تسمع ما قالوا؟ قال «لقد قلت وعليكم»[٢].

٣ - وروى مسلم عن جابر بن عبد الله قال: «سلم ناس من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا السام عليك يا أبا القاسم فقال: «وعليكم» فقالت عائشة وغضبت: ألم تسمع ما قالوا: قال بلى قد سمعت فرددت عليهم، وإنما نجاب ولا يجابون علينا»[٣].

وإذن فالآية الكريمة وهى قوله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا﴾ إلخ، وهذه الأحاديث الشريفة تثبت أن اليهود كانوا يستعملون من بين مسالكهم الخبيثة لكيد الدعوة الإسلامية القول الملتوى القبيح، والخطاب المحرف السيء، ولكن الله - تعالى - أحبط خطتهم، ونهى المؤمنين عن استعمال الألفاظ التى كان يتخذها اليهود ذريعة لبلوغ مآربهم، وكان الرسول ﷺ يرد عليهم بما يغيظهم ويخزيهم، وبذلك ذهبت مكايد اليهود أدراج الرياح وأيد الله - تعالى - رسوله والمؤمنين بقوته ونصره.

ثم نبه القرآن المؤمنين إلى ما يضمره لهم المشركون وأهل الكتاب وعلى رأسهم اليهود - من شرور وأحقاد فقال - تعالى:

---

(١) صحيح البخارى، باب «إذا عرض الذمى وغيره بسبب النبى. من كتاب «أستتابة المتدين» جـ ٩ ص ٢٠.

(٢) أخرجه البخارى - واللفظ له - فى باب «كيف يرد على أهل الذمة السلام، جـ ٨ ص ٧٠ وأخرجه مسلم فى كتاب السلام، جـ ٤ ص ١٨٠٦ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى.

(٣) صحيح مسلم: باب «النهى عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم من «كتاب السلام» جـ ٤ ص ١٢٠٧.

مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

﴿ما يود﴾ أى : ما يحب، إذ الود محبة الشىء مع تمنيه، يقال : ود فلان كذا يوده ودًا ومودة بمعنى أحبه وتمناه.

قال صاحب الكشاف : «ومن الأولى فى الآية للبيان، لأن الذين كفروا جنس تحته نوعان، أهل الكتاب والمشركون، والثانية مزيدة لاستغراق الخير والثالثة لابتداء الغاية»(١).

وقوله - تعالى - : ﴿ما يود﴾.. إلخ الآية بيان لما يبيته الكافرون - خصوصًا اليهود - للمسلمين من حقد وكراهية وتحذير لهم من الاطمئنان إليهم، والثقة بهم.

وفى التعبير بقوله تعالى : ﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ دون ما يود أهل الكتاب تنبيه إلى أنهم قد كفروا بكتبهم، لأنهم لو كانوا مؤمنين بها لصدقوا محمدًا ﷺ الذى أمرتهم كتبهم بتصديقه واتباعه.

وعطف عليهم المشركين ليدل على أن عبدة الأصنام - أيضًا - يضاهون كفرة أهل الكتاب، فى كراهة نزول أى خير على المؤمنين، وأن الجميع يحسدونهم على ما آتاهم الله من فضله عن طريق نبيه ﷺ من دين قويم، وقرآن كريم، وهداية عظمى، وأخوة شاملة، وأمن بعد خوف، وقوة بعد ضعف.

والخير : النعمة والفضل، والمراد به فى الآية الكريمة النبوة وما تبعها من الوحى الصادق، والقرآن العظيم المشتمل على الحكمة الرائعة والحجة البالغة والبلاغة الباهرة والتوجيه النافع.

وأهل الكتاب قد كرهوا ذلك للمؤمنين لعنادهم وحسدهم، وكراهتهم أن تكون النبوة فى رجل عربى ليس منهم.

والمشركون كرهوا ذلك - أيضًا - لأن فى انتشار الإسلام، وفى تنزيل الوحى على النبى ﷺ ما يخيب آمالهم فى إبطال الدعوة الإسلامية، وإضعاف شوكتها والنصر على أتباعها.

وقوله تعالى : ﴿والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾.

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ١٧٤.

رد عليهم بما يكشف عن جهلهم وجهل جميع الحاسدين، لأن الحاسد لغباوته يسخط على قدر الله، ويعترض عليه لإنعامه - سبحانه - على المحسود والله - تعالى - هو صاحب التصرف المطلق فى الإعطاء والمنع فكان من الواجب على هؤلاء الذين لا يودون أن ينزل أى خير على المؤمنين أن يريحوا أنفسهم من هذا العناء، وأن يتحولوا عن ذلك الغباء، لأن الله - تعالى - يهب خيره لمن يشاء.

والاختصاص بالشىء: الانفراد به، تقول: اختص فلان بكذا أى انفرد به، ويستعمل متعديًا إلى المفعول به، فتقول: اخصصت فلانا بكذا أى أفردته به وجعلته مقصورًا عليه. وعلى هذا الوجه ورد الاختصاص فى الآية الكريمة.

وقيد - سبحانه - اختصاص رحمته بمن يشاء ليعلم الناس جميعًا، أن إفراد بعض عباده بالرحمة منوط بمشيئته وحدها، وليس لأحد كائنًا من كان أى تأثير فى ذلك.

ومفعول المشيئة محذوف كما هو الشأن فيه إذا تقدم عليه كلام أو تأخر عنه. أى: يختص برحمته من يشاء اختصاصه بها، وهى تتناول النبوة. والقرآن، والنصر، وكل ذلك مما لا يود الكافرون إنزاله على المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ تذييل لما سبق أى كل خير يناله العباد فى دينهم أو دنياهم إنما هو من عنده - تعالى - يتفضل به عليهم، وفى ذلك إشعار للحاسدين بأن يقلعوا عن حسدهم، وتعريض باليهود وغيرهم ممن حسدوا محمدًا ﷺ على أن آتاه الله النبوة، فكأنه - سبحانه - يقول لهم: إنى أصطفى للنبوة من أشاء من عبادى وهى لا تدرك بالأمانى، ولكنى أهبها لمن هو أهل لها.

وبذلك تكون الآية الكريمة قد حذرت المؤمنين مما يبيته لهم الكافرون من حقد وبغضاء وبشرتهم بأن ما يبيتونه لن يضرهم ما داموا معتصمين بكتاب ربهم، وسنة نبيهم.

ثم انتقل القرآن إلى الحديث عن موضوع النسخ الذى أثار اليهود حوله الشبهات، وجادلوا فيه النبى ﷺ.

لقد استنكر اليهود أن يبدل الله آية بآية، أو حكمًا بحكم، وقالوا: ألا ترون إلى محمد ﷺ يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمر بخلافه، ويقول اليوم قولا ويرجع عنه غدًا، ما هذا من شأن الأنبياء وما هذا القرآن إلا من كلام محمد، يقوله من تلقاء نفسه، وهو كلام يناقض بعضه بعضًا.

ولم يترك القرآن الكريم تلك الشبهات التى أثارها اليهود حول شريعة الإسلام بدون

جواب، بل أنزل الله - تعالى - آيات كريمة لدحضها وإزالتها من الصدور، ليزداد المؤمنون إيمانا، وهذه الآيات هى قوله تعالى :

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾

والنسخ فى اللغة الإبطال والإزالة، يقال. نسخت الشمس الظل تنسخه، إذا أذهبته وأبطلته.

وفى عرف الشرع : بيان انتهاء مدة الحكم بخطاب لولا هذا الخطاب لاستمر الحكم على مشروعيته، بمقتضى النص الذى تقرر به أولا.

وننسها من أنسى الشىء جعله منسيًا.

فمعنى نسخ الآية فى قوله تعالى : ﴿ما ننسخ من آية﴾ رفع حكمها مع بقائها.

ومعنى إنسائها فى قوله - تعالى - : ﴿ننسها﴾ رفع الآية من نظم القرآن جملة.

وسمى رفع الآية من نظم القرآن جملة إنساء، لأن من شأن مالا يبقى فى النظم أن ينساه الناس لقلة جريانه على الألسنة بالتلاوة والاحتجاج به.

ويصح إبقاء الإنساء على حقيقته، وهو إذهاب الآية من القلوب وإزالتها من الحافظة، بعد أن يقضى الله بنسخها.

وإنما قلنا بعد أن يقضى الله بنسخها، لأن إنساء الناس آية لم تنسخ إضاعة لشىء من القرآن، والله يقول ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له الحافظون﴾[1].

(١) سورة الحجر الآية رقم ٩.

ومما يدل على نسخ الآية المنساة، أى : انتهاء مدة التكليف بها قوله تعالى : ﴿نأت بخير منها أو مثلها﴾ أى نأت بخير من المنسية المنسوخة أو مثلها، فيكون قوله تعالى : ﴿أو ننسها﴾ معبرًا عن حالة تعرض فى بعض ما سيرفع من القرآن وهى أن ينساه الناس لذهابه من قلوبهم، بعد أن يقضى الله بنسخه - كما ذكرنا -.

ووجه ذكر هذه الحال بوجه خاص، أن ما ينسى لعدم حضوره فى الذهن لا تعرف الآيات التى تقوم مقامه، فربما يقع فى الوهم أنه ذهب من غير أن ينزل من الآيات ما يغنى غناءه.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ننسأها﴾ بالهمزة، من النساء وهو التأخير وعلى هذه القراءة يحمل النسخ فى قوله تعالى : ﴿ما ننسخ من آية﴾ على النوعين السابقين وهما : نسخ الآية حكما فقط، ونسخها حكمًا وتلاوة.

ومعنى ﴿ننسأها﴾ تؤخر إنزالها إلى وقت ثان فلا ننزلها، وننزل ما يقوم مقامها فى القيام بالمصلحة.

والخيرية والمماثلة فى قوله تعالى : ﴿نأت بخير منها أو مثلها﴾ ترجع إلى ثواب العمل بها. فقد يكون ثواب العمل بالناسخة أوفر من ثواب العمل بالمنسوخة قبل نسخها، وقد يكون مماثلا له، وإن كانت كل واحدة من الآيتين الناسخة والمنسوخة بالنظر إلى الوقت المقدر للعمل بها، أقوم على المصلحة من الأخرى.

وبعد أن أثبت - سبحانه - أن النسخ جائز وواقع بقوله : ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾ ساق جملة كريمة فى صورة الاستفهام التقريرى، مخاطبًا بها الأمة الإسلامية فى شخص نبيها ﷺ لتكون دليلا على هذا الثبوت، وهذه الجملة هى قوله تعالى : ﴿ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير﴾ والمعنى أن الله - تعالى - متمكن من أن يفعل ما يشاء على الوجه الذى تقتضيه حكمته وإرادته، ومن كان هذا شأنه فله أن يأمر فى وقت بأمر، ثم ينسخه أو يستبدل به آخر لمقتضيات الظروف والأحوال.

ثم أقام - سبحانه - الدليل على كمال قدرته وشمولها لكل شىء فقال :

﴿ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض، وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير﴾.

والمعنى : أنه - سبحانه - مالك لجميع الكائنات العلوية والسفلية، وأنه هو المتصرف كما يشاء فى ذواتها وأحوالها، وأنه يتصرف فى أمورهم ويجريها على حسب ما يصلحهم، وهو أعلم بما يتعبدهم به من ناسخ ومنسوخ وليس للناس من أحد يتولى أمورهم، ويعينهم على أعدائهم سواه، ومن كان الله وليه ونصيره علم يقينا أنه لا يفعل به إلا ما هو خير له فى دنياه وأخراه.

وإذن فأنتم - أيها اليهود - ما قدرتم الله حق قدره، لزعمكم أن النسخ محال على الله لأن المالك لكل شيء، من حقه أن يمحو ما يشاء ويثبت ما يريد على حسب ما تقتضيه حكمته ومشيئته.

فالآية واقعة موقع الدليل على ما تضمنته الجملة السابقة من إحاطة قدرته - سبحانه - بكل شيء.

ثم حذر القرآن الكريم المؤمنين من الاستماع إلى وساوس اليهود، تثبيتًا لقلوبهم، وتقوية لإيمانهم، فقال تعالى: ﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل، ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل﴾

والمعنى: لا يصح لكم أيها المؤمنون أن تقترحوا على رسولكم محمد ﷺ مقترحات تتنافى مع الإيمان الحق كأن تسألوه أسئلة لاخير من ورائها لأنكم لو فعلتم ذلك لصرتم كبنى إسرائيل الذين طلبوا من نبيهم موسى - عليه السلام - بعد أن جاءهم بالبينات - مطالب تدل على تعنتهم وجهلهم فقالوا له: ﴿أرنا الله جهرة﴾[1] وقالوا له: ﴿اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة﴾[2] ولو صرتم مثلهم لكنتم ممن يختار الكفر على الإيمان، ولخرجتم عن الصراط المستقيم الذى يدعوكم إليه نبيكم ﷺ.

والاستفهام فى الآية الكريمة للإنكار، وفى أسلوبها مبالغة فى التحذير من الوقوع فيما وقع فيه اليهود من تعنت مع رسولهم، إذ جعل محط الإنكار إرادتهم للسؤال، وفى النهى عن إرادة الشيء، نهى عن فعله بأبلغ عبارة.

ثم نبه الله تعالى عباده المؤمنين إلى ما يضمره لهم اليهود من أحقاد وشرور فقال - تعالى -:

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾

(١) سورة البقرة الآية ٥٦.
(٢) سورة الأعراف الآية ١٣٨.

ومعنى الآية الكريمة : أحب وتمنى عدد كثير من اليهود الذين هم أهل كتاب، أن ينقلوكم أيها المؤمنون من الإيمان إلى الكفر، حسدًا لكم وبغضًا لدينكم، من بعد ما ظهر لهم أنكم على الحق باتباعكم محمدا ﷺ فلا تهتموا بهم، بل قابلوا أحقادهم وشرورهم بترك عقابهم، والإعراض عن أذاهم، حتى يأذن الله لكم فيهم بما فيه خيركم ونصركم، فإنه - سبحانه - على كل شيء قدير».

وقوله تعالى : ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارًا﴾ بيان للون من ألوان الشرور التي يضمرها أهل الكتاب وعلى رأسهم اليهود، وهو تمنيهم ارتداد المسلمين عن دينهم الحق، إلى الكفر الذى أنقذهم الله - تعالى - منه.

وإنما أسند - سبحانه - هذا التمنى الذميم إلى الكثرة منهم، انصافًا للقلة المؤمنة التى لم ترتض أن ينتقل المسلمون إلى الكفر بعد أن هداهم الله إلى الإسلام.

وقوله تعالى : ﴿من بعد إيمانكم﴾ مبالغة فى ذمهم بسبب ماتمنوه وأحبوه إذ ودوا - وهم أهل كتاب - أن يحل الكفر محل الإيمان، وفيه إشعار بأن ما تمنوه بعيد الحصول؛ لأن الإيمان متى خالطت بشاشته القلوب، منع صاحبه من الانتقال إلى الكفر.

ثم بين - سبحانه - أن الذى حملهم على هذا التمنى الذميم هو الحقد والحسد، فقال تعالى : ﴿حسدًا من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق﴾ أى : أن هذا التمنى لم يكن له من سبب أوعلة سوى الحسد الذى استولى على نفوسهم، واستحوذ على قلوبهم فجعلهم يحسدون المؤمنين على نعمة الإيمان ويتمنون التحول عنه إلى الكفر، فالجملة الكريمة علة لما تضمنته الجملة السابقة من محبتهم نقل المؤمنين إلى الكفر.

قال فضيلة المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين : «والحسد : قلق النفس من رؤية نعمة يصيبها إنسان، وينشأ عن هذا القلق تمنى زوال تلك النعمة عن الغير وتمنى زوال النعم مذموم بكل لسان، إلانعمة أصابها فاجر أوجائر يستعين بها على الشر والفساد، فإن تمنى زوالها كراهية للجور والفساد لا يدخل فى قبيل الحسد المذموم فإن لم تتمن زوال النعمة عن شخص وإنما تمنيت لنفسك مثلها فهى الغبطة والمنافسة، وهى محمودة لأنها قد تنتهى بالشخص إلى اكتساب محامد لولا المنافسة لظل فى غفلة عنها، والحسد قد يهجم على الإنسان ولا يكون فى وسعه دفعه لشدة النفرة بينه وبين المحسود، وإنما يؤاخذ الإنسان على رضاه به، وإظهار ما يستدعيه من القدح فى المحسود، والقصد إلى إزالة النعمة عنه»[1].

---

(١) مجلة لواء الإسلام السنة الثالثة العدد ٥ ص ٦.

وقوله تعالى: ﴿من عند أنفسهم﴾ إعلام للمؤمنين، بأن هؤلاء اليهود لم يؤمروا بذلك فى كتابهم، بل إن كتابهم لينهاهم عن هذا الخلق الذميم ولكنهم لخبث نفوسهم وسوء طباعهم، رسخ الحسد فى قلوبهم لدرجة يعسر معها صرفه عنهم، أو صرفهم عنه.

والجملة الكريمة ﴿حسدًا من عند أنفسهم﴾ تدل على أن أولئك اليهود يعتقدون صحة دين الإسلام، إذ الإنسان لا يحسد غيره على دين إلا إذا عرف فى نفسه صحته، وأنه طريق الفوز والفلاح.

وقوله تعالى: ﴿من بعد ماتبين لهم الحق﴾ يدل على أن محبة اليهود لتحويل المؤمنين من الكفر إلى الإيمان وقعت، بعد أن ظهر لهم صدق النبى ﷺ وبعد أن تبين لهم أن الصفات التى وردت فى التوراة بشأن المبشر به، لا تنطبق إلا عليه، وإذا فكفرهم به لم يكن عن جهل وإنما كان عن عناد وجمود على الباطل، وذلك هو شأن أحبارهم الذين كانوا على علم بالتوراة، وبتبشيرها بالنبى ﷺ.

ثم أمر الله تعالى المؤمنين فى ختام الآية أن يقابلوا شرور اليهود بالعفو والصفح، وأن يوادعوهم إلى حين فقال تعالى: ﴿فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره إن الله على كل شىء قدير﴾.

العفو: ترك العقاب على الذنب. والصفح: ترك المؤاخذة عليه، فكل صفح عفو ولا عكس.

والمعنى: عليكم أيها المؤمنون أن تتركوا معاقبة أولئك اليهود الحاسدين وأن تعرضوا عن رفع السيف فى وجوههم حتى يأذن الله لكم فى أن تشفوا صدوركم منهم، ويبيح قتالهم الذى يترتب عليه نصركم، إذ أن كل شىء داخل تحت سلطان قدرته - تعالى -.

فالمراد بالأمر فى قوله تعالى: ﴿حتى يأتى الله بأمره﴾ الإذن للمسلمين بقتالهم فى الوقت الذى يختاره الله - تعالى - لهم، عند ما تكون لهم القوة التى يتمكنون بها من جهاد أعدائهم.

قال صاحب المنار: قال الأستاذ الإمام: «وفى أمره تعالى لهم بالعفو والصفح إشارة إلى أن المؤمنين على قلتهم هم أصحاب القدرة والشوكة لأن الصفح إنما يطلب من القادر على خلافه كأنه يقول: لا يغرنكم أيها المؤمنون كثرة أهل الكتاب مع باطلهم، فإنكم على قلتكم أقوى منهم بما أنتم عليه من الحق، فعاملوهم معاملة القوى العادل، للضعيف الجاهل وفى إنزال المؤمنين على قلتهم منزلة الأقوياء، ووضع أهل الكتاب على كثرتهم موضع الضعفاء، إيذان بأن أهل الحق هم المؤيدون بالعناية الإلهية، وأن العزة لهم ماثبتوا على حقهم، ومهما يتصارع الحق

والباطل فإن الحق هو الذى يصرع الباطل كما قلنا غير مرة، وإنما بقاء الباطل فى غفلة الحق عنه »[١].

وقد أكد الله - تعالى - وعده بقوله : ﴿إن الله على كل شىء قدير﴾ أى أن كل شىء داخل تحت قدرته النافذة التى لا يعجزها شىء.

وقد أنجز الله - تعالى - وعده، فأذن للمؤمنين فى الوقت المناسب بقتال اليهود وتأديبهم، وقد ترتب على ذلك النصر للمؤمنين، والطرد والقتل لليهود الحاقدين.

وبعد أن أمر القرآن المؤمنين فى الآية السابقة بالعفو والصفح عن أعدائهم لأن الحكمة تجعل العفو والصفح خيرًا من العقوبة والتأنيب، انتقل بعد ذلك إلى أمرهم بالمحافظة على الشعائر التى تطهر قلوبهم، وتزكى نفوسهم فقال - تعالى - :

وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾

فقد أمرهم - سبحانه - فى هذه الآية بالمواظبة على عمودى الإسلام وهما العبادة البدنية التى تؤكد حسن صلة العبد بخالقه وهى الصلاة والعبادة المالية التى تؤلف بين قلوب الموسرين والمعسرين وهى الزكاة.

وجاءت جملة ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله﴾ بعد ذلك، لترغبهم فى فعل الخير على وجه عام، ولتحثهم على التزود من الأعمال الصالحة سواء أكانت فرضًا أم نفلا.

وقال ﴿لأنفسكم﴾ للإشعار بأن ما يقدمه المؤمن من خير إنما يعود نفعه إليه، وأنه سيجد عند الله نظير ذلك الثواب الجزيل، والأجر العظيم، وفى قوله، عند الله، إشارة إلى ضخامة الثواب، لأنه صادر من الغنى الحميد.

وجاءت جملة « إن الله بما تعلمون بصير» لتأكيد ذلك الوعد، فقد دلت على أن الله - تعالى - لا يخفى عليه عمل عامل قليلا كان أو كثيرًا. وإذا كان عالمًا محيطًا بكل عمل يصدر من الإنسان، كانت الأعمال محفوظة عنده - تعالى -، فلا يضيع منها عمل دون أن يلقى العامل جزاءه يوم الدين.

---

(١) تفسير المنار جـ ١ ص ٤٢١.

وفى إعادة ذكر اسم الجلالة فى هذه الجملة مع تقدم ذكره فى قوله : ﴿تجدوه عند الله﴾ إشعار باستقلال هذه الجملة، وبشدة الاهتمام بالمعنى الذى تضمنته.

كذلك من فوائد إظهار اسم الجلالة فى مقام يجوز فيه الإضمار، أن تكون الجملة كحكمة تقال عند كل مناسبة، بخلاف ما لو أتى بدل الاسم الظاهر بالضمير فإن إلقاءه عند المناسبة يستدعى أن تذكر الجملة السابقة معها حتى يعرف المراد من الضمير.

ثم حكى القرآن لونًا من ألوان المزاعم الباطلة التى درج عليها أهل الكتاب، ورد عليها بما يبطلها فقال :

وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾

الضمير فى «قالوا» يعود على أهل الكتاب من الفريقين.

والهود : جمع هائد أى متبع اليهودية وقدمهم القرآن الكريم على النصارى لتقدمهم فى الزمان.

والمعنى : وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، وقالت النصارى لن يدخلها إلا من كان نصرانيًا، إلا أن الآية الكريمة سلكت فى طريق الإخبار عما زعموه مسلك الإيجاز، فحكت القولين فى جملة واحدة، وعطفت أحد الفريقين على الآخر بحرف «أو» ثقة بفهم السامع، وأمنا من اللبس، لما عرف من التعادى بين الفريقين، وتضليل كل واحد منهما لصاحبه، ونظير هذه الآية قوله تعالى حكاية عنهم ﴿وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا﴾ أى : قالت اليهود : كونوا هودا تهتدوا، وقالت النصارى : كونوا نصارى تهتدوا.

ولذا قال الإمام ابن جرير : «فإن قال قائل : وكيف جمع اليهود والنصارى فى هذا الخبر مع اختلاف مقالة الفريقين، واليهود تدفع النصارى عن أن يكون لها فى ثواب الله نصيب، والنصارى تدفع اليهود عن مثل ذلك؟

قيل : إن معنى ذلك بخلاف الذى ذهبت إليه، وإنما عنى به وقالت اليهود : لن يدخل الجنة

إلا من كان هودا، وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا النصارى، ولكن معنى الكلام لما كان مفهومًا عند المخاطبين به جمع الفريقان فى الخبر عنهما فقيل : ﴿وقالواْ لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى﴾[1].

وقوله تعالى : ﴿تلك أمانيهم﴾ جملة معترضة قصد بها بيان أن ما يدعونه من أن الجنة خاصة بهم، ما هو إلا أمانى منهم يتمنونها على الله بغير حق ولا برهان. سولتها لهم أنفسهم التى استحوذ عليها الشيطان فخدعها بالأباطيل والأكاذيب.

واسم الإشارة «تلك» مشار به إلى ما تضمنه قوله تعالى : ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى﴾ وهو يتضمن أمانى كثيرة : منها، أن اليهود أمنيتهم أنه لن يدخل الجنة غيرهم، والنصارى كذلك أمنيتهم أنهم هم وحدهم أصحاب الجنة، وكلا الفريقين يعتقد أن المسلمين ليسوا أهلالها، ولهذا جاء خبر اسم الإشارة جمعًا فقال تعالى ﴿تلك أمانيهم﴾.

ويرى صاحب الكشاف أن المشار إليه أمور قد تعددت لفظًا وحكاها القرآن عنهم فى قوله ﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم﴾ وفى قوله : ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارًا، حسدًا من عند أنفسهم﴾ وفى قوله : ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى﴾، وعبارته :

فإن قلت : لم قيل ﴿تلك أمانيهم﴾ وقولهم لن يدخل الجنة أمنية واحدة؟ قلت : أشير بها إلى الأمانى المذكورة وهو إمنيتهم أن لاينزل على المؤمنين خير من ربهم، وأمنيتهم أن يردوهم كفارًا، وأمنيتهم ألا يدخل الجنة غيرهم. أى تلك الأمانى الباطلة أمانيهم[٢].

ويرى صاحب الانتصاف : أن المشار إليه واحد وهو قولهم ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى﴾ وجمع لإفادة أن تلك الأمنية قد تمكنت من نفوسهم وأشربتها قلوبهم. فقال : والجواب القريب أنهم لشدة تمنيهم لهذه الأمنية، ومعاودتهم لها، وتأكدها فى نفوسهم جمعت ليفيد جمعها أنها متأكدة فى قلوبهم بالغة منهم كل مبلغ، والجمع يفيد ذلك، وإن كان مؤداه واحدًا ونظيره قولهم : معى جياع، فجمعوا الصفة ومؤداها واحد، لأن موصوفها واحد، تأكيدًا لثبوتها وتمكنها، وهذا المعنى أحد ما روى فى قوله تعالى : ﴿إن هؤلاء لشرذمة قليلون﴾[٣] فإنه جمع «قليلا» وقد كان الأصل إفراده فيقال «لشرذمة قليلة» كقوله تعالى ﴿كم من فئة قليلة﴾ لولا ما قصد إليه من تأكيد القلة بجمعها، ووجه إفادة الجمع فى مثل هذا التأكيد، أن الجمع

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٤٩١.

(٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ١٣٠.

(٣) سورة الشعراء الآية ٥٤.

يفيد بوضعه الزيادة فى الآحاد فنقل إلى تأكيد الواحد، وإبانته زيادة على نظرائه، نقلا مجازيًا بديعًا فتدبر هذا الفصل فإنه من نفائس صناعة البيان والله المرفق»[١].

ثم أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يطالبهم بالدليل على صحة ما يدعون، فقال تعالى «قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين».

أى قل - يا محمد - لهؤلاء الزاعمين أن الجنة لهم خاصة من دون الناس، هاتوا حجتكم على خلوص الجنة لكم، إن كنتم صادقين فى دعواكم، لأنه لما كانت دعواهم الاختصاص بدخول الجنة لا تثبت إلا بوحى من الله وليس لمجرد التمنى، أمر الله - تعالى - نبيه ﷺ أن يطالبهم بالدليل من كتبهم على صحة دعواهم، وهذه المطالبة من قبيل التعجيز لأن كتبهم خالية مما يدل على صحتها.

قال الإمام ابن جرير: «وهذا الكلام وإن كان ظاهره دعاء القائلين ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى﴾ إلى إحضار حجة على دعواهم، فإنه بمعنى التكذيب من الله لهم فى دعواهم وقيلهم، لأنهم ليسوا بقادرين على إحضار برهان على دعواهم تلك أبدًا»[٢].

هذا، ويؤخذ من الآية الكريمة بطلان التقليد فى أمور الدين، وهو قبول قول الغير مجردًا من الدليل، فلا ينبغى للإنسان أن يقرر رأيًا فى الدين إلا أن يسنده إلى دليل، كما أنه لا يقبل من غيره قولا إلا أن يكون مؤيدًا بدليل.

أما عدم صحة التقليد فى أصول الدين: أى فيما يرجع إلى حقيقة الإيمان فالأمر فيه جلى، لأنه يكتفى فى إيمان الشخص بأى دليل ينشرح به صدره للإسلام، وتحصل له به الطمأنينة، كأن يستمد إيمانه بالله من التنبيه لحكمة الله فى إتقان المخلوقات، أو فى رعاية اللطف والرفق بالإنسان، ويستمد إيمانه بصدق الرسول ﷺ من الاستماع إلى القران الكريم، أو من سيرته التى لم يظهر بمثلها أو بما يقرب منها بشر غير رسول، والقصد أن لا يكون إسلامه لمجرد أنه فى بيئة إسلامية أو ولد من أب وأم مسلمين.

وأما التقليد فى الفروع أى فى الأحكام العملية، فالناس بالنظر إلى القدرة على تمييز الخطأ من الصواب درجات، فمن له قدرة على فهم الأدلة ومعرفة الراجح من الأحكام، لا يجوز أن يتلقى الحكم من غيره إلا مقرونًا بدليل، وإن كان قاصرًا عن هذه الدرجة أخذ بما يفتيه به العالم

(١) هامش تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣٣٠.
(٢) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٦٤٩.

المشهود له بالرسوخ فى علم الشريعة، والمعروف بالمحافظة على لباس التقوى ما استطاع»[١].

ثم أبطل القرآن الكريم مدعاهم بطريق آخر وهو إيراد قاعدة كلية رتبت دخول الجنة على الإيمان والعمل الصالح بلا محاباة لأمة أو لجنس أو لطائفة فقال تعالى:

﴿بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

﴿بلى﴾ حرف يذكر فى الجواب لإثبات المنفى فى كلام سابق، وقد صدرت الآية التى معنا بحرف «بلى» لإثبات ما نفوه وهو دخول غيرهم الجنة ممن لم يكن لا من اليهود ولا من النصارى، مادام قد أسلم وجهه لله وهو محسن.

وقوله تعالى: ﴿أسلم وجهه لله﴾ المراد به اتجه إليه، وأذعن لأمره، وأخلص له العبادة، وأصل معناه الاستسلام والخضوع.

وخص الله - تعالى - الوجه دون سائر الجوارح بذلك، لأنه أكرم الأعضاء وأعظمها حرمة، فإذا خضع الوجه الذى هو أكرم أعضاء الجسد فغيره من أجزاء الجسد أكثر خضوعًا.

وقوله تعالى: ﴿وهو محسن﴾ من الإحسان، وهو أداء العمل على وجه حسن أى: مطابق للصواب وهو ما جاء به الشرع الشريف.

والمعنى: ليس الحق فيما زعمه كل فريق منكم يا معشر اليهود والنصارى من أن الجنة لكم دون غيركم، وإنما الحق أن كل من أخلص نفسه لله، وأتى بالعمل الصالح على وجه حسن، فإنه يدخل الجنة، كما قال تعالى: ﴿فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

وقد أفادت الآية الكريمة ما يأتى:

(أ) إثبات ما نفوه من دخول غيرهم الجنة.

(ب) بيان أنهم ليسوا من أهل الجنة، إلا إذا أسلموا وجوههم لله، وأحسنوا له العمل فيكون ذلك ترغيبًا لهم فى الإسلام، وبيانًا لمفارقة حالهم لحال من يدخل الجنة، لكى يقلعوا عما هم عليه، ويعدلوا عن طريقتهم المعوجة.

(جـ) بيان أن العمل المقبول عند الله - تعالى - يجب أن يتوفر فيه أمران:

أولهما: أن يكون خالصًا لله وحده.

ثانيهما: أن يكون مطابقًا للشريعة التى ارتضاها الله تعالى وهى شريعة الإسلام.

---

(١) تفسير الآية الكريمة للمرحوم الشيخ محمد الخضر حسين: مجلة لواء الإسلام السنة الثالثة العدد الخامس ص ٧.

قال الإمام ابن كثير: «فمتى كان العمل خالصًا ولم يكن صوابًا لم يتقبل، ولهذا قال رسول الله ﷺ «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد» فعمل الرهبان ومن شابههم وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله فإنه لا يتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعًا للرسول ﷺ المبعوث فيهم وإلى الناس كافة، وفى أمثالهم قال الله - تعالى - ﴿وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾ وأما إن كان العمل موافقًا للشريعة فى الصورة الظاهرة، ولكن لم يخلص عامله القصد لله، فهو أيضًا مردود على فاعله، وهذا حال المرائين والمنافقين ولهذا قال تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا﴾[1].

وبذلك تكون الآيتان الكريمتان قد أبطلتا دعوى اليهود أن الجنة لهم دون غيرهم، وأثبتتا أن مزاعمهم هذه ما هى إلا من قبيل الأمانى والأوهام وكذبتهم فى أن يكون عندهم أى برهان أو دليل على ما يدعون ثم أصدرتا حكما عاما وهو أن الجنة ليست خاصة لطائفة دون أخرى، وإنما هى لكل من أسلم وجهه لله وهو محسن.

ثم بين القرآن بعد ذلك أن أهل الكتاب قد دأبوا على تضليل بعضهم البعض، وأن الخلاف بينهم قد أدى إلى التنازع والتخاصم فقال:

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾

فالآية الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك: ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى﴾.. إلخ، لزيادة بيان طبيعة أهل الكتاب، المعوجة، وأن رمى المخالف لهم بأنه ضال شنشنة فيهم.

والشىء: يطلق على الموجود، أو ما يصح أن يعلم ويخبر عنه، وقد ينفى مبالغة فى عدم الاعتداد به واليهود كفرت عيسى - عليه السلام - ومازالوا يزعمون أن المسيح المبشر به فى التوراة لم يأت، وسيأتى بعد، فهم يعتقدون أن النصارى باتباعهم له ليسوا على أمر حقيقى من

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ١٥٤.

التدين، والنصارى تكفر اليهود لعدم إيمانهم بالمسيح الذى جاء لإتمام شريعتهم، ونشأ عن هذا النزاع عداوة اشتدت بها الأهواء والتعصب حتى صار كل فريق منهم يطعن فى دين الآخر، وينفى عنه أن يكون له أصل من الحق.

وجملة ﴿وهم يتلون الكتاب﴾ حالية، والكتاب للجنس. أى: قالوا ذلك وحالهم أنهم من أهل العلم والتلاوة للكتب، إذ اليهود يقرءون التوراة والنصارى يقرءون الإنجيل، وحق من حمل التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الله وآمن به ألا يكفر بالباقى، لأن كل واحد من الكتابين مصدق للثانى، شاهد بصحته وكذلك كتب الله جميعًا متواردة على تصديق بعضها البعض.

وقوله: ﴿كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم﴾ معناه: كما أن أهل الكتاب قد قال كل فريق منهم فيمن خالفه إنه ليس على شىء من الدين الحق. فكذلك قال الذين لا يعلمون، وهم مشركو العرب، فى شأن المسلمين: إنهم ليسوا على شىء من الدين الحق، فتشابهت قلوب هؤلاء وقلوب أولئك فى الزيغ والضلال.

والهدف الذى ترمى إليه هذه الجملة، هو أن إنكار اليهود والنصارى لرسالة محمد ﷺ لا ينبغى أن يثير شبهة على عدم صحتها، حيث يسبق إلى أذهان الضعفاء من الناس أن تلاوتهم للكتاب تجعلهم أعرف بالنبوة الصادقة من غيرها. فكأن القرآن يقول: إن تلاوتهم للكتاب وحدهاا لا ينبغى أن تكون شبهه.

ألا ترون اليهود والنصارى وهم يتلون الكتاب كيف أنكر كل فريق منهما أن يكون الآخر على شىء حقيقى من التدين، فسبيلهم فى إنكار دين الإسلام كسبيل المشركين الذين أنكروه عن جهالة به.

وفى هذه الجملة توبيخ شديد لأهل الكتاب، حيث نظموا أنفسهم - مع علمهم - فى سلك من لا يعلم.

وقوله: ﴿فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾. صدر بالفاء، لأن التوعد بالحكم بينهم يوم القيامة، وإظهار ما أكنته ضمائرهم من الهوى والضلال، متفرع عن هذه المقالات ومسبب عنها، وهو خبر المقصود منه التوبيخ والوعيد.

والضمير المجرور بإضافة بين إليه راجع إلى الفرق الثلاث، وما كانوا فيه يختلفون يعم ما ذكر وغيره وقيل الضمير يعود على اليهود والنصارى.

والاختلاف: تقابل رأيين فيما ينبغى انفراد الرأى فيه.

ولم تصرح الآية الكريمة بماذا يحكم الله بينهم، لأنه من المعلوم أن من مظاهر حكم الله يوم القيامة إثابة من كان على حق، وعقاب من كان على باطل.

وبذلك تكون الآية الكريمة قد فضحت أهل الكتاب، حيث بينت كيف أن كل فريق منهم قد رمى صاحبه بالضلال، وفى هذا تثبيت للمؤمنين ونهى لهم عن أن ينهجوا نهجهم.

ثم تحدث القرآن عن سوء عاقبة من يسعى فى خراب بيوت الله، فقال:

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾

ويرى بعض المفسرين أن هذه الآية نزلت فى شأن الرومانيين الذين غزوا بيت المقدس وخربوه. ويرى آخرون أنها نزلت فى كفار قريش حين منعوا رسول الله ﷺ أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية.

وكيفما كان سبب النزول، فالآية تشمل بذمها ووعيدها، كل من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها.

ومن أسم استفهام يراد منه النفى، أى: لا أظلم. والمساجد: جمع مسجد، وهو المكان الخاص للعبادة، مأخوذ من السجود، وهو وضع الجبهة على الأرض خضوعًا لله وتعظيمًا.

والظلم: الاعتداء على حق الغير، بالتصرف فيه بمالا يرضى به، ويطلق على وضع الشىء فى غير ما يستحق أن يوضع فيه، والمعنيان واضحان هنا.

وذكر اسم الله كناية عما يؤدى فيها من العبادات، إذ لا تكاد عبادة تخلو من ذكر اسمه - تعالى -:

والسعى فى الأصل: المشى بسرعة فى معنى الطلب والعمل.

والخراب: ضد التعمير، ويستعمل لمعنى تعطيل المكان وخلوه مما وضع له.

قال القرطبى: «وخراب المساجد قد يكون حقيقيًا، كتخريب بختنصر والرومان لبيت

المقدس حيث قذفوا فيه القاذورات وهدموه. ويكون مجازًا كمنع المشركين حين صدوا رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام، وعلى الجملة فتعطيل المساجد عن الصلاة وإظهار شعائر الإسلام فيها خراب لها»[1].

والمعنى: لا أحد أظلم ممن حال بين المساجد وبين أن يعبد فيها الله، وعمل فى خرابها بالهدم كما فعل الرومان وغيرهم ببيت المقدس. أو بتعطيلها عن العبادة كما فعل كفار قريش، فهو مفرط فى الظلم بالغ فيه أقصى غاية.

قال صاحب الكشاف: «فإن قلت: فكيف قيل مساجد الله، وإنما وقع المنع والتخريب على مسجد واحد هو بيت المقدس أو المسجد الحرام؟ قلت لا بأس أن يجيء الحكم عامًا، وإن كان السبب خاصًا، كما تقول لمن آذى صالحًا واحدًا: ومن أظلم ممن آذى الصالحين، كما قال - عز وجل -: ﴿ويل لكل همزة﴾ والمنزول فيه هو الأخنس بن شريق»[2].

وقوله - تعالى -: ﴿أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين﴾ معناه: ما ينبغى لأولئك الذين يحولون بين المساجد وذكر الله ويسعون فى خرابها أن يدخلوها إلا خائفين من الله - تعالى - لمكانها من الشرف والكرامة بإضافتها إليه - تعالى - أو إلا خائفين من المؤمنين أن يبطشوا بهم، فضلا عن أن يستولوا عليها ويمنعوا المؤمنين منها.

قال ابن كثير: «وفى هذا بشارة من الله للمسلمين بأنه سيظهرهم على المسجد الحرام، ويذل لهم المشركين حتى لا يدخل المسجد الحرام واحد منهم إلا خائفًا يخاف أن يؤخذ فيعاقب، أو يقتل إن لم يسلم، وقد أنجز الله هذا الوعد فمنع المشركين من دخول المسجد الحرام، وذلك أنه بعد أن تم فتح مكة للمسلمين أمر النبى ﷺ من العام القابل مناديًا ينادى برحاب منى «ألا لا يحجن بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان، ومن كان له أجل فأجله إلى مدته». وعندما حج النبى ﷺعام حجة الوداع لم يجترئ. أحد من المشركين أن يحج أو أن يدخل المسجد الحرام. وهذا هو الخزى فى الدنيا لهم، المشار إليه بقوله - تعالى -: ﴿لهم فى الدنيا خزى﴾ لأن الجزاء من جنس العمل[3].

ثم ختمت الآية الكريمة ببيان عاقبة هؤلاء الساعين فى خراب مساجد الله فقال - تعالى -:

﴿لهم فى الدنيا خزى، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم﴾. أى: لهم فى الدنيا هوان وذلة بسبب ظلمهم وبغيهم، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم بخلدون معه فى النار. وليس هناك أشقى من

---

(١) تفسير القرطبى جـ٢ ص ٧٧.
(٢) تفسير الكشاف جـ٢ ص ١٧٩.
(٣) تفسير ابن كثير جـ١ ص ١٠٨.

يعيش دنياه فى هوان وذلة، ثم ينتقل إلى أخراه فيجد مصيره العذاب الأليم الذى لا يموت فيه ولا يحيا.

ثم أخذ القرآن فى تسلية المسلمين الذين أخرجوا من مكة وفارقوا المسجد الحرام، مبيينًا لهم أن الجهات كلها لله - تعالى - فقال:

وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

المشرق والمغرب: مكان شروق الشمس وغروبها، والمراد بهما هنا جميع جهات الأرض. واللام فى قوله: «ولله» تفيد معنى الملك.

والتولية: التوجه من جهة إلى أخرى. و(ثم) اسم إشارة للمكان.

والوجه: الجهة، فوجه الله الجهة التى ارتضاها وأمر بالتوجه إليها وهى القبلة.

والمعنى: أن جميع الأرض ملك لله وحده، ففى أى مكان من المشرق والمغرب توليتم شطر القبلة التى أمركم الله بها ورضيها لكم، فهناك جهته - سبحانه - التى أمرتم بها، والتى تبرأ ذممكم باستقبالها.

ومعنى هذا: الإذن بإقامة الصلاة فى أى مكان من الأرض دون أن تختص بها المساجد، ففى الحديث الشريف: «جعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا».

وكأن الآية تومى، إلى أن سعى أولئك الظالمين فى منع المساجد من ذكره - تعالى - وتخريبها، لا يمنع من أداء العبادة لله - تعالى -: لأن له المشرق والمغرب وما بينهما، فأينما حل الإنسان وتحرى القبلة المأمور بالتوجه إليها فهناك جهة الله المطلوب منه استقبالها.

وذيلت الآية بقوله ﴿إن الله واسع عليم﴾ لإفادة سعة ملكه أو سعة تيسيره على عباده فى أمر الدين. أى: إن الله يسع خلقه جميعًا برحمته وتيسيره وجوده وهو عليم بأعمالهم لا يخفى عليه عمل عامل أينما كان وكيفما كان.

ثم حكى القرآن بعض الأقاويل الباطلة التى افتراها أصحاب القلوب المريضة فقال - تعالى -:

وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾

قوله - تعالى - : ﴿وقالوا اتخذ الله ولدًا﴾ معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك وقالت اليهود ليست النصارى على شىء إلخ».

واتخذ : من الاتخاذ وهو الصنع والجعل والعمل. والولد : يطلق على الذكر والأنثى، والواحد والجمع.

والذين قالوا اتخذ الله ولدا هم اليهود والنصارى والمشركون، فقد حكى الله عن اليهود أنهم قالوا : ﴿عزير ابن الله﴾ وحكى عن النصارى أنهم قالوا: ﴿المسيح ابن الله﴾ وحكى عن المشركين أنهم قالوا «الملائكة بنات الله» فيصح أن يكون الضمير فى قالوا عائدًا على الفرق الثلاث أو على بعضهم. فمن المعروف أن القرآن يجرى على الأسلوب المعروف فى المخاطبات حيث يسند إلى القوم ما صدر من بعضهم فحين قال : ﴿وقالت اليهود عزير بن الله﴾ أصبح من السائغ فى صحة المعنى أن يكون هذا القول قد صدر من طائفة منهم :

وقوله : ﴿سبحانه﴾ تنزيه له عما هو نقص فى حقه ومحال عليه من اتخاذ الولد، لاقتضاء الوالدية : النوعية والجنسية والتناسل والافتقار، والتشبيه والحدوث وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال :

«لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولدًا، وهو يرزقهم ويعافيهم».

وسبحان : مصدر لسبح بمعنى نزه، وهو منصوب بفعل لم يسمع من العرب التصريح به معه، والأصل : أسبحه سبحانه، فحذف الفعل وأقيم المصدر مقامه، وأضيف إلى ضمير المنزه.

وقوله : ﴿بل له ما فى السموات والأرض﴾ إضراب عن مقالاتهم التى نسبوا بها إلى الله اتخاذ الولد، وشروع فى الاستدلال على بطلانها.

واللام فى قوله : ﴿له﴾ للاختصاص الكامل وهو الملك الحقيقى، و (ما) اسم موصول يراد منه الكائنات : ما يعقل وما لا يعقل ومن جملة هذه الكائنات من ادعوا أنه ولد لله.

والمقصود إثبات أن قولهم ﴿اتخذ الله ولدًا﴾ زعم باطل، فإن جميع ما احتوت عليه السموات والأرض مملوك لله يتصرف فيه كيف يشاء، فلا حاجة إلى اتخاذ الولد، إذ الولد إنما يسعى إليه الوالد، أو يرغب فيه ليعتزبه أو ليحيى ذكره، أو ليستعين به على القيام بأعباء الحياة. والله - تعالى - منزه عن أمثال هذه الأغراض التى لا تليق إلا بمن خلق ضعيفًا كالإنسان ثم إن الحكمة من التوالد بقاء النوع محفوظًا بتوارد أمثال الوالد حيث لا سبيل إلى بقائه بعينه، أما الخالق - تعالى - فهو الواحد فى ذاته وصفاته، الباقى على الدوام، كما قال تعالى :

﴿كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾. وقوله - تعالى - : ﴿كل له قانتون﴾.

معناه : كل له مطيعون طاعة تسخير وانقياد، خاضعون لا يستعصى منهم شىء على مشيئته وإرادته : شاهدون بلسان الحال والمقال على وحدانيته من القنوت وهو لزوم الطاعة مع الخضوع، وإنما جاء ﴿قانتون﴾ بجمع المذكر المختص بالعقلاء، مع أن الخضوع لله يكون من العقلاء وغيرهم تغليبًا للعقلاء على غيرهم، لأنهم أهل القنوت عن إرادة وبصيرة، ولأن ظهوره فيهم أكمل من ظهوره فى غيرهم.

وفصلت جملة ﴿كل له قانتون﴾ عن سابقتها، لقصد استقلالها بالاستدلال على نفى أن يكون لله ولد، حتى لا يظن السامع أنها مكملة للدليل المسوق له قوله - تعالى - : ﴿له ما فى السموات والأرض﴾.

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر قدرته فقال : ﴿بديع السموات والأرض﴾ أى : مبدعهما ومنشئهما بلا احتذاء ولا اقتداء. وبلا آلة ولا مادة، وبديع صفة مشبهة من أبدع، والذى ابتدعهما من غير أصل ولا مثال هو الله - تعالى -. وخص السموات والأرض بالإبداع، لأنهما أعظم ما يشاهد من المخلوقات.

قال القرطبى : «قوله -تعالى- : ﴿بديع السموات والأرض﴾ فعيل للمبالغة. وارتفع على أنه خبر ابتداء محذوف، واسم الفاعل مبدع كبصير من مبصر. أبدعت الشىء لا عن مثال، فالله -تعالى- بديع السموات والأرض، أى منشئهما وموجدهما، ومخترعهما، على غير حد ولا مثال، وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له مبدع، ومنه أصحاب البدع؛ وسميت البدعة بدعة لأن قائلها ابتدعها من غير فعل أومقال إمام...»[1].

وقوله : ﴿وإذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون﴾ معناه : وإذا أراد - سبحانه - إحداث أمر من الأمور حدث فورًا. «وكن فيكون، فعلان من الكون بمعنى الحدوث. ويرى كثير من أهل السنة أن الجملة واردة على وجه التمثيل، لحدوث ما تتعلق به إرادته - سبحانه - بلا مهلة وبلا توقف. وليس المراد أنه إذا أراد إحداث أمر أتى بالكاف والنون، ففى الكلام استعارة تمثيلية.

ويرى آخرون أن الأمر يكن محمول على حقيقته، وأنه - تعالى - أجرى سنته فى تكوين الأشياء أن يكونها بكلمة كن أزلا.

وبذلك نرى أن الآيتين الكريمتين قد حكتا بعض الشبهات الباطلة التى أوردها الضالون

---

(١) تفسير القرطبى جـ١ ص ٨٦.

حول وحدانية الله وردت عليها بما يدحضها ويثبت كذبها.

ثم أورد القرآن بعد ذلك الشبهات التى أثاروها حول نبوة محمد ﷺ وأجاب عنهابما يبطلها فقال تعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾

عن ابن عباس قال: قال رافع بن حريملة اليهودى لرسول الله ﷺ يا محمد، إن كنت رسولا من الله كما تقول، فقل لله يكلمنا حتى نسمع كلامه فأنزل الله هذه الآية(1).

فالآية الكريمة معطوفة على قوله: ﴿وقالوا اتخذ الله ولدًا..﴾.

ومعنى الآية الكريمة. ﴿وقال الذين لا يعلمون﴾ علمًا نافعًا أمثال هؤلاء اليهود الذين طالبوك بالمطالب المتعنتة - يا محمد - ﴿لولا يكلمنا الله﴾ إما مشافهة، أو بواسطة الوحى إلينا لا إليك، أو يرينا حجة تقوم على صدق رسالتك، قالوا هذا على وجه العناد والجحود أن تكون الآيات التى أقامها الله على صدق رسالته آيات حقًا.

وقد رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم﴾ أى: مثل هذا القول المتعنت، قال الجاحدون من أسلافهم الذين أرسل الله إليهم الرسل ليخرجوهم من الظلمات إلى النور وفى هذه الجملة تسلية للرسول ﷺ بأن ما لاقاه من قومه مثل ما لقيه الرسل من قبله.

﴿تشابهت قلوبهم﴾ أى تشابهت قلوب هؤلاء وأولئك فى العناد والضلال.

﴿قد بينا الآيات لقوم يوقنون﴾ أى: جعلناها بينة واضحة فى ذاتها لمن شأنهم الإخلاص فى طلب الحق أينما كان، فيتجهون إليه عن طريق الأدلة الصحيحة بقلوب نقية من الأهواء موقنة بجلال الحق ووجوب الطاعة.

---

(1) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٦١.

قال الإمام الرازى : وتقرير شبهتهم أن الحكيم إذا أراد تحصيل شىء، اختار أقرب الطرق إليه، وبما أن الله قد كلمَ موسى وكلمك يا محمد فلم لا يكلمنا مشافهة، أو يخصك بمعجزة يتجلى من ورائها صدق نبوتك، وهذا منهم طعن فى أن القرآن معجزة، لأنهم لو أقروا بذلك لاستحال أن يقولوا ما قالوه.

فأجابهم الله عن هذه الشبهة بقوله ﴿كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم﴾ وحاصل هذا الجواب : أنا قد أيدنا قول محمد بالمعجزات، وبينا صحة قوله بالقرآن وسائر الحجج، فكان طلب هذه الزوائد من باب التعنت. وعليه فلن تجاب مطالبكم لوجوه منها :

١ - لو كان فى معلوم الله أنهم يؤمنون عند إنزال هذه الآيات لفعلها ولكنه علم أنه لو أعطاهم ما سألوه لازدادوا لجاجًا.

٢ - أن حصول الدلالة الواحدة تمكن المكلف من الوصول إلى المطلوب، فإذا لم يكتف بها، كان طلبه من باب المعاندة.

٣ - ربما كانت كثرة المعجزات وتعاقبها تقدح فى كونها معجزة لأن الخوارق متى توالت كان انخراق العادة عادة. فثبت أن عدم إسعافهم بهذه الآيات لا يقدح فى النبوة[1].

هذا، وبعض المفسرين يرى أن المراد «بالذين لا يعلمون» اليهود، وبعضهم يرى أن المراد بهم مشركو العرب وبعضهم يرى أن المراد بهم النصارى، ونحن نرى أن اللفظ صالح لأن يندرج تحته جميع هذه الطوائف قضاء لحق الموصول المفيد للتعميم، ولكننا نختار أن اليهود هم المقصودون قصدًا أوليًا من هذه الآية للأسباب الآتية :

١ - الآية ضمن سلسلة طويلة من الآيات السابقة عليها واللاحقة لها، وكلها تتحدث عن بنى إسرائيل وأحوالهم وأخلاقهم.

٢ - جملة ﴿كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم﴾ قرينة على أن المقصود بالذين لا يعلمون هم اليهود المعاصرون للعهد النبوى، حيث كان أجدادهم يطلبون من موسى مثل هذه المطالب، لقد قالوا له : ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ وقالوا : ﴿أرنا الله جهرة﴾ وطلبوا منه كثيرا من المطالب المتعنتة.

٣ - الآية مدنية ومن سورة البقرة التى هى من أوائل ما نزل على الرسول ﷺ بالمدينة، ومن المعروف أن حديث القرآن المدنى عن أهل الكتاب بصفة عامة، وعن اليهود بصفة خاصة، أكثر من حديثه عن مشركى العرب، لأن البيئة المدنية صلتها بأهل الكتاب أشد وألصق.

---

(١) تفسير الرازى جـ ١ ص ٤١٦.

٤ - سبب نزول الآية الذى ذكرناه يؤيد أن اليهود مقصودون قصدًا أوليًا فى هذه الآية.

٥ - القائلون بأن المراد بالذين لا يعلمون مشركو العرب، دعموا قولهم بأن آيات القرآن التى تحكى عنهم أمثال هذه المقترحات مستفيضة. وكأنهم يستبعدون أن تصدر مثل هذه الأسئلة عن اليهود.

وردنا عليهم أن القرآن الكريم قد حكى عن اليهود أمثال هذه الأسئلة بدليل قوله تعالى: ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابًا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا﴾[1].

٦ - الإمام ابن جرير رجح أن المراد ﴿بالذين لا يعلمون﴾ النصارى، مستدلا بأن ذلك فى سياق خبر الله عنهم، فالآية السابقة على هذه الآية تقول.

﴿وقالوا اتخذ الله ولدًا سبحانه، بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون﴾ والنصارى هم الذين قالوا ذلك.

وهذا الاستدلال لا نوافقه عليه لما يأتى:

(أ) لأن الآية ليست فى سياق خبر الله عن النصارى، وإنما هى فى سياق خبر الله عن اليهود، الذين زخرت سورة البقرة ببيان مواقفهم وحجاجهم وأخلاقهم فى أكثر من مائة آية سابقة ولاحقة من هذه السورة.

(ب) ليس النصارى وحدهم هم الذين قالوا اتخذ الله ولدًا وإنما اليهود أيضًا قالوا ذلك، قال تعالى: ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾[1].

(جـ) لم يأت الإمام ابن جرير بدليل واحد ينقض به رأى القائلين بأن المراد بالذين لا يعلمون اليهود، ولم يتعرض للنص الذى أورده ابن عباس فى سبب نزول الآية بالتضعيف أو الإعلال، مع أنه انتقد رأى القائلين بأن المراد بهم مشركو العرب (بأنه قول لا برهان على حقيقته فى ظاهر الكتاب).

هذا وبعد تلك الأدلة على ما ذهبنا إليه نعود فنقول مرة أخرى: إننا لا نمانع فى أن يكون المراد بالذين لا يعلمون جميع الطوائف المشركة ولكنا نرجح أن اليهودهم المقصودون قصدًا أوليًا مهما دخل غيرهم معهم فى السياق، وإن الآية قد نزلت للرد على مطالبهم المتعنتة واقتراحاتهم التى لا خير من ورائها، ومحاولاتهم الطعن فى نبوة النبى ﷺ.

---

(١) سورة النساء الآية ١٣٥.

(١) سورة التوبة الآية ٣٠.

ثم ساق القرآن للنبى ﷺ ما يسلبه ويثبته فقال :

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾

وقوله : ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيرًا ونذيرًا﴾ معناه : إنا أرسلناك يا محمد بالدين الصحيح المشتمل على الأحكام الصادقة، لتبشر بالثواب من آمن وعمل صالحًا، وتنذر بالعقاب من كفر وعصى.

وصدرت الآية الكريمة بحرف التأكيد، لمزيد الاهتمام بهذا الخبر، وللتنويه بشأن الرسول ﷺ.

وجىء بالمسند إليه ضمير الجلالة، تشريفًا للنبى ﷺ فكأن الله - تعالى - يشافهه بهذا الكلام بدون واسطة، ولذا لم يقل له إن الله أرسلك.

وقوله : ﴿بالحق﴾ متعلق بأرسلناك. واالحق : مأخوذ من حق الشىء، أى : وجب وثبت، ويطلق الحق على الحكم الصادق المطابق للواقع، ويسمى الدين الصحيح حقًا لاشتماله على الأحكام الصادقة.

وقوله : ﴿بشيرًا ونذيرًا﴾ حالان، والبشير : المبشر، وهو المخبر بالأمر السار للمخبر به الذى لم يسبق له علم به. والنذير : المنذر، وهو المخبر بالأمر المخوف ليحذر منه.

وجملة ﴿ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾ معطوف على جملة ﴿إنا أرسلناك﴾.

والجحيم : المتأجج من النار. وأصحابها : الملازمون لها. والسؤال : كناية عن المؤاخذة واللوم.

والمعنى : لا تذهب نفسك عليهم حسرات يا محمد، فإن وظيفتك أن تبشر وتنذر ولست بعد ذلك مؤاخذًا ببقاء الكافرين على كفرهم، ولست مسئولا عن عدم اهتدائهم ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾.

وفى وصفهم بأنهم أصحاب الجحيم، إشعار بأنهم قد طبع على قلوبهم، فصاروا لا يرجى منها الرجوع عن الكفر.

وفى هذه الجملة مع قوله : «بشيرًا ونذيرًا» تسلية للرسول ﷺ حيث لم يؤمن به أولئك الجاحدون المتعنتون.

ثم بين القرآن موقف أهل الكتاب من الدعوة الإسلامية فقال : ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾.

الملة : الطريقة المسلوكة، ثم جعلت اسما لما شرعه الله لعباده على لسان نبيه ليتوصلوا إلى السعادة الدائمة، وقد تطلق على ما ليس حقًا من الأديان المنحرفة أو الباطلة، كما حكى القرآن عن يوسف عليه السلام - أنه قال :

﴿إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون﴾.

وأفرد القرآن الملة فقال - تعالى - ملتهم - «مع أن لكل من اليهود والنصارى ملة خاصة، لأن الملتين بالنظر إلى مخالفتها لدين الإسلام وما طرأ عليهما من التحريف بمنزلة واحدة، فاتباع إحداهما كاتباع الأخرى فى قلة الانتفاع به.

ومعنى الغاية فى قوله : «حتى تتبع ملتهم الكناية عن اليأس من اتباع أهل الكتاب لشريعة الإسلام، لأنهم لما كانوا لا يرضون إلا باتباعه ﷺ ملتهم وكان اتباع النبى ﷺ لملتهم مستحيلا، فقد صار رضاهم عنه كذلك مستحيلا، فالجملة الكريمة مبالغة فى الإقناط من إسلامهم، وتنبيه على أنه لا يرضيهم إلا ما لا يجوز وقوعه منه.

ثم لقن الله - تعالى - نبيه - ﷺ الجواب فقال : ﴿قل إن هدئ الله هو الهدى﴾.

وهدى الله : دينه والهدى، بمعنى الهادى إلى طريق الفلاح فى الدنيا والآخرة. أى : ما أنت عليه يا محمد من هدى الله الحق الذى يضعه فى قلب من يشاء هو الهدى الحقيقى لا ما يدعيه هؤلاء من الأهواء.

وإيراد الهدى معرفًا بأل مع اقترانه بضمير الفصل «هو» يفيد قصر الهداية على دين الله، وينفى أن يكون فى دين غير دين الله هدى. وإذا كانت الهداية مقصورة على الدين الذى جاء به محمد ﷺ فكيف يطمع أهل الكتاب فى أن يتبع ملتهم؟

ثم حذر القرآن من اتباع أهل الكتاب فقال : ﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم، ما لك من الله من ولى ولا نصير﴾.

اللام فى قوله : ﴿ولئن﴾ تشعر بأن فى الجملة قسمًا مقدرًا روعى فى صدرها ليفيد تأكيد ما تضمنته من أن متبع أهواء أهل الكتاب لا يجد من الله وليًا ولا نصيرًا.

والأهواء : جمع هوى، والمراد بها آراؤهم المنحرفة عن الحق الصادرة من شهوات فى أنفسهم. والعلم : الدين : وسمى علمًا لأنه يعلم بالأدلة القاطعة.

والولى : القريب والحليف. والنصير : كل من يعين غيره على من يناوئه ويبسُط إليه يده بسوء.

والمعنى : ولئن اتبعت - يا محمد - آراءهم الزائفة، بعد الذى جاءك من العلم بأن دين الله هو الإسلام، أو من الدين المعلوم صحته بالبراهين الواضحة، مالك من الله من ولى يلى أمرك ولا نصير يدفع عنك عقابه.

وإنما أوثر خطابه ﷺ بذلك ليدخل دخولا أوليًا من اتبع أهواءهم بعد الإسلام من المنافقين تمسكًا بولايتهم، وطمعًا فى نصرتهم.

وبعد أن ذكر القرآن فى الآيات السابقة أحوال الكافرين من أهل الكتاب أخذ فى بيان حال المؤمنين، فقال :

﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته﴾.

أى : يقرءونه قراءة حقة، مصحوبة بضبط لفظه، وتدبر معانيه، ولا شك أن ضبط لفظه يقتضى عدم تحريف ما لا يوافق أهواء أهل الكتاب، كالجمل الواردة فى نعت رسول الله ﷺ وأن تدبره يستدعى اتباعه والعمل به.

وجملة : ﴿يتلونه حق تلاوته﴾ حال من الضمير (هم) أو من الكتاب وهذه الحال من قبيل الأحوال التى تلابس صاحبها بعد وقوع عاملها، فإنهم إنما يتلون الكتاب بعد أن يؤتوه. وهى التى تسمى بالحال المقدرة أى : مقدرًا وقوعها بعد وقوع عاملها.

والمراد بالذين أوتو الكتاب، مؤمنو أهل الكتاب. والمراد بالكتاب التوراة والإنجيل. أو هم أصحاب النبى ﷺ والكتاب : القرآن.

وأجاز بعضهم أن تكون الآية سيقت مدحًا لمن آمن من أهل الكتاب بالقرآن، فيكون الضمير فى يتلونه القرآن.

وقوله : ﴿أولئك يؤمنون به﴾ خبر عن قوله : ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾.

وفى ذكر الإشارة ووضعه فى صدر الجملة المخبر بها، زيادة تأكيد لإثبات إيمانهم.

وفى هذه الجملة تعريض بأولئك المعاندين الذين كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه، فكأن الآية التى معنا تقول: ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ وكان من حالهم أن قرءوه حق قراءته، يؤمنون به إيمانا لا ريبة فيه، بخلاف المعاندين المحرفين للكلم عن مواضعه.

ثم بين - سبحانه - عاقبة الكافرين بكتبه فقال: ﴿ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون﴾.

والكفر بالكتاب يتحقق بتحريفه وانكار بعض ما جاء فيه، أى ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون فى الدنيا حيث لا يعيشون فيها عيش المؤمنين وهم الخاسرون فى الآخرة، إذ سيفوتهم ما أعده الله لعباده من نعيم دائم، ومقام كريم.

وكما بدأ القرآن حديثه مع اليهود بندائهم بأحب أسمائهم إليهم، فقد اختتمه - أيضًا - بهذا النداء فقال:

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

ففى هاتين الآيتين تكرير لتذكير بنى إسرائيل بما سبق أن ذكروا به فى صدر الحديث معهم فى هذه السورة، وذلك لأهمية ما ناداهم من أجله وأهمية الشيء تقتضى تكرار الأمر به إبلاغا فى الحجة وتأكيدًا للتذكرة.

قال القاضى: ولما صدر القرآن قصة بنى إسرائيل بذكر النعم والقيام بحقوقها والحذر من إضاعتها، والخوف من الساعة وأهوالها، كرر ذلك وختم به الكلام معهم، مبالغًا فى النصح وإيذانًا بأنه فذلكة القضية، والمقصود من القصة.

هذا وبعد أن ذكر الله - تعالى - فى الآيات السابقة نعمه على بنى إسرائيل، وبين كيف كانوا يقابلون النعم بكفر وعناد، ويأتون منكرات فى الأقوال والأعمال، وختم الحديث معهم بإنذار بالغ. وتذكير بيوم لا يغنى فيه أحد عن أحد شيئًا، بعد كل ذلك واصل القرآن حديثه عن

قصة إبراهيم - عليه السلام - لأنهم هم والمشركون ينتمون إليه ويقرون بفضله، فقال - تعالى - :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾

والابتلاء : الاختبار. أى. اختبره ربه - تعالى - بما كلفه به من الأوامر والنواهى، ومعنى اختبار الله - تعالى - لعبده، أن يعامله معاملة المختبر مجازًا، إذ حقيقة الاختبار محالة عليه - تعالى - لعلمه المحيط بالأشياء والله - تعالى - تارة يختبر عباده بالضراء ليصبروا. وتارة بالسراء ليشكروا وفى كلتا الحالتين تبدو النفس البشرية على حقيقتها.

وفى إسناد الابتلاء إلى الرب إشعار للتالى أو للسامع بأنه ابتلاه بما ابتلاه به تربية له، وتقوية لعزمه، حتى يستطيع النهوض بعظائم الأمور.

وقد اختلف المفسرون فى تعيين المراد بالكلمات التى اختبر الله بها نبيه إبراهيم - عليه السلام - على أقوال كثيرة.

قال ابن جرير : «ولا يجوز الجزم بشىء مما ذكروه منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع. قال : ولم يصح فى ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذى يجب التسليم له، ولعل أرجح الآراء فى المراد بهذه الكلمات، أنها الأوامر التى كلفه الله بها، فأتى بها على أتم وجه».

وقوله : ﴿فأتمهن﴾ أى أتى بهن على الوجه الأكمل، وأداهن أداء تامًا يليق به - عليه السلام - ولذا مدحه الله بقوله : ﴿وإبراهيم الذى وفى﴾.

وجىء بالفاء فى ﴿فأتمهن﴾ للدلالة على الفور والامتثال. وذلك من شدة العزم، وقوة اليقين.

وفى إجمال القرآن لتلك الكلمات التى امتحن الله بها إبراهيم، وفى وصفه له بأنه أتمهن، إشعار بأنها من الأعمال التى لا ينهض بها الا ذو عزم قوى يتلقى أوامر ربه بحسن االطاعة وسرعة الامتثال.

وقدم المفعول وهو لفظ إبراهيم؛ لأن المقصود تشريف إبراهيم بإضافة اسم الرب إلى اسمه مع مراعاة الإيجاز، فلذلك لم يقل وإذ ابتلى الله ابراهيم.

وجملة ﴿قال إنى جاعلك للناس إمامًا﴾ مستأنفة لبيان ما من الله به على إبراهيم من الكرامة ورفعة المقام، بعد أن ذكر - سبحانه - أنه عامله معاملة المختبر له، إذ كلفه بأمور شاقة فأحسن القيام بها.

جاعلك: من جعل بمعنى صير. والإمام: القدوة الذى يؤتم به فى أقواله وأفعاله.

والمراد بالإمامة هنا: الرسالة والنبوة، فإنهما أكمل أنواع الإمامة، والرسول أكمل أفراد هذا النوع، وقد كان إبراهيم - عليه السلام - رسولا يقتدى به الناس فى أصول الدين ومكارم الأخلاق.

وقال: ﴿إنى جاعلك للناس إمامًا﴾ ولم يقل: «إنى جاعلك للناس رسولا، ليكون ذلك دالا على أن رسالته تنفع الأمة المرسل إليها بطريق التبليغ، وتنفع غيرهم من الأمم بطريق الاقتداء، فان إبراهيم - عليه السلام - قد رحل إلى آفاق كثيرة، فانتقل من بلاد الكلدان إلى العراق، وإلى الشام، وإلى الحجاز، وإلى مصر وكان فى جميع منازله أسوة حسنة لغيره.

وقد مدح القرآن إبراهيم فى كثير من آياته، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا﴾.

وجملة ﴿قال ومن ذريتى﴾ واقعة موقع الجواب عما من شأنه أن يخطر فى نفس السامع، فكأنه قال: وماذا كان من إبراهيم عندما تلقى من ربه تلك البشارة العظمى؟ فكان االجواب أن إبراهيم قد التمس الإمامة لبعض ذريته أيضًا.

أى: قال إبراهيم: واجعل يارب من ذريتى أئمة يقتدى بهم.

وقد رد الله - تعالى - على قول إبراهيم بقوله: ﴿قال لا ينال عهدى الظالمين﴾.

وإنما قال إبراهيم ومن ذريتى ولم يقل وذريتى، لأنه يعلم أن حكمة الله من هذا العالم لم تجر بأن يكون جميع نسل أحد ممن يصلحون لأن يقتدى بهم فلم يسأل ما هو غير مألوف عادة، لأن سؤال ذلك ليس من آداب الدعاء.

أى: قال الله لإبراهيم: قد أجبتك وعاهدتك بأن أحسن إلى ذريتك لكن لا يصيب عهدى الذى عهدته إليك بالإمامة الذين ظلموا منهم، فالعهد هنا بمعنى الإمامة المشار إليها فى قوله: ﴿جاعلك للناس إمامًا﴾.

وفى هذه الجملة الكريمة إيجاز بديع، إذ المراد منها إجابة طلب إبراهيم من الإنعام على بعض ذريته بالإمامة كما قال - تعالى -:

﴿وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب﴾ ولكنها تدل صراحة على أن الظالمين من ذريته ليسوا

أهلا لأن يكونوا أئمة يقتدى بهم، وتشير إلى أن غير الظالمين منهم قد تنالهم النبوة، وقد نالت من ذريته إسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وغيرهم من الأنبياء.

قال - تعالى - : ﴿وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾.

ثم تحدث القرآن بعد ذلك عن مكانة البيت الحرام، وعن قصة بنائه، وعن الدعوات الخاشعات التى كان إبراهيم يتضرع بها إلى الله عند رفعه البيت فقال:

وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

وقوله - تعالى - : ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنًا﴾ معطوف على قوله - تعالى - : ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه﴾.

وجعلنا : بمعنى صيرنا. والبيت : المقصود به الكعبة، إذ غلب استعمال البيت فيها حتى صار اسما لها.

ومثابة للناس : مرجعًا للناس يرجعون إليه من كل جانب، وهو مصدر ميمى من ثاب القوم إلى المكان رجعوا إليه. فهم يثوبون إليه ثوبًا وثوبانا، أو معاذا لهم يلجأون إليه أو موضع ثواب يثابون بحجه واعتماره.

والأمن : السلامة من الخوف، وأمن المكان : اطمئنان أهله به، وعدم خوفهم من أن ينالهم فيه مكروه فالبيت مأمن، أى موضع أمن. وأخبر - سبحانه - بأنه جعله أمنا ليدل على كثرة ما يقع به من الأمن حتى صار كأنه نفس الأمن.

وكذلك صار البيت الحرام محفوظًا بالأمن من كل ناحية، فقد كان الناس فى الجاهلية يقتتلون ويعتدى بعضهم على بعض من حوله، أما أهله فكانوا فى أمان واطمئنان. قال تعالى : ﴿أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم﴾ وقال - تعالى - : ﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا﴾.

وقد أقرت تعاليم الإسلام هذه الحرمة للبيت الحرام على وجه لا يضيع حقًا ولا يعطل حدًا، وزادت فى تكريمه وتشريفه بأن جعلت الحج إليه فريضة على كل قادر عليها.

قال الإمام ابن كثير: «ومضمون ما فسر به العلماء هذه الآية أن الله تعالى يذكر شرف البيت وما جعله موصوفًا به شرعًا وقدرًا من كونه مثابة للناس. أى : جعله محلا تشتاق إليه الأرواح وتحن إليه ولا تقضى منه وطرًا ولو ترددت إليه فى كل عام استجابة من الله - تعالى - لدعاء خليله إبراهيم فى قوله تعالى : ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم﴾ ويصفه - تعالى - بأنه جعله أمنا من دخله أمن ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان آمنا، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فيه فلا يعرض له :

﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ الاتخاذ : الجعل، تقول اتخذت فلانًا صديقًا أى : جعلته صديقًا. والمقام فى اللغة : موضع القدمين من قام يقوم، ومقام إبراهيم : هو الحجر الذى كان إبراهيم يقوم عليه عند بناء الكعبة لما ارتفع الجدار، وهو - على المشهور - تحت المصلى المعروف الآن بهذا الاسم.

ومعنى اتخاذ مصلى منه : القصد إلى الصلاة عنده. فقد ورد فى الحديث الصحيح الذى رواه الإمام مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ طاف بالبيت سبعًا وصلى خلف المقام ركعتين».

ومن العلماء من فسر مقام إبراهيم بالمسجد الحرام، ومنهم من أطلقه على الكعبة لأن إبراهيم كان يقوم عندها لعبادة الله تعالى.

قال الإمام ابن كثير: «وقد كان هذا المقام - أى الحجر الذى يسمى مقام إبراهيم - ملصقًا بجدار الكعبة قديمًا، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلى الحجر على يمين الداخلَ من الباب فى البقعة المستقلة هناك، وكان الخليل - عليه السلام - لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة.. ثم قال: وإنما أخره عن جدار الكعبة إلى موضعه الآن عمر - رضى الله عنه - ولم ينكر ذلك عليه أحد من الصحابة[1]:

ثم قال - تعالى -: ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾.

عهدنا: أمرنا وأوحينا، و ﴿أن﴾ مفسرة المأمور به أو الموصى به المشار إليه بقوله: ﴿عهدنا﴾ أى: أوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى.

وأضاف - سبحانه - البيت إليه للتشريف والتكريم ومعنى تطهيره: صيانته من كل ما لا يليق ببيوت الله من الأقذار والأرجاس والأوثان وكل ما كان مظنة للشرك، فالمقصود تطهيره من كل رجس حسى ومعنوى.

والطائفين: جمع طائف من طاف يطوف طوفًا وطوافًا إذا دار حول الشىء والمراد بهم: المتقربون إلى الله بالطواف حول الكعبة.

والعاكفين: جمع عاكف، من عكف على الشىء عكوفًا إذا أقام عليه ملازمًا له، والمراد بهم: المقيمون فى الحرم بقصد العبادة، ويدخل فى العبادة مدارسة العلوم الدينية وما يساعد على فهمها.

والركع السجود: الركع جمع راكع، والسجود: جمع ساجد.

والركوع والسجود من هيئات الصلاة وأركانها، فمعنى «والركع السجود» المصلون.

فالآية الكريمة جمعت أصناف العابدين فى البيت الحرام: وهم الطائفون وإن لم يكونوا مقيمين، كمن يأتون لحج أو عمرة ثم ينصرفون.

والعاكفون الذين يقيمون فى الحرم بقصد الإكثار من العبادة فى المسجد الحرام. والمصلون يتقربون إلى الله بالصلوات سواء أكانت فرائض أم نوافل.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٧٠.

ولم يعطف السجود على الركع، لأن الوصفين متلازمان ولو عطف لتوهم أنهما وصفان مفترقان.

ثم ساق القرآن بعد ذلك نماذج من الدعوات التى تضرع بها إبراهيم إلى ربه فقال:

﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدًا آمناً﴾ أى: أضرع إليك يا إلهى أن تجعل الموضع الذى فيه بيتك مكانا يأنس إليه الناس، ويأمنون فيه من الخوف، ويجدون فيه كل ما يرجون من أمان واطمئنان.

والمشار إليه بقوله: ﴿هذا﴾ مكة المكرمة. والبلد كل قطعة من الأرض عامرة أو غامرة.

والمقصود بالدعاء إنما هو أمن أهله لأن الأمن والخوف لا يلحقان البلد، وإنما يلحقان أهل البلد.

قال الإمام الرازى: وإنما قال هنا ﴿بلدا آمنا﴾ على التنكير، وقال فى سورة إبراهيم ﴿رب اجعل هذا البلد آمنا﴾ على التعريف لوجهين:

الأول: أن الدعوة الأولى وقعت ولم يكن المكان قد جعل بلدًا، كأنه قال: اجعل هذا الوادى بلدًا آمنًا. والدعوة الثانية وقعت وقد جعل بلدًا، فكأنه قال: اجعل هذا المكان الذى صيرته بلدًا ذا أمن وسلامة.

الثانى: أن تكون الدعوتان وقعتا بعد ما صار المكان بلدًا، فقوله: ﴿اجعل هذا بلدًا آمنا﴾ تقديره: أجعل هذا البلد بلدًا آمنًا كقولك: كان اليوم يومًا حارًا، وهذا إنما تذكره للمبالغة فى وصفه بالحرارة، لأن التنكير يدل على المبالغة فقوله: رب اجعل هذا البلد بلدا آمنا معناه: اجعله من البلدان الكاملة فى الأمن. وأما قوله: ﴿رب اجعل هذا البلد آمنا﴾ فليس فيه إلا طلب الأمن لا طلب المبالغة[1].

أما الدعوة الثانية التى توجه بها إبراهيم إلى ربه من أجل أهل مكة فقد حكاها القرآن فى قوله:

﴿وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾.

أى: كما أسألك يا إلهى أن تجعل هذا لبلد بلدًا آمنا. أسألك كذلك أن ترزق المؤمنين من أهله من الثمرات ما يسد حاجاتهم، ويغنيهم من الاحتياج إلى غيرك.

وقوله: «ارزق» مأخوذ من رزقه يرزقه إذا أعطاه ما ينتفع به من مأكول وغيره.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١ ص ٤٧٦.

والثمرات : جمع ثمرة، وهى ما يحمله شجر أو زرع أو غيره من النبات. وإنما طلب ابراهيم - عليه السلام - من الله أن يجعل مكة بلدا آمنا، وأن يرزق أهلها من الثمرات بما يغنيهم لأن البلد إذا امتدت إليه ظلال الأمن، وكانت مطالب الحياة فيه ميسرة، أقبل أهله على طاعة الله بقلوب مطمئنة وتفرغوا لذلك بنفوس مستقرة.

وقال فى دعائه : ﴿من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾ لأن أهل مكة قد يكون من بينهم كافرون، فأراد تخصيص المؤمنين منهم بدعائه، لذا أتبع قوله : ﴿وارزق أهله﴾ بقوله : ﴿من آمن منهم﴾ على وجه البدل فصار المعنى وارزق المؤمنين من أهله على ما تقتضيه القاعدة العربية من أن البدل وهو هنا ﴿من آمن﴾ هو المقصود بطلب الرزق.

وخص إبراهيم المؤمنين بطلب الرزق لهم حرصًا على شيوع الإيمان بين سكان مكة، لأنهم إذا علموا أن دعوة إبراهيم إنما هى خاصة بالمؤمنين تجنبوا ما يبعدهم عن الإيمان، أو أنه خص المؤمنين بذلك تأدبًا مع الله - تعالى - إذ سأله سؤالا أقرب إلى الإجابة، ولعله استشعر من رد الله عليه عموم دعائه السابق إذ قال : ﴿ومن ذريتى﴾ فقال : ﴿لا ينال عهدى الظالمين﴾ أن غير المؤمنين ليسوا أهلا لإجراء رزق الله عليهم.

واقتصر على ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر فى التعبير عن المؤمنين لأن الإيمان بالله واليوم الآخر لا يقع على الوجه الحق إلا إذا صاحبه الإيمان بكتب الله ورسله وملائكته.

ثم بين - سبحانه - مصير الكافرين فقال : ﴿قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾.

الضمير فى ﴿قال﴾ يعود إلى الله - تعالى - ومن فى قوله ﴿ومن كفر﴾ منصوب بفعل مقدر دل عليه « فأمتعه ». والمعنى : قال الله وأرزق من كفر وايراد المتكلم قولا من عنده معطوفًا على قول متكلم آخر مألوف فى اللغة العربية، ويحسن موقعه عندما يقتضى المقام إيجازًا فى القول، ولولا هذا العطف لكان المعنى متطلبًا لأن يقال : قال الله أرزق من آمن ومن كفر.

و ﴿أمتعه﴾ : من التمتع وهو إعطاء ما ينتفع به. و ﴿قليلا﴾ : وصف لمصدر محذوف فى النظم، والمعنى : أمتعه تمتيعًا قليلا. ووصف التمتع فى الدنيا بالقلة، لأنه صائر إلى نفاد وانقطاع.

و ﴿أضطره﴾ أى ألجئه وأسوقه بعد متاعه فى الدنيا إلى عذاب لا يمكنه الإنفكاك عنه وجملة « ثم أضطره إلى عذاب النار » احتراس من أن يغتر الكافر بأن تخويله النعم فى الدنيا يؤذن برضا الله فلذلك ذكر العذاب هنا.

﴿وبئس﴾ فعل يستعمل لذم المرفوع بعده، وهو ما يسميه النحاة بالمخصوص بالذم، ووردت هنا لذم النار المقدرة فى الجملة، والمعنى: بئس المصير النار. أى أنها مصير سيء كما قال تعالى فى آية أخرى.

﴿إنها ساءت مستقرًا ومقامًا﴾.

وقد أفادت الآية الكريمة أن الله يرزق الكافر فى الدنيا كما يرزق المؤمن وإذا كان إمتاع المؤمن بالرزق لأنه أهل لأن ينعم عليه بكل خير، فإمتاع الكافر بالرزق له حكم منها استدراجه المشار إليه بقوله تعالى:

﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ ولو خص الله المؤمنين بالتوسعة فى الرزق وحرم منها الكافرين لكان هذا التخصيص سائقا للكافرين إلى الإيمان على وجه يشبه الإلجاء. وقد قضت حكمته - تعالى - أن يكون الإيمان اختياريًا حتى ينساق الإنسان من طريق النظر فى أدلة عقلية يبصر بها أقوام ولا يبصر بها آخرون.

ثم حكى القرآن دعوة ثالثة تضرع بها إبراهيم إلى ربه فقال: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾.

القواعد: جمع قاعدة، وهى أساس البناء الموالى للأرض، وبها يكون ثبات البناء. ورفعها: إبرازها عن الأرض بالبناء عليها. والمراد بالبيت الكعبة.

والتقبل: القبول، وقبول الله للعمل أن يرضاه أو يثيب عليه.

والمعنى: واذكر يا محمد ما صدر من الرسولين الكريمين إبراهيم وإسماعيل فقد كانا وهما يقومان يرفع قواعد الكعبة يتضرعان إلى ويقولان: يا ربنا تقبل منا أقوالنا وأعمالنا، إنك أنت السميع العليم.

وتصدير الدعاء بندائه - سبحانه - باسم الرب المضاف إلى ضميرهما مظهر من مظاهر خضوعهما، وإجلالهما لمقامه، والخضوع له - سبحانه -، وإجلال مقامه من أسنى الآداب التى تجعل الدعاء بمقربة من الاستجابة.

وعبر بالمضارع فقال: ﴿وإذ يرفع﴾ مع أن رفع القواعد كان قبل نزول الآية، وذلك ليخرجه فى صورة الحاضر فى الواقع لأهميته.

وختما دعاءهما بذكر اسمين من أسمائه الحسنى، ليؤكدا أن رجاءهما فى استجابة دعائهما وثيق، وأن ما عملاه ابتغاء مرضاته جدير بالقبول. لأن من كان سميعًا عليمًا بنيات الداعين وصدق ضمائرهم، كان تفضله باستجابة دعاء المخلصين فى طاعته غير بعيد.

ثم حكى القرآن جملة من الدعوات الخاشعات، التى توجه بها إبراهيم وإسماعيل إلى الله - تعالى - فقال: ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك﴾:

مسلمين من الإسلام، وهو الخضوع والإذعان، وقد كانا خاضعين لله مذعنين فى كل حال، وإنما طلبا الثبات والدوام على ذلك، والإسلام الذى هو الخضوع لله بحق إنما يتحقق بعقيدة التوحيد، وتحرى ما رسمه الشارع فى العبادات والمعاملات، والإخلاص فى أداء ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه.

وقوله: ﴿ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾ معناه: واجعل يا ربنا من ذريتنا أمة مخلصة وجهها إليك، مذعنة لأوامرك ونواهيك.

ومن (من) للتبعيض، أو للتعيين كقوله: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم﴾. وإنما خص الذرية بالدعاء لأنهم أحق بالشفقة، ولأنهم إذا صلحوا صلح بهم الأتباع؛ ولأن صلاح الذرية مرغوب فيه طبعًا، والدعاء لهم بالصلاح مرغب فيه شرعًا، وقد حكى القرآن من دعاء الصالحين قوله - تعالى -:

﴿ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إمامًا﴾

﴿وأرنا مناسكنا﴾ أى: علمنا شرائع ديننا وأعمال حجنا، كالطواف والسعى والوقوف. أو متعبداتنا التى تقام فيها شرائعنا، كمنى، وعرفات، ونحوهما.

والمناسك: جمع منسك - بفتح السين وكسرها - بمعنى الفعل وبمعنى الموضع من النسك - مثلثة النون وبضمها وضم السين - وهو غاية العبادة والطاعة، وشاعت تسمية أعمال الحج بالمناسك كالطواف والسعى وغيرهما.

﴿وتب علينا﴾ تسند التوبة إلى العبد فيقال: تاب فلان إلى الله ومعناها الندم على ما لابس من الذنب، والإقلاع عنه، والعزم على عدم العود إليه، ورد المظالم إن استطاع، أو نية ردها إن لم يستطع وتسند إلى الله فيقال: تاب الله على فلان، ومعناها حينئذ توفيقه إلى التوبة، أو قبولها منه. فمعنى ﴿وتب علينا﴾ وفقنا للتوبة أو تقبلها منا.

والتوبة تكون من الكبائر والصغائر، وتكون من ترك ما هو أولى أو من تقصير يؤدى إلى خطأ فى الاجتهاد، وعلى أحد هذين الوجهين، تحمل التوبة التى يسأل الأنبياء والمرسلون ربهم قبولها أو التوفيق لها.

﴿إنك أنت التواب الرحيم﴾ التواب: كثير القبول لتوبة المنيبين إليه، وقبول توبتهم يقتضى عدم مؤاخذتهم بما يأتونه من سيئات، ثم بعد تخلصهم من عقوبة الخطيئة أو المعاتبة عليها ينتظرون من رحمة الله أن تحفهم بإحسان.

وإبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - قد طلبا قبول توبتهما صراحة فى قولهما ﴿وتب علينا﴾ ولوحا إلى طلب الرحمة بذكر اسمه الرحيم، إذ الرحمة صفة من أثرها الإحسان، فكأنهما قالا : تب علينا وارحمنا، وهذا من أكمل آداب الدعاء وأرجاها للقبول عند الله تعالى.

ثم ختم إبراهيم وإسماعيل دعواتهما بتلك الدعوة التى فيها خيرهم فى الدنيا والآخرة، فقالا - كما حكى القرآن عنهما :

﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾.

الضمير فى قوله : ﴿منهم﴾ يعود إلى الذرية أو الأمة المسلمة فى قوله : ﴿ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾.

والرسول : من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه : وتلاوة الشىء : قراءته والمراد بقوله تعالى : ﴿يتلو عليهم آياتك﴾ يقرؤها عليهم قراءة تذكير وفى هذا إيماء إلى أنه يأتيهم بكتاب فيه شرع.

والآيات : جمع آية، والمراد بها ما يشهد بوحدانية الله، وبصدق رسوله ﷺ فيما يبلغه عنه، أو المراد بها آيات القرآن الكريم فهو يتلوها عليهم ليحفظوها بألفاظها كما نزلت، ويتعبدوا بتلاوتها، وليعرفوا من فضل بلاغتها وروعة أساليبها وجهًا مشرقا من وجوه إعجازها.

والكتاب : القرآن، وتعلمه يكون ببيان معانيه وحقائقه، ليعرفوا ما أقامه لهم من دلائل التوحيد وما اشتمل عليه من أحكام وحكم ومواعظ وآداب.

والحكمة : العلم النافع المصحوب بالعمل الواقع موقعه اللائق به. ووضعها بجانب الكتاب يرجح أن المراد بها السنة النبوية المطهرة التى تنتظم أقوال النبى ﷺ وأفعاله، إذ بالكتاب وبالسنة يعرف الناس أصلح الأعمال، وأعدل الأحكام وأسنى الآداب، وتنفتح لهم طرق التفقه فى أسرار الدين ومقاصده.

ويزكيهم : أى يطهرهم من أرجاس الشرك ومن كل ما لا يليق التلبس به ظاهرًا أو باطنًا. يقال : زكاه الله، أى طهره وأصلحه، ومنه زكاة المال لتطهره بها، وأصل الزكاة - بالمد - النماء والزيادة، يقال. زكا الزرع زكاء وزكوا، أى نما.

والمعنى : ونسألك ياربنا أن تبعث فى الأمة المسلمة، أو فى ذريتنا رسولا منهم يقرأ عليهم آياتك الدالة على وحدانيتك، ويعلمهم كتابك بأن يبين لهم معانيه، ويرشدهم إلى مافيه من حكم ومواعظ وآداب، كما يهديهم إلى الحكمة التى تتمثل فى اتباع سنة نبيك - والتى بها يتم التفقه فى الدين ومعرفة أسراره وحكمه ومقاصده، والتى يكمل بها العلم بالكتاب إنك يامولانا أنت العزيز الحكيم.

أى القادر الذى لا يغلب على أمره، العالم الذى يدبر الأمور على وفق المصلحة، ومن كان قادرًا على كل ما يريد، عليما بوجوه المصالح، كانت استجابته قريبة من دعاء الخير الصادر عن إخلاص وابتهال.

وقد جاء ترتيب هذه الجمل فى أسمى درجات البلاغة والحكمة؛ لأن أول تبليغ الرسالة يكون بتلاوة القرآن ثم بتعليم معانيه، ثم بتعليم العلم النافع الذى تحصل به التزكية والتطهير من كل ما لا يليق التلبس به فى الظاهر، أو الباطن.

وقد سأل إبراهيم وإسماعيل ربهما أن تكون بعثة الرسول فى ذريتهما فيكون أمر الإيمان قريبا منهم، فإن نشأته بينهم، ومعرفة سيرته قبل الرسالة وشهادتهم له بالصدق والأمانة، وكل ذلك يحمل العقلاء على المبادرة إلى تصديقه فيما يبلغه عن ربه.

ولقد حقق الله تعالى دعوة هذين النبيين الكريمين، فأرسل فى ذريتهما رسولا منهم، وهو محمد ﷺ أرسله إلى الناس كافة بشيرًا ونذيرًا.

وقد أخبر ﷺ أنه دعوة إبراهيم، فقال: (أنا دعوة أبى إبراهيم، وبشارة عيسى بى، ورؤيا أمى التى رأت، وكذلك أمهات المؤمنين يرين).

ثم عرض القرآن بعد ذلك بالجاحدين والمعاندين الذين تركوا الحق الواضع الذى هو ملة إبراهيم فقال:

وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ

﴿إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

قوله تعالى: ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾ معناه: لا أحد من الناس يكره ملة إبراهيم وينصرف عنها إلى الشرك بالله، إلا من امتهن نفسه، واستخف بها وظلمها بسوء رأيه حيث ترك طريق الحق إلى طريق الضلالة.

يقال رغب فى كذا إذا أراده، ورغب عن كذا إذا كرهه وانصرفت عنه نفسه والملة فى الأصل الطريقة، وغلب إطلاقها على أصول الدين من حيث إن صاحبها يصل عن طريقها إلى دار السلام وسفه نفسه امتهنها واستخف بها.

ثم بين الله - تعالى - منزلة نبيه إبراهيم - عليه السلام - وخطأ من يرغب عن طريقته المثلى فقال تعالى: ﴿ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين﴾ أى: ولقد اخترناه للرسالة وهداية الناس وإرشادهم فى الدنيا، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين المستقيمين على الطريقة المثلى. فمن يرغب عن ملة من هذا شأنه إلى غيرها من طرق الضلال لا يماثله أحد فى سفهه وسوء رأيه.

ثم بين الله تعالى كمال استقامة إبراهيم التى رفعته إلى المنازل العليا فقال تعالى ﴿إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين﴾ أى: اصطفى الله - تعالى - إبراهيم لأنه أمره بطاعته وإسلام وجهه إليه فى كل حال فبادر إلى الامتثال وقال ﴿أسلمت لرب العالمين﴾ أى: أخلصت دينى لله الذى فطر الخلق جميعًا. كما حكى عنه القرآن الكريم نحو هذا القول فى قوله تعالى: ﴿إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين﴾.

وبعد أن بين الله - تعالى - أن إبراهيم - عليه السلام - كان كاملا فى نفسه، أتبع ذلك ببيان أنه كان - أيضًا - يعمل على تكميل غيره، ودعوته إلى توحيد الله تعالى. فقال - سبحانه -: ﴿ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾.

الضمير فى «بها» يعود إلى الملة ذكرت قبل ذلك فى قوله تعالى: ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم﴾ والمعنى: ووصى إبراهيم بنيه باتباع ملته ويعقوب كذلك أوصى بنيه باتباعها، فقال

كلٌ منهما لأبنائه : يابنى إن الله اصطفى لكم دين الإسلام، الذى لا يقبل الله دينا سواه ﴿ فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ أى : فاثبتوا على الإسلام. واستقيموا على أمره حتى يدرككم الموت وأنتم مقيمون على هذا الدين الحنيف.

ثم أنكر القرآن الكريم على اليهود افتراءهم على يعقوب وزعمهم أنه كان على اليهودية التى أقاموا عليها تاركين دين الإسلام فقال تعالى : ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى﴾.

روى أن اليهود قالوا للنبى ﷺ ألست تعلم أن يعقوب أوصى بنيه باليهودية، فنزلت هذه الآية الكريمة[1].

والمعنى : ماكنتم - يامعشر اليهود- حاضرين وقت أن أشرف يعقوب على الموت، ووقت أن قال لبنيه حينئذ ﴿ما تعبدونَ من بعدى﴾ فكيف تدعون أنه كان على اليهودية التى أنتم عليها وأنه أوصى بها بنيه؟ ومراد يعقوب - عليه السلام - من هذا السؤال أخذ الميثاق عليهم بالثبات على ملة أبيهم إبراهيم من بعده، لكى يسعدوا فى دنياهم وأخراهم، وقد أجابوه بما يدل على رسوخ إيمانهم إذ قالوا : ﴿نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهًا واحدًا ونحن له مسلمون﴾.

وهذا الجواب يتضمن أنهم متمسكون بملة إبراهيم - عليه السلام - وهى ملة لا تثليث فيها ولا تشبيه بمخلوق، وإنما هى إفراد الله - تعالى - بالعبودية والاستسلام له بالخضوع والانقياد.

ثم حذر الله - تعالى - أهل الكتاب من ترك طاعته اتكالا على انتسابهم لآباء كانوا أنبياء أو صالحين فقال تعالى : ﴿تلك أمة قد خلت، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾.

الإشارة (بتلك) إلى إبراهيم وبنيه، أى أن إبراهيم وذريته، أمة قد مضت وانقرضت، لها جزاء ما كسبت من خير أو شر، ولا تسألون يوم القيامة عن أعمالهم فى الدنيا فلا يقال لكم على وجه المحاسبة لم عملوا كذا وإنما ستسألون عن أعمالكم وحدها فأصلحوها وحسنوها، وآمنوا بمحمد ﷺ الذى هو دعوة إبراهيم - عليه السلام - وعلى دينه وملته.

فالآية الكريمة واردة لتقرير سنة من سنن الله العامة فى خلقه وهى أن لكل نفس وحدها ثواب ما كسبت من خير وعليها وحدها يقع عقاب ما اكتسبت من شر. وبذلك تكون الآيات

---

(١) أسباب النزول للنيسابورى طبعة الحلى ص ٢٢.

الكريمة قد بينت بوضوح لبنى إسرائيل وغيرهم أن ملة إبراهيم الإسلام وأنه هو ويعقوب - عليهما السلام - قد أوصيا أبناءهما بأن يثبتوا على هذه الملة حتى الموت، وأن أبناء يعقوب قد عاهدوه عند موته أن يستمروا على ملته وملة إبراهيم عليهما السلام.

وهذا الذى بينته الآيات الكريمة يطابق ما دعاهم إليه محمد ﷺ وهو الإيمان بالله - تعالى - وتصديق رسوله واتباع تعاليم الإسلام.

وفى القرآن الكريم آيات أخرى صرحت بأن الإسلام اسم للدين الذى دعا اليه كل الأنبياء، وانتسب إليه أتباعهم، فنوح قال لقومه: ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾[١].

وموسى قال لقومه: ﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾[٢] والحواريون قالوا لعيسى - عليه السلام -: ﴿آمنا بالله وآشهد بأنا مسلمون﴾[٣].

بل إن فريقا من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن أشرقت قلوبهم لدعوته وقالوا: ﴿آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين﴾[٤].

وإلى هنا تكون قد ذكرنا بعض الآيات الكريمة التى أرشدت إلى أن ما جاء به محمد ﷺ يطابق ما جاء به الأنبياء السابقون، فعليهم أن يؤمنوا به ويصدقوا، لأن كفرهم به كفر بجميع الرسل السابقين.

وقبل أن نختم هذا الموضوع ننبه إلى مسألة مهمة. وهى أن ما جاء به النبى ﷺ يطابق - كما قلنا - ما جاء به الأنبياء قبله فى أصول الدين وكلياته كتوحيد الله - تعالى - واختصاصه بالعبادة، وتصديق الأنبياء السابقين فيما أتوا به عن الله - تعالى - والإيمان بالبعث وما يكون فيه من نعيم وعذاب والحض على مكارم الأخلاق، أما ماعدا ذلك مما يتعلق بتفاصيل العبادات وأحكام المعاملات فإن الشرائع تختلف فيه بوجه عام حسب ما يتناسب وحالة الأمة التى بعث الله لها رسولا من لدنه كما قال تعالى ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا﴾.

ومن هنا جاءت الشريعة الإسلامية بما لم يكن موجودًا فى الشرائع السابقة، ومن مظاهر ذلك أن القرآن الكريم أعلن للناس، أن محمدًا ﷺ من مميزات شريعته أنها أحلت للناس كل الطيبات وحرمت عليهم كل الخبائث ووضعت عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم وشرعت لهم أمورًا تتعلق بعباداتهم ومعاملاتهم امتازت باليسر والتخفيف.

---

(١) سورة يونس الآية ٧٢.
(٢) سورة يونس الآية ٨٤.
(٣) سورة آل عمران الآية ٥٢.
(٤) سورة القصص الآية ٥٣.

ويعجبنى فى هذا المقام قول فضيلة أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبد الله دراز: (يجب أن يفهم - أن تعديل الشريعة المتأخرة للمتقدمة - ليس نقضًا لها، وإنما وقوفًا بها عند وقتها المناسب وأجلها المقدر).

مثل ذلك كمثل ثلاثة من الأطباء جاء أحدهم إلى الطفل فى الطور الأول من حياته، فقصر غذاءه على اللبن، وجاء الثانى من مرحلته التالية فقرر له طعامًا لينًا، وطعامًا نشويًا خفيفًا، وجاء الثالث فى المرحلة التى بعدها فأمر له بغذاء قوى كامل.

لا ريب أن ها هنا اعترافًا ضمنيًا من كل واحد منهم بأن صاحبه كان موفقًا كل التوفيق فى علاج الحالة التى عرضت عليه، نعم إن هناك قواعد صحية عامة فى النظافة والتهوية والتدفئة ونحوها، لا تختلف باختلاف الأسنان فهذه لا تعديل فيها ولا تبديل، ولا يختلف فيها طب الأطفال والناشئين عن طب الكهول الناضجين.

هكذا الشرائع السماوية، كلها صدق وعدل فى جملتها وتفصيلها، وكلها يصدق بعضها بعضًا من ألفها إلى يائها، ولكن هذا التصديق على ضربين.

تصديق للقديم مع الإذن ببقائه واستمراره، وتصديق له مع إبقائه فى حدود ظروفه الماضية، ذلك أن التشريعات السماوية تحتوى على نوعين من التشريعات.

(تشريعات خالدة) لا تتبدل بتبديل الأصقاع والأوضاع (كالوصايا التسع ونحوها).

و (تشريعات موقوتة) بآجال طويلة أو قصيرة، فهذه تنتهى بانتهاء وقتها. وتجىء الشريعة التالية بما هو أوفق بالأوضاع الناشئة الطارئة.

فشريعة التوراة - مثلا - عنيت بوضع المبادىء الأولية لقانون السلوك (لا تقتل). (لا تسرق) فطابعها البارز تحديد الحقوق وطلب العدل والمساواة.

وشريعة الإنجيل تجىء بعدها فتقرر هذه الأمور، ثم ترتقى فتزيد آدابًا مكملة (أحسن إلى من أساء إليك).

وأخيرًا تجىء شريعة القرآن فتراها تقرر كلا المبدأين فى نسق واحد ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾.

هكذا كانت الشرائع السماوية خطوات متصاعدة، ولبنات متراكمة فى بنيان الدين والأخلاق وسياسة المجتمع. وكانت مهمة اللبنة الأخيرة منها أن أكملت البنيان وملأت ما بقى فيه من فراغ وأنها فى الوقت نفسه كانت بمثابة حجر الزاوية الذى يمسك أركان البناء.

وصدق رسول الله ﷺ حين صور الرسالات السماوية فى جملتها أحسن تصوير فقال: «مثلى

ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بينًا فأحسنه وجمله إلا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة. فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين »[١].

وبذلك يتبين لنا أن مطابقة الشريعة الإسلامية لغيرها من الشرائع السابقة إنما هى فى الأصول والكليات، لا فى الفروع والجزئيات.

ثم حكى القرآن بعد ذلك لونًا من ألوان مزاعم أهل الكتاب ورد عليها بما يبطلها فقال :

وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ

---

(١) من بحث قيم للمرحوم الشيخ محمد عبد الله دراز موضوعه (موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها) نشر بمجلة لواء الإسلام العدد ١/١ السنة ١١ ص ٦٨، وكان فضيلته قد أعد هذا البحث لإلقائه فى الندوة العالمية للإسلاميات، التى انعقدت فى لاهور فى أواخر سنة ١٩٥٧، إلا أن المنية عاجلته قبل الإنتهاء من الندوة - فرحمة الله عليه ورضوانه.

وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: «قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله ﷺ ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا - يا محمد - تهتد، وقالت النصارى مثل ذلك، فأنزل الله - عز وجل - ﴿وقالوا كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا، قل بل ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين﴾[1].

ومعنى الآية الكريمة: وقالت اليهود للنبى ﷺ وللمسلمين اتركوا دينكم واتبعوا ديننا تهتدوا وتصيبوا طريق الحق. وقالت النصارى مثل ذلك قل لهم - يا محمد - ليس الهدى فى اتباع ملتكم، بل الحق فى أن نتبع ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين، فاتبعوا أنتم - يا معشر أهل الكتاب - ما اتبعناه لتكونوا حقًا سالكين ملة إبراهيم الذى لا تنازعون فى هداه.

وقوله تعالى: ﴿وقالوا كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا﴾ حكاية لما زعمه كل من فريقى اليهود والنصارى من أن الهدى فى اتباع ملتهم.

و (أو) للتنويع، أى قال اليهود لغيرهم لا دين إلا اليهودية ولا يتقبل الله سواها، فاتبعوها تهتدوا. وقال النصارى لغيرهم كونوا نصارى تهتدوا، إلا أن القرآن الكريم ساق هذا المعنى بقوله: ﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾ لمعرفة السامع أن كل فريق منهم يكفر الآخر، ويعد ديانته باطلة، كما حكى القرآن عنهم ذلك فى قوله تعالى: ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾.

ثم لقن الله - تعالى - نبيه ﷺ الرد الملزم لهم، فقال تعالى: ﴿قل بل ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين﴾.

الملة: الدين، والحنيف فى الأصل المائل عن كل دين باطل إلى الدين الحق ووصف به

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٢٩.

إبراهيم - عليه السلام - لميله عن الأديان الباطلة التى كانت موجودة فى عهده إلى الدين الحق الذى أوحى الله به إليه.

وذهب بعض المفسرين إلى أن حنيفًا من الحنف وهو الاستقامة.

قال الإمام الرازى: «لأهل اللغة فى الحنيف قولان:

الأول: أن الحنيف هو المستقيم، ومنه قيل للأعرج أحنف تفاؤلا بالسلامة، كما قالوا للديغ سليم وللمهلكة مفازة، قالوا فكل من أسلم لله ولم ينحرف عنه فى شيء فهو حنيف، وهو مروى عن محمد بن كعب القرظى.

الثانى: أن الحنيف المائل، لأن الأحنف هو الذى يميل كل واحد من قدميه إلى الأخرى بأصابعها. وتحنف إذا مال، فالمعنى: إن إبراهيم - عليه السلام - حنف إلى دين الله، أى مال إليه، فقوله: ﴿بل ملة إبراهيم حنيفًا﴾ أى: مخالفًا لليهود والنصارى.

والمعنى: قل يا محمد لليهود ليس الهدى فى أن نتبع ملتكم، بل الهدى فى أن نتبع ملة إبراهيم المائل عن كل دين باطل إلى الدين الحق، والذى ماكان من المشركين بأى صورة من صور الشرك»[1].

وقوله تعالى: ﴿بل ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين﴾ أى: بل نتبع ملة إبراهيم حنيفًا. وقد تضمن هذا القول إبطال ما ادعاه كل من اليهود والنصارى، لأن حرف (بل) يؤتى به فى صدر الكلام لينفى ما تضمنته الجملة السابقة، والجملة السابقة هنا هى قول أهل الكتاب ﴿وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا﴾ فجاءت بل بعد ذلك لتنفى هذا القول، ولتثبت أن الهداية إنما هى فى اتباع ما كان عليه إبراهيم - عليه السلام - وفى اتباع من سار على نهجه وهو محمد ﷺ.

وفى هاتين الجملتين وهما قوله تعالى: ﴿بل ملة إبراهيم حنيفا﴾. ﴿وما كان من المشركين﴾ دعوة لليهود إلى اتباع ملة إبراهيم لاستقامتها، ولبعدها عن الشرك، وفى ذلك تعريض بأن ملتهم ليست مستقيمة، بل هى معوجة، وبأن دعواهم اتباع إبراهيم لا أساس لها من الصحة؛ لأنهم أشركوا مع الله آلهة أخرى، ونسبوا إلى الله تعالى ما لا يليق به.

قال الإمام الرازى - ما ملخصه: فى الآية الكريمة جواب إلزامى لهم وهو قوله تعالى ﴿بل ملة إبراهيم حنيفًا﴾ وتقرير هذا الجواب: أنه إن كان طريق الدين التقليد، فالأولى فى ذلك اتباع ملة إبراهيم لأن هؤلاء المختلفين قد اتفقوا على صحة دين إبراهيم، والأخذ بالمتفق عليه، أولى من الأخذ بالمختلف فيه.

(١) تفسير الرازى جـ١ ص٥١٨.

وإن كان طريقه الاستدلال والنظر. فقد سقنا الكثير من الدلائل على أن ما جاء به محمد ﷺ هو الموافق لما جاء به إبراهيم - عليه السلام - فى أصول الدين[١].

ثم أرشد الله - تعالى - المؤمنين إلى جواب جامع وكلمة سواء تفيد نبذ التعصب جانبًا وتدعو إلى اتباع الوحى الإلهى الذى أرسل الله به الرسل مبشرين ومنذرين بدون تفرقة بين أحد منهم، وهو يتضمن دعوة أهل الكتاب إلى الطريق الحق فقال تعالى : ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا ومأأنزل إلى إبراهيم وإسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون﴾

أى : قولوا أيها المؤمنون لأولئك اليهود الذين يزعمون أن الهداية فى اتباع ملتهم، قولوا لهم : ليست الهداية فى اتباع ملتكم فقد دخلها الشرك والتحريف، وإنما الهداية فى أن نصدق بالله، وبالقرآن الكريم الذى أنزله الله إلينا ﴿وبما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾، وبالتوراة التى أنزلها الله على موسى وبالانجيل الذى أنزله الله على عيسى، ونحن فى تصديقنا بالأنبياء لا نفرق بين أحد منهم فنؤمن ببعضهم ونكفر بالبعض الآخر كما فعلتم أنتم يا معشر اليهود وإنما نؤمن بهم جميعًا بدون تفرقة بينهم، ونحن لربنا مسلمون خاضعون بالطاعة. مذعنون له بالعبودية.

قال الإمام الرازى : «فإن قيل : كيف يجوز الإيمان بإبراهيم وموسى وعيسى مع القول بأن شرائعهم منسوخة؟ قلنا : نحن نؤمن بأن كل واحد من تلك الشرائع كان حقًا فى زمانه، فلا يلزم منا المناقضة، أما اليهود فإنهم لما اعترفوا بنبوة بعض من ظهر المعجز على يديه، وأنكروا نبوة محمد ﷺ مع قيام المعجز على يديه، فحينئذ يلزمهم المناقضة فظهر الفرق[٢].

وقوله تعالى : ﴿قولوا آمنا بالله﴾ خطاب للمؤمنين.

والأسباط : جمع سبط ، وهو الحفيد، وهم أبناء يعقوب - عليه السلام - سموا بذلك لكونهم حفدة إبراهيم وإسحق - عليهما السلام - وكانوا اثنى عشر سبطًا كما قال تعالى : ﴿وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطًا أممًا﴾، والمراد : الإيمان بما أنزل الله من الوحى على الأنبياء منهم.

قال الإمام القرطبى : والأسباط : ولد يعقوب، وهم أثنا عشر ولدًا، ولكل واحد منهم أمة من الناس، واحدهم سبط، والسبط فى بنى إسرائيل بمنزلة القبيلة فى ولد إسماعيل، وسموا

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٣ ص٩١.

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ١ ص٤١٧.

الأسباط من السبط وهو التتابع، فهم جماعة متتابعون، وقيل أصله من السبط «بالتحريك» وهو الشجر، أى هم فى الكثرة بمنزلة الشجر: الواحد سبطة، ويبين لك هذا ما روى عن ابن عباس، قال: كل الأنبياء من إسرائيل إلا عشرة: نوحا وشعيبا، وهودا وصالحا ولوطا وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمدًا - صلوات الله وسلامه عليهم جميعًا»[1].

وقوله تعالى: ﴿وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم﴾ معناه: وآمنا - أيضًا - بالتوراة التى أعطاها الله - تعالى - لموسى، وبالإنجيل الذى أعطاه لعيسى، وبكل ما آتاه الله لأنبيائه تصديقًا لهم فى نبوتهم.

وعطف - سبحانه - عيسى على موسى بدون إعادة الفعل لأن عيسى جاء مصدقًا للتوراة، وما نسخ منها إلا أحكامًا يسيرة، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم فى قوله حكاية عنه ﴿ومصدقًا لما بين يدى من التوراة، ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم﴾.

وقدم - سبحانه - الإيمان بالله على غيره لأن الإيمان بالأنبياء. وما أنزل إليهم متوقف على الإيمان بالله.

وقدم الإيمان بما أنزل إلينا - نحن معشر المسلمين - وهو القرآن الكريم لأن الإيمان به يجب أن يكون على وجهى الإجمال والتفصيل، أما ما أنزل على الأنبياء من قبل كالتوراة والإنجيل، فيكفى الإيمان به على وجه الإجمال.

وقوله تعالى: ﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾ معناه: لا نفرق بين جماعة النبيين، فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلتم يا معشر اليهود، إذ كفرتم بعيسى ومحمد ﷺ وفعلكم هذا فى حقيقته كفر بالأنبياء جميعا لأن من كفر بواحد منهم فقد كفر بالكل، ولذلك فنحن معشر المسلمين نؤمن بجميع الأنبياء بدون تفرقة أو استثناء.

ثم بين - سبحانه - أن أهل الكتاب إن آمنوا بما دعوتموهم إليه معشر المسلمين، فقد أصابوا الهدى، وإن نأوا وأعرضوا فهم معاندون مستكبرون فقال تعالى:

﴿فإن آمنوا بمثل ماآمنتم به فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم﴾.

والفاء التى صدرت بها الآية الكريمة لترتيب ما بعدها على ما قبلها. لأن قول المؤمنين «آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم إلخ.

من شأنه أن يرقق القلوب الجاحدة، ويستميل النفوس الشاردة، لبعده عن التعصب

---

(١) تفسير القرطبى جـ٢ ص ١٤١ بتلخيص.

والعناد، لأنه الحق الذى تؤيده العقول السليمة، وإذا لم يؤمنوا به فمرد ذلك إلى شدة عنادهم والتواء أفكارهم.

وقوله تعالى: ﴿فقد اهتدوا﴾ ترغيب لهم فى اتباع الحق الذى اتبعه المؤمنون، أى: فإن آمنوا مثل إيمانكم فقد اهتدوا ورشدوا.

وكلمة: (مثل) فى الآية الكريمة معناها، نفس الشىء وحقيقته. المراد فإن آمنوا بنفس ماآمنتم به فقد اهتدوا، ومنه قول العرب: «مثلك لايبخل» والمراد أنت لاتبخل. ويرى بعض المفسرين أن كلمة «مثل» هنا على حقيقتها وهى الشبية والنظير، وأن المماثلة وقعت بين الإيمانيين، وأنها لا تقتضى تعدد ما أمرنا الله أن نؤمن به.

قال الإمام القرطبى: «المعنى: فإن آمنوا مثل إيمانكم، وصدقوا مثل تصديقكم فقد اهتدوا»[1].

وقال ابن جرير: فإن صدقوا مثل تصديقكم بجميع ما أنزل عليكم من كتب الله وأنبيائه، فقد اهتدوا فالتشبيه إنما وقع بين التصديقين والاقرارين اللذين هما إيمان هؤلاء وإيمان هؤلاء، كقول القائل: (مر عمرو بأخيك مثل ما مررت به) يعنى ذلك (مر عمرو بأخيك مثل مرورى به) والتمثيل إنما دخل تمثيلا بين المرورين لا بين عمرو وبين المتكلم، فكذلك قوله: ﴿فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به﴾ إنما وقع التمثيل بين الإيمانين لا بين المؤمن به»[2].

وقوله تعالى: ﴿وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم﴾ بيان لحالهم عند إعراضهم عن دعوة الحق، ووعد من الله - تعالى - للنبى ﷺ والمؤمنين بالنصر عليهم، والعصمة من شرورهم.

والشقاق: المنازعة والمخالفة والتعادى وأصله من الشق وهو الجانب فكأن كل واحد من الفريقين فى شق غير شق صاحبه.

وقيل: إن الشقاق مأخوذ من فعل ما يشق ويصعب فكأن كل واحد من الفريقين يحرص على ما يشق على صاحبه.

والمعنى: وإن أعرض هؤلاء الذين زعموا أن الهداية ميلهم عن الإيمان الذى تدعوهم إليه - يا محمد - فاعلم أن إعرضهم سببه المخالفة والمعاندة والمعاداة إذ لا حجة أوضح من حجتك، وما داموا هم كذلك فسيقيك الله شرهم، وينصرك عليهم، فهو سميع لما يقولونه

(١) تفسير القرطبى جـ٢ ص ١٤٣.
(٢) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٤٣١.

فيك، عليم بما يبيتونه لك ولأتباعك من مكر وكيد، وهو الكفيل بكف بأسهم، وقطع دابرهم.

وعبر - سبحانه - عن شدة مخالفتهم بقوله: «فإنما هم فى شقاق» مبالغة فى وصفهم بالشقاق حيث جعله مستوليا عليهم استيلاء الظرف على ما يوضع فيه.

ورتب قوله: ﴿فسيكفيكهم الله﴾ على قوله ﴿فإنما هم فى شقاق﴾ تثبيتًا للنبى ﷺ والمؤمنين لأن إعلامهم أن أهل الكتاب فى مخالفة ومعاداة لهم قد يحملهم على الخوف منهم بسبب كثرتهم وقوتهم، فبشر الله - تعالى - نبيه ﷺ بأنهم مهما بلغت قوتهم فلن يستطيعوا أن يصلوا إليك بأذى. وأنه - سبحانه - سيكفيك شرهم.

وقد أوفى الله - تعالى - بوعده، فنصر نبيه ﷺ عليهم وعصمه من كيدهم بإلقاء العداوة بينهم وطرد من يستحق الطرد منهم، وقتل من لا بد من قتله بسبب خيانته وغدره. فالآية الكريمة قد تضمنت وعدًا للمؤمنين بالنصر، ووعيدًا لليهود ومن على شاكلتهم بالهزيمة والخيبة.

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك - أن دين الله وهو الإسلام أولى بالاتباع فقال تعالى: ﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون﴾.

الصبغة فعلة من صبغ كالجلسة من جلس وهى فى أصل اللغة. الحالة التى يقع عليها الصبغ وهو تلوين الأشياء - كالثياب وغيرها - بألوان معينة واستعملت الصبغة فى الآية بمعنى الإيمان بما فصلته الآية الكريمة وهى قوله تعالى قبل ذلك ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى﴾. الخ الآية. وإنما أطلقت الصبغة على الإيمان بما ذكرته الآية مفصلا، لأن الإيمان يمتزج بالقلوب امتزاج الصبغ بالمصبوغ، وتبدو آثاره على المؤمنين كما تبدو آثار الصبغ على المصبوع. ويقال: تصبغ فلان فى الدين إذا أحسن دينه وتقيد بتعاليمه تقيدًا تامًا.

وقوله: ﴿صبغة الله﴾ هكذا بالنصب على أنه وارد مورد المصدر المؤكد لقولهم (آمنا) فإنه فى معنى صبغنا الله بالإيمان، وكأنهم قالوا صبغنا الله بالإيمان صبغته. وإيراد المصدر تأكيدا لفعل يوافقه فى المعنى ويخالفه فى اللفظ معهود فى الكلام البليغ.

قال القاضى: قوله تعالى: ﴿صبغة الله﴾ متعلق بقوله: ﴿قولوا آمنا بالله﴾ إلي قوله: ﴿ونحن له مسلمون﴾ فوصف هذا الإيمان منهم بأنه صيغة الله، ليبين أن المباينة بين هذا الدين الذى اختاره الله وبين الدين الذى اختاره المبطلون ظاهرة جلية، كما تظهر المباينة بين الألوان والأصباغ لذى الحس السليم»[1].

---

(١) تفسير الرازى جـ١ ص ٥٢٢.

والاستفهام فى قوله تعالى : ﴿ومن أحسن من الله صبغة﴾ للإنكار والنفى والمعنى : لا أحد أحسن من الله صبغة لأنه هو الذى يصبغ عباده بالإيمان ويطهرهم من أدران الكفر والضلال، فهى صبغة ثابتة لا تزول لأن الإيمان متى خالطت بشاشته القلوب لا يرتد عنه أحد سخطة له. بخلاف ما يتلقنه أهل الكتاب عن أحبارهم ورهبانهم من الأديان الباطلة فهو من الصبغة البشرية، التى تجعل من الدين الواحد أديانا مختلفة ومذاهب متنافرة.

وهذا التركيب «ومن أحسن من الله صبغة» يدل بحسب أصل الوضع اللغوى على نفى أن يكون دينا أفضل من دين الله، ويبقى احتمال أن يوجد دين يساويه فى الحسن، وهذا الاحتمال لم ينفه التركيب بحسب أصل الوضع ولكن مثل هذا التركيب صار أسلوبًا يفهم منه بمعونة مقام المدح نفى مساواة دين لدين الله فى الحسن، كما يفهم منه نفى أن يكون هناك دين أحسن منه. وأفضلية دين الله من جهة هدايته إلى الاعتقاد الحق، والأخلاق الكريمة، والآداب السمحة والعادات الصحيحة، والسياسة الرشيدة والمعاملات القائمة على رعاية المصالح.

وقوله تعالى: ﴿ونحن له عابدون﴾ عطف على آمنا بالله فى قوله تعالى: ﴿قولوا آمنا بالله﴾ والمعنى : قل لهم يا محمد إننا نحن معاشر المسلمين نعبد الله وحده وصبغته هى صبغتنا ولا نعبد غيره فلا نتخذ الأحبار والرهبان أربابًا يزيدون فى ديننا وينقصون ويحلون ويحرمون ويمحون من النفوس صبغة التوحيد، ليحلوا محلها بأهوائهم صبغة الشرك والكفر.

ثم أمر الله - تعالى - نبيه ﷺ أن يزيد فى تذكيرهم ودحض حجتهم فقال تعالى : ﴿قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون. أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى، قل. أأنتم أعلم أم الله ؟ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله؛ وما الله بغافل عما تعملون. تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾.

ومعنى الآية الكريمة : قل يا محمد لأهل الكتاب الذين قالوا لك ولأصحابك ﴿كونوا هودا أو نصارى تهتدوا﴾ وزعموا أن دينهم هو المعتبر عند الله دون دينك، قل لهم : أتجادلوننا فى دين الله وهو ملة الإسلام التى بعثنى بها للعالمين هدى ورحمة، وتزعمون أن الهداية فيما أنتم عليه من اليهودية والنصرانية، وتستبعدون عليه - تعالى - أن ينزل وحيه على من ليس منكم، بدعوى أنكم أقرب إلى الله منا، وأنكم أبناء الله وأحباؤه، والحال أنه - سبحانه - هو ﴿ربنا وربكم﴾ أى خالقنا وخالقكم ورازقنا ورازقكم ومحاسبنا ومحاسبكم على ما يصدر منا ومنكم من أعمال.

وقوله تعالى : ﴿ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ معناه : لكل منا ومنكم أعمال يترتب عليها الثواب والعقاب، فكما أننا نتساوى معكم فى أن الله ربنا وربكم فكذلك نتساوى معكم فى

استحقاق الجزاء على الأعمال التى نعملها، فانظروا إلى أعمالنا وأعمالكم تجدوا أعمالنا خيرًا من أعمالكم، لأننا نزيد عليكم الإخلاص لله فى تلك الأعمال فلا تستبعدوا أن يؤهل أهل إخلاصه بإكرامهم بالنبوة.

فقوله تعالى: ﴿وهو ربنا وربكم، ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ حجتان مبطلتان لدعوى أهل الكتاب أنهم أحق لأن تكون النبوة فيهم لأن نسبة العباد إلى الله - تعالى - واحدة هو ربهم وهم عباده، والتفاضل فى المنازل لديه إنما يكون بالأعمال الصالحة والإخلاص لله فيها، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، ويختص بوحيه من يراه أهلا لذلك، وقد شاء - سبحانه - أن ينزل وحيه على محمد ﷺ النبى الأمى العربى، بدين عام خالد فيه الهداية والنور والفلاح فى الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ونحن له مخلصون﴾ بيان لسبب أحقية المسلمين بالهداية والكرامة، والمعنى، ونحن - يا معشر المسلمين - لربنا موحدون، نخلص لله العبادة والعمل، ولا نشرك معه آلهة أخرى، أما أنتم فقد أشركتم وضللتم فقال بعضكم: «عزير ابن الله» وقال بعضكم ﴿المسيح ابن الله﴾ فنحن أهدى منكم سبيلا، وأقوم قيلا.

ولم يصف المسلمون أعمالهم بالحسن، ولا أعمال المخاطبين بالسوء تجنبًا لنفور المخاطبين من سماع خطابهم، بل أوردوا كلامهم مورد قوله تعالى ﴿لكم دينكم ولى دين﴾ كما أنهم لم يقولوا: ونحن مخلصون وأنتم مخطئون، بل اقتصروا على نسبة الإخلاص لأنفسهم، وفى ذلك تعريض لطيف بأن المخاطبين غير مخلصين لله، فإن إخبار الإنسان باشتراكه مع جماعة فى أمر أو أمور، وإفراد نفسه بعد ذلك بأمر، يومىء إلى أن هذا الأمر الذى أثبته لنفسه خاصة معدوم فى أولئك الجماعة.

فمعنى الجملة: ونحن مخلصون فى أعمالنا لله وحده، ولم نخلطها بشىء من الشرك كما فعل غيرنا.

وبعد أن أبطل القرآن الكريم محاجة أهل الكتاب فى دين الله بغير حق وأنكر عليهم ذلك، عقبه بإبطال دعواهم أن أسلافهم من الأنبياء كانوا هودًا أو نصارى فقال تعالى: ﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودًا أو نصارى، قل أأنتم أعلم أم الله، ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون﴾.

وقوله تعالى: ﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾ حرف «أم» فيه معادل للهمزة فى قوله تعالى فى الآية السابقة ﴿اتحاجوننا فى الله﴾ على أحد الوجوه بمعنى أى الأمرين تأتون؟ المحاجة فى حكمة الله أم ادعاء اليهودية والنصرانية على الأنبياء المذكورين فى

هذه الآية والمراد من الاستفهام عنها إنكارهما معًا، إنكار حجاجهم فى دين الله، وإنكار قولهم إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى.

فكأنه - سبحانه - يقول لنبيه ﷺ قل لهم: لا تجادلوننا فى دين الله بغير حق، ولاتقولوا إن الأنبياء كانوا على دينكم، فإن مجادلتكم وأقوالكم من قبيل المزاعم الباطلة التى لاسند لها من عقل أو نقل.

وقوله تعالى: ﴿قل أأنتم أعلم أم الله﴾ معناه قل لهم يا محمد إن زعموا أن الأنبياء المذكورين فى الآية كانوا هودا أو نصارى: إن ما زعمتوه من أن إبراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب كانوا هودا أو نصارى هو على خلاف ما يعلمه الله، لأنه - سبحانه - قد أخبرنا بأنهم كانوا مسلمين مبرئين عن اليهودية والنصرانية، وأن يعقوب - عليه السلام - عندما حضرته الوفاة أوصى بنيه بأن يموتوا على الإسلام، وأن التوراة والانجيل ما أنزلا إلا من بعد أولئك الأنبياء جميعا، هكذا أخبرنا الله(١) فهل أنتم أعلم بديانتهم أم الله ولا شك أنهم لن يستطيعوا أن يقولوا نحن أعلم، وإنما سيقولون الله اعلم، فإذا لزمهم هذا القول: قلنا لهم إذا فدعواكم لا أساس لها من الصحة وبذلك تكون الجملة الكريمة قد قطعت حجتهم بأجمع بيان وأحكمه.

وقوله تعالى: ﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾ معناه لا أحد أشد ظلمًا ممن يكتم شهادة ثبتت عنده عن الله، تخبر بأن هؤلاء الأنبياء كانوا على الإسلام ولم يكونوا هودًا أو نصارى.

قال فضيلة أستاذنا السيد محمد الخضر حسين - رحمه الله - ما ملخصه: ولما أنزل قوله تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه: مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث..﴾ إلى آخر الآية الكريمة، كان من أهل الكتاب من آمن به وأخبر بما فى كتبهم من ذكره بصفته وعلاماته، وكان منهم من لا ينكر أن يكون قد ذكر فى الكتابين. ولكنه يكابر ويقول: المقصود نبى لم يأت بعد وقد تصدى لجمع هذه البشائر من كتابى التوراة والإنجيل طائفة من أهل البحث والعلم فى القديم والحديث، وبينوا وجه انطباقها على حال النبى ﷺ بحيث لا تأخذ الناظر الطالب للحق ريبة فى أنه الرسول الذى بشرت الأنبياء بمبعثه وعموم رسالته، ومن هذه البشائر ماجاء فى سفر

---

(١) والآيات تشهد بذلك منها قوله: ﴿ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتون إلا وأنتم مسلمون. أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت﴾. إلى قوله تعالى: ﴿ونحن له مسلمون﴾، ومنها قوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون﴾.

التثنية من التوراة (أقيم لهم من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به).

والنبى المماثل لموسى - عليه السلام - فى الرسالة والشريعة المستأنفة هو النبى محمد ﷺ وإخوة بنى إسرائيل هم العرب، لأنهما يجتمعان فى إبراهيم - عليه السلام - وقوله: «وأجعل كلامى فى فمه، يوافق حال النبى ﷺ من الأمية وعدم تعاطى الكتابة»[1].

ثم ختمت الآية بالوعيد الشديد لهم على مزاعمهم الباطلة، فقال تعالى ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾.

الغفلة: السهو والنسيان، والمراد أنه - سبحانه - محيط بأعمال هؤلاء الذين كتموا الحق، لا تخفى عليه منها خافية وسيحاسبهم عليها حسابا عسيرًا، ويعاقبهم على مزاعمهم الباطلة عقابًا أليمًا، فالجملة الكريمة تهديد ووعيد لأهل الكتاب.

ثم حذر الله - تعالى - أهل الكتاب - فى ختام الآيات - من التمادى فى الكفر والمعصية، انكالا على انتسابهم لآباء كانوا من الأنبياء أو من الصالحين، فقال تعالى: ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾.

﴿تلك﴾ إشارة إلى أمة إبراهيم وإسماعيلل وإسحاق ويعقوب والأسباط و(الأمة) المراد بها هنا الجماعة من الناس الذين يجمعهم أمر واحد وهو هنا الدين (قد خلت) أى مضت وانقرضت.

ومعنى الآية الكريمة: قل يا محمد لأهل الكتاب الذين زعموا أن الهداية فى ملتهم وأن إبراهيم وآله كانوا هودًا أو نصارى، قل لهم: إن إبراهيم وآله يمثلون أمة مضت لسبيلها لها عند الله ما كسبت من خير وعليها ما اكتسبت من شر ولا ينفعها غير صالح أعمالها، ولا يضرها سوى سيئها، وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لهؤلاء الذين تفتخرون بهم، فمن الأولى أن يكون الأمر كذلك بالنسبة لكم فعليكم أن تسلكوا طريق الايمان والعمل الصالح وأن تتركوا الاتكال على فضائل الآباء والأجداد فإن كل نفس يوم القيامة ستسأل عن أعمالها دون أعمال غيرها، كما بين ذلك قوله تعالى ﴿كل امرىء بما كسب رهين﴾.

فالمقصد الأول الذى ترمى إليه الآية الكريمة، هو تحذير المخاطبين من تركهم الإيمان والطاعة اعتمادًا منهم على انتسابهم لآباء كانوا أنبياء أو صالحين، فإن هذا الاعتماد إنما هو نوع من الأمانى الكاذبة والأفكار الفاسدة وقد جاء فى الحديث الشريف (من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه).

---

(١) مجلة لواء الإسلام العدد ١٢ السنة الثالثة ص ٨٢٧.

وكأن الآية تقول لأهل الكتاب فى تأكيد : إن أمامكم دينًا دعيتم إلى اتباعه، واقترنت دعوته بالحجة فانظروا فى دلائل صحته، وسمو حكمته، ولا تردوه بمجرد أن الأنبياء كانوا على ما أنتم عليه الآن، فإن دعواكم هذه لا تنفعكم ولو فى حال تسليمها لكم، إذ لا يمنع اختلاف الشرائع باختلاف المصالح، وعلى حسب ما تقتضيه حكمة عالم الغيب والشهادة.

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد دحضت ما ادعاه اليهود من أن الهدى فى إتباع ملتهم، وأقامت الحجج والشواهد على كذبهم وافترائهم وأرشدتهم إلى الدين الحق، ودعتهم إلى الدخول فيه، ووبختهم على المحاجة فى دين الله بغير علم، وحذرتهم من الانحراف عن الصراط المستقيم اعتمادًا منهم على آباء لهم كانوا أنبياء أو صالحين، فإنه لن تجزى نفس عن نفس شيئًا يوم الدين.

ثم تحدث القرآن الكريم بعد ذلك عن قصة تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، وأورد الشبهات التى أثارها المشركون وأهل الكتاب - وعلى رأسهم اليهود - حول هذه المسألة، ورد عليها بما يدحضها ويبطلها.

ونظرًا لأهمية هذا الموضوع فسيكون كلامنا عنه على النحو التالى :

أولاً : كيف كان المسلمون يتجهون فى صلاتهم قبل تحويل القبلة إلى المسجد الحرام؟

ثانيًا : ما الشبهات التى أثارها اليهود بعد تحويل القبلة إلى المسجد الحرام؟

ثالثًا : كيف مهد القرآن الكريم لهذا التحويل؟

رابعًا : تفسير الآيات الكريمة التى نزلت بشأن القبلة؟

خامسًا: لماذا أطال القرآن الكريم حديثه عن تحويل القبلة مع أنها من الأمور الفرعية.

وإليك الإجابة عن كل سؤال من هذه الأسئلة.

أولاً : فرضت الصلاة على النبى ﷺ فى مكة ليلة الإسراء والمعراج. ويرى بعض العلماء أن النبى ﷺ كان يستقبل فى صلاته - وهو بمكة - بيت المقدس إلا أنه لم يكن يستدير الكعبة، بل كان يجعلها بينه وبين ببيت المقدس، وذلك بأن يقف بين الركنين الأسود واليمانى.

ويرى بعضهم أنه كان يستقبل فى صلاته وهو بمكة المسجد الحرام. وهذا الرأى هو الذى نرجحه، لأن المسجد الحرام هو قبلة أبيه إبراهيم، ولأنه ﷺ عربى، وظهر بين قومه العرب، ولا شك أن اعتزازهم بالمسجد الحرام، أشد من اعتزازهم بأى مسجد آخر، إذن فالمصلحة والحكمة تقضيان بأن يستقبل المسلمون فى صلاتهم بمكة الكعبة المشرفة.

ومهما يكن من خلاف بين العلماء فى الجهة التى كان النبى ﷺ يستقبلها فى صلاته وهو بمكة، فإن الأمر الذى لا خلاف فيه، أنه بعد الهجرة إلى المدينة لم يستقبل فى صلاته سوى بيت المقدس بأمر من الله تعالى - وقد وردت أحاديث صحيحة فى ذلك، منها ما أخرجه البخارى فى صحيحه عن البراء بن عازب - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، وكان رسول الله ﷺ تعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان معه فمر على أهل مسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبى ﷺ جهة مكة فداروا كما هم قبل البيت وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلى قبل بيت المقدس فلما ولى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك[١].

ومنها ما أخرجه عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال: (بينما الناس بقباء فى صلاة الصبح، إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة)[٢].

وبذلك نرى أن النبى ﷺ كان يتوجه فى صلاته وهو بالمدينة إلى بيت المقدس، قبل أن يأمره الله - تعالى - بالتحول إلى المسجد الحرام.

ثانيًا: الشبهات التى أثارها اليهود بعد تحول المسلمين فى صلاتهم إلى المسجد الحرام.

قلنا إن الرسول ﷺ بعد هجرته إلى المدينة استقبل فى صلاته بيت المقدس بأمر من الله - تعالى - تأليفًا لقلوب اليهود لأن بيت المقدس قبلتهم، ورمز وحدتهم، وقد فرحوا لصلاة الرسول ﷺ والمسلمين إليه، وكان أمل النبى أن يلبوا دعوته وأن يسارعوا إلى الدخول فى الإسلام، ولكنهم عموا وصموا، وأخذوا يشيعون بين الناس أن النبى ﷺ قد اتبع قبلتهم وعما قريب سيتبع ملتهم، واعتبروا اتجاه المسلمين فى صلاتهم إلى بيت المقدس نوعًا من اقتباس الهدى منهم، فتأثر الرسول ﷺ من موقفهم الجحودى، وانبثقت فى نفسه أمنية التحول إلى الكعبة، وأكثر من التضرع والابتهال إلى الله كى يوجهه إلى قبلة أبيه إبراهيم.

وقد أجاب الله تعالى رجاء نبيه ﷺ فولاه القبلة التى يرضاها، ففرح المؤمنون لذلك لأن فى توجههم إلى البيت الحرام، تأليفًا لقلوبهم، فهو مثابتهم ومركز تجمعهم، وموطن أمنهم ومهوى أفئدتهم، وجامع وحدتهم وقد استقبلوا هذا التحويل بالسمع والطاعة لله ولرسوله ﷺ

---

(١) البخارى باب «الصلاة من الإيمان» من كتاب الإيمان جـ١ ص ١٧.
(٢) البخارى باب «ما جاء فى القبلة» من كتاب الصلاة جـ١ ص ١٠٦.

أما اليهود ومن على شاكلتهم ممن فى قلوبهم مرض فقد استقبلوه بالاستهزاء والجحود، وإثارة الشبهات، لبلبلة الأفكار، وتشكيك المسلمين فى عقيدتهم.

ومما قاله المشركون فى ذلك: إن محمدًا ﷺ قد تحير فى دينه، ويوشك أن يرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا.

ومما قاله المنافقون: ما بال المسلمين كانوا على قبلة ثم تركوها؟.

ومما قاله اليهود - الذين تولوا كبر التشكيك فى صحة التوجه إلى البيت الحرام - إن القبلة الأولى - وهى بيت المقدس - إن كانت على حق فقد تركتم أيها المسلمون الحق وإن كانت على باطل فعبادتكم السابقة باطلة، ولو كان محمد ﷺ نبيًا حقًا ما ترك قبلة الأنبياء قبله وتحول إلى غيرها وما فعل اليوم شيئًا وخالفه غدًا.

ومقصدهم الأول من وراء هذه المقالات المرذلة، الطعن فى شريعة الإسلام، وفى نبوة النبى (عليه الصلاة والسلام).

ثالثًا: ولكن القرآن الكريم أفسد عليهم خطتهم، وأحبط مكرهم، فأخبر الله - تعالى - نبيه ﷺ بما سيقوله هؤلاء السفهاء جميعًا قبل أن يصدر عنهم، ومهد لتحويل القبلة بما يطمئن النفوس ويثبت الإيمان فى القلوب ويهيىء الأفئدة لتقبل هذا الأمر العظيم، فذكر الله فى الآيات السابقة على التحويل أنه إذا نسخ آية أتى بما هو خير منها أو مثلها، لأنه القادر على كل شىء، المالك للسموات والأرض تصرفًا وتدبيرًا، وهو أعلم بما يتعبد به عباده وما فيه الخير لهم.

ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك أن له المشرق والمغرب. ففى أى مكان توجه المصلى فثم وجه الله، ثم نبه - رسوله ﷺ بأنه لن يرضى عنه اليهود ولا النصارى حتى يتبع ملتهم. إشارة إلى أن المصلحة فى التوجه إلى بيت المقدس قد انتهت وان الاستمرار على ذلك لن يكبح جماح نفوس لم تصبغ بهداية الله وتوفيقه.

ثم فصل القرآن بعد ذلك الحديث عن البيت الحرام وتعظيمه وشرفه فذكر أن الله - تعالى - قد جعله مثابة ومرجعًا للحجاج والعمار. يتفرقون عنه ثم يثوبون إليه على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار وكلما ازدادوا له زيارة زاد شوقهم إليه. وجعله - أيضًا - حرمًا آمنًا لهم. بينما يتخطف الناس من حولهم.

وأخبر - سبحانه - أنه قد عهد فى بنائه إلى نبيين كريمين هما سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل - عليهما السلام - وأمرهما بتطهيره من كل رجس للطائفين والعاكفين والركع السجود.

وقد كانت الآيات الواردة فى شأن المسجد الحرام قبيل الأمر بتحويل القبلة كفيلة بإعطاء صورة وافية لكل عاقل، بأن بيتًا له هذه القداسة جدير بأن يكون قبلة للناس فى صلاتهم،

ولكن اليهود ومن فى قلوبهم مرض، لم يكن إعراضهم عن الحق لشبهة فى نفوسهم ينقصها الدليل، وإنما كان إعراضهم مرجعه العناد والمكابرة، وكلاهما يعمى ويصم، فلا غرابة أن نطقوا كفرًا، ولاكت ألسنتهم قبحًا وسفهًا.

إلا أن ما قالوه من شبهات حول تحويل القبلة، لم يجد آذانًا صاغية من المؤمنين، لأن الله - تعالى - قد مهد للتحويل - كما قلنا - بما يطمئن النفوس ولقن نبيه ﷺ الجواب على شبهاتهم قبل أن ينطقوا بها ليكون ذلك أقطع لحجتهم، كما قالوا فى الأمثال: (قبل الرمى يراش السهم).

رابعًا: تفسير الآيات الكريمة التى نزلت فى شأن تحويل القبلة إلى المسجد الحرام.

لقد أنزل الله - تعالى - آيات كريمة من سورة البقرة فى شأن صرف القبلة إلى البيت الحرام[1]، لقن فيها المؤمنين الإجابة على معارضات اليهود وغيرهم، ونوه فيها بشأن الأمة الإسلامية، وبشرها بإجابة رجاء نبيها ﷺ إذ ولاه القبلة التى يرضاها، وأراحه من التطلع إلى اهتداء اليهود وغيرهم من الجاحدين. ولو جاءهم بكل آية، لأن إعراضهم عن دعوته ليس عن شبهة يزيلها الدليل، ولكنه إعراض سببه الجحود والحقد، والجاحد والحاقد لا ينفع معهما دليل أو برهان.

وقد كرر القرآن الكريم الأمر بالتوجه إلى الكعبة ثلاث مرات فى ثلاث آيات، وعلق بكل أمر فائدة جديدة تناسبه، لأن أهمية هذا الحادث تستلزم تكرارًا فى الخطاب ليرسخ فى النفوس، ويستقر فى المشاعر والقلوب.

هذا، وبعد تلك المقدمة الموجزة لما اشتملت عليه آيات تحويل القبلة من مقاصد، نحب أن نتعرض لتفسيرها بالتفصيل، فنقول قال الله تعالى:

۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا

---

(١) هذه الآيات من ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤.

جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾

تضمنت هذه الآيات الكريمة إعلام النبى ﷺ والمؤمنين أن فريقًا من الناس الذين خفت أحلامهم وضعفت عقولهم وعدلوا عما ينفعهم إلى ما يضرهم، سيقولون على سبيل الإنكار عند تحويل القبلة إلى المسجد الحرام، ما صرفهم عن القبلة التى كانوا عليها، وهى بيت المقدس.

قال صاحب الكشاف: «فإن قلت، أى فائدة فى الإخبار بقولهم قبل وقوعه؟ قلت: فائدته أن مفاجأة المكروه أشد، والعلم به قبل وقوعه أبعد من الاضطراب إذا وقع، لما يتقدمه من توطين النفس، وأن الجواب العتيد قبل الحاجة إليه أقطع للخصم وأرد لشغبه»(١).

والمراد بالسفهاء اليهود الذين استنكروا تحويل القبلة، ومن لف لفهم من المنافقين ومشركى العرب.

وإنما سماهم الله - تعالى - سفهاء لأنهم سفهوا الحق، وجحدوه، وأنكروا نبوة النبى ﷺ. مع علمهم بصدقه فى رسالته.

وقد صرح البخارى - رحمه الله - بأن المراد بالسفهاءهم اليهود، فقد روى عن البراء بن عازب قال:

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٢٧.

كان رسول الله ﷺ يحب أن يتوجه إلى الكعبة، فأنزل الله - تعالى - ﴿قد نرى تقلب وجهك فى السماء﴾ فتوجه نحو الكعبة، وقال السفهاء من الناس - وهم اليهود - ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها.

ثم لقن الله - تعالى - نبيه ﷺ الجواب الذى يخرس به ألسنة المعترضين من اليهود وغيرهم، فقال تعالى: ﴿قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾.

أى قل لهم - يا محمد - إذا اعترضوا على التحويل: إن الأمكنة كلها لله ملكًا وتصرفًا وهى بالنسبة إليه متساوية، وله أن يخص بعضها بحكم دون بعض، فإذا أمرنا باستقبال جهة فى الصلاة فلحكمة اقتضت الأمر وما على الناس إلا أن يمتثلوا أمره، والمؤمنون ما اتخذوا الكعبة قبلة لهم إلا امتثالا لأمر ربهم، لا ترجيحًا لبعض الجهات من تلقاء أنفسهم فالله هو الذى يهدى من يشاء هدايته، إلى السبيل الحق، فيوجه إلى بيت المقدس مدة حيث اقتضت حكمته ذلك، ثم إلى الكعبة، حيث يعلم المصلحة فيما أمر به.

- ثم وصف الله - تعالى - الأمة الإسلامية، بأنها أمة خيرة عادلة مزكاة بالعلم والعمل فقال تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾.

والمعنى: ومثل ما جعلنا قبلتكم - أيها المسلمون - وسطًا لأنها البيت الحرام الذى هو المثابة للناس، والأمن لهم، جعلناكم - أيضًا - ﴿أمة وسطا﴾ أى: خيارًا عدولا بين الأمم ليتحقق التناسب بينكم وبين القبلة التى تنوجهون إليها فى صلواتكم، تشهدون على الأمم السابقة بأن أنبياءهم قد بلغوهم الرسالة، ونصحوهم بما ينفعهم، ولكى يشهد الرسول ﷺ عليكم بأنكم صدقتموه وآمنتم به.

أخرج البخارى عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ يدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يارب، فيقال له: هل بلغت ما أرسلت به؟ فيقول نعم، فيقال لأمته هل بلغكم. فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقال له: من يشهد لك. فيقول: محمد وأمته. فيشهدون أنه قد بلغ، فذلك قوله - جل ذكره - ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا﴾[1].

ثم بين الله - تعالى - الحكمة فى تحويل القبلة إلى الكعبة فقال تعالى:

﴿وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه﴾.

---

(١) صحيح البخارى، باب: «وكذلك جعلناكم أمة وسطا» من كتاب التفسير، جـ ٦ ص ٢٦.

أى وما شرعنا التوجه إلى القبلة التى كنت عليها قبل وقتك هذا وهى بيت المقدس، إلا لنعامل الناس معاملة الممتحن المختبر، فنعلم من يتبع الرسول ويأتمر بأوامره فى كل حال ممن لم يدخل الدين فى قرارة نفسه، وإنما دخل فيه على حرف، بحيث يرتد عنه لأقل شبهة، وأدنى ملابسة كما حصل ذلك من ضعاف الإيمان عند تحويل القبلة إلى الكعبة والله - تعالى - عالم بكل شىء، ولكنه شاء أن يكون معلومه الغيبى مشاهدًا فى العيان، إذ تعلق الشىء واقعًا فى العيان، هو الذى تقوم عليه الحجة، ويترتب عليه الثواب والعقاب.

ولذا قال صاحب الكشاف: فإن قلت: كيف قال لنعلم ولم يزل عالمًا بذلك؟ قلت؛ معناه لنعلمه علمًا يتعلق به الجزاء، وهو أن يعلمه موجودًا حاصلا، ونحوه ﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ وقيل ليعلم رسول الله والمؤمنون، وإنما أسند علمهم إلى ذاته، لأنهم خواصه وأهل الزلفى عنده، وقيل معناه. ليميز التابع من الناكص كما قال - تعالى -: ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾ فوضع العلم موضع التمييز؛ لأن العلم يقع التمييز به»[1].

ثم بين الله - تعالى - آثار تحويل القبلة فى نفوس المؤمنين وغيرهم فقال تعالى: ﴿وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله.

أى: إنما شرعنا لك - يامحمد - القبلة أولا إلى بيت المقدس، ثم صرفناك عنها إلى الكمية ليظهر حال من يتبعك ويطيعك فى كل حالة ممن لا يطيعك، وإن كانت هذه الفعلة - وهى تحويلنا لك من بيت المقدس إلى الكعبة - لكبيرة وشاقة، إلا على الذين خلق الله الهداية فى قلوبهم فتلقوا أوامرنا بالخضوع والإذعان، وقالوا سمعنا وأطعنا كل من عند ربنا.

وقوله - تعالى -: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم...﴾.

بشارة عظيمة للمؤمنين، وجواب لما جاشت به الصدور، وتكذيب لما ادعاه اليهود من أن عبادة المؤمنين فى الفترة التى سبقت تحويل القبلة إلى الكعبة ضائعة وباطلة.

فقد أخرج البخارى من حديث البراء بن عازب - رضى الله عنه - أنه مات على القبلة قبل أن تحول رجال وقتلوا، فلم ندر ما تقول فيهم، فأنزل الله - تعالى - ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾.

وقال ابن عباس: كان رجال من أصحاب رسول الله ﷺ قد ماتوا على القبلة الأولى، منهم: أسعد بن زرارة، وأبو أمامة... وأناس آخرون فجاءت عشائرهم فقالوا: يا رسول

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص ٢٣٨.

الله : مات إخواننا وهم يصلون إلى القبلة الأولى وقد صرفك الله إلى قبلة إبراهيم، فكيف بإخواننا، فأنزل الله - تعالى - ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾.

وروى أن حيى بن أخطب وجماعة من اليهود قالوا للمسلمين : أخبرونا عن صلاتكم إلى بيت المقدس إن كانت على هدى لقد تحولتم عنه، وإن كانت على ضلالة فقد عبدتم الله بهامدة، ومن مات عليها فقد مات على ضلالة فقال المسلمون إنما الهدى فيما أمر الله - تعالى - والضلالة فيما نهى الله عنه فقالوا : فما شهادتكم على من مات منكم على قبلتنا؟ - وكان قد مات من المسلمين جماعة قبل تحويل القبلة - فانطلق عشائرهم إلى النبى ﷺ فقالوا : يا رسول الله : كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله تعالى : ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم﴾.

والمعنى - وما كان الله - تعالى - ليذهب صلاتكم وأعمالكم الصالحة التى قمتم بها خلال توجهكم إلى بيت المقدس، لأنه - سبحانه - بعباده رءوف رحيم ولا يضيع أجر من أحسن عملا.

ثم خاطب الله - تعالى - نبيه ﷺ ووعده بأن القبلة التى سيؤمر بالتوجه إليها هى التى يحرص عليها ويرغب فيها.

قال الإمام ابن كثير: قال على بن أبى طلحة قال ابن عباس : كان أول ما نسخ فى القرآن القبلة، وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود فأمره الله تعالى أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبله رسول الله ﷺ بضعة عشر شهرًا، وكان يحب قبلة أبيه إبراهيم، فكان يدعو الله، وينظر إلى السماء، فأنزل الله - تعالى - ﴿قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهم شطره﴾[1].

والمعنى : قد شاهدنا - يامحمد - وعلمنا تردد وجهك، وتسريح نظرك إلى السماء تطلعا إلى نزول الوحى عليك، وتوقعًا لما ألقى فى روعك من تحويل القبلة إلى الكعبة سعيًا منك وراء استمالة العرب إلى الدخول فى أحضان الإسلام، ومخالفة اليهود الذين كانوا يقولون : إنه يخالفنا فى ديننا ويتبع قبلتنا، وها نحن قد أجبناك إلى ما طلبت وأعطيناك ما سألت، ووجهناك إلى قبلة تحبها وتميل إليها ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾.

أى : فاصرف وجهك وحوله نحو المسجد الحرام وجهته.

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٩٢.

ثم عمم القرآن الكريم هذا التشريع على الأمة الإسلامية جميعها. فقال تعالى: ﴿وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾.

أى: وحيثما كنتم وأينما وجدتم فى بر أو بحر فولوا وجوهكم تلقاء المسجد الحرام ونحوه. وقد جاءت هذه الجملة موجهة إلى الأمة قاطبة لدفع توهم أن يكون الخطاب فى الأول خاصًا بالنبى ﷺ ولأنه لما كان تحويل القبلة أمرا له خطره، خصهم بخطاب مفرد ليكون ذلك آكد وأبلغ.

فالآية الكريمة فيها أمر لكل مسلم أن يجعل الكعبة قبلة له، فيتوجه بصدره إلى ناحيتها وجهتها حال تأديته الصلاة لربه، سواء أكان المصلى بالمدينة أم بمكة أو بغيرهما.

وفى ذكر المسجد الحرام دون الكعبة، ما يؤذن بكفالة مراعاة جهتها ولذلك لم يقع خلاف بين العلماء فى أن الكعبة قبلة كل أفق. وأن من عاينها فرض عليه استقبالها ومن غاب عنها فعليه أن يستقبل جهتها. فإن خفيت عليه تحرى جهتها ما استطاع.

وقد سقنا فى مطلع هذا البحث بعض الأحاديث الصحيحة التى صرحت بأن الصحابة عندما بلغهم أن النبى ﷺ قد أمر بالتحويل إلى الكعبة استداروا إليها وهم فى صلاتهم فجعلوها قبلتهم.

ومما يشهد بقوة إيمانهم وعظيم امتثالهم لشرع الله ما جاء عن نويلة بنت مسلم أنها قالت.

«صلينا الظهر - أو العصر - فى مسجد بنى حارثة، فاستقبلنا مسجد إيلياء - أى بيت المقدس - فصلينا ركعتين، ثم جاء من يحدثنا أن رسول الله ﷺ قد استقبل البيت الحرام فتحول النساء مكان الرجال. والرجال مكان النساء. فصلينا السجدتين الباقيتين ونحن مسنقبلون البيت الحرام. فحدثنى رجل من بنى حارثة أن النبى ﷺ قال: «أولئك رجال يؤمنون بالغيب»[1].

ثم بينت الآية الكريمة أن أهل الكتاب يعلمون أن التحويل إلى الكعبة هو الحق الذى لا ريب فيه فقال تعالى: ﴿وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم، وما الله بغافل عما يعملون﴾.

أى: وإن اليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة، وانصرافكم عن بيت المقدس، ليعلمون أن استقبالكم الكعبة حق؛ لأن الذى أخبر به قد قامت الآيات البينات عندهم على أنه رسول من عند الله، أو أنه يصلى إلى القبلتين، وما وقفوا من تحويل القبلة هذا الموقف إلا لعنادهم،

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٩٣.

وما الله بغافل عن أعمالهم بل هو محيط بها وسيحاسبهم عليها يوم القيامة حسابًا عسيرًا».

- ثم أخبر الله - تعالى - عن كفر اليهود وعنادهم، وأنهم لن يتبعوا الحق ولو جاءهم الرسول ﷺ بكل آية. فقال تعالى:

وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

والمعنى : ولئن جئت - يا محمد - اليهود ومن على طريقتهم فى الكفر بكل برهان وحجة، بأن الحق هو ما جئتهم به، من فرض التحول من قبلة بيت المقدس فى الصلاة إلى قبلة المسجد الحرام، ما صدقوا به، لأن تركهم اتباعك ليس عن شبهة يزيلها الدليل، وإنما هو عن مكابرة وعناد مع علمهم بما فى كتبهم من أنك على الحق المبين.

وما أنت - يا محمد - بتابع قبلتهم، لأنك على الهدى وهم على الضلال وفى هذه الجملة الكريمة حسم لأطماعهم، وتقرير لحقية القبلة إلى الكعبة، بعد أن أشاعوا بأن النبى ﷺ لو ثبت على قبلتهم لكانوا يرجون أنه النبى المنتظر، فقطع القرآن الكريم آمالهم فى رجوع النبى ﷺ إلى قبلتهم، وأخبر بأنه ليس يتابع لها.

ثم ذكر القرآن الكريم اختلاف أهل الكتاب فى القبلة، وأن كل طائفة منهم لا تتبع قبلة الطائفة الأخرى فقال تعالى : ﴿وما بعضهم بتابع قبلة بعض﴾ أى : ما اليهود بمتبعين لقبلة النصارى ولا النصارى بمتبعين لقبلة اليهود، فهم مع اتفاقهم على مخالفتك، مختلفون فى باطلهم وذلك لأن اليهود تستقبل بيت المقدس، والنصارى تستقبل مطلع الشمس.

ثم ساق القرآن الكريم بعد ذلك تحذيرًا للأمة كلها من اتباع أهل الكتاب، وجاء هذا التحذير فى شخص النبى ﷺ فقال تعالى : ﴿ولئن اتبعت أهواءهم من بعدما جاءك من العلم إنك إذًا لمن الظالمين﴾.

أى : لئن اتبعت - يا محمد - قبلتهم - على سبيل الفرض، والتقدير من بعد وضوح البرهان وإعلامى إياك بإقامتهم على الباطل، إنك إذًا لمن الظالمين لأنفسهم، المخالفين لأمرى.

فالآية الكريمة : وعيد وتحذير للأمة الإسلامية من اتباع آراء اليهود المنبعثه عن الهوى والشهوة، وسيق الوعيد والتحذير فى صورة الخطاب للرسول ﷺ الذى لا يتوقع منه أن يتبع أهواء أهل الكتاب، تأكيدًا للوعيد والتحذير، فكأنه يقول :

لو اتبع أهواءهم أفضل الخليقة، وأعلاهم منزلة عندى، لجازيته مجازاة الظالمين، وأحق بهذه المجازاة وأولى من كانوا دونه فى الفضل وعلو المنزلة إن اتبعوا أهواء المبطلين وهم اليهود ومن كان على شاكلتهم من المشركين.

قال صاحب الكشاف : «فإن قلت : كيف قال وما أنت بتابع قبلتهم ولهم قبلتان، لليهود قبلة وللنصارى قبلة ؟.

قلت : كلتا القبلتين باطلة، مخالفة لقبلة الحق، فكانتا بحكم الاتحاد فى البطلان قبلة واحدة»(١).

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣٢٩.

- ثم بين القرآن الكريم أن أهل الكتاب يعرفون صدق الرسول ﷺ معرفة لا يخالطها شك فقال تعالى : ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾.

أى : أن أحبار اليهود وعلماء النصارى يعرفون صدق رسالة النبى ﷺ ويعرفون أن توجهه إلى البيت الحرام حق، كما يعرفون أبناءهم فهو تشبيه للمعرفة العقلية الحاصلة من مطالعة الكتب السماوية، بالمعرفة الحسية فى أن كلا منهما يقين لا اشتباه فيه.

قال الإمام ابن كثير : « يخبر الله أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاء به الرسول ﷺ كما يعرف أحدهم ولده، والعرب كانت تضرب المثل فى صحة الشيء بهذا كما جاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال لرجل معه صبى صغير « إبنك هذا » ؟ قال نعم يا رسول الله أشهد به، قال : « أما إنه لا يخفى عليك ولا تخفى عليه » ويروى عن عمر أنه قال « لعبد الله بن سلام » أتعرف محمدًا ﷺ كما تعرف ولدك. قال نعم وأكثر، نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته، وإنى لا أدرى ما كان من أم ولدى، فقبل عمر - رضى الله عنه - رأسه »[1].

أى : وإن طائفة من أهل الكتاب مع ذلك التحقيق والإيقان العلمى من أنك على حق فى كل شئونك ليتمادون فى إخفائه وجحوده، وهم يعلمون ما يترتب على ذلك الكتمان من سوء المصير لهم فى الدنيا والآخرة - ثم ثبت الله تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين، فأخبرهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الذى لاشك فيه.

أى : اعلم - يا محمد - أن ما أوحى إليك وأمرت به من التوجه إلى المسجد الحرام. هو الحق الذى جاءك من ربك، وأن ما يقوله اليهود وغيرهم من المشركين هو الباطل الذى لا شك فيه، فلا تكونن من الشاكين فى كتمانهم الحق مع علمهم به» أو فى الحق الذى جاءك من ربك وهو ما أنت عليه فى جميع أحوالك ومن بينها التوجه إلى المسجد الحرام.

والشك غير متوقع من الرسول ﷺ، ولذلك قال المفسرون إن النهى موجه إلى الأمة فى شخص نبيّها ﷺ إذ كان فيها حديثو عهد بكفر يخشى عليهم أن يفتنوا بزخرف من القول يروج به أهل الكتاب شبهًا تعلق بأذهان من لم يرسخ الإيمان فى قلوبهم.

وقد وضح ابن جرير - رحمه الله - هذا المعنى بقوله :

فإن قال لنا قائل : « أوكان النبى ﷺ شاكا فى أن الحق من ربه أو فى أن القبلة التى وجهه الله إليها حق من الله - تعالى - حتى نهى عن شك فى ذلك فقيل له : ﴿فلا تكونن من الممترين﴾. قيل : ذلك من الكلام الذى تخرجه العرب مخرج الأمر أو النهى للمخاطب به، والمراد به غيره

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٩٤.

كما قال جل ثناؤه : ﴿يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ ثم قال ﴿واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرًا﴾ فخرج الكلام مخرج الأمر للنبى ﷺ والنهى له. والمراد به أصحابه المؤمنون به[1].

- ثم قال تعالى : ﴿ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات﴾.

أى : ولكل أهل ملة قبلة يتجهون إليها فى عباداتهم، فسارعوا أنتم جهدكم إلى ما اختاره الله لكم من الأعمال التى تكسبكم سعادة الدارين، والتى من جملتها التوجه إلى البيت الحرام.

ثم ساق الله - تعالى - وعدًا لمن يطيع أمره، ووعيدًا لمن ينصرف عن الخير. فقال - تعالى - : ﴿أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا﴾.

أى : فى أى بقعة يدرككم الأجل، وتموتون فيها، يجمعكم الله - تعالى - يوم القيامة. لتقفوا بين يديه للحساب، لأنه - سبحانه - قادر على جمعكم بعد مماتكم من قبوركم حيث كنتم، وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم، كما أنه - سبحانه - قدير على كل شىء، وما دام الأمر كذلك، فبادروا بالأعمال الصالحة شكرًا لربكم، وحافظوا على قبلتكم، حتى لا تضلوا كما ضل اليهود ومن على طريقتهم فى الكفر والعناد.

ثم أكد - سبحانه - حكم التحويل، وبين عدم تفاوت الأمر باستقبال المسجد الحرام فى حالتى السفر أو الحضر. فقال - تعالى - : ﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ . . .

أى : ومن أى موضع خرجت وإلى أى مكان آخر سرت، فول - يا محمد - وجهك عند صلاتك إلى المسجد الحرام، وإن هذا التوجه شطره لهو الحق الذى لا شك فيه عند ربك، فحافظوا على ذلك أيها المؤمنون وأطيعوا الله - تعالى - فى كل ما يأمركم به، وينهاكم عنه، لأنه - سبحانه - ليس بساه عن أعمالكم، ولا بغافل عنها، ولكنه محصيها عليكم، وسيجازيكم الجزاء الذى تستحقونه عليها يوم القيامة.

ثم كرر - سبحانه - الأمر للمؤمنين بأن يتجهوا فى صلاتهم إلى المسجد الحرام فقال : ﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾.

أى : ومن أى مكان خرجت - يا محمد - فول وجهك تلقاء المسجد الحرام، وأينما كنتم أيها المؤمنون من أرض الله، فولوا وجوهكم فى صلاتكم تجاهه ونحوه.

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٢ ص ٢٧.

وتلك هى المرة الثالثة التى تكرر فيها الأمر للمؤمنين بالتوجه إلى المسجد الحرام فى صلاتهم، وهذا التكرير لتأكيد أمر القبلة وتشديده لأن تحول القبلة كان أول نسخ فى الإسلام - كما قال كثير من العلماء - فاقتضى الأمر تأكيده فى نفوس المؤمنين حتى يستقر فى مشاعرهم، ويذهب ما يثار حولها من شبهات أدراج الرياح، ولأن الله - تعالى - أناط بكل واحد من هذه الأوامر الثلاثة بالتحول ما لم ينط بالآخر من أحكام فاختلفت فوائدها، فكأنه - سبحانه - يقول لنبيه - ﷺ وللمؤمنين.

الزموا هذه القبلة لأنها هى القبلة التى ترضونها وترغبون فيها وطالما تمنيتموها، والزموها -ا أيضًا - لأنها هى القبلة التى لن تنسخ بعد ذلك.

والزموها - كذلك - لأن لزومكم إياها يقطع حجة اليهود الجاحدين، وغيرهم من المعاندين والخاسرين.

وقد اقترن هذا الأمر الثالث بالتوجه إلى المسجد الحرام فى هذه الآية الكريمة بحكم ثلاث.

أولها: قوله تعالى: ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشونى﴾ والمراد من الناس اليهود ومن لف لفهم من المناوئين للدعوة الإسلامية.

والمعنى عليك - أيها النبى - ومن معك من المؤمنين أن تتجهوا فى صلاتكم إلى الكعبة المشرفة، لكى تقطعوا دابر فتنة اليهود وحجتهم فقد قالوا لكم وقت اتجاهكم إلى بيت المقدس. إذا كان لكم أيها المسلمون دين يخالف ديننا فلماذا تتجهون إلى قبلتنا، إلى غير ذلك من أقوالهم الفاسدة فاتجاهكم إلى المسجد الحرام من شأنه أن يزيل هذه الحجة التى قد تبدو مقبولة فى نظر ضعاف العقول.

وقوله تعالى: ﴿إلا الذين ظلموا﴾ استثناء من الناس، والمعنى:

لئلا يكون لأحد من اليهود حجة عليكم، إلا المعاندين منهم القائلين: ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا حبًا لدين قومه، واشتياقًا لمكة، وهؤلاء لا تخافون مطاعنهم بل اجعلوا خوفكم منى وحدى ولا تقيموا لما يشاغبون به فى أمر القبلة وغيره وزنا، فإنى كفيل أن أرد عنكم كيدهم وأحبط سعيهم، فأنتم، أيها المؤمنون - ما توجهتم إلى بيت المقدس ثم إلى المسجد الحرام إلا بإذن ربكم وأمره، ففى الحالتين أنتم مطيعون لخالقكم - عز وجل -.

وقد أحسن صاحب الكشاف فى شرحه للجملة الكريمة، وصرح بأنه يجوز أن يراد بالناس وبالذين ظلموا مشركو العرب فقال:

﴿إلا الذين ظلموا﴾ استثناء من الناس، ومعناه: لئلا يكون حجة لأحد من اليهود إلا

للمعاندين منهم، القائلين ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا ميلا إلى دين قومه وحبًا لبلده، ولو كان على الحق للزم قبلة الأنبياء قبله، فإن قلت: أى حجة كانت تكون للمنصفين منهم لو لم يحول حتى احترز من تلك الحجة، ولم يبال بحجة المعاندين؟.

قلت: كانوا يقولون ما له لا يحول إلى قبلة أبيه إبراهيم كما هو مذكور فى نعته فى التوراة؟ فإن قلت: كيف أطلق اسم الحجة على قول المعاندين؟

قلت: لأنهم يسوقونه سياق الحجة، ويجوز أن يكون المعنى: لئلا يكون للعرب عليكم حجة واعتراض فى ترككم التوجه إلى الكعبة التى هى قبلة إبراهيم وإسماعيل أبى العرب إلا الذين ظلموا منهم وهم أهل مكة، حين يقولون بداله فرجع إلى قبلة آبائه، ويوشك أن يرجع إلى دينهم»[1].

وثانيها: قوله تعالى: ﴿ولأتم نعمتى عليكم﴾ أى: ولوا وجوهكم شطر المسجد الحرام ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾ ولتكون قبلتكم مستقلة عن قبلة اليهود وغيرهم، فالجملة الكريمة معطوفة على قوله - تعالى -: ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾.

وثالثها: قوله - تعالى -: ﴿ولعلكم تهتدون﴾ أى: ولكى ترشدوا للصواب فى كل أموركم فما ضلت عنه الأمم من الحق هديناكم إليه، وخصصناكم به ولهذا كانت أمتكم خير أمة أخرجت للناس.

والجملة الكريمة معطوفة على الجملة السابقة وهى قوله تعالى: ﴿ولأتم نعمتى عليكم﴾.

وبذلك تكون الآيات الكريمة التى نزلت فى شأن تحويل القبلة إلى المسجد الحرام قد ثبتت المؤمنين، ودحضت كل شبهة أوردها اليهود وغيرهم فى هذه المسألة.

خامسًا: هذا، وفى ختام هذا المبحث نحب أن نجيب على السؤال الخامس، وهو: لماذا فصل القرآن الكريم الحديث عن تحويل القبلة فنقول:

لقد شرع الله - تعالى - تحويل القبلة إلى الكعبة بعد أن صلى المسلمون إلى بيت المقدس فترة من الزمان، وكرّر الأمر بتولية الوجوه إلى المسجد الحرام عند الصلاة، وأقام الأدلة الساطعة على أن ذلك التحويل هو الحق، وأتى بألوان من الوعيد لمن لم يتبع أوامره، وساق وجوهًا من التأكيدات تدل على عناية بالغة بشأنها.

والمقتضى لهذه العناية وذلك التفصيل - مع أن التوجه إليها فرع من فروع الدين - هو أن التحويل من بيت المقدس إلى المسجد الحرام. كان أول نسخ فى الإسلام - كما قال بذلك كثير

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٤٠.

من العلماء - والنسخ من مظان الفتنة والشبهة وتسويل الشيطان، فاقتضى الأمر بسط الحديث فى مسألة القبلة ليزدادوا إيمانًا على إيمانهم.

ولأن هذا التحويل - أيضًا - جاء على خلاف رغبة اليهود، فإنهم كانوا يحرصون على استمرار المسلمين فى التوجه إلى بيت المقدس، لأنه قبلتهم، فلما حصل التحويل إلى المسجد الحرام، اتخذوا منه مادة للطعن فى صحة النبوة ليفتنوا ضعفاء العقيدة، وسلكوا لبلبلة أفكار المسلمين كل وسيلة.

فزعموا أن نسخ الحكم بعد شرعه مناف للحكمة، ومباين للعقول، فلا يقع فى الشرائع الإلهية، وساقوا من الشبهات والمفتريات ما بينا بعضه عند تفسيرنا للآيات الكريمة.

ويبدو أن شغبهم هذا، كان له آثاره عند ذوى النفوس المريضة وضعاف الإيمان فلهذا كله أخذت مسألة القبلة شأنًا غير شأن بقية الأحكام الفرعية، فكان مقتضى الحال أن يكون الحديث عنها مستفيضًا، ومدعمًا بالأدلة والبراهين، وهذا ما راعاه القرآن الكريم عند حديثه عن مسألة القبلة، فلقد قرر وكرر، ووعد وتوعد، ووضح وبين، ليدفع كل شبهة، وليجتث كل حجة، ويزيد المؤمنين إيمانًا على إيمانهم، وينهض بضعفاء الإيمان إلى منزلة الراسخين فى العلم، ويهوى باليهود ومن حذا حذوهم فى مكان سحيق، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وبعد أن أنهى القرآن حديثه عن نعمة تحويل القبلة أتبعه بالحديث عن نعمة جليلة أخرى وهى نعمة ارسال الرسول فيهم لهدايتهم فقال - تعالى - :

كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

وقوله - تعالى - : ﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم﴾.. إلخ متصل بما قبله، والكاف للتشبيه وهى فى موضع نصب على أنها نعت لمصدر محذوف وما مصدرية، والتقدير: لقد حولت القبلة إلى شطر المسجد الحرام لأتم نعمتى عليكم إتمامًا مثل إتمام نعمتى عليكم بإرسال

الرسول ﷺ فيكم، إجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل إذ قالا ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم . . .﴾.

وقيل إن قوله - تعالى - : ﴿كما أرسلنا﴾ . . إلخ متصل بما بعده، فتكون الكاف للمقابلة، أى : كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يعلمكم الدين القويم، والخلق المستقيم ومنحتكم هذه النعمة فضلا منى وكرمًا، فاذكرونى بالشكر عليها أذكركم برحمتى وثوابى. وقوله : ﴿فيكم﴾ متعلق «بأرسلنا» وقدم على المفعول تعجيلا بإدخال السرور: وقوله : ﴿منكم﴾ فى موضع نصب، لأنه صفة لقوله : ﴿رسولا﴾ والمخاطبون بهذه الآية الكريمة هم العرب.

وفى إرساله الرسول ﷺ فيهم وهو منهم نعمة تستوجب المزيد من الشكر، لأن إرساله منهم يسبقه معرفتهم لنشأته الطيبة وسيرته العطرة، ومن شأن هذه المعرفة أن تحملهم على المسارعة إلى تصديقه والإيمان به، ولأن فى إرساله فيهم وهو منهم شرف عظيم لهم، ومجد لا يعد له مجد، حيث جعل - سبحانه - خاتم رسله من هذه الأمة، ولأن المشهور من حالهم الأنفة الشديدة من الانقياد، فكون الرسول منهم ادعى إلى إيمانهم به وقبولهم لدعوته. وقوله : ﴿يتلو عليكم آياتنا﴾ صفة ثانية للرسول ﷺ.

والتلاوة : ذكر الكلمة بعد الكلمة على نظام متسق، وأصله من الإتباع ومنه تلاه، أى : تبعه. والمراد من الآيات : آيات القرآن الكريم، وتلاوتها قراءتها، فإن البصير بأساليب البيان العربى يدرك من مجرد تلاوة آيات القرآن كيف ارتفع إلى الذروة التى كان بها معجزة ساطعة.

وفى هذه الجملة - كما قال الآلوسى - «إشارة إلى طريق إثبات نبوته - عليه الصلاة والسلام - لأن تلاوة الأمى للآيات الخارجة عن طوق البشر باعتبار بلاغتها واشتمالها على الإخبار بالمغيبات والمصالح التى ينتظم بها أمر المعاد والمعاش أقوى دليل على نبوته»[1] :

وعبر بقوله : ﴿يتلو﴾، لأن نزول القرآن مستمر، وقراءة النبى ﷺ له متوالية، وفى كل قراءة يحصل علم المعجزات للسامعين.

ويجوز أن يراد بالآيات : دلائل التوحيد والنبوة والبعث، وبتلاوتها التذكير بها حتى يزداد المؤمنون إيمانًا بصدقها.

وقوله : ﴿ويزكيكم﴾ صفة ثالثة للرسول ﷺ، أى : ويطهركم من الشرك، ومن الأخلاق الذميمة. وإذا أشرقت النفوس بنور الحق، وتحلت بالأخلاق الحميدة، قويت على تلقى ما يرد عليها من الحقائق السامية.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٢ ص١٨ ط منير الدمشقى.

وقوله : ﴿ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾ صفة رابعة للرسول ﷺ.

والمراد بالكتاب : القرآن، وتعليمه بيان ما يخفى من معانيه، فهو غير التلاوة، فلا تكرار بين قوله ﴿يتلو عليكم أياتنا﴾ وبين قوله ﴿ويعلمكم الكتاب﴾.

والحكمة : ما يصدر عنه ﷺ من الأقوال والأفعال التى جعل الله للناس فيها أسوة حسنة.

قال بعضهم : وقدمت جملة ﴿ويزكيكم﴾ هنا على جملة ﴿ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾ عكس ما جاء فى الآية السابقة فى حكاية قول إبراهيم ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك وبعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم﴾ لأن المقام هنا للامتنان على المسلمين، فقدم ما يفيد معنى المنفعة الحاصلة من تلاوة الآيات عليهم وهى منفعة تزكية نفوسهم اهتمامًا بها، وبعثًا لها بالحرص على تحصيل وسائلها وتعجيلا للبشارة بها. أما فى دعوة إبراهيم فقد رتبت الجمل على حسب ترتيب حصول ما تضمنته فى الخارج، مع ما فى ذلك التخالف من التفنن »(١).

وقوله - تعالى - : ﴿ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون﴾ صفة خامسة له ﷺ.

أى : « ويعلمكم مالم تكونوا تعلمونه ممالا طريق إلى معرفته سوى الوحى. ومما لم يكونوا يعلمونه وعلمهم إياه ﷺ وجوه استنباط الأحكام من النصوص أو الأصول المستمدة منها، وأخبار الأمم الماضية، وقصص الأنبياء، وغير ذلك مما لم تستقل بعلمه عقولهم. وبهذا النوع من التعليم صار الدين كاملا قبل انتهاء عهد النبوة.

ولقد كان العرب قبل الإسلام فى حالة شديدة من ظلام العقول وفساد العقائد. . . فلما أكرمهم الله - تعالى - برسالة رسوله ﷺ وتلا عليهم الآيات، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، خرج منهم رجال صاروا أمثالا عالية فى العقيدة السليمة، والأخلاق القويمة والأحكام العادلة، والسياسة الرشيدة لمختلف البيئات والنزعات.

قال الآلوسى : وكان الظاهر أن يقول : « ويعلمكم الكتاب والحكمة وما لم تكونوا تعلمون » بحذف الفعل « يعلمكم » من الجملة الأخيرة، ليكون الكلام من عطف المفرد على المفرد، إلا أنه - تعالى - كرر الفعل للدلالة على أنه جنس آخر غير مشارك لما قبله أصلا، فهو تخصيص بعد التعميم مبين لكون إرساله ﷺ نعمة عظيمة، ولولاه لكان الخلق متحيرين فى أمر دينهم لا يدرون ماذا يصنعون »(٢).

---

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ٢ ص ٤٥ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور.

(٢) تفسير الآلوسى جـ٢ ص ١٩.

ثم أمر الله عباده بأن يكثروا من ذكره وشكره على ما أسبغ عليهم من نعم فقال: ﴿فاذكرونى أذكركم..﴾.

ذكر الشيء: التلفظ باسمه، ويطلق بمعنى استحضاره فى الذهن، وهو ضد النسيان وذكر العباد لخالقهم قد يكون باللسان وقد يكون بالقلب وقد يكون بالجوارح. فذكرهم إياه بألسنتهم معناه: أن يحمدوه ويسبحوه ويمجدوه، ويقرءوا كتابه، مع استحضارهم لعظمته وجلاله.

وذكرهم إياه بقلوبهم معناه أن يتفكروا فى الدلائل الدالة على ذاته وصفاته وفى تكاليفه وأحكامه، وأوامره ونواهيه، وأسرار مخلوقاته، لأن هذا التفكر يقوى إيمانهم، ويصفى نفوسهم.

وذكرهم إياه بجوارحهم معناه: أن تكون جوارحهم وحواسهم مستغرقة فى الأعمال التى أمروا بها، منصرفة عن الأفعال التى نهوا عنها، ولكون الصلاة مشتملة على هذه الثلاثة سماها الله - تعالى - ذكرًا فى قوله: ﴿يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع...﴾.

وقوله: ﴿فاذكرونى أذكركم﴾ أمر وجوابه، وفيه معنى المجازاة فلذلك جزم.

والمعنى: اذكرونى بالطاعة والاستجابة لما أمرتكم به والبعد عمانهيتكم عنه أذكركم بالرعاية، والنصرة، وصلاح الأحوال فى الدنيا، وبالرحمة وجزيل الثواب فى الآخرة. فالذكر فى قوله «أذكركم» مستعمل فيما يترتب على الذكر من المجازاة بما هو أوفى وأبقى، كما أن قوله «فاذكرونى» المراد به: اذكروا عظمتى وجلالى ونعمى عليكم، لأن هذا التذكر هو الذى يبعث على استفراغ الوسع فى الأقوال والأعمال التى ترضى الله.

قال صاحب المنار: وقال الأستاذ الإمام: هذه الكلمة - وهى قوله - تعالى - ﴿فاذكرونى أذكركم﴾ - من الله - تعالى - كبيرة جدًا، كأنه يقول: إننى أعاملكم بما تعاملوننى به وهو الرب ونحن العبيد، وهو الغنى عنا ونحن الفقراء إليه. وهذه أفضل تربية من الله لعباده: إذا ذكروه ذكرهم بإدامة النعمة والفضل، وإذا نسوه نسيهم وعاقبهم بمقتضى العدل[1]».

هذا، وقد وردت أحاديث متعددة فى فضل الذكر والذاكرين، ومن ذلك ما رواه الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ يقول الله - تعالى -: أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه حين يذكرنى. فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى. وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير

---

(١) تفسير المنار جـ٢ ص ٣٢.

منهم. وإن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعًا. وإن تقرب إلى ذراعًا تقربت إلى باعا. وإن أتانى يمشى أتيته هرولة».

وروى مسلم عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة: أنهما شهدا على النبى ﷺ أنه قال: لا يقعد قوم يذكرون الله - تعالى - إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده».

قال الإمام النووى: واعلم أن فضيلة الذكر غير منحصرة فى التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ونحو ذلك، بل كل عامل لله - تعالى - بطاعة فهو ذاكر لله - تعالى -.

وقوله - تعالى -: ﴿واشكروا لى ولا تكفرون﴾ معطوف على ما قبله.

والشكر فى اللغة - كما يقول القرطبى - الظهور، ومنه قولهم: دابة شكور إذا ظهر عليها من السمن فوق ما تعطى من العلف.

وحقيقته: عرفان الإحسان وإظهاره بالثناء على المحسن، يقال شكره وشكر له كما يقال نصحه ونصح له.

وأصل الكفر فى كلام العرب الستر والتغطية والجحود، ويستعمل بمعنى عدم الإيمان فيتعدى بالباء فيقال: كفر بالله، ويستعمل بمعنى عدم الشكر - وهو المراد هنا - فيتعدى بنفسه، فيقال: كفر النعمة أى جحدها وكفر المنعم أى جحد نعمته ولم يقابلها بالشكر.

والمعنى: اشكروا لى ما أنعمت به عليكم من ضروب النعم، بأن تستعملوا النعم فيما خلقت له، وبأن تطيعونى فى السر والعلن، وحذار من أن تجحدوا إحسانى إليكم، ونعمى عليكم فاسلبكم إياها.

قال - تعالى -: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد﴾[1].

وقدم - سبحانه - الأمر بالذكر على الأمر بالشكر، لأن فى الذكر اشتغالا بذاته - تعالى -، وفى الشكر اشتغالا بنعمته، والاشتغال بذاته أولى بالتقديم من الاشتغال بنعمته. وقوله ﴿ولا تكفرون﴾ تأكيد لقوله ﴿واشكروا لى﴾.

وهذا تحذير لهذه الأمة حتى لا تقع فيما وقع فيه بعض الأمم السابقة التى ﴿كفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾.

وبعد أن أمر - سبحانه - عباده بذكره وشكره، وجه نداء إليهم بين لهم فيه ما يعينهم على ذلك، كما بين لهم منزلة الشهداء، وعاقبة الصابرين على البلاء فقال - تعالى -:

(١) سورة إبراهيم الآية ٦.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

الصبر: حبس النفس على احتمال المكاره، وتوطينها على تحمل المشاق وتجنب الجزع.

والمعنى: يامن آمنتم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، استعينوا على إقامة دينكم والدفاع عنه، وعلى فعل الطاعات وترك المعاصى، وعلى احتمال المكاره التى تجرى بها الأقدار، استعينوا على كل ذلك بالصبر الجميل وبالصلاة المصحوبة بالخشوع والإخلاص والتذلل للخالق - عز وجل - فإن الإيمان الذى خالط قلوبكم يستدعى منكم القيام بالمصاعب، واحتمال المكاره، ولقاء الأذى من عدو أو سفيه، ولن تستطيعوا أن تتغلبوا على كل ذلك إلا بالصبر والصلاة.

ولقد استجاب النبى ﷺ لهذا التوجيه الربانى، وتأسى به أصحابه فى ذلك، فقد أخرج الإمام أحمد - بسنده - عن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ «كان إذا حزبه أمر صلى»[1] أى: إذا شق عليه أمر لجأ إلى الصلاة لله رب العالمين.

وافتتحت الآية الكريمة بالنداء، لأن فيه إشعارًا بخبر مهم عظيم، فإن من شأن الأخبار العظيمة التى تهول المخاطب أن يقدم قبلها ما يهىء النفس لقبولها لتستأنس بها قبل أن تفجأها.

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٩٦.

ولعل مما يشهد بأفضلية هذه الأمة على غيرها من الأمم، أن الله - تعالى - قد أمر بنى إسرائيل فى السورة نفسها بالاستعانة بالصبر والصلاة فقال : ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ إلا أنه - سبحانه - قال لهم : ﴿وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ ليشعرهم بضعف عزائمهم عن عظائم الأعمال، ولم يقل - سبحانه - للمؤمنين ذلك فى الآية التى معنا، للإيماء إلى أنهم قد يسر لهم ما يصعب على غيرهم، وأنهم هم الخاشعون الذين استثناهم الله هنالك.

وقوله - تعالى - : ﴿إن الله مع الصابرين﴾ بيان لحكمة الاستعانة بالصبر وهو الفوز والنصر. أى : إن الله مع الصابرين بمعونته ونصره، وتوفيقه وتسديده فهى معية خاصة، وإلا فهو - سبحانه - مع جميع خلقه بعلمه وقدرته.

وقال - سبحانه - : ﴿إن الله مع الصابرين﴾ ولم يقل «مع المصلين» لأن الصلاة المستوفية لأركانها وسننها وخشوعها لا تتم إلا بالصبر، فالمصلون بحق داخلون فى قوله - تعالى - : ﴿إن الله مع الصابرين﴾.

ولم يقل «معكم» ليفيد أن معونته إنما تمدهم إذا صار الصبر وصفا لازما لهم.

قال الأستاذ الإمام : إن من سنة الله : - تعالى - أن الأعمال العظيمة لا تتم ولا ينجح صاحبها إلا بالثبات والاستمرار، وهذا إنما يكون بالصبر، فمن صبر فهو على سنة الله والله معه، لأنه - سبحانه - جعل هذا الصبر سببًا للظفر، إذ هو يولد الثبات والاستمرار الذى هو شرط النجاح، ومن لم يصبر فليس الله معه، لأنه تنكب سنته، ولن يثبت فيبلغ غايته[(١)].

ثم نهى - سبحانه - المؤمنين عن أن يقولوا للشهداء أمواتًا فقال : ﴿ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات. بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾.

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : نزلت هذه الآية فى قتلى غزوة بدر، قتل من المسلمين فيها أربعة عشر رجلا : ست من المهاجرين وثمانية من الأنصار وكان الناس يقولون. مات فلان ومات فلان. فنهى الله - تعالى - أن يقال فيهم : إنهم ماتوا.

وقيل إن الكفار والمنافقين قالوا : إن الناس يقتلون أنفسهم طلبًا لمرضاة محمدُ من غير فائدة، فنزلت هذه الآية[(٢)].

والسبيل : الطريق وسبيل الله : طريق مرضاته، وإنما قيل للجهاد سبيل الله، لأنه طريق إلى ثواب الله وإعلاء كلمته. و«أموات» مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى : لا تقولوا هم

(١) تفسير المنار جـ ٢ ص ٣٧.
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ١٢٣.

أموات وكذلك قوله «أحياء خبر لمبتدأ محذوف أى : هم أحياء.

قال الآلوسى : «والجملة معطوفة على «لا تقولوا» اضراب عنه، وليس من عطف المفرد على المفرد ليكون فى حيز القول ويصير المعنى بل قولوا أحياء، لأن المقصود إثبات الحياة لهم لا أمرهم بأن يقولوا فى شأنهم إنهم أحياء وإن كان ذلك أيضًا صحيحًا»[1].

أى : لا تقولوا أيها المؤمنون لمن يقتل من أجل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه إنهم أموات، بمعنى أنهم تلفت نفوسهم وعدموا الحياة، وتصرمت عنهم اللذات، وأضحوا كالجمادات كما يتبادر من معنى الميت، بل هم أحياء - فى عالم غير عالمكم كما قال - تعالى - : ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتًا، بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، ألا خوف عليهم ولاهم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾.

وقوله : ﴿ولكن لا تشعرون﴾ أى : لا تحسون ولا تدركون حالهم بالمشاعر، لأنها من شئون الغيب التى لا طريق للعلم بها إلا الوحى.

قال الآلوسى ما ملخصه : ثم إن نهى المؤمنين عن أن يقولوا فى شأن الشهداء أموات، إما أن يكون دفعًا لإيهام مساواتهم لغيرهم فى ذلك البرزخ. . . وإما أن يكون صيانة لهم عن النطق بكلمة قالها أعداء الدين والمنافقون فى شأن أولئك الكرام قاصدين بها أنهم حرموا من النعيم ولن يروه أبدًا. . . ثم قال: وقد اختلف فى هذه الحياة التى يحياها أولئك الشهداء عند ربهم: فذهب كثير من السلف إلى أنها حقيقة بالروح والجسد ولكنها لا ندركها فى هذه النشأة واستدلوا بسياق قوله - تعالى - : ﴿عند ربهم يرزقون﴾ وبأن الحياة الروحانية التى ليست بالجسد ليست من خواصهم فلا يكون لهم امتياز بذلك على من عداهم. وذهب البعض إلى أنها روحانية وكونهم يرزقون لا ينافى ذلك. . وذهب البلخى إلى نفى الحياة عنهم وقال ؛ معنى ﴿بل أحياء﴾ إنهم يحيون يوم القيامة فيجزون أحسن الجزاء. فالآية على حد قوله - تعالى - ﴿إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم﴾. . وذهب بعضهم إلى إثبات الحياة الحكمية لهم بسبب ما نالوا من الذكر الجميل والثناء الجليل، كما روى عن على أنه قال : «هلك خزان الأموال والعلماء باقون ما بقى الدهر، أعيانهم مفقودة وآثارهم فى القلوب موجودة».

ثم قال : «ولا يخفى أن هذه الأقوال - ما عدا الأولين - فى غاية الضعف، بل نهاية البطلان، والمشهور ترجيح القول الأول».

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٢ ص ٢٠.

والذى نراه أن الآية الكريمة قد نبهتنا إلى أن للشهداء مزية تجعلهم مفضلين عمن سواهم من كثير من الناس، وهى أنهم فى حياة سارة، ونعيم مقيم عند ربهم، وهذه الحياة الممتازة تسمو بهم عن أن يقال فيهم كما يقال فى غيرهم إنهم أموات وإن كان المعنى اللغوى للموت حاصلا لهم، ونحن نؤمن بهذه الحياة السارة لهم عند ربهم ونعتقد صحتها كما ذكرها الله - تعالى - إلا أننا نفوض كيفيتها وكنهها إليه - سبحانه - إذ لا يمكن إدراكها إلا من طريق الوحى، كما قال - تعالى - : ﴿ولكن لا تشعرون﴾ أى : لا تشعرون بحياتهم بعد مفارقتهم لهذه الدنيا، لأنها حياة من نوع معين لا يعلمها إلا علام الغيوب.

وبعد أن طلب - سبحانه - من عباده أن يستعينوا بالصبر والصلاة على احتمال المكاره، أردف ذلك بذكر بعض المواطن التى لا يمر فيها الإنسان بسلامة إلا إذا اعتصم بعرى الصبر فقال - تعالى - ﴿ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات﴾.

وقوله : ﴿ولنبلونكم﴾ من البلو والبلاء وهو الامتحان والاختبار، وهو جواب لقسم محذوف والتقدير : والله لنبلونكم.

وقوله : ﴿ولنبلونكم﴾ عطف على قوله : ﴿واستعينوا﴾ الخ، عطف المضمون على المضمون، والجامع أن مضمون الأول طلب الصبر، ومضمون الثانية بيان مواطنه، والمراد : ولنعاملنكم معاملة المختبر والمبتلى لأحوالكم :

والتنوين فى قوله : ﴿بشىء﴾ للتقليل. أى بقليل من كل واحد من هذه البلايا والمحن وهى الخوف وما عطف عليه.

وإنما قلل - كما قال الزمخشرى - ليؤذن أن كل بلاء وإن جل ففوقه ما يقل إليه وليخفف عليهم ويريهم أن رحمته معهم فى كل حال لا تزايلهم، وأنه - سبحانه - يبتليهم من هذه المصائب بقدر ما يمتاز به الصابرون من غير الصابرين.

و ﴿الخوف﴾ غم يلحق النفس لتوقع مكروه، ومن أشد ما تضطرب له النفوس من الخوف، خشيتها أن تقع تحت يد عدو لاهم له إلا إيذاؤها بما تكره.

و ﴿الجوع﴾ ضد الشبع، والمراد منه القحط، وتعذر تحصيل القوت، والحاجة الملحة إلى طعام.

و ﴿الأموال﴾ جمع مال، وهو ما يملك مما له قيمة، وجرى للعرب عرف باستعماله فى النعم خاصة - وهى الإبل والبقر والغنم -.

و ﴿الثمرات﴾ : جمع ثمرة وهى حمل الشجر، وقد تطلق على الشجر والنبات نفسه.

والمعنى : ولنصيبنكم بشىء من الخوف وبشىء من الجوع، وبشىء من النقص فى الأنفس والأموال والثمرات، ليظهر هل تصبرون أو لا تصبرون، فنرتب الثواب على الصبر والثبات على الطاعة، ونرتب العقاب على الجزع وعدم التسليم لأمر الله - تعالى -.

ولقد حدث للمسلمين الأولين خوف شديد بسبب تألب أعدائهم عليهم كما حصل فى غزوة الأحزاب. وحدث لهم جوع أليم بسبب هجرتهم من أوطانهم، وقلة ذات يدهم حتى لقد كان النبى ﷺ يشد الحجر على بطنه. وحدث لهم نقص فى أموالهم بسبب اشتغالهم بإعلاء كلمة الله. وحدث لهم نقص فى أنفسهم بسبب قتالهم لأعدائهم. ولكن كل هذه الآلام لم تزدهم إلا إيمانًا وتسليمًا لقضاء الله وقدره، واستمساكا بتعاليم دينهم

وهذا البلاء وتلك الآلام لابد منها ليؤدى المؤمنون تكاليف العقيدة، كى تعز على نفوسهم بمقدار ما أدوا فى سبيلها من تكاليف، إذ العقائد الرخيصة التى لا يؤدى أصحابها تكاليفها لا يعز عليهم تركها عند الصدمة الأولى، وليعلم من جاء بعدهم من المؤمنين إذا ما أصابهم مثل هذه الأمور أن ما أصابهم ليس لنقصان من درجاتهم، وحط من مراتبهم، فقد أصيب بمثل ذلك أو أكثر من هم أفضل منهم وهم أصحاب النبى ﷺ.

قال الإمام الرازى : وأما الحكمة فى تقديم تعريف هذا الابتلاء. أى الإخبار به قبل وقوعه : ففيها وجوه :

أحدها : ليوطنوا أنفسهم على الصبر عليها إذا وردت فيكون ذلك أبعد لهم عن الجزع وأسهل عليهم بعد الورود.

وثانيها : أنهم إذا علموا أنه ستصل إليهم تلك المحن اشتد خوفهم، فيصير ذلك الخوف تعجيلا للابتلاء، فيستحقون به مزيد الثواب.

وثالثها : أن الكفار إذا شاهدوا النبى ﷺ وأصحابه مقيمين على دينهم مستقرين عليه، مع ما كانوا عليه من نهاية الضر والمحنة والجوع - يعلمون أن القوم إنما اختاروا هذا الدين لقطعهم بصحته فيدعوهم ذلك إلى مزيد التأمل فى دلائله. ومن المعلوم الظاهر أن التبع إذا عرفوا أن المتبوع فى أعظم المحن بسبب المذهب الذى ينصره، ثم رأوه مع ذلك مصرًا على ذلك المذهب : كان ذلك أدعى لهم إلى اتباعه مما إذا رأوه مرفه الحال لا كلفة عليه فى ذلك المذهب.

ورابعها : أنه - تعالى - أخبر بوقوع ذلك الابتلاء قبل وقوعه فوجد مخبر ذلك الخبر على ما أخبر عنه. فكان إخبارًا عن الغيب فكان معجزًا.

وخامسها : أن من المنافقين من أظهر متابعة الرسول طمعًا فى المال وسعة الرزق، فإذا اختبره - سبحانه - بنزول هذه المحن، فعند ذلك يتميز المنافق عن الموافق.

وسادسها : أن إخلاص الإنسان حالة البلاء ورجوعه إلى باب الله - تعالى - أكثر من إخلاصه حال إقبال الدنيا عليه. فكانت الحكمة فى هذا الابتلاء ذلك(١).

ثم بعد أن بين - سبحانه - مواطن تضطرب فيها النفوس أردف ذلك يذكر عاقبة الصبر، وجزائه الأسنى، فقال : ﴿وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾.

الخطاب فى قوله : ﴿وبشر﴾ للنبى ﷺ أو لكل من تتأتى منه البشارة. والجملة عطف على «لنبلونكم» عطف المضمون على المضمون أى : الابتلاء حاصل لكم وكذا البشارة لكن لمن صبر.

و ﴿المصيبة﴾ اسم فاعل من الإصابة، والمراأ بها الآلام الداخلة على النفس بسبب ما ينالها من الشدائد والمحن.

و ﴿راجعون﴾ من الرجوع بمعنى مصير الشىء إلى ما كان عليه، يقال: رجعت الدار إلى فلان إذا ملكها مرة ثانية، وهو نظير العود والمصير.

والمعنى : وبشر يا محمد بالرحمة العظيمة والإحسان الجزيل، أولئك الصابرين الذين من صفاتهم أنهم إذا نزلت بهم مصيبة، فى أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم، أو غير ذلك، قالوا : بألسنتهم وقلوبهم على سبيل التسليم المطلق لقضاء الله والرضا بقدره ﴿إنا لله﴾ أى : إنا لله ملكا وعبودية، والمالك يتصرف فى ملكه ويقلبه من حال إلى حال كيف يشاء، «وإنا إليه راجعون» أى : وإنا إليه صائرون يوم القيامة فيجازينا على ما أمرنا به من الصبر والتسليم لقضائه عند نزول الشدائد التى ليس فى استطاعتنا دفعها.

فقولهم : ﴿إنا لله﴾ إقرار بالعبودية والملكية لله رب العالمين. وقولهم «وإنا إليه راجعون» إقرار بصحة البعث والحساب والثواب والعقاب يوم القيامة.

وليست هذه البشارة موجهة إلى الذين يقولون بألسنتهم هذا القول مع الجزع وعدم الرضا بالقضاء والقدر، وإنما هذه البشارة موجهة إلى الذين يتلقون المصائب بالسكينة والتسليم لقضاء الله لأول حلولها، يشير إلى هذا قوله - تعالى - : ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا﴾ فإنه يدل على أنهم يقولون ذلك وقت الإصابة «ويصرح بهذا قوله ﷺ «الصبر عند الصدمة الأولى».

---

(١) تفسير الرازى جـ ٤ ص ١٦٨ طبعة عبد الرحمن محمد.

وهذه الجملة الكريمة وهى قوله - تعالى - : ﴿الذين إذا أصابتهم﴾ . . الخ وصف كريم لأولئك الصابرين، لأنها أفادت أن صبرهم أكمل الصبر، إذ هو صبر مقترن ببصيرة مستنيرة جعلتهم يقرون عن عقيدة صادقة أنهم ملك لله يتصرف فيهم كيف يشاء، ومن ربط نفسه بعقيدة أنه ملك لله وأن المرجع إليه، يكون بذلك قد هيأها للصبر الجميل عند كل مصيبة تفاجئه.

قال القرطبى : جعل الله هذه الكلمات وهى قوله - تعالى - : ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ ملجأ لذوى المصائب، وعصمة للممتحنين، لما جمعت من المعانى المباركة، فإن قوله «إنا لله» توحيد واقرار بالعبودية والملك وقوله ﴿وإنا إليه راجعون﴾ إقرار بالهلك على أنفسنا والبعث من قبورنا، واليقين أن رجوع الأمر كله إليه كما هو له. قال سعيد بن جبير: لم تعط هذه الكلمات نبيًا قبل نبينا، ولو عرفها يعقوب لما قال : يا أسفى على يوسف»[1].

هذا، ولا يتنافى مع الصبر ما يكون من الحزن عند حصول المصيبة، فقد ورد فى الصحيحين أن النبى ﷺ بكى عند موت ابنه إبراهيم وقال : العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون».

وإنما الذى ينافيه ويؤاخذ الإنسان عليه، الجزع المفضى إلى إنكار حكمة الله فيما نزل به من بأساء أو ضراء، أو إلى فعل ما حرمه الإسلام من نحو النياحة وشق الجيوب، ولطم الخدود.

ثم بين - سبحانه - ما أعده للصابرين من أجر جزيل فقال : ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون﴾.

﴿أولئك﴾ اسم اشارة، أتى به - سبحانه - للتنبيه على أن المشار إليه هم الموصوفون بجميع الصفات السابقة على اسم الإشارة، وأن الحكم الذى ورد بعد مترتب على هذه الأوصاف.

و ﴿الصلوات﴾ جمع صلاة. وصلاة الله على عباده إقباله عليهم. بالثناء والعطف والمغفرة.

وجمعت مراعاة لكثرة ما يترتب عليها من أنواع الخيرات فى الدنيا والآخرة.

﴿الرحمة﴾ - كما هو مذهب السلف - صفة قائمة بذاته - تعالى - لا نعرف حقيقتها وإنما نعرف أثرها الذى هو الإحسان.

وعطف - سبحانه - الرحمة على الصلوات ليدل على أن بعد ذلك الإقبال منه على عباده إنعامًا واسعًا، وعطاء جزيلا فى الدنيا والآخرة.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٢ ص١٧٦ طبعة دار الكتب الطبعة الثانية سنة ١٣٧٣ هـ.

وجاءت الرحمة مفردة على أصل المصادر وهو الإفراد، والمقام فى الآية يذهب بذهن السامع إلى كثرة الإنعام المترتب على الصبر الجميل.

والجملة ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾ استئنافية جواب عن سؤال تقديره: بماذا بشر الله الصابرين؟ فكان الجواب: أولئك عليهم صلوات... إلخ.

والمعنى: أولئك الصابرون المحتسبون الموصوفون بتلك الصفات الكريمة، عليهم مغفرة عظيمة من خالقهم، وإحسان منه - سبحانه - يشملهم فى دنياهم وآخرتهم ﴿وأولئك هم المهتدون﴾ لطريق الصواب بالتسليم وقت صدمة المصيبة دون غيرهم ممن جزعوا عند صدمتها، حتى صدر عنهم ما لم يأذن به الله.

هذا، وفى فضل الصبر والصابرين وردت آيات كثيرة، وأحاديث متعددة أما الآيات فيزيد عددها فى القرآن على سبعين آية منها قوله - تعالى -: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا﴾ وقوله ﴿وليجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ وقوله: ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾ وقوله: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

وأما الأحاديث فمنها ما جاء فى صحيح مسلم عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون. اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيرًا منها إلا أجره الله فى مصيبته وأخلف له خيرا منها. قالت: فلما توفى أبو سلمة قلت: من خير من أبى سلمة: صاحب رسول الله؟ ثم عزم الله لى فقلتها: قالت: فتزوجنى رسول الله ﷺ.

ومنها ما رواه الإمام أحمد بسنده عن أبى سنان قال: دفنت ابنا لى. وإنى لفى القبر أخذ بيدى أبو طلحة «يعنى الخولانى» فأخرجنى وقال: ألا أبشرك؟ قال قلت: بلى. قال: حدثنى الضحاك بن عبد الرحمن بن عوزب عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ قال الله - تعالى -: يا ملك الموت، قبضت ولد عبدى، قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده؟ قال: نعم. قال فماذا قال؟ قال حمدك واسترجع. قال الله - تعالى -: ابنوا له بيتًا فى الجنة وسموه بيت الحمد.

ومنها ما رواه الشيخان عن أبى سعيد وأبى هريرة عن النبى ﷺ قال: ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولاهم ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه.

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التى وردت فى ثواب الاسترجاع وفى أجر الصابرين وفضلهم.

ثم تحدث - سبحانه - عن شعيرة من شعائر الحج فقال:

﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾

قال الآلوسى: بعد أن أشار - سبحانه - فيما تقدم إلى الجهاد عقب ذلك ببيان معالم الحج، فكأنه جمع بين الحج والغزو، وفيهما شق الأنفس وتلف الأموال. وقيل لما ذكر الصبر عقبه ببحث الحج لما فيه من الأمور المحتاجة إليه»[1].

و ﴿الصفا﴾ فى اللغة: الحجر الأملس، مأخوذ من صفا يصفو إذا خلص، واحده صفاة فهو مثل حصى وحصاة ونوى ونواة.

و ﴿المروة﴾ فى أصل اللغة: الحجر الأبيض اللين، وقيل: الحصاة الصغيرة. وهما - أى الصفا والمروة - قد جعلا علمين لجبلين معروفين بمكة كانا على بعد ما يقرب من ألف ذراع من المسجد الحرام. والألف واللام فيهما للتعريف لا للجنس. ومع توسعة المسجد الحرام صارا متصلين به.

و ﴿الشعائر﴾ جمع شعيرة، من الإشعار بمعنى الإعلام، ومنه قولك شعرت بكذا، أى: علمت به.

وكون الصفا والمروة من شعائر الله، أى: أعلام دينه ومتعبداته. تعبدنا الله بالسعى بينهما فى الحج والعمرة.

وشعائر الحج: معالمه الظاهرة للحواس، التى جعلها الله أعلاما لطاعته، ومواضع نسكه وعباداته، كالمطاف والمسعى والموقف والمرمى والمنحر.

وتطلق الشعائر على العبادات التى تعبدنا الله بها فى هذه المواضع، لكونها علامات على الخضوع والطاعة والتسليم لله - تعالى -.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢ ص ٣٤.

وأكدت الجملة الكريمة بإن لأن بعض المسلمين كانوا مترددين فى كون السعى بين الصفا والمروة من شعائر الله، وكانوا يظنون أن السعى بينهما من أحوال الجاهلية، كما سنبين بعد قليل.

وقوله: ﴿فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾ تفريع على كونهما من شعائر الله وأن السعى بينهما فى الحج والعمرة من المناسك. والحج لغة: القصد مطلقًا أو إلى معظم. وشرعا: القصد إلى البيت الحرام فى زمان معين بأعمال مخصوصة.

و ﴿اعتمر﴾ أى: زار. والعمرة الزيارة مأخوذة من العمارة كأن الزائر يعمر البيت الحرام بزيارته. وشرعا الزيارة لبيت الله المعظم بأعمال مخصوصة وهى: الإحرام والطواف والسعى بين الصفا والمروة.

و ﴿الجناح﴾ - بضم الجيم - الإثم والحرج مشتق من جنح إذا مال عن القصد، وسمى الإثم به للميل فيه من الحق إلى الباطل.

و ﴿يطوف﴾ أصلها يتطوف، فأبدلت التاء طاء، وأدغمت فى الطاء فصارت «يطوف». والتطوف بالشيء كالطواف به، ومعناه: الإلمام بالشيء والمشى حوله.

وقد فسر النبى - ﷺ - الطواف بالنسبة للكعبة بالدوران حولها سبعة أشواط. وفسره بالنسبة للصفا والمروة بالسعى بينهما سبعة أشواط كذلك.

و «من» فى قوله: ﴿فمن حج﴾ شرطية، «وحج» فى محل جزم بالشرط، و ﴿البيت﴾ منصوب على المفعولية، وجملة «فلا جناح عليه أن يطوف بهما» جواب الشرط.

والمعنى: إن الصفا والمروة من شعائر الله، أى: من المواضع التى يقام فيهما أمر من أمور دينه وهو السعى بينهما ﴿فمن حج البيت﴾ أى: قصده بالأفعال المعينة التى شرعها الله ﴿أو اعتمر﴾ أى: أتى بالعمرة كما بينتها تعاليم الإسلام «فلا جناح عليه أن يطوف بهما» أى: فلا إثم ولا حرج ولا مؤاخذة عليه فى الطواف بهما، لأنهما مطلوبان للشارع، ومعدودان من الطاعات.

وهنا قد يقول قائل: إن بعض الذين يقرءون هذه الآية قد يشكل عليهم فهمها وذلك لأن قوله - تعالى -: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ يدل على أن الطواف بهما مطلوب شرعًا طلبا أقل درجاته الندب، وقوله - تعالى -: ﴿فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾ يقتضى رفع الأثم عن المتطوف بهما، والتعبير برفع الإثم عن الشيء يأتى فى مقام الدلالة على إباحته، وإذن فما الأمر الداعى إلى أن يقال فى هذه الشعيرة: لا إثم على من يفعلها بعد التصريح بأنها من شعائر الله؟ وللإجابة على هذا القول نقول. إن الوقوف على سبب نزول الآية الكريمة يرفع هذا

الاستشكال. وقد روى العلماء فى سبب نزولها عدة روايات منها : ما رواه البخارى عن عروة بن الزبير قال : سألت عائشة - رضى الله عنها - قلت لها : أرأيت قوله - تعالى - : ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما...﴾ فوالله ؛ ما على أحد جناح أن لا يطوف بالصفا والمروة؟ قالت بئس ما قلت يا ابن أختى ! ! إن هذه الآية لو كانت كما أولتها لكانت : لا جناح عليه أن لا يطوف بهما، ولكن الآية أنزلت فى الأنصار. كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية، التى كانوا يعبدونها عند المشلل. فكان من أهل يتحرج أن يتطوف بالصفا والمروة. فلما أسلموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك؟ فقالوا : يا رسول الله : إنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية.

قالت عائشة : وقد سن رسول الله ﷺ الطواف بينهما، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما[1].

وهناك رواية لمسلم عن عروة عن عائشه تشبه ما جاء فى رواية البخارى، وهناك رواية للنسائى عن زيد بن حارثة قال : كان على الصفا والمروة صنمان من نحاس يقال لهما «إساف ونائلة» كان المشركون إذا طافوا تمسحوا بهما.

وهناك رواية للطبرانى وابن أبى حاتم بإسناد حسن من حديث ابن عباس قال : قالت الأنصار : إن السعى بين الصفا والمروة من أمر الجاهلية فأنزل الله هذه الآية[2].

فيؤخذ من هذه الروايات أن بعض المسلمين كانوا يتحرجون من السعى بين الصفا والمروة لأسباب من أهمها أن هذا السعى كان من شعائرهم فى الجاهلية فقد كانوا يهلون - أى يحرمون - لمناة، ثم يسعون بينهما ليتمسحوا بصنمين عليهما، وهم لا يريدون أن يعملوا فى الإسلام شيئا مما كان من أمر الجاهلية لأن دين الإسلام الذى خالط أعماق قلوبهم هز أرواحهم هزًا قويًا وجعلهم ينظرون بجفوة وازدراء واحتراس إلى كل ما كانوا عليه فى الجاهلية من أعمال تتنافى مع تعاليم دينهم الجديد، فنزلت هذه الآية الكريمة لتزيل التحرج الذى كان يتردد فى صدورهم من السعى بين الصفا والمروة.

وهذا يدل على قوة إيمانهم، وصفاء يقينهم، وتحرزهم من كل قول أو عمل يشم منه رائحة التعارض مع العقيدة التى جعلتهم يخلصون عبادتهم لله الواحد القهار.

وقوله ﴿ومن تطوع خيرًا فإن الله شاكر عليم﴾ تذييل قصد منه الإتيان بحكم كلى فى أفعال الخيرات كلها، وقيل إنه تذييل لما أفادته الآية من الحث على السعى بين الصفا والمروة.

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الحج جـ٢ ص١٩٣.
(٢) راجع تفسير القاسمى جـ٢ ص٣٤٤.

و ﴿تطوع﴾ من التطوع وهو فعل الطاعة فريضة كانت أو نافلة، وقيل هو التطوع بالنفل خاصة.

﴿وشاكر﴾ من الشكر، والشاكر فى اللغة هو المظهر للإنعام عليه، وذلك محال فى حق الله - تعالى -، إذ هو المنعم على خلقه، فوجب حمل شكر الله لعباده على معنى مجازاتهم على ما يعملون من خيرات، وإثابتهم على ذلك بالثواب الجزيل.

قال الإمام الرازى: وإنما سمى - سبحانه - المجازاة على الطاعة شكرًا لوجوه:

الأول: أن اللفظ خرج مخرج التلطف مع العباد مبالغة فى الإحسان إليهم، كما فى قوله - تعالى -: ﴿من ذا الذى يقرض الله قرضًا حسنًا﴾ وهو - سبحانه - لا يستقرض من عوز، ولكنه تلطف فى الاستدعاء كأنه قيل: من ذا الذى يعمل عمل المقرض. بأن يقدم فيأخذ أضعاف ما قدم.

الثانى: أن الشكر لما كان مقابلا للإنعام أو الجزاء عليه، سمى كل ما كان جزاء شكرًا على سبيل التشبيه.

الثالث: كأنه يقول: أنا وإن كنت غنيًا عن طاعتك، إلا أنى أجعل لها من الموقع بحيث لو صح على أن أنتفع بها لما ازداد وقعه على ما حصل.

وبالجملة فالمقصود أن طاعة العبد مقبولة عند الله، وواقعة موقع القبول فى أقصى الدرجات[١].

و ﴿من﴾ شرطية.

و﴿تطوع﴾ فعل الشرط، و﴿خيرًا﴾ منصوب على نزع الخافض، وأصله بخير؛ لأن تطوع يتعدى بالباء ولا يتعدى بنفسه ثم حذفت الباء فى نظم الكلام نحو: تمرون الديار فلم تعوجوا. أو هو منصوب على أنه نعت لمصدر محذوف أى: تطوعًا خيرًا، وجملة ﴿فإن الله شاكر عليم﴾ دليل على جواب الشرط، إذ التقدير، ومن تطوع خيرًا جوزى فإن الله شاكر عليم.

والمعنى: ومن تطوع بالخيرات وأنواع الطاعات، أو من أتى بالحج أو العمرة طاعة لله، أو من أتى بهما مرة بعد مرة زيادة على المفروض أو الواجب عليه، فاز بالثواب الجزيل، والنعيم المقيم؛ لأن من صفاته - سبحانه - مجازاة من يحسنون العمل، وهو عليم بكل ما يصدر عن عباده، ولن يضيع أجر من أحسن عملا.

هذا، وقد اختلفت أقوال الفقهاء فى حكم السعى بين الصفا والمروة.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ١٨٢ طبعة عبد الرحمن محمد.

فمنهم من يرى أنه من أركان الحج كالإحرام والطواف والوقوف بعرفة. وإلى هذا الرأى ذهب الشافعى وأحمد بن حنبل ومالك فى أشهر الروايتين عنه ومن حججهم أنه من أفعال الحج، وأن النبى ﷺ قد اهتم به وبادر إليه، فقد روى الشيخان عن عمرو بن دينار قال: سألنا ابن عمر عن رجل طاف بالبيت العمرة، ولم يطف بين الصفا والمروة أيأتى امرأته؟ فقال: قدم النبى ﷺ فطاف بالبيت سبعًا وصلى خلف المقام ركعتين، وطاف بين الصفا والمروة. وقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة».

ومنهم من يرى أنه واجب يجبر بالدم، وإلى هذا الرأى ذهب الحنفية ومن حججهم أنه لم يثبت بدليل قطعى فلا يكون ركنًا.

ومنهم من يرى غير ذلك كما هو موضح فى كتب الفقه.

ثم حض - سبحانه - على إظهار الحق وبيانه، وتوعد بالعقاب الشديد من يعمل على إخفائه وكتمانه.

فقال - تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾

قال الآلوسى: أخرج جماعة عن ابن عباس قال: سأل معاذ بن جبل، وسعد بن معاذ، وخارجه بن زيد نفرًا من أحبار يهود عما فى التوراة من صفات النبى ﷺ ومن بعض الأحكام فكتموا، فأنزل الله - تعالى - فيهم هذه الآية ﴿إن الذين يكتمون﴾... إلخ[1].

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢ ص ٢٦.

والكتم والكتمان: إخفاء الشيء قصدًا مع مسيس الحاجة إليه وتحقق الداعى إلى إظهاره. وكتم ما أنزل الله يتناول إخفاء ما أنزله، وعدم ذكره للناس وإزالته عن موضعه ووضع شيء آخر موضعه، كما يتناول تحريفه بالتأويل الفاسد عن معناه الصحيح جريًا مع الأهواء، وقد فعل أهل الكتاب ولاسيما اليهود - كل ذلك. فقد كانوا يعرفون مما بين أيديهم من آيات أن رسالة محمد ﷺ حق، ولكنهم كتموا هذه المعرفة حسدًا له على ما آتاه الله من فضله، كما أنهم حرفوا كلام الله وأولوه تأويلا فاسدًا تبعًا لأهوائهم.

والمراد «بما أنزلنا» ما اشتملت عليه الكتب السماوية السابقة على القرآن من صفات النبى ﷺ ومن هداية وأحكام.

والمراد بالكتاب جنس الكتب، فيصح حمله على جميع الكتب التى أنزلت على الرسل - عليهم السلام -. وقيل: المراد به التوراة.

و ﴿البينات﴾ جمع بينة، والمراد بها الآيات الدالة على المقاصد الصحيحة بوضوح، وهى ما نزل على الأنبياء من طريق الوحى.

والمراد «بالهدى» ما يهدى إلى الرشد مطلقًا فهو أعم من البينات، إذ يشمل المعانى المستمدة من الآيات البينات عن طريق الاستنباط، والاجتهاد القائم على الأصول المحكمة.

و «اللعن» الطرد والإبعاد من الرحمة. يقال: لعنه، أى: طرده وأبعده ساخطًا عليه، فهو لعين وملعون.

والمعنى: إن الذين يخفون عن قصد وتعمد وسوء نية ما أنزل الله على رسله من آيات واضحة دالة على الحق، ومن علم نافع يهدى إلى الرشد، من بعد ما شرحناه وأظهرناه للناس فى كتاب يتلى، أولئك الذين فعلوا ذلك ﴿يلعنهم الله﴾ بأن يبعدهم عن رحمته ﴿ويلعنهم اللاعنون﴾ أى ويلعنهم كل من تتأتى منه اللعنة - كالملائكة والمؤمنين - بالدعاء عليهم بالطرد من رحمة الله لكتمانهم لما أمر الله بإظهاره.

وجملة ﴿إن الذين يكتمون...﴾ إلخ، مستأنفة لبيان سوء عاقبة الكاتمين لما أمر الله بإظهاره، وأكدت «بإن» للاهتمام بهذا الخبر الذى ألقى على مسامع الناس.

وعبر فى ﴿يكتمون﴾ بالفعل المضارع، للدلالة على أنهم فى الحال كاتمون للبينات والهدى، ولو وقع بلفظ الماضى لتوهم السامع أن المقصود به قوم مضوا، مع أن المقصود إقامة الحجة على الحاضرين.

وقوله: ﴿من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب﴾ متعلق بيكتمون، وقد دلت هذه الجملة

الكريمة على أن معصيتهم بالكتمان فى أحط الدركات وأقبحها؛ لأنهم عمدوا إلى ما أنزل الله من هدى، وجعله بينا للناس فى كتاب يقرأ، فكتموه قصدًا مع تحقق المقتضى لإظهاره، وإنما يفعل ذلك من بلغ الغاية فى سفاهة الرأى، وخبث الطوية.

واللام فى قوله: ﴿للناس﴾ للتعليل، أى: بيناه فى الكتاب لأجل أن ينتفع به الناس، وفى هذا زيادة تشنيع عليهم فيما أتوه من كتمان، لأن فعلهم هذا مع أنه كتمان للحق، فهو فى الوقت نفسه اعتداء على مستحقه الذى هو فى أشد الحاجة إليه.

وقوله: ﴿أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ يفيد نهاية الغضب عليهم، حتى لكأنهم تحولوا إلى ملعنة ينصب عليها اللعن من كل مصدر، ويتوجه إليها من كل من يستطيع اللعن ويؤديه.

والآية الكريمة وإن كانت نزلت فى أهل الكتاب بسبب كتمانهم للحق، إلا أن وعيدها يتناول كل من كتم علمًا نافعًا، أو غير ذلك من الأمور التى يقضى الدين بإظهارها، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ومن شواهد هذا العموم ما جاء فى صحيح البخارى عن أبى هريرة قال: إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة ولولا آيتان فى كتاب الله ما حدثت حديثًا ثم تلا قوله - تعالى -: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات﴾ إلى قوله: ﴿الرحيم﴾[1].

قال ابن كثير: وقد ورد فى الحديث المسند من طرائق يشد بعضها بعضًا عن أبى هريرة وغيره، أن رسول الله ﷺ قال: «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيام بلجام من نار»[2].

هذا، وينبغى أن يعلم أن الإسلام وإن كان ينهى نهيًا قاطعًا عن كتم العلم الذى فيه منفعة للناس، إلا أنه يوجب على أتباعه - وخصوصًا العلماء - أن يحسنوا ما ينشرونه على الناس من علم، ففى الحديث الشريف: حدثوا الناس بما يفهمون أتحبون أن يكذب الله ورسوله.

كما أنه يوجب عليهم أن يضعوا العلم فى موضعه المناسب لمقتضى حال المخاطبين، فليس كل ما يعلم يقال، بل أحيانًا يكون إخفاء بعض الأحكام مناسبًا لأن إظهاره قد يستعمله الطغاة والسفهاء فيما يؤذى الناس، وفى صحيح البخارى أن الحجاج قال لأنس بن مالك حدثنى بأشد عقوبة عاقبها النبى ﷺ فذكر له أنس حديث العرنيين الذين قتلوا الرعاة واستاقوا الإبل، حيث قطع النبى ﷺ أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم وتركهم فى الحرة حتى ماتوا. فلما بلغ الحسن

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب العلم. باب حفظ العلم جـ١ ص ٤٠.

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٠.

البصرى ذلك قال : وددت أنه لم يحدثه ؟ ؟ انهم يتلقفون من ظاهره ما يوافق هواهم فيجعلونه ذريعة لهم فيما يعاملون به الناس من الظلم.

ومما يشهد بفقه بعض العلماء وحسن إدراكهم، ووضعهم العلم فى موضعه المناسب : ما جاء فى بعض الكتب أن سلطان قرطبة سأل يحيى بن يحيى الليثى عن حكم يوم أفطره فى رمضان عامدًا لأن شهوته غلبته على وطء بعض جواريه، فأفتاه بأن من الواجب عليه أن يصوم ستين يومًا، وكان بعض الفقهاء جالسًا فلم يجترىء على مخالفة يحيى. فلما انفض المجلس قيل له : لم خصصت الحكم بأحد المخيرات وكتمت العتق والإطعام؟ فقال - رحمه الله - لو فتحنا هذا الباب لوطىء كل يوم وأعتق أو أطعم، فحملته على الأصعب لئلا يعود.

فالإمام يحيى عند ما كتم عن السلطان الكفارتين الأخريين - وهما الأعتاق والإطعام - لا يعتبر مسيئًا؛ لأنه قد أعمل دليل دفع مفسدة الجرأة على حرمة فريضة الصوم[1].

وهكذا نرى أن إظهار العلم عند تحقق المقتضى لإظهاره، ووضعه فى موضعه اللائق به بدون خشية أو تحريف يدل على قوة الإيمان، وحسن الصلة بالله - تعالى - : ﴿وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾.

وبعد هذا الوعيد الشديد لأولئك الكاتمين لما أمر الله بإظهاره، أورد القرآن فى أعقاب ذلك آية تفتح لهم نافذة الأمل، وتبين لهم أنهم إذا تابوا وأنابوا قبل الله توبتهم ورحمهم، فقال - تعالى - : ﴿إلا الذين تابوا﴾ أى : رجعوا عن الكتمان وعن سائر ما يجب أن يتاب عنه، وندموا على ما صدر عنهم ﴿وأصلحوا﴾ ما أفسدوه بالكتمان بكل وسيلة ممكنة ﴿وبينوا﴾ للناس حقيقة ما كتموه ﴿فأولئك أتوب عليهم﴾ أى : أقبل توبتهم، وأفيض عليهم من رحمتى ومغفرتى، ﴿وأنا التواب الرحيم﴾ أى : المبالغ فى قبول التوبة ونشر الرحمة.

فالآية الكريمة قد فتحت للكاتمين لما يجب إظهاره باب التوبة وأمرتهم بولوجه، وأفهمتهم أنهم إذا فعلوا ما ينبغى وتركوا ما لا ينبغى وأخلصوا لله نياتهم، فإنه - سبحانه - يقبل توبتهم، ويغسل حويتهم، أما إذا استمروا فى ضلالهم وكفرهم، ومضوا فى هذا الطريق المظلم حتى النهاية بدون أن يحدثوا توبة، فقد بين القرآن مصيرهم بعد ذلك فقال : ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار﴾ أى : إن الذين كفروا وكتموا ما من شأنه أن يظهر، كإخفائهم النصوص المشتملة على البشارة بالنبى ﷺ واستمروا على هذا الكفر والإخفاء حتى ماتوا.

﴿أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ أى : أولئك الذين وصفوا بما ذكر عليهم

(١) تفسير التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور جـ ٢ ص ١٦.

اللعنة المستمرة من الله والطرد من رحمته، وعليهم كذلك اللعنة الدائمة من الملائكة والناس أجمعين عن طريق الدعاء عليهم بالإبعاد من رحمة الله.

وعبر عن أصحاب ذلك الكتمان بالذين كفروا، ليحضرهم فى الأذهان بأشنع وصف وهو الكفر، وليتناول الوعيد الذى اشتملت عليه الآية الكريمة كل كافر ولو بغير معصية الكتمان.

وجملة ﴿وماتوا وهم كفار﴾ حالية، و﴿أجمعين﴾ تأكيد بالنسبة إلى الكل لا للناس فقط.

والمراد بالناس جميعهم مؤمنهم وكافرهم، إذ الكفار يلعن بعضهم بعضًا يوم القيامة كما جاء فى قوله - تعالى - : ﴿ويوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضًا﴾. وقيل المراد بهم المؤمنون خاصة لأنهم هم الذين يعتد بلعنهم.

وقوله : ﴿خالدين فيها﴾ الخلود البقاء إلى غير نهاية، ويستعمل بمعنى البقاء مدة طويلة. وإذا وصف به عذاب الكافر أريد به المعنى الأول، أى : البقاء إلى غير نهاية والظاهر أن الضمير فى قوله ﴿فيها﴾ يعود إلى اللعنة لأنها هى المذكورة فى الجملة. وقيل إنه يعود إلى النار لأن اللعن إبعاد من الرحمة وإيجاب للعقاب والعقاب يكون فى النار. وقوله ﴿لا يخفف عنهم العذاب﴾ أى : أن المقدار الذى استحقوه من العذاب لا يتفاوت بحسب الأوقات شدة وضعفًا، وإنما هم فى عذاب سرمدى أليم، كما قال - تعالى - : ﴿إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون. لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون﴾ والزيادة فى قوله - تعالى - : ﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا﴾ حملها بعض العلماء على معنى استمرار العذاب، فهى إشارة إلى الخلود فيه لا إلى الزيادة فى شدته. وقوله : ﴿خالدين فيها﴾ إشارة إلى دوام العذاب وعدم انقطاعه. وقوله : ﴿لا يخفف عنهم﴾ إشارة إلى كيفيته وشدته.

وقوله : ﴿ولا هم ينظرون﴾ أى : لا يمهلون ولا يؤخرون من العذاب كما كانوا يمهلون فى الدنيا. من الإنظار بمعنى التأخير والإمهال. أو من النظر بمعنى الانتظار يقال : نظرته وانتظرته، أى : أخرته وأمهلته ومنه قوله - تعالى - : ﴿وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة﴾.

أو من النظر بمعنى الرؤية، أى : لا ينظر الله إليهم نظر رحمة ورضا ولطف كما ينظر إلى عباده الصالحين، لأنهم بكتمانهم للحق، وكفرهم بالله، استحقوا ما استحقوا من العذاب المهين. ﴿وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾.

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد حذرت الناس بأسلوب تأديبى حكيم من كتمان الحق، ومن الكفر بالله، وفتحت أمامهم باب التوبة ليدخلوه بصادق النية، وصالح العمل، وتوعدت من يستمر فى ضلاله وطغيانه بأقسى أنواع العذاب، وأغلظ ألوانه.

وبعد أن حذر - سبحانه - من كتمان الحق، عقب ذلك ببيان ما يدل على وحدانيته، وعلى أنه هو المستحق للعبادة والخضوع فقال - تعالى - :

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

قوله : ﴿وإلهكم إله واحد﴾ معطوف على قوله : ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا﴾ عطف القصة على القصة، والجامع - كما قال الآلوسى - أن الأولى - وهى قوله : ﴿إن الذين يكتمون﴾ مسوقة لإثبات نبوة النبى ﷺ وجملة ﴿وإلهكم إله واحد﴾ لإثبات وحدانية الله - تعالى - .

والإله فى كلام العرب هو المعبود مطلقًا ولذلك تعددت الآلهة عندهم. والمراد به فى الآية الكريمة المعبود بحق بدليل الإخبار عنه بأنه واحد.

والمعنى : وإلهكم الذى يستحق العبادة والخضوع إله واحد فرد صمد، فمن عبد شيئًا دونه، أو عبد شيئًا معه، فعبادته باطلة فاسدة، لأن العبادة الصحيحة هى ما يتجه بها العابد إلى المعبود بحق الذى قامت البراهين الساطعة على وحدانيته وهو الله رب العالمين.

قال بعضهم : «والإخبار عن إلهكم بإله تكرير ليجرى عليه الوصف بواحد، والمقصود وإلهكم واحد لكنه وسط إله بين المبتدأ والخبر لتقرير معنى الألوهية فى المخبر عنه، كما تقول : عالم المدينة عالم فائق، وليجىء ما كان أصله خبرًا مجىء النعت فيفيد أنه وصف ثابت للموصوف لأنه صار نعتًا، إذ أصل النعت أن يكون وصفًا ثابتًا، وأصل الخبر أن يكون وصفًا حادثًا، وهذا استعمال متبع فى فصيح الكلام أن يعاد الاسم أو الفعل بعد ذكره ليبنى عليه

وصف أو متعلق كقوله : ﴿وإذا مروا باللغو مروا كرامًا﴾[1].

وجملة ﴿لا إلـه إلا هو﴾ مقررة لما تضمنته الجملة السابقة من أن الله واحد لا شريك له، ونافية عن الله - تعالى - الشريك صراحه، ومثبتة له مع ذلك الإلـهية الحقة، ومزيحة لما عسى أن يتوهم من أن فى الوجود إلـهًا سوى الله - تعالى - لكنه لا يستحق العبادة.

ومعناها : إن الله إله، وليس شيء مما سواه بإله.

وهذه الجملة الكريمة خبر ثان للمبتدأ وهو (إلهكم) أو صفة أخرى للخبر وهو (إله) وخبر (لا) محذوف أى لا إله موجود إلا هو، والضمير (هو) فى موضع رفع بدل من موضع لا مع اسمها.

وقوله : (الرحمن الرحيم) خبر مبتدأ محذوف، وقيل غير ذلك من وجوه الإعراب.

والمعنى : وإلهكم الذى يستحق العبادة إله واحد، لا إله مستحق لها إلا هو، هو الرحمن الرحيم.

أى : المنعم بجلائل النعم ودقائقها، وهو مصدر الرحمة، ودائم الإحسان.

وأتى - سبحانه - بهذين اللفظين فى ختام الآية، لأن ذكر الإلهية والوحدانية يحضر فى ذهن السامع معنى القهر والغلبة وسعة المقدرة وعزة السلطان، وذلك مما يجعل القلب فى هيبة وخشية، فناسب أن يورد عقب ذلك ما يدل على أنه مع هذه العظمة والسلطان، مصدر الإحسان ومولى النعم، فقال : (الرحمن الرحيم)، وهذه طريقة القرآن فى الترويح على القلوب بالتبشير بعد ما يثير الخشية، حتى لا يعتريها اليأس أو القنوط.

وبعد أن أخبر - سبحانه - بأنه هو الإله الذى لا يستحق العبادة أحد سواه، عقب ذلك بإيراد ثمانية أدلة تشهد بوحدانيته وقدرته، وتشتمل على آيات ساطعات، وبينات واضحات، تهدى أصحاب العقول السليمة إلى عبادة الله وحده، وإلى بطلان ما يفعله كثير من الناس من عبادة مخلوقاته.

ويشتمل الدليل الأول والثانى على أنه - سبحانه - هو المستحق للعبادة فى قوله - تعالى - : ﴿إن فى خلق السموات والأرض﴾.

الخلق : هو الإحداث للشىء على غير مثال سابق. وهو هنا بمعنى المخلوق. إذ الآيات التى تشاهد إنما هى فى المخلوق الذى هو السموات والأرض.

(١) تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد بن عاشور جـ٢ ص ٧٠.

والسموات : جمع سماء، وهى كل ما علا كالسقف وغيره، إلا أنها إذا أطلقت لم يفهم منها سوى الأجرام المقابلة للأرض، وهى سبع كما ورد ذلك صريحًا فى بعض الآيات التى منها قوله - تعالى - : ﴿الله الذى خلق سبع سموات﴾.

وجمعت السموات لأنها طبقات ممتازة كل واحدة من الأخرى بذاتها الشخصية، كما يدل عليه قوله - تعالى - : ﴿فسواهن سبع سموات﴾ ولأن إفرادها قد يوهم بأنها واحدة مع أن القرآن صريح فى كونها سبعًا.

وجاءت الأرض مفردة - وهى لم تجيء فى القرآن إلا كذلك - لأن المشاهدة لا تقع إلا على أرض واحدة، ومن هنا حمل بعض أهل العلم تعددها الذى يتبادر من ظاهر قوله - تعالى - : ﴿الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن﴾ على معنى أنها طبقات لا ينفصل بعضها عن بعض.

ومن الآيات الدالة على وحدانية الله وقدرته فى خلق السموات ارتفاعها بغير عمد كما يرى ذلك بالمشاهدة، وتزيينها بالمصابيح التى جعلها الله زينة للسماء ورجومًا للشياطين، ووجودها بتلك الصورة العجيبة الباهرة التى لا ترى فيها أى تفاوت أو اضطراب ومن الآيات الدالة على وجود الله ووحدانيته وقدرته فى خلق الأرض، فرشها بتلك الطريقة الرائعة التى يتيسر معها للإنسان أن يتقلب فى أرجائها، ويمشى فى مناكبها، وينتفع بما يحتاج إليه منها أينما كان، وتفجيرها بالأنهار، وعمارتها بحدائق ذات ثمار تختلف ألوانها ويتفاضل أكلها.

وفى القرآن الكريم عشرات الآيات التى تتحدث عن نعم الله على عباده فى خلق السموات والأرض، وعن مظاهر قدرته ووحدانيته فى إيجادهما على تلك الصورة، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون. الذى جعل لكم الأرض فراشًا والسماء بناء، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقًا لكم﴾.

وقوله - تعالى - : ﴿الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾.

وقوله - تعالى - : ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقًا وجعل القمر فيهن نورًا وجعل الشمس سراجًا. والله أنبتكم من الأرض نباتًا. ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا. والله جعل لكم الأرض بساطا. لتسلكوا منها سبلا فجاجا﴾.

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة الدالة على وجود الله وقدرته ووحدانيته.

ويتمثل الدليل الثالث على قدرته - سبحانه - ووحدانيته فى قوله تعالى: ﴿واختلاف الليل والنهار﴾، والاختلاف: افتعال من الخلف، وهو أن يجىء شىء عوضًا عن شىء آخر يخلفه على وجه التعاقب. والمراد أن كلا من الليل والنهار يأتى خلفا من الآخر وفى أعقابه، ويجوز أن يكون المراد باختلافهما، فى أنفسهما بالطول والقصر، واختلافهما فى جنسهما بالسواد والبياض.

و﴿الليل﴾: هو الظلام المعاقب للنهار، واحدته ليلة كتمر وتمرة.

و﴿النهار﴾: هو الضياء المتسع، وأصله الاتساع، ومنه قول الشاعر:

ملكت بها كفى فأنهرت فتقها ... يرى قائم من دونها ما وراءها

أى: أوسعت فتقها.

وقد جعل الله الليل للسكون والراحة والعبادة لمن وفقه الله لقضاء جانب منه فى مناجاته - سبحانه -، وجعل النهار للعمل وابتغاء الرزق.

قال - تعالى -: ﴿وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا﴾.

وقد أضيف الاختلاف لكل من الليل والنهار، لأن كل واحد منهما يخلف الآخر فتحصل منه فوائد سوى فوائد الآخر، بحيث لو دام أحدهما لانقلب النفع ضرًا.

قال - تعالى -: ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدًا إلى يوم القيامة، من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون. قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدًا إلى يوم القيامة، من إلـه غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون. ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾.

ومن العظات التى تؤخذ من هذا الاختلاف أن مدد الليل والنهار تختلف فلكل منهما مدة يستوفيها من السنة بمقتضى نظام دقيق مطرد.

قال - تعالى -: ﴿لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكل فى فلك يسبحون﴾. وكون الليل والنهار يسيران على هذا النظام الدقيق المطرد الذى لا ينخرم دليل على أن الاختلاف تدبير من إله قادر حكيم لا يدخل أفعاله تفاوت ولا اختلال.

وإذا كان لهذا الاطراد أسباب تحدث عنها العلماء، فإن الذى خلق الأسباب وجعل بينها وبين هذا الاختلاف تلازمًا إنما هو الإله الواحد القهار.

أما المظهر الرابع من المظاهر الدالة فى هذا الكون على قدرته - سبحانه - ووحدانيته

وألوهيته، فقد تحدثت عنه الآية فى قوله - تعالى - : ﴿والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس﴾.

(الفلك) : ما عظم من السفن، ويستعمل لفظ الفلك للواحد والجمع. والظاهر أن المراد به هنا الجمع بدليل قوله - تعالى - : ﴿التى تجرى فى البحر﴾ ولو كان هذا اللفظ للمفرد لقال : الذى يجرى، كما جاء فى قوله - تعالى - : ﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون﴾ والجملة الكريمة معطوفة على خلق السموات والأرض.

قال صاحب المنار: وكان الظاهر أن تأتى هذه الجملة فى آخر الآية ليكون ما للإنسان فيه صنع على حدة وما ليس له فيه صنع على حدة. والنكتة فى ذكرها عقيب آية الليل والنهار، هى أن المسافرين فى البر والبحر هم أشد الناس حاجة إلى تحديد اختلاف الليل والنهار ومراقبته على الوجه الذى ينتفع به، والمسافرون فى البحر أحوج إلى معرفة الأوقات وتحديد الجهات، لأن خطر الجهل عليهم أشد، وفائدة المعرفة لهم أعظم، ولذلك كان من ضروريات ربانى السفن معرفة علم النجوم، وعلم الليل والنهار من فروع هذا العلم. قال - تعالى - : ﴿وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر﴾ فهذا وجه العلاقة بين ذكر الفلك وما قبله﴾[1].

و«ما» فى قوله : ﴿بما ينفع الناس﴾ مصدرية، والباء للسببية أى : تجرى بسبب نفع الناس ولأجله فى التجارة وغيرها. أو موصولة والباء للحال، أى تجرى مصحوبة بالأعيان التى تنفع الناس. وخص - سبحانه - النفع بالذكر وإن كانت السفن تحمل ما ينفع وما يضر؛ لأن المراد هنا عد النعم، ولأن الذى يحمل فيها ما يضر غيره هو فى الوقت نفسه يقصد منفعة نفسه.

ومن وجوه الاستدلال بالفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس على وجود الله وقدرته، أن هذه الفلك وإن كانت من صنع الناس إلا أن الله - تعالى - هو الذى خلق الآلات والأجزاء التى صارت بها سفنًا، وهو الذى سخر لبحر لتجرى فيه مقبلة ومدبرة مع شدة أهواله إذا هاج، وهو الذى جعلها تشق أمواجه شقًا حتى تصل إلى بر الأمان، وهو الذى رعاها برعايته وهى كنقطة صغيرة فى ذلك الماء الواسع، ووسط تلك الأمواج المتلاطمة حتى وصلت إلى ساحل السلامة وهى حاملة الكثير مما ينفع الناس من الأطعمة والأشربة والأمتعة المختلفة، فسبحانه من إله قادر حكيم.

الدليل الخامس والسادس على أنه - سبحانه - هو المستحق للعبادة يتمثل فى قوله - تعالى -

---

(١) تفسير المنار جـ٢ ص ٥٩.

فى هذه الآية : ﴿وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبث فيها من كل دابة﴾.

والمراد بالسماء : جهة العلو، أى : وما أنزل من جهة السماء من ماء، و«من» فى قوله : ﴿من السماء﴾ ابتدائية، وفى قوله : ﴿من ماء﴾ بيانية، وهما ومجرورهما متعلقان بأنزل.

والمراد بإحياء الأرض : تحرك القوى النامية فيها، وإظهار ما أودع الله فيها من نبات وزهور وثمار وغير ذلك.

والمراد بموتها : خلوها من ذلك باستيلاء اليبوسة والقحط عليها.

قال - تعالى - : ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾.

(والبث) : التفريق والنشر لما كان خافيا، ومنه بث الشكوى أى : نشرها وإظهارها، وكل شىء بثثته فقد فرقته ونشرته، والضمير فى قوله : «فيها» يعود إلى الأرض.

(والدابة) : اسم من الدبيب والمشى ببطء، كل ما يمشى فوق الأرض فهو بحسب الوضع اللغوى يطلق عليه دابة. والظاهر أن المراد بالدابة هنا هذا المعنى العام، لا ما يجرى به العرف الخاص باستعماله فى نوع خاص من الحيوان كذوات الأربع.

وجملة ﴿وما أنزل الله من السماء من ماء...﴾ معطوفة على ما قبلها، وجملة ﴿وبث فيها من كل دابة﴾ معطوفة على قوله : ﴿فأحيا به الأرض بعد موتها﴾.

والمعنى : وإن فيما أنزله الله من جهة السماء من ماء مبارك، عمرت به الأرض بعد خرابها، وانتشرت فيها أنواع الدواب كلها، لدليل ساطع على قدرة الله ووحدانيته.

ذلك لأنه هو وحده الذى أنزل المطر من السماء ولو شاء لأمسكه مع أن الماء من طبعه الانحدار، وهو وحده الذى جعل الأرض التى نعيش عليها تنبت من كل زوج بهيج بسبب ما أنزل عليها من ماء، وهو وحده الذى نشر على هذه الأرض أنواعًا من الدواب مختلفة فى طبيعتها وأحجامها، وأشكالها وألوانها، وأصواتها، ومآكلها، وحملها، وتناسلها، ووجوه الانتفاع بها، وغير ذلك من وجوه الاختلاف الكثيرة، مما يشهد بأن خالق هذه الكائنات إله واحد قادر حكيم.

أما الدليل السابع والثامن فى هذه الآية على قدرته - سبحانه - ووحدانيته واستحقاقه للعبادة فهما قوله - تعالى - : ﴿وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض﴾.

الرياح جمع ريح وهى نسيم الهواء.

وتصريفها : تقليبها فى الجهات المختلفة، ونقلها من حال إلى حال، وتوجيهها على حسب إرادته - سبحانه - ووفق حكمته. فتهب تارة صبًا، أى من مطلع الشمس، وتارة دبورًا، أى : من جهة الغرب، وأحيانًا من جهة الشمال أو الجنوب وقد يرسلها - سبحانه - عاصفة ولينة، حارة أو باردة، لواقح بالرحمة حينًا وبالعذاب آخر. و﴿تصريف﴾ مصدر صرف مضاف للمفعول والفاعل هو الله، أى : وتصريف الله الرياح. أو مضاف للفاعل والمفعول السحاب، أى : وتصريف الرياح السحاب.

وجاءت هذه الجملة الكريمة بعد إحياء الأرض بالمطر وبث الدواب فيها للتناسب بينهما، وتذكيرًا بالسبب إذ بالرياح تكون حياة النبات والحيوان وكل دابة على الأرض، ولو أمسك - سبحانه - الرياح عن التصريف لما عاش كائن على ظهر الأرض.

﴿والسحاب﴾ : عطف على ما قبله، وهو اسم جنس واحده سحابة، سمى بذلك لانسحابه فى الجو أو لجر الرياح له.

و ﴿المسخر﴾ : من التسخير وهو التذليل والتيسير، ومعنى تسخيره - كما قال الآلوسى - أنه لا ينزل ولا يزول مع أن الطبع يقتضى صعوده إن كان لطيفًا وهبوطه إن كان كثيفا - و ﴿المسخر﴾ صفة للسحاب باعتبار لفظه، وقد يعتبر معناه فيوصف بالجمع كما فى قوله : ﴿سحابًا ثقالا﴾.

والظرف « بين » يجوز أن يكون منصوبًا بقوله المسخر فيكون ظرفًا للتسخير، ويجوز أن يكون حالا من الضمير المستتر فى اسم المفعول فيتعلق بمحذوف أى : كائنًا بين السماء والأرض.

وجاء ذكر السحاب بعد تصريف الرياح لأنها هى التى تثيره وتجمعه، وهى التى تسوقه إلى حيث ينزل مطرًا فى الأماكن التى يريد الله إحياءها.

قال - تعالى - : ﴿الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابًا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفًا فترى الودق يخرج من خلاله﴾.

ولا شك أن هذا التصريف للرياح مع أنها جسم لطيف لا يمسك ولا يرى، وهى مع ذلك فى غاية القوة بحيث تقلع الأشجار وتخرب الديار، وهذا التسخير للسحاب بحيث يبقى معلقًا بين السماء والأرض مع حمله للمياه العظيمة التى تسيل بها الأودية المتسعة. . . لا شك أن كل ذلك من أعظم الأدلة على أن لهذا الكون مدبرًا قادرًا حكيمًا هو الله رب العالمين.

وقوله : ﴿لآيات لقوم يعقلون﴾ اسم ﴿إن﴾ لقوله - تعالى - فى أول الآية : ﴿إن فى خلق السموات والأرض﴾ ودخلت اللام على الاسم وهو ﴿لآيات﴾ لتأخره عن الخبر والتنكير للتعظيم والتفخيم كما وكيفًا.

أى : إن فيما ذكره الله من مخلوقاته العجيبة، وكائناته الباهرة، لدلائل ساطعة، وآيات واضحة ترشد من يعقلون ويتدبرون فيها، إلى أن لهذا الكون إلـهًا واحدًا قادرًا حكيمًا مستحقا للعبادة والخضوع والطاعة.

وموقع هذه الآية الكريمة من سابقتها كموقع الحجة من الدعوى، ذلك أن الله - تعالى - أخبر فى الآية السابقة أن الإله واحد لا إله غيره وهى قضية قد تلقاها كثير من الناس بالإنكار، فناسب أن يأتى فى هذه الآية الكريمة بالحجج والبراهين التى لا يسع الناظر فيها بتدبر وتفكير إلا التسليم عن اقتناع بوحدانية الله - تعالى - وقدرته.

قال الإمام الرازى : واعلم أن النعم على قسمين : نعم دنيوية ونعم دينية وهذه الأمور الثمانية، التى عدها الله - تعالى - نعم دنيوية فى الظاهر، فإذا تفكر العاقل فيها، واستدل بها على معرفة الصانع، صارت نعما دينية، لكن الانتفاع بها من حيث إنها نعم دنيوية لا يكمل إلا عند سلامة الحواس وصحة المزاج فكذا الانتفاع بها من حيث إنها نعم دينيه لا يكمل إلا عند سلامة العقول وانفتاح بصر الباطن، فلذلك قال : ﴿لآيات لقوم يعقلون﴾[1].

وقال الآلوسى : أخرج ابن أبى الدنيا وابن مردويه عن عائشة - رضى الله عنها - أن النبى ﷺ لما قرأ هذه الآية قال : «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها».

ثم قال الآلوسى : ومن تأمل فى تلك المخلوقات التى وردت فى هذه الآية وجد كلا منها مشتملا على وجوه كثيرة من الدلالة على وجوده - تعالى - ووحدانيته وسائر صفاته الموجبة لتخصيص العبادة له، ومجمل القول فى ذلك أن كل واحد من هذه الأمور المعدودة قد وجد على وجه خاص من الوجوه الممكنة دون ما عداه، مستتبعا لآثار معينه، وأحكام مخصوصة. . . وفى الآية إثبات الاستدلال بالحجج العقلية، وتنبيه على شرف علم الكلام وفضل أهله، وربما أشارت إلى شرف علم الهيئة»[2].

والحق أن هذه الآية الكريمة قد اتجهت فى تثبيت عقيدة وحدانية الله وقدرته وألوهيته إلى تنبيه الحواس والمدارك والمشاعر إلى ما فى هذا الكون المشاهد المنظور من آيات ودلائل على حقية الخالق - عز وجل - بالعبادة.

وهذه الطريقة من تنبيه الحواس والمدارك جديرة بأن تفتح الأبصار والبصائر على عجائب هذا الكون، تلك العجائب التى أصبحت عند كثير من الناس شيئًا مألوفًا بسبب عدم تدبرهم

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٢٢٩.
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢ ص ٣٣.

لما فيها من عظات وعبر وصدق الله إذ يقول ﴿وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾.

ورحم الله القائل: ألا إن لله كتابين: كتابًا مخلوقًا وهو الكون، وكتابًا منزلا وهو القرآن. وإنما يرشدنا هذا إلى طريق العلم بذاك بما أوتينا من العقل. فمن أطاع فهو من الفائزين، ومن أعرض فأولئك هم الخاسرون.

وبعد أن ذكر - سبحانه - جانبًا من الآيات الدالة على ألوهيته ووحدانيته أردف ذلك ببيان حال المشركين، وما يكون منهم يوم القيامة من تدابر وتقاطع وتحسر على ما فرط منهم فقال - تعالى -:

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾

﴿الأنداد﴾: جمع ند، وهو مثل الشيء الذى يضاده وينافره ويتباعد عنه. وأصله من ند البعير يند ندًا ونداداً وندودًا، أى: نفر وذهب على وجهه شاردًا. ويرى بعض العلماء أن المراد بالأنداد هنا الأصنام التى اتخذها المشركون آلهة للتقرب بها إلى الله، وقيل: المراد بها الرؤساء الذين كانوا يطيعونهم فيما يحلونه لهم ويحرمونه عليهم. والأولى أن يكون المراد بهذه الأنداد كل مخلوق أسند إليه أمر اختص به الله - تعالى - من نحو التحليل، والتحريم وإيصال النفع وغير ذلك من الأمور التى انفرد بها الخالق - عز وجل -.

والمعنى: أن من الناس من لا يعقل تلك الآيات التى دلت على وحدانية الله وقدرته، وبلغت

بهم الجهالة أنهم يخضعون لبعض المخلوقات خضوعهم لله بزعم أنها مشابهة ومماثلة ومناظرة له - سبحانه - فى النفع والضر، ويحبون تعظيم تلك المخلوقات وطاعتها والتقرب إليها والانقياد لها حبا يشابه الحب اللازم عليهم نحو الله - تعالى - أو يشابه حب المؤمنين لله،

و﴿من﴾ فى قوله: ﴿ومن الناس﴾ للتبعيض، والجار والمجرور خبر مقدم و﴿من﴾ فى قوله: ﴿من يتخذ﴾ فى محل رفع مبتدأ مؤخر، و«من دون الله» حال من ضمير يتخذ و﴿أندادًا﴾ مفعول به ليتخذ.

قال الجمل: وجملة ﴿يحبونهم كحب الله﴾ فيها ثلاثة أوجه:

أحدها: أن تكون فى محل رفع صفة لمن فى أحد وجهيها، والضمير المرفوع يعود عليها باعتبار المعنى بعد اعتبار اللفظ فى يتخذ.

والثانى: أن تكون فى محل نصب صفة لأندادًا والضمير المنصوب يعود عليهم والمراد بهم الأصنام، وإنما جمعوا جمع العقلاء لمعاملتهم معاملة العقلاء. أو أن يكون المراد بهم من عبُد من دون الله عقلاء وغيرهم ثم غلب العقلاء على غيرهم.

الثالث: أن تكون فى محل نصب على الحال من الضمير فى يتخذ، والضمير المرفوع عائد على ما عاد عليه الضمير فى يتخذ وجمع حملا على المعنى»[1].

ثم مدح - سبحانه - عباده المؤمنين فقال: ﴿والذين آمنوا أشد حبًّا لله﴾

أى: والذين آمنوا وأخلصوا لله العبادة أشد حبًا له - سبحانه - من كل ماسواه، ومن حب المشركين للأنداد، ذلك لأن حب المؤمنين لله متولد عن أدلة يقينية، وعن علم تام، ببديع حكمته - سبحانه - وبالغ حجته، وسعة رحمته، وعدالة أحكامه، وعزة سلطانه، وتفرده بالكمال المطلق، والحب المتولد عن هذا الطريق يكون أشد من حب المشركين لمعبوداتهم لأن حب المشركين لمعبوداتهم متولد عن طريق الظنون والأوهام والتقاليد الباطلة.

والتصريح بالأشدية فى قوله: ﴿أشد حبا لله﴾ أبلغ من أن يقال أحب لله؟ إذ ليس المراد الزيادة فى أصل الفعل - كما يقول الآلوسى - بل المراد الرسوخ والثبات. وقيل: عدل عن أحب إلى أشد حبًا، لأن «أحب» شاع فى الأشد محبوبية فعدل عنه احترازا عن اللبس.

ولقد ضرب المؤمنون الصادقون أروع الأمثال فى حبهم لله - تعالى - لأنهم ضحوا فى سبيله بأرواحهم وأموالهم وأبنائهم وأغلى شىء لديهم، ولأنهم لم يعرفوا عملا يرضيه إلا فعلوه، ولم يعرفوا عملا يغضبه إلا اجتنبوه.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص١٣٢.

ثم أخبر - سبحانه - عما ينتظر الظالمين من سوء المصير فقال: ﴿ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعًا وأن الله شديد العذاب﴾ «لو» شرطية، وجوابها محذوف لقصد التهويل ولتذهب النفس في تصويره كل مذهب «والقوة» القدرة والسلطان.

والمعنى: ولو يرى أولئك المشركون حين يشاهدون العذاب المعدلهم يوم القيامة أن القدرة كلها لله وحده، وأن عذابه الذى يصيب به المتخبطين فى ظلمات الشرك شديد، لو يعلمون ذلك، لرأوا ما لا يوصف من الهول والفظاعة، ولوقعوا فيما لا يكاد يوصف من الحسرة والندامة.

وكان الظاهر بمقتضى تقدم ذكرهم أن يقال: ولو يرون إذ يرون. ولكن وضع الموصول وصلته موضع الضمير، ليحضر فى ذهن السامع أنهم صاروا باتخاذهم الأنداد من الظالمين، وليشعر بأن سبب رؤيتهم العذاب الشديد هو ذلك الظلم العظيم.

وعبر بالماضى فى قوله: «إذ يرون العذاب» لتحقق الوقوع، وكل ما كان كذلك فإنه يجرى مجرى ما وقع وحصل.

وجملة ﴿أن القوة لله جميعًا﴾ سدت مسد مفعولى يرى، وانتصب لفظ ﴿جميعًا﴾ على التوكيد للقوة. أى. جميع جنس القوة ثابت لله، وهو مبالغة فى عدم الاعتداد بقوة غيره، فمفاد جميع هنا مفاد لام الاستغراق فى قوله: ﴿الحمد لله﴾.

وجملة ﴿وأن الله شديد العذاب﴾ معطوفة على ما قبلها، وفائدتها المبالغة فى تفظيع الخطب، وتهويل الأمر، فإن اختصاص القوة به - تعالى - لا يوجب شدة العذاب لجواز تركه عفوًا مع القدرة عليه.

هذا، وقد قرأ نافع وابن عمر «ولو ترى» بالتاء على الخطاب للنبى ﷺ أو لكل من يتأتى له الخطاب.

أى: لو ترى ذلك أيها الرسول الكريم أو أيها المخاطب لرأيت أمرًا عظيمًا فى الفظاعة والهول.

وقوله - تعالى - : ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا. . . .﴾ بدل من قوله: ﴿إذ يرون العذاب﴾. أو مفعولا به بتقدير اذكر.

و ﴿تبرأ﴾ من التبرؤ وهو التخلص والتنصل والتباعد، ومنه برئت من الدين أى: تخلصت منه، وبرأ المريض من مرضه، أى: تخلص من مرضه.

والمراد بالذين اتبعوا: أئمة الكفر الذين يحلون ويحرمون ما لم يأذن به الله.

والمراد بالذين اتبعوا: أتباعهم وأشياعهم الذين يتلقون جميع أقوالهم بالطاعة والخضوع بدون تدبر أو تعقل.

وجملة ﴿ورأوا العذاب﴾ حال من الأتباع والمتبوعين، والضمير يعود على الفريقين. أى: تبرؤا جميعًا من بعض فى حال رؤيتهم للعذاب.

وجملة ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾ معطوفة على تبرأ، أورأوا.

والباء فى ﴿بهم﴾ للسببية أى: وتقطعت بسبب كفرهم الأسباب التى كانوا يرجون من ورائها النجاة، وقيل للملابسة أى: تقطعت الأسباب ملتبسة بهم فخابت آمالهم وسقطوا صرعى.

و ﴿الأسباب﴾ جمع سبب، وهو فى الأصل الحبل الذى يرتقى به الشجر ونحوه، ثم سمى به كل ما يتوصل به إلى غيره، عينًا كان أو معنى. فيقال للطريق سبب، لأنك بسلوكه تصل إلى الموضع الذى تربده، ويقال للمودة سبب لأنك تتواصل بها إلى غيرك، والمراد بالأسباب هنا: الوشائج والصلات التى كانت بين الأتباع والمتبوعين فى الدنيا، من القرابات والمودات والأحلاف والاتفاق فى الدين... إلخ.

والمعنى: واذكر أيها العاقل لتعتبر وتتعظ يوم القيامة، ذلك اليوم الهائل الشديد الذى يتنصل فيه الرؤساء من مرءوسيهم، والاتباع من متبوعيهم حال رؤيتهم جميعًا للعذاب وأسبابه ومقدماته وما أعدلهم من شقاء وآلام، وقد ترتب على كل ذلك أن تقطع ما بين الرؤساء والأذناب من روابط كانوا يتواصلون بها فى الدنيا، وصار كل فريق منهم يلعن الآخر ويتبرؤ منه.

قال بعض العلماء: وفى قوله: ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾ استعارة تمثيلية إذ شبهت هيئتهم عند خيبة أملهم حين لم يجدوا النعيم الذى تعبوا لأجله مدة حياتهم وقد جاء إبانه فى ظنهم فوجدوا عوضه العذاب، بحال المرتقى إلى النخلة ليجتنى الثمر الذى كد لأجله طول السنة فتقطع به السبب - أى الحبل - عند ارتقائه فسقط هالكا، فكذلك هؤلاء قد علموا جميعًا حينئذ أن لانجاة لهم، فحالهم كحال الساقط من علو لا ترجى له سلامة. وهى تمثيلية بديعة تشتمل على سبعة أشياء كل واحد منها يصلح لأن يكون مشبها بواحد من الأشياء التى تشتمل عليها الهيئة المشبهة بها وهى:

تشبيه المشرك فى عبادته الأصنام بالمرتقى بجامع السعى، وتشبيه العبادة وقبول الآلهة منه بالحبل الموصل، وتشبيه النعيم والثواب بالثمرة فى أعلى النخلة لأنها لا يصل إليها المرء إلا بعد طول وهو مدة العمر، وتشبيه العمر بالنخلة فى الطول، وتشبيه الحرمان من الوصول للنعيم

بتقطع الحبل، وتشبيه الخيبة بالبعد عن الثمرة، وتشبيه الوقوع فى العذاب بالسقوط المهلك. . »(١).

ثم بين - سبحانه - ما قاله الأتباع على سبيل الحسرة والندم فقال: ﴿وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا﴾.

الكرة: الرجعة والعودة. يقال: كر يكر كرًا: أى: رجع. و (لو) للتمنى. وقوله ﴿فنتبرأ منهم﴾ منصوب بعد الفاء بأن مضمرة فى جواب التمنى الذى أشربته لو، والكاف فى قوله ﴿كما تبرءوا منا﴾ فى محل نصب نعت لمصدر محذوف أى تبرأ مثل تبرئهم.

والمعنى: وقال الذين كانوا تابعين لغيرهم فى الباطل بدون تعقل أو تدبر ليت لنا رجعة إلى الحياة الدنيا فنتبرأ من هؤلاء الذين اتبعناهم وأضلونا السبيل كما تبرءوا منا فى هذا اليوم العصيب، ولنشفى غيظنا منهم لأنهم خذلونا وأوردونا موارد التهلكة والعذاب الأليم.

وقوله - تعالى -: ﴿كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم﴾ تذبيل لتأكيد الوعيد، وبيان لحال المشركين فى الآخرة.

قال الآلوسى: وقوله: ﴿كذلك﴾ فى موضع المفعول المطلق لما بعده، والمشار إليه الإراء المفهوم من قوله: ﴿إذ يرون﴾ أى: كإراء العذاب المتلبس بظهور أن القوة لله والتبرى وتقطع الأسباب وتمنى الرجعة، يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم. وجوز أن يكون المشار إليه المصدر المفهوم مما بعد والكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الضخامة. أى: مثل ذلك الإراء الفظيع يريهم على حد ما قيل فى قوله - تعالى -: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾(٢). والمراد بأعمالهم: المعاصى التى ارتكبوها وفى مقدمتها اتباعهم لمن أضلوهم.

و ﴿حسرات﴾ جمع حسرة، وهى أشد درجات الندم والغم على ما فات. يقال: حسر يحسر حسرًا فهو حسير، إذ اشتدت ندامته على أمر فاته.

قال الرازى: وأصل الحسر الكشف. يقال حسر ذراعيه أى: كشف والحسرة انكشاف عن حال الندامة. والحسور الإعياء لأنه انكشاف الحال عما أوجبه طول السفر. قال - تعالى -: ﴿ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون﴾(٣).

والمعنى: كما أرى الله - تعالى - المشركين العذاب وما صاحبه من التبرؤ وتقطع الأسباب

---

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ ٢ ص ٩٣ للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور.
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢ ص ٣٦.
(٣) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٢٣٨.

بينهم، يريهم - سبحانه - أعمالهم السيئة يوم القيامة فتكون حسرات تتردد فى صدورهم كأنها شرر الجحيم.

ثم ختم - سبحانه - الآية ببيان عاقبة أمرهم فقال: ﴿وما هم بخارجين من النار﴾.

أى: وما هم بخارجين من تلك النار التى عوقبوا بها بسبب شركهم، بل هم مستقرون فيها استقرارًا أبديًا، وقد جاءت الجملة اسمية لتأكيد نفى خروجهم من النار، وبيان أنهم مخلدون فيها كما قال - تعالى - فى آية أخرى: ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها﴾.

وهكذا يسوق لنا القرآن ما يدور بين التابعين والمتبوعين يوم القيامة من تنصل وتحسر وتخاصم بتلك الطريقة المؤثرة، حتى لكأنك أمام مشهد مجسم، ترى فيه الصور الشاخصة حاضرة. وذلك لون من ألوان بلاغة القرآن فى عرضه للحقائق، حتى تأخذ سبيلها إلى النفوس الكريمة، وتؤتى ثمارها الطيبة فى القلوب السليمة.

ثم وجه القرآن نداء عاما إلى البشر أمرهم فيه بأن يتمتعوا بما أحله لهم من طيبات، ونهاهم عن اتباع وساوس الشيطان فقال - تعالى -:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

﴿كلوا﴾ صيغة أمر واردة فى معنى الإباحة.

﴿والحلال﴾ ما أذن الله فى تناوله من مطعومات أو مشروبات.

قال الرازى: وأصله من الحل الذى هو نقيض العقد، ومنه حل بالمكان إذا نزل، لأنه حل شد الارتحال للنزول، وحل الدين إذا وجب لانحلال العقدة بانقضاء المدة، وحل من إحرامه، لأنه حل عقدة الإحرام.. ثم قال: واعلم أن الحرام قد يكون حراما لخبثه - فى ذاته - كالميتة والدم ولحم الخنزير، وقد يكون حراما لوصف عارض كملك الغير إذا لم يأذن فى أكله - فحرمته لتعلق حق الغير به - فالحلال هو الخالى عن هذين القيدين»[1].

(١) تفسير الفخر الرازى - بتصرف وتلخيص جـ ٥ ص ٢.

﴿والطيب﴾ : هو المستلذ المستطاب الذى تقبل عليه النفوس الطاهرة وتنبسط لتناوله، وإنما تنبسط النفوس الطاهرة لتناول طعام غير قذر ولا موقع فى تهلكة، إذ القذر ينفر منه الطبع السليم، والموقع فى تهلكة يمجه العقل القويم.

و ﴿من﴾ فى قوله : ﴿مما فى الأرض﴾ للتبعيض، لأن بعض ما فى الأرض كالحجارة - مثلا - لا يؤكل، ولأنه ليس كل ما يؤكل يجوز أكله فلذلك قال : ﴿حلالا طيبًا . .﴾.

وقوله : ﴿حلالا﴾ مفعول به لقوله : «كلوا» أو حال مما فى الأرض، أى : كلوه حال كونه حلالا . أو صفة لمصدر محذوف، أى : كلوه أكلا حلالا.

وقوله : ﴿طيبا﴾ صفة مقررة ومؤكدة لمعنى يستفاد من قوله : ﴿حلالا﴾ وهو طهارة المأكول وخلوه من القذارة، وعدم إيقاعه فى ضرر.

قال الآلوسى : «وفائدة وصف الحلال بالطيب تعميم الحكم كما فى قوله - تعالى - : ﴿وما من دابة فى الأرض﴾ ليحصل الرد على من حرم بعض الحلالات فإن النكرة الموصوفة بصفة عامة تعم، بخلاف غير الموصوفة»[1].

والمعنى : يأيها الناس لقد أباح الله لكم أن تأكلوا من كل ما تحويه الأرض من المطعومات التى أحلت لكم، والتى تستلذها النفوس الكريمة، والقلوب الطاهرة، فتمتعوا بهذه الطيبات فى غير سرف أو غرور، واشكروا الله - تعالى - على ما رزقكم من نعم.

ولقد أمر الله عباده فى كثير من الآيات أن يتمتعوا بما أحله لهم من طيبات ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾.

وفى صحيح مسلم عن عياض المجاشعى أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم فى خطبته : «ألا إن ربى أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى، يومى هذا. يقول الله - تعالى - : كل مال نحلته - أى منحته - عبادى فهو لهم حلال، وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانًا . . ». وعن ابن عباس قال : تليت هذه الآية عند النبى ﷺ ﴿يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا﴾ فقام سعد بن أبى وقاص فقال : يا رسول الله، ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة، فقال : يا سعد ! أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذى نفس محمد بيده، إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه أربعين يوما، وأيما عبد نبت لحمه

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢ ص ٣٨ طبعة منير الدمشقى.

من السحت والربا فالنار أولى به»[١].

وليس من الورع ولا الزهد المرضى عنه شرعا ترك بعض المباحات، فإن الله سوى فى المباح بين الفعل والترك، ومن يجعل ترك المباح من الورع، والورع مندوب، فكأنه يقول: إن الترك راجح على الفعل، وهو غير ما حكم الله به.

وكان الحسن البصرى - وهو من أجل التابعين - يقوم عوج من يعدون من الزهد المحمود الامتناع عن تناول بعض المباحات كالأطعمة اللذيذة.

يحكى عنه أنه شهد يوما وليمة، فرأى رجلا يرفع يده عندما قدمت الحلوى فقال له الحسن: كل يا لكع فلنعمة الله عليك فى الماء البارد أعظم من نعمته فى هذه الحلوى.

ودخل عليه مرة أحد الزهاد فقال له الحسن: أتحب الخبيص - وهو طعام لذيذ - فقال الزاهد: لا أحبه ولا أحب من يحبه!! فأقبل الحسن على جلسائه وقال لهم: أترونه مجنونا.

والخلاصة: أنه لا ورع فى ترك المباح الذى أحله الله من حيث فيه متعة للنفس، فذلك هو التنطع فى الدين، وإنما الورع فى ترك الإكثار من تناول تلك المباحات، لأن الإكثار منها قد يؤدى إلى الوقوع فيما نهى الله عنه.

هذا، وقد أورد بعض المفسرين آثارًا تدل على أن هذه الآية نزلت فى قوم معينين.

قال الآلوسى: نزلت فى المشركين الذين حرموا على أنفسهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وقيل نزلت فى قوم من ثقيف وبنى عامر ابن صعصعة وخزاعة وبنى مدلج حيث حرموا التمر والاقط على أنفسهم[٢].

والذى نراه أن الخطاب فى الآية لجميع المكلفين من البشر، وأنها واردة لتفنيد آراء الذين يحرمون على أنفسهم مطعومات لم يقم دليل من الشارع على تحريمها، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ثم قال - تعالى -: ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾.

الخطوات: جمع خطوة كغرفة وقيل جمع خطوة كقبضة، وهى فى الأصل ما بين القدمين عند المشى، وتستعمل على وجه المجاز فى الآثار.

أى: كلوا أيها الناس من الطيبات التى أحلها الله لكم. ولا تتبعوا آثار الشيطان وزلاته

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٠٤ طبعة عيسى الحلبى.

(٢) تفسير الآلوسى جـ٢ ص ٢٨.

ووساوسه وطرقه التى يحرم بها الحلال ويحلل الحرام والتى يقذفها فى صدور بعض الناس فتجعلهم ينتقلون من الطاعات إلى المعاصى.

وفى الجملة الكريمة استعارة تمثيلية، إذ أن السائر فى طريق إذا رأى آثار خطوات السائرين تتبع ذلك المسلك ظنًا منه بأن ما سار فيه السائر قبله إلا لأنه موصل للمطلوب، فشبه المقتدى الذى لا دليل معه سوى المقتدى به وهو يظن مسلكه موصلا، بالذى يتبع خطوات السائرين، وشاعت هذه الاستعارة حتى صاروا يقولون هو يتبع خطا فلان بمعنى يقتدى به.

وقوله: ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ تعليل للنهى عن اتباع الشيطان و «مبين» من أبان بمعنى بان وظهر، وقيل: من أبان بمعنى أظهر، أى: مظهر للعداوة

والمعنى: «ولا تتبعوا خطواته لأن عداوته ظاهرة لكم بحيث لا تخفى على أى عاقل.

وقوله - تعالى -: ﴿إنما يأمركم بالسوء والفحشاء﴾ استئناف لبيان كيفية عداوته، وتفصيل لأنواع شروره ومفاسده.

والسوء فى الأصل: مصدر ساءه يسوءه سوءًا ومساءة إذا أحزنه، والمراد به هنا، كل ما يغضب الله - تعالى - من المعاصى، لأنها تسوء صاحبها وتحزنه فى الحال أو المآل.

والفحشاء والفاحشة والفحش: ما عظم قبحه مر الأقوال والأفعال.

وروى عن ابن عباس أنه فسر السوء بما لا حد فيه، والفحشاء بما فيه حد.

والأمر فى الأصل: الطلب بالقول، واستعمل فى تزيين الشيطان المعصية، لأن تزيينها فى معنى الدعوة إليها.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: كيف كان الشيطان آمرا مع قوله ﴿ليس لك عليهم سلطان﴾؟

قلت: شبه تزيينه وبعثه على الشر بأمر الآمر، كما تقول: أمرتنى نفسى بكذا، وتحته رمز إلى أنكم منه بمنزلة المأمورين لطاعتكم له وقبولكم وساوسه، ولذلك قال: ﴿ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله﴾ وقال - تعالى -: ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾ لما كان الإنسان يطيعها فيعطيها ما اشتهت»[1].

وقوله: ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ معطوف على ما قبله.

أى: يأمركم الشيطان بالسوء والفحشاء، ويأمركم أن تقولوا على الله ما لا تعلمون.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٢١٣.

والقول على الله بغير علم من مظاهره أن يقول قائل: لقد أحل الله كذا وحرم كذا بدون دليل شرعى يعتمد عليه.

قال الإمام ابن القيم: «والقول على الله بغير علم يعم القول عليه - سبحانه - فى أسمائه وصفاته وأفعاله، وفى دينه وشرعه، وقد جعله - سبحانه - من أعظم المحرمات، بل جعله فى المرتبة العليا منها، فقال - تعالى -: ﴿قل إنما حرم ربى الفواحش، ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغى بغير الحق، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ وقال - تعالى -: ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون. متاع قليل ولهم عذاب أليم﴾ فتقدم إليهم - سبحانه - بالوعيد على الكذب عليه فى أحكامه، وقولهم لما لم يحرمه: هذا حرام، ولما لم يحله: هذا حلال. وهذا بيان منه - سبحانه - أنه لا يجوز للعبد أن يقول: هذا حلال وهذا حرام إلا بما علم أنه - سبحانه - أحله وحرمه»[1].

وقال بعض العلماء: وقد يخطر على بالك أن تقرير الأئمة المجتهدين لبعض الوقائع أحكامًا من طريق الاستنباط، قد يستندون فى ذلك إلى دليل يفيد الظن بالحكم، ولا يصل إلى أن يفيد العلم به، فيكون إفتاؤه من قبيل القول على الله بغير علم، ويزاح هذا الخاطر بأنه قد انضم إلى ذلك الدليل الظنى أصل انعقد عليه الإجماع وأصبح مقطوعًا به، وهو أن كل مجتهد بحق يكون حكم الشرع فى حقه أو حق من يتابعه هو الحكم الذى أداه إليه اجتهاده، وبمراعاة هذا الأصل المقطوع به لم يكن المجتهد المشهود له بالرسوخ فى العلم قائلا على الله ما لا يعلم»[2].

هذا، ومن الآيات الكثيرة التى وردت فى القرآن الكريم فى التحذير من الشيطان ووساوسه قوله - تعالى -: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾.

وقوله - تعالى -: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا﴾.

وقوله - تعالى -: ﴿يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة﴾.

وقد أرشدنا النبى ﷺ إلى أن الإكثار من ذكر الله خير معين للإنسان للتغلب على وساوس

(١) من كتاب «أعلام الموقعين» لابن القيم. نقلا عن تفسير القاسمي جـ٢ ص ٢٧٠.

(٢) تفسير القرآن الكريم لفضيلة الإمام محمد الخضر حسين، مجلة لواء الإسلام. السنة الرابعة. العدد السادس.

الشيطان فقال فى حديثه الطويل الذى رواه الترمذى والنسائى وابن حبان عن الحارث الأشعرى : «وآمركم بذكر الله كثيرًا، فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا فى أثره، فأتى حصنا فأحرز نفسه فيه، وكذلك العبد لا ينجو من الشيطان إلا بذكر الله.

وبعد أن نهى - سبحانه - الناس عن إتباع خطوات الشيطان، وبين لهم مظاهر عداوته لهم، أردف ذلك ببيان حال طائفة من الناس لم يستمعوا لهذا النصح، بل اتبعوا خطوات الشيطان فقلدوا آباءهم فى الشرك والجهالة فقال - تعالى - :

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾

أى : وإذا قيل لأولئك الذين اقتفوا خطوات الشيطان، وقالوا على الله بدون علم ولا برهان، إذا قيل لهم : اتبعوا ما أنزل الله من قرآن، أعرضوا عن ذلك وقالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من عبادة الأصنام والخضوع للرؤساء

فالضمير فى قوله - تعالى - : ﴿لهم﴾ يعود على طائفة ممن شملهم الخطاب بقوله - تعالى - فى الآية السابقة : ﴿يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ وهم الذين لم يستجيبوا لنداء الله بل ساروا فى ركب الشيطان، واقتفوا آثاره، ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله﴾. القائل لهم ذلك هو النبى ﷺ والمسلمون.

والمراد بما أنزل الله : القرآن الكريم، وما أوحاه الله إلى نبيه ﷺ من هدايات. وعدل - سبحانه - من خطابهم إلى الغيبة للتنبيه على أنهم لفرط جهلهم وحمقهم صاروا ليسوا أهلا للخطاب، بل ينبغى أن يصرف عنهم إلى من يعقله.

و﴿بل﴾ فى قوله - تعالى - : ﴿بل نتبع﴾ للإضراب الإبطالى، أى : أضربوا عن قول الرسول لهم ﴿اتبعوا ما أنزل الله﴾ إضراب إعراض بدون حجة، إلا بأنه مخالف لما ألفوا عليه آباءهم من أمور الشرك والضلال.

وقوله - تعالى - : ﴿أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون﴾ رد عليهم، وبيان لبطلان الاعتماد فى الدين على مجرد تقليد الآباء.

والهمزة للاستفهام الإنكارى، والواو للحال، والمعنى : أيتبعون ما وجدوا عليه آباءهم

والحال أن آباءهم لا يعقلون شيئًا من أمور الدين الصحيح، ولا يهتدون إلى طريق الصواب.

قال الآلوسى: وفى الآية دليل على المنع من التقليد لمن قدر على النظر، وأما أتباع الغير فى الدين بعد العلم - بدليل ما - أنه محق فاتباع فى الحقيقة لما أنزل الله - تعالى - وليس من التقليد المذموم فى شىء وقد قال - سبحانه - ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾[1].

وبعد أن بين - سبحانه - فساد ما عليه أولئك المشركون المقلدون من غير نظر ولا استدلال، أردف ذلك بضرب مثل لهم زيادة فى قبيح شأنهم والزراية عليهم فقال - تعالى -:

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾

و ﴿مثل﴾ الصفة والشأن، وأصل المثل بمعنى المثل: النظير والشبيه، ثم أطلق على القول السائر المعروف، لمماثلة مضربه - وهو الذى يضرب فيه - لمورده - وهو الذى ورد فيه أولا - ولا يكون إلا فيما فيه غرابة. ثم استعير للصفة أو الحال أو القصة، إذا كان لها شأن عجيب وفيها غرابة.

و ﴿ينعق﴾ من النعيق وهو الصياح. يقال: نعق الراعى بالغنم ينعق نعقًا ونعاقًا ونعقانًا، صاح بها وزجرها.

والدعاء والنداء قيل بمعنى واحد أى أن ثانيهما تأكيد للأول، وقيل: الدعاء للقريب والنداء للبعيد.

والظاهر أن المراد بهما نوعان من الأصوات.

وأولهما: وهو الدعاء معناه: الصياح بالبهائم لتأتى.

وثانيهما: وهو النداء معناه: الصياح بها لتذهب.

قال الإمام الرازى ما ملخصه: وللعلماء من أهل التأويل فى هذه الآية طريقان:

أحدهما: تصحيح المعنى بالإضمار فى الآية.

والثانى: إجراء الآية على ظاهرها من غير إضمار.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٢ ص ٤١.

أما الذين أضمروا فذكروا وجوها :

الأول : كأنه قال : ومثل من يدعو الذين كفروا إلى الحق كمثل الذى ينعق، فصار الناعق الذى هو الراعى بمنزلة الداعى إلى الحق. وهو الرسول ﷺ وسائر الدعاة إلى الحق، وصار الكفار بمنزلة الغنم المنعوق بها، ووجه الشبه أن البهيمة تسمع الصوت ولا تفهم المراد، وهؤلاء الكفار كانوا يسمعون صوت الرسول ﷺ وألفاظه، وما كانوا ينتفعون بها وبمعانيها.

الثانى : ومثل الذين كفروا فى دعائهم آلهتهم من الأوثان كمثل الناعق فى دعائه ما لا يسمع كالغنم وما يجرى مجراها من البهائم. فشبه الأصنام - فى أنها لا تفهم - بهذه البهائم، فإذا كان ولا شك أن من دعا بهيمة عد جاهلا، فمن دعا حجرًا أولى بالذم.

والفرق بين هذا القول والذى قبله أن هاهنا المحذوف هو المدعو، وفى القول الذى قبله المحذوف هو الداعى.

أما إجراء الآية على ظاهرها من غير إضمار فتقديره، ومثل الذين كفروا فى قلة عقولهم فى عبادتهم لهذه الأوثان كمثل الراعى إذا تكلم مع البهائم، فكما أنه يقضى على ذلك الراعى بقلة العقل فكذا ههنا.

ثم قال - رحمه الله - ومثل هذا المثل يزيد السامع معرفة بأحوال الكفار، ويحقر إلى الكافر نفسه إذا سمع ذلك، فيكون كسرا لقلبه، وتضييقًا لصدره، حيث صيره كالبهيمة فيكون فى ذلك نهاية الزجر والردع لمن يسمعه عن أن يسلك مثل طريقه فى التقليد»[1].

وقوله - تعالى - : ﴿صم بكم عمى﴾ زيادة فى تبكيتهم وتقريعهم، أى : هم صم عن استماع دعوة الحق، بكم عن إجابة الداعى إليها، عمى عن آيات صدقها وصحتها، فهم لإعراضهم عن الهادى لهم إلى ما ينفعهم وينجيهم من العذاب صاروا بمنزلة من فقد حواسه، فأصبح لا يسمع ولا ينطق ولا يبصر

وقوله : ﴿فهم لا يعقلون﴾ وارد مورد النتيجة بعد البرهان، بجانب كونه توبيخًا لهم، لأنهم بفقدهم أهم طرق الإدراك وهما السمع والبصر، وأهم وسيلة للثقافة وهى استطلاع الحقائق من طريق المحاورة والتكلم، صاروا بعد كل ذلك بمنزلة من فقد عقله الاكتسابى، فأصبح لا يفقه شيئًا؛ لأن العقل الذى يكتسب به الإنسان المعارف والحقائق يستعين استعانة كبرى بهذه الحواس الثلاث.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٨ بتصرف وتلخيص.

وبعد هذا البيان البليغ لحال الذين يتخذون من دون الله أندادًا، ولحال الكافرين المقلدين لآبائهم فى الضلال بدون تدبر أو تعقل، بعد كل ذلك وجهت السورة الكريمة نداء إلى المؤمنين بينت لهم فيه - وفيما سيأتى بعده من آيات - كثيرًا من التشريعات والآداب والأحكام التى هم فى حاجة إليها فقال - تعالى - :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٧٣)﴾

الطيبات من الأطعمة : المستلذات، ويجوز حملها على ما طاب من الرزق بتحليل الله له.

وما رزقناكم : ما أوصلناه إليكم من الرزق، - وهو ما ينتفع به.

أى : يا من آمنتم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر كلوا من ألوان الطيبات التى أحللناها لكم، ولا تتعرضوا لما حرمناه عليكم.

وكان الخطاب هنا للمؤمنين خاصة، لأنهم أحق بالفهم، وأجدر بالعلم وأحرى بالاهتداء، وأولى بالتكريم والتشريف.

ومفعول ﴿كلوا﴾ محذوف، أى : كلوا رزقكم حال كونه بعض طيبات ما رزقناكم.

ثم أمرهم - سبحانه - بشكره على هذه الطيبات التى أباحها لهم فقال : ﴿واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾.

وهذه الجملة الكريمة معطوفة على جملة ﴿كلوا﴾.

والشكر : هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم لموجدها، ووضعها فى الموضع الذى أمر به.

أى : تمتعوا بنعم الله، واعترفوا له بها على وجه التعظيم، بأن تمتثلوا ما أمر به، وتجتنبوا ما نهى عنه، إن كنتم تخصونه بالعبادة حقًا، وتفردونه بالطاعة صدقًا.

قال الآلوسي : وجملة ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ بمنزلة التعليل لطلب الشكر، كأنه قيل : « واشكروا له لأنكم تخصونه بالعبادة، وتخصيصكم إياه بالعبادة، يدل على أنكم تريدون عبادة كاملة تليق بكبريائه، وهى لا تتم إلا بالشكر، لأنه من أجل العبادات »[١].

وجواب الشرط محذوف دل عليه المذكور والتقدير : إن كنتم إياه تعبدون فكلوا واشكروا لله.

ولقد أمر الله - تعالى - عباده أن يشكروه فى آيات كثيرة ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد﴾.

وقال - تعالى - : ﴿ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم﴾.

وفى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى أن رسول الله ﷺ قال : « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » وروى الإمام مسلم فى صحيحه عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها »

قال صاحب المنار : قال الأستاذ الإمام : لا يفهم هذه الآية حق فهمها إلا من كان عارفًا بتاريخ الملل عند ظهور الإسلام وقبله، فإن المشركين وأهل الكتاب كانوا فرقًا وأصنافًا، منهم من حرم على نفسه أشياء معينة بأجناسها أو أصنافها كالبحيرة والسائبة عند العرب، وكبعض الحيوانات عند غيرهم وكان المذهب الشائع فى النصارى أن أقرب ما يتقرب به إلى الله - تعالى - تعذيب النفس، وحرمانها من الطيبات المستلذة، واحتقار الجسد ولوازمه، واعتقاد أنه لا حياة للروح إلا بذلك. . . ثم قال : وقد تفضل الله على هذه الأمة بأن جعلها أمة وسطًا تعطى الجسد حقه والروح حقها، فأحل لنا الطيبات لتتسع دائرة نعمه الجسدية علينا، وأمرنا بالشكر عليها ليكون لنا منها فوائد روحانية عقلية، فلم نكن جسمانيين محضًا كالأنعام، ولا روحانيين خلصا كالملائكة، وإنما جعلنا أناسى كملة بهذه الشريعة المعتدلة، فله الحمد والشكر والثناء الحسن »[٢].

وقوله - تعالى - : ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله﴾ بيان لما حرمه الله - تعالى - علينا من المطاعم رعاية لمنفعتنا.

و ﴿الميتة﴾ فى عرف الشرع : ما مات حتف أنفه، أو قتل على هيئة غير مشروعه، فيدخل فيها : المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وماعدا عليها السبع، ويدخل فى حكم الميتة ما قطع

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٢ ص ٤١.

(٢) تفسير المنار جـ٢ ص ٩٦.

من جسم الحيوان الحى للحديث الذى أخرجه أبو داود والترمذى عن أبى واقد الليثى، أن رسول الله ﷺ قال: ما قطع من البهيمة وهى حية فهو ميتة».

وكان الأكل من الميتة محرمًا، لفساد جسمها بذبول أجزائه وتعفنها، ولأنها أصبحت بحالة تعافها الطباع السليمة لقذارتها وضررها.

قال الآلوسى: وأضاف - سبحانه - الحرمة إلى العين - مع أن الحرمة من الأحكام الشرعية التى هى من صفات فعل المكلف وليست مما تتعلق بالأعيان - إشارة إلى حرمة التصرف فى الميتة من جميع الوجوه بأخصر طريق وأوكده، حيث جعل العين غير قابلة لتعلق فعل المكلف بها إلا ما خصه الدليل كالتصرف بالمدبوغ، وخرج عن حكم الميتة السمك والجراد، للحديث الذى أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: أحلت لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد والكبد والطحال وللعرف أيضًا، فإنه إذا ما قال القائل: أكل فلان الميتة لم يسبق الوهم إليهما نعم حرم بعضهم ميتة السمك الطافى وما مات من الجراد بغير سبب، واستدل بعموم الآية على تحريم الأجنة وتحريم ما لا نفس له سائلة خلافًا لمن أباحه»(١).

والدم المحرم: ما يسيل من الحيوان الحى كثيرًا كان أم قليلا وكذلك يحرم من دم الحيوان ما جرى منه بعد تذكيته، وهو الذى عبر عنه القرآن بالمسفوح فى قوله - تعالى -: ﴿قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحًا..﴾.

والدم المسفوح: هو الدم الجارى المهراق من البهيمة بعد ذبحها.

أما الدم المتبقى فى أجزاء لحم البهيمة بعد تذكيتها فلا شىء فيه.

قال القرطبى: وأما الدم فمحرم مالم تعم به البلوى، ومعفو عما تعم به البلوى. والذى تعم به البلوى هو الدم فى اللحم وعروقه... وقد روت عائشة - رضى الله عنها - قالت: كنا نطبخ البرمة على عهد رسول الله ﷺ تعلوها الصفرة من الدم فنأكل ولا ننكره» لأن التحفظ من هذا إصر وفيه مشقة، والإصر والمشقة فى الدين موضوع. وهذا أصل فى الشرع»(٢).

وقد عرف عن بعض العرب فى الجاهلية أنهم كانوا يأخذون الدم من البهائم عند ذبحها، فيضعونه فى أمعائها ثم يشوونها بالنار ويأكلونها ويسمون ذلك بالفصيد.

قال بعضهم: والحكمة فى تحريم الدم أنه تستقذره النفوس الكريمة، ويفضى شربه أو أكله إلى الإضرار بالنفس، وفضلا عن ذلك فإن تعاطيه يورث ضراوة فى الإنسان، وغلظة فى الطباع

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٢ ص ٤١.
(٢) تفسير القرطبى جـ٢ ص ٢٢٢.

فيصير كالحيوان المفترس، وهذا مناف لمقصد الشريعة التى جاءت لإتمام مكارم الأخلاق.

وحرمة الخنزير شاملة للحمه وشحمه وجلده. وإنما خص لحمه بالذكر، لأنه الذى يقصد بالأكل، ولأن سائر أجزاء الخنزير كالتابعة للحمه. وبعض الفقهاء يرى أنه لا بأس من الانتفاع بشعر الخنزير فى الخرازة - أى: خياطة الجلود وغيرها -، وبعضهم كره ذلك.

ومن الحكم فى تحريم لحم الخنزير قذارته، واشتماله على دودة تضر ببدن آكله وقد أثبت ذلك العلم الحديث.

وما يقوله قوم من أن وسائل العلم الحديث قد تقدمت، وصار فى الإمكان التغلب على ما فى لحم الخنزير من أضرار هذا القول مردود بأن العلم الحديث قد احتاج إلى ثلاثة عشر قرنًا ليكتشف آفة واحدة فى لحم الخنزير، فمن ذا الذى يجزم بأنه ليس هناك آفات أخرى فى هذا اللحم لم يعرفها العلم حتى الآن؟

إن الشريعة التى سبقت العلم الحديث بأكثر من ثلاثة عشر قرنًا أولى بالاتباع، وأجدر بالطاعة فيما أحلته وحرمته مما يقوله الناس، لأنها من عند الله العليم بشئون عباده، الخبير بما ينفعهم وبما يضرهم.

وقوله: ﴿وما أهل به لغير الله﴾ معطوف على ما قبله من المحرمات. و﴿أهل﴾ من الإهلال، وهو رفع الصوت عند رؤية الهلال، ثم استعمل لرفع الصوت مطلقًا، ومنه إهلال الصبى، والإهلال بالحج. وكانوا فى الجاهلية إذا أرادوا ذبح ما قربوه إلى آلهتهم سموا عليها أسماءها - كاللات والعزى - ورفعوا بها أصواتهم، وسمى ذلك إهلالا.

فالمراد بما أهل به لغير الله: ما ذبح للأصنام وغيرها، ومنه ما يذبحه المجوسى للنار. ومنه عند جمهور العلماء: ذبائح أهل الكتاب إذا ذكر عليها اسم عزير أو عيسى، لأنها مما أهل به لغير الله.

وذهب جماعة من التابعين إلى تخصيص الغير بالأصنام، وإلى حل ذبائح أهل الكتاب مطلقًا، لعموم قوله - تعالى - فى سورة المائدة وهى من آخر السور نزولا: ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم﴾ أى ذبائحهم، وهو - سبحانه - يعلم ما يقولون.

وروى الحسن عن على - رضى الله عنه - أنه قال: إذا ذكر الكتابى اسم غير الله على ذبيحته وأنت تسمع فلا تأكل، فإذا غاب عنك فكل، فإن الله قد أحل ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون.

وقد روى البخارى عن عائشه - رضى الله عنها - قالت: إن قومًا قالوا للنبى ﷺ: إن قومًا يأتوننا باللحم لا ندرى أذكر اسم الله عليه أم لا؟ فقال: سموا عليه أنتم وكلوه. قالت:

وكانوا حديثى عهد بكفر.

فكأن المحرم ليس ما لم يعلم أن اسم الله ذكر عليه، بل المحرم ما علم أن غير اسم الله من الأوثان والأنداد ونحو ذلك قد ذكر عليه.

فأنت ترى أن تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير كان لاستقذار الأكل من هذه الثلاثة، أى: لعلة ذاتية فيها، أما تحريم ما أهل به لغير الله فليس لعلة فيه، ولكن للتوجه به إلى غير الله. وهى علة روحية تنافى سلامة القلب، وطهارة الروح، ووحدة المتجه فما ذكر عليه سوى اسم الله من الذبائح ملحق بالنجاسة المادية والقذارة الحقيقية، وفى ذلك حض للناس على إخلاص العبادة لله - تعالى -، وزجر لهم عن التقرب إلى أحد سواه.

وقوله - تعالى - : ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه﴾ بيان لحالات الضرورة التى يباح للإنسان فيها أن يأكل من تلك المحرمات.

و ﴿اضطر﴾ من الاضطرار وهو الاحتياج إلى الشىء. يقال: اضطره إلى هذا الشىء. أى: أحوجه وألجأه إليه مأخوذ من الإضرار، وهو حمل الإنسان على أمر بكرهه، وقهره عليه بقوة يناله بدفعها الهلاك.

و ﴿باغ﴾ من البغاء وهو الطلب. تقول: بغيته بغاء وبغيا وبغية أى: طلبته.

و ﴿عاد﴾ اسم فاعل بمعنى متعد، تقول. عدا طوره إذا تجاوز حده وتعداه إلى غيره فهو عاد، ومنه قوله - تعالى - فى شأن قوم لوط: ﴿بل أنتم قوم عادون﴾.

و ﴿غير﴾ منصوب على الحال من الضمير المستتر فى ﴿اضطر﴾ وهى هنا بمعنى النفى ولذا عطف عليها لا.

والمعنى: فمن ألجأته ضرورة إلى أكل شىء من هذه المحرمات: حالة كونه غير باغ: أى غير طالب للمحرم وهو يجد غيره، أو غير طالب له لإشباع لذته، أو غير طالب له على جهة الاستئثار به على مضطر آخر، أو غير ساع فى فساد ﴿ولا عاد﴾ أى: وغير متجاوز ما يسد الجوع، ويحفظ الحياة ﴿فلا إثم عليه﴾ أى: فلا إثم عليه فى أكله من هذه المحرمات.

وبهذا نرى لونا من ألوان سماحة الإسلام ويسره فى تشريعاته، التى أقامها الله - تعالى - على رفع الحرج، ودفع الضرر، قال - تعالى - : ﴿وما جعل عليكم فى الدين من حرج﴾ وقال - تعالى - : ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾.

وقوله: ﴿إن الله غفور رحيم﴾ تذييل قصد به الامتنان. أى: إن الله - تعالى - موصوف بهذين الوصفين الجليلين، ومن كان كذلك كان من شأنه أن يعفو عن الخطايا، ويغفر الذنوب،

ويشرع لعباده ما فيه يسر لا ما فيه عسر.

هذا، وظاهر هذه الآية الكريمة يقتضى أنه ليس هناك محرم من المطعومات سوى هذه الأربعة، لكنا نعلم فى الشرع أن هناك مطعومات أخرى قد حرم على المسلم تناولها كلحوم الحمر الأهلية، فعلى هذا تكون لفظة «إنما» متروكة الظاهر فى العمل - كما قال الإمام الرازى - أى: أن الحصر فيها غير مقصود وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى سورة الأنعام: ﴿قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دمًا مسفوحًا أو لحم خنزير فإنه رجس، أو فسقًا أهل لغير الله به، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم﴾[1].

ثم تحدث القرآن عن سوء عاقبة الذين يكتمون ما أمر الله بإظهاره وتوعدهم بأقسى ألوان العذاب فقال - تعالى -:

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

الكتم والكتمان: إخفاء الشىء قصدًا مع تحقق الداعى إلى إظهاره.

وقد تحدث القرآن - قبل هذه الآيات بقليل - فى قوله - تعالى - ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى﴾ عن المصير الأليم الذى توعد الله به أولئك الكاتمين لما أمر الله بإظهاره، وأعاد الحديث عن سوء عاقبتهم هنا؛ لكى ينذرهم مرة بعد أخرى حتى يقلعوا عن هذه الرذيلة التى هى من أبشع الرذائل وأقبحها، ولكى يغرس فى قلوب الناس - وخصوصا

(١) الآية ١٤٥. وراجع كتابنا «تفسير سورة الأنعام» فى معنى الآية ص ٣٠٨.

العلماء - الشجاعة التى تجعلهم يجهرون بكلمة الحق فى وجوه الطغاة لا يخافون لومة لائم، ويبلغون رسالات الله دون أن يخشوا أحدًا سواه، ويبينون للناس ما أمرهم الله ببيانه بطريقة سليمة أمينة خالية من التحريف الكاذب، والتأويل الباطل.

قال الإمام الرازى: قال ابن عباس: نزلت هذه الآية فى رؤساء اليهود وأحبارهم. كانوا يأخذون من أتباعهم الهدايا، فلما بعث الله نبيه محمدًا ﷺ خافوا انقطاع تلك المنافع فكتموا أمره - عليه السلام - وأمر شرائعه فنزلت هذه الآية.

ثم قال الإمام الرازى: والآية وإن نزلت فى أهل الكتاب لكنها عامة فى حق كل من كتم شيئًا من باب الدين يجب إظهاره، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»(١).

والمراد بالكتاب، التوراة، أو جنس الكتب السماوية التى بشرت بالنبى ﷺ.

و ﴿من﴾ فى قوله: ﴿من الكتاب﴾ بمعنى فى أى: يكتمون ما أنزل الله فى كتابه من صفة النبى ﷺ ونعته ووقت بعثته.

وقيل للبيان، وهى حال من العائد على الموصول والتقدير: أنزل الله حال كونه من الكتاب والعامل فيه أنزل.

وقوله: ﴿ويشترون به ثمنا قليلا﴾ معطوف على يكتمون.

أى: يكتمون ما أنزل الله من الكتاب مما يشهد بصدق النبى ﷺ ويأخذون من سفلتهم فى مقابل ذلك عرضًا قليلا من أعراض الدنيا.

والضمير فى قوله: ﴿به﴾ يعود إلى ما أنزل الله، أو إلى الكتمان الذى يدل عليه الفعل ﴿يكتمون﴾ أو إلى الكتاب.

ووصف هذا الثمن الذى يأخذونه فى مقابل كتمانهم بالقلة، لأن كل ما يؤخذ فى مقابلة إخفاء شىء مما أنزله الله فهو قليل حتى ولو كان ملء الأرض ذهبًا.

وقوله - تعالى -: ﴿أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار﴾ وما عطف عليه، بيان للعذاب المهين الذى أعدلهم بسبب كتمانهم لما أمر الله بإظهاره وبيعهم دينهم بدنياهم.

أى: أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا ما يؤدى بهم إلى النار وبئس القرار كما قال - تعالى - فى حق أكلة مال اليتامى: ﴿إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرًا﴾.

وفى هذه الجملة الكريمة تمثيل لحالة أولئك الكفار الحاصلة من أكلهم ذلك الثمن القليل

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٢٨، بتصرف.

المفضى بهم إلى النار، بحالة من يأكل النار نفسها. ووجه الشبه بين الحالتين : أنه يترتب على أكل ذلك المال الحرام من تقطيع الأمعاء وشدة الألم، ما يترب على أكل النار ذاتها، إلا أن العذاب الحاصل من أكل النار يقع عندما تمتلىء منها بطونهم، والعذاب الحاصل من أكل المال الحرام يقع عند لقاء جزائه وهو الإحراق بالنار.

وجيء بإسم الإشارة فى أول هذه الجملة لتمييز أولئك الكاتمين أكمل تمييز حتى لا يخفى أمرهم على أحد، وللتنبيه على أن ما ذكر بعد اسم الإشارة من عقوبات سببه ما فعلوه قبل ذلك من سيئات.

وخص - سبحانه - بالذكر الأكل فى بطونهم من بين وجوه انتفاعهم بما يأخذونه من مال حرام، للإشعار بسقوط همتهم ودناءة نفوسهم حتى إنهم ليخفون ما أمر الله بإظهاره من حقائق وهدايات، نظير ملء بطونهم.

وقوله : ﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة﴾ أى : لا يكلمهم كلاما تطمئن به نفوسهم، وتنشرح له صدورهم وإنما يكلمهم بما يخزيهم ويفجعهم بسبب سوء أعمالهم كقوله - لهم : ﴿اخسؤا فيها ولا تكلمون﴾. أو أن نفى تكليمه لهم كناية عن غضبه عليهم، لأن من عادة الملوك أنهم عند الغضب يعرضون عن المغضوب عليه ولا يكلمونه، كما أنهم عند الرضا يقبلون عليه بالوجه والحديث.

وقوله : ﴿ولا يزكيهم﴾ أى : ولا يطهرهم من دنس الكفر والذنوب بالمغفرة، من التزكية بمعنى التطهير. يقال : زكاه الله، أى : طهره وأصلحه.

وتستعمل التزكية بمعنى الثناء، ومنه زكى الرجل صاحبه إذا وصفه بالأوصاف المحمودة وأثنى عليه، فيكون معنى ﴿ولا يزكيهم﴾ لا يثنى عليهم - سبحانه - ومن لا يثنى عليه الله فهو معذب.

فهؤلاء الذين كتموا الحق نظير شيء قليل من حطام الدنيا، فقدوا رضا الله عنهم وثناءه عليهم وتطهيره لهم.

ثم ختم - سبحانه - الآية ببيان سوء منقلبهم، وشدة ألم العذاب الذى ينالهم فقال - تعالى - ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أى. موجع مؤلم.

قال الألوسى : وقد جاءت هذه الأخبار مرتبة بحسب المعنى، لأنه لما ذكر - سبحانه - اشتراءهم بذلك - الثمن القليل - وكان كناية عن مطاعمهم الخبيثة الفانية، بدأ أولا فى الخبر بقوله : ﴿ما يأكلون فى بطونهم إلا النار﴾. وابتنى على كتمانهم واشترائهم بما أنزل الله ثمنًا

قليلا، أنهم شهود زور وأحبار سوء، آذوا بهذه الشهادة الباطلة رسول الله ﷺ وألموه فقوبلوا بقوله - سبحانه - : ﴿ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾[1].

ثم بين - سبحانه - ماهم عليه من جهل وغباء وسوء عاقبة فقال : ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة﴾.

الاشتراء : استبدال السلعة بالثمن. والمعنى : أولئك الذين تقدم الحديث عنهم وهم الكاتمون لما أنزل الله قد بلغ بهم الغباء وانطماس البصيرة أنهم باعوا الهدى والإيمان ليأخذوا فى مقابلها الكفر والضلال، وباعوا ما يوصلهم إلى مغفرة الله ورحمته ليأخذوا فى مقابل ذلك عذابه ونقمته، فما أخسرها من صفقة، وما أغبى هؤلاء الكاتمين الذين فعلوا ذلك نظير عرض من أعراض الدنيا الفانية، فخسروا بما فعلوه دنياهم وآخرتهم.

وقوله - تعالى - : ﴿فما أصبرهم على النار﴾ معناه : فما أدومهم على عمل المعاصى التى تؤدى بهم إلى النار حتى لكأنهم بإصرارهم على عملها يجلبون النار إليهم جلبًا. ويقصدون إليها قصدًا بدون مبالاة أو تفكر.

والمراد من التعجب فى هذه الآية وأشباهها، الإعلام بحالهم وأنه ينبغى أن يتعجب منها كل أحد، وذلك لأن المعنى الظاهر من الجملة التعجب من صبر أولئك الكفار على النار، والتعجب انفعال - يحدث فى النفس عند الشعور بأمر يجهل سببه وهو غير جائز فى حقه - تعالى - لأنه لا يخفى عليه شيء، ومن هنا قال العلماء : إن فعل التعجب فى كلام الله المراد منه التعجيب، أى : جعل الغير يتعجب من ذلك الفعل، وهو هنا صبرهم على النار، فيكون المقصود تعجيب المؤمنين من جراءة أولئك الكاتمين لما أنزل الله على اقترافهم ما يلقى بهم فى النار، شأن الواثق من صبره على عذابها المقيم.

وشبيه بهذا الأسلوب فى التعجب - كما أشار صاحب الكشاف - أن تقول لمن يتعرض لما يوجب غضب السلطان : ما أصبرك على القيد والسجن فأنت لا تريد التعجب من صبره، وإنما تريد إفهامه أن التعرض لما يغضبه لا يقع إلا ممن شأنه الصبر على القيد والسجن، والمقصود بذلك تحذيره من التمادى فيما يوجب غضب ذلك السلطان.

قال الجمل ما ملخصه وما فى قوله ﴿فما أصبرهم﴾ - وفى مثل هذا التركيب - فيها أوجه :

أحدها : وهو قول سيبويه والجمهور أنها نكرة تامة غير موصولة ولا موصوفة وأن معناها التعجب فإذا قلت. ما أحسن زيدًا، فمعناه : شيء صير زيدًا حسنا.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٢ ص ٤٤.

والثانى : وإليه ذهب الفراء : أنها استفهامية صحبها معنى التعجب، نحو : « كيف تكفرون بالله ».

والثالث : ويعزى للاخفش : أنها موصولة.

والرابع ويعزى له أيضًا : أنها نكرة موصوفة وهى على هذه الأقوال الأربعة فى محل رفع بالابتداء وخبرها على القولين الأولين الجملة الفعلية بعدها، وعلى قولى الأخفش يكون الخبر محذوفًا[1].

ثم بين - سبحانه - أن سبب استحقاقهم للعذاب الأليم، هو ارتكابهم لما نهى الله عنه عن قصد وسوء نية فقال : ﴿ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق﴾.

أى : ذلك العذاب الأليم حل بهم بسبب أن الله أنزل التوراة مصحوبة ببيان الحق الذى من جملته التبشير ببعثة النبى محمد ﷺ فكتموا هم هذا الحق وامتدت إليه أيديهم الأثيمة بالتحريف والتأويل إيثارا لمطامع دنيوية على هدى الله الذى هو أساس كل سعادة.

فاسم الإشارة ﴿ذلك﴾ يعود على مجموع ما سبق بيانه من أكل النار، وعدم تكليم الله إياهم، وعدم تزكيتهم.. الخ.

والباء فى قوله : ﴿بأن﴾ للسببية، والمراد بالكتاب : التوراة.

ثم ختم - سبحانه - الحديث عن هؤلاء الكاتمين للحق بقوله : ﴿وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد﴾.

اختلفوا : خالف بعضهم بعضًا، وأصله من اختلاف الطريق، تقول اختلفوا فى الطريق. أى : جاء بعضهم من جهة والبعض الآخر من جهة أو جهات أخرى. ثم استعمل فى الاختلاف فى المذاهب والاعتقاد.

والكتاب : التوراة، أو التوراة والإنجيل، إذ يصح أن يراد جنس الكتاب والمقام يقتضى صرفه إلى هذين الكتابين، وقد أبعد فى التأويل من قال بأن المراد به القرآن لأن الحديث عن أهل الكتاب الذين كتموا ما فى كتبهم من بشارات بالرسول ﷺ واختلافهم فى الكتاب من مظاهره : إيمانهم ببعضه وكفرهم بالبعض الآخر، وتحريفه عن مواضعه وتأويله على غير ما يراد منه.

والشقاق : الخلاف، كأن كل واحد من المختلفين فى شق غير الشق الذى يكون فيه الآخر،

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ١٤٠.

وإذا وصف الخلاف بالبعد فهم منه أنه بعيد عن الحق، يقال: قال فلان قولا بعيدًا، أى بعيدًا من الصواب.

والمعنى: ذلك العذاب الأليم حل بأولئك الاشقياء بسبب كتمانهم لما أنزله الله فى كتابه من الحق، وإن الذين اختلفوا فى شأن ما أنزله الله فى كتبه فأظهروا منها ما يناسب أهواءهم وأخفوا ما لا يناسبها - لفى بعد شديد عن الحق والصواب:

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ذكرت ألوانا من العقوبات الأليمة التى توعد الله بها كل من يكتم أمرًا نهى الله عن كتمانه، لكى يقلع كل من يتأتى له الخطاب عن هذه الرذيلة وفاء للعهد الذى أخذه الله على الناس بصفة عامة، وعلى أولى العلم بصفة خاصة.

ثم ساق القرآن الكريم آية جامعة لأنواع البر، ووجوه الخير، تهدى المتمسك بها إلى السعادة الدنيوية والأخروية فقال - تعالى -:

۞ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

﴿البر﴾: اسم جامع لكل خير، ولكل طاعة وقربة يتقرب بها العبد إلى خالقه - عز وجل -.

قال الراغب: «البر - بفتح الباء - خلاف البحر، وتصور منه التوسع فاشتق منه البر - بكسر الباء - بمعنى التوسع فى فعل الخير، وينسب ذلك إلى الله - تعالى - تارة نحو: ﴿إنه هو البر الرحيم﴾ وإلى العبد تارة فيقال: بر العبد ربه، أى توسع فى طاعته فالبر من الله

الثواب، ومن العبد الطاعة»[١].

وتولية الوجوه قبل الشىء معناه: التوجه إليه بجعل الوجه متجها إلى جهته فلفظ «قيل» بمعنى جهة وهو منصوب على الظرفية المكانية.

﴿والمشرق﴾: الجهة التى تشرق منها الشمس، والمغرب: الجهة التى تغرب فيها.

قال الإمام الرازى: اختلف العلماء فى أن هذا الخطاب عام أو خاص. فقال بعضهم: أراد بقوله: ﴿ليس البر﴾ أهل الكتاب لما شددوا فى الثبات على التوجه نحو بيت المقدس فقال - تعالى - ليس البر هذه الطريقة ولكن البر من آمن بالله. وقال بعضهم: بل المراد مخاطبته المؤمنين لما ظنوا أنهم قد نالوا البغية بالتوجه إلى الكعبة من حيث كانوا يحبون ذلك فخوطبوا بهذا الكلام وقال بعضهم: بل هو خطاب للكل، لأن عند نسخ القبلة وتحويلها حصل من المؤمنين الاغتباط بهذه القبلة، وحصل منهم التشدد فى تلك القبلة حتى ظنوا أنه الفرض الأكبر فى الدين، فبعثهم الله - تعالى - بهذا الخطاب على أستيفاء جميع العبادات والطاعات، وبين أن البر ليس بأن تولوا وجوهكم شرقًا وغربًا، وإنما البر. كيت وكيت. وهذا أشبه بالظاهر إذ لا تخصيص فيه، فكأنه - تعالى - قال: ليس البر المطلوب هو أمر القبلة، بل البر المطلوب هو هذه الخصال التى عدها»[٢].

وهذا القول الثالث- الذى يرى أصحابه أن الخطاب للكل، والذى قال عنه الإمام الرازى: هذا أشبه بالظاهر - هذا القول، هو الذى تسكن إليه النفس؛ لأنه لا يوجد نص صحيح يخصص الخطاب لطائفة معينة من الناس ولأن المقصود من الآية الكريمة إنما هو إفهام الناس فى كل زمان ومكان أن مجرد تولية الوجه إلى قبلة مخصوصة ليس هو البر الكامل الذى يعنيه الإسلام، وإنما البر الكامل يتأتى فى استجابة الإنسان لتلك الخصال الشريفة التى اشتملت عليها الآية، تلك الخصال التى تجعل المستمسكين بها على صلة طيبة بخالقهم وعلى صلة طيبة بغيرهم، - كما سنبين ذلك عند تعليقنا على هذه الآية الكريمة -.

والمعنى: ليس البر - الذى هو كل طاعة يتقرب بها الإنسان إلى خالقه - فى تولية الوجه عند الصلاة إلى جهة المشرق والمغرب، وإنما البر الذى يجب الاهتمام به لأنه يؤدى إلى السعادة والفلاح - يكون فى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وفى انفاق المال فى وجوه الخير، وفى اتباع ما ذكرته الآية الكريمة من خصال جليلة.

هذا وقد قرأ حمزة وحفص عن عاصم ﴿ليس البر﴾ بنصب البر على أنه خبر ليس، واسمها

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ٤٠ للراغب الأصفهانى.
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٣٨.

قوله - تعالى - : ﴿أن تولوا﴾ أى : ليس توليتكم وجوهكم قبل المشرق والمغرب البر كله.

وقرأ الباقون ﴿ليس البر﴾ برفع البر على أنه اسم ليس، وخبرها قوله - تعالى - : ﴿أن تولوا﴾ أى ليس البر كله توليتكم وجوهكم قبل المشرق والمغرب.

قال الطبرسى : وكلا المذهبين حسن، لأن كل واحد من اسم ليس وخبرها معرفة، فإذا اجتمعا فى التعريف تكافآ فى كون أحدهما اسما والآخر خبرًا كما تتكافأ النكرتان[1].

وقوله - تعالى - : ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين﴾ إلخ بيان لما هو البر الذى يجب أن تتجه إليه الأفكار، وتستجيب له النفوس.

و ﴿لكن﴾ حرف استدراك، البر : اسمها. وقوله ﴿من آمن﴾ وقع فى اللفظ موقع الخبر عن قوله ﴿البر﴾ والخبر فى المعنى لفظ مقدر مضاف إلى من آمن، يفهم من سياق الجملة، والمعنى مع ملاحظة المقدر : ولكن البر بر من آمن بالله.

وهذا اللون من الإيجاز الذى حذف فيه المضاف معهود فى كلام البلغاء إذ تجدهم يقولون السخاء حاتم، والشعر زهير. أى : السخاء سخاء حاتم، والشعر شعر زهير.

وقيل : إن البر هنا بمعنى البار فجعل المصدر فى موضع اسم الفاعل، كما يقال : ماء غور أى : غائر، ورجل صوم أى : صائم.

وقيل : إن المحذوف هو لفظ مضاف إلى البر. أى : ولكن ذا البر من آمن بالله.

وقد ابتدأت الآية حديثها عن خصال البر بالإيمان بالله، لأنه أساس كل بر. وأصل كل خير، والإيمان بالله : هو التصديق بأنه هو الواحد الفرد الصمد، الذى لا تعنو الوجوه إلا له، ولا تتجه القلوب بالعبادة إلا إليه، ومتى رسخ هذا الإيمان فى النفوس ارتفع بها إلى مكانة التكريم التى أرادها الله - تعالى - لبنى آدم وصانها عن الذلة والاستكانة وأعطاها نبراس الهداية والسداد فى كل نواحى الحياة.

ثم ذكرت الإيمان باليوم الآخر، وهو التصديق بالبعث وما يقع بعده من حساب وثواب وعقاب على الوجه الذى وصفته نصوص الشريعة بأجلى بيان.

والإيمان باليوم الآخر من ثماره أنه يغرس فى النفوس محبة الخير، والحرص على إسداء المعروف وينفرها من اقتراف الشرور وارتكاب الآثام.

ولقد تحدث القرآن عن الإيمان بالله واليوم الآخر فى عشرات الآيات، وأقام الأدلة الساطعة، والبراهين القاطعة على وحدانية الله وعلى أنه هو صاحب الكمال المطلق، كما أقام

(١) تفسير الطبرسى جـ٢ ص٩٢ طبعة مكتبة الحياة ببيروت سنة ١٩٨٠.

الحجج والبراهين على أن البعث حق وضرب الأمثال لذلك، وسفه عقول المنكرين له.

ثم ذكرت الإيمان بالملائكة والملائكة: أجسام لطيفة نورانية، قادرون على التشكل فى صورة حسنة مختلفة، وصفهم القرآن بأنهم ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾.

ووجه دخول التصديق بهم فى حقيقة الإيمان، أن الله وسطهم فى إبلاغ وحيه لأنبيائه، وبين ذلك فى كتابه، وتحدث الصادق المصدوق ﷺ عنهم فى كثير من أحاديثه، فمن لم يؤمن بالملائكة على هذا الوجه الذى جاءت به الشريعة فقد انكر الوحى، إذ الإيمان بهم أصل للإيمان بالوحى، فيلزم من إنكارهم إنكار الوحى، وهو يستلزم إنكار النبوة وإنكار الدار الآخرة.

ثم ذكرت الآية الإيمان بالكتاب. والمراد به القرآن لأنه المقصود بالدعوة، ولأنه هو الأمين على الكتب قبله، فما وافقه منها كان حقًا وما خالفه كان باطلا.

والإيمان به يستلزم الإيمان بجميع الكتب المنزلة من عند الله على أنبيائه، لأنه هو الذى أخبرنا بذلك وأمرنا بذلك وأمرنا بأن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله.

ثم ذكرت الإيمان بالنبيين، أى: التصديق بأنهم رجال اصطفاهم الله - تعالى - لتلقى هدايته وكتبه وتبليغها للناس بصدق وأمانة وسلامة بصيرة.

والنبيون الذين يجب الإيمان بهم: كل من ثبتت نبوته عن طريق القرآن الكريم أو الحديث الصحيح، وكل من أنكر نبوة نبى قد ثبتت نبوته فقد خرج عن طريق الإيمان.

ولقد قام الدليل القاطع على أن محمدًا ﷺ هو خاتم النبيين والمرسلين، وكل من ادعى غير ذلك فهو من الضالين المضلين.

وقد جمعت هذه الأمور الخمسة التى ذكرتها الآية كل ما يلزم أن يصدق به الإنسان، لكى يكون ذا عقيدة سليمة، تصل به إلى الفلاح والسعادة.

ثم ذكرت الآية بعد بيان أصول الإيمان أصول الأعمال الصالحة فقالت. ﴿وآتى المال على حبه، ذوى القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل والسائلين، وفى الرقاب﴾.

وهذه الجملة معطوفة على قوله - تعالى -: ﴿من آمن بالله﴾.

والضمير فى قوله ﴿على حبه﴾ يعود إلى المال، أى: أعطى المال وبذله عن طيب خاطره حالة كونه محبًا له راغبًا فيه. لأن الإعطاء والبذل فى هذه الحالة يدل على قوة الإيمان، وصفاء الوجدان، ويسمو بصاحبه إلى أعلا الدرجات. قال - تعالى -: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾.

وقد بين النبى ﷺ أن أفضل الصدقة ما كان فى حال الصحة، لأن الإنسان فى هذه الحالة

يكون مظنة الحاجة إلى المال فقد أخرج البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ قال : يارسول الله ، أى الصدقة أعظم أجرًا ؟ قال : « أن تصدق وأنت صحيح شحيح ، تخشى الفقر وتأمل الغنى ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : لفلان كذا وكذا وقد كان لفلان.

وقيل الضمير يعود إلى الله - عز وجل - أى : يعطون المال على حب الله وطلبًا لمرضاته.

وقيل يعود إلى الايتاء الذى دل عليه قوله - تعالى - ﴿وآتى المال﴾ فكأنه قال : يعطى ويحب الاعطاء رغبة فى ثواب الله.

والمراد بذوى القربى : أقرباء المعطى للمال.والمعنى : وأعطى المال مع محبته لهذا المال لأقاربه المحتاجين لأنهم أولى بالمعروف، ولأن إعطاءهم إحسان وصلة رحم، ولذلك جاء ذكرهم فى الآية مقدمًا على بقية الأصناف التى تستحق العطف والإحسان.

روى الإمام أحمد والترمذى والنسائى وغيرهم عن سليمان بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الصدقة على المسكين صدقة. وعلى ذى الرحم اثنتان : صدقة وصلة ».

﴿واليتامى﴾ : جمع يتيم، وهو من فقد أباه بالموت ولم يبلغ الحلم. وهؤلاء اليتامى فى حاجة إلى الإحسان إليهم بعد ذوى القربى متى كانوا محتاجين، لشدة عجزهم عن كسب ما يسد حاجتهم.

﴿والمساكين﴾ جمع مسكين، وهو من لا يملك شيئًا من المال، أو يملك ما لايكفى حاجاته وهذا النوع من الناس فى حاجة إلى العناية والرعاية ؛ لأنهم فى الغالب يفضلون الاكتفاء بالقليل على إراقة وجوههم بالسؤال. وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ليس المسكين الذى يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان. قالوا : فما المسكين يارسول الله ؟ قال الذى لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئاً ».

﴿وابن السبيل﴾ : هو المسافر المنقطع عن ماله. وسمى بذلك - كما قال الآلوسى - لملازمته السبيل - أى الطريق - فى السفر، أو لأن الطريق تبرزه فكأنها ولدته وكأن إفراده لانفراده عن أحبابه ووطنه وأصحابه فهو أبدا يتوق إلى الجمع، ويشتاق إلى الربع، والكريم يحن إلى وطنه حنين الشارف[1] إلى عطنه »[2].

وهذا النوع من الناس فى حاجة إلى المساعدة والمعاونة حتى يستطيع الوصول إلى بلده، وفى

---

(١) الشارف : من الدواب المسن. أهـ المعجم الوسيط جـ ١ ص ٤٧٩

(٢) العطن : مبرك الأبل ومربض الغنم عند الماء. المعجم الوسيط جـ ٢ ص ٦٠٩.

هذا تنبيه إلى أن المسلمين وإن اختلفت أوطانهم ينبغى أن يكونوا فى التعاطف والتعاون على متاعب الحياة كالأسرة الواحدة.

﴿والسائلين﴾: جمع سائل، وهو الطالب للإحسان والمعروف. ويحمل حاله على أنه فى حاجة إلى المعاونة، لأن السؤال علامة الحاجة غالبًا.

والرقاب : جمع رقبة وهى فى الأصل العنق، وتطلق على البدن كله كما تطلق العين على الجاسوس. فصح حمل الرقاب على الأسارى والأرقاء.

وقوله: ﴿وفى الرقاب﴾ متعلق بآتى، أى: آتى المال على حبه فى تخليص الأسرى من أيدى العدو بفدائهم، وتخليص الأرقاء بشرائهم وإعتاقهم. وهذه الأصناف الستة التى ذكرت فى تلك الآية الكريمة ﴿وآتى المال على حبه..﴾ إلخ.

ليس المقصود من ذكرها الاستيعاب والحصر، ولكنها ذكرت كأمثلة وخصت بالذكر لأنها أحوج من غيرها إلى العون والمساعدة.

والذى يراجع القرآن الكريم يجده قد عنى عناية كبرى بالفقراء والمساكين وجميع أصناف المحتاجين حتى لا تكاد سورة من سوره تخلو من الحث على الإنفاق عليهم، وبذل العون فى مساعدتهم - وأيضا - هناك عشرات الأحاديث فى الحض على مد يد العون إلى ذوى القرابة والمعسرين، وذلك لأن المجتمعات تحيا وتنهض بالتراحم، وتذل وتشقى بالتقاطع والتدابر بين أبنائها.

ثم ذكرت الآية ألوانًا أخرى من البر تدل على قوة الإيمان وحسن الخلق فقالت: ﴿وأقام الصلاة وآتى الزكاة﴾ وإقامة الصلاة أداؤها فى مواقيتها مستوفية لأركانها وسننها وخشوعها على الوجه الشرعى الذى أمر الله به، والمراد بالزكاة هنا، الزكاة المفروضة على الوجه الذى فصلته السنة المطهرة. وإيتاؤها: يكون بإعطائها لمستحقيها من الفقراء والمساكين وغيرهم ممن ذكرهم الله فى قوله - تعالى -: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل، فريضة من الله والله عليم حكيم﴾.

وفى ذكر الزكاة المفروضة بعد ذكر إيتاء المال على حبه لذوى القربى واليتامى.. الخ دليل على أن فى الأموال حقوقا لذوى الحاجات سوى الزكاة، وذلك لأنه من المعروف بين أهل العلم أن الحاجة إذا بلغت بطائفة من أبناء الأمة حد الضرورة، يجب على الأغنياء منها أن يسعوا فى سدها ولو مما زاد على قدر الزكاة.

والأغنياء الذين يكتفون بدفع الزكاة، ولا يمدون يد المساعدة لسد حاجة المحتاجين، وتفريج كرب المكروبين، ودفع ضرورة البائسين، ليسوا على البر الذى يريده الله من عباده المتقين.

ومسألة «هل فى المال حق سوى الزكاة» من المسائل التى تناولها بعض العلماء بالشرح والتفصيل(١).

وقوله : ﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾ معطوف على قوله ﴿من آمن﴾ فإنه فى قوة قولك، ومن أوفوا بعهدهم، وأوثرت صيغة اسم الفاعل للدلالة على وجوب استمرار الوفاء.

الوفاء بالعهد يشمل ما عاهد المؤمنون عليه الله من الإذعان لكل ماجاء به الدين، ويشمل ما يعاهد به الناس بعضهم بعضًا مما لا يحل حرامًا ولا يحرم حلالا.

والموفون بعهدهم هم الذين إذا وعدوا أنجزوا، وإذا حلفوا بروا فى أيمانهم، وإذا قالوا صدقوا فى قولهم، وإذا ائتمنوا أدوا الأمانة، وقد وعدهم الله على ذلك بأجزل الثواب، وأعلى الدرجات.

وفى قوله - تعالى - : ﴿إذا عاهدوا﴾ إشارة إلى أن إيفاءهم بالعهد لا يتأخر عن وقت حصول العهد.

ثم ختم - سبحانه - خصال البر بقوله : ﴿والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس﴾. البأساء من البؤس، وهى ما يصيب الناس فى الأموال كالفقر والاحتياج. يقال : بئس يبأس بؤساً وبأساً أى اشتدت حاجته.

والضراء من الضر، وهى ما يصيبهم فى أنفسهم كالأمراض والأسقام يقال : ضره وأضره وضاره وضرًا، ضد نفع : والألف فى البأساء والضراء للتأنيث.

وحين البأس، أى : ووقت القتال فى سبيل الله لإعلاء كلمته، يقال : بؤس ببؤس بأسا فهو بئيس، أى : شجاع شديد.

وقوله : ﴿والصابرين﴾ معطوف فى المعنى على ﴿من آمن﴾ كقوله ﴿والموفون﴾ إلا أنه جاء منصوبا على المدح بتقدير - أخص أو أمدح - وغير سبكه عما قبله، تنبيها على فضيلة الصبر ومزيته على غيره من الفضائل حتى لكأنه ليس من جنس ما سبقه من فضائل، وهذا الأسلوب يسمى عند علماء اللغة العربية بالقطع، وهو أبلغ من الإتباع. ولا ريب فى أن صفة الصبر على الشدائد والآلام وحين القتال فى سبيل الله، جديرة بأنه ينبه لمزيد فضلها، إذ هى أصل لكثير من المكارم كالعفاف عما فى أيدى الناس، والتسليم للقضاء الذى لا مرد له، والإقدام الذى يحمى به الدين وتسلم به النفوس والأموال والأعراض :

وليس الصبر هو الخضوع والاستكانة والاستسلام من غير مقاومة ولا عمل وإنما الصبر جهاد

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٤٤، وتفسير الألوسى جـ ٢ ص ٤٧.

ومحاولة للتغلب على المصاعب، ومع الاحتفاظ برباطة الجأش والثقة بحسن العاقبة.

وقد خصت الآية ثلاث حالات بالصبر؛ لأن هذه الحالات هى أبرز الاشياء التى يظهر فيها هلع الهالعين وجزع الجازعين، كما يتميز فيها أصحاب النفوس القوية المطمئنة من غيرهم.

وجاءت كلمة «حين» فى قوله: ﴿وحين البأس﴾ مشيرة إلى أن مزية الصبر فى القتال إنما تظهر حين يلتقى الجمعان، وتدور رحى الحرب، لأن بعض الناس قد يكون قويًا فى بدنه، وقد يحشر نفسه فى زمرة الأبطال المقاتلين، ولكنه عندما يرى الأعناق تتساقط من حوله تخور قواه، ويلوذ بالقرار، أو يستسلم للعدو. وفى هذه الحالة تسلب عنه صفة الصابرين حين البأس. وتحق عليه صفة الضعفاء الجبناء.

وقد جاءت أنواع الصبر فى الآية على وجه الترقى من الشديد إلى الأشد، وذلك لأن الصبر على المرض أصعب من الصبر على الفقر، والصبر حين البأس أصعب من الصبر على المرض. ثم ختمت الآية حديثها عن هؤلاء الجامعين لهذه الخصال بقوله تعالى: ﴿أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾.

أولئك اسم إشارة للجمع، وقد أشير به إلى من تقدم ذكرهم من الجامعين لخصال البر. والصدق توصف به الأقوال المطابقة للواقع، وتوصف به الأعمال الواقعة على الوجه الذى يرضى الله - تعالى -.

والمتقون من الاتقاء وهو الحذر، ويطلق المتقى فى كلام الشارع على الانسان الذى صان نفسه عن كل ما يغضب الله، وامتثل لأوامره ونواهيه.

أى: أولئك الذين تقدم ذكرهم من المحرزين لخصال البر هم الصادقون فى إيمانهم وفى كل أحوالهم، وأولئك هم المتقون لعذاب الله - تعالى - بسبب امتثالهم لأوامره، واجتنابهم لما نهى عنه.

واسم الإشارة ﴿أولئك﴾ جىء به لإحضارهم فى أذهان المخاطبين وهم متصفون بتلك المناقب الجليلة.

وفى تكرير الإشارة زيادة تنويه بشأنهم وفضلهم. وجاء الإخبار عنهم بأنهم الصادقون المتقون، لتشيرهم بأنهم قد بلغوا بإحرازهم لتلك الخصال السابقة الغاية التى يطمح إليها أرباب البصائر المتنيرة، والنفوس المتقيمة، والقلوب السليمة، وهى مقام الصدق والتقوى الذى يرتفع بصاحبه إلى السعادة فى الدنيا، والنعيم الدائم فى الآخرة.

هذا وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على خمسة عشر نوعًا من أنواع البر الذى يهدى إلى الحياة

السعيدة فى الدنيا، وإلى رضا الله - تعالى - فى الآخرة، وذلك لأنها قد أرشدت إلى أن البر أنواع ثلاثة جامعة لكل خير: بر فى العقيدة، وبر فى العمل، وبر فى الخلق.

أما بر العقيدة فقد بينته أكمل بيان فى قوله - تعالى - : ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين﴾.

فقد جمعت فى هذه الجملة الكريمة مالا يتم الإيمان إلا بتحققه.

وأما بر العمل فقد وضحته أبلغ توضيح فى قوله - تعالى - : ﴿وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب﴾.

ولا شك أن إنفاق المال فى تلك الوجوه من شأنه أن يسعد الأفراد والجماعات والأمم، ويكون مظهرًا من أفضل مظاهر العمل الصالح الذى يرضى الله - تعالى -.

وأما بر الخلق فقد ذكرته بأحكم عبارة فى قوله - تعالى - : ﴿وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس﴾.

وذلك لأن التمسك بهذه الفضائل. أداء الصلاة وايتاء الزكاة. والوفاء بالعهود، والتذرع بالصبر - يدل على صفاء الإيمان وطهارة الوجدان وحسن الخلق وكمال الاستقامة.

وهكذا تجمع آية واحدة من كتاب الله بين بر العقيدة وبر العمل وبر الخلق، وتربط بين الجميع برباط واحد لا ينفصم، ونضع على هذا كله عنوانًا واحدًا «البر» وتمدح من استجمع أنواعه بالصدق والتقوى.

فلله هذا الاستقراء البديع، وذلك التوجيه السديد، الذى يشهد أن هذا القرآن من عند الله ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا﴾.

وبعد أن بين - سبحانه - أن البر الجامع لألوان الخير يتجلى فى الإيمان بالله واليوم الآخر.. وفى بذل المال فى وجوه الخير، وفى المحافظة على فرائضه - سبحانه - وفى غير ذلك من أنواع الطاعات التى ذكرتها الآية السابقة بعد كل ذلك شرع - سبحانه - فى بيان بعض الأحكام العملية الجليلة التى لا يستغنى عنها الناس فى حياتهم، وبدأ هذه الأحكام بالحديث عن حفظ الدماء لماله من منزلة ذات شأن فى إصلاح العالم - فقال - تعالى - :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ

بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

﴿كتب﴾ من الكتب، وهو فى الأصل ضم أديم إلى أديم بالخياطة. وتعورف فى ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط، وأطلق على المضموم فى اللفظ وإن لم يكتب بالخط، ومنه الكتابة، ويطلق الكتب والكتاب والكتابة على الإيجاب والفرض؛ لأن الشأن فيما وجب ويفرض أن يراد ثم يقال ثم يكتب، ومنه «كتب عليكم الصيام» أى: فرض عليكم.

﴿والقصاص﴾: العقوبة بالمثل من قتل أو جرح. وهو - كما قال القرطبى - مأخوذ من قص الأثر وهو اتباعه ومنه القاص لأنه يتبع الآثار والأخبار وقص الشعر اتباع أثره، فكأن القاتل سلك طريقًا من القتل فقص أثره فيها ومشى على سبيله فى ذلك، ومنه ﴿فارتدا على آثارهما قصصا﴾ وقيل: القص القطع. يقال: قصصت ما بينهما. ومنه أخذ القصاص؛ لأنه يجرحه مثل جرحه أو يقتله به. يقال أقص الحاكم فلانًا من فلان به فأمثله فامتثل منه، أى: اقتص منه»[1]

فمادة القصاص تدل على التساوى والتماثل والتتبع.

والقتلى جمع قتيل، والقتيل من يقتله غيره من الناس.

والمعنى: يأيها الذين آمنوا فرض عليكم وأوجب القصاص بسبب القتلى. بأن تقتلوا القاتل عقوبة له على جريمته مع مراعاة المساواة التى قررها الشارع الحكيم، فلا يجوز لكم أن تقتلوا غير القاتل، كما لا يجوز لكم أن تسرفوا فى القتل بأن تقتلوا القاتل وغيره من أقاربه.

فمعنى القصاص هنا أن يقتل القاتل لأنه فى نظر الشريعة مساو للمقتول فيقتل به. وقد بين العلماء أن القصاص يفرض عند القتل الواقع على وجه التعمد والتعدى، وعند مطالبة أولياء القتيل بالقود - أى القصاص - من القاتل.

(١) تفسير القرطبى جـ ٢ ص ٢٤٥ طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٧٣ هـ.

ولفظ «فى» فى قوله - تعالى - : ﴿فى القتلى﴾ للسببية، أى : فرض عليكم القصاص بسبب القتلى. كما فى قوله ﷺ «دخلت امرأة النار فى هرة» أى بسببها.

وصدرت الآية بخطاب ﴿الذين آمنوا﴾، تقوية لداعية إنفاذ حكم القصاص الذى شرعه الخبير بنفوس خلقه، لأن من شأن الإيمان الصادق أن يحمل صاحبه على تنفيذ شريعة الله التى شرعها لإقامة الأمان والاطمئنان بين الناس، ولسد أبواب الفتن التى تحل عرا الألفة والمودة بينهم.

وقد وجه - سبحانه - الخطاب إلى المؤمنين كافة مع أن تنفيذ الحدود من حق الحاكم لإشعارهم بأن عليهم جانبًا من التبعة إذا أهمل الحكام تنفيذ هذه العقوبات التى شرعها الله.

وإذا لم يقيموها بالطريقة التى بينتها شريعته، ولإشعارهم كذلك بأنهم مطالبون بعمل ما يساعد الحكام على تنفيذ الحدود بالعدل. وذلك بتسليم الجانى إلى المكلفين بحفظ الأمن، وأداء الشهادة عليه بالحق والعدل، وغير ذلك من وجوه المساعدة.

وقوله - تعالى - : ﴿الحر بالحر والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى﴾ بيان لمعنى المساواة فى القتل المشار إليها بلفظ القصاص فالجملة تتمة لمعنى الجملة السابقة، ومفادها أنه لا يقتل فى مقابل المقتول سوى قاتله، لأن قتل غير الجانى ليس بقصاص بل هو اعتداء يؤدى إلى فتنة فى الأرض وفساد كبير.

وقد يفهم من مقابلة ﴿الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى﴾ أنه لا يقتل صنف بصنف آخر، وهذا الفهم غير مراد على إطلاقه، فقد جرى العمل منذ عهد رسول الله ﷺ على قتل الرجل بالمرأة.

قال القرطبى : «أجمع العلماء على قتل الرجل بالمرأة، والمرأة بالرجل»[1].

والخلاف فى قتل الحر بالعبد. فبعض العلماء يرى قتل الحر بالعبد، وبعضهم لا يرى ذلك، ولكل فريق أدلته التى يمكن الرجوع إليها فى كتب الفقه.

والغرض الذى سيقت من أجله الآية الكريمة، إنما هو وجوب تنفيذ القصاص بالعدل والمساواة وإبطال ما كان شائعا فى الجاهلية من أن القبيلة القوية كانت إذا قتلت منها القبيلة الضعيفة شخصا لا ترضى حتى تقتل فى مقابلة من الضعيفة أشخاصًا. وإذا قتلت منها عبدًا تقتل فى مقابله حرًا أو أحرارًا، وإذا قتلت منها أنثى قتلت فى نظيرها رجلا أو أكثر. فيترتب على

---

(١) تفسير القرطبى جـ٢ ص ٢٤٨.

ذلك ان ينتشر القتل، ويشيع الفساد، وقد حكى لنا التاريخ كثيرًا مما فعله الجاهليون فى هذا الشأن.

قال الإمام البيضاوى عند تفسيره لهذه الآية : كان فى الجاهلية بين حيين من أحياء العرب دماء وكان لأحدهما طول على الآخر فأقسموا لنقتلن الحر منكم بالعبد، والذكر بالأنثى، فلما جاء الإسلام تحاكموا إلى رسول الله - ﷺ فنزلت هذه الآية. وهى لا تدل على أنه لا يقتل الحر بالعبد والذكر بالأنثى، كما لا تدل على عكسه، فإن المفهوم يعتبر حيث لم يظهر للتخصيص غرض سوى اختصاص الحكم»[1].

ثم أورد - سبحانه - بعد إيجابه للقصاص العادل - حكمًا يفتح باب التراضى، بين القاتل وأولياء المقتول، بأن أباح لهم أن يسقطوا عنه القصاص إذا شاؤوا ويأخذوا فى مقابل ذلك الدية، فقال - تعالى - : ﴿فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان﴾.

عُفِى : من العفو وهو الإسقاط. والعفو عن المعصية، ترك العقاب عليها. والذى عفى له هو القاتل، و ﴿أخيه﴾ الذى عفا هو ولى المقتول. والمراد بلفظ ﴿شيء﴾ القصاص، وهو نائب فاعل ﴿عفى﴾.

والمعنى : أن القاتل عمدًا إذا أسقط عنه أخوه ولى دم القتيل القصاص، راضيا أن يأخذ منه الدية بدل القصاص، فمن الواجب على ولى الدم أن يتبع طريق العدل فى أخذ الدية من القاتل بحيث لا يطالبه بأكثر من حقه، ومن الواجب كذلك على القاتل أن يدفع له الدية بالطريق الحسنى، بحيث لا يماطله ولا يبخسه حقه.

فقوله - تعالى - : ﴿فاتباع بالمعروف﴾ وصية منه - سبحانه - لولى الدم أن يكون رفيقًا فى مطالبته القاتل بدفع الدية.

وقوله : ﴿وأداء إليه بإحسان﴾ وصية منه - سبحانه - للقاتل بأن يدفع الدية لولى الدم بدون تسويف أو مماطلة.

وفى هذه الوصايا تحقيق لصفاء القلوب، وشفاء لما فى الصدور من آلام، وتقوية لروابط الأخوة الإنسانية بين البشر.

وبعضهم فسر العفو بالعطاء فيكون المعنى : فمن اعطى له وهو ولى المقتول من أخيه وهو القاتل شيئًا وهو الدية، فعلى ولى المقتول اتباعه بالمعروف، وعلى القاتل أداء إليه بإحسان.

وسمى القرآن الكريم القاتل أخا لولى المقتول، تذكيرًا بالأخوة الإنسانية والدينية، حتى يهز

---

(١) تفسير البيضاوى ص ٣٦.

عطف كل واحد منهما إلى الآخر، فيقع بينهم العفو، والاتباع بالمعروف، والأداء بإحسان.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: عفى يتعدى بعن لا باللام فما وجه قوله ﴿فمن عفى له﴾؟ قلت: يتعدى بعن إلى الجانى وإلى الذنب فيقال: عفوت عن فلان وعن ذنبه. قال - تعالى -: ﴿عفا الله عنك﴾ وقال: ﴿عفا الله عنها﴾. فإذا تعدى إلى الذنب والجانى معًا قيل: عفوت لفلان عما جنى، كما تقول: غفرت له ذنبه وتجاوزت له عنه. وعلى هذا ما فى الآية، كأنه قيل: فمن عفى عن جنايته فاستغنى عن ذكر الجناية(١).

وجاء التعبير بلفظ شىء منكرًا لإفادة التقليل. أى: فمن عفى له من أخيه ما يسمى شيئًا من العفو والتجاوز ولو أقل قليل، تم العفو وسقط القصاص، ولم تجب إلا الدية، وذلك بأن يعفو بعض أولياء الدم، لأن القصاص لا يتجزأ.

وفى ذلك تحبيب من الشارع الحكيم لولى الدم، فى العفو وفى قبول الدية، إذ العفو أقرب إلى صفاء القلوب، وتجميع النفوس على الإخاء والتعاطف والتسامح. وفيه - أيضا - إبطال لما كان عليه أهل الجاهلية من التعيير من قبول أخذ الصلح فى قتل العمد، وعدهم ذلك لونًا من بيع دم المقتول بثمن بخس. قال بعضهم يحرض قومه على الثأر.

فلا تأخذوا عَقْلاً من القوم إننى ... أرى العار يبقى والمعاقل تذهب

وقال شاعر آخر يَذْكُر قومًا لم يقبلوا الصلح عن قتيل لهم:

فلو أن حيا يقبل المال فدية ... لسقنا لهم سيبًا من المال مفعمًا

ولكن أبى قوم أصيب أخوهم ... رضا العار فاختاروا على اللبن الدما

ثم بين - سبحانه - أنه يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر فقال: ﴿ذلك تخفيف من ربكم ورحمة﴾.

أى: ذلك الذى شرعناه لكم من تيسير أمر القصاص بأداء الدية إلى ولى القتيل إذا رضى طائعًا مختارًا، أردنا منه التخفيف عليكم إذ فى الدية تخفيف على القاتل بإبقاء حياته وإنقاذها من القتل قصاصًا، وفيها كذلك نفع لولى القتيل، إذ هذا المال الذى أخذه نظير عفوه يستطيع أن ينتفع به فى كثير من مطالب حياته.

وبهذا نرى أن الإسلام قد جمع فى تشريعه الحكيم لعقوبة القتل بين العدل والرحمة. إذ جعل القصاص حقًا لأولياء المقتول إذا طالبوا به لا ينازعهم فى ذلك منازع وهذا عين الإنصاف والعدل.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٢٢.

وجعل الدية عوضًا عن القصاص إذا رضوا بها باختيارهم، وهذا عين الرحمة واليسر. وبالعدالة والرحمة تسعد الأمم وتطمئن فى حياتها؛ إذ العدالة هى التى تكسر شره النفوس، وتغسل غل الصدور، وتردع الجانى عن التمادى فى الاعتداء، لأنه يعلم علم اليقين أن من وراء الاعتداء قصاصا عادلا.

والرحمة هى التى تفتح الطريق أمام القلوب لكى تلتئم بعد التصدع وتتلاقى بعد التفرق، وتتوادد بعد التعادى، وتتسامى عن الانتقام إلى ما هو أعلى منه وهو العفو. فلله هذا التشريع الحكيم الذى ما أحوج العالم إلى الأخذ به، والتمسك بتوجيهاته.

ثم ختم - سبحانه - الآية بالوعيد الشديد لمن يتعدى حدوده، ويتجاوز تشريعه الحكيم فقال: ﴿فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم﴾.

أى: فمن تجاوز حدوده بعد هذا التشريع الحكيم الذى شرعناه بأن قتل القاتل بعد قبول الدية منه، أو بأن قتل غير من يستحق القتل فله عذاب شديد الألم؛ من الله - تعالى - لأن الاعتداء بعد التراضى والقبول يدل على نكث العهد، ورقه الدين، وانحطاط الخلق.

ثم بين - سبحانه - الحكمة فى مشروعية القصاص توطينًا للنفوس على الانقياد له، وتقوية لعزم الحكام على إقامته فقال - تعالى -: ﴿ولكم فى القصاص حياة﴾ أى: ولكم فى مشروعية القصاص حياة عظيمة، فالتنوين للتعظيم.

قال صاحب الكشاف، وذلك أنهم كانوا يقتلون الجماعة بالواحد، وكم قتل مهلهل بأخيه كليب حتى كاد يفنى قبيلة بكر بن وائل. وكان يقتل بالمقتول غير قاتله فتثور الفتنة ويقع بينهم التناحر فلما جاء الإسلام بشرع القصاص كانت فيه حياة أى حياة، أو نوع من الحياة وهى الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل لوقوع العلم بالاقتصاص من القاتل، لأنه إذا هم بالقتل فعلم أنه يقتص منه ارتدع فسلم صاحبه من القتل وسلم هو من القود فكان القصاص سبب حياة نفسين[1].

هذا وقد نقل عن العرب ما يدل على أنهم تحدثوا عن حكمة القصاص ومن أقوالهم فى هذا الشأن: «قتل البعض إحياء للجميع، وأكثروا القتل ليقل القتل» وأجمعوا على أن أبلغ الأقوال التى عبروا بها عن هذا المعنى قولهم «القتل أنفى للقتل» وقد أجمع أولو العلم على أن قوله - تعالى -: ﴿ولكم فى القصاص حياة﴾ أبلغ من هذه العبارة التى نطق بها حكماء العرب، بمقدار ما بين كلام الخالق وكلام المخلوق، وذكروا أن الآية تفوق ما نطق به حكماء العرب من وجوه كثيرة من أهمها:

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٢٢٣.

١ - أن الآية جعلت سبب الحياة القصاص وهو القتل على وجه التساوى، أما العبارة العربية فقد جعلت سبب الحياة القتل، ومن القتل مايكون ظلمًا، فيكون سببا للفناء لا للحياة، وتصحيح هذه العبارة أن يقال: القتل قصاصًا أنفى للقتل ظلما.

٢ - أن الآية جاءت خالية من التكرار اللفظى، فعبرت عن القتل الذى هو سبب الحياة بالقصاص. والعبارة كرر فيها لفظ القتل فمسها بهذا التكرار من الثقل ما سلمت منه الآية.

٣ - أن الآية جعلت القصاص سببًا للحياة التى تتوجه إليها الرغبة مباشرة، والعبارة العربية جعلت القتل سببًا لنفى القتل الذى تترتب عليه الحياة.

٤ - الآية مبنية على الإثبات والمثل على النفى، والإثبات أشرف لأنه أول والنفى ثان له.

٥ - أن تنكير حياة فى الآية يفيد تعظيمًا، فيدل على أن فى القصاص حياة متطاولة كما فى قوله - تعالى - : ﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة﴾ ولا كذلك المثل. فإن اللام فيه للجنس، ولذا فسروا الحياة فيها بالبقاء.

٦ - تعريف ﴿القصاص﴾ بلام الجنس الدالة على حقيقة هذا الحكم المشتملة على الضرب والجرح والقتل - وغير ذلك، والمثل لا يشمل ذلك.

٧ - أن الآية مع أفضليتها عن المثل من حيث البلاغة والشمول واللفظ والمعنى أقل حروفًا من المثل.

هذه بعض وجوه أفضلية الآية على المثل، وهناك وجوه أخرى ذكرها العلماء فى كتبهم[1].

وفى قوله: ﴿يا أولى الألباب﴾ تنبيه بحرف النداء على التأمل فى حكمة القصاص.

﴿والألباب﴾: جمع لب وهو العقل الخالص من شوائب الأوهام، أو العقل الذكى الذى يستبين الحقائق بسرعة وفطنة، ويستخرج لطائف المعانى من مكانها ببراعة وحسن تصرف.

وخص النداء بأولى الألباب مع أن الخطاب بحكمة القصاص شامل لهم ولغيرهم لأنهم الذين يتدبرون عواقب الأمور، ويعرفون قيمة الحياة ويقدرون حكم التشريع قدرها.

وفى هذا النداء تنبيه على أن من ينكرون مصلحة القصاص وأثره النافع فى تثبيت دعائم الأمن، يعيشون بين الناس بعقول غير سليمة، ولا يزال الناس يشاهدون فى كل عصر ما يثيره القتل فى صدور أولياء القتلى من أحقاد طاغية، لولا أن القصاص يخفف من سطوتها لتمادت بهم فى تقاطع وسفك دماء دون الوقوف عند حد.

---

(١) راجع تفسير الألوسى جـ٢ ص ٥١.

وختمت الآية بهذه الجملة التعليلية ﴿لعلكم تتقون﴾ زيادة فى إقناع نفوسهم بأمر القصاص، أى: شرعنا لكم هذه الأحكام الحكيمة لتتقوا القتل حذرًا من القصاص، ولتعيشوا آمنين مطمئنين، ومتوادين متحابين.

وبهذا البيان الحكيم تكون الآيتان الكريمتان قد أرشدتا إلى ما يحمى النفوس، ويحقن الدماء، ويردع المعتدين عن الاعتداء، ويغرس بين الناس معانى التسامح والإخاء، ويقيم حياتهم على أساس من الرحمة والعدالة وحسن القضاء.

وبعد أن بين - سبحانه - ما يتعلق بالقصاص أتبعه بالحديث عن الوصية، ليرشد الناس إلى ما ينبغى أن تكون عليه، وليبطل ما كان من عوائد الجاهلية من وصايا جائرة فقال - تعالى - :

كُتِبَ عَلَيْكُمْ
إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ
وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ
بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾
فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ
عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

وقوله - تعالى - : ﴿كتب عليكم﴾ قد استفاض فى عرف الشرع بمعنى وجب عليكم.

و «حضور الموت» يقع عند معاينة الإنسان للموت ولعجزه فى هذا الوقت عن الإيصاء فسر بحضور أسبابه، وظهور أماراته، من نحو العلل المخوفة والهرم البالغ. وقد شاع عند العرب استعمال السبب كناية عن المسبب، ومن ذلك قول شاعرهم:

يـأيها الـراكب المزجى مـطيته ... سائل بنى أسد ما هذه الصوت[1]
وقل لهم بادروا بالعذر والتمسوا ... قـولا يبـرئكم إنى أنـا المـوت

(١) الصوت مذكر، وقد أنثه الشاعر هنا لأنه أراد به الضوضاء والجلبة على معنى الصيحة - كما أفاده المعلق على القرطبى نقلا عن لسان العرب.

والخير: المال، وقالوا إنه هنا مختص بالمال الكثير، لأن مقام الوصية يشعر بذلك، ولم يرد نص من الشارع فى تقدير ما يسمى مالا كثيرًا، وإنما وردت آثار من بعض الصحابة والتابعين فى تقديره بحسب اجتهادهم، وبالنظر إلى ما يسمى بحسب العرف مالا كثيرًا فقال بعضهم: من ألف درهم إلى خمسمائة درهم، وقال بعضهم: من ألف درهم إلى ثمانمائة درهم. والحق أن هذا التقدير يختلف باختلاف الأشخاص والأزمان والعرف.

ويرى بعض العلماء أن الوصية مشروعة فى المال قليلة وكثيرة.

قال القرطبى: والوصية عبارة عن كل شيء يؤمر بفعله ويعهد به فى الحياة وبعد الموت، وخصها العرف بما يعهد بفعله وتنفيذه بعد الموت والجمع وصايا كالقضايا جمع قضية. والوصى يكون الموصى والموصى إليه. وأصله من وصى مخففًا. وتواصى النبت تواصيًا إذا اتصل وأرض واصية: متصلة النبات. وأوصيت له بشيء. وأوصيت إليه إذا جعلته وصيك. والاسم الوصاية والوصاية - بالفتح وبالكسر- وتواصى القوم: أوصى بعضهم بعضًا[1].

والمعنى: كتب عليكم أيها المؤمنون أنه إذا ظهرت على أحدكم أمارات الموت: من مرض ثقيل، أو شيخوخة مضعفة، وكان عنده مال كثير قد جمعه عن طريق حلال، أن يوصى بجانب منه لوالديه وأقاربه رعاية لحقهم وحاجتهم، وأن تكون وصيته لهم بالعدل الذى لا مضارة فيه بين الأقارب، والوصية على هذا الوجه تعتبر حقاً واجبًا على المتقين الذين اتخذوا التقوى والخشية من الله طريقًا لهم.

فالآية الكريمة استئناف لبيان الوصية بعد الحديث عن القصاص، وفصل القرآن الحديث عن الوصية عن سابقه للإشعار بأنه حكم مستقل جدير بالأهمية.

وقد جاء الحديث عن الوصية بتلك الطريقة الحكيمة، لتغيير ما كان من عادات بعض أهل الجاهلية، فإنهم كانوا كثيراً مانعون القريب من الإرث توهما منهم أنه يتمنى موت قريبة ليرثه، وربما فضلوا بعض الأقارب على بعض فيؤدى ذلك إلى التباغض والتحاسد، وربما فضلوا - أيضاً - الوصية لغير الأقارب للفخر والتباهى، فشرع الإسلام لأتباعه ما يقوى الروابط ويمنع التحاسد والتعادى.

قال الجمل: وكتب فعل ماض مبنى للمجهول، وحذف الفاعل للعلم به وهو الله - تعالى - وفى القائم مقام الفاعل ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون الوصية، أى: كتب عليكم الوصية، وجاز تذكير الفعل لكون القائم

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٢ ص ٢٥٩.

مقام الفاعل مؤنثًا مجازيًا ولوجود الفصل بينه وبين مرفوعه.

والثانى: أنه الإيصاء المدلول عليه بقوله: «الوصية» للوالدين، أى: كتب هو، أى الإيصاء.

والثالث: أنه الجار والمجرور. وهذا يتجه على رأى الأخفش والكوفيين وعليه فيكون قوله: ﴿عليكم﴾ فى محل رفع، ويكون فى محل النصب على القولين الأولين وجواب كل من ﴿إذا﴾ و ﴿إن﴾ محذوف. أى: كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرًا فليوص[1].

والباء فى قوله: ﴿بالمعروف﴾ للملابسة، والجار والمجرور فى موضع الحال من الوصية.

والمراد بالمعروف هنا العدل الذى جاءت به الشريعة، بأن لا يتجاوز بالوصية الثلث، وأن لا يوصى للاغنياء ويترك الفقراء أو يوصى للقريب ويترك الأقرب مع أنه أشد فقرًا ومسكنة.

وقوله: ﴿حقا﴾ مصدر مؤكد للحدث الذى دل عليه ﴿كتب﴾ وعامله إما ﴿كتب﴾ أو فعل محذوف تقديره حق أى: حق ذلك حقًا.

وقوله: ﴿على المتقين﴾ صفة له. أى حقاً كائنًا على المتقين.

وخص هذا الحق بالمتقين ترغيبًا فى الرضا به، لأن ما كان من شأن المتقى فهو أمر نفيس جدير أن يتأسى به الناس، ومن أهمله فقد حرم من الدخول فى زمرتهم، وخسر بذلك خسارة عظيمة.

قال بعض العلماء: وقد وردت هذه الآية فى الوصية للوالدين والأقربين، والمعروف عند الأمة منذ عهد السلف أن الوصية لا تصح لوارث، والوالدان لهما نصيب مفروض فى المواريث ومقتضاه عدم صحة الوصية لهما؟

ويزيح هذا الاشكال من طريق التفسير أن فريقًا من أهل العلم وهم جمهور المفسرين ذهبوا إلى أن الآية قد نسخ منها حكم الوصية للوارث. وإيضاح وجه النسخ أن آية المواريث نزلت بعد آية الوصية فقامت مقامها فى الوصية للوارث ودل على هذا المعنى صراحة الحديث الشريف وهو قوله ﷺ: «إن الله أعطى كل ذى حق حقه، ألا لا وصية لوارث».

وهذا الحديث وإن لم يبلغ مبلغ الحديث المتواتر الذى يصح نسخه للقرآن بنفسه، فقد امتاز عن بقية أخبار الآحاد بأن الأمة تلقته بالقبول، وأخذوا فى العمل به من غير مخالف، فأخذ بهذا قوة الحديث المتواتر فى الرواية واعتمدوا عليه فى بيان أن آية المواريث قامت بتقدير الأنصباء فى الميراث مقام آية ﴿إذا حضر أحدكم الموت﴾ فى الوصية للوارث. وروى البخارى فى صحيحه

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ١٤٤.

عن ابن عباس - رضى الله عنه - قال : كان المال للولد وكانت الوصية للوالدين، فنسخ الله من ذلك ما أحب، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس، وجعل للمرأة الثمن والربع، وللزوج الشطر والربع.

ومن أهل العلم من لم يستطيعوا أن يهملوا حديث «لا وصية لوارث» لاستفاضته بين الأمة وتلقيهم له بالقبول، فقرروا العمل به وأبطلوا الوصية لوارث ولكنهم ذهبوا مع هذا إلى أن آية الوصية للوالدين محكمة غير منسوخة وتأولوها على وجوه منها أن المراد من قوله : ﴿للوالدين﴾ الوالدان اللذان لا يرثان لمانع من الإرث كالكفر والاسترقاق، وقد كانوا حديثى عهد بالإسلام يسلم الرجل ولا يسلم أبواه وقد أوصى الله بالإحسان إليهما»[1].

ثم توعد - سبحانه - من يبدل الوصية بطريقة لم يأذن بها الله فقال - تعالى - : ﴿فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه﴾.

بدله : غيره. وتغيير الوصية يتأتى بالزيادة فى الموصى به أو النقص منه أو كتمانه، أو غير ذلك من وجوه التغيير للموصى به بعد وفاة الموصى.

سمعه : أى علمه وتحققه، وكنى بالسماع عن العلم لأنه طريق حصوله. والضمائر البارزة فى «بدله وسمعه وإثمه ويبدلونه» عائدة على القول أو على الكلام الذى يقوله الموصى والذى دل عليه لفظ الوصية أو على الإيصاء المفهوم من الوصية، وهو الإيصاء أو القول الواقع على الوجه الذى شرعه الله.

والمعنى : فمن غير الإيصاء الذى أوصى به المتوفى عن وجهه، بعدما علمه وتحققه منه، فإنما إثم ذلك التغيير فى الإيصاء يقع على عاتق هذا المبدل، لأنه بهذا التبديل قد خان الأمانة، وخالف شريعة الله، ولن يلحق الموصى شيئًا من الإثم لأنه قد أدى ما عليه بفعله للوصية كما يريدها الله - تعالى -.

وقد ختمت الآية بقوله - تعالى - : ﴿إن الله سميع عليم﴾ للإشعار بالوعيد الشديد الذى توعد الله به كل من غير وبدل هذا الحق عن وجهه، لأن الله - تعالى - لا يخفى عليه شىء من حيل الناس الباطلة، فهو- سبحانه سميع لوصية الموصى، عليم بما يقع فيها من تبديل وتحريف.

ثم استثنى - سبحانه - حالة يجوز فيها التغيير فقال، «فمن خاف من موص جنفًا أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه».

---

(١) تفسير القرآن الكريم لفضيلة استاذنا المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين. مجلة لواء الإسلام السنة الرابعة : العدد العاشر.

خاف : من الخوف، وهو فى الأصل حالة تعترى النفس عند الانقباض من شر يتوقع حصوله على سبيل الظن أو على سبيل العلم.

والجنف : الميل والجور. يقال : جنف فى وصيته وأجنف، مال وجار، فهو جنف وأجنف. وقيل : أجنف مختص بالوصية وجنف فى مطلق الميل عن الحق. ويقال : جنف وجنف عن طريقه جنفًا وجنوفًا.

والإثم : العمل الذى يبغضه الله. يقال : أثم فهو آثم وأثيم.

قال بعضهم : والمراد بالجنف هنا : الميل عن الحق فى الوصية خطأ، بقرينة مقابلته بالإثم وهو الميل عن الحق فيها عمدًا.

هذا، ويرى جمهور العلماء أن هذه الآية الكريمة واردة فى الوصى يرى أن الموصِى قد حاد فى وصيته عن حدود العدل، فللوصى حينئذ أن يصلح فيها بحيث يجعلها متفقة مع ماشرعه الله، وهو فى هذه الحالة لا إثم عليه لأنه قد غير الباطل بالحق وعلى هذا الرأى يكون المعنى : أن الوصى إذا رأى فى الوصية ميلا عن الحق خطأ أو عمدًا وأصلح بين الموصَى لهم يردهم إلى الوجه المشروع فلا إثم عليه فى التغيير فى الوصية. والضمير فى قوله : ﴿بينهم﴾ عائد على الموصَى لهم.

ويرى آخرون أن هذه الآية واردة فى شأن كل من يبغى الإصلاح من الناس، بأن يرى الموصِى يوصِى، فظهر له - أى هذا المصلح - أن الموصِى قد جانب العدل والصواب فى وصيته، فيأخذ فى الإصلاح، بأن يرشده بأن فعله هذا لا يتفق مع شريعة العدل التى أمر بها الله، ويحاول قدر استطاعته أن يزيل ما حدث من خلاف بين الموصِى والموصَى لهم.

وعلى هذا الرأى يكون المعنى : إن خرج الموصِى فى وصيته عن حدود العدالة، ورأى أمارات ذلك منه من يريد الإصلاح من الناس، وتوقع أن شرًا سيترتب على هذه الوصية التى فيها جور، أو شاهد نزاعًا بين الموصى لهم بسبب ذلك، فلا إثم على هذا المصلح فى أن يصلح بين الموصِى والموصَى لهم، وأن يرشد الموصى إلى سلوك طريق العدل والحق. وعليه فيكون الضمير فى قوله : ﴿بينهم﴾ يعود على الموصى والموصَى لهم.

ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب، لأن سياق الآية يؤيده، إذ هى بمنزلة الاستثناء من قوله - تعالى - : ﴿فمن بدله بعد ماسمعه﴾.. وهذا إنما يكون بعد موت الموصِى لا فى حياته.

وقوله : ﴿إن الله غفور رحيم﴾ تذييل أتى به - سبحانه - للوعد بالثواب للمصلح على إصلاحه، فإن من يغفر الذنوب ويرحم المذنبين تكون مغفرته ورحمته أقرب إلى من يقصد بعمله الإصلاح ولو اعتمد على ظن غالب أو أخطأ وجه الصواب فيما أتى من أعمال.

وبهذا تكون الآيات الكريمة قد بينت للناس حكما آخر من أحكامها السامية، يتعلق بالوصية فى الأموال، وفى هذا الحكم دعوة إلى التراحم والتكافل، وغرس لأواصر المودة والمحبة بين الأبناء والآباء وبين الأقارب بعضهم مع بعض.

وبعد أن تحدثت السورة الكريمة عن القصاص وعن الوصية أتبعتها بالحديث عن عبادة عظيمة من العبادات التى جعلها الله - تعالى - ركنًا من أركان الإسلام وهى صوم رمضان، فقال - سبحانه - :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

الصيام مصدر صام كالقيام مصدر قام، وهو فى اللغة : الإمساك وترك التنقل من حال إلى حال، فيقال للصمت صوم لأنه إمساك عن الكلام ومنه قوله - تعالى - مخبرًا عن مريم : ﴿إنى

نذرت للرحمن صومًا﴾ أى: سكوتًا عن الكلام. وصوم الريح ركودها وإمساكها عن الهبوب. وتقول العرب: صام النهار وصامت الشمس عند قيام الظهيرة لأنها كالممسكة عن الحركة.

أما الصيام فى عرف الشرع فهو - كما يقول الآلوسى - إمساك عن أشياء مخصوصة على وجه مخصوص فى زمان مخصوص ممن هو على صفات مخصوصة.

وقد فرض الله - تعالى - على المسلمين صيام شهر رمضان فى شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة، وعده النبى ﷺ أحد أركان الإسلام الخمسة، فقد روى البخارى - بسنده - عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان.

وأل فى الصيام للعهد الذهنى، فقد كان العرب يعرفون الصوم، فقد جاء فى الصحيحين عن عائشة قالت: كان يوم عاشوراء يومًا تصومه قريش والجاهلية».

والتشبيه فى قوله - تعالى -: ﴿كما كتب على الذين من قبلكم﴾ راجع إلى أصل إيجاب الصوم وفريضته. أى: أن عبادة الصوم كانت مكتوبة ومفروضة على الأمم السابقة، ولكن بكيفية لا يعلمها إلا الله، إذ لم يرد نص صحيح عن رسول الله ﷺ يبين لنا فيه كيف كان صيام الأمم السابقة على الأمة الإسلامية.

وقيل إن التشبيه راجع إلى وقت الصوم وقدره، فقد روى عن مجاهد أنه قال: كتب الله - عز وجل - صوم شهر رمضان على كل أمة.

وهذا القول ليس له دليل، ولذا قال القاضى أبو بكر بن العربى: المقطوع به أن التشبيه فى الفرضية خاصة، وسائر الوجوه مجرد احتمال.

ولفظ «كما» فى قوله - تعالى -: ﴿كما كتب على الذين من قبلكم﴾ فى موضع نصب على المصدر، أى: فرض عليكم الصيام فرضًا كالذى فرض على الذين من قبلكم.

ومن فوائد هذا التشبيه، الاهتمام بهذه العبادة والتنويه بشأنها إذ شرعها - سبحانه - لأتباع النبى ﷺ ولأتباع الرسل الذين سبقوه فى الدعوة إلى توحيد الله، وهذا مما يقتضى وفرة ثوابها، ودوام صلاحها.

كذلك من فوائده تسهيل هذه العبادة على المسلمين؛ لأن الشىء الشاق تخف مشقته على الإنسان عند ما يعلم أن غيره قد أداه من قبله.

والفائدة الثالثة من هذا التشبيه إثارة العزائم والهمم للنهوض بهذه العبادة، حتى لا يكونوا

مقصرين فى أدائها، بل يجب عليهم أن يؤدوها بقوة تفوق من سبقهم لأن الأمة الإسلامية قد وصفها سبحانه بأنها خير أمة أخرجت للناس وهذه الخيرية تقتضى منهم النشاط فيما كلفهم الله بأدائه من عبادات.

وقوله: ﴿لعلكم تتقون﴾ جملة تعليلية جىء بها لبيان حكمة مشروعية الصيام فكأنه - سبحانه - يقول لعباده المؤمنين: فرضنا عليكم الصيام كما فرضناه على الذين من قبلكم، لعلكم بأدائكم لهذه الفريضة تنالون درجة التقوى والخشية من الله، وبذلك تكونون ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه. ولا شك أن هذه الفريضة ترتفع بصاحبها إلى أعلى عليين متى أداها بآدابها وشروطها، ويكفى أن الرسول ﷺ قد قال فى شأن الصوم: «الصوم جنة»[1] أى: وقاية. إذ فى الصوم وقاية من الوقوع فى المعاصى، ووقاية من عذاب الآخرة، ووقاية من العلل والأمراض الناشئة عن الإفراط فى تناول بعض الأطعمة والأشربة.

وقوله: ﴿أيامًا معدودات﴾ أى: معينات بالعد أو قليلات، لأن القليل يسهل عده فيعد والكثير يؤخذ جزافًا.

والمراد بهذه الأيام المعدودات شهر رمضان عند جمهور العلماء.

قالوا: وتقريره أنه - تعالى - قال أولا ﴿كتب عليكم الصيام﴾ وهذا محتمل ليوم ويومين ثم بينه بقوله ﴿أيامًا معدودات﴾ فزال بعض الاحتمال ثم بينه بقوله: ﴿شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن﴾ فعلى هذا الترتيب يمكن جعل الأيام المعدودات بعينها شهر رمضان، وإذا أمكن ذلك فلا وجه لحمله على غيره[2].

وإنما عبر عن رمضان بأيام وهى جمع قلة ووصف بمعدودات وهى جمع قلة - أيضًا - تهوينا لأمره على المكلفين، وإشعارًا لهم بأن الله - تعالى - ما فرض عليهم إلا ما هو فى وسعهم وقدرتهم.

وقيل: إن المراد بالأيام المعدودات غير رمضان، وذكروا أن المراد بها ثلاثة أيام من كل شهر وهى الأيام البيض الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر مضافًا إليها يوم عاشوراء. ثم نسخ ذلك بوجوب صوم شهر رمضان.

والمعتمد بين المحققين من العلماء هو القول الأول، لأنه - كما قال الإمام الرازى - لا وجه لحمله على غيره، والقول بالنسخ زيادة لا دليل عليها.

---

(١) قطعة من حديث رواه البخارى فى كتاب الصوم جـ ٣ ص ٣١.
(٢) تفسير الرازى جـ ٥ ص ٧٨.

وقوله : ﴿أيامًا﴾ منصوب على الظرفية، أو بفعل مضمر مقدر أى : صوموا أيامًا. وقوله : ﴿فمن كان منكم مريضًا أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾ زيادة بيان ليسر شريعة الإسلام بعد أن أخبرهم - سبحانه - بأن الصوم المفروض عليهم إنما هو أيام معدودات، وتعجيل بتطمين نفوس السامعين لئلا يظنوا وجوب الصوم عليهم فى كل حال.

والمرض : الخروج عن الاعتدال الخاص بالإنسان، بأن يصاب بانحراف فى جسده يجعله فى حالة وجع أو اضطراب بدنى.

قال القرطبى : وللمريض حالتان :

إحداهما : ألا يطيق الصوم بحال فعليه الفطر واجبًا.

الثانية : أن يقدر على الصوم بضرر ومشقة فهذا يستحب له الفطر. فالفطر مباح فى كل مرض إلا المرض اليسير الذى لا كلفة معه فى الصيام(١).

وقوله : ﴿أو على سفر﴾ قال الآلوسى معناه : أو راكب سفر مستعل عليه متمكن منه، بأن اشتغل به قبل الفجر، ففيه إيماء إلى أن من سافر فى أثناء اليوم لم يفطر. واستدل بإطلاق السفر على أن السفر القصير وسفر المعصية مرخص للإفطار. وأكثر العلماء على تقييده بالمباح وبما يلزمه العسر غالبًا وهو السفر إلى المسافة المقدرة فى الشرع»(٢).

والعدة فعلة من العد، وهى بمعنى المعدود، كالطحن بمعنى المطحون ومنه عدة المرأة.

والمعنى : لقد فرضنا عليكم الصوم أيها المؤمنون، وجعلناه كما هو الشأن فى كل ما شرعناه متسمًا باليسر لا بالعسر، ومن مظاهر ذلك أننا فرضنا عليكم صوم أيام معدودات وهى أيام شهر رمضان، ولم نفرض عليكم صوم الدهر. وأننا شرعنا لمن كان مريضًا مرضا يضره الصوم أو يعسر معه، أو كان على سفر يشق عليه معه الصوم، شرعنا له أن يفطر وأن يصوم بدل الأيام التى أفطرها أياما آخر مساوية لها فى العدد.

قال الإمام الرازى : قال القفال : أنظروا إلى عجيب ما نبه الله عليه من سعة فضله ورحمته فى هذا التكليف، إذ أنه بين فى أول الآية أن لهذه الأمة فى هذا التكليف أسوة بالأمم المتقدمة، والغرض منه ماذكرناه من أن الأمور الشاقة إذا عمت خفت. ثم ثانيا بين وجه الحكمة فى إيجاب الصوم وهو أنه سبب لحصول التقوى فلو لم يفرض الصوم لفات هذا المقصود الشريف، ثم بين ثالثا أنه مختص بأيام معدودة فإنه لو جعله أبدًا أو أكثر الأوقات لحصلت المشقة العظيمة. ثم بين

(١) تفسير القرطبى جـ ٢ ص ٢٧٦ بتصرف وتلخيص.
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢ ص ٥٨.

رابعا : أنه خصه من الأوقات بالشهر الذى أنزل فيه القرآن لكونه أشرف الشهور بسبب هذه الفضيلة. ثم بين خامسًا : إزالة المشقة فى إلزامه فأباح تأخيره لمن شق عليه من المسافرين والمرضى إلى أن يصيروا إلى الرفاهية والسكون. فهو - سبحانه - راعى فى ايجاب الصوم هذه الوجوه من الرحمة فله الحمد على نعمه كثيرًا»[1].

هذا، وقد نص الفقهاء على أن الافطار مشروع على سبيل الرخصة للمريض والمسافر، وهما بالخيار فى ذلك إن شاءا أفطرا وإن شاءا صاما، إلا أن أكثر الفقهاء قالوا : الصوم أفضل لمن قوى عليه.

والذى نراه أن الله - تعالى - قد أباح الفطر فى رمضان بسبب المرض أو السفر، لأن كلا منهما مظنة المشقة والحرج. والحكم الشرعى يوجد حيث توجد مظنته وينتفى حيث تنتفى. وعلى المسلم أن يقدر حال نفسه، فإذا أيقن أو غلب على ظنه أن مرضه أو سفره ليس فى الصوم معه مشقة أو عسر صام عملا بقوله - تعالى - : ﴿وأن تصوموا خير لكم﴾. وإذا أيقن أو غلب على ظنه أن مرضه أو سفره يجعل الصوم شاقًا عليه أفطر عملا بقوله - تعالى - : ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ فالمسألة ترجع إلى ضمير الفرد ودينه واستفتاء قلبه.

والثابت عن رسول الله ﷺ أنه صام فى السفر وأفطر، وخير بعض أصحابه بين الصوم والفطر. فقد روى البخارى ومسلم عن أبى الدرداء - رضى الله عنه - قال : خرجنا مع النبى ﷺ «وفى إحدى روايتى مسلم - فى شهر رمضان -، فى يوم حار، حتى ليضع الرجل يده على رأسه من شدة الحر وما فينا صائم إلا ما كان من النبى ﷺ وابن رواحه».

وروى الإمام مسلم فى صحيحه عن قزعة قال : أتيت أبا سعيد الخدرى فسألته عن الصوم فى السفر فقال : سافرنا مع رسول الله ﷺ إلى مكة ونحن صيام، قال : فنزلنا منزلا فقال رسول الله ﷺ إنكم قد دنوتم من عدوكم والفطر أقوى لكم، فكانت رخصة. فمنا من صام ومنا من أفطر. ثم نزلنا منزلا آخر فقال : إنكم مصبحو عدوكم والفطر أقوى لكم فأفطروا. وكانت عزمة فأفطرنا. ثم قال : ولقد رأيتنا نصوم مع رسول الله ﷺ بعد ذلك فى السفر.

وروى الشيخان عن أنس بن مالك قال : كنا نسافر مع النبى ﷺ فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم.

والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة.

وهناك مسألة أخرى تعرض لها الفقهاء بالحديث وهى مسألة قضاء الأيام التى أفطرها

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٨٠.

المريض أو المسافر هل يقضيها متتابعة أو متفرقة وهل يقضيها على الفور أو على التراخى ؟

وجمهور الفقهاء على أن للمفطر فى رمضان بسبب المرض أو السفر أن يقضى ما أفطره متتابعًا أو متفرقًا؛ لأن قوله - تعالى - : ﴿فعدة من أيام أخر﴾ . دل على وجوب القضاء من غير تعيين لزمان، لأن اللفظ - كما قال القرطبى - مسترسل على الأزمان لا يختص ببعضها دون بعض. وله كذلك أن يقضى ما عليه على الفور أو على التراخى على حسب ما يتيسر له. ففى الصحيحين عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : يكون علَىَّ الصوم من رمضان فما أستطيع أن أقضيه إلا فى شعبان، وذلك لمكان رسول الله ﷺ وهذا نص وزيادة بيان للآية».

ويرى داود الظاهرى أن على المفطر فى رمضان بسبب المرض أو السفر أن يشرع فى قضاء ما أفطره فى اليوم الثانى من شوال المعاقب له، وأن يتابع أيام القضاء.

والمعتمد بين العلماء هو قول الجمهور لقوة أدلته التى سبق بيانها.

وقوله - تعالى - : ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ بيان لحكم آخر من أحكام الشريعة فيما يتعلق بصوم رمضان يتجلى فيه تيسير الله على عباده فيما شرع لهم من عبادات.

ومعنى ﴿يطيقونه﴾ يقدرون عليه ويتحملونه بمشقة وتعب، لأن الطاقة اسم للقدرة على الشىء مع الشدة والمشقة، والوسع اسم للقدرة على الشىء على جهة السهولة.

قال الراغب : والطاقة اسم لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقة، وذلك تشبيه بالطوق المحيط بالشىء، ومنه ﴿ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به﴾ أى ما يصعب علينا مزاولته، وليس معناه : «لا تحملنا ما لا قدرة لنا به»(١).

والعرب لا تقول فلان أطاق الشىء إلا إذا كانت قدرته عليه فى نهاية الضعف بحيث يتحمله بمشقة وعسر. فلا يقال - مثلا - فلان يطيق حمل نواة أو ريشة أو عشرة دراهم من حديد، وإنما يقال : هو يطيق حمل قنطارين من الحديد أو حمل الأمتعة الثقيلة.

وللعلماء أقوال فى المراد بقوله - تعالى - : ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ أشهرها :

١ - إن هذا راجع إلى المقيم الصحيح خيره الله - تعالى - بين الصوم وبين الفداء، وكان ذلك فى بدء الإسلام فرض عليهم الصوم ولم يتعودوه فاشتد عليهم، فرخص لهم فى الإفطار والفدية، ثم نسخ ذلك وأوجب الله عليهم الصوم.

ويشهد لهذا القول ما جاء فى الصحيحين عن سلمة بن الأكوع قال : لما نزلت هذه الآية

---

(١) مفردات القرآن ص ٣١٢ للراغب الأصفهانى.

«وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين» كان من أراد أن يفطر ويفتدى، حتى نزلت الآية بعدها فنسختها.

وفى رواية للإمام مسلم من طريق آخر عن سلمة - أيضًا - قال: كنا فى رمضان على عهد رسول الله ﷺ من شاء أفطر فافتدى بطعام مسكين حتى أنزلت هذه الآية ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾.

٢ - ويرى بعض العلماء أن قوله - تعالى -: ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾ إلخ، ليس بمنسوخ بل هو محكم، وأنه نزل فى شأن الشيخ الكبير الهرم، والمرأة العجوز، إذا كانا لا يستطيعان الصيام فعليهما أن يفطرا وأن يطعما عن كل يوم مسكينا.

وأصحاب هذا الرأى يستدلون بما رواه البخارى عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية: ليست بمنسوخة هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فعليها أن يطعما مكان كل يوم مسكينًا».

٣ - وهناك رأى ثالث لبعض العلماء يرى أصحابه أن قوله - تعالى - ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ ليس بمنسوخ - أيضًا - بل هو محكم، وأن معنى الآية عندهم: وعلى الذين يطيقونه، أى: يقدرون على الصيام بمشقة شديدة إذا أرادوا أن يفطروا أن يطعموا عن كل يوم يفطرونه مسكينًا. (بأن يقدموا له نصف صاع من بر أو صاعا من تمر أو شعير، أو قيمة ذلك).

ولم يقصروا ذلك على الرجل الكبير والمرأة العجوز - كما فعل أصحاب الرأى الثانى - وإنما أدخلوا فى حكم الذين يقدرون على الصوم بمشقة وتعب المرضع والحامل إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما ومن فى حكمها ممن يشق عليهم الصوم مشقة كبيرة.

وأصحاب هذا الرأى يستدلون على ما ذهبوا إليه بمنطوق الآية، إذا أن الوسع اسم للقدرة على الشيء على جهة السهولة، والطاقة اسم للقدرة عليه مع الشدة والمشقة - كما سبق أن بينا -، كما يستدلون - أيضًا - على ما ذهبوا إليه بقراءة ﴿يطيقونه﴾ - بضم الياء الأولى وتشديد الياء الثانية - أى يتجشمونه، ويتكلفونه بمشقة وتعب، وقد انتصر بعض العلماء لهذا الرأى بناء على أن منطوق الآية يؤيده.

كما انتصر بعضهم للرأى الأول بناء على أن الاحاديث الصحيحة تسانده وعلى أنه هو الأقرب إلى روح الشريعة الإسلامية فى التدرج فى تشريع التكاليف التى فيها مشقة على الناس، كما انتصر بعضهم للرأى الثانى الذى روى عن ابن عباس.

وهناك أقوال أخرى فى الآية رأينا أن نضرب عنها صفحًا لضعفها.

وقوله : ﴿فمن تطوع خيرًا فهو خير له﴾ حض من الله - تعالى - لعباده على الإكثار من عمل الخير.

والتطوع : السعى فى أن يكون الإنسان فاعلا للطاعة باختياره بدون إكراه والخير : مصدر خار إذا حسن وشرف، وهو منصوب لتضمين تطوع معنى أتى، أو على أنه صفة لمصدر محذوف أى تطوعًا خيرًا.

والمعنى : فمن تطوع خيرًا بأن زاد على القدر المفروض فى الفدية، أو أطعم أكثر من مسكين، أو جمع بين الإطعام والصوم، فتطوعه سيكون خيرًا عند الله - سبحانه - لا يضيع أجر من أحسن عملا.

وقوله : ﴿وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ ترغيب فى الصوم وتحبيب فيه. أى : وأن تصوموا أيها المطيقون للصوم، أو أيها المكلفون جميعًا خير لكم من كل شىء سواه، إن كنتم تعلمون فوائد الصوم فى حياتكم، وحسن جزائه فى آخرتكم.

روى النسائى وابن خزيمة عن أبى أمامه رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله مرنى بعمل قال : عليك بالصوم فإنه لا عدل له - أى لا يعادل ثوابه بشىء - فقلت يارسول الله مرنى بعمل، فقال : عليك بالصوم فإنه لا عدل له. فقلت : يار سول الله مرنى بعمل أدخل به الجنة. فقال : عليك بالصوم فإنه لا مثل له»[١].

وقوله : ﴿شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾ كلام مستأنف لبيان تلك الأيام المعدودات التى كتب علينا الصوم فيها وأنها أيام شهر رمضان الذى يستحق كل مدح وثناء لتشرفه بنزول الكتب السماوية فيه.

قال الإمام ابن كثير: يمدح - تعالى - شهر الصيام من بين سائر الشهور بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم، فقد ورد فى الحديث بأنه الشهر الذى كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء فعن واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال : أنزلت صحف إبراهيم فى أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان[٢].

و ﴿الشهر﴾ مأخوذ من الشهرة، يقال : شهر الشىء يشهر شهرة وشهرًا إذا ظهر بحيث لا يتعذر علمه على أحد، ومنه يقال : شهرت السيف إذا سللته قال بعضهم : وسمى الهلال

---

(١) الترغيب والترهيب للمنذرى جـ٢ ص ٨٥ من «كتاب الصوم».

(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٢١٦.

شهرًا لشهرته وبيانه، وبه سمى الشهر شهرًا .

و ﴿رمضان﴾ اسم لهذا الشهر الذى فرض علينا صيامه، وهو مأخوذ - كما قال القرطبى - من رمض الصائم يرمض إذا حر جوفه من شدة العطش والرمضاء : شدة الحر، ومنه الحديث : صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال» - أى صلاة الضحى - قيل : إن العرب لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التى وقعت فيها، فوافق هذا الشهر أيام رمض الحر فسمى بذلك. وقيل إنما سمى رمضان لأنه يرمض الذنوب، أى : يحرقها بالأعمال الصالحة»[1].

وقوله : ﴿شهر رمضان﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره هى شهر رمضان أى : الأيام المعدودات، وقوله : ﴿الذى أنزل فيه القرآن﴾ صفة للشهر.

ويجوز أن يكون قوله ﴿شهر﴾ مبتدأ وخبره الموصول بعده، أو خبره قوله ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ وصح وجود الفاء فى الخبر لكون المبتدأ موصوفًا بالموصول الذى هو شبه بالشرط. وقرىء بالنصب على أنه مفعول لفعل محذوف. أى : صوموا شهر رمضان.

و« القرآن » هو كلام الله المعجز المنزل على محمد ﷺ المكتوب فى المصاحف المنقول بالتواتر المتعبد بتلاوته.

والمراد بإنزال القرآن فى شهر رمضان إبتداء إنزاله فيه، وكان ذلك فى ليلة القدر. بدليل قوله - تعالى - ﴿إنا أنزلناه فى ليلة القدر﴾ أى بدأنا إنزال القرآن فى هذه الليلة المباركة، إذ من المعروف أن القرآن استمر نزوله على النبى ﷺ ما يقرب من ثلاث وعشرين سنة.

وقيل المراد بذلك، انزل فى فضله القرآن، قالوا : ومثله أن يقال : أنزل الله فى أبى بكر الصديق كذا آية، يريدون أنزل فى فضله.

وقيل المراد أنزل فى إيجاب صومه على الخلق القرآن، كما يقال : أنزل الله فى الزكاة كذا وكذا، يريد فى إيجابها وأنزل فى الخمر كذا يريد فى تحريمها.

قال الآلوسى : وقوله - تعالى - : ﴿هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾ حالان لازمان من القرآن والعامل فيهما أنزل. أى : أنزل وهو هداية للناس بإعجازه المختص به كما يشعر بذلك التنكير، وآيات واضحات من جملة الكتب الإلهية الهادية إلى الحق والفارقة بين الحق والباطل باشتماله على المعارف الإلهية والأحكام العملية، كما يشعر بذلك جعله بينات منها، فهو هاد بواسطة أمرين، مختص وغير مختص، فالهدى ليس مكررًا، وقيل : مكرر تنويهًا

---

(١) تفسير القرطبى جـ٢ ص ٢٩١ بتصرف وتلخيص.

وتعظيمًا لأمره وتأكيدًا لمعنى الهداية كما تقول: عالم نحرير»[١].

وقوله: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ يصح أن يكون شهد بمعنى حضر. كما يقال: فلان شهد بدرًا، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ أى: حضرها، فيكون المعنى: فمن حضر منكم دخول الشهر أو حلوله بأن كان مقيما وليس عنده ما يمنعه من الصوم كمرض ونحوه، فليصمه؛ لأن صيامه ركن من أركان الدين، وعليه يكون لفظ «الشهر» منصوب على الظرفية.

ويصح أن يكون شهد بمعنى علم كقوله - تعالى -: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾.

فيكون المعنى: فمن علم منكم هلال الشهر وتيقن من ظهوره فليصمه.

وعليه يكون لفظ «الشهر» منصوب على أنه مفعول به بتقدير المضاف المحذوف و ﴿من﴾ موصولة أو شرطية وهو الأظهر و ﴿منكم﴾ فى محل نصب على الحال من الضمير فى شهد فيتعلق بمحذوف أى: كائنًا منكم. والضمير فى «منكم» يعود على الذين آمنوا، أى كل من حضر منكم الشهر فليصمه و (أل) فى الشهر للعهد.

وأعيد ذكر الرخصة فى قوله - تعالى - ومن كان مريضًا أو على سفر فعدة من أيام أخر، لئلا يتوهم من تعظيم أمر الصوم فى نفسه وأنه خير، أنه قد صار متحتمًا بحيث لا تتناوله الرخصة بوجه من الوجوه أو تتناوله ولكنها مفضولة، وفى ذلك عناية بأمر الرخصة وأنها محبوبة له - تعالى -

وقوله - تعالى -: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ بيان لحكمة الرخصة.

أى: شرع لكم - سبحانه - الفطر فى حالتى المرض والسفر، لأنه يريد بكم اليسر والسهولة. ولا يريد بكم العسر والمشقة. قال - تعالى -: ﴿يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفًا﴾ وقال - تعالى -: ﴿ما جعل عليكم فى الدين من حرج﴾ وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ بن جبل وأبى موسى الأشعرى حين بعثهما إلى اليمن: يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا».

وقوله - تعالى -: ﴿ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون﴾ معطوف على قوله: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ إذ هذه الجمل الأربع تعليل لما قبلها من قوله: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ إلى قوله: ﴿فعدة من أيام أخر﴾.

والمعنى: شرع لكم - سبحانه - ماشرع من أحكام الصيام، ورخص لكم الفطر فى حالتى

---

(١) تفسير الألوسى جـ٢ ص ٦١.

المرض والسفر، لأنه يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر، ولأنه يريد منكم أن تكملوا عدة الشهر بأن تصوموا أيامه كاملة فتحصلوا خيراته ولا يفوتكم شيء من بركاته، ومن لم يستطع منكم أداء الصوم فى هذا الشهر لعذر فعليه قضاء مافاته منه فى أيام أخر ويريد منكم أن تكبروه - سبحانه - أى تحمدوه وتعظموه، فهو وحده الذى هداكم إلى تلك الأحكام النافعة التى فيها صلاحكم وسعادتكم ويريد منكم أن تشكروه بأن تواظبوا على الثناء عليه، وعلى استعمال نعمه فيما خلقت له فهو - سبحانه - الرءوف الرحيم بعباده، إذ شرع لهم ما فيه اليسر لا ما فيه العسر.

وقد دلت الآية الكريمة على الأمر بالتكبير إذ جعلته مما يريده الله - تعالى - ولهذا جاءت السنة باستحباب التحميد والتسبيح والتكبير بعد الصلوات المكتوبات، وفى عيدى الفطر والأضحى يكون تكبير الله - تعالى - هو مظهرهما الأعظم.

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد بينت أكمل بيان وأحكمه فضل الصوم، وحكمة مشروعيته ومظاهر رحمة الله بعباده فى هذه الفريضة، وقد ذكرت أن المسلم له بشأن هذه الفريضة حالة من حالات ثلاث:

الحالة الأولى: إذا كان المسلم فى شهر رمضان كله أو بعضه مريضًا بمرض عارض غير مزمن يرجى الشفاء منه، أو مسافرًا تتوفر فيه شروط الفطر، فله أن يفطر وأن يقضى بعد رمضان الأيام التى أفطرها بدليل قوله - تعالى -: ﴿فمن كان مريضًا أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾.

الحالة الثانية: إذا كان المسلم فى شهر رمضان مريضًا بمرض مزمن لا يرجى شفاؤه والصوم فيه مشقة عليه، أو كان شيخًا كبيرًا أو امرأة عجوزًا ولا يستطيعان الصوم، فقد أباح الشارع لهؤلاء أن يفطروا وأن يطعموا عن كل يوم مسكينًا، لأن هذه الاعذار لا يرجى زوالها، ولا ينتظر أن يكون المبتلى بعذر منها بعد رمضان خيرًا منه فى رمضان، لذا أوجب الشارع على هؤلاء الفدية دون القضاء، بدليل قوله - تعالى -: ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾.

الحالة الثالثة: إذا كان المسلم فى شهر رمضان سليما مقيما وليس عنده عذر يمنعه من الصوم، فقد أوجب الله عليه أداء هذه الفريضة بقوله - تعالى -: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ ويحرم عليه أن يفطر، وإن أفطر لغير عذر شرعى كان من الخاسرين فى الدنيا والآخرة، ففى الحديث الشريف الذى رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «من أفطر يومًا من رمضان من غير رخصة ولا مرض لم يقضه - أى لم يجزه - صوم الدهر كله وإن صامه»[1].

(١) الترغيب والترهيب للمنذرى جـ٢ ص ١٠٨.

أى : لو حصل منه صوم طول حياته فلن يدرك ثواب ما ضيع بسبب فطره بغير عذر شرعى.

والأحاديث فى الترغيب فى صوم شهر رمضان، وفى الترهيب من الفطر فيه كثيرة متنوعة.

ثم بين - سبحانه - أن العباد إذا حافظوا على فرائضه، واستجابوا لأوامره، وابتعدوا عن نواهيه، فإنه - عز وجل - لا يرد لهم طلبًا ولا يخيب لهم رجاء فقال :

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

قال الإمام البيضاوى فى وجه اتصال هذه الآية بما قبلها من آيات الصيام : واعلم أنه - تعالى - لما أمرهم بصوم الشهر ومراعاة العدة وحثهم على القيام بوظائف التكبير والشكر عقبه بهذه الآية الدالة على أنه خبير بأحوالهم سميع لأقوالهم، مجيب لدعائهم، مجاز على أعمالهم تأكيدًا له وحثًا عليه»

وروى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية الكريمة روايات منها ما أخرجه بن جرير وابن أبى حاتم أن أعرابيًا جاء إلى النبى ﷺ فقال : أقريب ربنا فنناجيه - أى : ندعوه سرا - أم بعيد فنناديه؟ فسكت رسول الله ﷺ فأنزل الله هذه الآية[١].

ومنها ما رواه ابن مردويه - بسنده - عن الحسن قال : سأل بعض الصحابة رسول الله ﷺ أين ربنا؟ فأنزل الله - تعالى - هذه الآية[٢].

والمعنى : وإذا سألك عبادى يا محمد عن قربى وبعدى فقل لهم : إنى قريب منهم بعلمى ورحمتى وقدرتى وإجابتى لسؤالهم. قال - تعالى - : ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ :

وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى أنه قال: كنا مع النبى ﷺ فى سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير. فقال النبى ﷺ : ايها الناس اربعوا على أنفسكم - أى أرفقوا بها - فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا، إنكم تدعون سميعًا بصيرًا وهو معكم، والذى تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»[٣].

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢١٨.
(٢) تفسير البيضاوى ص ٣٩.
(٣) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢١٨.

فقوله - تعالى - : ﴿فإنى قريب﴾ تمثيل لكمال علمه - تعالى - بأفعال عباده وأقوالهم، واطلاعه على سائر أحوالهم بحال من قرب مكانه منهم إذ القرب المكانى محال على الله - تعالى -.

وفى الآية الكريمة التفات عن خطاب المؤمنين كافة بأحكام الصيام، إلى خطاب النبى ﷺ بأن يذكرهم ويعلمهم ما يجب عليهم مراعاته فى سائر عبادتهم من الإخلاص والأدب والتوجه إلى الله وحده بالسؤال.

ولم يصدر الجواب بقل أو فقل كما وقع فى أجوبة مسائلهم الواردة فى آيات أخرى، نحو ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا﴾ بل تولى - سبحانه - جوابهم بنفسه إشعارًا بفرط قربه منهم، وحضوره مع كل سائل بحيث لا تتوقف إجابته على وجود واسطة بينه وبين السائلين من ذوى الحاجات.

والمراد بالعباد الذين أضيفوا إلى ضمير الجلالة هم المؤمنون لأن الحديث عنهم، ولأن سياق الآيات فى بيان أحكام الصوم وفضائله وهو خاص بالمؤمنين، وقد أضيفوا إلى ضمير الجلالة لتشريفهم وتكريمهم.

وقوله - تعالى - : ﴿أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ تقرير للقرب وتحقيق له، ووعد للداعى بالإجابة متى صدر الدعاء من قلب سليم، ونفس صافية، وجوارح خاشعة، ولقد ساق لنا القرآن فى آيات كثيرة أمثلة لعباد الله الذين توجهوا إليه بالسؤال، فأجاب الله سؤالهم، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له﴾ وقوله - تعالى - : ﴿وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرنى فردًا وأنت خير الوارثين. فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه﴾ وقوله - تعالى - : ﴿وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر﴾.

وورد فى الحديث ما يدل على أن العبد إذا دعا الله - تعالى - بما فيه خير، لم يخب عند الله دعاؤه، ولكن لا يلزم أن يعطيه - سبحانه - نفس ما طلبه، لأنه هو الأعلم بما يصلح عباده. روى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال: «ما من مسلم يدعو الله - عز وجل - بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل إليه دعوته، وإما أن يدخرها له فى الأخرى، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها».

وقوله - تعالى - : ﴿فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون﴾ توجيه منه - سبحانه - إلى ما يجعل الدعاء مرجو القبول والإجابة.

والاستجابة: هى الإجابة بعناية واستعداد، والسين والتاء للمبالغة.

والرشد : الاهتداء إلى الخير وحسن التصرف فى الأمر من دين أو دنيا يقال : رشد ورشد يرشد ويرشد رشدًا، أى اهتدى.

والمعنى : لقد وعدتكم يا عبادى بأن أجيب دعاءكم إذا دعوتمونى، وعليكم أنتم أن تستجيبوا لأمرى، وأن تقفوا عند حدودى، وأن تثبتوا على إيمانكم بى، لعلكم بذلك تصلون إلى ما فيه رشدكم وسعادتكم فى الحياتين العاجلة والآجلة. وأمرهم - سبحانه - بالإيمان بعد الأمر بالاستجابة، لأنه أول مراتب الدعوة، وأولى الطاعات بالاستجابة.

قال الحافظ ابن كثير: وفى ذكره - تعالى - هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام إرشاد إلى الاجتهاد فى الدعاء عند إكمال العدة بل وعند كل فطر، كما روى أبو داود الطيالسى فى مسنده عن عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة فكان عبد الله بن عمرو إذا أفطر جمع أهله وولده ودعا. وروى ابن ماجة عن عبد الله بن عمرو قال : قال النبى ﷺ : « إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد » وكان عبد الله يقول إذا أفطر : اللهم إنى أسألك برحمتك التى وسعت كل شىء أن تغفر لى » وروى الإمام أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ثلاثة لا ترد دعوتهم : الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم، يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة وتفتح لها أبواب السماء ويقول : بعزتى لأنصرنك ولو بعد حين »(١).

هذا والحديث عن الدعاء وعن فضله وعن آدابه وشروطه وفوائده وجوامعه وغير ذلك مما يتعلق به قد بسطناه فى غير هذا المكان فليرجع إليه من شاء(٢).

وبعد هذا الحديث المؤثر عن الدعاء، عاد القرآن إلى الحديث عن أحكام الصيام، وعن مظاهر رحمة الله بعباده فيما شرع لهم فقال - تعالى - :

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢١٩.

(٢) راجع كتاب (الدعاء) للمؤلف طبع مجمع البحوث : الكتاب السادس والخمسون.

ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

روى بعض المفسرين فى سبب نزول هذه الآية الكريمة أحاديث تفيد أن المسلمين كانوا عند ما فرض صيام شهر رمضان. إذا أفطروا يأكلون ويشربون ويقربون النساء مالم يناموا، فإذا ناموا حرم عليهم بعد ذلك الطعام والشراب وقربان النساء حتى يفطروا من الغد.

ومن الأحاديث التى وردت فى هذا المعنى ما أخرجه الإمام أحمد وابن جرير وابن حاتم عن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه. قال: كان الناس فى رمضان إذا صام الرجل فنام حرم عليه الطعام والشراب والنساء حتى يفطر من الغد فرجع عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - من عند النبى ﷺ ذات ليلة وقد سمر عنده، فأراد امرأته فقالتإنى قد نمت، فقال ما نمت ثم واقعها، وصنع كعب مثل ذلك. فغدا عمر بن الخطاب إلى النبى ﷺ فأخبره فنزلت[1].

ومنها ما رواه البخارى عن البراء قال: كان أصحاب محمد ﷺ إذا كان الرجل صائما فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسى. وإن قيس بن صرمة الأنصارى كان صائما وفى رواية: كان يعمل فى النخيل بالنهار وكان صائما. فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال لها: أعندك طعام؟ قالت: لا، ولكن أنطلق فأطلب لك وكان يومه يعمل، فغلبته عيناه فجاءته امرأته فلما رأته قالت: خيبة لك. فلما انتصف النهار غشى عليه، فذكر ذلك للنبى ﷺ فنزلت هذه الآية ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾ ففرحوا فرحًا شديدًا، ونزلت ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾[2].

وجمهور المفسرين - كما يقول الإمام الرازى - على أن هذه الآية من قبيل النسخ، لأنها قد نسخت ماكان حاصلا فى أول فرضية الصيام من أن الصائم إذا نام بعد فطره لا يحل له الأكل أو الشرب أو الجماع إلى أن يفطر من الغد.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٢ ص ٦٤.

(٢) تفسير القرطبى جـ٢ ص ٣١٤.

ويرى بعض العلماء أن الآية ليست من قبيل النسخ وإنما هى إرشاد إلى ماشرعه الله - تعالى - لعباده خلال شهر الصوم من إباحة غشيان أزواجهن ليلا. ومن جواز الأكل والشرب، حتى يتبين لهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، وكأن الصحابة كانوا يتحرجون عن ذلك ظنًّا منهم أنه من تتمة الصوم، ورأوا أن لاصبر لأنفسهم عن الأكل والشرب والجماع ليلا، فبين الله لهم أن ذلك حلال لا حرج فيه.

وأصحاب هذا الرأى يستشهدون لذلك بما رواه البخارى عن البراء قال: لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله - تعالى - ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم﴾[1]. فالمقصود من الآية الكريمة عند هؤلاء رفع ما توهمه بعض الصحابة من أن الأكل أو الشرب أو الجماع لا يجوز ما داموا قد ناموا بعد فطرهم؛ لأن الله - تعالى - رءوف رحيم بهم، ولم يشرع لهم ما فيه حرج أو مشقة عليهم.

وعلى كلا القولين فالآية الكريمة تسوق لنا لونا من ألوان رحمة الله - تعالى - بعباده فيما شرع لهم من فرائض وأحكام.

والمراد بليلة الصيام: الليلة التى يصبح فيها الإنسان صائما دون تحديد ليلة معينة من شهر رمضان، فالإضافة لأدنى ملابسة.

قال الجمل وقوله: ﴿ليلة الصيام﴾ منصوب على الظرف، وفى الناصب له ثلاثة أقوال:

أحدها: وهو المشهور عند المعربين أنه أحل، وليس بشىء، لأن الإحلال ثابت قبل ذلك الوقت.

الثانى: أنه مقدر مدلول عليه بلفظ الرفث تقديره: أحل لكم أن ترفثوا ليلة الصيام.

الثالث: أنه متعلق بالرفث وذلك على رأى من يرى الاتساع فى الظرف والمجرورات[2]».

والرفث فى الأصل: الفحش من القول، وكلام النساء حين الجماع، كنى به عن المباشرة للزومه لها غالبًا. يقال رفث فى كلامه - كنصر وفرح وكرم - وأرفث، إذا أفحش فيه. والمراد به فى الآية الجماع والمباشرة.

وعدى بإلى - مع أن المستعمل الشائع أن يقال: رفث بالمرأة - لتضمنه معنى الإفضاء كما فى قوله - تعالى -: ﴿وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾.

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٢ ص ٣١٤.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ١٤٩.

والمعنى : أحل الله لكم فى ليالى صومكم الإفضاء إلى نسائكم ومباشرتهن وقوله - تعالى - ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾ وارد مورد المقتضى لإباحة مباشرة النساء فى ليالى الصيام، ذلك أن كلا من الزوجين يسكن إلى صاحبه، ويكون من شدة القرب منه كالثوب الملابس له وكانت العرب تسمى المرأة لباسًا، وهذه حال تقوى معها الدواعى إلى المباشرة، فمن رفقه - تعالى - بعباده أن أحلها لهم ليلة الصيام.

قال الراغب : جعل اللباس كناية عن الزوج لكونه سترًا لنفسه ولزوجه أن يظهر منهما سوء، كما أن اللباس ستر عنه أن يبدو منه السوء.

وقال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما موقع قوله : ﴿هن لباس لكم﴾ قلت : هو استئناف كالبيان لسبب الإحلال، وهو أنه إذا كانت بينكم وبينهن مثل هذه المخالطة والملابسة قل صبركم عنهن وصعب عليكم اجتنابهن، فلذلك رخص لكم فى مباشرتهن»[١].

وفى هذا التعبير القرآنى ما فيه من اللطافة والأدب وسمو التصوير لما بين الرجل وزوجه من شدة الاتصال والمودة واستتار كل واحد منهما بصاحبه.

وقوله - تعالى - : ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم﴾ جملة معترضة بين قوله : ﴿أحل لكم ليلة الصيام﴾ وبين قوله : ﴿فالآن باشروهن﴾ إلخ. وقد جىء بها لبيان حالهم بالنسبة إلى ما فرط منهم، ولبيان مظهر من مظاهر لطف الله بهم، ورحمته إياهم.

وقوله : ﴿تختانون﴾ قال الراغب : الاختيان مراودة الخيانة، ولم يقل تخونون أنفسكم لأنه لم تكن منهم الخيانة بل كان منهم الاختيان، فإن الاختيان تحرك شهوة الإنسان لتحرى الخيانة وذلك هو المشار إليه بقوله - تعالى - : ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾[٢].

والمعنى : علم الله - تعالى - أنكم كنتم تراودون أنفسكم على مباشرة نسائكم ليلا، وعلى الأكل بعد النوم، قبل أن يظهر الفجر الصادق، بل إن بعضكم قد فعل ذلك، فكان من رحمة الله بكم أن أباح الأكل والشرب والجماع فى ليالى الصوم، وأن قبل توبتكم وعفا عنكم، أى : محا أثر ما فعلتموه من الأكل والجماع قبل أن يأذن لكم بذلك.

وجملة ﴿فتاب عليكم﴾ معطوفة على محذوف، والتقدير : فتبتم فتاب عليكم.

والذين لا يرون أن الآية ناسخة لحكم سابق عبر عن وجهة نظرهم صاحب المنار فقال : وقوله - تعالى - : ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾ أى : تتنقصونها بعض ما أحل الله

(١) تفسير الكشاف للزمخشرى جـ١ ص ٢٣٠.
(٢) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى ص ١٦٣.

لها من اللذات توهما أن من قبلكم كان كذلك فيكون بمعنى التخون أى : النقص من الشىء أو معناه : تخونون أنفسكم إذ تعتقدون شيئًا ثم لا تلتزمون العمل به فهو مبالغة من الخيانة التى هى مخالفة مقتضى الأدلة ولم يقل تختانون الله كما قال فى آية أخرى «لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم» للإشعار بأن الله - تعالى - لم يحرم عليهم بعد النوم فى الليل ما حرمه على الصائم فى النهار، وإنما ذهب بهم اجتهادهم إلى ذلك فهم قد خانوا أنفسهم فى اعتقادها، فكانوا كمن يتغشى امرأته ظانًا أنها أجنبية، فعصيانة بحسب اجتهاده لا بحسب الواقع، فهم على أية حال كانوا عاصين بما فعلوا محتاجين إلى التوبة والعفو ولذلك قال ﴿فتاب عليكم وعفا عنكم﴾[1].

وقوله - تعالى - : ﴿فالآن باشروهن﴾ الأمر فيه للإباحة وهو مرتب على قوله : ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾.

ولفظ ﴿الآن﴾ يطلق حقيقة على الوقت الذى أنت فيه، وقد يقع على الماضى القريب منك وعلى المستقبل القريب الوقوع تنزيلا له منزلة الحاضر وهو المراد هنا.

و ﴿باشروهن﴾ من المباشرة وأصلها اتصال البشرة بالبشرة، وكنى بها القرآن عن الجماع الذى يستلزمها.

وقوله - تعالى - : ﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ تأكيد لما قبله. والابتغاء الطلب والمعنى : لقد أبحنا لكم الإفضاء إلى نسائكم فى ليالى رمضان بعد أن كان محرمًا عليكم فضلا منا ورحمة بكم فالآن باشروهن واطلبوا من وراء هذه المباشرة ماكتبه لكم الله من الذرية الصالحة ومن التعفف عن إتيان الحرام.

وفى هذا إشعار بأن النكاح شرع ليبتغى به النسل حتى يتحقق ما يريده الله - تعالى - من بقاء النوع الإنسانى، ومن صيانة المرء نفسه عن الوقوع فى فاحشة الزنا.

وقوله - تعالى - : ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾ معطوف على باشروهن.

والمقصود من الخيط الأبيض : أول مايبدو من الفجر الصادق المعترض فى الأفق قبل إنتشاره.

والمقصود من الخيط الأسود : مايمتد مع بياض الفجر من ظلمة الليل.

---

(١) تفسير المنار جـ ٢ ص ١٧٦.

والمعنى : لقد أبحنا لكم مباشرة النساء فى ليالى الصوم، وأبحنا لكم كذلك أن تأكلوا وأن تشربوا فى هذه الليالى حتى يتبين لكم بياض الفجر من سواد الليل.

قال الإمام الرازى : ﴿والفجر﴾ مصدر قولك : فجرت الماء أفجره فجرًا، وفجرته تفجيرًا، قال الأزهرى : الفجر أصله الشق، فعلى هذا الفجر فى آخر الليل هو انشقاق ظلمة الليل بنور الصبح.

وقد وردت روايات صحيحة تفيد أن قوله : ﴿من الفجر﴾ قد تأخر نزوله عن الجمل السابقة له. ففى الصحيحين عن سهل بن سعد قال أنزلت ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود ولم ينزل من الفجر﴾ فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم فى رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود، ويأكل حتى يتبين له رؤيتها، فأنزل الله بعده ﴿من الفجر﴾ فعلموا أنه يعنى الليل والنهار.

ورويا أيضًا عن عدى بن حاتم قال : لما نزلت هذه الآية ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾ عمدت إلى عقالين لى أسود وأبيض فجعلتهما تحت وسادتى وجعلت أنظر فى الليل إليهما فلا يتبين لى، فعمدت إلى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك فقال : «إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار» ونزل قوله - تعالى - : ﴿من الفجر﴾.

وشبه بياض النهار وسواد الليل بالخيطين : الأبيض والأسود لأن أول ما يبدو من الفجر المعترض فى الأفق وما يمتد معه من غبش الليل يكون كالخيط الممدود.

وفى الإتيان بلفظ التفعل فى قوله : ﴿حتى يتبين . .﴾ إشعار بأنه لا يكفى إلا التبين الواضح لا مجرد التوهم، فقد روى الإمام مسلم فى صحيحه عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ : «لا يغرنكم نداء بلال ولا هذا البياض حتى يبدو الفجر - أو قال - حتى ينفجر الفجر».

وقوله : ﴿من الفجر﴾ بيان للخيط الأبيض. واكتفى به عن بيان الخيط الأسود، لأن بيان أحدهما بيان للثانى، ويجوز أن تكون «من» للتبعيض، أى : من بعض الفجر.

وقوله - تعالى - : ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ بيان لإنتهاء وقت الصيام بعد أن بينت الجملة السابقة بدايته. أى : ابدءوا صومكم من طلوع الفجر وانتهوا منه بدخول الليل عند غروب الشمس، إذ الليل لبس بوقت الصيام.

قال الإمام الرازى : كلمة ﴿إلى﴾ لإنتهاء الغاية، فظاهر الآية : أن الصوم ينتهى عند دخول الليل، وذلك لأن غاية الشىء مقطعه ومنتهاه وإنما يكون مقطعًا ومنتهى إذا لم يبق بعد ذلك. وقد تجىء هذه الكلمة لا للإنتهاء كما فى قوله - تعالى - : ﴿إلى المرافق﴾ إلا أن ذلك على

خلاف الدليل، والفرق بين الصورتين أن الليل ليس من جنس النهار فيكون الليل خارجًا عن حكم النهار، والمرافق من جنس اليد فيكون داخلا فيه».

وفى الصحيحين عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من هنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم».

وكان من عادته ﷺ تعجيل الفطر، فقد روى الشيخان عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر».

وقد أخذ العلماء من هذه الآية ومن عمل الرسول ﷺ وقوله، أن من واصل الإمساك عن المفطرات فى الليل فلا ثواب له على هذا الإمساك، لأنه لم يقع فى الوقت الذى رسمه الشارع لعبادة الصوم، بل يعد هذا المواصل فاعلا لمحظور، فلابد للصائم من تناول شيء من المفطرات بعد غروب الشمس ولو قليلا من الماء. فقد روى الترمذى عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ يَفطر قبل أن يصلى على رطبات فإن لم تكن رطبات فتميرات، فإن لم تكن تميرات حسا حسوات من ماء، والوصال - بمعنى أن يصوم الشخص اليوم وما بعده من غير أن يتناول مفطرًا فى الليل الفاصل بينهما - وردت فى النهى عنه أحاديث كثيرة، ومن ذلك ما جاء فى الصحيحين عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال: «لا تواصلوا، قالوا: إنك تواصل يا رسول الله. قال: لست كأحد منكم إنى أطعم وأسقى. أو قال: إنى أظل يطعمنى ربى ويسقينى».

وروى الإمام أحمد عن ليلى امرأة بشير بن الخصاصية قالت: أردت أن أصوم يومين مواصلة فمنعنى بشير وقال: إن رسول الله ﷺ نهى عنه وقال: يفعل ذلك النصارى ولكن صوموا كما أمركم الله ثم أتموا الصيام إلى الليل، فإذا كان الليل فأفطروا».

وقوله: ﴿ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد﴾ استثناء من عموم إباحة المباشرة، وذلك لأنه لما أطلق فى الجملة السابقة الإذن فى مباشرة النساء ليلة الصيام بقوله: ﴿فالآن باشروهن﴾ كان هذا الإطلاق مظنة لأن يؤخذ منه أن المعتكف كالصائم فى أنه يجوز له أن يباشر زوجته ليلا لا نهارًا، فبين - سبحانه - بهذه الجملة أن المعتكف يحرم عليه أن يباشر النساء فى الليل والنهار.

قال القرطبى: والاعتكاف فى اللغة: الملازمة، يقال عكف على الشيء إذا لازمه مقبلا عليه. قال الشاعر:

وظل بنات الليل حولى عكفا عكوف البواكى بينهن صريع

ولما كان المعتكف ملازمًا للعمل بطاعة الله مدة اعتكافه لزمه هذا الاسم وهو فى عرف

الشرع : ملازمة طاعة مخصوصة فى وقت مخصوص على شرط مخصوص فى موضع مخصوص. وأجمع العلماء على أنه ليس بواجب وهو قربة من القرب ونافلة من النوافل عمل بها رسول الله ﷺ وأصحابه وأزواجه، ويلزمه إن ألزمه نفسه، ويكره الدخول فيه لمن يخاف عليه العجز عن الوفاء بحقوقه.

وأجمع العلماء على أنه لا يكون إلا فى المسجد واختلفوا فى المراد بالمساجد فى قوله - تعالى - : ﴿فى المساجد﴾ فذهب قوم إلى أن الآية خرجت على نوع من المساجد وهو ما بناه نبى كالمسجد الحرام والمسجد النبوى وبيت المقدس، وقال آخرون لا اعتكاف إلا فى مسجد تجمع فيه الجمعة، وقال آخرون الاعتكاف فى كل مسجد جائز(١).

والمشار إليه فى قوله - تعالى - : ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾ الأحكام التى سبق تقريرها من إيجاب وتحريم وإباحة.

والحدود جمع حد، وهو فى اللغة الحاجز بين الشيئين المتقابلين ليمنع من دخول أحدهما فى الآخر. ومنه سمى الحديد حديدًا لأنه يمنع وصول السلاح إلى البدن.

وسميت الأحكام التى شرعها الله حدودًا لأنها تحجز بين الحق والباطل.

أى : تلك الأحكام التى شرعناها لكم من إيجاب الصوم، وتحريم الأكل والشرب والجماع فى نهاره، وإباحة ذلك فى ليله، هى حدود الله التى لا يحل لكم مخالفتها أو مجاوزتها.

وعبر - سبحانه - عن النهى عن مخالفة تلك الأحكام بقوله : ﴿فلا تقربوها﴾ مبالغة فى التحذير من مخالفتها، لأن النهى عن القرب من الشىء نهى عن إتيانه بالأولى والآية ترشد بقولها ﴿فلا تقربوها﴾ إلى اجتناب ما فيه شبهة كما ترشد إلى ترك الأشياء التى تفضى فى غالب أمرها إلى الوقوع فى حرام.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف قيل ﴿فلا تقربوها﴾ مع قوله : ﴿فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله﴾ قلت : من كان فى طاعة الله والعمل بشرائعه فهو متصرف فى حيز الحق فنهى أن يتعداه. لأن من تعداه وقع فى حيز الباطل، ثم بولغ فى ذلك فنهى أن يقرب الحد الذى هو الحاجز بين حيزى الحق والباطل لئلا يدانى الباطل، وأن يكون فى الواسطة متباعدًا عن الطرف فضلا عن أن يتخطاه كما قال رسول الله ﷺ : «إن لكل ملك حمى، وحمى الله محارمه، فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه» فالرتع حول الحمى وقربان حيزه واحد. ويجوز أن يريد

---

(١) تفسير القرطبى جـ٢ ص ٣٣٢ بتصرف وتلخيص.

بحدود الله محارمه ومناهيه خصوصًا، لقوله - تعالى - : ﴿ولا تباشروهن﴾ وهى حدود لا تقرب »[١].

ثم ختم - سبحانه - هذه الآية الكريمة بقوله : ﴿كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾.

أى : مثل ذلك البيان الجامع الذى بين الله به حدوده التى أمركم بالتزامها ونهاكم عن مخالفتها، يبين لكم آياته، أى : أدلته وحججه لكى تصونوا أنفسكم عما يؤدى بكم إلى العقوبة، وتكونوا ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه.

وبذلك تكون الآية الكريمة قد ختمت الحديث عن الصوم، ببيان مظاهر رفق الله بعباده، ورعايته لمصالحهم ومنافعهم، بأسلوب بليغ جمع بين الترغيب والترهيب، والإباحة والتحريم، وغير ذلك من أنواع الهداية والإرشاد إلى ما يسعد الناس فى دينهم ودنياهم.

وبعد أن أنهى القرآن حديثه عن الصيام، وما يتعلق به من أحكام، أردف ذلك بالنهى عن أكل الحرام، لأنه يؤدى إلى عدم قبول العبادات من صيام واعتكاف ودعاء وغير ذلك فقال - تعالى - :

وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

والخطاب فى الآية الكريمة موجه إلى المؤمنين كافة فى كل زمان ومكان.

والمراد بالأكل مطلق الأخذ بغير وجه حق، وعبر عنه بالأكل، لأن الأكل أهم وسائل الحياة، وفيه تصرف الأموال غالبًا.

والباطل فى اللغة : الزائل الذاهب، يقال : بطل يبطل بطولا وبطلانا. أى ذهب ضياعًا وخسرًا. وجمع الباطل أباطيل. ويقال : بطل الأجير يبطل بطالة إذا تعطل واتبع اللهو.

والمراد هنا : كل ما لم يبح الشرع أخذه من المال وإن طابت به النفس، كالربا والميسر وثمن الخمر، والرشوة، وشهاد الزور، والسرقة، والغصب، ونحو ذلك مما حرمه الله - تعالى -.

والباء للسببية، والجار والمجرور متعلق بالفعل قبله، وكذلك قوله : ﴿بينكم﴾.

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٢٣.

والمعنى : لا يأخذ بعضكم مال بعض، ويستولى عليه بغير حق، متذرعًا بالأسباب الباطلة، والحيل الزائفة، وما إلى ذلك من وجوه التعدى والظلم.

وفى قوله - تعالى - : ﴿أموالكم﴾ - مع أن أكل المال يتناول مال الإنسان ومال غيره - فى هذا القول إشعار بوحدة الأمة وتكافلها، وتنبيه إلى أن احترام مال غيرك وحفظه هو عين الاحترام والحفظ لما لك أنت، ففى هذه الإضافة البليغة تعليل للنهى، وبيان لحكمة الحكم، إذ استحلال الإنسان لمال غيره يجرىء هذا الغير على استحلال مال ذلك الإنسان المتعدى، وإذا فشا هذا السلوك فى أمة من الأمم أدى بها إلى الضعف والتعادى والتباغض.

فما أحكم هذا التعبير، وما أجمل هذا التصوير.

وقوله : ﴿وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقًا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾ بيان لصورة أخرى قبيحة من صور أكل أموال الناس بالباطل وقوله : ﴿وتدلوا بها إلى الحكام﴾ معطوف على ﴿لا تأكلوا﴾.

والإدلاء فى الأصل : إرسال الدلو فى البئر للاستقاء. ثم جعل كل إلقاء قول أو فعل إدلاء؛ ومنه أدلى فلان بحجته، أى : أرسلها ليصل إلى مراده.

والمراد بالإدلاء هنا : الدفع والإلقاء بالأموال إلى الغير من أجل الوصول إلى أمر معين.

والحكام : جمع حاكم، وهو الذى يتصدى للفصل بين الناس فى خصوماتهم وقضاياهم.

والفريق : القطعة المعزولة من جملة الشىء، ومنه قيل للقطعة من الغنم تشذ عن معظمها فريق.

والإثم : الفعل الذى يستحق صاحبه الذم والعقاب. وجمعه آثام.

والمعنى : لا يأخذ بعضكم أموال بعض - أيها المسلمون - ولا يستولى عليها بغير حق، ولا تدلوا بها إلى الحكام، أى ولا تلقوا أمرها والتحاكم فيها إلى القضاة لا من أجل الوصول إلى الحق، وإنما من أجل أن تأخذوا عن طريق التحاكم قطعة من أموال غيركم متلبسين بالإثم الذى يؤدى إلى عقابكم، حال كونكم تعلمون أنكم على باطل، ولا شك أن إتيان الباطل مع العلم بأنه باطل أدعى إلى التوبيخ من إتيانه على جهالة به.

فعلى هذا الوجه يكون المراد بالإدلاء بالأموال إلى الحكام طرحها أمامهم ليقضوا فيها، وليتوسل بعض الخصوم عن طريق هذا القضاء إلى أكل الأموال بالباطل حين عجزوا عن أكلها بالمغالبة.

وهناك وجه آخر تحتمله الآية احتمالا قريبًا، وبه قال كثير من العلماء وهو أن المراد بالإدلاء

بالأموال إلى الحكام، إلقاؤها إليهم على سبيل الرشوة ليصلوا من وراء ذلك إلى أن يحكموا لصالحهم بالباطل، وعليه يكون المعنى.

لا يأخذ بعضكم أموال بعض أيها المسلمون، ولا تلقوا ببعضها إلى حكام السوء على سبيل الرشوة، لتتوصلوا بأحكامهم الجائرة إلى أكل فريق من أموال الناس بغير حق. ولا غرابة فى أن يعنى القرآن فى سياسته الرشيدة بالتحذير من جريمة الرشوة؛ فإنها المعول الذى يهدم صرح العدل من أساسه وبها تفقد مجالس القضاء حرمتها وكرامتها، وتصير تلك المجالس موطنا للظلم لا للعدل.

وخص القرآن الكريم هذه الصورة بالنهى - وهى صورة الإدلاء بالأموال إلى الحكام - مع أنه قد ذكر ما يشملها بقوله: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ لأنها على وجهى تفسيرها شديدة الشناعة، جامعة لمنكرات كثيرة، كالظلم، والتباغض والرشوة، والغصب وغير ذلك. والحق، أن هذه الآية الكريمة أصل من الأصول التى يقوم عليها إصلاح المعاملات، وقد أخذ العلماء منها حرمة أكل أموال الناس بالباطل، وحرمة إرشاء الحكام ليقضوا للراشى بمال غيره، وقد لعن النبى ﷺ الجميع فى الحديث الذى أخرجه الترمذى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله الراشى والمرتشى والراءش» وهو الواسطة الذى يمشى بينهما.

كما أخذوا منها أن حكم الحاكم على ما يقتضيه الظاهر من أمر القضية لا يحل فى الواقع حرامًا، ولا يحرم حلالاً، والدليل على ذلك ما أخرجه الشيخان عن أم سلمة - رضى الله عنها - عن رسول الله ﷺ أنه سمع خصومة بباب حجرته، فخرج إليهم فقال: إنما أنا بشر. وإنه ليأتينى الخصم. فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنه قد صدق، فأقضى له بذلك. فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها».

قال الإمام ابن كثير: فدلت هذه الآية الكريمة وهذا الحديث على أن حكم الحاكم لا يغير الشىء فى نفس الأمر، فلا يحل فى نفس الأمر حراما ولا يحرم حلالا، وإنما هو ملزم فى الظاهر، فإن طابق فى نفس الأمر فذاك وإلا فللحاكم أجره وعلى المحتال وزره. ولهذا قال - تعالى - فى آخر الآية ﴿وأنتم تعلمون﴾. أى تعلمون بطلان ما تدعونه وترجونه فى كلامكم»[1].

وبذلك تكون الآية الكريمة قد رسمت طريق الحق لمن يريد أن يسير فيه ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحى من حى عن بينة وإن الله لسميع عليم﴾.

ثم انتقل القرآن إلى الحديث عن الأهلة لما لها من صلة بالصيام وبالقتال فى الأشهر الحرم وبمواقيت الحج فقال - تعالى -:

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٢٥.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

ورد فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما أخرجه ابن أبى حاتم عن أبى العالية قال: «بلغنا أن بعض الناس قالوا: يارسول الله، لم خلقت الأهلة فنزلت».

والأهلة: جمع الهلال، وهو الكوكب الذى يبزغ فى أول كل شهر، ويسمى هلالا لثلاث ليال أو لسبع ليال من ظهوره، ثم يسمى بعد ذلك قمرا إلى أن يعود من الشهر الثانى.

قال بعضهم: وهو مشتق من استهل الصبى إذا بكى وصاح حين يولد، ومنه أهل القوم بالحج إذا رفعوا أصواتهم بالتلبية، وسمى بذلك لأنه حين يرى يهل الناس بذكره أو بالتكبير، ولهذا يقال أهل الهلال واستهل[1].

والمواقيت: جمع ميقات بمعنى الوقت، وهو ما يقدر لعمل من الأعمال وقيل: الميقات منتهى الوقت.

والمعنى: يسألك بعض الناس عن الحكمة من خلق الأهلة، قل لهم - يا محمد - إن الله - تعالى - قد خلقها لتكون معالم يوقت ويحدد بها الناس صومهم، وزكاتهم، وحجهم، وعدة نسائهم، ومدد حملهن، ومدة الرضاع، وغير ذلك مما يتعلق بأمور معاشهم.

قال - تعالى -: ﴿هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورًا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب، ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون﴾.

وخص الحج بالذكر مع أن الأهلة مواقيت لعبادات أخرى كالصوم والزكاة للتنبيه على أن الحج مقصور وقت أدائه على الزمن الذى عينه الله - تعالى - وأنه لا يجوز نقله إلى وقت آخر كما كانت العرب تفعل، إذ كانوا ينقلون ما شاؤوا من الأشهر الحرم الأربعة التى من جملتها

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٢ ص ٧١.

ذو الحجة إلى شهر آخر غير حرام، وهو النسيء المشار إليه بقوله - تعالى - : ﴿إنما النسيء زيادة فى الكفر﴾.

وخص الشارع المواقيت بالأهلة وأشهرها دون الشمس و أشهرها، لأن الأشهر الهلالية تعرف برؤية الهلال ومحاقه، وذلك ما لا يخفى على أحد من الخاصة أو العامة أينما كانوا، بخلاف الأشهر الشمسية. فإن معرفتها تنبنى على النظر فى حركات الفلك وهى لا تتيسر إلا للعارفين بدقائق علم الفلك.

هذا، ومن الروايات التى وردت فى سبب نزول هذه الآية ما رواه أبو نعيم وابن عساكر عن ابن عباس قال: نزلت فى معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم قالا: يارسول الله. ما بال الهلال يبدو - أو يطلع - دقيقًا مثل الخيط ثم يزيد حتى يعظم ويستدير، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان، لا يكون على حال واحد؟ فنزلت.

وعلى هذه الرواية يكون الجواب بقوله - تعالى - : ﴿قل هى مواقيت للناس والحج﴾ من قبيل أسلوب الحكيم، وهو إجابة السائل بغير ما يتطلبه سؤاله، بتنزيل سؤاله منزلة غيره، تنبيها له على أن ذلك الغير هو الأولى بالسؤال لأنه هو المهم بالنسبة له.

فأنت ترى هنا أن السائلين قد سألوا عن سبب اختلاف الأهلة بالزيادة والنقصان، فأجيبوا ببيان الحكمة من خلقها، فكأنه - سبحانه - يقول لهم: عليكم أن تسألوا عن الحكمة والفائدة من خلق الأهلة لأن هذا هو الأليق بحالكم وهو ما أجبتكم عليه، لا أن تسألوا عن سبب تزايدها فى أول الشهر وتناقصها فى آخره، لأن هذا من اختصاص علماء الهيئة، وأنتم لستم فى حاجة إلى معرفة ذلك فى هذا الوقت.

ولعلماء البلاغة كلام جيد فى مزايا ما يسمونه بأسلوب الحكيم، فقد قال السكاكى ما ملخصه: «ولهذا النوع - أعنى إخراج الكلام لا على مقتضى الظاهر-أساليب متفننة، ولكل من تلك الأساليب عرق فى البلاغة يتشرب من أفانين سحرها، ولا كأسلوب الحكيم فيها. وهو تلقى المخاطب بغير ما يترقب، أو السائل بغير ما يتطلب، كما قال - تعالى - : ﴿يسألونك عن الأهلة﴾ الآية. قالوا فى السؤال. ما بال الهلال يبدو دقيقًا. . ألخ فأجيبوا بما ترى. وإن هذا الأسلوب الحكيم لربما صادف المقام فحرك من نشاط السامع ما سلبه حكم الوقور، وأبرزه فى معرض المسحور، وهل ألان شكيمة «الحجاج الثقفى» لذلك الرجل الخارجى، وسل سخيمته، حتى آثر أن يحسن على أن يسيء غير أن سحره بهذا الأسلوب؟ إذ توعده الحجاج بالقيد فى قوله «لأحملنك على الأدهم» فقال الخارجى متغابيا: مثل الأمير بحمل على الأدهم الأشهب. مبرزًا وعيده فى معرض الوعد، متوصلا أن يريه بألطف وجه: أن رجلا مثله جدير

بأن يعد لا أن يوعد».

وقوله - تعالى - : ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها﴾ هذا القول الكريم نهى لجماعة المسلمين عن عادة كانوا يفعلونها فى الجاهلية، وهى أنهم كانوا إذا عادوا من حجهم أو أحرموا لا يدخلون من أبواب بيوتهم، بل كانوا يدخلون من نقب ينقبونه فى ظهور بيوتهم.

أخرج البخارى عن أبى إسحاق قال : سمعت البراء - رضى الله عنه - يقول : نزلت هذه الآية فينا. كانت الأنصار إذا حجوا فجاءوا لم يدخلوا من قبل أبواب بيوتهم ولكن من ظهورها. فجاء رجل من الأنصار فدخل من قبل بابه فكأنه عير بذلك فنزلت : ﴿وليس البر﴾ إلخ.

والمعنى : وليس من البر ما كنتم تفعلونه فى الجاهلية من دخولكم البيوت من ظهورها عند إحرامكم أو عودتكم من حجكم، ولكن البر الحق الجامع لخصال الخير يكون فى تقوى الله بأن تمتثلوا أوامره وتجتنبوا نواهيه، وإذا ثبت ذلك فعليكم أن تأتوا البيوت من أبوابها عند إحرامكم أو رجوعكم من حجكم.

وفى الأمر بأتيان البيوت من أبوابها إشعار بأن إتيانها من ظهورها باسم الدين غير مأذون فيه، وكل ما يفعل باسم الدين وليس له فى الدين من شاهد فهو بدعة، وكل بدعة ضلالة.

وفى الآية الكريمة تعريض بمن يسأل النبى ﷺ عما هو ليس من العلم المختص بالنبوة، ولا تتوقف معرفته على الوحى، فهذا السائل فى سؤاله مثله كمثل من يدخل البيت من ظهره لا من بابه.

قال بعضهم : وذلك لأن العلم على ضربين : علم دنيوى يتعلق بأمر المعاش - كمعرفة الصنائع ومعرفة حركات النجوم ومعرفة المعادن والنبات، وقد جعل الله لنا سبيلا إلى معرفة ذلك على غير لسان نبيه ﷺ.

وعلم شرعى يتعلق بالعبادات والمعاملات والعقيدة ولا سبيل إلى أخذه إلا من الصادق المصدوق ﷺ.

فلما جاءوا يسألون النبى ﷺ عما أمكنهم معرفته من غير جهته أجابهم. ثم بين لهم أن البر فى التقوى وذلك يكون بالعلم والعمل المختص بالدين»[1].

قال صاحب الكشاف : فإن قلت. ما وجه اتصال قوله - تعالى - : ﴿وليس البر﴾ إلخ بما

---

(١) تفسير القاسمى جـ٢ ص ٤٧٣ بتصرف.

قبله؟ قلت : كأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الأهلة وعن الحكمة فى نقصانها وتمامها : إن كل ما يفعله الله - تعالى - لا يكون إلا عن حكمة ومصلحة لعباده فدعوا السؤال عنه وانظروا فى واحدة تفعلونها أنتم مما ليس من البر فى شىء وأنتم تحسبونها برا. ويجوز أن يكون ذلك على طريق الاستطراد لما ذكر أنها مواقيت للحج، لأنه كان من أفعالهم فى الحج. ويَحتمل أن يكون هذا لتعكيسهم فى سؤالهم وأن مثلهم كمثل من يترك باب البيت ويدخله من ظهره. والمعنى : ليس البر وما ينبغى أن تكونوا عليه بأن تعكسوا فى مسائلكم، ولكن البر بر من اتقى ذلك وتجنبه ولم يجسر على مثله ثم قال : ﴿وأتوا البيوت من أبوابها﴾ أى : باشروا الأمور من وجوهها التى يجب أن تباشر عليها ولا تعكسوا، والمراد وجوب توطين النفوس وربط القلوب على أن جميع أفعال الله حكمة وصواب»[1].

وقوله - تعالى - : ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ أمر بالتقوى التى تتضمن القيام بجميع الواجبات واجتناب البدع والمنكرات. أى : افعلوا ما أمركم الله به، واجتنبوا مانهاكم عنه، لتكونوا من المفلحين، وهم الفائزون بالحياة المطمئنة فى الدنيا والنعيم الخالد فى الآخرة. وبذلك تكون الآية الكريمة قد رددت عقول الناس إلى النظر والتأمل فى سنن الله وفى خلقه على النحو الذى ينشىء التقوى فى النفوس، ويوجه إلى العمل الصالح الذى يرضى الله - تعالى -.

وبعد أن أمر - سبحانه - المؤمنين بطاعته وتقواه، وحضهم على الجهاد فى سبيله إذ هو من أجل مظاهرها، وبصرهم بحكمته وآدابه فقال - تعالى - :

وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٢٤٣.

ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

قال ابن كثير: قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العاليه فى قوله - تعالى - ﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ قال: هذه أول آية نزلت فى القتال بالمدينة فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله ويكف عمن كف عنه حتى نزلت سورة براءة[1].

ويرى بعض العلماء أن هذه الآيات قد وردت فى الأذن بالقتال للمحرمين فى الاشهر الحرم إذا فوجئوا بالقتال بغيًا وعدوانًا. فهى متصلة بما قبلها أتم الاتصال، لأن الآية السابقة بينت أن الأهلة مواقيت للناس فى عباداتهم ومعاملاتهم عامة وفى الحج خاصة وهو فى أشهر هلالية مخصوصة كان القتال فيها محرمًا فى الجاهلية. فقد أخرج الواحدى عن ابن عباس أن هذه الآيات نزلت فى صلح الحديبية، وذلك أن رسول الله ﷺ صده المشركون عن البيت الحرام - ثم صالحوه فرضى على أن يرجع عامه القابل ويخلوا له مكة ثلاثة أيام يطوف ويفعل ما يشاء فلما كان العام القابل تجهز هو وأصحابه لعمرة القضاء وخافوا ألا تفى لهم قريش، وأن يصدوهم عن المسجد الحرام بالقوة ويقاتلوهم وكره أصحابه قتالهم فى الحرم والشهر الحرام فأنزل الله - تعالى الآيات[2].

والقتال والمقاتلة: محاولة الرجل قتل من يحاول قتله، والتقاتل محاولة كل واحد من المتعاديين قتل الآخر.

قال أبو حيان: وقوله: ﴿فى سبيل الله﴾ السبيل هو الطريق. واستعير لدين الله وشرائعه لأن المتبع لذلك يصل به إلى بغيته الدينية والدنيوية، فشبه بالطريق الموصل الإنسان إلى ما يقصده، وهذا من استعارة الأجرام للمعانى ويتعلق ﴿فى سبيل الله﴾ بقوله: ﴿وقاتلوا﴾ وهو

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٢٦.
(٢) تفسير المنار جـ ٢ ص ٢٠٨.

ظرف مجازى، ، لأنه لما وقع القتال بسبب نصرة الدين صار كأنه وقع فيه، وهو على حذف مضاف والتقدير فى نصرة دين الله[١].

والمراد بالقتال فى سبيل الله : الجهاد من أجل إعلاء كلمته حتى يكون أهل دينه الحق أعزاء لا يسومهم أعداؤه ضيمًا، وأحرارًا فى الدعوة إليه وإقامة شرائعه العادلة فى ظل سلطان مهيب.

أى : قاتلوا أيها المؤمنون لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه أعداءكم الذين أعدوا أنفسهم لقتالكم ومناجزتكم وتحققتم منهم سوء النية، وفساد الطوية.

فالآية الكريمة تهييج للمؤمنين وإغراء لهم على قتال أعدائهم بدون تردد أو تهيب، وإرشاد لهم إلى أن يجعلوا جهادهم من أجل نصرة الحق، لا من أجل المطامع أو الشهوات.

فقد روى الشيخان وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى موسى - رضى الله عنه - أن أعرابيًا أتى النبى ﷺ فقال : يارسول الله الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه - أى : ليتحدث الناس بشجاعته وليظهر بينهم - أى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله - ﷺ : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله ».

والأحاديث فى الدعوة إلى أن يكون الجهاد فى سبيل الله من أجل إعلاء كلمته كثيرة متعددة.
وقوله ﴿ولا تعتدوا﴾ نهى عن الاعتداء بشتى صوره ويدخل فيه دخولا أوليا الاعتداء فى القتال.

والاعتداء : مجاوزة الحد فيما أمر الله به أو نهى عنه.

أى : قاتلوا فى سبيل الله من يناصبكم القتال من المخالفين، ولا تتجاوزوا فى قتالهم إلى من ليس شأنهم قتالكم، كنسائهم، وصبيانهم ورهبانهم، وشيوخهم الطاعنين فى السن إلى حد الهرم، ويلحق بهؤلاء المريض والمقعد والأعمى والمجنون. وقد وردت فى النهى عن قتل هؤلاء الأحاديث النبوية ووصايا الخلفاء الراشدين لقواد جيوشهم، فهؤلاء يتجنب قتالهم إلا من قامت الشواهد على أن له أثرًا من رأى أو عمل فى الحرب، يؤازر به المحاربين لينتصروا على المجاهدين.

قال ابن كثير : ولهذا جاء فى صحيح مسلم عن بريدة أن رسول الله ﷺ كان يقول : « أغزوا فى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، أغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع وفى الصحيحين عن ابن عمر قال : وُجِدَتْ امرأة فى بعض المغازى مقتولة فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان »[٢].

---

(١) تفسير البحر المحيط جـ ٢ ص ٦٥ لأبى حيان.
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٢٦.

وقوله : ﴿إن الله لا يحب المعتدين﴾ كالتعليل لما قبله فى النهى عن مجاوزة ما حده الله - تعالى - فى قتال المخالفين.

ومحبة الله لعباده : صفة من صفاته - تعالى - من أثرها الرعاية والإنعام. وإذا نفى الله - تعالى - محبته لطائفة من الناس فهو كناية عن بغضه لهم، واستحقاقهم لعقوبته.

وقوله : ﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ الضمير المنصوب فيه يعود على قوله : ﴿الذين يقاتلونكم﴾ فى الآية السابقة.

و ﴿ثقفتموهم﴾ : أدركتموهم وظفرتم بهم. يقال : ثقف الشىء إذا ظفر به ووجده على جهة الأخذ والغلبة ومنه رجل ثقف إذا كان سريع الأخذ لأقرانه. قال الشاعر :

فـإمـا تثقـفـونى فـاقـتلونى فمن أثقف فليس إلى خلود

ويقال - أيضًا - رجل ثقف : إذا كأن محكمًا لما يتناوله من الأمور.

والمعنى : عليكم أيها المسلمون أن تقتلوا هؤلاء الذين اذنا لكم بقتالهم حيث وجدتموهم وظفرتم بهم، فأنهم قد بادءوكم بالعدوان، وتمنوا لكم كل شر وسوء.

وقوله : ﴿وأخرجوهم من حيث أخرجوكم﴾ معطوف على ما قبله.

وحيث ظرف مكان. والمكان الذى أخرجوهم منه هو مكة، فإن المشركين من قريش قد أنزلوا بالمسلمين الأولين من صنوف الأذى ما جعلهم يتركون مكة ويهاجرون إلى بلاد الحبشة أولا. ثم إلى المدينة المنورة ثانيا.

أى : اقتلوا هؤلاء الذين قاتلوكم فى أى مكان لقيتموهم فيه، وأخرجوهم من المكان الذى أخرجوكم منه وهو مكة.

وفى هذا تهديد للمشركين، وإغراء للمسلمين بهم، ووعد بفتح مكة وقد أنجز الله - تعالى - وعده ففتح المسلمون مكة فى السنة الثامنة من الهجرة.

وقوله - تعالى - : ﴿والفتنة أشد من القتل﴾. دفع لما قد يقع من بعض المسلمين من استعظام قتل المشركين فى مكة.

والفتنة فى الأصل : مصدر فتن الصائغ الذهب والفضة إذا أذابهما بالنار ليستخرج الزائف منهم ثم استعملت فى الابتلاء والامتحان والصرف عن الشىء، وأكثر استعمالها فى التضليل والصد عن الدين، ثم على الكفر.

ويبدو أن المراد منها هنا ما كان يفعله المشركون مع المسلمين من التعذيب والصد عن الدين، والإخراج من الوطن، وغير ذلك من صنوف الأذى.

والمعنى : لا تقصروا فى قتل المشركين الذين يقاتلونكم، والذين أخرجوكم من دياركم، فإن فتنتهم لكم بالإيذاء والتعذيب والصد عن الدين، أشد ضررا من قتلكم لهم فى أى مكان وجدوا به.

وبعضهم فسر الفتنة هنا بالشرك، أو بالرجوع إلى الكفر، أو بعذاب الآخرة، وقد بين ذلك صاحب الكشاف بقوله. وقوله : «والفتنة أشد من القتل» أى : المحنة والبلاء الذى ينزل بالإنسان يتعذب به أشد عليه من القتل وقيل لبعض الحكماء : ما أشد من الموت : قال : الذى يتمنى فيه الموت، جعل الإخراج من الوطن من الفتن والمحن التى يتمنى عندها الموت، ومنه قول القائل :

القتل بحد السيف أهون موقعا على النفس من قتل بحد فراق

وقيل : ﴿الفتنة﴾ عذاب الآخرة قال - تعالى - ﴿ذوقوا فتنتكم﴾ وقيل : الشرك أعظم من القتل فى الحرم، وذلك أنهم كانوا يستعظمون القتل فى الحرم ويعيبون به المسلمين. فقيل : والشرك الذى هم عليه أشد وأعظم مما يستعظمونه ويجوز أن يراد : وفتنتهم إياكم بصدكم عن المسجد الحرام أشد من قتلكم إياهم فى الحرم، أو من قتلهم إياكم إن قتلوكم فلا تبالوا بقتالهم»[1].

وإلى هنا تكون الآية الكريمة قد أذنت للمؤمنين فى قتل الذين يناجزونهم القتال دفعًا لشرهم أينما وجدوا.

ثم ساقت الآية جملة أخرى نهت فيها المؤمنين عن قتال المشركين عند المسجد الحرام مراعاة لحرمته. ما دام المشركون لم يفاتحوهم بالقتال عنده، أما إذا فاتحوهم بالقتال فيه، فقد أصبح من حق المؤمنين أن يدافعوا عن أنفسهم، وأن يقاتلوا أعداءهم. وهذه الجملة هى قوله - تعالى - : ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم﴾.

أى : لا تقاتلوا أيها المؤمنون أعداءكم عند المسجد الحرام احترامًا له حتى يبدأ المشركون قتالكم عنده فإن بدءوكم بالقتال فيه فلا حرج عليكم فى قتلهم عنده، لأن المنتهك لحرمة المسجد الحرام إنما هو البادىء بالقتال فيه وهم المشركون، ولستم أنتم أيها المؤمنون لأن موقفكم إنما هو موقف المدافع عن نفسه.

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد حفظت للمسجد الحرام حرمته وهيبته ومكانته السامية لأن حرمته لذاته، وحرمة سائر الحرم من أجله، إلا أنها أذنت للمسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم إذا

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٣٦.

ما هاجمهم المشركون عنده أو فيه.

قال ابن كثير ما ملخصه : وقد دلت الآية على الأمر بقتال المشركين فى الحرم إذا بدأوا بالقتال فيه دفعا لصولتهم، كما بايع النبى ﷺ أصحابه يوم الحديبية تحت الشجرة على القتال، لما تألبت عليه بطون قريش ومن والاهم من أحياء ثقيف والأحابيش عامئذ، ثم كف الله القتال بينهم فقال : ﴿وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾[١].

وقال ﷺ لخالد بن الوليد ومن معه يوم الفتح : إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصدًا حتى توافونى على الصفا. . فما عرض لهم أحد إلا أناموه وأصيب من المشركين نحو اثنى عشر رجلاً »[٢].

ولم يقل - سبحانه - فإن قاتلوكم فقاتلوهم، وإنما قال ﴿فإن قاتلوكم فاقتلوهم﴾ تبشيرًا للمؤمنين بالغلبة عليهم، وإشعارًا بأن هؤلاء المشركين من الخذلان والضعف بحالة أمر الله المؤمنين معها بقتلهم لا بقتالهم فهم لضعفهم لا يحتاجون من المؤمنين إلا إلى القتل.

وقوله : ﴿كذلك جزاء الكافرين﴾ تذييل لما قبله. واسم الإشارة ذلك يعود إلى قتل المقاتلين أينما وجدوا.

والجزاء : ما يقع فى مقابلة الإحسان أو الإساءة، فيطلق على ما يثاب به المحسن، وعلى ما يعاقب به المسىء. والمراد به فى الآية العقاب.

أى : مثل هذا الجزاء العادل من القتل والردع يجازى الله الكافرين الذين قاتلوا المؤمنين وأخرجوهم من ديارهم.

ثم فتح القرآن للكافرين الذين قاتلوا المسلمين التوبة فقال : ﴿فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم﴾.

الانتهاء : أصله مطاوع نهى. يقال : نهاه فانتهى ثم توسع فيه فأطلق على الكف عن الشيء، لأن النهى هو طلب ترك الشيء.

أى : فإن انتهوا عن الكفر وعن مقاتلتكم فكفوا عنهم ولا تتعرضوا لهم فإن الله غفور رحيم. وكل من تاب من كفر أو معصية فشأن الله معه أن يغفر له ويرحمه.

ونظير هذه الآية قوله - تعالى - : ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾[٣] وإنما قلنا فإن انتهوا عن الكفر وعن القتال لأن سياق الحديث عن الكافرين المقاتلين للمؤمنين،

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٢٧.
(٢) تفسير القاسمى جـ ٢ ص ٤٧٦.
(٣) تفسير الألوسى جـ ٢ ص ٧٦.

فيكون حمل الانتهاء على الأمرين معا أولى من حمله على القتال فحسب.

وقوله - تعالى - : ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله﴾ معطوف على جملة ﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ والضمير «هم» يعود على الذين يقاتلون المسلمين وهم من سبق الحديث عنهم.

والمراد من ﴿الفتنة﴾ الشرك وما يتبعه من أذى المشركين للمسلمين واضطهادهم وتعذيبهم.

قال الآلوسى : ويؤيده أن مشركى العرب ليس فى حقهم إلا الإسلام أو السيف. لقوله - سبحانه - : ﴿تقاتلونهم أو يسلمون﴾.

وفى الصحيحين عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قال : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله».

والدين فى اللغة : العادة والطاعة ثم استعمل فيما يتعبد به الله - تعالى - سواء أكان ما تعبد به صحيحًا أم باطلاً.

والمراد هنا:الدين الصحيح الذى شرعه الله لعباده على لسان نبيهم محمد ﷺ ليتوصلوا به إلى الصلاح فى الحال والفلاح فى المآل.

والمعنى : قاتلوا أولئك المشركين حتى تزيلوا الشرك، وحتى تكسروا شوكتهم ولا يستطيعوا أن يفتنوا طائفة من أهل الدين الحق، وحتى يكون الدين الظاهر فى الأرض هو الدين الذى شرعه الله - تعالى - على لسان نبيه محمد ﷺ.

وقد تحقق ذلك بالقتال الذى دار بين المسلمين والمشركين فى أكثر من عشرين غزوة قادها النبى ﷺ بنفسه، وفى أكثر من أربعين سرية بعث فيها أصحابه، وكانت ثمار هذه المعارك أن انتصر الحق وزهق الباطل. وقبل أن يلتحق النبى ﷺ بالرفيق الأعلى كان الدين الظاهر فى جزيرة العرب هو دين الإسلام الذى جاء به الرسول ﷺ.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ والعدوان فى أصل اللغة : الاعتداء والظلم الذى هو من الأفعال المحرمة والمراد به فى الآية القتل حيث يرتكب جزاء للظالمين.

والفاء فى قوله ﴿فان انتهوا﴾ للتعقيب. وقوله : ﴿فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ قائم مقام جواب الشرط، لأنه علة الجواب المحذوف.

والمعنى : فإن امتنعوا عن قتالكم ولم يقدموا عليه، وأذعنوا لتعاليم الإسلام، فكفوا عن

قتالهم، لأنهم قد انتفى عنهم وصف الظلم، وما دام قد انتفى عنهم هذا الوصف فلا يصح أن تقاتلوهم، إذ القتال إنما يكون للظالمين تأديبًا لهم ليرجعوا عن ظلمهم.

ففى الجملة الكريمة إيجاز بالحذف، واستغناء عن المحذوف بالتعليل الدال عليه.

قال الإمام الرازى: أما قوله - تعالى - : ﴿فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ ففيه وجهان:

الأول: فإن انتهوا فلا عدوان أى: فلا قتل إلا على الذين لا ينتهون عن الكفر، فإنهم بإصرارهم على كفرهم ظالمون لأنفسهم قال - تعالى - : ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾.

فإن قيل: لم سمى ذلك القتل عدوانا مع أنه فى نفسه صواب؟ قلنا: لأن ذلك القتل جزاء العدوان فصح إطلاق اسم العدوان عليه، كقوله - تعالى - : ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾.

الثانى: إن تعرضتم لهم بعد انتهائهم عن الشرك والقتال كنتم أنتم ظالمين، فتسلط عليكم من يعتدى عليكم[1].

وقوله - تعالى - : ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام﴾ بيان للحكمة فى إباحة القتال فى الأشهر الحرم، وإيذان بأن مراعاة حرمة الشهر الحرام إنما هى واجبة فى حق من يصون حرمته، أما من هتكها فقد صار بسبب انتهاكه لحرمة الشهر الحرام محلا للقصاص والمعاقبة فى الشهر وفى غيره.

وسمى الشهر الحرام لأنه يحرم فيه ما يحل فى غيره من القتال ونحوه، والتعريف فيه - على الراجح - للجنس فهو يشمل الأشهر الحرم جميعها وهى أربعة: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب.

قال - تعالى - : ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم، ذلك الدين القيم، فلا تظلموا فيهن أنفسكم؛ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة، واعلموا أن الله مع المتقين﴾[2].

قال القرطبى: نزلت فى عمرة القضاء، وذلك أن رسول الله ﷺ خرج معتمرًا حتى بلغ الحديبية فى ذى القعدة سنة ست، فصده المشركون كفار قريش عن البيت فانصرف ووعده - سبحانه - أنه سيدخله فدخله فى ذى القعدة سنة سبع وقضى نسكه ونزلت هذه الآية[3]

والمعنى: هذا الشهر الحرام الذى تؤدون فيه عمرة القضاء، بذلك الشهر الحرام الذى صدكم المشركون فيه عن دخول المسجد الحرام، فإذا بدءوا بانتهاك حرمته بقتالكم فيه، فلا

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١٤٦.
(٢) سورة التوبة الآية ٣٦.
(٣) تفسير القرطبى جـ ٢ ص ٣٥٥.

تبالوا أن تقاتلوهم فيه دفاعًا عن أنفسكم، إذ هم البادئون بهتك حرمته.

وقوله : ﴿والحرمات قصاص﴾ متضمن لإقامة الحجة على الحكم السابق والحرمات : جمع حرمة، وهى ما يحفظ ويرعى ولا ينتهك.

والقصاص : المساواة. أى، وكل حرمة يجرى فيها القصاص. فمن هتك أية حرمة اقتص منه بأن تهتك له حرمة.

والمراد : أن المشركين إذا أقدموا على مقاتلتكم - أيها المؤمنون - فى الحرم أو فى الشهر الحرام، فقاتلوهم أنتم أيضًا على سبيل القصاص والمجازاة بالمثل، حتى لا يتخذوا الأشهر الحرم ذريعة للغدر والإضرار بكم.

ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى بقوله : ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾.

أى : فمن اعتدى عليكم وظلمكم فجازوه باعتدائه وقابلوه بمثل ما اعتدى عليكم بدون حيف أو تجاوز للحد الذى أباحه الله لكم.

وسمى جزاء الاعتداء اعتداء على سبيل المشاكلة.

قال الآلوسى : واستدل الشافعى بالآية على أن القاتل يقتل بمثل ما قتل به من محدد أو خنق أو حرق أو تجويع أو تغريق. حتى لو ألقاه فى ماء عذب لم يلق فى ماء ملح. واستدل بها أيضًا على أن من غصب شيئًا وأتلفه لزمه رد مثله، ثم إن المثل قد يكون من طريق الصورة - كما فى ذوات الأمثال - وقد يكون من طريق المعنى كالقيم فيما لا مثل له[1].

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالأمر بالتقوى والخشية منه فقال : ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾.

أى : اتقوا الله وراقبوه فى الانتصار لأنفسكم، وترك الاعتداء فيما لم يرخص لكم فيه، واعلموا أن الله مع الذين يمتثلون أمره ويجتنبون نهيه بالنصر والرعاية والتأييد.

ثم أمر الله - تعالى - المؤمنين ببذل المال من أجل إعلاء كلمته، ونصرة دينه، فقال : ﴿وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾.

قال الإمام الرازى : الإنفاق هو صرف المال إلى وجوه المصالح فلذلك لا يقال فى المضيع : إنه منفق. فإذا قيد الإنفاق بذكر سبيل الله، فالمراد به طريق الدين، لأن السبيل هو الطريق،

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١ ص ٧٧.

وسبيل الله هو دينه، فكل ما أمر الله به فى دينه من الإنفاق فهو داخل فى الآية سواء أكان إنفاقًا فى حج أو فى صلة رحم أو غير ذلك، إلا أن الأقرب فى هذه الآية - وقد تقدم ذكر الجهاد - أنه يراد به الإنفاق فى الجهاد، وقوله ﴿فى سبيل الله﴾ كالتنبيه على العلة فى وجوب هذا الإنفاق، وذلك لأن المال مال الله فيجب انفاقه فى سبيله، ولأن المؤمن إذا سمع ذكر الله اهتز ونشط فيسهل عليه إنفاق المال(١).

و﴿تلقوا﴾ من الإلقاء وهو طرح الشيء من اليد.

قال الجمل: والباء فى قوله: ﴿بأيديكم﴾ تحتمل وجهين:

أحدهما: أنها زائدة فى المفعول به لأن ألقى يتعدى بنفسه، قال - تعالى -: ﴿فألقى عصاه﴾.

والثانى: أن يضمن ألقى معنى فعل يتعدى بالباء فيتعدى تعديته فيكون المفعول به فى الحقيقة هو المجرور بالباء تقديره، ولا تفضوا بأيديكم إلى التهلكة كقوله: أفضيت بجنبى إلى الأرض أى: طرحته على الأرض»(٢).

والمراد بالأيدى: الأنفس، من باب ذكر الجزء وإرادة الكل، لأن أكثر ظهور أفعال النفس تكون عن طريق اليد.

والتهلكة: الهلاك والموت. أو كل شيء تصير عاقبته إليه. مصدر هلك يهلك هلكًا وهلاكًا وتهلكة.

والجملة الكريمة معطوفة على جملة ﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم..﴾ ألخ، لأنهم لما أمروا بقتال عدوهم، وكان أوفر منهم عدة وعددًا، كلفهم بالاستعداد له عن طريق إنفاق الكثير من أموالهم فى سبيل إعلاء كلمة الله لأن هذا الإنفاق من أقوى الوسائل التى توصل إلى النصر.

والمعنى: عليكم، أيها المؤمنون - أن تقاتلوا فى سبيل الله من قاتلكم، وأن تنفقوا من أجل إعلاء كلمة الله أموالكم، ولا تلقوا أنفسكم فيما فيه هلاككم فى دين أو دنيا، بسبب ترككم الجهاد وبخلكم عن الإنفاق فيه مع القدرة على ذلك.

ويشهد لهذا المعنى ما أخرجه الترمذى وغيره عن أبى عمران قال: كنا بمدينة الروم القسطنطينية - فأخرجوا إلينا صفا عظيمًا من الروم. فخرج إليهم من المسلمين مثلهم فحمل

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١٤٨ بتصرف وتلخيص.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ١٥٥.

رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم، فصاح الناس وقالوا: سبحان الله يلقى بيديه إلى التهلكة!! فقام أبو أيوب الأنصارى فقال: يا أيها الناس إنكم لتؤولون هذه الآية هذا التأويل، وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار. لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه، فقال بعضنا لبعض سرًا - دون رسول الله ﷺ إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعز الإسلام، وكثر ناصروه، فلو أقمنا فى أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله - تعالى - على نبيه يرد علينا ما قلناه ﴿وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾. فكانت التهلكة الإقامة على الأموال، وإصلاحها، وتركنا الغزو.

قال الراوى: فمازال أبو أيوب شاخصًا فى سبيل الله حتى دفن بأرض الروم.

فالآية الكريمة تأمر المؤمنين بأن ببذلوا أموالهم فى الجهاد فى سبيل الله بصفة خاصة، وفى كل موطن من مواطن الخير بصفة عامة، لأن عدم البذل فى سبيل الخير يؤدى إلى ضعف الأمة واضملالها.

ثم ختم - سبحانه - الآية بالترغيب فى الإحسان فقال: ﴿وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾ أى: أحسنوا كل أعمالكم وأتقنوها، لأنه - سبحانه - يحب المحسنين فى كل شئونهم، ويثيبهم على ذلك بما يسعدهم فى دينهم ودنياهم.

هذا، وتأمل معى - أيها القارئ الكريم - فى هذه الآيات تراها قد رسمت أحكم منهاج وأعدله فى شأن الحرب والسلم.

إنها تأمر المؤمنين أن يجاهدوا أعداءهم الذين بدأوهم بالقتال، وأن يقتلوهم حيث وجدوهم. ويخرجوهم من حيث أخرجوهم، كما تأمرهم أن يبذلوا أموالهم فى سبيل الله بدون إمساك أو بخل، وهذا من أقوى أنواع الحض على الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله.

ولكنها فى الوقت نفسه تنهاهم عن الاعتداء، وتنهاهم عن القتال فى الأشهر الحرم وفى الأماكن المقدسة إلا إذا قاتلهم المشركون فيها، كما تنهاهم عن قتالهم إذا ما انتهوا عن عدوانهم وكفرهم، لأن شريعة القرآن تستجيب لداعى السلم متى كف المعتدون عن العدوان، وأحترموا كلمة الإسلام.

وبذلك نرى أن القتال فى الإسلام ليس من أجل الغنائم، أو الاستغلال أو الاستعباد، أو التباهى.. كلا ليس لأجل شيء من هذا، وإنما هو من أجل الدفاع عن الحق وأهله، حتى تكون كلمته هى العليا وكلمة الباطل هى السفلى، وبهذا تسعد الإنسانية، وتنال ما تصبو إليه من عزة وفلاح.

وبعد هذا الحديث المحكم عن القتال فى سبيل الله، وبيان أحكامه بالنسبة للأشهر الحرم وللبيت الحرام، ساق القرآن فى بضع آيات جملة من الأحكام والآداب التى تتعلق بفريضة الحج، إذ القتال جهاد لحماية الأمة الإسلامية من الخارج، والحج جهاد لتهذيب النفس وحماية الأمة من الداخل عن طريق تجميع أبنائها على اختلاف ديارهم فى مكان واحد ليشهدوا منافع لهم، وليتعاونوا على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان. استمع إلى سورة البقرة وهى تحدثك عن بعض أحكام الحج وآدابه فتقول:

وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

تعتبر هذه الآية الكريمة من أجمع الآيات التى وردت فى القرآن الكريم مبينة ما يتعلق بأحكام الحج وآدابه، وسنحاول - بعون الله - أن نبين ما اشتملت عليه من آداب سامية، وتوجيهات حكيمة، بأسلوب هو إلى الإيجاز أقرب منه إلى الإسهاب والإطناب، قاصدين عدم التعرض لتفريعات الفقهاء واختلافاتهم إلا بالقدر الذى يقتضيه المقام.

والحج فى اللغة: القصد يقال حج فلان الشىء: إذا قصده مرة بعد أخرى.

وفى الشرع: القصد لزيارة بيت الله الحرام فى وقت مخصوص بأفعال مخصوصة، وبكيفية مخصوصة، بينتها الشريعة الإسلامية.

والعمرة فى اللغة: الزيارة، مأخوذة من العمارة التى هى ضد الخراب ثم أطلقت على الزيارة التى يقصد بها عمارة المكان.

وفى الشرع : زيارة بيت الله الحرام للتقرب إليه، وقد بين النبى ﷺ أركانها وشروطها وكيفيتها.

وقد كانت شعيرة الحج والعمرة معروفتين عند العرب قبل الإسلام، ولكن بأفعال وبكيفية فيها الكثير من الأباطيل والأوهام، فجاءت شريعة الإسلام فوضعت لهما أفضل الأحكام، وأسمى الآداب، وأمر النبى ﷺ المسلمين أن يسيروا فى أدائهما على الطريقة التى سار عليها فقال : «خذوا عنى مناسككم».

قال ابن كثير: «وقد ثبت أن رسول الله ﷺ اعتمر أربع عمر كلها فى ذى القعدة عمرة الحديبية فى ذى القعدة سنة ست، وعمرة القضاء فى ذى القعدة سنة سبع، وعمرة الجعرانة فى ذى القعدة سنة ثمان، وعمرته التى مع حجته أحرم بهما معًا فى ذى القعدة سنة عشر. وما اعتمر فى غير ذلك بعد هجرته»[1].

وقد اختلف العلماء فى المقصود من الإتمام فى قوله - تعالى : ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ فبعضهم يرى أن المراد بإتمامهما : إقامتهما وإيجادهما وإنشاؤهما فيكون المعنى : أقيموا الحج والعمرة لله : أى أدوهما وائتوا بهما. فالأمر فى «أتموا» منصب على الإنشاء والأداء. فهو كقوله - تعالى - : ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ وأصحاب هذا الرأى يرون أن العمرة واجبه كالحج، لأن الله - تعالى - أمر بهما معًا، ولأن الرسول ﷺ قال : «تابعوا بين الحج والعمرة..».

وإلى هذا الرأى أتجه سعيد بن جبير، وعطاء، وسفيان الثورى، والشافعية.

ويرى كثير من الصحابة والتابعين والفقهاء كالأحناف والمالكية - أن المراد بإتمامهما : الإتيان بهما تامين بمناسكهما المشروعة لوجه الله - تعالى - وأن على المسلم إذا شرع فيهما أو فى أحدهما أن يتمه ويأتى به كاملا، كما فعل النبى ﷺ وأصحابه فى عمرة القضاء.

فيكون المعنى : ائتوا بالحج والعمرة كاملى الأركان والشروط والآداب خالصين لوجه الله - تعالى -.

فالأمر على هذا الرأى منصب على الإتمام لا على أصل الأداء.

وأصحابه يرون أن العمرة ليست واجبة كالحج لعدم قيام الدليل على وجوبها، وليس فى الآية ما يفيد الوجوب، بل فيها ما يفيد وجوب الإتمام إن شرع فيهما أو فى أحدهما. وفرضية الحج إنما ثبتث بقوله - تعالى - : ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾. وأيضًا، فإن أركان العمرة وأفعالها تدخل فى ثنايا أفعال الحج وأركانه، ولذلك ورد فى الحديث

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٣٠.

الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «دخلت العمرة فى الحج إلى يوم القيامة» إلى غير ذلك من الأدلة التى ساقها كل فريق لتدعيم رأيه.

ومجمل القول أن فرضية الحج مجمع عليها بين العلماء، وأما فرضية العمرة ففيها خلاف، انتصر كثير من العلماء فيه للرأى القائل بأنها ليست فرضًا كالحج، بل هى سنة.

وقد كانت فرضية الحج فى السنة التاسعة من الهجرة على أرجح الروايات. ويرى بعض العلماء أن الحج قد فرض قبل ذلك، إلا أن تنفيذه لم يتم إلا فى السنة التاسعة عندما أرسل النبى ﷺ أبا بكر أميرًا على الحج، وكان ذلك تمهيدًا لحجه ﷺ سنة عشر.

وقد أمر - سبحانه - بإتمام الحج والعمرة لله دون غيره لأن العرب كانت تقصد الحج للاجتماع والتظاهر، والتفاخر، وقضاء الحوائج، وحضور الأسواق، دون أن يكون لله - تعالى - فيه حظ يقصد، ولا قربة تعتقد، فأمر - سبحانه - المسلمين أن ينزهوا عباداتهم - وخصوصًا الحج - عن الأقوال السيئة، والأفعال القبيحة، وأن يقصدوا بأداء ما كلفهم الله به الإخلاص والطاعة له - سبحانه -.

وبعد أن أمر الله - تعالى - عباده بأن يتموا الحج والعمرة له، أردف ذلك ببيان ما يجب عليهم عمله فيما لو حال حائل بينهم وبين إتمامهما فقال: ﴿فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى﴾ والإحصار والحصر فى اللغة: بمعنى الحبس والمنع والتضييق سواء أكان بسبب عدو أو مرض أو جور سلطان أو ما يشبه ذلك. قال - تعالى - فى شأن قتال المشركين: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم﴾[1] أى: ضيقوا عليهم المنافذ. ويقال للذى لا يبوح بسره: حصر؛ لأنه حبس نفسه عن البوح بسره.

ويرى بعض علماء اللغة أن الإحصار يكون الحبس والمنع فيه من ذات الشخص كالمرض وذهاب النفقة، وأما الحصر فيكون الحبس والمنع فيه لا من ذات الشخص، بل بسبب أمر خارجى كالعدو ونحوه.

﴿والهدى﴾: - بتخفيف الياء وتشديدها - مصدر بمعنى المفعول، أى: المهدى والمراد به ما يهدى إلى بيت الله الحرام من الإبل والبقرة والشاة ليذبح تقربًا إلى الله - تعالى -.

و﴿استيسر﴾ هنا بمعنى يسر وتيسر أى: ما أمكن تحصيله من الهدى بدون مشقة أو تعب.

والمعنى: أتموا - أيها المؤمنون - الحج والعمرة لله متى قدرتم على ذلك، فإن ﴿أحصرتم﴾

---

(١) سورة التوبة الآية ٥.

أى، منعتم بعد الإحرام من الوصول إلى البيت الحرام بسبب عدو أو مرض أو نحوهما، فعليكم إذا أردتم التحلل من الإحرام أن تذبحوا ما تيسر لكم من الهدى.

وبعض العلماء - كالشافعية والمالكية - يرون أن المراد بالإحصار فى الآية ما كان بسبب عدو، كما حدث للمسلمين فى صلح الحديبية، أما إذا كان الإحصار بسبب مرض، فإن الحاج أو المعتمر يبقى على إحرامه حتى يبرأ من مرضه ثم يذهب إلى البيت فيطوف به سبعًا، ويسعى بين الصفا والمروة، وبهذا يتحلل من عمرته أو حجه، ولا يتحلل بالذبح، إذ التحلل بالذبح عندهم لا يكون إلا فى حالة الإحصار بسبب العدو. أما الأحناف فيرون أن الإحصار سواء أكان بسبب عدو أو مرض أو ما يشبههما فإنه يسيغ التحلل بالذبح، إذ الآية عندهم تعم كل منع، وعلى من أحصر أن يقضى الحج أو العمرة فيما بعد.

وفى هذه الجملة الكريمة تقرير للمبادئ التى جاءت بها شريعة الإسلام تلك المبادئ التى تتوخى فى كل شئونها التيسير لا التعسير، والرفق لا التشديد قال - تعالى - : ﴿يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر﴾[1] وقال -تعالى- : ﴿وما جعل عليكم فى الدين من حرج﴾[2].

ثم قال -تعالى-: ﴿ولاتحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله﴾.

حلق الرأس أوتقصيرها علامة على الانتهاء من الإحرام، كما أن التسليم علامة الانتهاء من الصلاة، أوعلامة قطعهما عند الاضطرار إلى ذلك. والحلق بالنسبة للرجال أفضل من التقصير، فقد أخرج الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم اغفر للمحلقين. قالوا: يارسول الله وللمقصرين. قال: اللهم اغفر للمحلقين. قالوا: يارسول الله وللمقصرين. قال: وللمقصرين»[1]. أما بالنسبة للنساء فيكفى التقصير.

والمحل: اسم لزمان الحلول أو مكانه. يقال: بلغ الدين محله إذا حل وقت أدائه، كما يقال: بلغ الشخص محله إذا وصل إلى المكان الذى ينزل به.

قال الآلوسى: وكون المراد بالمحل هنا المكان هو الظاهر فى الآية.

والمعنى: أتموا الحج والعمرة لله، فإن منعتم من إتمامهما وأنتم محرمون فعليكم إذا أردتم التحلل أن تذبحوا ما تيسر لكم من الهدى، ولا تتحللوا من إحرامكم بالحلق حتى تعلموا أن الهدى المبعوث قد بلغ مكانه الذى يجب أن يراق فيه دمه، وهو الحرم.

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٥.

(٢) سورة الحج الآية ٧٨.

(١) الترغيب والترهيب للمنذرى جـ٢ ص ٢٠٨.

وهذا رأى الأحناف، فقد قرروا أن المراد بالمحل البيت الحرام، فهو اسم مكان، لأن الله - تعالى - قد قال فى آية أخرى: ﴿ثم محلها إلى البيت العتيق﴾[١]، وعليه فلا يجوز للمحصر أن يحلق ويتحلل إلا بعد أن يصل الهدى الذى يرسله إلى البيت الحرام ويذبح.

أما جمهور الفقهاء فيرون أن محل الهدى للمحصر هو المكان الذى حدث فيه الإحصار، ودليلهم أن الرسول ﷺ قد نحر هو وأصحابه هديهم بالحديبية وهى ليست من الحرم، وذلك عندما منعه المشركون من دخول مكة.

وقد أجاب الأحناف على ذلك بأن محصر رسول الله ﷺ كما يقول الألوسى -[٢] كان فى طريق الحديبية بأسفل مكة، والحديبية متصلة بالحرم.

وعلى رأى جمهور الفقهاء يكون المعنى: ولا تتحللوا من إحرامكم بالحلق حتى تذبحوا الهدى فى الموضع الذى أحصرتم فيه، فإذا تم الذبح فاحلقوا وتحللوا. والخطاب على كلا المعنيين يكون للمحصرين، لأنه أقرب مذكور.

ويرى المحققون من العلماء أن رأى جمهور الفقهاء أكثر اتفاقًا مع السنة النبوية، وفيه تسهيل على المحصرين، والمناسب لهم هو التيسير لا التعسير، ولا شك أن ذبحهم لهديهم فى مكان إحصارهم أيسر لهم، وحملوا قوله - تعالى -: ﴿ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله﴾ على أنه خطاب عام لجميع المكلفين لا فرق بين محصر وغير محصر، وأن المقصود من الجملة الكريمة هو البيان العام لمكان التحلل وزمانه، أما مكان الذبح عند الإحصار فقد بينه النبى ﷺ بذبحه لهديه فى الحديبية وهى ليست من الحرم عند المحققين.

قال الإمام الرازى: ومنشأ الخلاف البحث فى تفسير هذه الآية، فقد قال الشافعى وغيره: المحل فى هذه الآية اسم للزمان الذى يحصل فيه التحلل وقال أبو حنيفة: إنه اسم للمكان[٣].

وبعد أن بين - سبحانه - أن الحلق لا يجوز للمحرم ما دام مستمرًا على إحرامه، أردف ذلك ببيان بعض الحالات التى يجوز فيها للمحرم أن يحلق رأسه مع استمراره على إحرامه فقال - تعالى -: ﴿فمن كان منكم مريضًا أو به أذى من رأسه، ففدية من صيام أو صدقة أو نسك﴾.

أى: فمن كان منكم - أيها المحرمون - مريضًا بمرض يضطر معه إلى الحلق، أو كان به أذى

(١) سورة الحج الآية ٣٣.
(٢) تفسير الألوسى جـ ٢ ص ٨١.
(٣) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١٦٣.

من رأسه كجراحة وحشرات مؤذية، فعليه إن حلق فدية من صيام أو صدقة أو نسك.

وقوله: ﴿ففدية﴾ مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف. أى: فعليه فدية، وأيضًا ففيه إضمار آخر والتقدير: فحلق فعليه فدية.

والفدية: هى العوض عن الشىء الجليل النفيس. ولا ريب أن محرمات الحج والعمرة أمور لها جلالها وعظمها.

وعبر - سبحانه - هنا بالفدية دون الكفارة، لأن الذى به مرض أو أذى من رأسه لم يرتكب ذنبًا أو إثمًا حتى يكفر عنه.

قال القرطبى: والنسك: جمع نسيكه، وهى الذبيحة ينسكها العبد لله - تعالى - وتكون من الإبل والبقر والغنم - ويجمع - أيضًا - على نسائك. والنسك: العبادة فى الأصل، ومنه قوله - تعالى - : ﴿وأرنا مناسكنا﴾ أى: متعبداتنا. وقيل: أصل النسك فى اللغة الغسل؛ ومنه نسك ثوبه إذا غسله، فكأن العابد غسل نفسه من أدران الذنوب بالعبادة. وقيل: النسك سبائك الفضة التى خلصت من الخبث، كل سبيكة منها نسيكة، فكأن العابد خلص نفسه من دنس الآثام»[1].

وقوله - تعالى - : ﴿من صيام أو صدقة أو نسك﴾ بيان لجنس الفدية.

وقد بين النبى ﷺ مقدار هذه الفدية، فقد روى الشيخان عن كعب بن عجرة الأنصارى قال: حملت إلى النبى ﷺ والقمل يتناثر على وجهى فقال: ما كنت أرى أن الجهد قد بلغ بك هذا... أما تجد شاة؟ قلت: لا!! قال: صم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام واحلق رأسك. فنزلت فِىَّ خاصة وهى لكم عامة.

فقد بين النبى ﷺ مقدار الفدية فى هذا الحديث، وعامة العلماء يرون أن المحرم لعذر كهذا يخير فى هذا المقام، إن شاء صام وإن شاء تصدق وإن شاء ذبح شاة وتصدق بها على المساكين.

قال ابن كثير: ولما كان لفظ القرآن فى بيان الرخصة جاء بالأسهل فالأسهل، ولما أمر النبى ﷺ كعب بن عجرة بذلك أرشده أولا إلى الأفضل فقال: أما تجد شاه؟ فكل حسن فى مقامه»[2].

وبعد أن بين - سبحانه كيفية التحلل عند الإحصار، وكيفية التحلل الجزئى من بعض

---

(١) تفسير القرطبى جـ٢ ص ٣٨٦.

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٣٣.

المحرمات عند المرض، عقب ذلك ببيان كيفية التحلل فى حالة الأمن فقال : ﴿فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم، تلك عشرة كاملة﴾.

وقوله : ﴿فإذا أمنتم﴾ الأمن ضد الخوف. أى : فإذا زال خوفكم وثبت أمنكم والجملة معطوفة على قوله ﴿أحصرتم﴾ وجىء بإذا لأن فعل الشرط وهو ﴿أمنتم﴾ مرغوب فيه.

وقوله : ﴿فمن تمتع﴾ جواب إذا. والتمتع فى اللغة - كما قال الإمام الرازى - التلذذ. يقال : تمتع بالشىء إذا تلذذ به. والمتاع كل شىء يتمتع به، وأصله من قولهم : حبل ماتع، أى : طويل. وكل من طالت صحبته مع الشىء فهو متمتع به[1].

والمراد بالتمتع فى الآية المعنى الشرعى بأن يجمع المسلم بين العمرة والحج فى عام واحد فى أشهر لحج، بأن يحرم بالعمرة أولا ثم بالحج.

وسمى هذا النوع من الإحرام تمتعًا، لأن المحرم به يجمع بين متعة الروح ومتعة الجسد. لأنه يحرم بالعمرة أولا ويقوم بمناسكها وتلك متعة روحية وبعد الانتهاء من أدائها يتحلل فيجوز له أن يقرب النساء ويمس الطيب حتى يحرم بالحج وتلك متعة بدنية.

وهناك نوعان آخران من الإحرام.

أحدهما : الإفراد ومعناه : أن يحرم بالحج فقط ولا يجمع معه العمرة، وإنما يأتى بها فى وقت آخر.

وثانيهما : القِران ومعناه : أن يجمع بين العمرة والحج فى إحرام واحد، بأن يبقى على إحرامه ويأتى بمناسك الحج والعمرة بالإحرام نفسه.

والمعنى : فإذا ثبت أمنكم - أيها المسلمون - عند أدائكم للحج والعمرة، فمن تمتع منكم بالعمرة إلى الحج، بأن أحرم بها فى أشهر الحج، ثم بعد الانتهاء من أعمالها تحلل بأن حلق رأسه، وباشر أهله إن كانوا معه، وانتظر متحللا وصار من حقه أن يفعل كل ما يفعله من ليس محرمًا إلى وقت الإحرام بالحج، فعليه فى هذه الحالة أن يذبح ما تيسر له من الهدى من غنم أو بقر أو إبل ليكون هذا الذبح شكرًا لله حيث وفقه - سبحانه - للجمع بين النسكين مع التمتع بينهما بأفعال المتحلل، فمن لم يجد ما يذبحه فعليه أن يصوم ثلاثة أيام فى وقت الحج وأن يصوم سبعة أيام بعد فراغه منه.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١٦٧ طبعة عبد الرحمن محمد.

وقوله : ﴿فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام. . .﴾ معطوف على ﴿فمن تمتع بالعمرة. . .﴾ لأن ﴿فمن تمتع﴾ مع جوابه وهو ﴿فما استيسر. . .﴾ مقدر فيه معنى فمن تمتع واجدًا الهدى، فعطف عليه فمن لم يجد أى الهدى.

وقد جعل - سبحانه - الصيام بدلا عن الهدى زيادة فى الرخصة والرحمة وزيادة فى الرفق والتيسير فقد جعله على مرحلتين :

إحداهما : - وهى الأقل - تكون فى وقت الحج، ويفضل كثير من الفقهاء أن يصوم سادس ذى الحجة وسابعه وثامنه.

وثانيتهما : - وهى الأكثر - تكون بعد الرجوع إلى أهله حيث يطمئن ويستقر وتذهب مشقة السفر فيصوم سبعة أيام.

وبعض الفقهاء يرى جواز الصيام عند الأخذ فى الرجوع بعد الفراغ من أعمال الحج، ويرجح الوجه الأول ما رواه الشيخان من حديث ابن عمر وفيه : «فمن لم يجد هديا فليصم ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله»[1].

والإشارة فى قوله - تعالى - : ﴿تلك عشرة كاملة﴾ إلى الثلاثة والسبعة. ومميز العدد محذوف أى : أيام. والجملة مؤكدة لما أفاده قوله : ﴿فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم﴾ وفائدة هذا التأكيد دفع توهم أن الواو بمعنى أو، أو أن السبعة كناية عن مطلق كثرة العدد، وبذلك يتقرر الحكم نصًا، ويتبين أن الذى يحل محل النسك إنما هو العشرة الكاملة وليس بعضها.

ووصف العشرة بأنها كاملة، للتنويه بأن هذا الصوم طريق الكمال لأعمال الحج، وأن الحاج إذا نسى بعضها لا يكون حجه تاما حتى يصوم ما أمره الله - تعالى - به.

وقوله : ﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام﴾ الإشارة فيه تعود إلى التمتع المفهوم من قوله - تعالى - : ﴿فمن تمتع بالعمرة إلى الحج. .﴾ إلخ.

أى : ذلك التمتع الذى يتمتع فيه المحرم بين النسكين، إنما هو للشخص الذى ليس أهله من المقيمين فى مكة وما حولها، لأن المقيمين فى مكة وما حولها يفردون ولا يجمعون، إذ العمرة فى إمكانهم أن يؤدوها طول أيام السنة.

وقد شرع - سبحانه - التمتع ليكون تيسيرًا ورفقًا للمقيمين بعيدًا عن مكة هذا رأى الأحناف.

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٣٤.

ويرى الشافعية : أن أهل مكة وما حولها يقرنون ويتمتعون كغيرهم من أهل الآفاق، وأن اسم الإشارة فى الجملة الكريمة يعود إلى النسك وما يقوم مقامه من الصوم لأنه أقرب مذكور.

وعلى رأيهم يكون المعنى : ذلك الذبح لما تيسر من الهدى والصيام لمن لم يتيسر له الهدى إنما هو على سكان الآفاق، لا على سكان مكة وما حولها، لأن سكان مكة وما حولها قد أحرموا لتمتعهم من الميقات فلا يجب عليهم شىء.

والمراد بحاضرى المسجد الحرام : أهل مكة وأهل الحل الذين منازلهم داخل المواقيت عند الحنفية. وقال المالكية : هم أهل مكة خاصة. وقال الشافعية : هم أهل مكة ومن كان بينه وبين مكة مسافة لا تقصر فيها الصلاة. ولكل أدلته المفصلة فى كتب الفقه.

ثم ختم - سبحانه - الآية بالأمر بتقواه وبالتحذير من عقابه فقال : ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب﴾.

أى : واتقوا الله فى كل ما يأمركم به وينهاكم عنه، واعلموا أن الله شديد العقاب لمن لم يخشه ولم يلتزم حدوده.

وفى هذا الأمر بالتقوى فى ختام هذه الآية التى تحدثت عن الحج إشعار بأن هذه الفريضة ليست العبرة فيها بما تعمله الجوارح وإنما العبرة بما تتركه فى القلوب من توبة صادقة، وصيانة للنفس عن اقتراف المحارم.

وفى قوله : ﴿واعلموا﴾ اهتمام بالخبر، وتحقيق لمضمونه، وترهيب من العقاب مع الترغيب بالثواب، فقد جرت عادة الناس أنهم يصلحون بالثواب والعقاب.

هذا، وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على بعض الأحكام التى تتعلق بالحج والعمرة، والمتدبر فى هذه الأحكام يراها قد امتازت بأحكم ضروب التوجيه، وأيسر أنواع التكليف.

ثم بين - سبحانه - وقت الحج وما يجب على المسلم عند أدائه لهذه الفريضة من آداب فقال - تعالى - :

ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن

تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

وقوله : ﴿الحج أشهر معلومات﴾.

أى : وقت الحج أشهر معلومات أو أشهر الحج أشهر معلومات فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

وجعلت النسبة إلى الحج نفسه لا إلى وقته، للإشعار بأن هذه الأشهر لكونها تؤدى فيها هذه الفريضة قد اكتسبت تقديسًا وبركة منها، حتى لكأن هذه الاشهر هى الفريضة نفسها.

قال القرطبى ما ملخصه : وأشهر الحج هى شوال وذو القعدة والعشرة الأولى من ذى الحجة. وقيل هى شوال وذو القعدة وذو الحجة كله وفائدة الفرق تعلق الدم؛ فمن قال : إن ذا الحجة كله من أشهر الحج لم يوجب دمًا على من أخر طواف الإفاضة إلى آخر ذى الحجة لأنه وقع فى أشهر الحج، ومن قال بأن وقت الحج ينقضى بالعشرة الأولى من ذى الحجة يوجب الدم عليه لتأخيره عن وقته. ولفظ الأشهر قد يقع على شهرين وبعض الثالث، لأن بعض الشهر ينزل منزلة كله، كما يقال : رأيتك سنة كذا ولعله إنما رآه فى ساعة منها»[1].

وعبر - سبحانه - عن هذه الأشهر بأنها معلومات، لأن العرب كانوا يعرفون أشهر الحج من كل عام منذ عهد إبراهيم - عليه السلام - وقد جاء الإسلام مقررًا لما عرفوه. أو المراد بكونها معلومات أنها مؤقتة بأوقات معينة لا يجوز تقديمها ولا تأخيرها عنها، وهو يتضمن بطلان النسىء الذى كان يفعله الجاهليون تبعًا لأهوائهم.

وقوله : ﴿فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج﴾ بيان لما يجب أن يتحلى به المسلم من فضائل عند أدائه لهذه الفريضة.

قال الإمام الرازى : ومعنى ﴿فرض﴾ فى اللغة ألزم وأوجب. يقال : فرضت عليك كذا، أى أوجبته. وأصل معنى الفرض فى اللغة الحز الذى يقع فيه الوتر، ومنه فرض الصلاة وغيرها لأنها لازمة للعبد كلزوم الحز للقدح ففرض هنا بمعنى أوجب وألزم. . . »[2].

والرفث فى الأصل : الفحش من القول. والمراد به هنا الجماع. أو الكلام المتضمن لما يستقبح ذكره من الجماع ودواعيه.

قال القرطبى : وأجمع العلماء على أن الجماع قبل الوقوف بعرفة مفسد للحج وعليه حج قابل والهدى.

والفسوق : الخروج عن طاعة الله بارتكاب المعاصى، ومن ذلك السباب وفعل محظورات الإحرام، وغير ذلك مما نهى الله عنه،

والجدال على وزن فعال من المجادلة وهى مشتقة من الجدل وهو الفتل ومنه : زمام مجدول.

وقيل : هى مشتقة من الجدالة التى هى الأرض. فكأن كل واحد من الخصمين يقاوم صاحبه حتى يغلبه، فيكون كمن ضرب به الجدالة.

والمراد النهى عن المماراة والمنازعة التى تؤدى إلى البغضاء وتغير القلوب.

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٢ ص ٤٠٥.

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١٧٨.

والمعنى : أوقات الحج أشهر معلومات فمن نوى وأوجب على نفسه فيهن الحج وأحرم به فعليه أن يجتنب الجماع للنساء ودواعيه؛ وأن يبتعد عن كل قول أو فعل يكون خارجًا عن آداب الإسلام، ومؤديًا إلى التنازع بين الرفقاء والإخوان، فإن الجميع قد اجتمعوا على مائدة الرحمن، فعليهم أن يجتمعوا على طاعته، وأن يتعاونوا على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

روى الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه».

قال الآلوسى : وقال - سبحانه - ﴿فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج﴾ بالإظهار ولم يقل فيه مع أن المقام يقتضى الإضمار، لإظهار كمال الاعتناء بشأنه، وللإشعار بعلة الحكم، فإن زيارة البيت المعظم والتقرب بها إلى الله - تعالى - من موجبات ترك الأمور المذكورة المدنسة لمن قصد السير والسلوك إلى ملك الملوك. وإيثار النفى للمبالغة فى النهى، والدلالة على أنها حقيقة بأن لا تكون فإن ما كان منكرًا مستقبحًا فى نفسه منهيًا عنه مطلقًا فهو للمحرم بأشرف العبادات وأشقها أنكر وأقبح[1]».

والضمير فى قوله : ﴿فيهن﴾ للأشهر، لأنه جمع لغير العاقل فيجرى على التأنيث.

وجملة ﴿فلا رفث..﴾ إلخ فى محل جزم جواب من الشرطية والرابط بين جملة الشرط والجواب ما فى معنى ﴿فلا رفث﴾ من ضمير يعود على «من»، لأن التقدير فلا يرفث.

ويجوز أن تكون جملة ﴿فلا رفث..﴾ وما عطف عليها فى محل رفع خبر لمن على أنها موصولة.

وقد أخذ الشافعية من هذه الآية أنه لا يجوز الإحرام بالحج فى غير أشهر الحج لأن الإحرام به فى غير أشهره يكون شروعًا فى العبادة فى غير وقتها فلا تصح

ويرى الأحناف والحنابلة، أنه يجوز الإحرام بالحج قبل أشهره ولكنه مع الكراهة : والإمام مالك لا يرى كراهة فى ذلك.

ويبدو أن رأى الشافعية هنا أرجح، لأن قوله - تعالى - : ﴿فمن فرض فيهن الحج..﴾ يشهد لهم، فقد جعل - سبحانه - هذه الأشهر وعاء لهذه الفريضة وظرفًا لها.

وقوله : ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾ حض على فعل الخير عقيب النهى عن فعل الشر.

أى : اتركوا الأقوال والأفعال القبيحة، وسارعوا إلى الأعمال الصالحه خصوصًا فى تلك

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٢ ص ٨٦.

الأزمنة والأمكنة المفضلة، والله - تعالى - لا يخفى عليه شىء من أعمالكم، وهو - سبحانه - سيجازيكم على فعل الخير بما تستحقون من جزاء.

ثم قال - تعالى - : ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾.

قال الإمام الرازى: فى هذه الجملة الكريمة قولان:

أحدهما: أن المراد وتزودوا من التقوى - أى الأعمال الصالحة - والدليل عليه قوله بعد ذلك ﴿فإن خير الزاد التقوى﴾ وتحقيق الكلام فيه أن الإنسان له سفران: سفر فى الدنيا وسفر من الدنيا، فالسفر فى الدنيا لابد له من زاد وهو الطعام والشراب والمال.. إلخ. والسفر من الدنيا لابد له أيضًا من زاد وهو معرفة الله ومحبته والإعراض عما سواه، وهذا الزاد خير من الزاد الأول لأن زاد الدنيا يخلصك من عذاب منقطع وزاد الآخرة يخلصك من عذاب دائم.. قال الأعشى مقررًا هذا المعنى:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثله ... وأنك لم ترصد بما كان أرصدا

والقول الثانى: أن هذه الآية نزلت فى أناس من أهل اليمن كانوا يحجون بغير زاد ويقولون إنا متوكلون، ثم كانوا يسألون الناس، وربما ظلموا الناس وغصبوهم فأمرهم الله - تعالى - أن يتزودوا بالمال والطعام الذى يغنيهم عن سؤال الناس(١).

والذى نراه أن الجملة الكريمة تسع القولين. فهى تدعو الناس إلى أن يتزودوا بالزاد المعنوى النفسى الذى يسعدهم ألا وهو تقوى الله وامتثال أوامره واجتناب نواهيه والاكثار من العمل الصالح وفى الوقت نفسه هى تأمرهم - أيضًا - بأن يتزودوا بالزاد المادى الحقيقى الذى يغنيهم عن سؤال الناس، ويصون لهم ماء وجوههم.

وبذلك نكون قد استعملنا اللفظ فى حقيقته ومجازه، وهو استعمال شائع مستساغ عند كثير من العلماء.

ثم ختم - سبحانه - الآية بتأكيد أمر التقوى ووجوب الإخلاص فقال: ﴿واتقون يا أولى الألباب﴾ والألباب: جمع لب وهو العقل واللب من كل شىء: هو الخالص منه. وسمى به العقل، لأنه اشرف ما فى الإنسان.

أى: أخلصوا لى يا أصحاب العقول السليمة، والمدارك الواعية، لأنكم لما كنتم كذلك كان وجوبها عليكم أثبت، وإعراضكم عنها أقبح. ورحم الله القائل:

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٨٤ بتلخيص.

ولم أر فى عيوب الناس عيبًا كنقص القادرين على التمام

والجملة الكريمة ليست تكرارا لسابقتها، لأن الأولى حث على التقوى وهذه حث على الإخلاص فيها.

ثم بين - سبحانه - أن التزود بالزاد الروحى لا يتنافى مع التزود يا لزاد المادى متى توافرت التقوى، فقال - تعالى - : ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾.

الجناح : أصله من جنح الشيء إذا مال : يقال جنحت السفينة إذا مالت إلى أحد جانبيها. والمراد بالجناح هنا الإثم والذنب، لأنه لما كان الإثم يميل بالإنسان عن الحق إلى الباطل سمى جناحًا.

والابتغاء : الطلب بشدة، وجملة ﴿أن تبتغوا﴾ فى موضع جر بتقدير فى.

والفضل : الزيادة وتكون فى الخير والشر إلا أنه جرى العرف أن يعبر عن الزيادة الحسنة بالفضل وعن الزيادة القبيحة بالفضول.

والمراد به هنا:المال الحلال المكتسب عن طريق التجارة المشروعة أو غيرها من وجوه الرزق الحلال.

أى : لا إثم ولا حرج عليكم فى أن تطلبوا رزقا حلالا ومالا طيبا عن طريق التجارة أو غيرها من وسائل الكسب المشروعة فى موسم الحج.

وقد ذكر المفسرون أن الناس كانوا يتحاشون من التجارة فى الحج، حتى إنهم كانوا يتجنبون البيع والشراء فى العشر الأوائل من ذى الحجة، فنزلت هذه الآية لتخبرهم أنه لا حرج عليهم فى ذلك.

روى البخارى عن ابن عباس قال : كان ذو المجاز[1] وعكاظ متجر الناس فى الجاهلية فلما جاء الإسلام كأنهم كرهوا ذلك حتى نزلت ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾.

وقال ابن كثير : وروى الإمام أحمد عن أبى أمامة التيمى قال : قلت لابن عمر : إنا نُكْرَى فهل لنا من حج؟ قال : أليس تطوفون بالبيت وترمون الجمار وتحلقون رءوسكم وتقضون المناسك قال : قلت بلى. فقال ابن عمر : جاء رجل إلى النبى ﷺ فسأله عن الذى سألتنى فلم

---

(١) ذو المجاز : مكان خلف جبل عرفات. وعكاظ : مكان فى واد بينه وبين الطائف ليلة وبينه وبين مكة ثلاث ليال ومجنة : مكان بمر الظهران. وهذه الأماكن تسمى بأسواق العرب.

يجبه حتى نزل عليه جبريل بهذه الآية ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾ فدعاه النبى ﷺ فقال له «أنتم حجاج»(١).

فالآية الكريمة صريحة فى إباحة طلب الرزق لمن هو فى حاجة إلى ذلك فى موسم الحج، بشرط ألا يشغله عن أداء فرائض الله.

ثم قال - تعالى -: ﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام﴾.

الفاء فى قوله: فإذا لتفصيل بعض ما أجمل من قبل فى قوله ﴿فمن فرض فيهن الحج..﴾ وأفضتم. اندفعتم بكثرة متزاحمين. وذلك تشبيه لهم بالماء إذا كثر ودفع بعضه بعضًا فانتشر وسال من حافتى الوادى والإناء والإفاضة فى الحديث الاندفاع فيه بإكثار وتصرف فى وجوهه ومنه قوله - تعالى - ﴿إذ تفيضون فيه﴾. فأصل هذه الكلمة الدفع للشىء بكثرة حتى يتفرق. والتقدير: أفضتم أنفسكم فحذف المفعول للعلم به.

والمراد: خروجهم من عرفات بشىء من السرعة فى تكاثر وازدحام متجهين إلى المزدلفة.

وعرفات: اسم للجبل المعروف، قيل سمى بذلك لأن الناس يتعارفون به فهم يجتمعون عليه فى وقت واحد فيجرى التعارف بينهم.

وقد اتفق العلماء على أن الوقوف بعرفات هو ركن الحج الأكبر ففى الحديث الشريف «الحج عرفة» ويكون ذلك فى اليوم التاسع من ذى الحجة.

قال القرطبى: أجمع أهل العلم على أن من وقف بعرفة يوم عرفة قبل الزوال ثم أفاض منها قبل الزوال أنه لا يعتد بوقوفه ذلك قبل الزوال. وأجمعوا على تمام حج من وقف بعرفة بعد الزوال وأفاض نهارًا قبل الليل إلا مالك بن أنس فإنه قال: لابد أن يأخذ من الليل شيئًا، وأما من وقف بعرفة بالليل فإنه لا خلاف بين الأمة فى تمام حجه. والحجة للجمهور مطلق قوله: ﴿فإذا أفضتم من عرفات﴾: فإنه لم يختص ليلا من نهار. وحديث عروة بن مضرس قال: أتيت النبى ﷺ وهو فى الموقف من جَمْع - أى من المزدلفة - فقلت: يا رسول الله، جئتك من جبل طىء أكللت مطيتى وأتعبت نفسى.. فهل لى من حج يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ «من صلى معنا صلاة الغداة بجمع وقد أتى عرفات قبل ذلك ليلا أو نهارًا فقد تم حجه(٢)».

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٤٠.

(٢) تفسير القرطبى جـ٢ ص ٤١٥.

ومن فى قوله : ﴿من عرفات﴾ ابتدائية. أى، فإذا أفضتم خارجين من عرفات إلى المشعر الحرام.

والمشعر الحرام : هو المزدلفة وقيل هو موضع بها. والمشعر : اسم مشتق من الشعور أى : العلم، أو من الشعار أى : العلامة.

ووصف المشعر بوصف الحرام لأنه من أرض الحرم، وهو منسك له حرمة وتقديس.

والمزدلفة من الازدلاف وهو القرب وسميت بذلك لأن الحجاج يزدلفون إليها من عرفات ليبيتوا بها قاصدين الاقتراب من منى.

وتسمى المزدلفة - أيضًا - «جَمْع» لاجتماع الناس فى هذا المكان أو جمعهم فيه بين صلاتى المغرب والعشاء جمع تأخير. وتسمى كذلك «قزح».

ويرى الحنفية والشافعية أن الوقوف بالمزدلفة واجب وليس بركن، ومن فاته لا يبطل حجه ويجب عليه دم.

ويرى أكثر المالكية أن الوقوف بها سنة مؤكدة.

ويرى بعض التابعين وبعض الشافعية أن الوقوف بها ركن كالوقوف بعرفات

والمعنى : فإذا سرتم - يا معشر الحجاج - من عرفات متدافعين متزاحمين متجهين إلى المزدلفة فأكثروا من ذكر الله - تعالى - بالتلبية والتهليل والدعاء بقلوب مخبتة، ونفوس صافية، لأن ذكر الله - تعالى - فى تلك المواطن المقدسة والأوقات الفاضلة من شأنه أن يرفع الدرجات، ويوصل إلى أعلا المقامات.

ثم قال - تعالى - : ﴿واذكروه كما هداكم﴾ الكاف للتشبيه. ومعنى التشبيه فى مثل هذا التركيب المشابهة فى التساوى فى الحسن والكمال. كما تقول : اخدمه كما أكرمك تعنى : لا تتقاصر خدمتك عن إكرامه.

والمعنى : اذكروا الله - تعالى - ذكرًا حسنًا مماثلا لهدايته لكم، وأنتم تعلمون أن هذه الهداية شأنها عظيم فبسببها خرجتم من الظلمات إلى النور، فيجب عليكم أن تكثروا من ذكر الله ومن الثناء عليه.

قال الآلوسى : و «ما» تحتمل أن تكون مصدرية فمحل ﴿كما هداكم﴾ النصب على المصدرية، بحذف الموصوف. أى : ذكرًا مماثلا لهداكم.. وتحتمل أن تكون كافة فلا محل لها من الإعراب. والمقصود من الكاف مجرد تشبيه مضمون الجملة بالجملة، لذا لا تطلب عاملا تفضى بمعناه إلى مدخولها. وقيل : إن الكاف للتعليل، وما مصدرية. أى، اذكروه وعظموه لأجل

هدايته السابقة منه - تعالى - لكم[١].

و﴿إن﴾ فى قوله : ﴿وإن كنتم من قبله لمن الضالين﴾ هى المخففة من الثقيلة والضمير فى ﴿من قبله﴾ يعود إلى الهدى المأخوذ من ما المصدرية وما دخلت عليه

والمراد بالضلال هنا : الجهل بالإيمان وبالتكاليف التى كلف الله بها عباده.

أى : اذكروا الله - تعالى - ذكرًا مشابهًا لهدايته لكم، وإنكم لولا هذه الهداية لبقيتم على ضلالكم وجهلكم بالدين الحق، ولكن الله - تعالى - من عليكم بهذه الهداية فأكثروا من ذكره وشكره عليها.

وبعد أن تحدث - سبحانه - عن الإفاضة من عرفة إلى المزدلفة وأمر بالإكثار من ذكره، عقب ذلك ببيان الطريقة المثلى للإفاضة فقال : ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ :

أى : أفيضوا من عرفة لا من المزدلفة. وهناك قولان فى المخاطب بهذه الآية.

أحدهما : أن الخطاب فيها لقريش وحلفائها، وذلك لأنهم كانوا يترفعون على الناس، فلا يقفون معهم على عرفات، وإنما يقفون وحدهم بالمزدلفة، وكانوا يقولون : نحن قطين الله - أى سكان حرمه فينبغى لنا أن نعظم الحرم - وهو المزدلفة - وَلا نعظم شيئًا من الحل - وهو عرفات -.

روى البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - قالت، كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يسمون الحمس، وكان سائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام أمر الله - نبيه ﷺ أن يأتى عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها فذلك قوله : ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾.

والمعنى : أفيضوا يا معشر قريش من المكان الذى يفيض منه الناس وهو عرفة، واتركوا ما تفعلونه من الإفاضة من المزدلفة، فالمقصود إبطال ما كانت تفعله قريش.

والثانى : أن الخطاب فى الآية لجميع الناس، أمرهم الله - تعالى - فيه أن يفيضوا من حيث أفاض الناس.

والمراد بالناس فى الآية إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - فإن سنتهما كانت الإفاضة من عرفة لا من المزدلفة.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٢ ص ٨٨.

قال بعضهم : وإيقاع اسم الجمع على الواحد جائز إذا كان رئيسًا يقتدى به كما فى قوله - تعالى - : ﴿الذين قال لهم الناس﴾ يعنى «نعيم بن مسعود».

والذى نراه أن القول الثانى أولى بالقبول، لأن المغزى الذى تهدف إليه الآية فى معناها الخاص والعام هو دعوة الناس جميعًا إلى التجمع فى مكان واحد ليشعُروا بالإخاء والمساواة عند أدائهم لفريضة الحج بدون تفرقة بين كبير وصغير، وغنى وفقير، وقرشي وغير قرشي، ويدخل فى النهى دخولا أوليًا تلك الحالة التى كانت عليها قريش. وقد قال العلماء : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

و «ثم» للتفاوت المعنوى بين الإفاضتين - أى الإفاضة من عرفات والإفاضة من مزدلفة - لبيان البعد بينهما، إذ أن إحداهما صواب والأخرى خطأ.

أى : لا تفيضوا من المزدلفة لأنه خطأ جسيم، واجعلوا أفاضتكم من عرفات لأن هذا العمل هو الصواب الذى يحبه الله ويرضاه.

وقوله : ﴿واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ معطوف على ﴿أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ أى : استغفروا الله من ذنوبكم ومما سلف منكم من أخطاء فإن المؤمن كلما قويت روحه، وصفت نفسه أحس بأنه مقصر أمام نعم خالقه التى لا تحصى. ومن أكثر من التوبة والاستغفار غفر الله له ما فرط منه، لأنه - سبحانه - كثير الغفران، واسع الرحمة.

ثم بين - سبحانه - ما يجب عليهم عمله بعد فراغهم من أعمال الحج فقال - تعالى - : ﴿فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرًا﴾.

المناسك : جمع منسك مشتق من نسك نسكًا من باب نصر إذا تعبد. والمراد هنا العبادات التى تتعلق بالحج.

قال ابن كثير: عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : كان أهل الجاهلية يقفون فى الموسم - بين مسجد منى وبين الجبل بعد فراغهم من الحج يذكرون فضائل آبائهم - فيقول الرجل منهم. كان أبى يطعم الطعام ويحمل الديات. . . ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم فأنزل الله - تعالى - على نبيه ﷺ هذه الآية»[1].

والمعنى : فإذا فرغتم من عباداتكم، وأديتم أعمال حجكم، فتوفروا على ذكر الله وطاعته كما كنتم تتوفرون على ذكر مفاخر آبائكم، بل عليكم أن تجعلوا ذكركم لله - تعالى - أشد وأكثر من ذكركم لمآثر آبائكم، لأن ذكر مفاخر الآباء إن كان كذبا أدى إلى الخزى فى الدنيا والعقوبة

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٤٣ بتصرف يسير.

فى الآخرة. وإن كان صدقًا فإنه فى الغالب يؤدى إلى العجب وكثرة الغرور، أما ذكر الله بإخلاص وخشوع فثوابه عظيم، وأجره كبير. وفضلا عن ذلك فإن المرء إذا كان لا ينسى أباه لأنه سبب وجوده فأولى به ثم أولى ألا ينسى الذى خلق أباه وهو الله رب العالمين.

فالمقصود من الآية الكريمة الحث على ذكر الله - تعالى - والنهى عن التفاخر بالأحساب والأنساب.

و«أو» هنا فى معنى الإضراب والترقى إلى أعلى، لأنه.. سبحانه أمرهم أولا بأن يذكروه ذكرًا يماثل ذكرهم لآبائهم ثم ترقى بهم إلى ما هو أعلى من ذلك وأسمى فطالبهم بأن يكون ذكرهم له - سبحانه - أكثر وأعظم من ذكرهم لآبائهم.

قال صاحب الكشاف: وقوله: ﴿أو أشد ذكرًا﴾ فى موضع جر عطف على ما أضيف إليه الذكر فى قوله: «كذكركم» كما تقول كذكر قريش آباءهم أو قوم أشد منهم ذكرًا. أو فى موضع نصب عطف على ﴿آباءكم﴾ بمعنى، أو أشد ذكرًا من آبائكم.

وبعد أن أمر - سبحانه - الناس بذكره، بين أنهم بالنسبة لدعائه وسؤاله فريقان، أما الفريق الأول فقد عبر عنه بقوله: ﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق﴾.

أى: من الناس نوع يقول فى دعائه يا ربنا آتنا ما نرغبه فى الدنيا فنحن لا نطلب غيرها، وهذا النوع ليس له فى الآخرة من ﴿خلاق﴾ أى: نصيب وحظ من الخير.

وهذا النوع من الناس هو الذى استولى عليه حب الدنيا وشهواتها ومتعها فأصبح لا يفكر إلا فيها، ولا يهتم إلا بها، صارفا نظره عن الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب.

والفاء فى قوله: ﴿فمن الناس﴾ للتفصيل، لأن ما بعدها تقسيم للناس إلى فريقين.

وحذف مفعول ﴿آتنا﴾ للدلالة على تعميم المطلوب فهم يطلبون كل ما يمكن أن تصل إليه أيديهم من متاع الدنيا بدون تمييز بين حلال أو حرام. وأما الفريق الثانى فقد عبر - سبحانه - عنه بقوله: ﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾.

أى: يقولون يا ربنا اعطنا حسنة فى الدنيا أى: حالا حسنة فى الدنيا تكون معها أبداننا سليمة، ونفوسنا آمنة، ومعيشتنا ميسرة بحيث لا نحتاج إلى أحد سواك، ولا نذل إلا لك، وامنحنا حالا حسنة فى الآخرة بأن تجعلنا يوم لقائك ممن رضيت عنهم، ورضوا عنك. وأبعدنا يوم القيامة من عذاب النار. ولم يذكر - سبحانه - قسما ثالثًا من الناس وهو الذى يطلب الآخرة

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٤٨.

فقط، ولا يطلب الدنيا، لأن الإسلام دين لا يرضى لأتباعه أن ينسوا حظوظهم من الدنيا، ولا يقر الانقطاع عن زينتها التى أخرجها الله لهم، وإنما يريد لهم أن يكونوا من العاملين بقوله - تعالى - : ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾.

وبين - سبحانه - أن هذا النوع الثانى من الناس قد التمس من خالقه أن يقيه عذاب النار مع أن هذا الدعاء مندرج تحت حسنة الآخرة، وذلك لأن هذا النوع من الناس لقوة إيمانه، وصفاء وجدانه، وشدة خشيته من ربه يغلب الخوف على الرجاء، فهو يستصغر حسناته مهما كثرت بجانب نعم الله وفضله، ويلح فى الدعاء وفى الطلب أملا فى الاستجابة.

وقد أجمع العلماء على أن هذه الآية الكريمة من جوامع الدعاء، وورد فى فضل الدعاء بها أحاديث كثيرة منها ما رواه البخارى عن أنس بن مالك قال كان النبى ﷺ يقول : «اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار».

وروى ابن أبى حاتم عن عبد السلام بن شداد قال : كنت عند أنس بن مالك فقال له ثابت : إن إخوانك يحبون أن تدعو لهم. فقال : «اللهم آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» وتحدثوا حتى إذا أرادوا القيام قال : يا أبا حمزة إن إخوانك يريدون القيام فادع الله لهم فقال : أتريدون أن أشقق لكم الأمور ! ! إذا آتاكم الله فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ووقاكم عذاب النار فقد آتاكم الخير كله[1].

قال الإمام الرازى : اعلم أن الله - تعالى - بين أولا تفصيل مناسك الحج، ثم أمر بعدها بالذكر فقال : ﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام﴾ ثم بين أن الأولى أن يترك ذكر غيره وأن يقتصر على ذكره - سبحانه - ثم بين بعد ذلك كيفية الدعاء فقال : ﴿فمن الناس من يقول. . ﴾ وما أحسن هذا الترتيب فإنه لابد من تقديم العبادة لكسر النفس وإزالة ظلماتها ثم بعد العبادة لابد من الاشتغال بذكر الله - تعالى - لتنوير القلب وتجلى نور جلاله. ثم بعد ذلك الذكر يشتغل الرجل بالدعاء، فإن الدعاء إنما يكمل إذا كان مسبوقًا بالذكر كما حكى عن إبراهيم - عليه السلام - أنه قدم الذكر فقال : ﴿الذى خلقنى فهو يهدين﴾ ثم قال : ﴿رب هب لى حكمًا وألحقنى بالصالحين﴾ فقدم الذكر على الدعاء»[2].

ثم بين - سبحانه - جزاء هذا الفريق الثانى فقال : ﴿أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب﴾.

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٤٤.
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٢٠٤.

فاسم الإشارة يعود إلى الفريق الثانى باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت الجميلة وكانت الإشارة للبعيد لبيان علو منزلتهم، وسمو درجاتهم ولم يعطف على ما قبله لأنه كالنتيجة له.

وقيل: إن الإشارة تعود إلى الفريقين. أى: لكل من الفريقين نصيب من عمله على قدر ما نواه. ويضعفه أن الله - تعالى - قد ذكر قبل ذلك عاقبة الفريق الأول بقوله: ﴿وما له فى الآخرة من خلاق﴾.

والمعنى: أولئك الذين جمعوا فى دعائهم بين طلب حسنتى الدنيا والآخرة لهم نصيب جزيل، وحظ عظيم من جنس ما كسبوا من الأعمال الصالحة، أو من أجل ما كسبوا من الفعال الطيبة. فحرف الجر «من» يصح أن يكون للابتداء أو للتبعيض.

وفى هذه الجملة الكريمة وعد من الله لعباده أنهم متى تضرعوا إليه بقلب سليم، أجاب لهم دعاءهم، وأعطاهم سؤالهم.

قال القرطبى: وقوله: ﴿والله سريع الحساب﴾ من سرع يسرع - مثل عظم يعظم - فهو سريع. و«الحساب» مصدر كالمحاسبة، وقد يسمى المحسوب حسابًا. والحساب: العد. ويقال: حسب يحسب حسابًا وحسابة وحسبانًا أى: عد.

والمعنى فى الآية: أن الله - تعالى - سريع الحساب لا يحتاج إلى عد ولا إلى عقد ولا إلى إعمال فكر كما يفعله الحساب، ولهذا قال وقوله الحق ﴿وكفى بنا حاسبين﴾. فالله - تعالى - عالم بما للعباد وما عليهم فلا يحتاج إلى تذكر وتأمل.

وقيل: سريع المجازاة للعباد بأعمالهم. وقيل لعلى بن أبى طالب: كيف يحاسب الله العباد فى يوم؟ قال: كما يرزقهم فى يوم. ومعنى الحساب: تعريف الله عباده مقادير الجزاء على أعمالهم وتذكيره إياهم بما قد نسوه. وقيل: معنى الآية سريع بمجىء يوم الحساب، فالمقصود بالآية الإنذار بيوم: القيامة[1].

وقوله: ﴿واذكروا الله فى أيام معدودات﴾ معطوف على قوله - تعالى - ﴿فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرًا﴾ وما بينهما اعتراض.

والمراد بالأيام المعدودات أيام التشريق الثلاثة التى بعد يوم النحر. والتشريق: تقديد اللحم.

قال القرطبى: ولا خلاف بين العلماء أن الأيام المعدودات فى هذه الآية هى أيام منى، وهى أيام التشريق، وأن هذه الثلاثة الأسماء واقعة عليها، وهى أيام رمى الجمار»[2].

---

(١) تفسير القرطبى جـ٢ ص ٤٣٥ (٢) تفسير القرطبى جـ٣ ص ١.

فالآية الكريمة تأمر الحجاج وغيرهم من المسلمين أن يكثروا من ذكر الله فى هذه الأيام المباركة، لأن أهل الجاهلية كانوا يشغلونها بالتفاخر ومغازلة النساء «ويزعمون أن الحج قد انتهى بانتهاء يوم النحر وهو اليوم العاشر من ذى الحجة.

ولقد بين لنا النبى ﷺ أن هذه الأيام ينبغى أن تعمر بذكر الله وبشكره على نعمه.

روى الأمام مسلم عن نبيشة الهذلى قال: قال رسول الله ﷺ «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله».

وروى البخارى عن ابن عمر: أنه كان يكبر بمنى تلك الأيام، وخلف الصلوات، وعلى فراشه وفى فسطاطه. وفى مجلسه، وفى ممشاه، فى تلك الأيام جميعًا.

ومن الذكر فى تلك الأيام التكبير مع كل حصاة من حصى الجمار كل يوم من أيام التشريق. فقد أخرج البخارى عن ابن عمر أن النبى ﷺ كبر مع كل حصاة.

ويرى جمهور الفقهاء أن هذه الأيام يحرم فيها الصيام، لأنها أيام أكل وشرب وذكر لله.

والمعنى. اذكروا الله، أى: كبروه فى أدبار الصلوات وعند ذبح القرابين، وعند رمى الجمار وغيرها فى تلك الأيام المعدودات التى هى موسم من مواسم العبادة والطاعات، فإن الإكثار من ذكر الله يرفع الدرجات، ويمسح السيئات.

ثم قال - تعالى - : ﴿فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى﴾. تعجل واستعجل يجيئان مطاوعين بمعنى عجل، يقال: تعجل الأمر واستعجل. ويأتيان متعديين فيقال: تعجل الذهاب واستعجله ويرى الزمخشرى أن المطاوعة أوفق لقوله - تعالى - : ﴿ومن تأخر﴾.

وإيضاح ذلك: أنه يجب على الحاج المبيت بمنى الليلة الأولى والثانية من ليالى أيام التشريق، ليرمى كل يوم بعد الزوال إحدى وعشرين حصاة يرمى عند كل جمرة سبع حصيات. ثم من رمى فى اليوم الثانى وأراد أن ينفر ويترك المبيت بمنى فى الليلة الثالثة ورمى يومها بعد الزوال - كما يرى الشافعية - وبعده أو قبله - كما يرى الحنفية - فلا إثم عليه فى عدم مبيته بمنى فى الليلة الثالثة.

أى: فمن تعجل فسافر فى اليومين الأولين فلا إثم عليه فى التعجيل، ومن بقى إلى تمام اليوم الثالث فلا إثم عليه كذلك إذا اتقى كل منهما الله ووقف عند حدوده.

فالتقييد بالتقوى للتنبيه إلى أن العبرة فى الأفعال إنما هى بتقوى القلوب وطهارتها وسلامتها.

قال الآلوسى: وقوله ﴿لمن اتقى﴾ خبر لمبتدأ محذوف، واللام إما للتعليل أو للاختصاص.

أى : ذلك التخيير المذكور لأجل المتقى لئلا يتضرر بترك ما يقصده من التعجيل والتأخر أو ذلك المذكور من أحكام مطلقًا مختصة بالمتقى لأنه هو الحاج على الحقيقة. والمراد من التقوى على التقديرين تجنب ما يؤثم من فعل أو ترك[1] . . ».

ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - : ﴿واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾ اتقوا الله فى كل ما تأتون وما تذرون، واعلموا أنكم ستجمعون بعد تفرقكم وتساقون إلى خالقكم يوم القيامة ليجازيكم على أعمالكم.

وقد ختمت الآيات التى تحدثت عن فريضة الحج بهذا الختام المكون من عنصرين،

أحدهما : تقوى الله.

والثانى : العلم اليقينى بالحشر، للإشعار بأنهما خلاصة التدين، وثمرة العبادات بكل أنواعها وكل طرقها، وإذا خلت أية عبادة من هذين العنصرين كانت صورة لا روح فيها.

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد ساقت لنا بعض أحكام الحج وآدابه ومناسكه بأسلوب يهدى القلوب، ويسعد النفوس، ومن شأن من يعمل بهذه الآيات أن يكون ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه.

وبعد أن بين - سبحانه - فريضة الحج وما اشتملت عليه من أحكام وآداب، وبين أصناف الناس فى أدعيتهم التى تكشف عن خبايا قلوبهم، ومعادن نفوسهم، بعد أن بين ذلك أعقبه بالحديث عن صنفين من الناس فقال :

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ

---

(١) تفسير الألوسى جـ٢ ص ٩٤.

بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد بينت صنفين من الناس

أولهما : يمثل الأشرار.

والثانى : يمثل الأخيار.

أما الصنف الأول فقد وصفه الله - تعالى - بخمس صفات، الصفة الأولى حكاها فى قوله : ﴿ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا﴾.

يعجبك : من الإعجاب بمعنى الاستحسان، تقول. أعجبنى هذا الشىء، أى، استحسنته وعظم فى نفسى. و «من» للتبعيض.

والمعنى : ومن الناس فريق يروقك منطقهم، ويعجبك بيانهم، ويحسن عندك مقالهم. فأنت معجب بكلامهم الحلو الظاهر، المر الباطن، وأنت فى هذه الدنيا لأنك تأخذ الناس بظواهرهم، أما فى الآخرة فلن يعجبك أمرهم لأنهم ستنكشف حقائقهم أمام الله الذى لا تخفى عليه خافية، وسيعاقبهم عقابا أليمًا لإظهارهم القول الجميل وإخفائهم الفعل القبيح.

وعلى هذا التفسير يكون قوله : ﴿فى الحياة الدنيا﴾ متعلقًا بيعجبك.

وبعضهم يجعل قوله ﴿فى الحياة الدنيا﴾ متعلقًا بالقول فيكون المعنى عليه ومن الناس فريق يعجبك قولهم إذا ما تكلموا فى شئون الدنيا ومتعها لأنها منتهى آمالهم، ومبلغ علمهم، وأصل حبهم، ومن أحب شيئًا أجاد التعبير عنه، أما الآخرة فهم لا يحسنون القول فيها، لأنهم لا يهتمون بها، بل هم غافلون عنها، ومن شأن الغافل عن شىء ألا يحسن القول فيه.

ويبدو لنا أن تعلق الجار والمجرور بيعجبك أرجح، لأنه يتفق مع السياق إذ سياق الحديث فى شأن الذين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم، ويخدعون الناس بمعسول بيانهم مع أن نفوسهم مريضة، وليس فى شأن الذين يحسنون الحديث عن شئونها المختلفة، بل إن بعض الذين يحسنون الحديث فى شئون الدنيا لم يضيعوا أخراهم وإنما عمروها بالعمل الصالح، فهم جامعون بين حسنتى الدنيا والآخرة.

والصفة الثانية من صفات هذا النوع المنافق من الناس بينه القرآن بقوله ﴿ويشهد الله على ما فى قلبه﴾ أى : يقرن معسول قوله، وظاهر تودده، بإشهاد الله على أن ما فى قلبه مطابق لما يجرى على لسانه.

وكأن هذا النوع المنافق قد رأى من الناس تشككًا فى قوله، لأن من عادة المنافقين أن يبدو من فلتات لسانهم ما يدل على ما هو مخبوء فى نفوسهم فأخذ يوثق قوله بالأيمان الباطلة بأن يقول لمن ارتاب فيه : الله يشهد أنى صادق فيما أقول. . إلى غير ذلك من الأقوال التى يقصد بها تأكيد قوله وصدقه فيما يدعيه، فالمراد بإشهاد الله : الحلف به أن ما فى قلبه موافق لقوله.

وجملة ﴿ويشهد الله﴾ حالية أو مستأنفة أو معطوفة على قوله ﴿يعجبك﴾.

وقوله - تعالى - : ﴿وهو ألد الخصام﴾ صفة ثالثة من صفات هذا النوع من الناس.

قال القرطبى : الألد : الشديد الخصومة والعداوة. . ولددته - بفتح الدال - الده - بضمها - إذا جادلته فغلبته. والألد مشتق من اللديدين وهما صفحتا العنق، أى : فى أى جانب أخذ من الخصومة غلب. والخصام فى الآية مصدر خاصم. وقيل جمع خصم كصعب وصعاب. والمعنى، أشد المخاصمين خصومة، وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»(١).

أى : إن هذا النوع من الناس يثير الإعجاب بحسن بيانه، ويضللهم بحلاوة لسانه، ويحلف بالأيمان المغلظة أنه لا يقول إلا الصدق، ويجادل عما يقوله بالباطل بقوة وعنف ومغالبة، فهو بعيد عن طباع المؤمنين الذين إذا قالوا صدقوا، وإذا جادلوا اتبعوا أحسن الطرق وأهداها.

ثم وصفه الله - تعالى - بصفة رابعة فقال : ﴿وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾.

تولى : من التولية بمعنى الإدبار والانصراف، ومتعلق تولى محذوف تقديره : تولى عنك.

وسعى : من السعى وهو المشى السريع وهو مستعار هنا لإيقاع الفتنة والتخريب. والفساد كما قال الراغب - خروج الشىء عن الاعتدال قليلا كان الخروج عنه أو كثيرًا، ويضاده الصلاح يقال فسد فسادًا وفسودًا إذا خرج عن الاستقامة(٢).

والحرث : مصدر يحرث، أى : أثار الأرض لإعدادها للزراعة، ثم أطلق وأريد به المحروث وهو الأرض، ثم أطلق وأريد به ما يترتب على ذلك من الزروع والثمار وهو المراد هنا.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٣ ص١٦.

(٢) المفردات فى غريب القرآن ص ٣٧٩ للراغب الأصفهانى.

والنسل : كما يقول القرطبى - ما خرج من كل أنثى من ولد. وأصله الخروج والسقوط، ومنه نسل الشعر ينسل إذا سقط. ومنه ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون﴾ أى : يخرجون مسرعين.

والمعنى : وإذا أعرض عنك هذا النوع من الناس وولاك دبره أسرع فى الإفساد بينهم، وتفريق كلمتهم، وإتلاف كل ما يقع تحت يده من الزروع والثمار والحيوان وما به قوام الحياة والأحياء.

فإهلاك الحرث والنسل كناية عن إتلافه لما به قوام أحوال الناس ومعيشتهم، وعن إيذائه الشديد لهم.

وبعض العلماء يرى أن «تولى» مشتق من الولاية : يقال : ولى البلد وتولاه، أى صار واليًا له، أميرًا عليه. والمعنى على هذا الرأى.

وإذا صار - هذا النوع من الناس - واليًا على قوم اجتذبهم إليه ببريق قوله، وبمعسول لفظه، وبأيمانه الفاجرة، وبمجادلته الباطلة، حتى إذا ما التف الناس حوله سعى بينهم بالفساد، وعمل على تقاطعهم وتباغضهم، وحكم فيهم بالباطل، ظنًا منه أن هذا الخلق وذلك السلوك سيجعلهم دائمًا طوع إرادته.

قال الإمام الرازى : والقول الأول أقرب إلى نظم الآية، لأن المقصود بيان نفاق هذا النوع من الناس، وهو أنه عند الحضور يقول الكلام الحسن ويظهر المحبة، وعند الغيبة يسعى فى إيقاع الفتنة والفساد[1].

وقوله ﴿والله لا يحب الفساد﴾ أى لا يرضى عن الذى منه الإفساد فى الأرض، ويظهر للناس الكلام الحسن وهو يبطن لهم الفعل السيء، لأنه - سبحانه - أوجد الناس ليصلحوا فى الأرض لا ليفسدوا فيها. فالجملة الكريمة تحذير منه - سبحانه - للمفسدين، ووعيد لهم على خروجهم عن طاعته.

أما الصفة الخامسة لهذا النوع من الناس فهى قوله - تعالى - : ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم﴾. أى : وإذا قيل لهذا المنافق على سبيل النصح والإرشاد اتق الله واترك ما أنت فيه من نفاق وخداع وخروج عن طاعة الله، استولت عليه العزة - أى حمية الجاهلية - مقترنة بالإثم ومصاحبة له، فهى ليست العزة المحمودة ولكنها الكبرياء المبغوضة. والباء على هذا المعنى للمصاحبة والاقتران.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٢١٩.

قال الجمل. والباء على هذا تكون فى محل نصب على الحال وفيها حينئذ وجهان :

أحدهما : أن تكون حالا من العزة أى ملتبسة بالإثم

والثانى : أن تكون حالا من المفعول. أى، أخذته حال كونه ملتبسا بالإثم، وفى قوله العزة بالإثم التتميم وهو نوع من علم البديع، وهو عبارة عن إرداف الكلمة بأخرى ترفع عنها اللبس وتقربها من الفهم، وذلك أن العزة تكون محمودة ومذمومة فمن مجيئها محمودة قوله - تعالى - : ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ فلو أطلقت لتوهم فيها بعض من لا دراية له أنها محمودة، فقيل بالإثم توضيحًا للمراد فرفع اللبس، ويجوز أن تكون الباء للتعدية - وهو قول الزمخشرى - فإنه قال : أخذته بكذا إذا حملته عليه وألزمته إياه. أى : حملته العزة التى فيه وحمية الجاهلية على الإثم الذى ينهى عنه وألزمته ارتكابه، ويجوز أن تكون للسببية بمعنى أن إثمه كان سببًا لأخذ العزة له »[1].

أى : استولت عليه حمية الجاهلية بسبب الإثم الذى استحوذ على قلبه فأنساه كل ما يوصل إلى الصلاح والاستقامة.

و« ال » فى العزة للعهد. أى : العزة المعهودة المعروفة عند أهل الجاهلية التى تمنع صاحبها من قبول النصيحة.

قال الأستاذ الإمام محمد عبده مرجحًا ما ذهب إليه من أن « تولى » بمعنى الولاية والإمارة : « وهذا الوصف ظاهر جدًا فى تفسير التولى بالولاية والسلطة، فإن الحاكم الظالم المستبد يكبر عليه أن يرشد إلى مصلحة، أو يحذر من مفسدة، لأنه يرى أن هذا المقام الذى ركبه وعلاه يجعله أعلى الناس رأيًا وأرجحهم عقلا، بل الحاكم المستبد الذى لا يخاف الله - تعالى - يرى نفسه فوق الحق كما أنه فوق أهله فى السلطة، فيجب أن يكون أفن رأيه خيرًا من جودة آرائهم، وإفساده نافذًا مقبولا دون إصلاحهم، فكيف يجوز لأحد منهم أن يقول له : اتق الله فى كذا. . . »[2].

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة من هذه صفاته فقال : ﴿فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾.

الفاء هنا للإفصاح، لأنها تفصح عن شرط محذوف تقديره : إذا كانت هذه حالة المعرض عن النصح أنفة وتكبرًا ﴿فحسبه جهنم﴾ أى : كافيه جهنم جزاء له ﴿ولبئس المهاد﴾ أى : ولبئس الفراش الذى يستقر عليه بسبب غروره وفجوره.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ١٦٤.

(٢) تفسير المنار جـ٢ ص ٢٥١.

وقوله : ﴿فحسبه جهنم﴾ جملة من مبتدأ وخبر، وقوله ﴿ولبئس المهاد﴾ جواب قسم مقدر. أى : والله . والمخصوص بالذم محذوف لظهوره وتعينه وهو جهنم . والمهاد جمع مهد وهو المكان المهيأ للنوم، والتعبير عن جهنم بالمهاد من باب التهكم والاستهزاء بهذا النوع المغرور المفسد من الناس

هذا وقد أورد بعض المفسرين روايات فى سبب نزول هذه الآيات منها أنها نُزلت فى الأخنس ابن شريق الثقفى أقبل على النبى ﷺ فأظهر الإسلام وزعم أنه يحبه وأقسم بالله على ذلك، غير أنه كان منافقًا خبيث الباطن، فخرج من عند النبى ﷺ فمر بزرع لقوم من المسلمين فأحرق الزرع وقتل بعض الماشية فنزلت.

قال الإمام الرازى ما ملخصه بعد أن ساق هذه الرواية وغيرها : واختيار أكثر المحققين من المفسرين أن هذه الآيات عامة فى حق كل من كان موصوفا بهذه الصفات المذكورة. . . ولا يمتنع أن تنزل الآية فى الرجل ثم تكون عامة فى كل من كان موصوفا بتلك الصفات، ونزولها على السبب الذى حكيناه لا يمنع من العموم، بل نقول فيها ما يدل على العموم وهو من وجوه.

أحدها : أن ترتب الحكم على الوصف المناسب مشعر بالعلية، فلما ذم الله - تعالى - قومًا وصفهم بصفات توجب استحقاق الذم، علمنا أن الموجب لتلك المذمة هو تلك الصفات، فيلزم أن كل من كان موصوفا بتلك الصفات أن يكون مستوجبًا للذم.

وثانيها : أن الحمل على العموم أكثر فائدة، وذلك لأنه يكون زجرًا لكل المكلفين عن تلك الطريقة المذمومة.

وثالثها : أن هذا أقرب إلى الاحتياط، لأنا إذا حملنا الآية على العموم دخل فيه ذلك الشخص، وأما إذا خصصناه بذلك الشخص لم يثبت الحكم فى غيره، فثبت بما ذكرنا أن حمل الآية على العموم أولى»[١].

هذا، وفى هذه الآيات الكريمة زجر شديد ووعيد أليم للمنافقين الذين يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم ويفسدون فى الأرض ولا يصلحون، ويكادون يسطون بالذين ينصحونهم ويتلون عليهم آيات الله لأن المنافقين ما كثروا فى أمة إلا وجعلوا بأسها بينها شديدا، روى ابن جرير عن نوف البكالى قال : إنى لأجد صفة ناس من هذه الأمة فى كتاب الله المنزل : قوم يحتالون على الدنيا بالدين، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمر من الصبر، يلبسون للناس

---

(١) تف ر الفخر الرازى جـ ٥ ص ٢١٦.

مسوك - أى جلود - الضأن وقلوبهم قلوب الذئاب يقول الله - تعالى - فعلى يجترئون وبى يغترون، حلفت بنفسى لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم حيران».

قال ابن كثير: قال القرظى الذى روى هذا القول عن نوف: تدبرت هذه الصفات فى القرآن فإذا هى فى المنافقين ووجدتها فى قوله - تعالى - ﴿ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا﴾(١).

والحق أنه ما ابتليت أمة بتفشى هذا النوع من الناس فيها إلا فسد حالها وهان شأنها وكانت عاقبة أمرها خسرا.

أما النوع الثانى من الناس وهم الأخيار الصادقون فقد عبر عنهم القرآن بقوله - تعالى - : ﴿ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله، والله رءوف بالعباد﴾.

﴿يشرى نفسه﴾ أى: يبيعها ببذلها فى طاعة الله وإعلاء كلمته، وتحقيقه أن المكلف قد بذل نفسه بمعنى أنه أطاع الله - تعالى - وحافظ على فرائضه، وجاهد فى سبيله، من أجل أن ينال ثواب الله ومرضاته، فكان ما بذله من طاعات بمثابة السلعة، وكان هو بمنزلة البائع، وكان قبول الله - تعالى - منه ذلك وإثابته عليه فى معنى الشراء.

وقوله: ﴿ابتغاء مرضاة الله﴾ الابتغاء الطلب الشديد للشىء، والرغبة القوية فى الحصول عليه، وهو فى الآية مفعول لأجله.

أى: ومن الناس نوع آخر قد باع نفسه وبذلها فى طاعة الله طلبًا لرضوانه، وأملا فى مثوبته وغفرانه.

فهذا النوع التقى المخلص من الناس، يقابل النوع المنافق المفسد الذى سبق الحديث عنه.

قال بعضهم: وكان مقتضى هذه المقابلة أن يوصف هذا الفريق الثانى بالعمل الصالح مع عدم التعويض والتبجح بالقول، أو مع مطابقة قوله لعمله وموافقة لسانه لما فى قلبه. والآية قد تضمنت هذا الوصف وإن لم تنطق به، فإن من يبيع نفسه لله لا يبغى ثمنًا لها سوى مرضاته لا يتحرى إلا العمل الصالح وقول الحق مع الإخلاص فى القلب فلا يتكلم بلسانين ولا يقابل الناس بوجهين. ويكون هو المؤمن الذى يعتد القرآن بإيمانه»(٢).

وقال أحد العلماء: ومرضاة مصدر ميمى بمعنى الرضا. ولا شك أن التعبير بالمصدر الميمى دون المصدر الأصلى له معنى يدركه السامع بذوقه، ولم نجد النحويين ولا البلاغيين تعرضوا

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٤٦.

(٢) تفسير المنار جـ ٢ ص ٢٥٢.

لبيان التفرقة بين المصدر الميمى وغيره والذى يتبدى لنا ونظنه تفرقة بينهما، أن المصدر الميمى يصور المعنى المصدرى واقعًا قائمًا متحققًا فى الوجود، أما المصدر غير الميمى فيصور المعنى مجردًا فإذا كانت كلمة مقال بمعنى القول، فإن التعبير بالقول يصور معنى مجردًا من غير نظر إلى كونه تحقق وجوده أولا. أما كلمة مقال فتصور معنى وجد وتحقق، أو فى صورة الموجود المتحقق، وعلى ذلك معنى «ابتغاء مرضاة الله» أنهم يبيعون أنفسهم طالبين طلبًا موثقًا رضا الله - سبحانه - حقيقة واقعة مؤكدة، ويتصورون رضاه - سبحانه - حقيقة قائمة قد حلت بهم، فيشتد طلبهم وافتداؤهم للحق بأموالهم وأنفسهم»[١].

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله - : ﴿والله رءوف بالعباد﴾ أى، رفيق رحيم بهم، ومن مظاهر ذلك أنه لم يكلفهم بما هو فوق طاقتهم، وإنما كلفهم بما تطيقه نفوسهم، وأنه أسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة فى الدنيا مع تقصيرهم فيما أمرهم به أو نهاهم عنه، وأنه كافأهم بالنعيم المقيم على العمل القليل، وأنه جعل العاقبة للمتقين لا للمفسدين، إلى غير ذلك من مظاهر رأفته التى لا تحصى.

هذا، وقد أورد المفسرون روايات متعددة فى سبب نزول هذه الآية منها أنها نزلت فى صهيب بن سنان الرومى، وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة منعه المشركون أن يهاجر بماله، وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر أذنوا له، فتخلص منهم وأعطاهم ماله فأنزل الله فيه هذه الآية. فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة فقالوا له: ربح البيع يا صهيب، فقال لهم وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم وما ذاك؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية. ويروى أن الرسول ﷺ قال له عندما رآه: «ربح البيع، ربح البيع» مرتين[٢].

وهناك روايات أنها نزلت فيه وفى عمار بن ياسر وفى خباب بن الأرت وفى غيرهم من المؤمنين المجاهدين.

والذى نراه - كما سبق أن بينا - أن الآية الكريمة تتناول كل من أطاع الله - تعالى - وبذل نفسه فى سبيل إعلاء كلمته، ويدخل فى ذلك دخولا أوليًا من نزلت فيهم الآية، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يرى جمهور العلماء.

وبذلك نرى أن الآيات الكريمة قد بينت لنا نوعين من الناس: أحدهما خاسر، والآخر رابح، لكى نتبع طريق الرابحين، ونهجر طريق الخاسرين ﴿ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى

---

(١) تفسير الآية الكريمة لفضلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة - بمجلة لواء الإسلام. السنة الخامسة - العدد الخامس.

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٤٧

الله المصير﴾.

وبعد أن عرض القرآن هذين النوعين اللذين نجدهما فى كل زمان ومكان، وجه نداء إلى المؤمنين دعاهم فيه إلى الاستجابة التامة لخالقهم فقال - تعالى - :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢١٢﴾

﴿السلم﴾ - بكسر السين وفتحها مع إسكان اللام - بمعنى واحد، ويطلقان على الإسلام وعلى المسالمة. وبعضهم فرق بين اللفظين فجعل «السلم» بكسر السين - للإسلام، و«السلم» - بفتحها - للمسالمة، وأنكر المبرد هذه التفرقة.

قال الفخر الرازى : وأصل هذه الكلمة من الانقياد. قال - تعالى - : ﴿إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين﴾. والإسلام إنما سمى إسلاما لهذا المعنى. وغلب اسم السلم على الصلح وترك الحرب، وهذا أيضا راجع إلى هذا المعنى. لأن عند الصلح ينقاد كل واحد إلى صاحبه»[1].

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٦٢٦.

و ﴿كافة﴾ أى جميعًا. وهى فى الأصل صفة من كف بمعنى منع، واستعملت بمعنى الجملة والجميع بعلاقة أنها مانعة من التفرق وهى حال من قوله: ﴿السلم﴾ أى: يأيها المؤمنون ادخلوا فى الإسلام والتزموا بكل تعاليمه، ونفذوا جميع أحكامه وآدابه، واعملوا بكل أوامره ونواهيه، ولا تكونوا ممن يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض. فالمقصود التزام جميع شرائع الإسلام وأحكامه وآدابه.

وبعضهم يرى أن قوله: ﴿كافة﴾ حال من فاعل ادخلوا وهو ضمير الجماعة والمعنى عليه: ادخلوا فى الإسلام جميعًا، وانقادوا لأحكامه مجتمعين غير متفرقين، لأنه الدين الذى ألف الله به بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا.

وسواء أكان لفظ ﴿كافة﴾ حالا من ﴿السلم﴾ أو من فاعل ﴿ادخلوا﴾ فالمقصود من الآية دعوة المؤمنين إلى التمسك بجميع شعب الإسلام وشرائعه مع التزامهم برباط الإخاء الذى ربط الله به بين قلوبهم بسبب اتباعهم لهذا الدين الحنيف.

وإذا كان المراد بكلمة ﴿السلم﴾ المسالمة والمصالحة كان المعنى: يأيها الذين آمنوا إن إيمانكم يوجب عليكم فيما بينكم أن تكونوا متصالحين غير متعادين، متحابين غير متباغضين، متجمعين غير متفرقين، كما أنه يوجب عليكم بالنسبة لغيركم ممن هو ليس على دينكم أن تسالموه متى سالمكم، وأن تحاربوه متى اعتدى عليكم، فإن دينكم ما جاء للحرب والخصام وإنما جاء للهداية وللسلام العزيز القوى الذى يرد الاعتداء بمثله.

هذا هو المعنى الذى نراه ظاهرًا فى الآية، وهو ما سار عليه المحققون من المفسرين.

وبعضهم ذكر أن الخطاب فى الآية لمؤمنى أهل الكتاب، لما روى عن ابن عباس أنه قال: نزلت فى عبد الله بن سلام وأصحابه، وذلك أنهم حين آمنوا بالنبى ﷺ وآمنوا بشرائعه وشرائع موسى عليه السلام - فعظموا السبت وكرهوا لحم الإبل وألبانها بعد أن أسلموا، فأنكر عليهم المسلمون، فقالوا، إنا نقوى على هذا وهذا؛ وقالوا للنبى ﷺ إن التوراة كتاب الله فدعنا فلنعمل بها فأنزل الله هذه الآية. فالخطاب لمؤمنى أهل الكتاب[1].

وبعضهم ذكر أن المراد بالآية المنافقون والتقدير: يأيها الذين آمنوا بألسنتهم ادخلوا بكليتكم فى الإسلام ولا تتبعوا خطوات الشيطان. وهذان القولان ضعفهما ظاهر، إذ لا سندلهما يعتمد عليه، ولا يؤيدهما سياق الآية الكريمة، لأن الآية الكريمة صريحة فى دعوة المؤمنين إلى التمسك بجميع تعاليم الإسلام، وإلى الإخاء الجامع ونبذ التفرق والاختلاف والاعتداء.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٢ ص٩٧.

وقوله : ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ تحذير لهم مما يصدهم عن الدخول فى السلم.

أى : أدخلوا فى السلم واحذروا أن تتبعوا مدارج الشيطان وطرقه إنه لكم عدو ظاهر العداوة بحيث لا تخفى عداوته على عاقل.

والخطوات. جمع خطوة - بفتح الخاء وضمها - وهى ما بين قدمى من يخطو.

وفى قوله : ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ إشعار بأن الشيطان كثيرًا ما يجر الإنسان إلى الشر خطوة فخطوة ودرجة فدرجة حتى يجعله يألفه ويقتحمه بدون تردد، وبذلك يكون ممن استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله. والعاقل من الناس هو الذى يبتعد عن كل ما هو من نزغات الشيطان ووساوسه، فإن صغير الذنوب قد يوصل إلى كبيرها، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

وقوله : ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ جملة تعليلية، مؤكدة للنهى ومبينة لحكمته.

وقوله : ﴿فإن زللتم من بعدما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾ تفريع على النهى، وترهيب من العقاب الذى سيصيب المتبعين للشيطان.

قال القرطبى : وأصل الزلل فى القدم، ثم استعمل فى الاعتقادات والآراء وغير ذلك.

يقال : زل يزل زلا وزللا وزلولا، أى : دحضت قدمه.

والبينات : جمع بينة، وهى الأدلة والمعجزات، ومجيئها : ظهورها.

والمعنى : فإن تنحيتم عن طريق الحق، وعدلتم عنه إلى الباطل، من بعد أن ظهرت لكم الأدلة المفرقة بين الصواب والخطأ، والتى تدعوكم إلى اتباع طريق الحق، فاعلموا أن الله ﴿عزيز﴾ لا يقهر ولا يعجزه الانتقام ممن زل ﴿حكيم﴾ لا يترك ما تقتضيه الحكمة وإنما يضع الأمور فى مواضعها.

وجىء فى الشرط بإن، لندرة حصول الزلل من المؤمنين، إذ الشأن فيهم ذلك.

وقوله : ﴿فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾ جواب الشرط.

وقوله : ﴿من بعدما جاءتكم البينات﴾ قطع لعذرهم حتى لا يقولوا يوم الحساب إننا زللنا لأننا لا نعرف الحق من الباطل. وفى الآية دليل على أن عقوبة العالم بالذنب أعظم من عقوبة الجاهل به - كما قال القرطبى -.

وقال الفخر الرازى ما ملخصه : «وقوله : ﴿فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾ نهاية فى الوعيد،

لأنه يجمع من ضروب الخوف مالا يجمعه الوعيد بذكر العقاب. وربما قال الوالد لولده: إن عصيتنى فأنت عارف بى وأنت تعلم قدرتى عليك وشدة سطوتى. فيكون هذا الكلام فى الزجر أبلغ من ذكر الضرب وغيره. فإن قيل: أفهذه الآية مشتملة على الوعد كما أنها مشتملة على الوعيد؟ قلنا: نعم من حيث أتبعه بقوله: ﴿حكيم﴾ فإن اللائق بالحكمة أن يميز بين المحسن والمسيء، فكما يحسن من الحكيم إيصال العذاب إلى المسيء فكذلك يحسن منه إيصال الثواب إلى المحسن، بل هذا أليق بالحكمة وأقرب للرحمة»[1].

وبعد أن أمر الله المؤمنين بالدخول فى السلم كافة، ونهاهم عن الزلل عن طريقه المستقيم، عقب ذلك بتهديد الذين امتنعوا عن الدخول فى السلم فقال: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل...﴾

ينظرون: أى ينتظرون. يقال: نظرته وانتظرته بمعنى واحد.

وظلل: جمع ظلة. كظلم جمع ظلمة - وهى ما أظلك من شعاع الشمس وغيره.

والغمام: اسم جنس جمعى لغمامة، وهى السحاب الرقيق الأبيض، سمى بذلك لأنه يغم، أى يستر. ولا يكون الغمام ظلة إلا حيث يكون متراكبًا والاستفهام للإنكار والتوبيخ.

والمعنى: ما ينتظر أولئك الذين أبوا الدخول فى الإسلام من بعد ما جاءتهم البينات، إلا أن يأتيهم الله يوم القيامة فى ظلل كائنة من الغمام الكثيف العظيم ليحاسبهم على أعمالهم، وتأتيهم ملائكته الذين لا يعلم كثرتهم إلا هو - سبحانه -

وإتيان الله - تعالى - إنما هو بالمعنى اللائق به - سبحانه - مع تنزيهه عن مشابهة الحوادث، وتفويض علم كيفيته إليه - تعالى -. وهذا هو رأى علماء السلف.

وقوله: ﴿وقضى الأمر﴾ معناه على هذا الرأى: أتم - سبحانه - أمر العباد وحسابهم فأثيب الطائع وعوقب العاصى، ولم تعد لدى العصاة فرصة للتوبة أو تدارك ما فاتهم. وقد ارتضى هذا الرأى عدد من المفسرين منهم ابن كثير فقد قال فى معنى الآية: يقول الله - تعالى - مهددًا للكافرين بمحمد ﷺ ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة﴾ يعنى: يوم القيامة نفصل القضاء بين الأولين والآخرين، فيجزى كل عامل بعمله: إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر!! ولهذا قال - تعالى - ﴿وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور﴾[2].

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٢٣١.
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٤٨.

أما علماء الخلف فيؤولون إتيان الله بما يتناسب مع ذاته - سبحانه -، ولذا فسروا إتيانه بأمره أو بأسه فى الدنيا.

وقد عبر صاحب الكشاف عن وجهة نظر هؤلاء بقوله: «إتيان الله: إتيان أمره وبأسه كقوله ﴿أو يأتى أمر ربك﴾ ﴿فجاءهم بأسنا﴾ ويجوز أن يكون المأتى به محذوفًا، بمعنى أن يأتيهم الله ببأسه أو بنقمته للدلالة عليه بقوله - قبل ذلك - «فإن الله عزيز حكيم». فإن قلت: لم يأتيهم العذاب فى الغمام؟ قلت: لأن الغمام مظنته الرحمة، فإذا نزل منه العذاب كان الأمر أفظع وأهول؛ لأن الشر إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أغم كما أن الخير إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أسر، فكيف إذا جاء الشر من حيث يحتسب الخير؛ ولذلك كانت الصاعقة من العذاب المستفظع لمجيئها من حيث يتوقع الغيث: ﴿وقضى الأمر﴾ أى: تم أمر إهلاكهم وتدميرهم وفرغ منه»(١).

وقال الجمل ما ملخصه: وقوله: ﴿إلا أن يأتيهم الله﴾ استئناف مفرغ من مقدر، أى ليس لهم شىء ينتظرونه إلا إتيان العذاب وهذا مبالغة فى توبيخهم وقوله: ﴿والملائكة﴾ بالرفع عطفا على اسم الجلالة أى، وتأتيهم الملائكة فإنهم وسائط فى إتيان أمره - تعالى -، بل هم الآتون بأسه على الحقيقة. وقرأ الحسن وأبو جعفر: والملائكة بالجر عطفا على ظلل، أى إلا أن يأتيهم فى ظلل وفى الملائكة. وقوله ﴿وقضى الأمر﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون معطوفًا على يأتيهم داخلا فى حيز الانتظار ويكون ذلك من وضع الماضى موضع المستقبل والأصل ويقضى الأمر؛ وإنما جىء به كذلك لأنه محقق كقوله: ﴿أتى أمر الله﴾.

والثانى: أن يكون جملة مستأنفة برأسها أخبر الله - تعالى - بأنه قد فرغ من أمرهم فهو من عطف الجمل وليس داخلا فى حيز الانتظار»(٢).

ثم ختم - سبحانه - هذه الآية بقوله: ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ أى إليه وحده - سبحانه - لا إلى غيره ولا إلى أحد معه تصير الأمور خيرها وشرها وسيجازى الذين أساءوا بما عملوا وسيجازى الذين أحسنوا بالحسنى.

فالجملة الكريمة تذييل قصد به تأكيد قضاء أمره، ونفاذ حكمه، وتمام قدرته.

ثم بين - سبحانه - أن كفر الكافرين ليس سببه نقصان الدليل على صحة إيمان المؤمنين،

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٥٣.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ١٦٦.

وإنما سببه الجحود والحسد وإيثار الهوى على الهدى، بدليل أن بنى إسرائيل قد آتاهم الله آيات بينات تهدى إلى الإيمان ومع ذلك كفروا بها. استمع إلى القرآن وهو يصور موقفهم بعد تهديده للكافرين فى الآية السابقة فيقول: ﴿سل بنى اسرائيل كم آتيناهم من آية بينة...﴾.

قال الفخر الرازى: اعلم أنه ليس المقصود: سل بنى إسرائيل ليخبروك عن تلك الآيات فتعلمها؛ وذلك لأن الرسول ﷺ كان عالمًا بتلك الأحوال بإعلام الله - تعالى - إياه، بل المقصود منه المبالغة فى الزجر عن الإعراض عن دلائل الله - تعالى -.

أى: سل هؤلاء الحاضرين أنا لما آتينا أسلافهم آيات بينات فأنكروها، لاجرم استوجبوا العقاب من الله - تعالى -، وذلك تنبيه لهؤلاء الحاضرين على أنهم لو زلوا عن آيات الله لوقعوا فى العذاب كما وقع أولئك المتقدمون فيه. والمقصود من ذكر هذه الحكاية أن يعتبروا بغيرهم...»[1].

و﴿سل﴾ فعل أمر من سأل وأصله اسأل فنقلت فتحة الهمزة إلى السين قبلها وصارت ساكنة فحذفت. ولما فتحت السين لم يكن هناك حاجة إلى همزة الوصل فحذفت أيضًا.

و﴿كم﴾ إما خبرية والمسئول عنه محذوف، والجملة ابتدائية لا محل لها من الإعراب مبينة لاستحقاقهم التقريع والتوبيخ. كأنه قيل «سل بنى إسرائيل» عن طغيانهم وجحودهم للحق بعد وضوحه فقد آتيناهم آيات كثيرة بينة ومع ذلك أعرض كثير منهم عنها.

وإما استفهامية والجملة فى موضع المفعول الثانى لقوله «سل» وقيل: فى موضع المصدر، أى: سلهم هذا السؤال. وقيل: فى موضع الحال. أى: سلهم قائلا: كم آتيناهم.

والاستفهام للتقرير بمعنى حمل المخاطب على الإقرار - بأنه قد خالف ما تقتضيه الآيات من الإيمان بالله - تعالى -.

فالمراد بهذا السؤال تقريعهم على جحودهم الحق بعد وضوح الآيات لا معرفة إجابتهم كما إذا أراد واحد منا توبيخ أحد فيقول لمن حضره: سله كم أنعمت عليه؟

ومن الآيات البينات والمعجزات الواضحات التى أظهرها الله - تعالى - لبنى إسرائيل على أيدى أنبيائهم ليؤمنوا بهم: عصا موسى التى ألقاها فإذا هى حية تسعى؛ والتى ألقاها فإذا هى تلقف ما صنعه السحرة، والتى ضرب بها البحر ﴿فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على وحدانية الله وصدق من جرت على يديه هذه الخوارق، ومع ذلك فمنهم من قال لموسى ﴿أرنا الله جهرة﴾ ومنهم من كفر وعبد العجل..

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص ٣.

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة الجاحدين لآياته فقال: ﴿ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب﴾.

التبديل: جعل شيء بدلا عن آخر، ونعمة الله هنا تتناول آياته الدالة على صدق رسله، كما تتناول ما أسبغه الله على عباده من صحة ومال وعقل وغير ذلك من نعمه الظاهرة والباطنة.

أى: ومن يبدل نعم الله بعد ما وصلت إليه واتضحت له، بأن كفر بها مع أنها تدعو إلى الإيمان، وجحد فضلها مع أنها تستلزم منه الشكر لمسديها من يبدل ذلك التبديل فإن الله سيعاقبه عقابًا شديدًا.

وقوله: ﴿من بعد ما جاءته﴾ زيادة توبيخ لهم، وأنهم مستحقون لأشد ألوان العذاب، لأنهم قد كفروا بآيات الله وجحدوا نعمه بعد معرفتها والوقوف على تفاصيلها. فهو كقوله - تعالى -: ﴿وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾. فهو تبديل عن معرفة لا عن جهل أو خطأ.

وقوله: ﴿فإن الله شديد العقاب﴾ تعليل للجواب أقيم مقامه.

أى: ومن يبدل نعمة الله عاقبه أشد عقوبة لأنه شديد العقاب فلا يفلت منه أحد. ويحتمل أن يكون هذه الجملة هى الجواب بتقدير الضمير أى شديد العقاب له.

والعقاب هو الجزاء عن جناية وجرم، وهو مأخوذ - كما يقول القرطبى - من العقب، كأن المعاقب يمشى بالمحازاة للجانى فى آثار عقبه، ومنه عقبة الراكب - أى الموضع الذى يركب منه -، فالعقاب والعقوبة يكونان بعقب الذنب وقد عاقبه بذنبه[1].

فالآية الكريمة وعيد شديد لكل من يبدل نعم الله، ويترك شكرها.

وبعد أن ذكر القرآن حال من يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته، أتبعه بذكر الأسباب التى حملت أولئك الأشقياء على البقاء فى كفرهم وجحودهم فقال - تعالى -: ﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا﴾... الآية.

التزيين: جعل الشيء زينا أى، شديد الحسن. والحياة نائب فاعل، زين، ولم تلحق تاء التأنيث بالفعل لأن نائب الفاعل مجازى التأنيث ولوجود الفاصل بين الفعل ونائب الفاعل.

والمعنى، أن الحياة الدنيا قد زينت للكافرين فأحبوها وتهافتوا عليها تهافت الفراش على النار، وصارت متعها وشهواتها كل تفكيرهم، أما الآخرة فلم يفكروا فيها، ولم يهيئوا أنفسهم للقائها.

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٣ ص ٢٨.

قال القرطبى : والمزين هو خالقها ومخترعها وخالق الكفر، ويزينها أيضًا الشيطان بوسوسته وإغوائه وخص الذين كفروا بالذكر لقبولهم التزيين جملة وإقبالهم على الدنيا وإعراضهم عن الآخرة بسببها. وقد جعل الله ما على الأرض زينة لهاليبلو الخلق أيهم أحسن عملا، فالمؤمنون الذين هم على سنن الشرع لم تفتنهم الزينة، والكفار تملكتهم لأنهم لا يعتقدون غيرها»[١].

وقوله : ﴿ويسخرون من الذين آمنوا﴾ معطوف على جملة ﴿زين للذين كفروا...﴾ أو خبر لمبتدأ محذوف أى وهم يسخرون وتكون الواو للحال.

ويسخرون : يضحكون ويهزأون. يقال. سخرت منه وسخرت به وضحكت منه وضحكت به.

أى أن الذين كفروا لا يكتفون بحبهم الشديد لزينة الحياة الدنيا وشهواتها وإنما هم بجانب ذلك يسخرون من المؤمنين لزهد هم فى متع الحياة، لأن الكفار يعتقدون أن ما يمضى من حياتهم فى غير متعة فهو ضياع منها، وأنهم لن يبعثوا ولن يحاسبوا على ما فعلوه فى دنياهم، أما المؤمنون فهم يتطلعون إلى نعيم الآخرة الذى هو أسمى وأبقى من نعيم الدنيا.

وجىء بقوله : ﴿زين﴾ ماضيا للدلالة على أنه قد وقع وفرغ منه. وجىء بقوله ﴿ويسخرون﴾ مضارعًا للدلالة على تجدد سخريتهم من المؤمنين وحدوثها بين وقت آخر. قال - تعالى - : ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون. وإذا مروا بهم يتغامزون..﴾.

وقد ذكر بعض المفسرين فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : أنها نزلت فى المنافقين عبد الله بن أبى وحزبه، كانوا يتنعمون فى الدنيا أو يسخرون من ضعفاء المؤمنين وفقراء المهاجرين، ويقولون : أنظروا إلى هؤلاء الذين يزعم محمد ﷺ أنه يغلب بهم. ومنها. أنها نزلت فى أبى جهل ورؤساء قريش كانوا يسخرون من فقراء المسلمين كعمار وخباب وابن مسعود وغيرهم بسبب ما كانوا فيه من الفقر والصبر على البلاء. والحق أنه لا مانع من نزولها فى شأن كل الكافرين الذين يسخرون من المؤمنين.

وقوله : ﴿والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة﴾ رد منه - سبحانه - على هؤلاء الكفار الذين يسخرون من المؤمنين، والذين يرون أنفسهم أنهم فى زينتهم ولذاتهم أفضل من المؤمنين فى نزاهتهم وصبرهم على بأساء الحياة وضرائها.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٣ ص ٢٩.

أى، والذين اتقوا الله - تعالى - وصانوا أنفسهم عن كل سوء فوق أولئك الكافرين مكانة ومكانا يوم القيامة، لأن تقواهم قد رفعتهم إلى أعلى عليين، أما الذين كفروا فإن كفرهم قد هبط بهم إلى النار وبئس القرار.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم قال «من الذين آمنوا» ثم قال : ﴿والذين اتقوا﴾ ؟ قلت : ليريك أنه لا يسعد عنده إلا المؤمن التقى، وليكون بعثًا للمؤمنين على التقوى إذا سمعوا ذلك[١].

وقيدت الفوقية بيوم القيامة للتنصيص على دوامها، لأن ذلك اليوم هو مبدأ الحياة الأبدية، ولإدخال السرور والتسلية على قلوب المؤمنين حتى لا يتسرب اليأس إلى قلوبهم بسبب إيذاء الكافرين لهم فى الدنيا.

وقوله : ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ تذييل قصد به تشريف المؤمنين، وبيان عظم ثوابهم.

أى : والله يرزق من يشاء بغير حساب من المرزوق. أو بلا حصر وعد لما يعطيه. أو أنه لا يخاف نفاد ما فى خزائنه حتى يحتاج إلى حساب لما يخرج منها. فهو - سبحانه - الذى يعطى ويمنع، وليس عطاؤه فى الدنيا دليل رضاه عن المعطى فقد يعطى الكافر وهو غير راض عنه، أما عطاؤه فى الآخرة فهو دليل رضاه عمن أعطاه.

قال الأستاذ الإمام : إن الرزق بلا حساب ولا سعى فى الدنيا إنما يصح بالنسبة إلى الأفراد، فإنك ترى كثيرًا من الأبرار وكثيرًا من الفجار أغنياء موسرين متمتعين بسعة الرزق، وكثيرًا من الفريقين فقراء معسرين، والمتقى يكون دائمًا أسعد حالا وأكثر احتمالا، ومحلا لعناية الله به فلا يؤلمه الفقر كما يؤلم الفاجر لأنه يجد فى التقوى مخرجًا من كل ضيق . . . وأما الأمم فأمرها على غير هذا، فإن الأمة التى ترونها فقيرة ذليلة لا يمكن أن تكون متقية لأسباب نقم الله وسخطه . . وليس من سنة الله أن يرزق الأمة العزة والثروة وهى لا تعمل، وإنما يعطيها بعملها ويسلبها بزللها . . »[٢].

ثم بين - سبحانه - أحوال الناس، وأنهم فى حاجة إلى الرسل ليبشروهم وينذروهم ويحكموا بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٥٥.
(٢) تفسير المنار جـ٢ ص ٢٧٤ بتلخيص.

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾

قال الفخر الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما بين فى الآية المتقدمة أن سبب إصرار هؤلاء الكفار على كفرهم هو حب الدنيا، بين فى هذه الآية أن هذا المعنى غير مختص بهذا الزمان، بل كان حاصلا فى الأزمنة المتقادمة، لأن الناس كانوا أمة واحدة قائمة على الحق ثم اختلفوا، وما كان اختلافهم إلا بسبب البغى والتحاسد والتنازع فى طلب الدنيا»[١].

و﴿الأمة﴾ القوم المجتمعون على الشىء الواحد يقتدى بعضهم ببعض مأخوذ من أم بمعنى قصد لأن كل واحد من أفراد القوم يؤم المجموع ويقصده فى مختلف شؤونه.

وللعلماء أقوال فى معنى قوله - تعالى - ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين﴾.

القول الأول الذى عليه جمهور المفسرين أن المعنى : كان الناس أمة واحدة متفقين على توحيد الله - تعالى - مقرين له بالعبودية مجتمعين على شريعة الحق ثم اختلفوا ما بين ضال ومهتد، فبعث الله إليهم النبيين ليبشروا من اهتدى منهم بجزيل الثواب، ولينذروا من ضل بسوء العذاب، وليحكموا بينهم فيما اختلفوا فيه بالحكم العادل، والقول الفاصل.

قال القفال : ويشهد لصحة هذا الرأى قوله - تعالى - ﴿فبعث الله النبيين. . .﴾[٢] فهذا يدل على أن الأنبياء - عليهم السلام - إنما بعثوا حين الاختلاف، ويتأكد هذا بقوله :

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص ١١.
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص ١٢.

« وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا » ويتأكد أيضًا بما نقل عن ابن مسعود أنه قرأ ﴿كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين. .﴾.

و« كان » على هذا الرأى على بابها من المضى، وعدم استمرار الحكم، وعدم امتداده إلى المستقبل، لأن الناس كانوا مهتدين ثم زالت الهداية عنهم أو عن كثير منهم بسبب اختلافهم فأرسل الله - تعالى - رسله لهدايتهم.

القول الثانى يرى أصحابه أن المعنى : كان الناس أمة واحدة مجتمعين على الضلال والكفر فبعث الله النبيين لهدايتهم. .

و« كان » على هذا الرأى - أيضًا - على بابها من المضى والانقضاء، ولا تحتاج على هذا الرأى إلى تقدير كلام محذوف، وهو ثم اختلفوا فبعث. . إلخ.

ومن العلماء الذين رجحوا القول الأول الإمام ابن كثير فقد قال : عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين. . وهكذا قال قتادة ومجاهد. وقال العوفى عن ابن عباس (كان الناس أمة واحدة) يقول كانوا كفارًا (فبعث الله النبيين) والقول الأول عن ابن عباس وهو أصح سندًا ومعنى؛ لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام فبعث الله إليهم نوحًا - عليه السلام - فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض[(١)].

أما الرأى الثالث فقد قرره الإمام القرطبى بقوله : ويحتمل أن تكون « كان » للثبوت، والمراد الإخبار عن الناس الذين هم الجنس كله أنهم أمة واحدة فى خلوهم عن الشرائع، وجهلهم بالحقائق، لولا مَنُّ الله عليهم وتفضله بالرسل إليهم. فلا يختص « كان » على هذا التأويل بالمضى فقط، بل معناه معنى قوله : ﴿وكان الله غفورًا رحيمًا﴾[(٢)].

وهذا الرأى قد اختاروه الأستاذ الإمام محمد عبده فى تفسيره للآية الكريمة ووافقه عليه بعض العلماء الذين كتبوا فى تفسير هذه الآية. قال الأستاذ الإمام ما ملخصه.

« خلق الله الإنسان أمة واحدة أى مرتبطًا بعضه ببعض فى المعاش لا يسهل على أفراده أن يعيشوا فى هذه الحياة الدنيا إلا مجتمعين يعاون بعضهم بعضًا، فكل واحد منهم يعيش ويحيا بشىء من عمله لكن قواه النفسية والبدنية قاصرة عن توفير جميع ما يحتاج إليه، فلابد من انضمام قوى الآخرين إلى قوته. . . وهذا معنى قولهم : «الإنسان مدنى بطبعه» يريدون بذلك أنه لم يوهب من القوى ما يكفى للوصول إلى جميع حاجاته إلا بالاستعانه بغيره. . ولما كان

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٥٠.

(٢) تفسير القرطبى جـ ٣ ص ٣١.

الناس كذلك كان لابد لهم من الاختلاف بمقتضى فطرهم، وكان من رحمة الله أن يرسل إليهم مبشرين ومنذرين.

وترتيب بعثة الرسل على وحدة الأمة فى الآية التى نفسرها يكون على هذا المعنى:

إن الله قضى أن يكون الناس أمة واحدة يرتبط بعضهم ببعض ولا سبيل لعقولهم وحدها إلى الوصول إلى ما يلزم لهم فى توفير مصالحهم ودفع المضار عنهم، لتفاوت عقولهم، واختلاف فطرهم، وحرمانهم من الإلهام الهادى لكل منهم إلى ما يجب عليه نحو صاحبه، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأيدهم بالدلائل القاطعة على صدقهم، وعلى أن ما يأتون به إنما هو من عند الله - تعالى - القادر على إثابتهم وعقوبتهم...»[1].

وقال فضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة ما ملخصه: وإن هذا الرأى الذى اختاره الأستاذ الإمام هو الذى نختاره، وعلى هذا التأويل لا يكون ثمة حاجة إلى تقدير محذوف، لأن ذات حالهم من كونهم لا علم لهم بالشرائع ولا تهتدى عقولهم إلى الحقائق بنفسها توجب البعث، ولأن تلك الحال التى تكون على الفطرة وحدها توجب الاختلاف فتوجب بعث النبيين.. ثم إن نفس كل إنسان فيها نزوع إلى الاجتماع، وحيث كان الاجتماع فلابد من نظام يربط، وشرع يحكم.

وعلى هذا التأويل أيضا تكون الفاء فى قوله: ﴿فبعث...﴾ - وهى التى يقول عنها النحويون إنها للترتيب والتعقيب - فى موضعها من غير حاجة إلى تقدير، لأن كون الناس أمة واحدة اقتضت الرسالة واقتضت الاختلاف.

و«كان» على هذا التأويل تدل على الاستمرار والثبوت، لأن الناس بمقتضى فطرهم دائما فى حاجة إلى شرع السماء لا يهتدون إلا به.

ثم قال فضيلته: وقد يقول قائل: إن جعل «كان» للاستمرار يفيد أن وحدة الناس فى الفطرة وتأديها إلى التناحر يقتضى بعث النبيين إلى يوم القيامة، وأنه لابد من نبى لعصرنا، ونحن نسلم بالاعتراض ولا ندفع إيراده ونقول: نعم إنه لابد من قيام رسالة إلى يوم القيامة وهى رسالة محمد ﷺ التى جاءت بكتاب تتجدد به الرسالة والبعث إلى أن تفنى الأرض ومن عليها وهذا الكتاب هو القرآن الكريم الذى لا تبلى جدته، والذى تكفل الله بحفظه، وبإعجازه إلى يوم القيامة، والذى من يقرؤه فكأنما يتلقاه عن النبى ﷺ»[2].

---

(١) تفسير المنار جـ٢ ص ٢٨٢ بتصرف وتلخيص.

(٢) تفسير الآية الكريمة لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة. مجلة لواء الإسلام السنة الخامسة من العدد الثامن

هذه هى أشهر الأقوال فى معنى قوله - تعالى - ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين﴾ وهناك أقوال أخرى لم نذكرها لضعفها.

وقوله - تعالى - : ﴿وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ معطوف على ﴿فبعث﴾، والمراد بالكتاب الجنس.

والمعنى : وأنزل - سبحانه - مع هؤلاء النبيين الذين بعثهم مبشرين ومنذرين كلامه الملتبس بالحق والجامع لما يحتاجون إليه من أمور الدين والدنيا، لكى يفصلوا بواسطته بين الناس فيما اختلفوا من شئون دينيه ودنيويه.

وذكر - سبحانه - الكتاب بصيغة المفرد للإشارة إلى أن كتب النبيين وإن تعددت إلا أنها فى جوهرها كتاب واحد لاشتمالها على شرع واحد فى أصله، وإذا كان هناك خلاف بينها ففى تفاصيل الأحكام وفروعها لا فى جوهرها وأصولها، وقوله : ﴿بالحق﴾ متعلق بأنزل، أو حال من الكتاب أى ملتبسا شاهدا به.

والضمير فى قوله : ﴿ليحكم . .﴾ يجوز أن يعود إلى الله - تعالى - أو إلى النبيين، أو إلى الكتاب. ورجح بعضهم عودته إلى الكتاب لأنه أقرب مذكور. والجملة تعليلية للإنزال المذكور.

وفى إسناد الحكم إلى الكتاب تنبيه للناس إلى أن من الواجب عليهم أن يرجعوا إليه عند كل اختلاف. لأن هذا هو المقصد الأساسى من إنزال الكتب السماوية.

وللأستاذ الإمام محمد عبده كلام نفيس فى هذا المعنى فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه : «الحكم مسند إلى الكتاب نفسه، فالكتاب ذاته هو الذى يفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه، وفيه نداء للحاكمين بالكتاب أن يلزموا حكمه، وألا يعدلوا عنه إلى ما تسوله الأنفس وتزينه الأهواء. . ولو ساغ للناس أن يؤولوا نصا من نصوص الكتب على حسب ما تنزع إليه عقولهم بدون رجوع إلى بقية النصوص، لما كان لإنزال الكتب فائدة، ولما كانت الكتب فى الحقيقة حاكمة، بل كانت متحكمة فيها الأهواء، فنعود المصلحة مفسدة، وينقلب الدواء علة، ولهذا رد الله الحكم إلى الكتاب نفسه لا إلى هوى الحاكم به. . ونسبة الحكم إلى الكتاب هى كنسبة النطق والهدى والتبشير إليه فى قوله - تعالى - : ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾ وقوله - تعالى - : ﴿إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين. .﴾

ثم يقول - رحمه الله - «يتخذ الواحد منهم كلمة من الكتاب أو أثرًا مما جاء به وسيلة إلى تسخير غيره لما يريد، وذلك قطع الكلمة أو الأثر عن بقية ما جاء فى الكتاب والآثار الأخر ولى اللسان أو تأويله بغير ما قصد منه؛ وما هم المؤول أن يعمل بالكتاب وإنما كل ما يقصد هو أن يصل إلى مطلب لشهوته، أو عضد لسطوته، سواء أهدمت أحكام الله أم قامت، واعوجت

السبيل أم استقامت، ثم يأتى ضال آخر يريد أن ينال من هذا ما نال غيره، فيحرف ويؤول حتى يجد المخدوعين بقوله، ويتخذهم عونا على الخادع الأول، فيقع الاختلاف والاضطراب، وآلة المختلفين فى ذلك هو الكتاب[1]

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى أدت إلى اختلاف الناس فى الكتاب الذى أنزله لهدايتهم فقال ﴿وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم﴾.

والضمير فى قوله: ﴿فيه﴾ وفى قوله: ﴿أوتوه﴾ يعود إلى الكتاب، والمعنى عليه: وما اختلف فى شأن الكتاب الهادى الذى لا لبس فيه، المنزل لإزالة الاختلاف، إلا الذين أوتوه، أى علموه ووقفوا على تفاصيله، ولم يكن اختلافهم لا لتباس عليهم من جهته وإنما كان خلافهم من بعد ما ظهرت لهم الدلائل الواضحة الدالة على صدقه، وما حملهم على هذا الاختلاف إلا البغى والظلم والحسد الذى وقع بينهم.

والمراد بالذين اختلفوا فيه أهل الكتاب اليهود والنصارى، واختلافهم فى الكتاب يشمل تصديقهم ببعضه وتكذيبهم بالبعض الآخر، كما يشمل اختلافهم فى تفسيره وتأويله وتنفيذ أحكامه وعدم تنفيذها، وذهاب كل فريق منهم مذهبًا يخالف مذهب الآخر فى أصول الشرع لا فى فروعه.

وعبر عن الإنزال بالإيتاء - كما يقول الآلوسى - للتنبيه من أول الأمر على كمال تمكنهم من الوقوف على ما فيه من الحق، فإن الإنزال لا يفيد ذلك، وقيل: عبر به ليختص الموصول بأرباب العلم والدراسة من أولئك المختلفين، وخصهم بالذكر لمزيد شناعة فعلهم ولأن غيرهم تبع لهم»[2].

وقوله: ﴿من بعد ما جاءتهم البينات﴾ متعلق باختلف، وفيه زيادة تشنيع عليهم لأنهم قد اختلفوا فيه بعد أن قامت أمامهم الحجج الناصعة الدالة على الحق.

وقوله: ﴿بغيا﴾ مفعول لأجله لاختلفوا ﴿وبينهم﴾ متعلق بمحذوف صفة لقوله ﴿بغيا﴾. أى أن داعى الاختلاف هو البغى والحسد الذى وقع بينهم، فجعل كل فريق منهم يخطىء الآخر، ويجرح رأيه.

وفى هذا التعبير إشارة إلى أن البغى قد باض وفرخ عندهم، فهو يحوم عليهم، ويدور

---

(١) تفسير المنار جـ٢ ص ٢٨٤، ٢٨٦.
(٢) تفسير الآلوسى جـ٢ ص ١٠٢.

بينهم، ولا طمع له فى غيرهم، ولا ملجأ له سواهم، لأنهم أربابه الذين تمكنوا منه، وتمكن منهم بقوة ورسوخ.

وبعضهم جعل الضمير فى قوله : ﴿فيه﴾ يعود إلى الحق، والضمير فى قوله : ﴿أوتوه﴾ يعود إلى الكتاب. أى : وما اختلف فى الحق إلا الذين أوتوا الكتاب

ويرى بعض العلماء أن عودة الضمير فى كليهما إلى الحق أو إلى الكتاب جائز، وأن المعنى على التقديرين واحد، لأن الكتاب أنزل ملابسًا للحق ومصاحبًا له، فإذا اختلف فى الكتاب اختلف فى الحق الذى فيه وبالعكس على طريقة قياس المساواة فى المنطق والجملة الكريمة تحذير شديد من الوقوع فيما وقع فيه غيرهم من اختلاف يؤدى إلى البغى والتنازع والإعراض عن الحق.

ثم بين - سبحانه - حال المؤمنين بعد بيانه لحال الغاوين فقال - تعالى ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه﴾.

أى : فهدى الله الذين آمنوا وصدقوا رسله إلى الحق الذى اختلف فيه أهل الضلالة، وذلك الهدى بفضل توفيقه لهم وتيسيره لأمرهم.

والفاء فى قوله : ﴿فهدى﴾ فصيحة لأنها أفصحت عن كلام مقدر وهو المعطوف عليه المحذوف.

والتقدير : إذا كان هذا شأن الضالين المختلفين فى الحق، فقد هدى الله بفضله الذين آمنوا إلى الصواب.

وبين - سبحانه - أن الذين رزقهم الهداية هم الذين آمنوا، للإشعار بأن سبب هدايتهم للحق هو إيمانهم وتقواهم، واستجابتهم للداعى الذى دعاهم إلى الطريق المستقيم.

وأسند الهداية إليه - سبحانه - لأنه هو خالقها، ولأن قلوب العباد بيديه فهو يقلبها كيف يشاء، وهذا لا ينافى أن للعبد اختيارًا وكسبًا فهو إذا سار فى طريق الحق رزقه الله النور المشرق الذى يهديه، وإن سار فى طريق الضلالة واستحب العمى على الهدى سلب الله عنه توفيقه بسبب إيثاره الضلالة على الهداية.

وقوله - تعالى - فى ختام هذه الآية : ﴿والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ تذييل قصد به بيان كمال سلطانه، وتمام قدرته.

أى : والله وحده هو الهادى من يشاء من عباده إلى طريق الحق الذى لا يضل سالكه، فليس لأحد سلطان بجوار سلطانه، ولو أراد أن يكون الناس جميعًا مهديين لكانوا، ولكن حكمته

اقتضت أن يختبرهم ليتميز الخبيث من الطيب، فيجازى كل فريق بما يستحقه.

قال ابن كثير: وفى صحيح البخارى ومسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلى يقول: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم».

وفى الدعاء المأثور: اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ولا تجعله ملتبسا علينا فنضل واجعلنا للمتقين إماما[1].

وبذلك نرى أن الآية قد بينت أن الناس لا يستغنون عن الدين الذى شرعه الله لهم على لسان رسله - عليهم الصلاة والسلام -، وأن الأشرار من الناس هم الذين يحملهم البغى على الاختلاف فى الحق بعد ظهوره لهم، أما الأخيار منهم فهم الذين اهتدوا بتوفيق الله وتيسيره إلى طريق الخير والصواب ﴿والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾.

وبعد أن ذكر - سبحانه - حال الناس، واختلاف سفهائهم على أنبيائهم، واهتداء عقلائهم إلى الحق، عقب ذلك بدعوة المؤمنين إلى الاقتداء بمن سبقهم فى الصبر والثبات. فقال - تعالى -:

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾

قال القرطبى: قال قتادة والسدى وأكثر المفسرين: نزلت هذه الآية فى غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد والشدة والحر والبرد وسوء العيش وأنواع الشدائد، وكانوا كما قال - تعالى -: ﴿إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٥٠.

وقيل نزلت فى حرب أحد، ونظيرها - فى آل عمران ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم..﴾ وقالت فرقة: نزلت الآية تسلية للمهاجرين حين تركوا ديارهم وأموالهم بأيدى المشركين، وآثروا رضا الله ورسوله، وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله، وأسر قوم من الأغنياء النفاق فأنزل الله ذلك تطييبا لقلوبهم»[1].

وما ذكره المفسرون فى سبب نزول هذه الآية الكريمة لا يمنع عمومها، وأنها تدعو المؤمنين فى كل زمان ومكان إلى التذرع بالصبر والثبات تأسيا بمن سبقهم من المتقين حتى يفوزوا برضوان الله - تعالى - ونصره.

و﴿أم﴾ هنا يرى بعضهم أنها للاستفهام الإنكارى، ويرى بعض آخر أنها أم المتصلة، ويرى فريق ثالث أنها أم المنقطعة.

قال الجمل: وحسب هنا من أخوات ظن تنصب مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر، وأن وما بعدها سادة مسد المفعولين عند سيبويه، ومسد الأول عند الأخفش والثانى محذوف، ومضارعها فيه وجهان: الفتح وهو القياس والكسر[2].

و﴿لما﴾ تدل على النفى مع توقع حصول المنفى بها، كما فى قول النابغة:

أزف الترحل غير أن ركابنا ... لما تزل برحالنا وكأن قد

فنفى بلما ثم قال: وكأن قد، أى وكأنه قد زالت.

و﴿البأساء﴾ ما يصيب الناس فى الأموال كالفقر. والضراء: ما يصيبهم فى الأنفس كالمرض مشتقان من البؤس والضر.

و﴿زلزلوا﴾ من الزلزلة وهى شدة التحريك وتكون فى الأشخاص وفى الأحوال. فيقال: زلزلت الأرض، أى تحركت واضطربت، ومعنى زلزلوا: خوفوا وأزعجوا واضطربوا.

والمعنى على أن ﴿أم﴾ للاستفهام الإنكارى: أظننتم أيها المؤمنون أنكم تدخلون الجنة بمجرد الإيمان دون أن يصيبكم ما أصاب الذين سبقوكم من شدائد فى الأنفس والأموال، ومن مخاوف أزعجتهم وأفزعتهم حتى بلغ الأمر برسولهم وبالمؤمنين معه أن يقولوا وهم فى أقصى ما تحتمله النفوس البشرية من آلام: متى نصر الله؟!!

---

(١) تفسير القرطبى جـ٣ ص ٣٤.
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ١٦٩.

لا - أيها المؤمنون - إنى أنهاكم أن تظنوا هذا الظن، وآمركم أن تتيقنوا من أن الظفر بدخول الجنة يستلزم منكم التأسى بمن سبقكم من المتقين فى الصبر والثبات.

والمعنى على أن ﴿أم﴾ هنا هى المتصلة - أى المشعرة بمحذوف دل عليه الكلام - : قد خلت من قبلكم أمم أوتوا الكتاب واهتدوا إلى الحق فآذاهم الناس أذى شديدا فصبروا على ذلك أفتصبرون مثلهم على المكاره وتثبتون ثباتهم على الشدائد؟ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة دون أن يصيبكم ما أصابهم؟

والمعنى على أن ﴿أم﴾ هنا منقطعة - أى تدل على الإضراب والاستفهام معا - : لقد أوذيتم أيها المؤمنون فى سبيل دينكم أذى عظيمًا، فعليكم أن تصبروا وأن تثبتوا كما فعل الذين من قبلكم، أم حسبتم أن تدخلوا الجنة دون ابتلاء وصبر.. أى: بل أحسبتم.. إن كان هذا هو حسبانكم فهو حسبان باطل لا ينبغى لكم.

وقوله - تعالى - : ﴿مستهم البأساء..﴾ استئناف وقع جوابًا عما ينساق إليه الذهن، كأنه قيل: كيف مثل أولئك الذين خلوا ومضوا؟ فكان الجواب مستهم البأساء.. الخ.

ومستهم أى: حلت بهم. وعبر بمستهم للإشعار بأن تلك الشدائد قد أصابتهم بالآلام التى اتصلت بحواسهم وأجسادهم ولكنها لم تضعف إيمانهم إذ حقيقة المس اتصال الجسم بجسم آخر.

قال صاحب الكشاف: وقوله: ﴿وزلزلوا﴾ أى: أزعجوا إزعاجًا شديدًا شبيها بالزلزلة بما أصابهم من الأهوال والافزاع «حتى يقول الرسول» أى: إلى الغاية التى قال الرسول ومن معه فيها ﴿متى نصر الله﴾ أى بلغ بهم الضجر ولم يبق لهم صبر حتى قالوا ذلك. ومعناه طلب النصر وتمنيه، واستطالة زمان الشدة. وفى هذه الغاية دليل على تناهى الأمر فى الشدة وتماديه فى العظم؛ لأن الرسل لا يقادر قدر ثباتهم واصطبارهم وضبطهم لأنفسهم، فإذا لم يبق لهم صبر حتى ضجوا كان ذلك الغاية فى الشدة التى لا مطمع وراءها[1]».

والمراد بالرسول - كما يقول الألوسى - الجنس لا واحد بعينه. وقيل: شعياء، وقيل: أشعياء، وقيل اليسع. وعلى التعيين يكون المراد من الذين خلوا قوما بأعيانهم وهم أتباع هؤلاء الرسل[2]».

وقوله - تعالى - : ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾ استئناف على تقدير القول. أى فقيل لهم حينما

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ صفحة ٢٥٦.
(٢) تفسير الألوسى جـ٢ صفحة ١٠٤.

التمسوا من الله النصر بعد تلك الشدائد والأهوال التى نزلت بهم : ألا إن نصر الله قريب. تطييبا لأنفسهم، وبعثا للآمال فى قلوبهم.

وفى هذه الجملة الكريمة ألوان من المؤكدات والمبشرات بالنصر القريب، ويشهد لذلك التعبير بالجملة الاسمية بدل الفعلية فلم يقل - مثلا - ستنصرون والتعبير بالجملة الاسمية يدل على التوكيد. ويشهد لذلك أيضا تصدير الجملة بأداة الاستفتاح الدالة على تحقيق مضمونها وتقريره، ووقوع إن المؤكدة بعد أداة الاستفتاح، وإضافة النصر إلى الله القادر على كل شىء والذى وعد عباده المؤمنين بالنصر فقال، إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد» :

هذا، والمتأمل فى الآية الكريمة يراها قد بينت للمؤمنين أن طريق الجنة محفوف بالمكاره، وصدق رسول الله ﷺ فى قوله : «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات». وأنهم لكى يصلوا إلى الجنة عليهم أن يتأسوا بالسابقين فى جهادهم وصبرهم على الأذى، فقد اقتضت سنة الله أن يجعل هذه الحياة نزالا موصولا بين الأخيار والأشرار، ونزاعا مستمرا بين الأطهار والفجار، وكثيرا ما يضيق البغاة على المؤمنين، وينزلون بهم ما ينزلون من صفوف الاضطهاد إلا أن الله - تعالى - قد تكفل بأن يجعل العاقبة للمتقين.

ولقد حكى لنا التاريخ أن المؤمنين السابقين قد صبروا أجمل الصبر وأسماه فى سبيل إعلاء كلمة الله.

روى البخارى عن خباب بن الأرت - رضى الله عنه - قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة فقلنا : ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه. والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون (١).

وبذلك نرى أن السورة الكريمة من قوله - تعالى - ﴿ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا﴾ إلى هنا، قد بينت لنا أقسام الناس فى هذه الحياة، ودعت المؤمنين إلى أن يتمسكوا بجميع تعاليم الإسلام، وأن يزهدوا فى زينة الحياة التى شغلت المشركين عن كل شىء سواها، وأن يشكروا الله على هدايته إياهم إلى الحق الذى اختلف غيرهم فيه، وأن يوطنوا أنفسهم على تحمل الآلام لكى يحقق الله لهم الآمال.

---

(١) صحيح البخارى كتاب الإكراه. باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر جـ ٩ ص ٢٦.

ثم أرشد الله - تعالى - المؤمنين بعد ذلك إلى أن مما يعينهم على دفع الأذى وعلى دحر أعدائهم أن يبذلوا أموالهم فى طاعة الله ، وأن يعدوا أنفسهم للقتال فى سبيله فقال - تعالى - :

يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ
مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ
وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾
كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟
شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ
وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ
ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ
عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ
حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ
مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ
أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ
هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ
هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ
ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

قال الآلوسى : عن ابن جريج قال : سأل المؤمنون رسول الله ﷺ أين يضعون أموالهم فأنزل الله - تعالى - قوله : ﴿يسألونك ماذا ينفقون﴾. الآية. وعن ابن عباس قال : كان عمرو بن الجموح شيخًا كبيرًا وعنده مال كثير فقال يا رسول الله : بماذا نتصدق، وعلى من ننفق؟ فنزلت الآية.

والمعنى : يسألك أصحابك يا محمد أى شىء ينفقونه من أصناف الأموال؟ قل لهم : ما أنفقتم من أموالكم فاجعلوه للوالدين قبل غيرهما ليكون أداء لحق تربيتهما ووفاء لبعض حقوقهما، وللأقربين وفاء لحق القرابة والرحم ولليتامى لأنهم فقدوا الأب الحانى الذى يسد عوزهم، والمساكين لفقرهم واحتياجهم، وابن السبيل لأنه كالفقير لغيبة ماله وانقطاعه عن بلده.

قال الإمام الرازى : فهذا هو الترتيب الصحيح الذى رتبه الله - تعالى - فى كيفية الإنفاق. ثم لما فصل هذا التفصيل الحسن الكامل أردفه بعد ذلك بالإجمال فقال : ﴿وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم﴾ أى : وكل ما فعلتموه من خير إما مع هؤلاء المذكورين وإما مع غيرهم حسبة لله وطلبا لجزيل ثوابه وهربا من أليم عقابه فإن الله به عليم فيجازيكم احسن الجزاء عليه . . »[١].

وظاهر الآية - كما يقول الآلوسى - أن السؤال عن المنفق فأجاب ببيان المصرف صريحا، لأنه أهم لأن اعتداد النفقة باعتباره. وأشار - سبحانه - إجمالا إلى بيان المنفق فإن قوله ﴿من خير﴾ يتضمن كونه حلالا إذ لا يسمى ما عداه خيرا، وإنما تعرض لذلك - أى لبيان المنفق عليه - وليس فى السؤال ما يقتضيه، لأن السؤال للتعلم لا للجدل، وحق المعلم فيه أن يكون كطبيب رفيق يتحرى ما فيه الشفاء، طلبه المريض أم لم يطلبه. ولما كانت حاجتهم إلى من ينفق عليه كحاجتهم إلى ما ينفق بين الأمرين، (وهذا كمن به صفراء فاستأذن طبيبا، فى أكل العسل فقال له : كله مع الخل). فالكلام إذًا من أسلوب الحكيم. ويحتمل أن يكون فى الكلام - أى فى كلام السائلين - ذكر المصرف - أيضًا - كما فى سؤال عمرو بن الجموح إلا أنه لم يذكره فى الآية للإيجاز فى النظم تعويلا على الجواب، فتكون الآية جوابا لأمرين مسئول عنهما. والاقتصار فى بيان المنفق على الإجمال من غير تعرض للتفصيل كما فى بيان المصرف للإشارة إلى كون الثانى أهم. وهل تخرج الآية بذلك عن كونها من أسلوب الحكيم أولا؟ قولان أشهرهما الثانى »[٢].

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٦ ص ٢٦.

(٢) تفسير الآلوسى جـ٢ ص ١٠٥.

ولم يتعرض - سبحانه - هنا لبقية المحتاجين كالسائلين والغارمين إما اكتفاء بذكرهم فى مواضع أخرى، وإما بناء على دخولهم تحت عموم قوله - تعالى - : فى آخر الآية ﴿وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم﴾ فإنه شامل لكل خير واقع فى أى مصرف كان.

قال الجمل و «ذا» اسم موصول بمعنى الذى والعائد محذوف، و «ما» على أصلها من الاستفهام ولذلك لم يعمل فيها يسألونك، وهى مبتدأ وذا خبره، والجملة محلها النصب بيسألون. والمعنى يسألونك أى الشىء الذى ينفقونه»(١).

وقوله : ﴿وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم﴾ تذييل قصد به الحض على فعل الخير، لأن المؤمن عندما يشعر بأن الله يرى عمله ويجازيه عليه بما يستحقه، يشجعه ذلك على الاستمرار فى عمل الخير. وإذا كان بعضنا يكثر من عمل الخير عندما يعلم أن شخصا ذا جاه يسره هذا العمل، فكيف يكون الحال عندما يعلم المؤمن التقى أن الذى يرى عمله ويكافئه عليه هو الله الذى لا تخفى عليه خافية، والذى يعطى من يشاء بغير حساب.

قال بعض العلماء : وقد اختلف فى هذه الآية. فقيل إنها منسوخة بآية الزكاة وهى قوله - تعالى - : ﴿إنما الصدقات للفقراء . .﴾. وقيل - وهو الأولى - إنها غير منسوخة، وهى لبيان صدقة التطوع فإنه متى أمكن الجمع فلا نسخ»(٢).

وقوله : ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم﴾ حض لهم على بذل النفس فى سبيل إعلاء كلمة الله، بعد أن حضهم فى الآية السابقة على بذل المال.

والكُره - بضم الكاف - بمعنى الكراهية بدليل قوله - تعالى - : ﴿وعسى أن تكرهوا شيئا . .﴾ أى أن القتال لشدة ويلاته، وما فيه من إزهاق الأرواح كأنه الكراهة نفسها فهو من وضع المصدر موضع اسم المفعول مبالغة، وقرئ وهو كره لكم - بفتح الكاف - فيكون فيه معنى الإكراه، لأن الكره بالفتح ما أكرهت عليه. وقيل هما لغتان بمعنى واحد وهو الكراهية.

ويرى كثير من المفسرين أن القتال إنما كان مكروها للنفوس لما فيه من التعرض للجراح وقطع الأطراف، وإزهاق الأرواح والإنسان ميال بطبعه إلى الحياة، وأيضًا لما فيه من إخراج المال ومفارقة الوطن والأهل، والحيلولة بين المقاتل وبين طمأنينته ونومه وطعامه، فهو مهما يكن أمره فيه ويلات وشدائد، ومشقات تتلوها مشقات، ولكن كون القتال مكروها للنفوس لا ينافى الإيمان ولا يعنى أن المسلمين كرهوا فرضيته، لأن امتثال الأمر قد يتضمن مشقة، ولكن إذا

---

(١) حاشية الجمل جـ١ ص ١٧٠.
(٢) تفسير آيات الأحكام جـ١ ص ١١٤ لفضيلة الأستاذ محمد على السايس.

عرف الثواب هان فى جنبه اقتحام المشقات. ولا شك أن القتال فى سبيل الله - مع ما فيه من صعاب وشدائد - ستكون عاقبته العزة فى الدنيا، والسعادة فى الأخرى.

ويرى بعضهم أن كره المسلمين للقتال ليس سببه ما فيه من شدائد ومخاطر وتضحيات بدليل أنهم كانوا يتنافسون خوض غمراته، وإنما السبب فى كراهيتهم له هو أن الإسلام قد غرس فى نفوسهم رقة ورحمة وسلاما وحبا، وهذه المعانى جعلتهم يحبون مصابرة المشركين ويكرهون قتالهم أملا فى هدايتهم، ورجاء فى إيمانهم، ولكن الله - تعالى - كتب على المسلمين قتال أعدائهم لأنه يعلم أن المصلحة فى ذلك، فاستجاب المؤمنون بصدق وإخلاص لما فرضه عليهم ربهم.

ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى ظاهر الآية، لأن القتال فريضة شاقة على النفس البشرية، بحسب الطبع والقرآن لا يريد أن ينكر مشقتها، ولا أن يهون من أمرها، ولا أن ينكر على النفس البشرية إحساسها الفطرى بكراهيتها، ولكنه يعالج الأمر من جانب آخر، بأن يقرر أن من الفرائض ما هو شاق ولكن وراءه حكمة تهون مشقته، وتسهل صعوبته، وتحقق به خيرًا مخبوءًا قد لا يراه النظر الإنسانى القصير. وقد بين القرآن هذه الحكمة فى قوله ﴿وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم﴾.

أى: وعسى أن تكرهوا شيئا كالقتال فى سبيل الله - تعالى - وهو خير لكم إذ فيه إحدى الحسنيين: إما الظفر والغنيمة - فى الدنيا مع ادخار الجزاء الأخروى وإما الشهادة والجنة، وعسى أن تحبوا شيئا كالقعود عن الجهاد وهو شر لكم فى الواقع لما فيه من الذل ووقوعكم تحت طائلة الأعداء.

قال الفخر الرازى: معنى الآية أنه ربما كان الشىء شاقا عليكم فى الحال، وهو سبب للمنافع الجليلة فى المستقبل، ولأجله حسن شرب الدواء المر فى الحال لتوقع حصول الصحة فى المستقبل، وترك الجهاد، وإن كان يفيد - أى بحسب ظنكم - فى الحال صون النفس عن خطر القتل وصون المال عن الإنفاق ولكن فيه أنواع من المضار منها: أن العدو إذا علم ميلكم إلى الدعة والسكون قصد بلادكم وحاول قتلكم... والحاصل أن القتال فى سبيل الله سبب لحصول الأمن من الأعداء فى الدنيا وسبب لحصول الثواب العظيم للمجاهد فى الآخرة..»[١].

وقال القرطبى: والمعنى: عسى أن تكرهوا ما فى الجهاد من المشقة وهو خير لكم فى أنكم

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص ٢٩.

تغلبون وتظفرون وتغنمون وتؤجرون ومن مات منكم مات شهيدا، وعسى أن تحبوا الدعة وترك القتال وهو شر لكم فى أنكم تغلبون ويذهب أمركم.

وهذا صحيح لا غبار عليه، كما اتفق فى بلاد الأندلس، تركوا الجهاد وجبنوا عن القتال وأكثروا من الفرار، فاستولى العدو على البلاد، وأى بلاد؟!! وأسر وقتل وسبى واسترق، فإنا لله وإنا إليه راجعون!! ذلك بما قدمت أيدينا وكسبته!! وقال الحسن فى معنى الآية: لا تكرهوا الملمات الواقعة؛ فلرب أمر تكرهه فيه نجاتك، ولرب أمر تحبه فيه عطبك، وأنشد أبو سعيد الضرير:

رب أمر تتقيه جر أمرًا ترتضيه
خفى المحبوب منه وبدا المكروه فيه[1]

وهذا الكلام الذى كتبه الإمام القرطبى من مئات السنين يثير فى النفس شجونًا وآلامًا، فإن المسلمين ما هانوا وضعفوا إلا عند ما تركوا الجهاد فى سبيل الله، وتثاقلوا إلى الأرض، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، وآثروا متع الدنيا وشهواتها على الحياة العزيزة الكريمة.

وقال الإمام ابن كثير عند تفسيره للآية: هذا إيجاب من الله - تعالى - للجهاد على المسلمين وأن يكفوا شر الأعداء من حوزة الإسلام. قال الزهرى: الجهاد واجب على كل أحد غزا أو قعد. فالقاعد عليه إذا استعين به أن يعين، وإذا استغيث به أن يغيث، وإذا استنفر أن ينفر، ولهذا ثبت فى الصحيح «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات ميتة جاهلية، وقال: ﷺ يوم الفتح: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا»[2].

وقد أجمع العلماء على أنه إذا نزل العدو بساحة البلاد وجب القتال على كل المسلمين، كل على حسب قدرته.

وقد ختم - سبحانه - هذه الآية الكريمة بقوله: ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ أى: والله يعلم ما هو خير لكم وما هو شر لكم فى الواقع وأنتم لا تعلمون ذلك، فبادروا إلى ما يأمركم به لأنه لا يأمركم إلا بما علم فيه خيرًا لكم، وانتهوا عما نهاكم عنه لأنه لا ينهاكم إلا عما هو شر لكم، ومفعولا يعلم وتعلمون محذوفان دل عليها ما قبلهما. أى: يعلم الخير والشر وأنتم لا تعلمونهما. والمقصود من هذه الجملة الكريمة الترغيب فى الجهاد، والامتثال لما شرعه الله - تعالى - سواء أعرفت حكمته أم لم تعرف، لأن العليم بالحكم والمصالح هو الله رب العالمين.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٣ ص ٣٩.

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٥٢.

وبذلك نرى أن القرآن الكريم لا ينكر على الناس مشاعرهم الطبيعية، وأحاسيسهم الفطرية من كراهية للقتال، ولكنه يربى نفوسهم على الاستجابة لأوامر الله العليم بالغايات المطلع على العواقب، الخبير بما فيه خيرهم ومصلحتهم، وبهذه التربية الحكيمة بذل المؤمنون نفوسهم وأموالهم فى سبيل رضا خالقهم عن طواعية واختيار، لا عن قسر وإجبار.

وبعد أن حرض الله - تعالى - المؤمنين على بذل أموالهم وأنفسهم فى سبيله عقب ذلك ببيان حكم القتال فى الأشهر الحرم فقال - تعالى - : ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه، قل قتال فيه كبير﴾ . . . إلخ .

وقد ذكر كثير من المفسرين ومن أصحاب السير فى سبب نزول هذه الآية قصة ملخصها : أن النبى ﷺ بعث عبد الله بن جحش ومعه اثنا عشر رجلا كلهم من المهاجرين، وأعطاه كتابا مختوما وأمره ألا يفتحه إلا بعد أن يسير يومين، ثم ينظر فيه فيمضى لما أمره به ولا يستكره أحدًا من أصحابه. فسار عبد الله يومين ثم فتح الكتاب فإذا فيه «إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل بنخلة - مكان بين مكة والطائف - فترصد بها عيرًا لقريش وتعلم لنا من أخبارهم».

فقال عبد الله : سمعا وطاعة ! ! وأخبر أصحابه بذلك وأنه لا يستكرههم فمن أحب الشهادة فلينهض ومن كره الموت فليرجع فأما أنا فناهض ! فنهضوا جميعًا، فلما كانوا فى أثناء الطريق أضل سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بعيرًا لهما يعتقبانه. فتخلفا فى طلبه، ومضى عبد الله ببقية أصحابه حتى وصلوا نخلة فمرت عير لقريش فى طريقها لمكة وكانت فى حراسة عمرو بن الحضرمى وعثمان بن المغيرة، وأخويه نوفل والحكم به كيسان. فتشاور المسلمون وقالوا : نحن فى آخر يوم من رجب. لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن فى الحرم فليمتنعن منكم به، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم فى الشهر الحرام ! ! فترددوا وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، فرمى «واقد بن عبد الله» عمرو بن الحضرمى يسهم فقتله، وأسروا عثمان والحكم، وأفلت منهم نوفل فأعجزهم.

وقيل كان ذلك فى أول ليلة من رجب وقد ظنوها آخر ليلة من جمادى، فإقدامهم على ما أقدموا عليه كان على سبيل الخطأ.

ثم أقبل عبد الله ومن معه بالعير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله وقد عزلوا من ذلك الخمس فأنكر رسول الله ﷺ ما فعلوه وقال لهم : «ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام» وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا. وقالت قريش قد استحل محمد وأصحابه القتال فى الشهر الحرام، واشتد ذلك على المسلمين، حتى أنزل الله تعالى قوله : ﴿يسألونك عن الشهر الحرام

قتال فيه قل قتال فيه كبير..﴾[1].

والمعنى : يسألونك يا محمد عن حكم القتال فى الشهر الحرام، قل لهم. القتال فيه أمر كبير مستنكر، وذنب عظيم مستقبح، لأن فيه اعتداء على الشهر الحرام المقدس، وانتهاك لمحارم الله - تعالى -.

والسائلون قيل هم المؤمنون؛ وقد سألوا عن حكم ذلك على سبيل التعليم والتماس المخرج لما حصل منهم. وقيل هم المشركون وسؤالهم على سبيل التعيير للنبى ﷺ وأصحابه، حيث أقدم بعضهم وهو عبد الله ومن معه على القتال فيه فرد الله عليهم بأن القتال فيه كبير ولكن ما فعله هؤلاء المشركون من صد عن سبيل الله وكفر به... الخ أكبر من ذلك بكثير.

فالجواب تشريع إن كان السؤال من المسلمين. وتبكيت وتوبيخ إن كان من المشركين، لأنهم توقعوا أن يجيبهم بإباحة القتال فيه فيثيروا الشبهات حول الإسلام والمسلمين، فلما أجابهم بأن القتال فيه كبير وأن ما فعلوه من جرائم فى حق المسلمين أكبر وأعظم كبتوا وألقموا حجرًا.

والمراد بالشهر الحرام الأشهر الحرم جميعها وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب. وسميت بذلك لحرمة القتال فيها، فأل فى الشهر للجنس. وقيل للعهد والمراد بالشهر الحرام شهر رجب الذى حدثت فيه قصة عبد الله بن جحش وأصحابه. وقوله «قتال فيه» بدل اشتمال من الشهر الحرام، و﴿قتال﴾ مبتدأ و﴿كبير﴾ خبر و﴿فيه﴾ ظرف صفة لقتال مخصصة له.

قال الإمام الرازى: فإن قيل: لم نكر القتال فى قوله - تعالى -: ﴿قتال فيه﴾ ومن حق النكرة إذا تكررت أن تجيء باللام حتى يكون المذكور الثانى هو الأول، لأنه لو لم يكن كذلك كان المذكور الثانى غير الأول كما فى قوله - تعالى -: ﴿فإن مع العسر يسرا. إن مع العسر يسرا﴾.

قلنا : نعم ما ذكرتم من أن اللفظ إذا تكرر وكانا نكرتين كان المراد بالثانى غير الأول. والقوم أرادوا بقولهم: «يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه» ذلك القتال المعين الذى أقدم عليه عبد الله وأصحابه فقال - تعالى -: ﴿قل قتال فيه كبير﴾. وفيه تنبيه على أن القتال الذى يكون كبيرًا ليس هو القتال الذى سألتم عنه؛ بل هو قتال آخر؛ لأن هذا القتال كان الغرض به نصرة الإسلام وإذلال الكفر فكيف يكون هذا من الكبائر؟ إنما القتال الكبير هو الذى يكون الغرض فيه هدم الإسلام وتقوية الكفر؛ فكان اختيار التنكير فى اللفظين لأجل هذه الدقيقة. ولو أنه

---

(١) تفسير بن كثير - بتصرف وتلخيص - جـ ١ ص ٢٥٤، وسيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٤٠.

وقع التعبير عنهما أو عن أحدهما بلفظ التعريف لبطلت هذه الفائدة. فسبحان من له تحت كل كلمة من كلمات هذا الكتاب - بل تحت كل حرف منه - سر لطيف لا يهتدى إليه إلا أولو الألباب»[١].

ثم أخذ القرآن يعدد على المشركين جرائمهم التى كل جريمة منها أكبر من القتال فى الشهر الحرام الذى فعله المؤمنون لدفع الضرر عن أنفسهم أو لجهلهم بالميقات فقال - تعالى - :

﴿وصد عن سبيل الله، وكفر به، والمسجد الحرام، وإخراج أهله منه أكبر عند الله﴾.

أى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين نحن نوافقكم على أن القتال فى الشهر الحرام كبير، ثم قل لهم أيضًا على سبيل التوبيخ إن ما فعلتموه أنتم من صرفكم المسلمين عن طاعة الله وعن الوصول إلى حرمه، ومن شرككم بالله فى بيته، ومن إخراجكم لأهله منه أعظم وزرا عند الله من القتال فى الشهر الحرام.

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة إدخال الطمأنينة على قلوب المؤمنين بسبب ما وقع من عبد الله بن جحش ومن معه، وتبكيت المشركين على جرائمهم التى أولها يتمثل فى قوله - تعالى - : ﴿وصد عن سبيل الله﴾ أى: منع من يريد الإسلام من دخوله، وابتدأ - سبحانه - ببيان صدهم عن سبيله للإشارة إلى أنهم يعاندون الحق فى ذاته.

وثانيها قوله: ﴿وكفر به﴾ أى: كفر بالله - تعالى - وهو معطوف على ما قبله.

وثالثها قوله: ﴿والمسجد الحرام﴾ وهو معطوف على سبيل الله أى: وصد عن سبيل الله وعن المسجد الحرام بمنعهم المؤمنين من الحج والاعتمار.

ورابعها قوله: ﴿وإخراج أهله منه﴾ أى: وإخراج النبى - ﷺ - وأصحابه من مستقرهم حول المسجد الحرام بمكة وهم القائمون بحقوقه، كل ذلك «أكبر» جرما، وأعظم إثما «عند الله» من القتال فى الشهر الحرام.

قال الجمل: فقوله «أكبر» خبر عن الثلاثة أعنى: صد وكفر وإخراج وفيه حينئذ احتمالان:

أحدهما: أن يكون خبرًا عن المجموع.

وثانيهما: أن يكون خبرا عنها باعتبار كل واحد كما تقول: زيد وبكر وعمرو أفضل من خالد أى: كل واحد منهم على انفراده أفضل من خالد، وهذا هو الظاهر. والمفضل عليه محذوف أى: أكبر مما فعلته السرية»[٢].

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٦ ص ٣٢.　(٢) تفسير الجمل جـ١ ص ١٧٣.

ثم أضاف - سبحانه - إلى جرائمهم السابقة جريمة خامسة فقال : ﴿والفتنة أكبر من القتل﴾ أى : ما فعله المشركون من إنزال الشدائد بالمؤمنين تارة بإلقاء الشبهات وتارة بالتعذيب ليحملوهم على ترك عقيدتهم أكبر إثما من القتل فى الشهر الحرام، لأن الفتنة عن الدين تفضى إلى القتل الكثير فى الدنيا وإلى استحقاق العذاب الدائم فى الآخرة.

وقيل المراد بالفتنة هنا الكفر. أى : كفركم بالله أكبر من القتل فى الشهر الحرام.

وأصل الفتنة : عرض الذهب على النار، لاستخلاصه من الغش، ثم استعملت فى الشرك وفى الامتحان بأنواع الأذى والاضطهاد.

ويعزى إلى عبد الله بن جحش أنه قال ردا على المشركين عندما قالوا : استحل محمد وأصحابه القتال فى الشهر الحرام.

تعدون قتلا فى الحرام عظيمة ... وأعظم منه لو يرى الرشد راشد
صدودكم عما يقول محمد ... وكفر به، والله راء وشاهد
وإخراجكم من مسجد الله أهله ... لئلا يرى لله فى البيت ساجد
فإنا وإن عيَّر تُمونا بقتله ... وأرجف بالإسلام باغ وحاسد
سقينا من ابن الحضرمى رماحنا ... بنخلة لما أوقد الحرب واقد
دمًا، وابن عبد الله عثمان بيننا ... ينازعه غل من القد عاند

وقوله - تعالى - : ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾ بيان لشدة عداوة الكفار للمؤمنين ودوامها.

أى : ولا يزال المشركون يقاتلونكم أيها المؤمنون ويضمرون لكم السوء ويداومون على إيذائكم لكى يرجعوكم عن دين الإسلام إلى الكفر إن استطاعوا ذلك وقدروا عليه. والتعبير بقوله «ولا يزالون» المفيد للدوام والاستمرار للإشعار بأن عداوة المشركين للمسلمين لا تنقطع، وأنهم لن يكفوا عن الإعداد لقتالهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، فعلى المؤمنين ألا يغفلوا عن الدفاع عن أنفسهم.

و﴿حتى﴾ للتعليل أى : ﴿لا يزالون يقاتلونكم لكى يردوكم عن دينكم﴾ أو بمعنى إلى، أى : إلى أن يردوكم عن دينكم. والرد : الصرف عن الشيء والإرجاع إلى ما كان عليه قبل ذلك : فغاية المشركين أن يردوا المسلمين بعد إيمانهم كافرين.

وقوله : ﴿إن استطاعوا﴾ يدل - كما يقول الزمخشرى - على استبعاد استطاعتهم رد المسلمين

عن دينهم، وذلك كقول الرجل لعدوه : إن ظفرت بى فلا تبق على. وهو واثق من أنه لن يظفر به. ويشهد لذلك التعبير بإن المفيدة للشك.

وفائدة التقييد بالشرط «إن» التنبيه على سخافة عقول المشركين، وكون دوام عداوتهم للمؤمنين لن تؤدى إلى النتيجة التى يتمنونها وهى رد المسلمين عن دينهم، لأن لهذا الدين ربا يحميه، وأتباعه يفضلون الموت على الرجوع عنه.

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة من يرتد عن الإسلام فقال : ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر، فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

ويرتدد يفتعل من الرد وهو الرجوع عن دينه إلى الكفر.

و﴿حبطت أعمالهم﴾ أى : بطلت وفسدت وأصله من الحبط، بفتح الباء - وهو أن تأكل الدابة أكلا كثيرًا تنتفخ معه بطونها فلا تنتفع بما أكلت ويفسد حالها وربما تموت من ذلك. شبه - سبحانه - حال من يعمل الأعمال الصالحة ثم يفسدها بارتداده فتكون وبالا عليه، بحال الدابة التى أكلت حتى أصابها الحبط ففسد حالها.

والمعنى : ومن يرتدد منكم عن دين الإسلام، فيمت وهو كافر دون أن يعود إلى الإيمان، فأولئك الذين ارتدوا وماتوا على الكفر بطلت جميع أعمالهم الصالحة، وصارت غير نافعة لهم لا فى الدنيا بسبب انسلاخهم عن جماعة المسلمين، ولا فى الآخرة بسبب ردتهم وموتهم على الكفر، وأولئك الذين هذا شأنهم أصحاب النار هم فيها خالدون خلودًا أبديًا كسائر الكفرة، ولا يغنى عنهم إيمانهم السابق على الردة شيئًا.

وجىء بصيغة الافتعال من الردة وهى مؤذنة بالتكلف، للإشارة إلى أن من باشر الدين الحق وخالطت بشاشته قلبه كان من المستبعد عليه أن يرجع عنه، فهذا المرتد لم يكن مستقرًا على هذا الدين الحق وإنما كان قلقًا مضطربًا غير مستقر حتى انتهى به الأمر بموته على الكفر لتكلفه الدخول فى الدين الحق دون الثبات عليه.

وفى قوله : ﴿منكم﴾ إشعار بأنه لا يتصور أن تتحقق بغية المشركين وهى أن يردوا المسلمين جميعًا عن دينهم. بل أقصى ما يتصوره العقلاء أن ينالوا ضعيف الإيمان فيردوه إلى دينهم، فيكون الله - تعالى - قد نفى خبثه عن هذا الدين، إذ لا خير فى هؤلاء المشركين ولا فيمن عاد إليهم بعد إيمانه، والكل مأواهم النار وبئس القرار.

قال الجمل : ومن شرطية فى محل رفع بالابتداء، يرتدد فعل الشرط، ومنكم متعلق

بمحذوف لأنه حال من الضمير المستكن فى يرتدد؛ ومن للتبعيض، والتقدير: ومن يرتدد فى حال كونه كائنًا منكم أى بعضكم، وعن دينه متعلق بيرتدد، وقوله فيمت وهو كافر عطف على الشرط والفاء مؤذنة بالتعقيب، وقوله: ﴿وهو كافر﴾ جملة حالية من ضمير يمت. وقوله: فأولئك جواب الشرط. وقوله: وأولئك أصحاب النار مستأنف لمجرد الإخبار بأنهم أصحاب النار أو معطوف على جواب الشرط..»[1].

وفى الإتيان باسم الإشارة «أولئك» فى الموضعين تنبيه إلى أنهم أحرياء بتلك العقوبات الأليمة بسبب ردتهم وموتهم على الكفر.

وفى التنصيص على حبوط أعمالهم فى الدنيا والآخرة زيادة مذمة لهم، فهم فى الدنيا - بسبب ردتهم - تسلب عنهم آثار كلمة الشهادتين من حرمة الأنفس والأموال والأعراض والصلاة عليهم بعد الموت، والدفن فى مقابر المسلمين، ومن طلاق زوجته المسلمة منه ومن عدم التوارث إلى غير ذلك من حقوق المسلمين، أما فى الآخرة فشأنهم شأن الكافرين فى ملازمتهم للنار. هذا، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة.

١ - حرمة القتال فى الشهر الحرام، والجمهور على أن هذا الحكم منسوخ، وأنه لا حرج فى قتال المشركين فى الأشهر الحرم لقوله - تعالى -: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ فإن المراد بالأشهر الحرم هنا: هى أشهر العهد الأربعة التى أبيح للمشركين السياحة فيها فى الأرض، لا الأشهر الحرم الأربعة المعروفة، فالتقييد بها يفيد أن قتلهم بعد انسلاخها مأمور به فى جميع الأزمنة والأمكنة. وأيضًا لأن الرسول ﷺ غزا هوازن وثقيف وأرسل بعض أصحابه إلى أوطاس ليحارب من فيها من المشركين، وكان ذلك فى بعض الأشهر الحرم، ولو كان القتال فيهن حراما لما فعله النبى ﷺ.

قال الآلوسى: وخالف عطاء فى ذلك، فقد روى عنه أنه سئل عن القتال فى الشهر الحرام فحلف بالله - تعالى - ما يحل للناس أن يغزوا فى الحرم ولا فى الشهر الحرام إلا أن يقاتلوا فيه وجعل ذلك حكما مستمرًا إلى يوم القيامة، والأمة اليوم على خلافه فى سائر الأمصار»[2].

وقد رجح بعض العلماء ما ذهب إليه عطاء فقال: ومهما يكن فإن القتال فى الأشهر الحرم حرام فى حال الاختيار والابتداء فلا يصح البدء بالغزو فيه. ولقد قال جابر: كان رسول الله ﷺ لا يقاتل فى الشهر الحرام إلا أن يُغزَى أو يغزو حتى إذا حضر ذلك أقام حتى ينسلخ.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ١٧٤.
(٢) تفسير الآلوسى جـ٢ ص ١٠٨.

ولقد قال بعض العلماء : إن تحريم القتال فى الشهر الحرام منسوخ بقوله - تعالى - : ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ وبقتال النبى ﷺ أهل الطائف فيه . والحقيقة أنه لم يثبت ناسخ صريح فى النسخ فإن قوله - تعالى - : ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾ العموم فيه بالنسبة للمقاتلين لا بالنسبة لزمان القتال، وأن النبى ﷺ لم يبتدىء قتالا فى الشهر الحرام مختارًا قط، والتحريم فى الاختيار والابتداء كما بينا لا فى البقاء والاضطرار، لذا قال - سبحانه - : ﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾، ولأن الأشهر الحرم نص عليها فى خطبة الوداع وكل ما جاء فيها غير منسوخ »[1].

٢ - كذلك من الأحكام التى أخذها العلماء من الآية أن الردة تحبط العمل فى الدنيا سواء أمات المرتد على كفره أم عاد إلى الإسلام قبل موته بدليل قوله - تعالى - فى آية أخرى ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ فقد علق الحبوط بمجرد الشرك، والخطاب وإن كان للنبى ﷺ فالمراد أمته لاستحالة الشرك عليه. وعلى هذا الرأى سار المالكية والأحناف.

ويرى الشافعية أن الردة تحبط العمل فى الدنيا متى مات المرتد كافرًا، لأن الآية تقول : ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم﴾ ويظهر أثر الخلاف فيمن حج مسلما، ثم أرتد ثم أسلم، فالأحناف والمالكية يوجبون عليه إعادة الحج لأن الردة أحبطت حجه. والشافعية يقولون : لا حج عليه لأن حجه قد سبق والردة لا تحبط العمل إلا إذا مات الشخص كافرًا.

ولكل فريق أدلته المبسوطة فى كتب الفقه.

وبعد أن بين - سبحانه - عاقبة من يرتد عن دينه أتبع ذلك ببيان عاقبة المؤمنين الصادقين فقال - تعالى - : ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله، أولئك يرجون رحمة الله، والله غفور رحيم﴾.

قال الإمام الرازى : فى تعلق هذه الآية بما قبلها وجهان :

الأول : أن عبد الله بن جحش قال : يارسول الله : هب أنه لا عقاب علينا فيما فعلنا، فهل نطمع منه أجرًا وثوابًا ؟ فنزلت الآية، لأن عبد الله كان مؤمنًا وكان مهاجرًا، وكان مجاهدًا بسبب هذه المقاتلة.

وفى الثانى : أنه تعالى لما أوجب الجهاد قبل بقوله : ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم﴾

---

(١) تفسير الآية الكريمة لفضيلة الشيخ محمد أبوزهرة مجلة لواء الإسلام السنة الخامسة : العدد العاشر ص ٥٩٩.

وبين أن تركه سبب للوعيد أتبع ذلك بذكر من يقوم به وجزاؤه فقال : ﴿إن الذين آمنوا، والذين هاجروا﴾ ولا يكاد يوجد وعيد إلا ويعقبه وعد»[١].

والمعنى : إن الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، واستقاموا على طريق الحق، وأذعنوا لحكمه، واستجابوا لأوامر الله ونواهيه : ﴿والذين هاجروا﴾ أى : تركوا أموالهم وأوطانهم من أجل نصرة دينهم : ﴿وجاهدوا فى سبيل الله﴾ لإعلاء كلمته ﴿أولئك﴾ الموصوفون بتلك الصفات الثلاثة ﴿يرجون رحمة الله﴾. أى : يؤملون تعلق رحمته - تعالى - بهم، أو ثوابه على أعمالهم ﴿والله غفور رحيم﴾ أى : واسع المغفرة للتائبين المستغفرين، عظيم الرحمة بالمؤمنين المحسنين.

قال القرطبى : «والهجرة معناها الانتقال من موضع إلى موضع، والقصد ترك الأول إيثارا للثانى. والهجرة ضد الوصل، والاسم الهجرة. وجاهد مفاعله من جهد إذا استخرج الجهد. والاجتهاد والتجاهد : بذل الوسع والمجهود، والجهاد - بالفتح - الأرض الصلبة.

وإنما قال ﴿يرجون﴾ وقد مدحهم، لأنه لا يعلم أحد فى هذه الدنيا أنه صائر إلى الجنة ولو بلغ فى طاعة الله كل مبلغ لأمرين :

أحدهما : أنه لا يدرى بماذا ختم له.

والثانى : لئلا يتكل على عمله، والرجاء أبدًا معه خوف كما أن الخوف معه رجاء»[٢].

وجىء بهذه الأوصاف الثلاثة مترتبة على حسب الواقع إذالإيمان يكون أولا ثم المهاجرة من أرض الظالمين إذا لم يستطع دفع ظلمهم، ثم الجهاد من أجل إعلاء كلمة الحق.

وأفرد الإيمان بموصول وحده لأنه أصل الهجرة والجهاد، وجمع الهجرة والجهاد فى موصول واحد لأنهما فرعان عنه.

وبذلك نرى أن هذه الآية الكريمة قد دعت المؤمنين إلى بذل أموالهم وأنفسهم فى سبيل نصرة الحق بأحكم أسلوب، وبرأتهم مما أثاره المشركون حولهم من شبهات، وحذرتهم من السير فى طريقهم، وبشرتهم بحسن العاقبة متى استجابوا لتعاليم دينهم، واعتصموا بحبله.

وبعد هذا الحديث الجامع عن البذل والتضحية، ساق القرآن فى آيتين ثلاثة أسئلة وأجاب عنها بما يشفى الصدور، ويصلح النفوس.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٢ ص ٤١.
(٢) تفسير القرطبى ج ٢ ص ٥١.

فقال تعالى :

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠)﴾

قوله : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر﴾ . . السائلون هم المؤمنون وسؤالهم إنما هو عن الحكم الشرعى من حيث الحل والتحريم. لا عن الحقيقة والذات فإنهم يعرفون حقيقة الخمر والميسر وذاتها.

قال القرطبى : والخمر مأخوذة من خمر إذا ستر، ومنه خمار المرأة لأنه يستر وجهها – وكل شىء غطى شيئًا فقد خمره. ومنه «خمروا آنيتكم، فالخمر تخمر العقل، أى : تغطيه وتستره . . فلما كانت الخمر تستر العقل وتغطيه سميت بذلك، وقيل إنما سميت الخمر خمرا؛ لأنها تركت حتى أدركت كما يقال : قد اختمر العجين، أى : بلغ إدراكه. وخمر الرأى ترك حتى يتبين فيه الوجه. وقيل : إنما سميت الخمر خمرًا لأنها تخالط العقل من المخامرة وهى المخالطة ومنه قولهم : دخلت فى خمار الناس – بفتح الخاء وضمها – أى : اختلطت بهم. فالمعانى الثلاثة متقاربة. فالخمر تركت وخمرت حتى أدركت، ثم خالطت العقل. ثم خمرته، والأصل الستر[1] .

ويرى كثير من العلماء أن هذه الآية هى أول آية نزلت فى الخمر. ثم نزلت الآية التى فى سورة النساء ﴿يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾ ثم نزلت الآية التى فى سورة المائدة ﴿يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾.

(١) تفسير القرطبى جـ٣ صفحة ٥١ .

والدليل على ذلك ما رواه أبو داود وغيره عن عمر بن الخطاب أنه قال «اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا» فنزلت هذه الآية ﴿يسألونك عن الخمر﴾ فدعى عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا».

فنزلت الآية التى فى النساء ﴿يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ فكان منادى رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة - نادى أن: لا يقربن الصلاة سكران. فدعى عمر فقرئت عليه، فقال: «اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا». فنزلت الآية التى فى المائدة، فدعى عمر فقرئت عليه، فلما بلغ ﴿فهل أنتم منتهون﴾ قال عمر: «انتهينا»[1].

وبهذا الرأى قال ابن عمر والشعبى ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

ويرى بعض العلماء أن أول آية نزلت فى الخمر هى قوله - تعالى - فى سورة النحل: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا﴾.

وعلى هذا الرأى سار صاحب الكشاف وتبعه بعض العلماء، فقد قال: نزلت فى الخمر أربع آيات، نزل بمكة قوله - تعالى - : ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا ورزقا حسنا﴾ فكان المسلمون يشربونها وهى حلال لهم. ثم إن عمر ومعاذا ونفرا من الصحابة قالوا: يارسول الله، أفتنا فى الخمر فإنها مذهبة للعقل مسلبة للمال، فنزلت: ﴿قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس﴾ فشربها قوم وتركها آخرون. ثم دعا عبد الرحمن بن عوف ناسا منهم فشربوا وسكروا فقام بعضهم يصلى فقرأ: قل يأيها الكافرون أعبدما تعبدون فنزلت: ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ فقل من يشربها ثم دعا عتبان بن مالك قومًا فيهم سعد بن أبى وقاص فلما سكروا افتخروا وتناشدوا شعرا فيه هجاء للأنصار فضرب أحد الأنصار سعدًا بلحى بعير فشجه، فشكا إلى رسول الله ﷺ ذلك. فقال عمر: اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا فنزلت «إنما الخمر والميسر. . إلخ الآية». . فقال عمر: انتهينا يارب»[2].

وأصحاب الرأى الأول يقولون: إن آية سورة النحل وهى قوله - تعالى - : ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا﴾ ليس لها علاقة بموضوع الخمر، ويفسرون السكر بأنه ما أحله الله مما لا يسكر وأنه هو الرزق الحسن وأن العطف بينهما من باب عطف التفسير.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ صفحة ٢٥٦.
(٢) تفسير الكشاف فى جـ١ صفحة ٢٥٩.

ولقد كان موقف الصحابة من هذا التحريم لما يشتهونه ويحبونه من الخمر والميسر، يمثل أسمى ألوان الطاعة والاستجابة لأوامر الله ونواهيه، فعندما بلغهم تحريم الخمر أراقوا ما عندهم منها فى الطرقات. بل وحطموا الأوانى التى كانت توضع فيها الخمر امتثالا وطاعة لله - تعالى -.

وهكذا نرى قوة الإيمان التى غرسها الإسلام فى نفوس أتباعه عن طريق تعاليمه السامية، وتربيته الحكيمة.. تغلبت على ما أحبته النفوس وأزالت من القلوب ما ألفته الطبائع.

هذا وجمهور العلماء على أن كلمة «خمر» تشمل كل شراب مسكر سواء أكان من عصير العنب أم من الشعير أم من التمر أم من غير ذلك، وكلها سواء فى التحريم قل المشروب منها أو كثر سكر شاربه أو لم يسكر.

ومن أدلتهم ما وراه الإمام مسلم عن ابن عمر - أن رسول الله ﷺ قال: كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام، ومن شرب الخمر فى الدنيا ومات وهو يدمنها لم يتب منها لم يشربها فى الآخرة»[1].

ومن أدلتهم أيضًا أصل الاشتقاق اللغوى لكلمة خمر، فقد عرفنا أنها سميت بهذا الاسم لمخامرتها العقل وستره، فكل ما خامر العقل من الأشربة وجب أن يطلق عليه لفظ خمر سواء أكان من العنب أم من غيره.

وقال الأحناف ووافقهم بعض العلماء كإبراهيم النخعى وسفيان الثورى وابن أبى ليلى: إن كلمة خمر لا تطلق إلا على الشراب المسكر من عصير العنب فقط، أما المسكر من غيره كالشراب من التمر أو الشعير فلا يسمى خمرا بل يسمى نبيذًا. وقد بنوا على هذا أن المحرم قليله وكثيره إنما هو الخمر من العنب. أما الأنبذة فكثيرها حرام وقليلها حلال.

وقد رجح العلماء رأى الجمهور وضعفوا ما ذهب إليه الأحناف ومن وافقهم.

قال ابن العربى: وتعلق أبو حنيفة بأحاديث ليس لها خطم ولا أزمة فلا يلتفت إليها. والصحيح ما روى الأئمة أن أنسا قال: «حرمت الخمر يوم حرمت وما بالمدينة خمر الأعناب إلا قليل، وعامة خمرها البسر والتمر» أخرجه البخارى، واتفق الأئمة على رواية أن الصحابة إذ حرمت الخمر لم يكن عندهم يومئذ خمر عنب، وإنما كانوا يشربون خمر النبيذ فكسروا دنانهم - أى أوانى الخمر - وبادروا إلى الامتثال لا عتقادهم أن ذلك كله خمر» أى وأقرهم رسول الله ﷺ على ذلك[2].

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الأشربه جـ٦ ص ١٠٠.

(٢) أحكام القرآن لابن العربى جـ١ صفحة ١٤٩.

وقال الآلوسى : وعندى أن الحق الذى لا ينبغى العدول عنه أن الشراب المتخذ مما عدا العنب كيف كان وبأى اسم سمى متى كان بحيث يسكر من لم يتعوده حرام، وقليله ككثيره، ويحد شاربه ويقع طلاقه ونجاسته غليظة. وفى الصحيحين أنه ﷺ سئل عن النقيع - وهو نبيذ العسل - فقال : «كل شراب أسكر فهو حرام» وروى أبو داود «نهى رسول الله ﷺ عن كل مسكر ومفتر» وصح «ما أسكر كثيره فقليله حرام» والأحاديث متضافرة على ذلك. ولعمرى إن اجتماع الفساق فى زماننا على شرب المسكرات مما عدا «الخمر» ورغبتهم فيها، فوق اجتماعهم على شرب «الخمر» ورغبتهم فيه بكثير، وقد وضعوا لها أسماء - كالعنبرية والإكسير - ونحوهما ظنا منهم أن هذه الأسماء تخرجها من الحرمة وتبيح شربها للأمة - وهيهات هيهات - فالأمر وراء ما يظنون وإنا لله وإنا إليه راجعون»(١).

بعد هذه الكلمة التمهيدية عن الآية، وعن مدلول كلمة خمر ننتقل إلى معنى كلمة «الميسر» فنقول : الميسر : القمار - بكسر القاف - وهو فى الأصل مصدر ميمى من يسر، كالموعد من وعد. وهو مشتق من اليسر بمعنى السهولة، لأن المال يجىء للكاسب من غير جهد، أو هو مشتق من يسر بمعنى جزر. ثم أصبح علما على ما يتقامر عليه كالجزور ونحوه.

قال القرطبى نقلا عن الأزهرى : الميسر : الجزور الذى كانوا يتقامرون عليه، سمى ميسرًا؛ لأنه أجزاء، فكأنه موضع التجزئة، وكل شىء جزأته فقد يسرته. والياسر : الجازر لأنه يجزئ لحم الجزور. ويقال للضاربين بالقداح والمتقامرين على الجزور : ياسرون، لأنهم جازرون إذ كانوا سببا لذلك(٢).

وصفة الميسر الذى كانت تستعمله العرب أنهم كانت لهم عشرة أقداح يقال لها الأزلام أو الأقلام، فكانوا إذا أرادوا أن يقامروا أحضروا بعيرا وقسموه ثمانية وعشرين قسما وتترك ثلاثة من تلك الأقداح غفلا لا علامة عليها وكانت تسمى : السفيح، والمنيح، والوغد. ومن طلع له واحد منها لا يأخذ شيئًا من الجزور. أما السبعة الأخرى فهى الرابحة وهى الفذو له سهم واحد، والتوأم وله سهمان، والرقيب وله ثلاثة، والحلس وله أربعة، والنافس وله خمسة والمسبل وله ستة، والمعلى وله سبعة فيكون المجموع ثمانية وعشرين سهما.

تلك صورة تقريبية لقمار العرب كما أوردها بعض المفسرين(٣).

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٢ صفحة ١١٣.

(٢) تفسير القرطبى جـ٣ صفحة ٥٢.

(٣) راجع تفسير الآلوسى جـ٢ ص١١٣، وتفسير القرطبى جـ٢ ص٥٨.

ولا شك أنه يدخل فى حكمها من حيث الحرمة ما كان مشابها لها فى المخاطرة والرهان وأخذ الأموال بدون مقابل مشروع، أو ضياعها فيما حرمه الله.

ومعنى الآية الكريمة: يسألك أصحابك يا محمد عن حكم شرب الخمر ولعب الميسر، قل لهم على سبيل الإرشاد والإعلام: فى تعاطيهما ﴿إثم كبير﴾ أى: ذنب عظيم، وضرر شديد وذلك لما فيهما من القبائح المنافية لمحاسن الشرع من الكذب، والأذى، وشيوع العداوة والبغضاء بين الناس، واستلاب أموالهم بغير حق.

وقوله: ﴿ومنافع للناس﴾ أى وفيهما منافع دنيوية للناس إذ الخمر تدر على المتاجرين فيها أرباحا مالية، والميسر يؤدى إلى إصابة بعض الناس للمال بدون تعب.

وأطلق - سبحانه - الإثم وقيد المنافع بأنها للناس، للتنبيه على أن الإثم فى الخمر والميسر ذاتى، فهما فى ذاتهما رجس كبير، وخطر وبيل، وأن ما فيهما من منافع ضئيل ولا يتجاوز بعض الناس، فهى منافع خاصة وليست عامة، ويشهد لهذا قوله - تعالى - بعد ذلك.

﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ أى أن المفاسد والأضرار التى تترتب على تعاطيهما، أعظم من المنافع التى تنشأ عن تعاطيهما، إذ تعاطيهما يؤدى إلى منفعة بعض الناس، أما مضارهما فكثيرة، من ذلك أن تعاطى الخمر يضعف الضمير، ويفسد الأخلاق، ويميت الحياء، ويفقد الرشد ويتلف المال، ويغرى بالتنازع بين الناس، ويتسبب - كما قال الأطباء الثقاة - فى كثير من الأمراض كأمراض الكبد والرئتين والقلب.. إلخ.

وإن شئت المزيد من معرفة مضار الخمر فراجع ماكتبه العلماء والمتخصصون فى ذلك[1].

أما تعاطى الميسر فمن مضاره - كما يقول الأستاذ الإمام محمد عبده - إفساد التربية بتعويد النفس الكسل، وانتظار الرزق من الأسباب الوهمية، وإضعاف القوة العقلية، بترك الأعمال المفيدة فى طرق الكسب الطبيعية، وإهمال المقامرين للزراعة والتجارة والصناعة التى هى أركان العمران، وتخريب البيوت فجأة بالانتقال من الغنى إلى الفقر فى ساعة واحدة، فكم من عشيرة كبيرة نشأت فى العز والغنى وانحصرت ثروتها فى رجل أضاعها عليها فى ليلة واحدة؛ فأصبحت غنية وأمست فقيرة»[2].

إذن فالمنافع الدنيوية التى تعود إلى بعض الناس من تعاطى الخمر والميسر لا تساوى شيئًا

(١) راجع على سبيل المثال «تفسير الجواهر» فى معنى الآية للمرحوم طنطاوى جوهرى وتفسير المنار جـ٢ ص ٣٢١.

(٢) تفسير المنار جـ٢ ص ٢٣٠.

بجانب تلك المضار الجسيمة التى تعود على أفراد الأمة فى دينهم وعقولهم وأجسامهم وأموالهم وترابطهم، وصدق الله إذ يقول: ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾.

ثم يأتى بعد ذلك السؤال الثانى الذى ورد فى هاتين الآيتين وهو قوله - تعالى -: ﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾.

ومناسبة هذا السؤال لما قبله أنهم بعد أن نهوا عن إنفاق أموالهم فى الوجوه المحرمة كتعاطى الخمر والميسر، سألوا عن وجوه الإنفاق الحلال، وعن مقدار ما ينفقون فأجيبوا بهذا الجواب الحكيم.

قال الآلوسى: أخرج ابن إسحاق عن ابن عباس أن نفرًا من الصحابة حين أمروا بالنفقة فى سبيل الله أتوا النبى ﷺ فقالوا: إنا لا ندرى ما هذه النفقة التى أمرنا بها فى أموالنا وما الذى ننفقه منها فأنزل الله - تعالى - ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ وكان الرجل قبل ذلك ينفق ماله حتى لا يجد ما يتصدق ولا ما يأكل»[1].

وأصل العفو فى اللغة الزيادة. قال - تعالى -: ﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا﴾ أى زادوا على ما كانوا عليه من العدد. ويطلق على ما سهل وتيسر مما يكون فاضلا عن الكفاية. يقال: خذ ما عفا لك. أى ما تيسر. كما يطلق على الترك قال - تعالى -: ﴿عفا الله عما سلف﴾ أى تركه وتجاوز عنه.

والمراد به هنا: ما يفضل عن الأهل ويزيد عن الحاجة، إذ هذا القدر الذى يتيسر إخراجه ويسهل بذله، ولا يتضرر صاحبه بتركه.

والمعنى، ويسألونك ما الذى يتصدقون به من أموالهم فى وجوه البر، فقل لهم تصدقوا بما زاد عن حاجتكم، وسهل عليكم إخراجه، ولا يشق عليكم بذله.

وفى هذه الجملة الكريمة إرشاد حكيم إلى التعاون والتراحم بين أفراد المجتمع، وتوجيه إلى المنهاج الوسط الذى يأبى التبذير وينفر من التقتير، وفى أحاديث الرسول ﷺ ما يؤيد هذا الإرشاد والتوجيه، ومن ذلك ما أخرجه البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول».

وأخرج مسلم عن جابر أن النبى ﷺ قال: «إبدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شىء

(١) تفسير الآلوسى جـ٢ ص ١١٥.

فلأهلك، فإن فضل عن أهلك شيء فلذى قرابتك، فإن فضل عن ذى قرابتك شيء فهكذا وهكذا».

إلى غير ذلك من الأحاديث التى وردت فى هذا المعنى.

وللأستاذ الإمام كلام جيد فى هذا المقام، فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه: إن الأمة المؤلفة من مليون فرد إذا كانت تبذل من فضل مالها فى مصالحها العامة كإعداد القوة وتربية الناشئة.. تكون أعز وأقوى من أمة مؤلفة من مائة مليون فرد لا يبذلون شيئا فى مثل ذلك؛ لأن الواحد من الأمة الأولى يعد بأمة، إذ هو يعتبر نفسه جزءاً منها وهى كل له، بينما الأمة الثانية لا تعد بواحد لأن كل فرد من أفرادها يخذل الآخر.. وفى الحقيقة أن مثل هذا الجمع لا يسمى أمة، لأن كل واحد من أفراده يعيش وحده وإن كان فى جانبه أهل الأرض، فهو لا يتصل بمن معه ليمدهم ويستمد منهم»[1].

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة﴾.

أى: مثل هذا البيان الحكيم الذى بينه الله لكم فيما سألتم عنه يبين لكم فى سائر كتابه آياته وأحكامه وحججه لكى تتفكروا وتتدبروا فيما ينفعكم فى دنياكم وآخرتكم، بأن تعملوا فى الدنيا العمل الصالح الذى يجعلكم تظفرون برضا الله فى أخراكم.

قال صاحب الكشاف: «وقوله: ﴿فى الدنيا والآخرة﴾ إما أن يتعلق بتتفكرون، فيكون المعنى: لعلكم تتفكرون فيما يتعلق بالدارين فتأخذون بما هو أصلح لكم كما بينت لكم أن العفو أصلح من الجهد فى النفقة وتتفكرون فى الدارين فتؤثرون أبقاهما وأكثرهما منافع. ويجوز أن يكون إشارة إلى قوله ﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ فيكون المعنى: لتتفكروا فى عقاب الإثم فى الآخرة والنفع فى الدنيا حتى لا تختاروا النفع العاجل على النجاة من العقاب الأليم. وإما أن يتعلق بيبين على معنى: يبين لكم الآيات فى أمر الدارين وفيما يتعلق بهما لعلكم تتفكرون»[2].

أما السؤال الثالث والأخير الذى ورد فى هاتين الآيتين فهو قوله تعالى ﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير، وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾.

أخرج أبو داود والحاكم والنسائى وغيرهم عن ابن عباس قال:

---

(١) تفسير المنار جـ٢ ص٢٣٨.

(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص٢٦٣.

لما نزل قوله - تعالى - : ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن﴾ وقوله - تعالى - : ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلون فى بطونهم نارًا وسيصلون سعيرًا﴾ انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه. وشرابه من شرابه، فجعل يفضل له الشىء من طعامه وشرابه، فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله - تعالى - ﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾ فخلطوا طعامهم وشرابهم بشرابهم[1].

والمعنى : ويسألونك يا محمد عن القيام بأمر اليتامى أو التصرف فى أموالهم أو عن أموالهم وكيف يكونون معهم فقل لهم : إن المطلوب هو إصلاحهم بالتهذيب والتربية الرشيدة. والمعاملة الحسنة، وإصلاح أموالهم بالمحافظة عليها وعدم إنفاقها إلا فى الوجوه المشروعة فهذا الإصلاح المفيد لهم ولأموالهم خير من مجانبتهم، وتركهم، ولذا قال - تعالى - بعد ذلك : ﴿وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾ أى : وإن تعاشروهم وتضموهم إليكم فاعتبروهم إخوانكم فى العقيدة والإنسانية، وعاملوهم بمقتضى ما تفرضه الأخوة من تراحم وتعاطف ومساواة.

والجملة الكريمة معطوفة على ما قبلها. و«إصلاح» مبتدأ وسوغ الابتداء به مع أنه نكرة وصفه بالجار والمجرور «لهم» و«خير» خبره، وقوله : ﴿فإخوانكم﴾ الفاء واقعة فى جواب الشرط، وإخوانكم خبر لمبتدأ محذوف والتقدير فهم إخوانكم، والجملة فى محل جزم على أنها جواب الشرط.

وقوله : ﴿والله يعلم المفسد من المصلح﴾ وعد ووعيد، وترغيب فى الإصلاح وترهيب من الإفساد، أى : والله يعلم المفسد لشئون هؤلاء اليتامى من المصلح لها، كما أنه - سبحانه - لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء، وسيجازى كل إنسان على حسب عمله، فاحذروا الإفساد ولا تتحروا غير الإصلاح.

ثم قال - تعالى - : ﴿ولو شاء الله لأعنتكم﴾ العنت : الشدة والمشقة والتضييق. يقال : أعنته فى كذا يعنته إعناتا، إذا أجهده وألزمه ما يشق عليه.

أى : ولو شاء الله لضيق عليكم وأحرجكم بتحريم مخالطة هؤلاء اليتامى، وبغير ذلك مما يشرع لكم، ولكنه - سبحانه - وسع عليكم وخفف فأباح لكم مخالطتهم بالتى هى أحسن، فاشكروه على ذلك.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿إن الله عزيز حكيم﴾ أى : إن الله - تعالى - غالب

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٥٦.

على أمره لا يعجزه أمر من الأمور التى من جملتها إعناتكم قادر على أن يعز من أعز اليتامى ويذل من سذلهم، حكيم فى كل تصرفاته وأفعاله، فلا يضع الأشياء إلا فى مواضعها.

وقد استدل العلماء بهذه الآية على جواز التصرف فى أموال اليتامى على وجه الإصلاح، وعلى أن للولى أن يخالط اليتيم بنفسه فى المصاهرة والمشاركة وغير ذلك مما تقتضيه المصلحة.

وقد وردت أحاديث متعددة فى رعاية اليتيم وإصلاح أحواله ومن ذلك ما رواه البخارى عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ «أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى وفرق بينهما».

وروى الطبرانى عن أبى الدرداء. قال: أتى النبى ﷺ رجل يشكو قسوة قلبه، فقال له النبى ﷺ أتحب أن يلين وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم، وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك يلن قلبك وتدرك حاجتك.

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين الكريمتين قد اشتملتا على أفضل ألوان الإصلاح للأفراد والجماعات فى مطاعمهم ومشاربهم ونفقتهم وعلاقتهم بغيرهم ولا سيما اليتامى الذين فقدوا الأب الحانى، والقلب الرحيم، ومن شأن الأمة التى تعمل بهذا التوجيه السامى الحكيم أن تنال السعادة فى دنياها. ورضاه الله - فى أخراها.

ثم تحدثت السورة بعد ذلك فى اثنتين وعشرين آية[1] عن بعض أحكام وآداب الزواج والمعاشرة، والإيلاء والطلاق، والعدة، والنفقة، والرضاعة، والخطبة، والمتعة، وغير ذلك مما يتعلق بصيانة الأسرة وتقويتها، وبنائها على أفضل الدعائم، وأحكم الروابط، إذ الأسرة هى اللبنة الأساسية فى بناء المجتمع، ومن مجموعها يتكون، فإذا صلحت الوحدات والمكونات صلح البنيان، وإذا تصدعت تصدع.

ولقد ابتدأت الآيات التى معنا حديثها عن الأسرة بالحديث عن الزواج لأنه أعمق الروابط وأقواها ومنه تتأتى الذرية، لذا جعل أساس الاختيار فيه هو التدين السليم، والخلق القويم، الذى يسعد ولا يشقى، ويبنى ولا يهدم، ويحفظ ولا يضيع.. ولا يتأتى ذلك إلا باختيار المسلمة الصالحة والإعراض عن المشركة الكافرة.

استمع إلى القرآن الكريم وهو يبين ذلك فيقول:

---

(١) من الآية ٢٢١ وهى، ﴿ولا تنكحوا المشركات..﴾ إلخ قوله: ﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾ الآية ٢٤٢.

وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

قوله - تعالى : ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ﴾ النكاح فى اللغة الضم وتداخل أجزاء الشىء بعضها فى بعض. ثم أطلق على العقد الذى به تكون العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة مشروعة.

والمشرك فى لسان الشرع : من يدين بتعدد الآلهة مع الله - تعالى - وأصله من الإشراك بمعنى أن تجعل الشىء بينك وبين غيرك شركة، فمن يعبد مع الله - تعالى - إلها آخر يعد مشركًا، وهو فى الآخرة من الخاسرين.

ويرى كثير من العلماء أن إطلاق كلمة : مشرك، ومشركين، ومشركات فى القرآن الكريم تعنى عبدة الأوثان، وأنها صارت فى استعمال القرآن حقيقة عرفية فيهم، ولم يطلقها القرآن على اليهود والنصارى وإنما عبر عنهم بهذا الاسم أو بأهل الكتاب، أو بوصف الكفر دون الشرك كما فى قوله - تعالى - : ﴿لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل﴾ وعليه فالمراد بالمشركات والمشركين فى الآية عبدة الأوثان.

وذهب بعضهم إلى أن لفظ المشركات يشمل بمقتضى عمومه المرأة الوثنية، واليهودية، والنصرانية.

وقد ترتب على هذا الخلاف فى إطلاق كلمة «مشرك» أن أصحاب الرأى الأول قالوا : إن النهى فى الآية إنما هو عن زواج المشركات اللائى يعبدون الأوثان ولاكتاب لهن، وأنه يجوز - مع الكراهة - أن يتزوج المسلم الكتابية، لأن القرآن يقول : ﴿اليوم أحل لكم الطيبات، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم، وطعامكم حل لهم، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾.. الآية[1]. ولأنه قد جاءت الروايات بأن بعض الصحابة قد تزوج بكتابيات. فعثمان بن عفان تزوج نصرانية ثم أسلمت، وطلحة بن

(١) سورة المائدة الآية ٥.

عبيد الله وحذيفة بن اليمان تزوجا يهوديتين.

أما من قال بالرأى الثانى فيرى حرمة الزواج بالوثنية واليهودية والنصرانية لأن لفظ المشركات يشملهن جميعا. وأصحاب هذا الرأى - كما يقول الآلوسى - يجعلون آية المائدة وهى قوله - تعالى - : ﴿والمحصنات من المؤمنات﴾ . . منسوخة بالآية التى معنا نسخ الخاص بالعام . . وإلى هذا الرأى ذهب الإمامية وبعض الزيدية(٢).

وروى عن عمر وعبد الله ابنه - رضى الله عنهما - أنهما حرما ذلك وفى رواية أنهما كرهاه. وهى الأصح.

قال القرطبى : وروى عن عمر أنه فرق بين طلحة بن عبيد الله وحذيفة بن اليمان وبين كتابيتين وقالا : نطلق يا أمير المؤمنين ولا تغضب. فقال : لو جاز طلاقكما لجاز نكاحكما ولكن أفرق بينكما صغرة قمأة. قال ابن عطيه وهذا لا يستند جيدًا، وأسند منه أن عمر أراد التفريق بينهما فقال له حذيفة : أتزعم أنها حرام فأخلى سبيلها يا أمير المؤمنين؟ فقال : لا أزعم أنها حرام ولكن أخاف أن تعاطوا الموسات منهن.

ثم قال القرطبى : وكان ابن عمر إذا سئل عن نكاح الرجل النصرانية أو اليهودية. قال حرم الله المشركات على المؤمنين ولا أعرف شيئًا من الإشراك أعظم من أن تقول المرأة ربها عيسى أو عبد من عباد الله. قال النحاس : وهذا قول خارج عن قول الجماعة الذين تقوم بهم الحجة، لأنه قال بتحليل نكاح نساء أهل الكتاب من الصحابة والتابعين جماعة منهم عثمان وطلحة وابن عباس . . ومن التابعين سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد . . وفقهاء الأمصار عليه، وأيضًا فيمتنع أن تكون هذه الآية من سورة البقرة ناسخة للآية التى فى سورة المائدة، لأن البقرة من أول ما نزل بالمدينة والمائدة من آخر ما نزل، وإنما الآخر ينسخ الأول - أو يخصصه - وأما قول ابن عمر فلا حجة فيه، لأن ابن عمر - رضى الله عنه - كان متوقفا، فلما سمع الآيتين فى واحدة التحليل وفى أخرى التحريم ولم يبلغه النسخ توقف، ولم يؤخذ عنه ذكر النسخ وإنما تؤول عليه، وليس يؤخذ الناسخ والمنسوخ بالتأويل(٢).

والذى نراه أن زواج المسلم بالكتابية جائز لأن القرآن صريح فى ذلك، ولأن عمر - رضى الله عنه - أقر بأنه ليس بحرام، فتكون آية المائدة مخصصة لآية البقرة على فرض عمومها، ومبينة لحكم جديد خاص بالكتابيات، وهو الجواز ولكن هذا الجواز لا يمنع كراهته، لأن الزواج بالكتابية كثيرًا ما يؤثر فى إضعاف العاطفة الدينية عند المسلم، وعند الأطفال الذين

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٢ ص ١١٨

(٢) تفسير القرطبى جـ٣ ص ٦٨ بتصرف وتلخيص.

يكونون ثمرة لهذا الزواج، لأنهم يخرجون إلى الحياة وقد رضعوا الميل إلى دين أمهم، ولأن المرأة الكتابية التى تقبل الزواج بالمسلم كثيرًا ما تكون منحرفة فى سلوكها وأن الدافع لها إلى هذا الزواج إنما هو المال أو الجمال أو الجاه وليس الدين أو الخلق، لأنه لو كان الدافع ذلك لرضيت بالإسلام دينا، وبآدابه خلقًا لها، وما أحكم قول عمر لحذيفة: «لا أزعم أنها حرام ولكن أخاف أن تعاطوا المومسات منهن».

هذه خلاصة لاراء العلماء فى هذه المسألة ومن أراد المزيد فليرجع إلى أقوالهم فى مظانها[1].

والمعنى: أنها كم أيها المؤمنون أن تتزوجوا بالنساء المشركات حتى يؤمن بالله - تعالى - ويذعن لتعاليم الإسلام وآدابه.

وقوله: ﴿ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم﴾ تعليل للنهى، وبيان لفضل المؤمنات على المشركات، ولفضل طهارة النفس على جمال الجسم، والمراد بالأمة هنا الأنثى المملوكة من الرقيق، وبالمشركة الحرة الجميلة بقرينة المقابلة.

أى: ولأنثى رقيقة مؤمنة مع ما بها من الرق وقلة الجاه والجمال خير فى التزوج بها من امرأة حرة مشركة ولو أعجبتكم بجمالها ونسبها وغير ذلك من منافع دنيوية، لأن ما يتعلق بالمنافع الدينية يجب أن يقدم على المنافع الدنيوية، ولأن الزواج ارتباط روحى بين قلبين، ومن العسير أن يتم هذا الترابط بين قلب يخلص لله فى عبادته، وقلب لا يدين بذلك.

وصدرت الجملة بلام الابتداء الشبيهة بلام القسم فى إفادة التأكيد مبالغة فى الحمل على الانزجار، وقد أمر النبى ﷺ أتباعه أن يجعلوا الدين أساس رغبتهم فى الزواج، فقد أخرج الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك».

وعن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ «لا تتزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن، ولا تتزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن، ولكن تزوجوهن على الدين، ولأمة سوداء ذات دين أفضل».

والأحاديث النبوية فى هذا المعنى كثيرة.

ثم قال - تعالى -: ﴿ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا﴾ أى: لا تزوجوا أيها المؤمنون النساء المؤمنات للرجال المشركين حتى يتركوا ماهم عليه من شرك ويدخلوا فى دين الإسلام، فإذا فعلوا ذلك حل لكم أن تزوجوهم النساء المسلمات، لأنهم بدخولهم فى الإسلام قد اصبحوا إخوانا لكم.

---

(١) راجع - على سبيل المثال - تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص ٥٧، وتفسير القرطبى جـ ٣ ص ٦٦.

والنهى هنا يتناول المشرك الذى يعبد الأوثان ويتناول غيره ممن لا يدين بالإسلام كأهل الكتاب، لأن القرآن قد جعل الإيمان غاية للنهى، فإذا لم يكن هناك إيمان من الرجل لم يكن له أن يتزوج من المرأة المؤمنة، لأن الله - تعالى - يقول فى آية أخرى: ﴿يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن، وآتوهم ما أنفقوا، ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾.

فهذه الآية صريحة فى أن زواج المسلمة بالكافر لا يجوز، وكلمة كافر تشمل أهل الكتاب بدليل قوله - تعالى -: ﴿لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان دواود وعيسى بن مريم﴾. وقوله تعالى ﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم﴾.

قال الفخر الرازى: لا خلاف هاهنا فى أن المراد به - أى بلفظ المشركين - الكل، وأن المؤمنة لا يحل تزويجها من الكافر ألبتة على اختلاف أنواع الكفرة[1].

وقوله: ﴿ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم﴾ بيان لفضل الإيمان على الشرك، كما فى قوله - تعالى -: ﴿ولأمة مؤمنة خير من مشركة﴾ إذ نسبة المؤمن أو المؤمنة إلى هذا الدين الذى ارتضاه الله لعباده أفضل وأجل من الانتساب إلى أى شيء آخر.

ثم بين - سبحانه - علة النهى عن الزواج بالمشركين والمشركات فقال - تعالى -: ﴿أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه﴾.

أى: أولئك المذكورون من المشركين والمشركات يدعون من يقارنهم ويعاشرهم إلى الأقوال والأفعال والعقائد التى تفضى بصاحبها إلى دخول النار فى الآخرة والله - تعالى - يدعو عباده على ألسنة رسله إلى الأقوال والأعمال والعقائد التى توصل إلى جنته ومغفرته.

فالمراد بالدعاء إلى النار الدعاء إلى أسبابها وإلى ما يوصل إليها، وكان الاقتران بهؤلاء المشركين والمشركات سببا فى الوصول إليها، لأن الزواج من شأنه الألفة والمودة والمحبة وشدة الاتصال، وكل ذلك يجعل المسلم أو المسلمة يتقبلان ما عليه المشرك أو المشركة من فسوق وعصيان لله - تعالى - بل ربما بمرور الأيام لا يكتفيان بالتقبل بل يستحسنان فعلهما، وبذلك تنحل عرا الإسلام من نفس المسلم والمسلمة عروة فعروة، حتى لا يبقى منه سوى الاسم، كما نشاهد ذلك فى كثير من المسلمين الذين تزوجوا بغير مسلمات.

والمقصود من قوله - تعالى -: ﴿والله يدعو إلى الجنة﴾ إغراء المؤمنين بالتمسك بتعاليم

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٦ صفحة ٦٤.

دينهم، وتنفيرهم من الاقتران بغير من يكون على شاكلتهم فى الدين، لأن من يخالفهم فى عقيدتهم طريقه يغاير طريقهم، وهدفه يخالف هدفهم، وعاقبته تباين عاقبتهم.

والدعاء إلى الجنة والمغفرة المراد به الدعاء إلى أسبابهما كما فى الجملة السابقة المقابلة وقيد - سبحانه - الدعاء إلى الجنة والمغفرة بقوله ﴿بإذنه﴾ أى بأمره وإرادته وعلمه، لأنه - سبحانه - هو المالك لكل شيء، ولا يقع فى ملكه إلا ما يريده ويقدره.

قال بعض العلماء ما ملخصه: وقد يقول قائل: هذه الدعوة إلى النار قد تكون أيضًا فى زواج المسلم بالكتابية، كما هى فى زواج المسلم بالمشركة، وكان مقتضى هذا أن يحرم زواج المسلم بغير المسلمة مطلقًا، كما حرم زواج المسلمة بغير المسلم مطلقًا، وإن لذلك الكلام موضعه، ولذلك أجمع الفقهاء على كراهة زواج المسلم بالكتابية، بل زعم بعض العلماء أن زواج المسلم من الكتابية محرم كزواجه من المشركة.

ولكن الجمهور لا يقطعون بالتحريم أمام النص القاطع بالحل، ولا يعملون العلة ليهمل النص، بل يرون علة التحريم لا تتوافر فى الكتابية توافرها فى المشركة، فإن المشركة لا ترتبط بأى قانون خلقى يعصمها من الزلل.. أما الكتابية فإن مجموع الفضائل الإنسانية.. لا تزال باقية فى تعاليم دينها فيمكن الاحتكام إليها.

والقرآن فى جدله مع أهل الكتاب كان يلاحظ إمكان التفاهم معهم على قواعد يمكن حملهم على الإقرار بها كما فى قوله - تعالى -: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا﴾.. الآية.

وأمرنا أن نجادلهم بالتى هى أحسن فقال: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم﴾.. الآية.

فكان من اطراد تلك المعاملة الحسنة المقربة غير المبعدة، أن أباح الإسلام الزواج من الكتابيات.

بيد أنه يلاحظ فى إباحة الزواج من الكتابيات أمران:

أولهما: أن النص القرآنى المبيح خاص بالمحصنات منهن، إذ قال - سبحانه ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ والمحصنات - فى أظهر التفسير - هن العفيفات، فأولئك الذين يعمدون إلى المنحرفات منهن فى أخلاقهن وعقولهن ولا يتخيرون، خارجون عن موضع الإباحة فيما أحسب، لأن الله أحل المحصنات وهم استحلوا المنحرفات.

ثانيهما: أن ولى الأمر إذا رأى خطرا على الدولة الإسلامية أو على المجتمع الإسلامى له أن

يمنع الناس من ذلك الزواج بوضع عقوبات لمن يقدم عليه سدا للذريعة ومنعا للشر، وذلك من باب السياسة الشرعية، لا من باب تحريم ما أحل الله، لأن الحل قائم على أصله، والمنع وارد على الضرر الذى يلحق المسلمين، إذ فى ذلك من الاعتداء على جماعتهم ما فيه، كما أن أصل الأكل حلال، ولكن اغتصاب أموال الناس لنأكلها حرام، ولذلك سارت الدولة على منع بعض رجالها من الزواج بالأجنبيات[1].

وقوله - تعالى - فى ختام الآية: ﴿ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون﴾ معطوف على يدعو إلى الجنة. أى أنه - سبحانه - يدعو الناس إلى ما يوصلهم إلى جنته ومغفرته ويبين لهم آياته وأوامره ونواهيه فى شئون الزواج وفى غير ذلك من الأحكام لكى يتعظوا ويعتبروا ويتذكروا ما أمرهم الله به فيعملوه، وما نهاهم عنه فيتركوه.

وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد رسمت للناس أقوم السبل، لكى يعيشوا فى ظل أسرة فاضلة، تظلها السعادة، ويسودها الأمان والاطمئنان ويتعاون أفرادها على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

وبعد أن أمر الله - المسلم بأن يجعل التدين وحسن الخلق محط اختياره فى الزواج، اتبع ذلك بإرشاده إلى بعض الآداب التى يجب عليه أن يسلكها مع زوجه حتى تكون علاقتهما قائمة على ما يقتضيه الطبع السليم والخلق القويم وحتى تكون فى أعلى درجات التطهر والتنزه والعفاف فقال - تعالى - :

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾

(١) تفسير القرآن الكريم لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد أبو زهرة مجلة لواء الإسلام السنة الخامسة العدد ١٢ سنة ١٩٥٢.

روى الإمام مسلم فى صحيحه عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها فى البيوت أى لا يسكنون معهن - فسأل الصحابة النبى ﷺ فأنزل الله - تعالى - : ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى﴾. الآية فقال رسول الله - ﷺ - أصنعوا كل شىء إلا النكاح. فبلغ ذلك اليهود فقالوا : ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئًا إلا خالفنا فيه. فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا : يارسول الله، إن اليهود تقول كذا وكذا، أفلا نجامعهن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد عليهما - أى غضب - فاستقبلتهما هدية من لبن إلى النبى ﷺ فأرسل فى آثارهما فسقاهما، فعرفا أن لم يجد عليهما(١).

والمحيض : الحيض مصدر حاضت المرأة تحيض حيضًا ومحاضًا ومحيضا فهى حائض، وأصله السيلان. يقال حاض الوادى إذا سال، ومنه الحوض لسيلان الماء إليه.

ثم أطلق الحيض على ما يقذفه رحم المرأة من دم فى أوقات مخصوصة على وجه مخصوص.

والأذى : الشىء الذى يتأذى منه الإنسان ويصيبه الضرر بسببه.

والسؤال كان من بعض الصحابة، لأنه لقوة إيمانهم كانوا يحبون أن يعرفوا حكم الإسلام فى شئونهم الخاصة والعامة، ولأنهم وجدوا أن اليهود وغيرهم يعاملون المرأة فى حال حيضها معاملة غير كريمة فسألوا رسول الله ﷺ عن هذا الأمر الذى يتصل بأدق العلاقات بين الرجل والمرأة وهو حكم مباشرة النساء فى حال الحيض، فأجابهم الله - تعالى - جوابًا شافيًا.

والمعنى : ويسألك أصحابك يا محمد عن حكم مباشرة النساء فى حال الحيض فقل لهم معلمًا وموجهًا : إن الحيض أى الدم الذى يلفظه رحم المرأة فى وقت معين أذى يتأذى به الإنسان تأذيًا حسيًا جسيمًا، فرائحته يتأذى منها من يشمها، وهو فى ذاته شىء متقذر تعافه النفوس، وتنفر منه الطباع.

وقوله : ﴿فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن﴾ بيان للحكم المتفرع على تلك الحالة التى يتأذى منها وهى حالة الحيض.

والاعتزال : التباعد، وهو هنا كناية عن ترك الجماع والمباشرة، كما أن النهى عن قربهن كناية عن النهى عن جماعهن، يقال : قرب الرجل امرأته إذا جامعها.

و﴿يطهرن﴾ من الطهر - بضم الطاء - بمعنى النقاء من الوسخ والقذر -.

والمعنى : عليكم أيها المؤمنون أن تمتنعوا عن مباشرة النساء فى زمن حيضهن، ولا تجامعوهن

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الحيض جـ ١ صفحة ١٦٩

حتى يطهرن من ذلك، لأن غشيانهن فى هذه الحالة يؤذيكم بسبب عدم نقاء المحل الذى يكون فيه الغشيان للمرأة، والمرأة أيضًا تتأذى من مباشرتها فى زمن الحيض لأنها لا تكون فى حالة تستسيغ معها المباشرة، فجهازها التناسلى فى حالة اضطراب، وهيئتها العامة فى حالة تجعلها من شأنها أن تنفر من الجماع، والولد الذى يأتى عن طريق الجماع فى حالة الحيض - على فرض إتيانه فى هذه الحالة - كثيرًا ما يأتى مشوها ضعيفًا، لأن النطفة إذا اختلطت بدم الحيض، أخذت البويضات فى التخلق قبل وقت صلاحيتها للتخلق النافع الذى يكون وقته بعد انتهاء فترة الحيض وقد قال بذلك الأطباء الثقاة[1]. وعرفه العرب القدامى بالتجربة، قال أبو كبير الهزلى.

ومبرأ من كل غُبَّرِ حَيْضةٍ وفساد مرضعة وداءٍ معضلِ[2]

وقد أجمع العلماء - كما بينا - على أن المراد بالاعتزال هو اجتناب المباشرة، إلا أنهم اختلفوا فيما يجب اعتزاله من المرأة بعد ذلك.

فبعضهم يرى اعتزال جميع بدن المرأة، وحجتهم أن الله أمر باعتزال النساء ولم يخصص من ذلك شيئًا دون شيء.

وبعضهم يرى اعتزال موضع الأذى - أى مكان خروج الدم - لقول النبى ﷺ «اصنعوا كل شيء إلا النكاح».

وبعضهم يرى اعتزال ما بين السرة إلى الركبة من المرأة وله ما سوى ذلك، لقول عائشة : كانت إحدانا إذا كانت حائضة أمرها النبى ﷺ أن تأتزر ثم يباشرها. وقوله : ﴿ولا تقربوهن حتى يطهرن﴾ تأكيد لحكم الاعتزال وتقرير له، وتنبيه على أن المراد به عدم جماعهن لاعدم القرب منهن أو مخالطتهن أو الأكل معهن كما كان يفعل اليهود وبعض العرب.

والدليل على ذلك ماجاء فى الصحيحين عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : «كنت أرجل رأس رسول الله ﷺ وأنا حائض».

وروى البخارى عن عائشة - أيضًا - قالت : كان رسول الله ﷺ يتكىء فى حجرى وأنا حائض ثم يقرأ القرآن[3].

(١) راجع تفسير «التحرير والتنوير» جـ٢ ص ٣٥٠ للشيخ محمد بن عاشور.

(٢) غبر الحيضة : جمع غبرة وهى آخر الشيء. يريد أن يقول : إن أم هذا الممدوح لم تحمل به فى آخر مدة الحيض لذا جاء مستقيم الخلقة.

(٣) صحيح البخارى : كتاب الحيض جـ١ ص ٨٢.

وروى مسلم عنها أيضًا قالت: كنت أشرب وأنا حائض، ثم أناوله النبى ﷺ فيضع فاه على موضع فىَّ فيشرب.

وقوله: ﴿حتى يطهرن﴾ بيان لغاية الاعتزال. وقرأ حمزة الكسائى ﴿حتى يطهرن﴾ بفتح الطاء والهاء مع التشديد.

ومعناه عند جمهور الفقهاء ولا تجامعوهن حتى يغتسلن، لأن القراءتين معناهما واحد، ولأن الله - تعالى - قد علق الإتيان على التطهر فقال: ﴿فإذا تطهرن فأتوهن﴾ والتطهر هو الاغتسال. فالمرأة إذا انقطع حيضها لا يحل للزوج مجامعتها إلا بعد الاغتسال.

ويرى الأحناف أن معنى ﴿حتى يطهرن﴾ أى حتى ينقطع الدم، لأنه إذا كان سبب الأذى هو الدم فانقطاعه طهور منه، وبناء على ذلك فيجوز للرجل أن يباشر زوجته قبل أن تغتسل متى انقطع دمها لأقصى مدة الحيض، وهو عشرة أيام. أخذًا بالقراءة المشهورة ﴿يطهرن﴾ بالتخفيف. أما إذا انقطع الدم قبل ذلك فلا تحل مباشرتها إلا بالتأكد من زوال الدم بعمل من جانبها وهو الاغتسال الفعلى، لأن قراءة ﴿يطهرن﴾ بالتشديد عندهم معناها يغتسلن.

وقال بعض الفقهاء يكفى فى حلها أن تتوضأ عند انقطاع الدم.

ولكل فريق أدلته المبسوطة فى كتب الفقه.

وفى هاتين الجملتين الكريمتين ﴿فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرنَ﴾ من سمو التعبير، وبديع الكناية ما يغرس فى نفس السامع حسن الأدب، ويصون سمعه عن الألفاظ التى يجافى سماعها الأذواق السليمة، وما أحوج المسلمين إلى التأسى بهذا الأدب الذى يحفظ عليهم مروءتهم وكرامتهم.

ثم قال - تعالى - : ﴿فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله﴾ أى: فإذا تطهرن من المحيض فجامعوهن فى المكان الذى أمركم الله بتجنبه فى الحيض وهو القبل ولا تتعدوه إلى غيره.

والأمر فى قوله - تعالى - : ﴿فأتوهن﴾ المراد به إباحة المباشرة، لأن من المقرر عند العلماء أن الأمر بعد النهى يكون للإباحة، خصوصًا إذا كان الموضع موضع حل وإباحة لا موضع تكليف وإلزام، وليس المراد به الحتم واللزوم، لأن الإتيان مبنى على الرغبة والطاقة وشبه بهذا التعبير قوله - تعالى - : ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض﴾ وقوله: ﴿وإذا حللتم فاصطادوا﴾.

قال الجمل: ومن فى قوله: «من حيث» فيها قولان:

أحدهما: أنها لابتداء الغاية، أى من الجهة التى تنتهى إلى موضع الحيض.

والثانى : أن تكون بمعنى فى أى المكان الذى نهيتم عنه فى الحيض. ورجح بعضهم هذا بأنه ملائم لقوله ﴿فاعتزلوا النساء فى المحيض﴾[(١)].

وعلى كلا القولين فالمقصود أن يأتى الرجل زوجته فى المكان الفطرى الطبيعى لتلك العلاقة الجنسية، وهو القبل إذ هو مكان البذر والإنسال، ولا يخرج عن ذلك إلا الذين أصيبوا بشذوذ فى عقولهم، وضعف فى دينهم..

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾

والتواب صيغة مبالغة من تائب بمعنى راجع إلى ربه إذا زل وهفا.

والمتطهر: هو الإنسان المتنزه عن الفواحش والأقذار.

أى : إن الله - تعالى - يحب عباده الذين يكثرون الرجوع إليه إذا ما ظلموا أنفسهم بسيئة من السيئات، والذين يصونون أنفسهم وينزهونها عن المعاصى والآثام، ويرضى عنهم فى الدنيا والآخرة.

قال الألوسى : ﴿إن الله يحب التوابين﴾ مما عسى يبدر منهم من ارتكاب بعض الذنوب كالإتيان فى الحيض المستدعى لعقاب الله - تعالى - فقد أخرج الإمام أحمد والترمذى والنسائى عن أبى هريرة عن النبى - ﷺ قال : «من أتى حائضًا فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ وهو جار مجرى الترهيب فلا يعارض ما أخرجه الطبرانى عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يارسول الله، أصبت امرأتى وهى حائض فأمره رسول الله - ﷺ - أن يعتق نسمة» وهذا إذا كان الإتيان فى أول الحيض والدم أحمر، أما إذا كان فى آخره والدم أصفر فينبغى أن يتصدق بنصف دينار كما دلت عليه الآثار»[(٢)].

ثم قال - تعالى - : ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾.

روى الشيخان عن جابر قال : كانت اليهود تقول : إذا أتى الرجل امرأته من دبرها فى قبلها ثم حملت كان ولدها أحول. فأنزل الله - تعالى - قوله : ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ الآية.

والحرث فى الأصل : تهيئة الأرض بالحراثة لإلقاء البذر فيها. وقد تطلق كلمة الحرث على الأرض المزروعة كما فى قوله - تعالى - ﴿أن اغدوا على حرثكم﴾ أى على حديقتكم لجمع ما فيها من ثمار.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ صفحة ١٧٩.
(٢) تفسير الألوسى جـ٢ صفحة ١٢٤ وبتلخيص قليل.

وشبهت المرأة بالأرض لأن كليهما يمد الوجود الإنسانى بأسباب بقائه، فالزوجة تمده بعناصر تكوينه، والأرض تمده بأسباب حياته.

و﴿أنى شئتم﴾ بمعنى كيف شئتم، أو متى شئتم فى غير وقت الحيض.

والمعنى : نساؤكم هن مزرع لكم ومنبت للولد، أعدهن الله لذلك كما أعد الأرض للزراعة والإنبات، فأتوهن إذا تطهرن من الحيض فى موضع الحرث كيف شئتم مستلقيات على ظهورهن أو غير ذلك ما دمتم تؤدون شهوتكم فى صمام واحد وهو الفرج.

وفى هذه الجملة الكريمة إشعار بأن المقصد الأول من الزواج إنما هو النسل، ويشير إلى ذلك قوله ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ إذ من شأن الحرث الصالح الانتاج وإشعار كذلك بما شرعه الله للزوجين من مؤانسة ومباسطة ويشير إلى ذلك قوله - تعالى - : ﴿فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾.

ويرى صاحب الكشاف أن التشبيه بين ما يلقى فى الأرحام من النطفة وبين البذر الذى يلقى فى الأرض من حيث إن كلا منهما ينمو فى مستودعه ويكون به البقاء والتوالد، فقد قال - رحمه الله - :

﴿نساؤكم حرث لكم﴾ مواضع الحرث لكم. وهذا مجاز شبههن بالمحارث تشبيها لما يلقى فى أرحامهن من النطف التى منها النسل بالبذور، وقوله : ﴿فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ تمثيل، أى فأتوهن كما تأتون أراضيكم التى تحرثونها من أى جهة شئتم، لا تحظر عليكم جهة دون جهة. والمعنى : جامعوهن من أى شق أردتم بعد أن يكون المأتى واحدا وهو موضع الحرث.

ثم قال : وقوله - تعالى - : ﴿هو أذى، فاعتزلوا النساء﴾ وقوله ﴿من حيث أمركم الله﴾ وقوله ﴿فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ من الكنايات اللطيفة والتعريضات الحسنة. وهذه وأشباهها فى كلام الله آداب حسنة على المؤمنين أن يتعلموها ويتأدبوا بها ويتكلفوا مثلها فى محاورتهم ومكاتبتهم.

فإن قلت : ما موقع قوله ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ مما قبله؟ قلت : موقعه موقع البيان والتوضيح لقوله : ﴿فأتوهن من حيث أمركم الله﴾ يعنى أن المأتى الذى أمركم الله به هو مكان الحرث ترجمة له وتفسيرا، أو إزالة للشبهة ودلالة على أن الغرض الأصيل فى الإتيان هو طلب النسل لا قضاء الشهوة فلا تأتوهن إلا من المأتى الذى يتعلق به هذا الغرض»[1].

ثم ختم الله - تعالى - الآية بقوله : ﴿وقدموا لأنفسكم، واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين﴾.

أى : عليكم أيها المؤمنون أن تقدموا فى حاضركم لمستقبلكم من الأعمال الصالحة ما ينفعكم

(١) تفسير الكشاف جـ ١ صفحة ٢٦٦.

فى دنياكم وآخرتكم، بأن تختاروا فى زواجكم ذات الدين، وأن تسيروا فى حياتكم الزوجية على الطريقة التى رسمها لكم خالقكم وعليكم كذلك أن تتقوه بأن تصونوا أنفسكم عن كل ما نهاكم عنه، وأن تعلموا علم اليقين أنكم ستلقونه فيحاسبكم على أعمالكم ويجازيكم عليها بما تستحقون.

وقوله: ﴿وبشر المؤمنين﴾ بشارة طيبة لمن آمن وعمل صالحا، وتلقى ما كلفه الله - تعالى - بالطاعة والامتثال.

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين قد أرشدتا المسلم إلى أفضل الوسائل، وأقوى الدعائم التى يقوم عليها صرح الحياة الزوجية السعيدة، والتى عن طريقها تأتى الذرية الصالحة الرشيدة، وأن الإسلام فى تعاليمه لا يحاول أن ينكر أو يحطم غرائز الإنسان وضرورياته، وإنما الإسلام يعترف بغرائز الانسان وضرورياته ثم يعمل على تهذيبها وتقويمها بالطرق التى من شأنه إذا ما اتبعها أن يظفر بالسعادة والطمأنينة فى دنياه وأخراه.

وبعد أن بينت لنا السورة الكريمة حكم المباشرة فى فترة الحيض تابعت حديثها عن شئون الأسرة فذكرت حكم الإيلاء أى الحلف بالامتناع عن المباشرة بعد أن قدمت له بالحديث عن الحلف فى ذاته. استمع إلى السورة الكريمة وهى تحكى ذلك فتقول:

وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾

العرضة: فعله - بضم الفاء - بمعنى مفعول كالقبضة والغرفة، وهى اسم لكل ما يعترض الشيء فيمنع من الوصول إليه، واشتقاقها من الشيء الذى يوضع فى عرض الطريق فيصير مانعًا للناس من السلوك والمرور يقال فلان عرضة دون الخير أى حاجز عنه.

وتطلق كذلك على النصبة التى تتعرض للسهام وتكون هدفا لها، ومنه قولهم: فلان عرضة

للناس إذا كانوا يقعون فيه ويعرضون له بالمكروه. قال الشاعر:

دعونى أنح وجدًا كنوح الحمائم ولا تجعلونى عرضة للوائم

يريد اتركونى أنح من الشوق ولا تجعلونى معرضًا للوم اللوائم.

والأيمان: جمع يمين وتطلق بمعنى الحلف والقسم، واصل ذلك أن العرب كانوا إذا أرادوا توثيق عهودهم بالقسم يقسمونه وضع كل واحد من المتعاهدين يمينه فى يمين صاحبه، و«تبروا» من البر وهو الأمر المستحسن شرعا.

والمعنى على الوجه الأول: لا تجعلوا الحلف بالله - أيها المؤمنون - حاجزًا ومانعًا عن البر والتقوى والإصلاح بين الناس، وذلك أن بعض الناس كان إذا دعى إلى فعل الخير وهو لا يريد أن يفعله يقول: حلفت بالله ألا أفعله فنهاهم الله - تعالى - عن سلوك هذا الطريق.

وهذا المعنى هو الذى رجحه كثير من المفسرين لأنه هو المناسب لما يجىء بعد ذلك من قوله - تعالى - : ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر﴾ ووجه المناسبة أن الله - تعالى - يكره للمؤمن أن يجعل الحلف به مانعًا من رجوعه إلى أهله؛ ولأن هناك أحاديث كثيرة تحض من حلف على ترك أمر من أمور الخير أن يكفر عن يمينه وأن يأتى الأمر الذى فيه خير، ومن هذه الأحاديث ما جاء فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ إنى والله إن شاء الله، لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرًا منها إلا أتيت الذى هو خير وتحللتها»[(١)].

وروى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: من حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذى هو خير»[(٢)].

وشبيه بهذه الآية فى النهى عن الحلف على ترك فعل الخير قوله - تعالى - فى شأن سيدنا أبى بكر عندما أقسم ألا ينفق على قريبه الذى خاض فى شأن ابنته عائشة ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾[(٣)].

فالآية على هذا الوجه تنهى المؤمن عن المحافظة على اليمين إذا كانت هذه اليمين ما نعة من فعل الخير.

واللام فى قوله: ﴿لأيمانكم﴾ متعلق بعرضة، وقوله ﴿أن تبروا وتتقوا وتصلحوا﴾ مفعول

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٦٦.

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٦٦.

(٣) سورة النور الآية ٢٢.

لأجله أي : لا تجعلوا الحلف بالله سببًا فى الامتناع عن عمل البر والتقوى والإصلاح بين الناس.

والمعنى على أن عرضة بمعنى النصبة التى تتعرض للسهام : لا تجعلوا - أيها المؤمنون - اسم الله - تعالى - هدفا لأيمانكم فتبتذلوه بكثرة الحلف به فى كل حق وباطل، وذلك لأجل البر والتقوى والإصلاح بين الناس، فإن من شأن الذى يكثر الحلف أن تقل ثقة الناس به وبأيمانه، وقد ذم الله - تعالى - من يكثر الحلف بقوله ﴿ولا تطع كل حلاف مهين﴾ وأمر بحفظ الأيمان فقال : ﴿واحفظوا أيمانكم﴾.

قال الإمام الرازى : والحكمة فى الأمر بتقليل الأيمان، أن من حلف فى كل قليل وكثير بالله انطلق لسانه بذلك، ولا يبقى لليمين فى قلبه وقع، فلا يؤمن إقدامه على اليمين الكاذبة، فيختل ما هو الغرض الأصلى فى اليمين، وأيضًا كلما كان الإنسان أكثر تعظيما لله. كان أكمل فى العبودية، ومن كمال التعظيم أن يكون ذكر الله - تعالى - أجل وأعلا عنده من أن يستشهد به فى غرض دنيوى، وأما قوله بعد ذلك ﴿أن تبروا﴾ فهو علة لهذا النهى. أى : إرادة أن تبروا والمعنى إنما نهيتم عن هذا - أى عن الإكثار من الحلف - لما أن توقى ذلك من البر والتقوى والإصلاح، فتكونون يا معشر المؤمنين بسبب عدم إكثاركم من الأيمان - بررة أتقياء مصلحين »(١).

وهذا الوجه أيضًا استحسنه كثير من العلماء، ولا تنافى بينهما؛ لأن الله - تعالى - ينهانا عن أن نجعل القسم به مانعًا من فعل الخير، كما ينهانا فى الوقت نفسه عن أن نكثر من الحلف به فى عظيم الأمور وحقيرها.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿والله سميع عليم﴾ أى : سميع لأقوالكم وأيمانكم عند النطق بها عليم بأحوالكم ونياتكم فحافظوا على ما أمركم به، وانتهوا عما نهاكم لتنالوا رضاه ومثوبته.

وقوله - تعالى - : ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم﴾ استئناف بيانى، لأن الآية السابقة لما أفادت النهى عن التسرع فى الحلف، أو عن اتخاذ الأيمان حاجزًا عن عمل الخير، كانت نفوس السامعين مشوقة إلى حكم اليمين التى تجرى على الألسنة بدون قصد.

والمؤاخذة : مفاعلة من الأخذ بمعنى المحاسبة أو المعاقبة أو الإلزام بالوفاء بها.

واللغو من الكلام : الساقط الذى لا يعتد به ولا يصدر عن فكر وروية مصدر لغا يلغو ويلغى.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص ٨٠.

والمعنى : لا يعاقبكم الله - تعالى - ولا يلزمكم بكفارة ما صدر عنكم من الأيمان اللاغية فضلا منه - سبحانه - وكرمًا.

واليمين اللغو هى التى لا يقصدها الحالف، بل تجرى على لسانه عادة من غير قصد، وقد ذكر العلماء صورًا لها منها - كما يقول ابن كثير:

ما رواه عطاء عن عائشة أنها قالت : « اللغو فى اليمين هو كلام الرجل فى بيته كلا والله وبلى والله » وفى رواية عن الزهرى عن عروة عنها أنها قالت : « اللغو فى اليمين هو ما يكون بين القوم يتدارءون فى الأمر - أى يتناقشون ويتذاكرون فيه - فيقول هذا لا والله وبلىَ والله وكلا والله لا تعقد عليه قلوبهم » أى تجرى على ألسنتهم ألفاظ اليمين ولكن بدون قصد يمين : -

ومنها ما جاء عن عروة عنها أنها كانت تتأول هذه الآية يعنى قوله - تعالى - : ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم﴾ وتقول : هو الشيء يحلف عليه أحدكم لا يريد منه إلا الصدق فيكون على غير ما حلف عليه ».

ثم بين - سبحانه - اليمين التى هى موضع المحاسبة والمعاقبة فقال : ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾.

أى : لا يؤاخذكم الله فى اليمين التى لم تصدر عن روية وتفكير ولكن يؤاخذكم أى يعاقبكم فى الآخرة بما قصدته قلوبكم وتعمدتم فيه الكذب فى اليمين، بأن يحلف أحدكم على شيء كذب ليعتقد السامع صدقه، وتلك هى اليمين الغموس - أى التى تغمس صاحبها فى النار - ويدخل فيها الأيمان التى يحلفها شهود الزور والكاذبون عند التقاضى ومن يشابههم فى تعمد الكذب.

ويرى جمهور العلماء أن هذه اليمين لا كفارة فيها وإنما كفارتها التوبة الصادقة ورد الحقوق إلى أصحابها إن ترتب على اليمين الكاذبة ضياع حق أو حكم بباطل.

ويرى الإمام الشافعى أنه يجب فيها فوق ذلك الكفارة.

والباء فى قوله : ﴿بما﴾ للسببية، وما مصدرية أى، لا يؤاخذكم باللغو ولكن يؤاخذكم بالكسب، أو موصولة والعائد محذوف أى ولكن يؤاخذكم بالذى كسبته قلوبكم.

وقوله : ﴿والله غفور حليم﴾ تذييل لتأكيد معنى عدم المؤاخذة فى اللغو. أى والله غفور حيث لم يؤاخذكم باللغو حليم حيث لم يعاجل المخطئين بالعقوبة.

وبعد بيان هذه الأحكام فى الأيمان العامة، عقب - سبحانه - ذلك ببيان حكم اليمين الخاصة فقال : ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءو فإن الله غفور رحيم.

وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم﴾. و﴿يؤلون﴾ : من الإيلاء مصدر آلى يؤالى و يؤلى إيلاء بمعنى حلف. قال الشاعر:

قليل الألايا حافظ ليمينه   وإن سبقت منه الألية برت

وقد خص الإيلاء فى الشرع بالحلف على ترك مباشرة الزوجة. وكانوا فى الجاهلية يحلفون ألا يقربوا نساءهم السنة والأكثر إضرارا بهن.

و﴿التربص﴾ التلبث والانتظار والترقب. قال الشاعر:

تربص بها ريب المنون لعلها   تطلق يوما أو يموت حليلها

و ﴿فاءو﴾ معناه رجعوا. والفىء فى اللغة هو رجوع الشىء إلى ما كان عليه من قبل، ولهذا قيل لما تزيله الشمس من الظل ثم يعود فىء. وقيل لما رده الله على المسلمين من مال المشركين فىء كأنه كان لهم فرجع إليهم.

قال الشاعر:

ففاءت ولم تقض الذى أقبلت له   ومن حاجة الإنسان ما ليس قاضيا

و﴿عزموا﴾ من العزم وهو عقد القلب على الشىء، والتصميم عليه. يقال عزم على الشىء يعزم عزما وعزيمة.. إذا عقد نيته عليه.

و﴿الطلاق﴾ هو حل عقد النكاح الذى بين الرجل والمرأة، وأصله من الانطلاق، وهو الذهاب. يقال: طلقت المرأة تطلق – من باب نصر – طلاقا، إذا أصبحت مخلاة بدون رجل بعد أن كانت فى عصمة رجل معين.

قال الفخر الرازى: كان الرجل فى الجاهلية لا يريد المرأة ولا يحب أن يتزوجها غيره، فيحلف أن لا يقربها، فكان يتركها بذلك لا أيما ولا ذات بعل والغرض منه مضارة المرأة. ثم إن أهل الإسلام كانوا يفعلون ذلك – أيضًا – فأزال الله، تعالى – ذلك، وأمهل الزوج مدة حتى يتروى ويتأمل فإن رأى المصلحة فى ترك هذه المضارة فعلها، وإن رأى المصلحة فى المفارقة عن المرأة فارقها».

ومعنى الآيتين الكريمتين: أن الله – تعالى – جعل للذين يحلفون على ترك مباشرة أزواجهم مدة يراجعون فيها أنفسهم، وينتظرون فيها ما يستقر عليه أمرهم، وهذه المدة هى أربعة أشهر، فإن رجعوا عما حلفوا عليه من ترك مباشرة الزوجة، ورأوا أن المصلحة فى الرجوع فإن الله – تعالى – يغفر لهم ما فرط منهم. وإن استمروا على ترك مباشرة نسائهم، وأصروا على ذلك بعد انقضائها فإن شرع الله – تعالى يحكم بالتفريق بينهما، لأن الحياة الزوجية لا تقوم على البغض والكراهية والهجران، وإنما تقوم على المحبة والمودة والرحمة.

وقوله : ﴿للذين يؤلون﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. وتربص مبتدأ مؤخر، وقدم الخبر على المبتدأ للاهتمام بهذه التوسعة التى وسع الله بها عليهم، فهى مدة كافية لأن يراجع المرء فيها نفسه، ويعود إلى معاشرة زوجه خلالها.

وعدى فعل الإيلاء بمن مع أن حقه أن يتعدى بعلى، لأنه تضمن هنا معنى البعد كأنه قال : للذين يؤلون متباعدين من نسائهم.

و﴿من نسائهم﴾ على حذف المضاف، أو من إقامة العين مقام الفعل المقصود منه المبالغة أى، للذين يؤلون من مباشرة نسائهم.

وأضيف التربص إلى الظرف ﴿أربعة أشهر﴾ على الاتساع إذ الأصل تربصهن فى أربعة أشهر. وقوله : ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ دليل الجواب. أى فإن فاؤا إلى زوجاتهم وحنثوا فى أيمانهم التى حلفوها بالابتعاد عنهن، بأن كفروا عنها وتابوا إلى ربهم فحنثهم مغفور لهم لأنه - سبحانه - غفور لمن تاب من بعد ظلمه وأصلح، رحيم بعباده فى كل أوامره وتكاليفه.

وجواب الشرط فى قوله ﴿ وإن عزموا الطلاق﴾ محذوف والتقدير وإن عزموا الطلاق فقد وجب عليهم ما اعتزموه، والطلاق منصوب على نزع الخافض لأن عزم يتعدى بعلى.

وفى قوله : ﴿فإن الله سميع عليم﴾ وعيد شديد لمن يحلف على ترك مباشرة امرأته أو يمسكها بقصد إيذائها ومضارتها.

أى فإن الله - تعالى - سميع لكل ما كان من الزوج الحالف، عليم بما يقع منه من مضار أو غيرها، وسيجزيه يوم القيامة بما يستحقه.

قال القرطبى ما ملخصه : وقد جعل الله للزوج مدة أربعة أشهر فى تأديب المرأة بالهجر، وقد آلى النبى ﷺ من أزواجه شهرا تأديبا لهن - عندما طالبنه بزيادة النفقة - وقد قيل : الأربعة الأشهر هى التى لا تستطيع أن تصبر عنه أكثر منها، وقد روى أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - سأل بعض النساء عن مقدار صبر المرأة عن زوجها فقلن أربعة أشهر، فجعل عمر مدة الرجل فى الغزو أربعة أشهر، فإذا مضت أربعة أشهر استرد الغازين ووجه بقوم آخرين، وهذا - والله أعلم - يقوى اختصاص مدة الإيلاء بأربعة أشهر»(١).

وعلى أية حال فإن الطبائع تختلف فى مثل هذه الأمور، والأربعة الأشهر مدة كافية ليختبر الرجل نفسه وميوله، فإما أن يعود إلى معاشرة زوجه بالطريقة التى شرعها الله، وإما أن تعاد إلى الزوجة حريتها بالطلاق، ليبدأ كلاهما حياة زوجية جديدة مع شخص آخر. فذلك أكرم

---

(١) تفسير القرطبى جـ٣ صفحة ١٠٧ بتصرف وتلخيص.

للزوجة وأعف وأصون، وأنفع للرجل كذلك وأشرف. وقد اختار الله هذه المدة وهو الأعلم بحكمة اختياره فعلينا أن نتقبل ما شرعه لنا طائعين خاشعين.

هذا وجمهور - العلماء على أن الطلاق لا يقع بانتهاء هذه المدة، وإنما بانتهائها يأمره الحاكم بالفيئة، فإن تقبل أمر الحاكم بالرضا أمهله مدة يمكنه الفيئة فيها، وإن لم يتقبله بالرضا أمره بالطلاق، فإن طلق فبها وإلا طلقها الحاكم منه.

وعليه فإن الفاء فى قوله - تعالى - : ﴿فإن فاءو﴾ لترتيب الحكم الذى يحصل بعد مدة التربص.

وقال الأحناف إن الطلاق يقع بمجرد انتهاء هذه المدة وهى الأربعة الأشهر، والرجوع إنما يكون خلالها فلا زيادة فوقها، ويكفى فى مراجعته لنفسه تلك المدة، ومادام لم يرجع إلى معاشرة امرأته خلالها فقد آثر فراقها، ولا يصح أن نعطيه أية مهلة من الوقت بعدها. وعليه تكون الفاء عندهم للتفصيل، أى تفصيل ما يحصل من الزوج فى هذه المدة.

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد نهت المسلم عن اتخاذ الحلف بالله حاجزًا بينه وبين فعل الخير، ، وأمرته بأن يحفظ لسانه عن الإكثار من الحلف بالله فى الأمور الصغيرة والكبيرة، وحذرته من تعمد الأيمان الكاذبة التى تؤدى إلى غضب الله - تعالى - لأن اليمين الكاذبة الفاجرة من كبائر الذنوب، وحذرته كذلك من أن يهجر زوجته بقصد إيذائها والإضرار بها، لأن الحياة الزوجية يجب أن تقوم على المودة والرحمة، وأرشدته إلى أن أقصى مدة لهجر الزوجة بقصد تأديبها وعلاج اعوجاجها هى أربعة أشهر يراجع فيها نفسه، فإما أن يعود اليها ويكفر عن يمينه، وإما أن يقع بينهما الفراق ﴿وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته﴾.

وبهذه الأحكام السامية يكون الإسلام قد شرع للرجل والمرأة ما ينفعهما ويصون كرامتهما، ويحفظ لهما حريتهما وحسن استمتاعهما بالحياة.

ثم ساقت السورة فى خمس آيات أحكام الطلاق، وفصلت أحواله، وبينت مراته، وذكرت ما ينبغى أن يكون عليه من عدل وتسامح حتى لا يقع ظلم أو جور على أحد الزوجين. استمع إلى القرآن الكريم وهو يبين ذلك بأسلوبه الحكيم المؤثر فيقول:

وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ

فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ
وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ
فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن
تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ
ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ
بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ
زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن
يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾
وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ
سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ
ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟
نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ
يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾
وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ
أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ
مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ
يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

وقوله - تعالى - : ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ معطوف على ما قبله لشدة المناسبة، وللاتحاد فى الحكم وهو التربص الذى سبقت الإشارة إليه فى قوله ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر﴾.

والتربص : التأنى والتريث والانتظار.

والقروء : جمع قرء - بضم القاف وفتحها -.

قال الطبرسى : وأصله فى اللغة يحتمل وجهين :

أحدهما : الاجتماع ومنه القرآن لاجتماع حروفه.. فعلى هذا يقال أقرأت المرأة فهى مقرىء إذا حاضت، وذلك لاجتماع الدم فى الرحم.

والوجه الثانى : أن أصل القرء الوقت الجارى فى الفعل على عادة، يقال : هذا قارىء الرياح أى وقت هبوبها»[1].

والمعنى : أن على المطلقات أن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء بدون نكاح ثم لها أن تتزوج بعد ذلك إن شاءت.

والمراد بالمطلقات هنا المدخول بهن من ذوات الحيض غير الحوامل، لأن غيرهن قد بين الله - تعالى - عدتهن فى مواضع أخرى.

والمتوفى عنها زوجها بين الله عدتها بقوله : ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزاجًا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرًا﴾[2].

ومن لا يحضن ليأس من الحيض، أو لأنهن لم يرين الحيض فقد بين الله - تعالى - عدتهن بقوله : ﴿واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر، واللائى لم يحضن﴾[3] أى : واللائى لم يحضن فعدتهن كذلك ثلاثة أشهر.

وذوات الحمل بين الله - تعالى - عدتهن بقوله : ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾[4].

وغير المدخول بها لا عدة عليها لقوله -تعالى- : ﴿يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها﴾[5].

---

(١) تفسير «مجمع البيان» جـ ٢ صفحة ٢٢٦ للطبرسى.
(٢) سورة البقرة الآية ٢٣٤
(٣) و (٤) سورة الطلاق الآية ٤.
(٥) سورة الأحزاب الآية ٤٩.

وقوله : ﴿يتربصن بأنفسهن﴾ جملة خبرية اللفظ إنشائية المعنى أى «ليتربصن» وإخراج الأمر فى صورة الخبر - كما يقول الزمخشرى - «تأكيد للأمر، وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله، فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص. فهو يخبر عنه موجودًا. ونحوه قولهم فى الدعاء : «رحمك الله» أخرج فى صورة الخبر ثقة بالاستجابة. كأنما وجدت الرحمة فهو يخبر عنها وبناؤه على المبتدأ مما زاده أيضًا فضل توكيد. ولو قيل : «ويتربص المطلقات» لم يكن بتلك الوكادة»(١).

وفى قوله - تعالى - : ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن﴾ ما فيه من الابداع فى الإشارة والنزاهة فى العبارة والسمو فى المعنى، وذلك لأن المرأة المطلقة كثيرًا ما تشعر بعد طلاقها بأنها فى حاجة إلى أن تثبت أن إخفاقها فى حياتها الزوجية السابقة ليس لنقص فيها، أو لعجز عن إنشاء حياة زوجية أخرى، وهذا الشعور قد يدفعها إلى التسرع والاندفاع من أجل إنشاء هذه الحياة، وهنا تبرز طريقة القرآن الحكيمة فى معالجة النفوس، إنه يقول للمطلقة : إن التطلع إلى إنشاء حياة زوجية أخرى ليس عيبًا، ولكن الكرامة توجب عليها الانتظار والتريث، إذ لا يليق بالحرة الكريمة أن تتنقل بين الأزواج تنقلا سريعا . وأيضًا فإن نداء الفطرة، وتعاليم الشريعه توجبان عليها الانتظار مدة ثلاثة قروء، لكى تستبرىء رحمها، حتى إذا كان هناك حمل نسب إلى الأب الشرعى له.

وفى قوله - تعالى - : ﴿يتربصن بأنفسهن﴾ إشعار بأن هذا التربص يجب أن يكون من ذات أنفسهن وليس من عامل خارجى، فشأن الحرة الكريمة المؤمنة أن تحجز نفسها بنفسها عن كل ما يتنافى مع الكرامة والشرف، فقد تجوع الحرة ولكنها لا تأكل بثديها - كما يقولون -.

وقد أشار صاحب الكشاف إلى المعنى بقوله : فإن قلت وما معنى ذكر الأنفس - هنا - ؟ قلت : فى ذكر الأنفس تهييج لهن على التربص وزيادة بعث، لأن فيه ما يستنكفن منه فيحملهن على أن يتربصن. وذلك أن أنفس النساء طوامح إلى الرجال. فأمرن أن يقمعن أنفسهن، ويغلبنها على الطموح، ويجبرنها على التربص»(٢).

وقوله - تعالى - : ﴿ثلاثة قروء﴾ نصب ثلاثة على النيابة عن المفعول فيه، لأن الكلامَ على تقدير مضاف، أى مدة ثلاثة قروء. فلما حذف المضاف خلفه المضاف إليه فى الإعراب.

هذا وللعلماء رأيان شهيران فى المراد بقوله - تعالى - : ﴿ثلاثة قروء﴾.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ صفحة ٢٧١.
(٢) تفسير الكشاف جـ١ صفحة ٢٧١.

فالأحناف والحنابلة ومن قبلهم عمر وعلى وابن مسعود وغيرهم يرون أن المراد بالقروء هنا الحيضات والمعنى عندهم : أن المطلقات عليهن أن يمكثن بعد طلاقهن من أزواجهن مدة ثلاث حيضات بدون زواج ثم بعد ذلك لهن أن يتزوجن إن شئن.

ومن أدلتهم : ان النبى ﷺ قد فسر القرء بمعنى الحيض فقد جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود والنسائى عن فاطمة بنت أبى حبيش أن رسول الله ﷺ قال لها : «دعى الصلاة أيام أقرائك»[١].

ولا شك أن المراد بالقرء فى هذا الحديث الحيض، لأنه هو الذى لا تصح معه الصلاة.

أما المالكية والشافعية ومن قبلهم عائشة وعبد الله بن عمر وزيد بن ثابت والزهرى وغيرهم فيرون أن المراد بالقروء هنا الأطهار، أى الأوقات التى تكون بين الحيضتين للنساء.

ومعنى الآية عندهم : أن على المطلقات أن يمكثن بعد طلاقهن من أزواجهن ثلاثة أطهار بدون زواج ثم بعد ذلك يتزوجن إذا شئن.

ومن أدلتهم : أن الله - تعالى - يقول : ﴿فطلقوهن لعدتهن﴾ وقد بينت السنة النبوية أن الطلاق لا يكون فى الحيض، فلا يتصور أن يكون الطلاق فى العدة إلا إذا فسرنا القرء بالطهر لا بالحيض. وروى عن عائشة أنها قالت : هل تدرون الأقراء؟ الأقراء الأطهار[٢].

قال صاحب المنار قال الأستاذ الإمام : والخطب فى الخلاف سهل، لأن المقصود من هذا التربص العلم ببراءة الرحم من الزوج السابق، وهو يحصل بثلاث حيض كما يحصل بثلاث أطهار. . ومن النادر أن يستمر الحيض إلى آخر الحمل فكل من القولين موافق لحكمة الشرع فى المسألة[٣].

ثم قال - تعالى - : ﴿ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن﴾. أى : ولا يحل للنساء المطلقات أن يكتمن أمانة الله التى خلقها فى أرحامهن من ولد لكى ينسبنه إلى غير أبيه، أو من حيض أو طهر لكى تطول العدة، ويمتد الإنفاق من الأزواج عليهن. فإن هذا الكتمان كذب على الله، وخيانة للأمانة التى أودعها الله فى أحشائهن وأمرهن بالوفاء بها، سيحاسب الله من يفعل ذلك منهن حسابًا شديدًا، ويعاقبه عقابًا أليمًا.

وقوله : ﴿إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ تحريض لهن على عدم الكتمان وعلى الاخبار

---

(١) تفسير الألوسى جـ٢ صفحة ١٣١.
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ٦ صفحة ٩٤.
(٣) تفسير المنار جـ١ صفحة ٢٧١.

الصادق حتى تستقيم الأحكام، وتتقرر الحقوق، وتحذير لهن من الكتمان ومن اتباع الهوى والشيطان أى : أن على المطلقات ألا يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن إن جرين على ما يقتضيه الإيمان، إذ الإيمان يبعث على الصدق ويدعو إلى المحافظة على الأمانة، فإن لم يفعلن ذلك وكتمن ما خلق الله فى أرحامهن، كن ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر إيمانا حقيقيًا، لأن من شأن المؤمنات الكاملات فى إيمانهن ألا يفعلن ذلك.

قال الإمام الرازى : أما قوله ﴿إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ فليس المراد أن ذلك النهى - عن الكتمان - مشروط بكونها مؤمنة، بل هذا كما تقول للرجل الذى يظلم : إن كنت مؤمنا فلا تظلم. تريد إن كنت مؤمنًا فينبغى أن يمنعك إيمانك عن ظلمى، ولا شك أن هذا تهديد شديد للنساء. . والآية دالة على أن كل من جعل أمينًا فى شىء فخان فيه فأمره عند الله شديد»[1].

هذا، وقد قرر الفقهاء أن القول فيما يتعلق بعدة المرأة ابتداء وانتهاء مرجعه إليها، لأنه أمر يتعلق بها ولا يعلم إلا من جهتها، إلا أنهم مع ذلك قرروا مدة ينتهى قولها عنده، ولا يعمل بقولها إن نقصت عن تلك المدة. فلو ادعت - أنها قد انقضت عدتها بعد شهر من طلاقها لا يقبل قولها.

وللفقهاء كلام طويل فى هذه المسألة مبسوط فى كتب الفقه فليرجع إليه من شاء ذلك.

ثم قال - تعالى - : ﴿وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أرادوا إصلاحًا﴾.

قال القرطبى : البعولة جمع البعل وهو الزوج، سمى بعلا لعلوه على الزوجة بما قد ملكه من زوجيتها، ومنه قوله - تعالى - : ﴿أتدعون بعلا﴾ أى ربًا، لعلوه فى الربوبية. . والبعولة أيضًا مصدر البعل. وبعل الرجل يبعل - كمنع يمنع - أى صار بعلا. والمباعلة والبعال : الجماع، ومنه قوله ﷺ لأيام التشريق : «إنها أيام أكل وشرب وبعال»[1].

والمعنى : وأزواج المطلقات طلاقًا رجعيًا أحق بردهن ومراجعتهن فى ﴿ذلك﴾ أى فى وقت التربص قبل انقضاء العدة ﴿إن أرادوا إصلاحًا﴾ أى إن أرادوا بهذه المراجعة الإصلاح لا الإضرار، كما سيأتى فى قوله - تعالى - : ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارًا لتعتدوا﴾.

قال القرطبى : وأجمع العلماء على أن الحر إذا طلق زوجته الحرة وكانت مدخولا بها تطليقة أو

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٦ صفحة ٩٨.
(٢) تفسير القرطبى جـ٣ صفحة ١١٩ - بتلخيص.

تطليقتين، أنه أحق برجعتها مالم تنقض عدتها وإن كرهت المرأة، فإن لم يراجعها المطلق حتى انقضت عدتها فهى أحق بنفسها وتصير أجنبية منه، ولا تحل له إلا بخطبة ونكاح مستأنف بولى وإشهاد ليس على صفة المراجعة، وهذا اجماع من العلماء»[1].

وفى هذه الجملة الكريمة بيان لبعض الحكم السامية التى أرادها الله - تعالى - من وراء مشروعية العدة. فالله - تعالى - جعل للمطلق فرصة - هى مدة ثلاثة قروء - لكى يراجع نفسه، ويتدبر أمره، لعله خلال هذه المراجعة وذلك التدبر يرى أن الخير فى بقاء زوجته معه فيراجعها، رعاية لرابطة المودة والرحمة التى جعلها الله - تعالى - بين الزوجين.

وقوله - تعالى - : ﴿إن أرادوا إصلاحًا﴾ شرط المقصود منه حض المطلق على أن ينوى بإرجاعه لمطلقته إصلاح أحوالهما، بإرشادها إلى ما من شأنه أن يجعل حياتهما الزوجية مستمرة لا منقطعة، أما إذا راجعها على نية الكيد والأذى والمضارة ففى هذه الحالة يكون آثمًا وسيعاقبه الله على ذلك بما يستحقه.

قال الآلوسى : وليس المراد من التعليق اشتراط جواز الرجعة بإرادة الإصلاح حتى لو لم يكن قصده لا تجوز، للإجتماع على جوازها مطلقًا، بل المراد تحريضهم على قصد الإصلاح حيث جعل كأنه منوط به ينتفى بانتفائه»[2].

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم﴾.

أى : وللنساء على الرجال مثل ما للرجال على النساء. فليؤد كل واحد منهما إلى الآخر ما يجب عليه نحوه بالمعروف.

والمراد بالمماثلة - كما يقول الآلوسى - المماثلة فى الوجوب لا فى جنس الفعل، فلا يجب عليه إذا غسلت ثيابه أو خبزت له أن يفعل لها مثل ذلك، ولكن يقابله بما يليق بالرجال»[3].

أى أن الحقوق والواجبات بينهما متبادلة، وأنهما متماثلان فى أن كل واحد منهما عليه أن يؤدى نحو صاحبه ما يجب عليه بالمعروف أى بما عرفته الطباع السليمة ولم تنكره، ووافق ما أوجبه الله على كل منهما فى شريعته. فالباء فى قوله ﴿بالمعروف﴾ للملابسة.

وقد بين النبى ﷺ فى أحاديث متعددة حقوق الرجال على النساء، وحقوق النساء على الرجال، ومن ذلك ما أخرجه مسلم فى صحيحه عن جابر بن عبد الله أن رسول ﷺ قال فى

---

(١) تفسير القرطبى جـ٣ صفحة ١٢٠.

(٢) و(٣) تفسير الآلوسى جـ٢ صفحة ١٣٤.

خطبته فى حجة الوداع : اتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله. واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه. فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مبرح، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف».

وروى الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : لا يحل لا مرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه، ولا تأذن فى بيته إلا بإذنه»

وأخرج أبو داود عن معاوية بن حيدة قال : قلت يارسول الله، ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال : أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا فى البيت».

ولقد قام السلف الصالح بأداء هذه الحقوق على أحسن وجه فقد روى عن ابن عباس أنه قال : إنى لأحب أن أتزين لا مرأتى كما تتزين لى لأن الله. تعالى - يقول : ﴿ولهن مثل الذى عليهم بالمعروف﴾.

أى : أن يحب أن يؤنسها وأن يدخل السرور على قلبها كما أنها هى تحب أن تفعل له ذلك.

ولكن لا يفهم أحد أن المراد بهذا المثلية المساواة من كل الوجوه قال - تعالى - : ﴿وللرجال عليهن درجة﴾ والرجال : جمع رجل. يقال : رجل بين الرجلة أى القوة. وهو أرجل الرجلين أى أقواهما. وفرس رجيل أى قوى على المشى. وارتجل الكلام أى قوى عليه من غير حاجة فيه إلى فكرة وروية، وترجل النهار أى قوى ضياؤه. فأصل كلمة الرجل مأخوذة من الرجولية بمعنى القوة.

والدرجة فى الأصل : ما يرتقى عليه من سلم ونحوه، والمراد بها هنا المزية والزيادة أى : لهن عليهم مثل الذى لهم عليهن، وللرجال على النساء مزية وزيادة فى الحق، بسبب حمايتهم لهن، وقيامهم بشئونهن ونفقتهن وغير ذلك من واجبات.

قال بعض العلماء : وإذا كانت الأسرة لا تتكون إلا من ازدواج هذين العنصرين - الرجل والمرأة - فلابد أن يشرف على تهذيب الأسرة ويقوم على تربية ناشئتها وتوزيع الحقوق والواجبات فيها أحد العنصرين. وقد نظر الإسلام إلى هذا الأمر نظرة عادلة، فوجد أن الرجل أملك لزمام نفسه، وأقدر على ضبط حسه، ووجده الذى أقام البيت بماله وأن انهياره خراب عليه فجعل له الرياسة، ولذا قال - سبحانه - : ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم...﴾.

هذه هى الدرجة التى جعلها الإسلام للرجل، وهى درجة تجعل له حقوقًا وتجعل عليه

واجبات أكثر، فهى موائمة كل المواءمة لصدر الآية، فإذا كان للرجل فضل درجة فعليه فضل واجب»[١].

وقوله: ﴿والله عزيز حكيم﴾ أى غالب فى انتقامه ممن عصاه، حكيم فى أمره وشرعه وسائر ما يكلف به عباده. فعلى الرجل والمرأة أن يطلبا عزهما فيما شرعه الله فهو الملجأ والمعاذ لكل ذى حق مهضوم، وعليهما كذلك أن يتمسكا بما كلفهما به، لأنه ما كلفهما إلا بما تقتضيه الحكمة، ويؤيده العقل السليم.

وبعد أن بين - سبحانه - فى هذه الآية شرعية الطلاق ومداه إذا طلق الرجل امرأته المدخول بها طلقة رجعية، ووضع المنهاج العادل الذى يجب أن يتبعه الرجال والنساء.. بعد أن بين ذلك أتبعه ببيان الحد الذى ينتهى عنده ما للرجل من حق المراجعة فقال - تعالى -: ﴿الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾.

قال الإمام ابن كثير: هذه الآية رافعة لما كان عليه الأمر فى ابتداء الإسلام: من أن الرجل كان أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة ما دامت فى العدة، فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات، قصرهم الله - تعالى - على ثلاث طلقات، وأباح الرجعة فى المرة والثنتين، وأبانها بالكلية فى الثالثة فقال: الطلاق مرتان... الآية[٢].

وروى ابن أبى حاتم عن هشام بن عروة عن أبيه أن رجلا قال لامرأته: لا أطلقك أبدًا ولا آويك أبدًا. قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلق حتى إذا دنا أجلك - أى قاربت عدتك أن تنتهى - راجعتك. فأتت المرأة إلى رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك فأنزل الله - تعالى -: ﴿الطلاق مرتان﴾ - الآية.

والطلاق - كما يقول القرطبى - هو حل العصمة المنعقدة بين الأزواج بألفاظ مخصوصة. وأل فى قوله: ﴿الطلاق مرتان﴾ للعهد الذكرى.

أى: الطلاق الرجعى المشار إليه فى قوله - تعالى -: ﴿والمطلقات يتربصن﴾ مرتان، وأمر المطلق بعد آحدى هاتين الطلقتين يدور بين حالتين إما إمساك بمعروف بمعنى أن يراجعها على نية الإبقاء على العلاقة الزوجية، والمعاملة الحسنة وإما تسريح بإحسان بمعنى أن يتركها حتى تنتهى عدتها، ويطلق سراحها بدون ظلم أو إساءة إليها، كما قال - تعالى -: ﴿وسرحوهن سراحًا جميلا﴾.

---

(١) تفسير القرآن الكريم لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبوزهرة. مجلة لواء الإسلام السنة السادسة العدد٣
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٧١

قال القرطبى : والتسريح : إرسال الشيء، ومنه تسريح الشعر ليخلص البعض من البعض، وسرح الماشية أرسلها. . »

وعلى هذا التفسير يكون المراد بالطلاق فى الآية الطلاق الرجعى وبالمرتين حقيقة التثنية، ويكون وقت الإمساك أو التسريح هو ما بعد الطلقة الأولى أو الثانية بصفة خاصة، وفى كل الأوقات بصفة عامة. وعلى هذا التفسير سار كثير من العلماء.

ويرى بعضهم أن المراد بالطلاق فى الآية الطلاق الشرعى، وبالمرتين التكرار لا العدد، وأن المراد من التسريح بالإحسان هو الطلقة الثالثة، أى بعد الطلقتين الأولين يتروى فى الأمر فيمسك بالمعروف أو يطلق الطلقة الثالثة. وقد ذكر هذا الرأى صاحب الكشاف فقال :

﴿الطلاق﴾ بمعنى التطليق كالسلام بمعنى التسليم، أى التطليق الشرعى تطليقة بعد تطليقة على التفريق دون الجمع والإرسال دفعة واحدة، ولم يرد بالمرتين التثنية ولكن التكرير، كقوله «ثم ارجع البصر كرتين» أى كرة بعد كرة لا كرتين اثنتين، ونحو ذلك من التثانى التى يراد بها التكرير كقولهم : لبيك وسعديك. . وقوله : ﴿فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ تخيير لهم بعد أن علمهم كيف يطلقون بين أن يمسكوا النساء بحسن العشرة وبين أن يسرحوهن السراح الجميل الذى علمهم إياه. . وروى أن سائلا سأل النبى ﷺ أرأيت قول الله - تعالى - : ﴿الطلاق مرتان﴾ فأين الثالثة، فقال ﷺ «التسريح بإحسان»[(١)].

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿فإمساك. .﴾ للتفريع، وإمساك خبر لمبتدأ محذوف والتقدير : فالشأن أو فالأمر إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان.

قال الفخر الرازى : والحكمة فى إثبات حق الرجعة : أن الإنسان ما دام يكون مع صاحبه لا يدرى أنه هل تشق عليه مفارقته أولا ؟ فإذا فارقه فعتد ذلك يظهر، فلو جعل الله - تعالى - الطلقة الواحدة مانعة من الرجوع لعظمت المشقة على الإنسان بتقدير أن يظهر المحبة بعد المفارقة، ثم لما كان كمال التجربة لا يحصل بالمرة الواحدة، فلا جرم أثبت - سبحانه - حق المراجعة بعد المفارقة مرتين، وعند ذلك يكون قد جرب الإنسان نفسه فى تلك المفارقة مرتين وعرف حال قلبه فى ذلك الباب. فإن كان الأصلح إمساكها راجعها وأمسكها بالمعروف، وإن كان الأصلح له تسريحها سرحها على أحسن الوجوه، وهذا التدريج والترتيب يدل على كمال رحمته ورأفته بعباده».

هذا، ويرى بعض العلماء كابن تيمية وابن القيم أن الرجل إذا أوقع الطلاق دفعة واحدة،

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٧٣.

بأن قال لزوجته أنت طالق ثلاث مرات، فطلاقه لا يكون إلا طلقة واحدة، لأن اقتران الطلاق بكلمة ثلاثا لا يجعله ثلاث مرات بل هو مرة واحدة كمن يقول: أحلف بالله ثلاثًا فهو يمين واحدة.

ويرى الأئمة الأربعة أن طلاق هذا الرجل فى مثل هذه الصورة يقع ثلاثًا، لأنهم يرون أن الطلاق المقترن بالعدد لفظًا أو إشارة يكون ثلاثًا أو اثنين على حسب ما اقترن به. ولأن عمر - رضى الله عنه - أفتى بذلك. فقد أخرج مسلم وأبو داود والنسائى والحاكم عن ابن عباس قال: «كان الطلاق الثلاث على عهد رسول الله ﷺ وعلى عهد أبى بكر، وسنتين من خلافة عمر واحدة، فقال عمر: إن الناس قد استعجلوا فى أمر لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم» فأمضاه.

وهذه المسألة مبسوطة بأدلتها فى كتب الفقه وبعض كتب التفسير.

ثم قال - تعالى -: ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئًا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله، فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾.

قال الراغب: الخوف: توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة، كما أن الرجاء والطمع توقع محبوب عن أمارة مظنونة أو معلومة. ويضاد الخوف الأمن..».

والجناح: الإثم من جنح بمعنى مال عن القصد - وسمى الآثم به للميل فيه من الحق إلى الباطل -. يقال جنحت السفينة أى مالت إلى أحد جانبيها. والافتداء: تخليص النفس بمال يبذل لتخليصها ودفع الأذى عنها. وأصله من الفدى والفداء بمعنى حفظ الإنسان نفسه عن الشدة بما يبذله من أجل ذلك[1].

والمعنى: ولا يجوز لكم أيها المطلقون أن تأخذوا من زوجاتكم فى مقابلة الطلاق شيئًا مما أعطيتموهن من صداق أو من غيره من أموال، لأن هذا الأخذ يكون من باب الظلم الذى نهى الله عنه، وليس من باب العدل الذى أمر الله به.

ثم استثنى - سبحانه - صورة يجوز فيها الأخذ فقال: ﴿إلا أن يخافا﴾. إلخ أى: لا يجوز لكم أن تأخذوا فى حالة من الأحوال إلا فى حالة أن يخاف الزوجان كلاهما أو أحدهما ألا يقيما حدود الله ففى هذه الحالة يجوز الأخذ وحدود الله هى ما أوجبه - سبحانه للرجل على زوجته. ولها عليه.

ثم خاطب - سبحانه - الحكام وجماعة المؤمنين المتوسطين للإصلاح بين الزوجين فقال:

---

(١) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى من ص ١٦١، ص ١٠٠، ص ٣٧٤

﴿فإن خفتم ألا يقيما﴾ أى الزوجان ﴿حدود الله﴾ التى حدها لهم وأمرهم باتباعها فى حياتهم الزوجية «فلا جناح عليهما فيما افتدت به» أى: فلا إثم على الزوج فى أخذ ما أعطته له الزوجة من مال مقابل انفصالها عنه، ولا إثم عليها كذلك فى هذا الإعطاء، لأنهما ما داما قد وصلا إلى هذه الحالة من التنافر، وما دامت الزوجة قد أصبحت تفضل أن تعطيه من المال ما تفدى به نفسها من البقاء فى عصمته، ما داما قد أصبحا كذلك. فوقوع الفراق بينهما أولى وأجدى ﴿وإن يتفرقا يغنى الله كلا من سعته﴾

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: لمن الخطاب فى قوله: ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا﴾ إن قلت: إنه للأزواج لم يطابقه قوله: ﴿فإن خفتم ألا يقيما حدود الله﴾ وإن قلت إنه للأئمة والحكام فهؤلاء ليسوا بآخذين منهن ولا بمؤتيهن؟ قلت: يجوز الأمران جميعًا: أن يكون أول الخطاب للأزواج وآخره للأئمة والحكام، ونحو ذلك غير عزيز فى القرآن وغيره. ويجوز الخطاب كله للائمة والحكام، لأنهم الذين يأمرون بالأخذ والإيتاء عند الترافع إليهم فكأنهم الآخذون والمؤتون»[1].

والمراد بقوله: ﴿مما آتيتموهن﴾ أى من المهور وتخصيصها بالذكر وإن شاركها فى الحكم سائر أموالهن إما لرعاية العادة وإما للتنبيه على أنه إذا لم يحل لهم أن يأخذوا مما أعطوهن فى مقابلة البضع عند خروجه عن ملكهم فلأن لا يحل لهم أن يأخذوا مما لا تعلق له بالبضع أولى وأحرى.

وقوله: ﴿شيئًا﴾ مفعول به لتأخذوا. التنوين للتقليل أى: لا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئًا ولو كان المأخوذ شيئًا غاية فى القلة، لأن هذا الأخذ يجا فى الإحسان الذى أمرتم به. وقريب من هذه الآية فى النهى عن الأخذ قوله - تعالى -:

﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئًا، أتأخذونه بهتانًا وإثمًا مبينًا﴾.

وأن والفعل فى قوله ﴿إلا أن يخافا﴾ فى موضع نصب على الحال أى إلا خائفين.

وقوله: ﴿أن لا يقيما﴾ فى موضع نصب على المفعول به ليخافا والتقدير إلا أن يخافا ترك حدود الله.

وهذه الآية قد اعتبرها العلماء أصلا فى جواز الخلع.

قال ابن كثير: وقد ذكر ابن جرير: أن هذه الآية نزلت فى شأن ثابت بن قيس، ففى

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٧٤.

صحيح البخارى عن ابن عباس : أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبى ﷺ فقالت : يا رسول الله إن زوجى ثابت بن قيس - ما أعيب عليه فى خلق ولا دين، ولكن أكره الكفر فى الإسلام - أى أكره عدم الوفاء بحقه لبغضى له -. فقال لها رسول الله ﷺ أتردين عليه حديقته؟ - وهى المهر الذى أمهرها - قالت : نعم، قال رسول الله ﷺ لثابت : اقبل الحديقة وطلقها تطليقة»[1].
قالوا : ففرق رسول الله ﷺ بينهما بطريق الخلع فكان أول خلع فى الإسلام.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾.

أى : تلك الأحكام العظيمة الحكيمة المتقدمة التى بينتها لكم فى شأن الطلاق والرجعة والخلع وغير ذلك حدود الله التى حدها، فلا يجوز لكم أن تخالفوها، ومن يتعد هذه الحدود فأولئك هم الظالمون لأنفسهم بتعريضها لسخط الله وعقابه.

وكانت الإشارة للبعيد ﴿تلك﴾ لبيان سمو قدر هذه الأحكام، وعظم منزلتها، وجلال ما فيها من مصالح واضحة لأصحاب العقول السليمة.

وسميت هذه الأحكام حدودًا للإشارة إلى أنها فواصل بين الحق والباطل، والظلم والعدل والمنفعة والمضرة. إذ الحد هو الحاجز بين الشيئين الذى يمنع اختلاط أحدهما بالآخر. يقال : حددت كذا أى جعلت له حدًا يميزه. وحد الدار ما تتميز به عن غيرها..

وفى إضافة هذه الحدود إليه - سبحانه - إشعار بأن مخالفتها إنما هى مخالفة له - سبحانه - وأن هذه الحدود لا يتطرق إليها الريب لأنها صادرة من العليم الخبير الذى أحسن كل شىء خلقه.

والفاء فى قوله : ﴿فلا تعتدوها﴾ للتفريع أى : إذا كانت هذه الأحكام حدود الله فلا يصح لكم أن تتجاوزوها لأن تجاوزها يؤدى إلى سوء العقبى.

وعبر فى قوله : ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ بفاء السببية وباسم الإشارة وبضمير الفصل وبالجملة الاسمية لتأكيد معنى السببية وللإشارة إلى أن الظلم شأن من شئونهم وصفة يتميزون بها عن غيرهم.

وقد جاء - سبحانه - بكل هذه المؤكدات فى تلك الجملة الكريمة لكبح جماح غرور الإنسان، وتحذيره من الانقياد لهواه وأوهامه، فكثيرًا ما يتوهم بعض الناس أن أحكام الله ليست ملائمة لمقتضى الزمان الذى يعيشون فيه، ويحاولون إخضاع شرع الله - تعالى -

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٧٤.

لمصالحهم وشهواتهم، أو يتركون ما شرعه الله بتلك الحجة الواهية الساقطة. وأنت ترى هنا أن القرآن قال: ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها...﴾ بينما قال هناك فى ختام آية الصوم ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها..﴾[1] وذلك لأن الكلام هنا فى شأن الأسرة وما يسودها أحيانًا من خلافات، واصطدامات، واضطرابات.. والخشية هنا إنما هى من تعدى هذه الحدود التى حدها الله فى أى مرة من مرات هذا الخلاف.. فجاء التحذير من التعدى لا من المقاربة، بينما هناك كان الحديث عن محظورات مشتهاة مستلذة تريدها النفس لترضى شهوتى البطن والفرج، فجاء التحذير من مجرد الاقتراب من هذه الحدود التى حدها الله إتقاء لضعف الإرادة أمام جاذبيتها.

فسبحان من هذا كلامه ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا﴾.

ثم بين - سبحانه - أحكام الطلاق المكمل للثلاث، بعد بيانه لأحكام الطلاق الرجعى وأحكام الخلع فقال - تعالى - : ﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجًا غيره﴾.

أى: فإن طلق الرجل زوجته طلقة ثالثة بعد الطلقتين اللتين أباح الله له مراجعتها بعد كل منهما فى أثناء العدة، فإنه فى هذه الحالة تكون زوجته محرمة عليه، ولا تحل له حتى تنكح زوجًا غيره نكاحًا شرعيًا صحيحًا، بأن يدخل بها، ويباشرها مباشرة شرعية كما يباشر الأزواج زوجاتهم.

فالمراد بالنكاح فى قوله تعالى ﴿حتى تنكح زوجًا غيره﴾ الزواج بشخص آخر يدخل بها دخولا صحيحًا. ويؤيد هذا المعنى ويؤكده ما جاء فى الحديث المشهور الذى أخرجه البخارى وغيره عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: جاءت امرأة رفاعة القرظى إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن رفاعة طلقنى فبت طلاقى. وإنى نكحت بعده عبد الرحمن بن الزبير القرظى، وإن ما معه مثل الهدبة، فقال رسول الله ﷺ: لعلك تريدين أن ترجعى إلى رفاعة؟ لا حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك»[2].

وواضح من ذوق العسيلة أن يدخل بها ويجامعها. وعلى هذا انعقد إجماع الفقهاء. ولم يلتفتوا إلى ما نسبه بعضهم إلى سعيد بن المسيب من أنه أجاز للمرأة أن تعود إلى زوجها الأول بعد عقد زواجها على الثانى دون أن يدخل بها. وحملوا هذا المنسوب إلى سعيد بن المسيب على أنه من شواذ الفتيا التى لا وزن لها لمخالفتها لنص حديث صحيح لعله لم يبلغه.

---

(١) الآية ١٨٧ من هذه السورة.
(٢) صحيح البخارى فى كتاب الطلاق الثلاث جـ ٧ ص ٥٥.

ثم قال - تعالى - : ﴿فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله﴾ أى : فإن طلق الزوج الثانى تلك المرأة التى سبق طلاقها من الزوج الأول، فلا إثم عليها وعلى زوجها الأول فى أن يرجع كل منهما إلى صاحبه بعقد جديد بعد انقضاء العدة ما داما يغلب على ظنهما أنهما سيقيمان حدود الله، ويؤدى كل واحد منهما ما يجب عليه نحو صاحبه بأمانة وإخلاص.

وقوله : ﴿أن يتراجعا﴾ فى موضع جر بإضمار حرف الجر أى فى أن يتراجعا وقوله ﴿أن يقيما﴾ فى موضع نصب على أنه سد مسد مفعولى ظن.

قال صاحب الكشاف : ولم يقل : إن علما أنهما يقيمان حدود الله لأن اليقين مغيب عنهما لا يعلمه إلا الله. ومن فسر الظن ها هنا بالعلم فقدوهم ولأن الإنسان لا يعلم ما فى الغد وإنما يظن ظنًا »(١).

ثم ختم - سبحانه - هذه الآية بقوله : ﴿وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون﴾.

أى : وتلك الأحكام المذكورة عن الطلاق وعن غيره مما كلف الله به عباده يبينها ويوضحها بتلك الطرق الحكيمة لقوم يعلمون الحق، ويعملون بمقتضى علمهم.

وبهذا نرى أن الآية الكريمة قد بينت أنه لا يحل للمرأة التى طلقت من زوجها أن تعود إليه بعد الطلقة الثالثة إلا بعد أن تتزوج آخر زواجًا صحيحًا يدخل بها فيه ويجامعها ثم يطلقها وتنقضى عدتها منه.

ومن حكم هذا التشريع الحكيم ردع الأزواج عن الاستخفاف بحقوق زوجاتهم، وزجرهم عن التساهل فى إيقاع الطلاق، فإن الرجل الشريف الطبع، العزيز النفس إذا علم أن زوجته لن تحل له بعد الطلقة الثالثة إلا إذا افترشها شخص آخر توقف عن إيقاع الطلاق، وتباعد عن التسرع والاندفاع وحاول أن يصلح ما بينه وبين أهله بالمعالجة الحكيمة التى تتميز بسعه الصدر وضبط النفس.

هذا، وقد ساق الإمام ابن كثير سبعة أحاديث فى النهى عن نكاح المحلل - وهو أن يعقد رجل على امرأة قد طلقت ثلاثًا من زوجها بقصد إحلالها لهذا الزوج لا بقصد الزواج الدائم ثم يدخل بها دخولا صوريًا وليس شرعيًا - ومن هذه الأحاديث ما رواه الإمام أحمد والترمذى والنسائى عن عبد الله بن مسعود قال : لعن رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له، وآكل الربا وموكله ».

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٧٦ بتلخيص.

وعن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ «ألا أخبركم بالتيس المستعار»؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: هو المحلل لعن الله المحلل والمحلل له».

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ سئل عن نكاح المحلل فقال: لا، إلا نكاح رغبة - لا نكاح دلسة أى لا نكاح غش وتدليس - ولا استهزاء بكتاب الله - ثم يذوق عسيلتها..».

وجاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثًا فتزوجها أخ له من غير مؤامرة منه - أى من غير مشورة ورغبة منه - ليحلها لأخيه فهل تحل للأول؟ فقال: لا إلا نكاح رغبة. كنا نعد هذا سفاحًا على عهد رسول الله ﷺ.

ثم قال ابن كثير: والمقصود أن الزوج الثانى يكون راغبًا فى المرأة قاصدًا لدوام عشرتها كما هو المشروع من التزويج. واشترط الإمام مالك مع ذلك أن يطأها الثانى وطأ مباحًا فلو وطئها وهى محرمة أو صائمة أو معتكفة أو حائض.. لم تحل للأول بهذا الوطء والمراد بالعسيلة الجماع لما رواه الإمام أحمد والنسائى عن عائشة أن رسول الله - ﷺ - قال: «ألا إن العسيلة الجماع»[1].

وبعد أن بين - سبحانه - فى الآية السابقة أن الزوج مخير بين الإمساك والتسريح فى مدة العدة، عقب ذلك ببيان أن هذا التخيير من حقه حتى آخر وقت فى العدة، وذلك لتذكيره بأن الإمساك أفضل من التسريح، وأن عليه ألا يلجأ إلى الطلاق إلا إذا سدت طرق الإصلاح والمعالجة، وأنه إذا اختار الطلاق فعليه أن يسلك فيه طريق الحق والعدل لا طريق الباطل والجور.

قال - تعالى: ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن، فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف، ولا تمسكوهن ضرارًا لتعتدوا، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه﴾.

قال الراغب: الأجل: المدة المضروبة للشىء. قال - تعالى - ﴿لتبلغوا أجلا مسمى..﴾ - أى مدة معينة - والبلوغ والبلاغ الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى مكانًا كان أو زمانًا أو أمرًا من الأمور المقدرة، وربما يعبر به عن المشارفة عليه وإن لم ينته. فمن الانتهاء قوله - تعالى -: ﴿حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة﴾.. وأما قوله: ﴿فبلغن أجهلن فأمسكوهن بمعروف﴾ فللمشارفة فإنها إذا انتهت إلى أقصى الأجل لا يصح للزوج مراجعتها وإمساكها».

والمراد بالأجل هنا عدة المرأة. وببلوغها قرب انتهائها.

والضرار - كما يقول الرازى - هو المضارة. قال - تعالى -: ﴿والذين اتخذوا مسجدًا

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٧٨.

ضرارًا﴾ أى اتخذوا المسجد ضررًا ليضاروا المؤمنين، ومعناه يرجع إلى إثارة العداوة، وإزالة الألفة، وإيقاع الوحشة، وموجبات النفرة».

والمعنى: وإذا طلقتم - أيها المؤمنون - نساءكم طلاقًا رجعيًا، ﴿فبلغن أجلهن﴾ أى فشارفت عدتهن على الانتهاء، وقاربت الانقضاء، فعليكم أن تتدبروا مليا فى أمركم، فإن رأيتم الأصلح فى بقائهن معكم فنفذوا ذلك وأمسكوهن بمعروف. أى بما هو المعروف من شرع الله الحكيم، وبما تقره الأخلاق الحسنة والعقول السليمة. وإن رأيتم أنه لا رغبة لكم فى البقاء معهن فسرحوهن بمعروف أى فأمضوا الطلاق، وتفارقوا بالطريقة التى يرضاها الحق - سبحانه - بأن تؤدوا لهن حقوقهن. ولاتذكروهن بسوء بعد انفصالكم عنهن، فهذا شأن الأتقياء الصالحين فقد سئل بعضهم، لم طلقت امرأتك؟ فقال: إن العاقل لايذكر مابينه وبين أهله.

قال القرطبى: معنى ﴿بلغن﴾ قاربن بإجماع من العلماء، ولأن المعنى يضطر إلى ذلك، لأنه بعد بلوغ الأجل لا خيار له فى الإمساك، وهو فى الآية التى بعدها بمعنى الانتهاء، لأن المعنى يقتضى ذلك، فهو حقيقة فى الثانية، مجاز فى الأولى - أى التى معنا -».

ثم نهى - سبحانه - عن الإمساك الذى يكون معه الضرر فقال. ﴿ولا تمسكوهن ضرارًا لتعتدوا﴾ أى لا تراجعوهن إرادة الضرر بهن والإيذاء لهن لتعتدوا عليهن، والجملة الكريمة تأكيد للأمر بالإمساك بمعروف، وتوضيح لمعناه، وزجر صريح عما كان يفعله بعضهم من مراجعته لامرأته قبل انتهاء عدتها لا لقصد الإبقاء على الزوجية وإنما القصد إطالة عدة الزوجة، أو لقصد أن تفتدى نفسها منه بالمال: و﴿ضرارًا﴾ منصوب على الحال فى تمسكوهن أو على أنه مفعول لأجله. واللام فى قوله: ﴿لتعتدوا﴾ هى لام العاقبة أى لتكون عاقبة أمركم الاعتداء. وحذف متعلق «لتعتدوا» ليتناول الاعتداء عليهن وعلى أحكام الله - تعالى -.

وقوله: ﴿ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه﴾ وعيد شديد لمن يقدم على مانهى الله عنه. أى: ومن يراجع مطلقته بقصد الإضرار بها والاعتداء عليها فقد ظلم نفسه ظلمًا مؤكدًا، لأنه سيعرضها لعقاب الله وسخط الناس.

وجعل ظلمهم لنسائهم ظلمًا لأنفسهم، لأن عملهم هذا سيؤدى إلى اختلال المعاشرة الزوجية واضطرابها، وشيوع العداوة والبغضاء بين الزوجين وبين أهلهما. ثم كرر - سبحانه - تحذير المخالفين لشريعته، وذكرهم بألوان نعمه عليهم ليستجيبوا لأمره فقال: ﴿ولا تتخذوا آيات الله هزوًا، واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به﴾.

آيات الله: أحكامه التى شرعها فى شأن الطلاق وغيره.

والهزء - بضمتين - مصدر هزأ به إذا سخر ولعب وهو هنا مصدر بمعنى اسم المفعول أى : مهزوءًا بها. وقوله ﴿هزوا﴾ مفعول ثان لتتخذوا.

والمراد بالحكمة هنا. السنة النبوية المطهرة.

والموعظة والعظة : النصح والتذكير بالخير. بما يرقق القلوب، ويحذر النفوس مما نهى الله عنه.

أى : ولا تتخذوا - أيها الناس - آيات الله التى شرعها لكم فى شأن الطلاق وغيره مهزوءًا بها بأن تعرضوا عنها، وتتهاونوا فى المحافظة عليها، والتمسك بتعاليمها، ومن مظاهر ذلك أن بعض الناس كان يكثر من التلفظ بالطلاق متوهما أن ذلك لا يضر، أو كان يتخذ المراجعة وسيلة لإيذاء المرأة.

قال القرطبى : وفى موطأ مالك أنه بلغه أن رجلا قال لابن عباس : «إنى طلقت امرأتى مائة مرة فماذا ترى على؟ فقال ابن عباس : طلقت منك بثلاث، وسبع وتسعون اتخذت بها آيات الله هزوا»(١).

والجملة الكريمة نهى أريد به الأمر بضده، أى جدوا فى العمل بأوامر الله وآياته، وارعوها حق رعايتها.

وقوله : ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾. إلخ أى تذكروها فى هدايتكم إلى الإسلام، وفى مشروعية الزوجية وفى غير ذلك مما لا يحصى من النعم وتدبروا نعم الله عليكم فقابلوها بالشكر، واستعملوها فيما خلقت له، وتذكروا كذلك ما أنزل الله عليكم بواسطة رسولكم محمد ﷺ من الكتاب وهو القرآن الذى يهدى للتى هى أقوم، ومن الحكمة وهى السنة النبوية المطهرة، بما جاء فيهما من توجيهات سامية، وآداب عالية.

و «ما» فى قوله : ﴿وما أنزل عليكم﴾ موصولة والعائد محذوف أى ما أنزله و «من» فى قوله : ﴿من الكتاب﴾ بيانية، وجملة ﴿يعظكم به﴾ حال من فاعل أنزل أو من مفعوله، والضمير فى ﴿به﴾ يعود على الكتاب والحكمة بعد تأويلهما بالمذكور. وجعل ضميرهما واحدًا لأنهما فى مؤداهما وغايتهما شىء واحد، فالسنة ليست نابعة إلا من الكتاب ومنه أخذت قوتها وسلطانها.

وقوله - سبحانه - : فى ختام الآية ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شىء عليم﴾ تذكير لهم بتقوى الله وخشيته ومراقبته، وتحذير لهم من مخالفة أمره.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٣ ص١٥٦.

أى : صونوا أنفسكم عن كل ما يغضب الله - تعالى - فيما يتعلق بأمور الزوجية وفى غيرها مما شرعه لكم، واعلموا أنه - سبحانه - عليم بكل شىء، عليم بما تسرونه وما تعلنونه، وسيحاسب كل إنسان بما قدمت يداه ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا والأمر يومئذ لله﴾.

ثم بين - سبحانه - ما ينبغى اتباعه عند حصول الطلاق وإمضائه حتى لا يقع ظلم أو جور فقال - تعالى - : ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف﴾.

قال القرطبى : تعضلوهن معناه تحبسوهن، ودجاجة معضل أى : قد احتبس بيضها، وقيل : العضل التضييق والمنع وهو راجع إلى معنى الحبس. يقال : أعضل الأمر : إذا ضاقت عليك فيه الحيل. قال الأزهرى : وأصل العضل من قولهم : عضلت الناقة إذا نشب ولدها فلم يسهل خروجه. ويقال أعضل الأمر إذا اشتد، وداء عضال أى شديد عسر البرء أعيا الأطباء. . . »[1].

والمعنى : وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن أى : انقضت عدتهن وخلت الموانع من زواجهن، فلا تمنعوهن من الزواج بمن يردن الزواج به، متى حصل التراضى بين الأزواج والزوجات على ما يحسن فى الدين، وتقره العقول السليمة، ويجرى به العرف الحسن.

والمراد ببلوغ الأجل هنا بلوغ أقصى العدة، بخلاف البلوغ فى الآية التى قبل هذه، فإن المراد به المشارفة والمقاربة كما أشرنا من قبل لأن المعنى يحتم ذلك، والخطاب هنا للأزواج وللأولياء ولكل من له تأثير على المرأة المطلقة، وذلك لأن منع الزوجة من الزواج بعد انقضاء عدتها قد يكون من جانب الزوج السابق، لاسيما إذا كان صاحب جاه وسلطان وسطوة، فإنه يعز عليه أن يتزوج مطلقته أحد بعده فيمنعها من الزواج.

وقد يكون المنع من جانب الأولياء، وقد أورد المفسرون آثارًا تشهد لذلك منها - كما يقول الألوسى - ما أخرجه البخارى والترمذى والنسائى وابن ماجه وأبو داود من طرق شتى عن معقل بن يسار قال : كانت لى أخت فأتانى ابن عم لى فأنكحتها إياه، فكانت عنده ما كانت ثم طلقها تطليقة، ولم يراجعها حتى انقضت العدة، فهويها وهوته ثم خطبها مع الخطاب. فقلت له : أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها ثم جئت تخطبها، والله لا ترجع إليك أبدًا، وكان رجلا لا بأس به، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فعلم الله - تعالى - حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها فأنزل هذه الآية. ففى نزلت فكفرت عن يمينى وأنكحتها إياه. . »[2].

---

(١) تفسير القرطبى جـ٣ ص ١٥٩.
(٢) تفسير الألوسى جـ١ ص ١٤٤.

وعبر - سبحانه - عن الرجال الذين هم محل الرضا من النساء بالأزواج فقال ﴿فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن﴾ مع أن الزواج لم يتحقق بعد، للإشارة إلى الحقيقة المقررة الثابتة، وهى أن من يقع اختيارها عليه، ولم يكن اقترانها به فيه ما يشينها أويشين أسرتها، فمن الواجب ألا يمانع أحد فى إتمام هذا الزواج، بل على الجميع أن يقروه وينفذوه، لأن شريعة الله والفطرة الإنسانية يقضيان بذلك.

وقوله : ﴿أن ينكحن﴾ تقديره : من أن ينكحن فهو فى محل جر عند الخليل والكسائى وفى محل نصب عند غيرهما، وقوله : ﴿إذا تراضوا﴾ ظرف لأن ينكحن أو لقوله : ﴿فلا تعضلوهن﴾، وقوله : ﴿بالمعروف﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل تراضوا، أو هو نعت لمصدر محذوف أى تراضيًا كائنًا بالمعروف أو هو متعلق بتراضوا. أى تراضوا بما يحسن فى الدين والمروءة، وفيه إشعار بأن المنع من التزوج بغير كفء أو بما دون مهر المثل ليس من العضل المنهى عنه.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله ﴿ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر، ذلكم أزكى لكم وأطهر، والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾.

أى : ذلك القول الحكيم، والتوجيه الكريم المشتمل على أفضل الأحكام وأسماها يوعظ به، ويستجيب له من كان منكم عميق الإيمان بالله - تعالى - وبثوابه وبعقابه يوم القيامة. ذلكم الذى شرعه الله لكم - أيها المؤمنون - من ترك عضل النساء والإضرار بهن وغير ذلك من الأحكام ﴿أزكى لكم وأطهر﴾ أى أعظم بركة ونفعًا، وأكثر تطهيرًا من دنس الآثام، فإن المرأة إذا عوملت معاملة كريمة، ولم تظلم فى رغباتها المشروعة، التزمت فى سلوكها العفاف والخلق الشريف، أما إذا شعرت بالظلم والامتهان فإن هذا الشعور قد يدفعها إلى ارتكاب مانهى الله عنه. والله تعالى يعلم ما فيه مصلحتكم ومنفعتكم، وأنتم لا تعلمون ذلك، فامتثلوا ما أمركم به واجتنبوا ما نهاكم عنه تفوزوا وتسعدوا.

والإشارة بقوله : ﴿ذلك﴾ إلى ما فصل من أحكام وما أمر به من أفعال والخطاب لكل من يصلح للخطاب من المكلفين.

وخصص الوعظ بالمؤمنين لأنهم هم الذين ينتفعون به، وترق معه قلوبهم وتخشع له نفوسهم.

وأتى - سبحانه - بضمير الجمع ﴿ذلكم﴾ بعد أن قال فى صدر الجملة ﴿ذلك﴾ للإشارة إلى أن حماية المرأة من الهوان ومنع التضييق عليها فى اختيار زوجها واجب على جميع المؤمنين، وأن فائدة ذلك ستعود عليهم جميعًا ما دام هذا الاختيار فى حدود الآداب التى جاء بها الإسلام.

وقوله : ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ رد على كل معترض على تطبيق شريعة الله، أو متهاون فى ذلك بدعوى أنها ليست صالحة للظروف التى يعيش ذلك المعترض أو هذا المتهاون فيها، لأن شرع الله فيه النفع الدائم والمصلحة الحقيقية، والنتائج المرضية، لأنه شرع من يعلم كل شيء ولا يجهل شيئًا، ويعلم ما هو الأنفع والأصلح للناس فى كل زمان ومكان، ولم يشرع لهم - سبحانه - إلا ما فيه مصلحتهم ومنفعتهم، وما دام علم الله - تعالى - هو الكامل، وعلم الإنسان علم قاصر، فعلينا أن نتبع شرع الله فى كل شئوننا، ولنقل لأولئك المعترضين أو المتهاونين : سيروا معنا فى طريق الحق فذلكم ﴿أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾.

وبعد : فهذه خمس آيات قد تحدثت عن جملة من الأحكام التى تتعلق بالطلاق، وإذا كان الإسلام قد شرع الطلاق عند الضرورة التى تحتمها مصلحة الزوجين، فإنه فى الوقت نفسه قد وضع كثيرًا من التعاليم التى يؤدى اتباعها إلى الإبقاء على الحياة الزوجية، وعلى قيامها على المودة والرحمة، ومن ذلك :

١ - أنه أرشد أتباعه إلى أفضل السبل لاختيار الزوج، بأن جعل أساس الاختيار الدين والتقوى والخلق القويم، لأنه متى كان كل من الزوجين متحليًا بالإيمان والتقوى، استقرت الحياة الزوجية بينهما، وقامت على المودة والرحمة وحسن المعاشرة.

٢ - أنه أمر كلا الزوجين بأن يبذل كل واحد منهما قصارى جهده فى أداء حق صاحبه، وإدخال السرور على نفسه، فإذا ما نجم خلاف بينهما فعليهما أن يعالجاه بالحكمة والعدل، وأن يجعلا الأناة والصبر رائدهما، فإن الحياة الزوجية بحكم استمرارها وتشابك مطالبها لا تخلو من اختلاف بين الزوجين.

٣ - دعا الإسلام إلى إصلاح ما بين الزوجين إن ابتدأت العلاقة تسير فى غير طريق المودة، فقال - تعالى - : ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزًا أو إعراضًا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحًا والصلح خير. . .﴾ كما دعا أولى الأمر أن يتدخلوا للإصلاح بين الزوجين عند نشوب الشقاق بينهما أو عند خوفه فقال - تعالى - : ﴿وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها إن يريدا إصلاحًا يوفق الله بينهما إن الله كان عليمًا خبيرًا﴾.

٤ - نهى الإسلام عن إيقاع الطلاق على الزوجة فى حال حيضها، أو فى حال طهر باشرها فيه، لأن المرأة فى هاتين الحالتين قد تكون على هيئة لا تجعل الرجل مشوقًا إليها. . .

وأباح له أن يوقع الطلاق فى طهر لم يجامعها فيه، لأن إيقاعه فى هذه الحالة يكون دليلا على استحكام النفرة بينهما.

٥ - نهى الإسلام عن الطلاق البات بالنسبة للمرأة المدخول بها، وأمر الزوج بأن يجعل طلاقه رجعيًا، وأعطاه فرصة طويلة تقرب من ثلاثة أشهر ليراجع خلالها نفسه، فإن وجد الخير فى مراجعة زوجته راجعها بقصد الإصلاح واستمرار الحياة الزوجية، وإن وجد الخير فى غير ذلك تركها حتى تنقضى عدتها وفارقها بالمعروف عملا بقوله - تعالى - : ﴿فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾.

٦ - جعل الإسلام الطلاق بيد الرجل، لأنه هو الذى وقعت عليه معظم أعباء الزواج، وهو الذى سيتحمل ما سيترتب على الطلاق من تكاليف، ولا شك أنه بمقتضى هذه التكاليف وبمقتضى حرصه على استقرار حياته، سيتأنَّى ويتروى فلا يوقع الطلاق إلا إذا كان مضطرًا إلى ذلك.

كما أن الإسلام أباح للمرأة أن تفتدى نفسها من زوجها، أو ترفع أمرها للقاضى ليفرق بينها وبينه إذا تيقنت من استحالة استمرار الحالة الزوجية بينهما لأى سبب من الأسباب. وفى هذه الحال فللقاضى أن يفرق بينهما إذا رأى أن المصلحة تقتضى ذلك.

٧ - أباح الإسلام للرجل الذى طلق امرأته ثلاثًا أن يعود إليها من جديد، وذلك بعد طلاقها من رجل آخر يكون قد تزوجها زواجًا شرعيًا وانقضت عدتها منه، وفى ذلك ما فيه من التأديب لهما، والتهذيب لسلوكهما.

٨ - وردت أحاديث متعددة تنهى عن إيقاع الطلاق إلا عند الضرورة وتتوعد المرأة التى تطلب من زوجها أن يطلقها بدون سبب معقول بالعذاب الشديد، ومن ذلك ما رواه أبو داود والترمذى عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «أيما امرأة سألت زوجها طلاقها من غير ما بأس - أى من غير عذر شرعى أو سبب قوى - فحرام عليها رائحة الجنة». وروى أبو داود وغيره عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال: أبغض الحلال إلى الله الطلاق»[1].

هذه بعض التشريعات التى وضعها الإسلام لصيانة الحياة الزوجية من التصدع والانهيار، ومنها نرى أن الإسلام وإن كان قد شرع الطلاق، إلا أنه لا يدعو إليه إلا إذا كانت مصلحة الزوجين أو أحدهما تقتضيه وتستلزمه.

وبعد أن بين - سبحانه - حقوق الزوجين فى حالتى اجتماعهما واقترافهما، أردف ذلك ببيان حقوق الأطفال الذين يكونون ثمرة لهذا الزواج. فقال تعالى:

---

(١) الترغيب والترهيب للمنذرى جـ٣ ص٨٣.

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾

والمراد بالوالدات الأمهات سواء أكن فى عصمة أزواجهن أم مطلقات لأن اللفظ عام فى الكل ولا يوجد ما يقتضى تخصيصه بنوع من الأمهات. ويرى بعض المفسرين أن المراد بالوالدات هنا خصوص المطلقات لأن سياق الآيات قبل ذلك فى أحكام الطلاق، ولأن المطلقة عرضة لإهمال العناية بالولد وترك إرضاعه.

وحولين أى عامين. وأصل الحول - كما يقول الراغب - تغير الشىء وانفصاله عن غيره. والحول: السنة اعتبارًا بانقلابها ودوران الشمس فى مطالعها ومغاربها. قال - تعالى -: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾. ومنه حالت السنة تحول وحالت الدار تغيرت، وأحال فلان بمكان كذا أى أقام به حولا»[١].

وعبر عن الأمهات بالوالدات، للإشارة إلى أنهن اللائى ولدن أولادهن، وأنهن الوعاء الذى خرجوا منه إلى الحياة، ومنهن يكون الغذاء الطبيعى المناسب لهذا المولود الذى جاء عن طريقهن.

وقوله: ﴿يرضعن أولادهن﴾ جملة خبرية اللفظ إنشائية المعنى، إذ التقدير ليرضعن. أى: عليهن إرضاع أولادهن.

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى ص ١٣٧.

وعبر عن الطلب بصيغة الخبر، للإشعار بأن إرضاع الأم لطفلها عمل توجبه الفطرة، وتنادى به طبيعة الأمومة.

قال الجمل: وهذا الأمر للندب وللوجوب، فهو يكون للندب عند استجماع شروط ثلاثة، قدرة الأب على استئجار المرضع، ووجود من يرضعه غير الأم، وقبول الولد للبن الغير. ويكون للوجوب عند فقد أحد هذه الشروط»[١].

وليس التحديد بالحولين للوجوب، لأنه يجوز الفطام قبل ذلك، بدليل قوله: ﴿لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ وإنما المقصود بهذا التحديد قطع التنازع بين الزوجين إذا تنازعا فى مدة الرضاع، فإذا اتفق الأب والأم على أن يفطما ولدهما قبل تمام الحولين كان لهما ذلك إذا لم يتضرر الولد بهذا الفطام، وإن أراد الأب أن يفطمه قبل الحولين ولم ترض الأم أوالعكس لم يكن لأحدهما ذلك. قال القرطبى ما ملخصه: وقد انتزع مالك - رحمه الله - ومن تابعه وجماعة من العلماء من هذه الآية أن الرضاعة المحرمة الجارية مجرى النسب إنما هى ما كان فى الحولين، لأنه بانقضاء الحولين تمت الرضاعة، ولا رضاعة بعد الحولين معتبرة.. لقوله - تعالى -: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾ فهذا يدل على ألا حكم لما ارتضع المولود بعد الحولين. وروى سفيان عن عمرو بن دينار عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «لا رضاع إلا ما كان فى الحولين» وهذا الخبر مع الآية ينفى رضاعة الكبير وأنه لا حرمة له. وقد روى عن عائشة القول به، وروى عن أبى موسى الأشعرى أنه كان يرى رضاع الكبير. وروى عنه الرجوع عنه. وسيأتى تحقيق هذه المسألة فى سورة النساء»[٢].

وفى وصف الحولين بكاملين، تأكيد لرفع توهم أن يكون المراد حولا وبعض الثانى، لأن إطلاق التثنية والجمع فى الأزمان والأسنان على بعض المدلول إطلاق شائع عند العرب. فيقولون: هو ابن سنتين، ويريدون سنة وبعض الثانية.

وفى هذه الجملة الكريمة ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾ بيان لمظهر من مظاهر رعاية الله - تعالى - للإنسان منذ ولادته، بل منذ تكوينه فى بطن أمه جنينًا، فقد أمر - سبحانه - الأمهات أن يقمن بإرضاع أولادهن فى تلك المدة، لأن لبن الأم هو أفضل غذاء لطفلها فى هذه الفترة، وأسلم وسيلة لضمان صحته ونموه، ولصيانته من الأمراض النفسية والعقلية، فقد أثبت الأطباء الثقاة أن الطفل كثيرًا ما يصاب بأمراض جسمية ونفسية وعقلية

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ١٨٨.
(٢) تفسير القرطبى جـ٣ ص ١٦٢.

نتيجة رضاعته من غير أمه، كما أثبتوا أن عناية الأم بطفلها فى هذه الفترة عن طريق إرضاعه ورعايته، تؤدى إلى تحسن أحواله...

وقوله: ﴿لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ بيان لمن توجه إليه الحكم. أى هذا الحكم لمن أراد إتمام الرضاع، فإذا أراد الأبوان أن ينقصا مدة الرضاع عن الحولين كان لهما ذلك. فالجملة الكريمة خبر لمبتدأ محذوف أى هذا الحكم لمن أراد أن يتم مدة الرضاعة.

وقوله: ﴿وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف﴾ بيان لما يجب على الآباء.

أى: وعلى الآباء أن يقدموا إلى الوالدات ما يلزمهن من نفقة وكسوة بالمعروف أى بالطريقة التى تعارف عليها العقلاء بدون إسراف أو تقتير.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت لم قيل ﴿المولود له﴾ دون الوالد؟ قلت: ليعلم أن الوالدات إنما ولدن لهم، لأن الأولاد للآباء، ولذلك ينسبون إليهم لا إلى الامهات، كما قال المأمون بن الرشيد:

فإنما أمهات الناس أوعية مستودعات وللآباء أبناء

فكان عليهم أن يرزقوهن ويكسوهن إذا أرضعن ولدهم كالأظآر ألا ترى أنه ذكره باسم الوالد حيث لم يكن هذا المعنى وهو قوله - تعالى -: ﴿يأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يومًا لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئًا...﴾[1].

وقوله: ﴿لا تكلف نفس إلا وسعها﴾ تعليل لإيجاب المؤن بالمعروف. أو تفسير للمعروف ولهذا فصلت هذه الجملة عن سابقتها، وقوله ﴿وسعها﴾ منصوب على أنه مفعول ثان لتكلف، والاستثناء قبله مفرغ أى أن أبا الولد لا يكلف فى الإنفاق عليه وعلى أمه إلا بالقدر الذى تتسع له مقدرته بدون إرهاق أو مشقة.

وتلك هى سنة الإسلام فى جميع تكاليفه، فالله - تعالى - ما كلف عباده إلا بما يستطيعونه ويطيقونه بدون عسر أوعنت قال - تعالى -: ﴿لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها﴾ وقال - تعالى -: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾.

وقوله: ﴿لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده﴾ تعليل للأحكام السابقة الموزعة بين الأب والأم، والتى أساسها رعاية حق هذا الوليد الذى أتى عن طريقهما.

والمضارة مفاعلة من الضرر، والمعنى: لا ينبغى أن يقع ضرر على الأم بسبب ولدها، بأن يستغل الأب حنوها على وليدها فيمنعها شيئًا من نفقتها، أو يأخذ منها طفلها وهى تريد

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٧٩.

إرضاعه، أو يكلفها بما ليس فى مقدورها أو ما يخالف وظيفتها، ولا ينبغى كذلك أن يقع ضرر على الأب بسبب ولده، بأن تكلفه الأم بما لا تتسع له قدرته مستغلة محبته لولده وعنايته بتنشئته تنشئة حسنة.

قال الجمل: و﴿لا﴾ فى قوله: ﴿لا تضار﴾ يحتمل أن تكون نافية فيكون الفعل مرفوعًا، ويحتمل أن تكون ناهية فيكون الفعل مجزومًا، وقد قرئ بهما فى السبع، وعلى كل يحتمل أن يكون الفعل مبنيًا للفاعل وللمفعول»(١).

والمعنى على الاحتمالين واحد وهو أنه لا يجوز أن يَضر كل واحد منهما صاحبه أو يُضر من صاحبه بسبب حنوه على ولده واهتمامه بشأنه.

وأضاف الولد إلى كل منهما فى الموضعين للاستعطاف، وللتنبيه على أن هذا الولد الذى رزقهما الله إياه جدير بأن يتفقا على رعايته وحمايته من كل ما يؤذيه، ولا يجوز مطلقًا أن يكون مصدر قلق لأى واحد منهما.

وقدمت الأم فى الجملة الكريمة، لأن الشأن فيها أن يكون حنوها أشد، وعاطفتها أرق، ولأن مظنة إنزال العنف والأذى بها أقرب لضعفها عن الأب.

فالجملة الكريمة توجيه سديد، وإرشاد حكيم، للآباء والأمهات إلى أن يقوم كل فريق منهم بواجبه نحو صاحبه ونحو الأولاد الذين هم ثمار لهم.

وقوله: ﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾ معطوف على قوله ﴿وعلى المولود له رزقهن﴾. الخ وما بينهما تعليل أو تفسير معترض.

أى: وعلى وارث الأب أو وارث الصبى - أى من سيرثه بعد موته - عليه مثل ما على الأب من النفقة وترك الإضرار. فهذه الجملة الكريمة سيقت لبيان من تجب عليه نفقة الصبى إذا فقد أباه، أو كان أبوه موجودا ولكنه عاجز عن الإنفاق عليه.

قال الآلوسى ما ملخصه: والمراد بالوارث وارث الولد فإنه يجب عليه مثل ما وجب على الأب من الرزق والكسوة بالمعروف إن لم يكن للولد مال. وهو التفسير المأثور عن عمر وابن عباس وقتاده.. وخلق كثير. وخص الإمام أبو حنيفة هذا الوارث بمن كان ذا رحم محرم من

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ١٨٩.

الصبى . . . وقال الشافعى المراد وارث الأب - يجب عليه عند موت الأب كل ما كان واجبًا على الأب - وقيل المراد بالوارث الباقى من الأبوين، وقد جاء الوارث بمعنى الباقى كما فى قوله ﷺ اللهم متعنى بسمعى وبصرى واجعلهما الوارث منى »[١] وعلى أية حال فالجملة الكريمة تغرس معانى الإخاء والتراحم والتكافل بين أبناء الأسرة الواحدة، فالقادر ينفق على العاجز، والغنى يمد الفقير بحاجته، وبذلك تسعد الأسرة، وتسودها روح المحبة والمودة.

وقوله : ﴿فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما﴾ معطوف على قوله ﴿يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾ لأنه متفرع عنه. والضمير فى قوله ﴿فإن أرادا﴾ يعود على الوالدين.

قال القرطبى : والفصال والفصل. الفطام وأصله التفريق، فهو تفريق بين الصبى والثدى. ومنه سمى الفصيل - لولد الضأن - لأنه مفصول عن أمه. والتشاور : استخراج الرأى - بما فيه المصلحة - وكذلك المشاورة. من الشور وهو اجتناء العسل. يقال شرت العسل - إذا استخرجته من مواضعه - والشوار : متاع البيت لأنه يظهر للناظر. والشارة هيئة الرجل. والإشارة : إخراج ما فى نفسك وإظهاره »[٢].

والمعنى : فإن أراد الأبوان فطامًا لولدهما قبل الحولين، وكانت هذه الإرادة عن تراض منهما وتشاور فى شأن الصبى وتفحص لأحواله، ورأيا أن هذا الفطام قبل بلوغه الحولين لن يضره فلا إثم عليهما فى ذلك.

وقال بعضهم : وأيضًا لا إثم عليهما إذا فطماه بعد الحولين متى رأيا المصلحة فى ذلك، وقد قيد - سبحانه - هذا الفطام للصبى بكونه عن تراض من الأبوين وتشاور منهما، رعاية لمصلحة هذا الصبى، لأن رضا أحدهما فقط قد يضره، بأن تمل الأم الإرضاع أو يبخل الأب بالإنفاق. ولأن إقدام أحدهما على الفطام بدون التشاور مع صاحبه قد يؤثر فى صحة الصبى تأثيرا سيئًا. لذا أوجب - سبحانه - التراضى والتشاور فيما بينهما من أجل مصلحة صبيهما.

ثم قال - تعالى - : ﴿وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف﴾.

أى : وإن أردتم - أيها الآباء - أن تسترضعوا مراضع لأولادكم، ورضى الأمهات بذلك، فلا إثم عليكم فيما تفعلون ما دمتم تقصدون مصلحة أولادكم، وعليكم أن تسلموا هؤلاء

---

(١) تفسير الألوسى جـ٢ ص١٤٧

(٢) تفسير القرطبى جـ٣ ص١٧٢

المراضع أجرهن بالطريقة التى يقرها الشرع، وتستحسنها العقول السليمة، والأخلاق القويمة.

واسترضع - كما يقول الزمخشرى - منقول من أرضع. يقال: أرضعت المرأة الصبى، واسترضعتها الصبى فهى متعدية إلى مفعولين، والمعنى: أن تسترضعوا المراضع أولادكم. فحذف أحد المفعولين للاستغناء عنه.

وقوله ﴿ما آتيتم﴾ حذف مفعولاه أى آتيتموهن إياه. و﴿بالمعروف﴾ متعلق بسلمتم أى بالقول الجميل، وبالوجه المتعارف المستحسن شرعًا. ويجوز أن يتعلق بآتيتم. وأن يكون حالا من فاعل سلمتم أو آتيتم والعامل فيه محذوف أى متلبسين بالمعروف.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير﴾.

أى: اتقوا الله فى كل شئونكم والتزموا ما بينه لكم من أحكام، واعلموا أن الله - تعالى - لا تخفى عليه أعمالكم، فهو محصيها عليكم، وسيجزى المحسن إحسانًا والمسىء سوءاً.

ثم بين - سبحانه - عدة المرأة إذا توفى عنها زوجها، وما يجب عليها من آداب فقال - تعالى -.

وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٢٣٤﴾

وقوله: ﴿يتوفون﴾ - بالبناء للمجهول - أى تقبض أرواحهم فإن التوفى هو القبض. يقال: توفيت مالى من فلان واستوفيته منه أى قبضته وأخذته. قال - تعالى -: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾ أى يقبض الأنفس ويأخذها إليه بالموت حين انتهاء آجالها.

والمعنى: والذين يتوفاهم الله - تعالى - منكم - أيها المسلمون - ويتركون من خلفهم أزواجًا. فعلى هؤلاء الأزواج اللائى ارتبطن برجالهم ارتباطًا قويًا متينًا ثم فرق الموت بينهم وبينهن، عليهن أن ﴿يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرًا﴾ أى: عليهن أن ينتظرن انقضاء عدتهن فيحبسن أنفسهن عن الزواج وعن التزين وعن التعرض للخطاب مدة أربعة أشهر وعشر ليال، وفاء لحق الزوج المتوفى، واستبراء للرحم.

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : هذا أمر من الله - تعالى - للنساء اللاتى يتوفى عنهن أزواجهن أن يعتددن أربعة أشهر وعشر ليال. وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بالإجماع، ومستند هذا الإجماع فى غير المدخول بها عموم الآية الكريمة، وهذا الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن وصححه الترمذى أن ابن مسعود سئل عن رجل تزوج امرأة فمات عنها ولم يدخل بها ولم يفرض لها فقال : أقول فيها برأيى فإن يك صوابًا فمن الله، وإن يك خطأ فمنى ومن الشيطان. والله - تعالى - ورسوله بريئان منه : لها الصداق كاملا. وفى لفظ : لها صداق مثلها لا وكس ولا شطط وعليها العدة ولها الميراث. فقام معقل بن يسار فقال : سمعت رسول الله ﷺ قضى به فى بَرْوَعَ بنت واشق. ففرح عبد الله بذلك فرحًا شديدًا. ولا يخرج من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها وهى حامل فإن عدتها بوضع الحمل لعموم قوله - تعالى - : ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾ وكان ابن عباس يرى أن عليها أن تتربص بأبعد الأجلين من الوضع أو أربعة أشهر وعشرة أيام للجمع بين الآيتين »[1].

وقوله : ﴿والذين﴾ اسم موصول مبتدأ. و﴿يتوفون﴾ صلته، و﴿منكم﴾ فى موضع النصب على الحال من الواو فى ﴿يتوفون﴾ و﴿يتربصن﴾ وما بعده خبر عن الذين والرابط محذوف والتقدير: يتربصن بعدهم أربعة أشهر وعشرا.

والتعبير بقوله : ﴿يتربصن بأنفسهن﴾ تعبير دقيق حكيم أى : عليهن أن يمنعن أنفسهن عن النكاح وعن التزين وعن الخروج من منزل الزوجية - إلا إذا كانت هناك ضرورة لهذا الخروج - مدة أربعة أشهر وعشرة أيام، وذلك لأن المرأة المؤمنة الوفية يأبى عليها دينها ووفاؤها لزوجها المتوفى عنها، أن تعرض نفسها على غيره بعد فترة قصيرة من وفاته، فإن هذا أمر مستهجن فى شرع الله وفى عرف العقلاء من الناس. إذ هذه المدة التى جاءت فى الآية التى حددها الله - تعالى - لمعرفة براءة الرحم من الحمل، وهى التى تخف فيها مرارة الفراق بين زوجين ربط الله بينهما برابطة المودة والرحمة.

ولقد ألغى الإسلام بهذا التشريع عادات جاهلية ظالمة للمرأة فقد كانت المرأة فى الجاهلية إذا توفى عنها زوجها تغلق على نفسها مكانًا ضيقًا فى بيتها وتقضى فيه عامًا كاملا حدادًا على زوجها فأبطل الإسلام ذلك، ومن الأحاديث التى وردت فى هذا المعنى ما ثبت فى الصحيحين عن أم حبيبة وزينب بنت جحش - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرًا ».

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٨٤.

والإحداد هو ترك الزينة، وعدم التعرض للخطاب، وعدم الخروج من منزل الزوجية إلا لضرورة. وفى الصحيحين أيضًا عن أم سلمة أن امرأة قالت يارسول الله إن ابنتى توفى عنها زوجها وقد اشتكت عينها أفتكتحل؟ فقال: لا - مرتين أو ثلاثًا - ثم قال: إنما هى أربعة أشهر وعشر وقد كانت إحداكن فى الجاهلية تمكث سنة».

قال ابن كثير بعد أن ساق هذين الحديثين: قالت زينب بنت أم سلمة: كانت المرأة إذا توفى عنها زوجها دخلت حَفشًا - أى مكانا ضيقًا من البيت - ولبست شر ثيابها ولم تمس طيبًا ولا شيئًا حتى تمر سنة»[1].

وقال بعض العلماء: وقد حد الشارع للمتوفى عنها زوجها عدة هى فى جملتها أكثر من عدة المطلقات، لأن تلك ثلاثة قروء تجيء عادة فى نحو ثلاثة أشهر. وهنا يرد سؤالان:

أولهما: لماذا كانت العدة فى المتوفى عنها زوجها بالأشهر دون الحيض فلم تجعل أربع حيضات بدل ثلاث؟ ولماذا كانت الزيادة؟ ولم نجد أحدًا تصدى لبيان الحكمة فى جعلها بالأشهر، ويبدو لنا أن الحكمة التى تدركها عقولنا - وإن كانت الحكمة السامية قد تعلو على مدار كنا -: هى أن عدة الوفاة تكون للمدخول بها وغير المدخول بها وللصغيرة والكبيرة، والأساس فيها هو الحداد على الزواج السابق الذى انتهى بوفاة أحد ركنيه، فلزم أن يكون بأمر يشترك فيه الجميع مادام السبب واحدًا فى الجميع. وفوق ذلك أن العدة فى الوفاة لو قدرت بالحيض وهو أمر لا يعلم إلا من جهة المرأة، فربما تدفعها الرغبة فى الزواج إلى الكذب فتدعيه وهو لم يقع، وفى المطلقات العدة حق للمطلق فيستطيع أن ينكر عليها أما فى حال الوفاة فصاحب الحق الأول قد مات وصار الحق لله خالصًا. فحد ذلك الحق بالأشهر والأيام حتى لا يكون مساغا للكذب وإدعاء مالم يحصل، لأن الأيام والأشهر تعرف بالكتاب والحساب وليست أمرًا يعرف من جهتها فقط.

أما الجواب عن الأمر الثانى وهو لماذا كانت العدة بالوفاة أكثر فى الجملة من العدة الناشئة عن الطلاق؟ فيبدو بادى الرأى من الفرق بين حال الطلاق وحال الوفاة أن الطلاق نتيجة شقاق. فالحداد على الزوج الذى ينشئه ليس قويًا، ومعنى براءة الرحم وإعطاء الزوج فرصة للرجعة يكون أوضح فى معنى العدة، ويكفى لذلك نحو ثلاثة أشهر. أما حال الموت فمرارة الفراق فيها أوضح وأشد، ومعنى الحداد فيها يغلب معنى براءة الرحم، ولذا تجب على المدخول بها وغير المدخول بها، وإن الشارع قد جعلها لذلك أطول من عدة الطلاق.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ١٨٥.

وقد يرد سؤال ثالث وهو: لماذا حددت العدة بأربعة أشهر وعشر؟ وإن تقدير الأعداد كما يقرر الفقهاء أمر توقيفى خالص لا يجرى فيه القياس ولكن ليس معنى ذلك أنه لا حكمة فيه، وأن الحكمة يقررها العلماء فى أمرين:

أولهما: أن الأشهر الأربعة هى التى يظهر فيها الحمل ويستبين، وقد جعلت العشر بعدها للاحتياط.

وثانيهما: أن مدة أربعة الأشهر هى المدة التى قررها الشارع أقصى مدة للحرمان من الرجال. ولذلك جعل الإيلاء مدته أربعة أشهر. فكان من التنسيق بين الأحكام الشرعية أن تجعل مدة الإحداد على الزواج فى حدود هذه المدة ومقاربة لها فى الجملة»[1].

وقوله: ﴿فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف﴾ بيان لما يترتب على انتهاء المدة التى حددها الشرع للمرأة التى مات عنها زوجها. أى: فإذا انتهت المدة التى حددها الشرع للمرأة التى مات عنها زوجها لتتجنب فيها التزين والتعرض للنكاح. فلا حرج عليكم بعد ذلك أيها المسلمون أو أيها الأولياء - فى ترك هؤلاء الزوجات الأرامل يفعلن فى أنفسهن ما تفعله المرأة الراغبة فى الزواج من التزين والتجمل ولكن بالطريقة التى يقرها الشرع، وترضاها العقول السليمة، والأخلاق المستقيمه.

وقوله: ﴿بالمعروف﴾ متعلق بفعلن، أو حال من النون أى حالة كونهن متلبسات بالمعروف. ومفهومه أنهن لو خرجن عن المعروف شرعًا بأن تبرجن وأظهرن ما أمر الله بستره فإنه فى هذه الحالة يجب على أوليائهن أن يمنعوهن من ذلك.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿والله بما تعملون خبير﴾ أى أنه محيط بدقائق أعمالكم لا يخفى عليه منها شىء فإذا وقفتم أنتم ونساؤكم عند حدوده أسعدكم فى الدنيا وأجزل مثوبتكم فى الآخرة، وإن تجاورتم حدوده عاقبكم بما تستحقون ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾.

وبذلك نرى الآية الكريمة قد رسمت للناس أفضل وسائل الحياة الشريفة، فأرشدت المرأة التى مات عنها زوجها إلى ما يحفظ لها كرامتها، ويدفع عنها ما يتنافى مع العفة والشرف والوفاء.

ثم بين - سبحانه - حكم الخطبة للنساء المعتدات بيانًا يقوم على أدب النفس، وأدب الاجتماع، ورعاية المشاعر والعواطف مع رعاية المصالح والضرورات فقال - تعالى -:

(١) تفسير الآية الكريمة لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد أبو زهرة مجلة لواء الإسلام العدد الثامن السنة السادسة سنة ١٩٥٢.

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾

وقوله - تعالى - : ﴿فيما عرضتم به﴾ أى : لوحتم وأشرتم به. من التعريض الذى هو ضد التصريح ومعناه أن يضمن كلامه ما يصلح للدلالة على مقصوده، ويصلح للدلالة على غير مقصوده، إلا أن إشعاره بجانب المقصود أتم وأرجح وأصله من عرض الشىء - بضم العين - أى جانبه ومن أمثلته أن يقول الفقير المحتاج للمحتاج إليه : جئتك لأسلم عليك. . وهو يقصد عطاءه.

و﴿خطبة النساء﴾ مخاطبة المرأة أو أوليائها فى أمر زواجها. والخطبة - بكسر الخاء كالجلسة - مأخوذة من الخطب أى الشأن لأنها شأن من الشئون وقيل من الخطاب لأنها نوع - مخاطبة تجرى بين جانب الرجل وجانب المرأة. والمراد خطبة النساء اللائى فارقهن أزواجهن. و﴿أكننتم فى أنفسكم﴾ أخفيتم وأسررتم من الإكنان وهو الإضمار من غير إعلان.

والمعنى : ولا حرج ولا إثم عليكم أيها الرجال المبتغون للزواج فى التعريض بخطبة المرأة أثناء عدتها لتتزوجوهن بعد انقضائها، كما أنه لا إثم عليكم كذلك فى الرغبة فى الزواج بهن، مع إخفاء ذلك وستره من غير كشف وإعلان لأن التصريح بالخطبة أثناء العدة عمل يتنافى مع آداب الإسلام، ومع تعاليم شريعته، ومع الأخلاق الكريمة، والعقول السليمة، والنفوس الشريفة.

قال القرطبى : قال ابن عطية : أجمعت الأمة على أن الكلام مع المعتدة بما هو نص فى تزوجها وتنبيه عليه لا يجوز، وكذلك أجمعت على أن الكلام معها بما هو رفث وذكر جماع أو تحريض عليه لا يجوز وكذلك ما أشبهه وجوز ما عدا ذلك. ولا يجوز التعريض لخطبة المطلقة

طلاقًا رجعيًا إجماعًا لأنها كالزوجة. وأما من كانت فى عدة البينونة فالصحيح جواز التعريض لخطبتها»[١].

والتعريض فى خطبة النساء أساليبه مختلفة، ومما ذكره العلماء فى هذا الشأن أن يقول الرجل للمرأة: إنى راغب فى الزواج أو أن يقول لوليها: لا تسبقنى بها إلى غيرى.

ومن أساليب التعريض ما فعله النبى - ﷺ - مع السيدة أم سلمة، فقد دخل عليها وهى متأيمة من زوجها أبى سلمة فقال لها: «لقد علمت أنى رسول الله وخيرته وموضعى فى قومى» فكان كلامه خطبة لها بأسلوب التعريض.

ومنها ما ذكره صاحب الكشاف عن عبد الله بن سليمان عن خالته - سكينة بنت حنظلة - قالت: دخل على أبو جعفر محمد بن على وأنا فى عدتى فقال: قد علمت قرابتى من رسول الله - ﷺ - وقرابتى من جدى على بن أبى طالب، وموضعى فى العرب، وقدمى فى الإسلام. قالت: فقلت: غفر الله لك يا أبا جعفر! أتخطبنى فى عدتى وأنت يؤخذ عنك؟ فقال: أو قد فعلت إنما أخبرتك بقرابتى من رسول الله ﷺ وموضعى»[٢].

وقوله - تعالى - : ﴿ولا جناح عليكم فيما عرضتم﴾. إلخ معطوف على ما قبله فى الآية السابقة لأن الكلام فى الآيتين فى الأحكام المتعلقة بعدة النساء.

و﴿ما﴾ فى قوله: ﴿فيما عرضتم﴾ موصولة. و﴿من خطبة النساء﴾ بيان لما، و﴿أل﴾ فى النساء للعهد والمعهودات هن الزوجات اللائى سبق الحديث عنهن فى الآيات التى قبل هذه.

و﴿أو﴾ فى قوله: ﴿أو أكننتم﴾ للإباحة أو التخيير، ومفعول أكن محذوف يعود إلى ما الموصولة فى قوله: ﴿فيما عرضتم﴾ والتقدير: أو أكننتموه. و﴿فى أنفسكم﴾ متعلق بأكننتم.

وقوله - تعالى - : ﴿علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سرًّا إلا أن تقولوا قولا معروفًا﴾ كالتعليل لما قبله وهو قوله: ﴿ولا جناح عليكم فيما عرضتم﴾ إلخ. ونهى عما يردى ويفسد، وإباحة لما لا ضرر فيه.

أى: علم الله أنكم يا معشر الرجال ستذكرون هؤلاء النسوة المعتدات بما لهن من جمال ومن حسن عشرة ومن غير ذلك من شئونهن وأن تفكروا فيهن وتهفوا إليهن نفوسكم، والله - تعالى - فضلا منه وكرمًا قد أباح لكم أن تذكروهن ولكنه ينهاكم عن أن تواعدوهن وعدًا سريًا بأن تقولوا لهم فى السر ما تستحيون من قوله فى العلن لقبحه ومنافاته للشرع.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٣ صفحة ١٨٨.
(٢) تفسير الكشاف جـ١ صفحة ٢٨٢.

وقوله : ﴿إلا أن تقولوا قولا معروفًا﴾ استثناء مما يدل عليه النهى لا تواعدوهن مواعدة ما إلا مواعدة معروفة غير منكرة شرعًا، وهى ما تكون بطريق التلويح والتعريض.

وفى قوله سبحانه : ﴿علم الله أنكم ستذكرونهن﴾ بيان لما جبلت عليه النفس البشرية من ميل فطرى بين الرجال والنساء، والإسلام لا ينكر هذا الميل وإنما يهذبه ويقومه ويصقله بآدابه الحميدة، وتعاليمه السامية.

وقوله : ﴿ولكن لا تواعدوهن سرًّا﴾ استدراك على محذوف دل عليه ﴿ستذكرونهن﴾ أى : فاذكروهن ﴿ولكن لا تواعدوهن سرًّا﴾.

قال القرطبى ما ملخصه : واختلف العلماء فى المراد بالسر فى قوله - تعالى - : ﴿ولكن لا تواعدوهن سرًّا﴾ فقيل معناه نكاحًا، أى لا يقل الرجل لهذه المعتدة تزوجينى بل يعرض إن أراد، ولا يأخذ ميثاقها وعهدها ألا تنكح غيره فى استسرار وخفية. هذا قول جمهور أهل العلم. و« سرًا » على هذا التأويل نصب على الحال أى مسرين - وسمى النكاح سرًا لأن مسببه الذى هو الوطء مما يسر - وقيل السر الزنا، أى لا يكونن منكم مواعدة على الزنا فى العدة ثم التزوج بعدها. أى لا تواعدوهن زنا. واختاره الطبرى. ومنه قول الأعشى :

فلا تقربن جارة إن سرها عليك حرام فانكحن أو تأبدًا

أى : « فتزوجها أو ابتعد عنها. وقيل السر الجماع »[1].

والذى تطمئن إليه النفس أن كلمة (سرا) صفة لموصوف محذوف أى لا تواعدهن وعدا سريًا، وأن النهى هنا منصب على كل مواعدة سرية، يقال فيها كل ما ينهى عنه أو يستحيا منه فى العلن، لقبحه أو لأن أوانه لم يحن بعد، إذ السرية أو الخلوة بين الرجل والمرأة لا تؤمن مزالقها. وفى الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال : « لا يخلون رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما »[2] وأن المراد بقوله : ﴿إلا أن تقولوا قولا معروفًا﴾ هو التعريض بالخطبة، وإظهار المودة بطريقة لا تفضى إلى محرم.

قال صاحب الكشاف فى قوله : ﴿إلا أن تقولوا قولا معروفا﴾ وهو أن تعرّضوا ولا تصرحوا. فإن قلت بم يتعلق حرف الاستثناء؟ قلت : بلا تواعدوهن. أى لا تواعدوهن مواعدة قط إلا مواعدة معروفة غير منكرة : أى لا تواعدوهن إلا بالتعريض[3].

ثم قال - تعالى - : ﴿ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله﴾.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٣ ص ١٩٠.

(٢) الترغيب والترهيب للمنذرى جـ٢ ص ٣٨.

(٣) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٨٤.

العزم : القطع والتصميم، يقال عزم على الشيء إذا صمم وعقد القلب على فعله، وهو يتعدى بعلى وبنفسه فيقال : عزم الشيء وعزم عليه.

وعقدة النكاح : الارتباط الموثق به. وأصل العقد الشد، والعهود والأنكحة تسمى عقودا لأنها تعقد وتوثق كما يوثق بالحبل.

والمراد بالكتاب هنا الأمر المكتوب المفروض وهو العدة التى حدد الله لها وقتًا معينًا.
والأجل : هو نهاية المدة التى قررها الشرع للعدة.

والمعنى : لا يسوغ لكم يا معشر الرجال الراغبين فى الزواج من النساء اللائى فارقهن أزواجهن أن تعقدوا العزم نهائيًا فى أثناء العدة على أن تتموا الزواج بعدها، بأن تحول الخطبة من التعريض إلى التصريح، أو تبتوا فى أمر الزواج بتًا قاطعًا بمواعدة أو نحوها، إذ العاقل لا يستعجل أمرا قبل حلول وقته، وإنما الذى يسوغ لكم أن تتموا عقد الزواج بعد انتهاء العدة وبعد أن يكون جو الأحزان قد فتر وجفت حدته.

والنهى عن العزم على عقد النكاح نهى بالأولى عن إبرامه وتنفيذه، لأن العزم على الفعل يتقدمه، فإذا نهى عنه كان الفعل أنهى، فهو كالنهى عن الاقتراب من حدود الله فى قوله : ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾.

وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد أباحت شيئين، ونهت عن شيئين : أباحت التعريض بالخطبة للمرأة أثناء عدتها، كما أباحت إخفاء هذه الرغبة فى الأنفس وحديثها بها. ويشهد لذلك قوله - تعالى - : ﴿ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم فى أنفسكم﴾ ونهت عن المواعدة سرًا إلا أن يقولوا قولا معروفًا عن طريق التعريض، أو أن يسار الرجل المرأة بالقول المعروف الذى أباحه الشرع وارتضته العقول السليمة، والأخلاق الفاضلة، بأن يعدها فى السر بالإحسان إليها والاهتمام بشأنها والتكفل بمصالحها حتى يصير ذكر هذه الأشياء الجميلة مؤكدًا لذلك التعريض. أما الشيء الثانى الذى نهت عنه فهو العزم على عقدة النكاح قبل انقضاء العدة. ويشهد لهذا قوله - تعالى - : ﴿علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سرًا إلا أن تقولوا قولا معروفًا، ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله﴾.

وبعد هذه الأوامر والنواهى ختم الله - تعالى - الآية بقوله : ﴿واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم﴾.

أى : اعلموا أيها الناس أن الله - تعالى - يعلم ما يجول فى نفوسكم من خير أو شر، وما تهجس به خطرات قلوبكم من مقاصد واتجاهات، فاحذروا أن تقصدوا ما هو شر، أو تفعلوا ما هو منكر، واعلموا أنه - تعالى - غفور لمن تاب وعمل صالحًا، حليم لا يعاجل الناس بالعقوبة، ولا يؤاخذهم إلا بما كسبوا.

فالجملة الكريمة تحذير وتبشير، وترغيب وترهيب، لكى لا يتجاسر الناس على ارتكاب ما نهى الله عنه، ولا ييأسوا من رحمته متى تابوا وأنابوا.

هذا، وقد أجمع العلماء على تحريم نكاح المرأة فى عدتها، وإذا حدث مثل هذا النكاح ودخل بها فرق بينهما وفسخ النكاح.

ويرى جمهور العلماء أنها تصير محرمة عليه تحريمًا مؤبدًا، ولا يحل له نكاحها ركلك لأنه استحل ما لا يحل فعوقب بحرمانه، كالقاتل يعاقب بحرمانه من ميراث المقتول. وقيل : يفسخ النكاح ويفرق بينهما فإذا انتهت العدة حلت له ولم يتأبد التحريم. ولكل فريق أدلته المبسوطة فى كتب الفقه.

وبلك تكون الآية الكريمة قد أرشدت الناس إلى ما يقره الشرع، ويرتضيه الخلق الكريم، ونهتهم عما يتنافى مع تعاليم الإسلام بأسلوب حكيم جمع بين الشدة واللين، والخوف والرجاء، حتى يثوب المخطئون إلى رشدهم ويقلعوا عن خطئهم.

ثم بين - سبحانه - فى آيتين كريمتين بعض الأحكام التى تتعلق بالمطلقة قبل الدخول بها، سواء أذكر لها المهر أم لم يذكر، فقال - تعالى - :

لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

قوله - تعالى - : ﴿ما لم تمسوهن﴾ أى ما لم تجامعوهن ولم تدخلوا بهن والمس فى أصل معناه : اللمس، ويقال فيما معه إدراك بحاسة اللمس، ثم أطلق على سبيل الكناية على ما يكون بين المرء وزوجه من جماع ومباشرة وعلى غير ذلك مما يكون فيه إصابة حسية أو معنوية. وهذه الكناية من ألطف الكنايات التى تربى فى الإنسان حسن الأدب، وسلامة التعبير، وتجنبه النطق بالألفاظ الفاحشة. وقد تكرر هذا التعبير المهذب فى القرآن الكريم ومن ذلك قوله - تعالى - حكاية عن مريم : ﴿قالت ربِّ أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر..﴾(١).

والمراد بالفريضة هنا المهر الذى يفرضه الرجل على نفسه للمرأة قبل الدخول بها.

والمعنى : لا إثم عليكم أيها الرجال إذا طلقتم النساء لأسباب مشروعة، وبطريقة مرضية، قبل الدخول بهن، وقبل أن تقدروا لهن مهرًا معينًا.

ثم بين - سبحانه - ما للمرأة على الرجل فى هذه الحالة فقال : ﴿ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره، متاعًا بالمعروف حقًا على المحسنين﴾..

قوله - تعالى - : ﴿ومتعوهن﴾ أى ملكوهن ما ينتفعن به، ويدخل التسلية والسرور على نفوسهن. وأصل المتعة والمتاع ما ينتفع به الإنسان من مال أو كسوة أو غير ذلك، ثم أطلقت المتعة على ما يعطيه الرجل للمرأة من مال أو غيره عند طلاقها منه لتنتفع به، جبرًا لخاطرها، وتعويضًا لما نالها بسبب هذا الفراق.

و﴿الموسع﴾ هو الغنى الذى يكون فى سعة من غناه. يقال : أوسع الرجل إذ كثر ماله، واتسعت حاله. و﴿المقتر﴾ هو الفقير الذى يكون فى ضيق من فقره. أقتر الرجل أى افتقر وقل ما فى يده.

والمعنى : لا حرج عليكم فى طلاقكم للنساء قبل أن تدخلوا بهن وقبل أن تقدروا لهن مهرًا معينًا، وليس من حقهن عليكم فى هذه الحالة أن يطالبنكم بالصداق، وإنما من حقهن عليكم أن تمتعوهن بأن تدفعوا لهن ما ينتفعن به كل على حسب حاله وطاقته، فالأغنياء يدفعون ما يناسب غناهم وسعتهم، والفقراء يدفعون ما يناسب حالهم.

وقوله : ﴿متاعًا بالمعروف﴾ أى أعطوهن ما يتمتعن وينتفعن به بالقدر المتعارف عليه بين العقلاء، فلا يعطى الغنى ما لا يتناسب مع غناه ولا مع حال المرأة التى طلقها، ولا يعطى الفقير شيئًا تافهًا لا يسمى فى عرف العقلاء متاعًا كما أنه لا يكلف فوق استطاعته، لأن المتاع ما سمى بهذا الاسم إلا لأنه يتمتع به وينتفع به لفترة من الزمان.

---

(١) سورة آل عمران الآية ٤٧.

وقوله : ﴿حقًّا على المحسنين﴾ تأكيد لهذا التمتيع الذى هو من حق المرأة على الرجل الذى طلقها قبل أن يدخل بها وقبل أن يسمى لها مهرًا.

أى : هذا التمتيع حق ثابت على المحسنين الذين يحسنون إلى أنفسهم بامتثالهم لأوامر الله، وبترضيتهم لنفوس هؤلاء المطلقات اللاتى تأثرن بسبب هذا الفراق. فالآية الكريمة ترفع الإثم عن الرجال الذين يطلقون النساء قبل الدخول بهن وقبل تسمية المهر لهن، متى كانت المصلحة تستدعى ذلك، وتبين الحقوق التى للمرأة على الرجل فى هذه الحالة.

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء﴾. إلخ هذا أيضًا من أحكام المطلقات، وهو ابتداء إخبار برفع الحرج عن المطلق قبل البناء والجماع، فرض مهرًا أو لم يفرض. ولما نهى رسول الله ﷺ عن التزوج لمعنى الذوق وقضاء الشهوة، وأمر بالتزوج لطلب العصمة والتماس ثواب الله وقصد دوام الصحبة وقع فى نفوس المؤمنين أن من طلق قبل البناء قد واقع جزءًا من هذا المكروه، فنزلت الآية رافعة للجناح فى ذلك إذا كان أصل النكاح على المقصد الحسن»[1].

وقوله : ﴿أو تفرضوا لهن فريضة﴾ معطوف على ﴿تمسوهن﴾ المنفى، أى لا حرج عليكم فى تطليقكم النساء فى حالة عدم الدخول بهن وعدم تقدير مهر معين لهن.

وقوله : ﴿ومتعوهن على الموسع قدره﴾ إلخ تشريع حكيم وتوجيه سديد، لأن فراق المرأة قبل الدخول بها وقبل تقدير مهر لها ينشىء جفوة ممضة بين المرأة وبين مطلقها، وقد يسىء هذا الفراق إليها وإلى أسرتها، فكان هذا الحق الذى جعله الله للمرأة على الرجل هو التمتيع، تسرية لنفسها، وتعويضًا عما أصابها بسبب هذا الفراق، وتلطيفًا لجو الطلاق وما يصاحبه من جفاء وبغضاء، واستبقاء للمودة الإنسانية بين الطرفين، وإزالة لما عسى أن يقوله البعض من أنه ما طلقها من طلقها إلا لشىء.

ولا شك أن إنهاء الحياة الزوجية قبل الدخول فيها، لضرورات اقتضاها هذا الإنهاء، أخف وأيسر من إنهائها بعد الدخول فيها.

قال الجمل ما ملخصه : وقوله : ﴿على الموسع قدره﴾ جملة من مبتدأ وخبر وفيها قولان :

أحدهما : أنها لا محل لها من الإعراب بل هى استئنافية بينت حال المطلق بالنسبة إلى يساره وإقتاره.

والثانى : فى محل نصب على الحال وصاحب الحال فاعل متعوهن. والرابط بين جملة الحال

---

(١) تفسير القرطبى جـ٣ صفحة ١٩٦.

وصاحبها محذوف والتقدير: على الموسع منكم. و﴿متاعًا﴾ منصوب على المصدر. و﴿بالمعروف﴾ جار ومجرور صفة له. و﴿حقًا﴾ صفة ثانية لقوله: ﴿متاعًا﴾ أو مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله. وعامله محذوف وجوبًا والتقدير: حق ذلك حقًا»[1].

هذا، ويرى بعض العلماء أن المتعة واجبة للمرأة على الرجل فى حال مفارقتها قبل الدخول بها وقبل تسمية المهر، لأن الآية الكريمة قد أكدت ذلك وجعلته حقًا ثابتًا لا يجوز التحلل منه قال - تعالى -: ﴿متاعًا بالمعروف حقًا على المحسنين﴾.

ويرى بعضهم أنها مستحبة، لأن التعبير بالمحسنين يدل على أن المتعة غير واجبة وقد رجح المحققون من العلماء الرأى الأول وقالوا: إن الإحسان لا ينافى الوجوب الذى دل عليه الأمر يؤيد هذا قوله: ﴿على الموسع قدره وعلى المقتر قدره﴾، فقد جعل الله المتعة على الفريقين كل فريق على حسب طاقته وقدرته.

والمتعة تختلف باختلاف الأحوال من يسار وإعسار، يقدرها القاضى على الرجل على حسب حالته كما يقدر النفقة.

والصالحون من الناس هم الذين يبذلون المتعة للمطلقة بسخاء ومودة، ولقد أثر عن الحسن بن على - رضى الله عنهما - أنه متع امرأة طلقها بعشرة آلاف درهم، فلما تسلمت هذا المال الوفير قالت: «متاع قليل من حبيب مفارق».

ثم بين - سبحانه - حق المرأة فيما لو طلقت قبل الدخول بها وبعد تسمية مهر لها فقال - تعالى -: ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة، فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح﴾.

أى: وإن طلقتم يا معشر الرجال النساء من قبل أن تدخلوا بهن وتباشروهن، ومن بعد أن قدرتم لهن صداقًا معلومًا، فالواجب عليكم فى هذه الحالة أن تدفعوا لهن نصف ما قدرتم لهن من صداق، إلا أن تتنازل المرأة عن حقها فتتركه لمطلقها بسماحة نفس، بأن تكون هى الراغبة فى الطلاق، أو يتنازل الذى بيده عقدة النكاح وهو الزوج عن حقه بأن يدفع لها المهر كاملا أو ما هو أكثر من النصف لأنه هو الراغب فى الطلاق. وجملة ﴿وقد فرضتم لهن فريضة﴾ فى موضع نصب على الحال من فاعل ﴿طلقتموهن﴾ أو من مفعوله. أى وإن طلقتموهن حالة كونكم فارضين لهن المهر أو حالة كونهن مفروضًا لهن المهر.

والفاء فى قوله: ﴿فنصف ما فرضتم﴾ واقعة فى جواب الشرط، والجملة فى محل جزم جواب

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ صفحة ١٩٣.

الشرط، و« نصف » مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى فالواجب نصف، أو هو مبتدأ محذوف الخبر أى فلهن نصف، وقد صرحت الآية الكريمة بوجوب النصف، ولم تصرح بوجوب دفعه، لأنه قد يكون قدم لها المهر كله أو بعضه، فكان التعبير بالوجوب بيانًا للحكم حتى يسترد المطلق ما دفعه زيادة عن النصف إن أراد ذلك، أو يكمل لها النصف إن كان قد دفع أقل منه.

وقوله: ﴿إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح﴾ استثناء مفرَّغ من عمومَ الأحوال. و﴿يعفون﴾ فعل مضارع الواو فيه لام الفعل، ونونه ضمير جماعة الإناث فهو هنا مبنى على السكون فى محل نصب بأن. ووزنه يفعلن أى: فلهن نصف المهر الذى فرضمتوه لهن فى كل حال إلا فى حال عفو المطلقات أى إبرائهن لكم وتنازلهن عن هذا الحق، أو فى حال عفو الذى بيده عقدة النكاح، وهو الزوج المطلق - عند الأحناف والشافعية - لأنه هو المالك لعقد النكاح وحله، والمراد بعفوه أن يزيد على نصف المهر المقرر.

ويرى المالكية أن الذى بيده عقدة النكاح هو ولى المرأة، لأنه هو الذى بيده عقدة النكاح ثابتة، وأما الزوج فله ذلك حالة العقد المتقدم فقط.

وبكون المعنى على هذا الرأى: عليكم يا معشر الرجال أن تدفعوا للنساء نصف المهر إذا طلقتموهن بعد أن قدرتم لهن مهرًا وقبل أن تمسوهن إلا أن يتنازل النساء عن هذا الحق، إذا كن يملكن ذلك، أو يتنازل أولياؤهن إن كن لا يملكن حق التنازل، كأن تكون البنت صغيرة، أو غير جائزة التصرف.

وقد دل كل فريق على مذهبه بما هو مبسوط فى كتب الفقه.

ثم حبب - سبحانه - إلى الناس التسامح والتعاطف فقال: ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير﴾.

أى: من حق المرأة المطلقة على مطلقها أن يدفع لها نصف المهر إذا كان الطلاق قبل المباشرة وبعد تحديد المهر، وإذا تنازل أحد الطرفين عن جزء من حقه لصاحبه كان هذا التنازل حسنًا. لأن هذا التنازل والتسامح يضفى على جو الطلاق لونًا من المودة والتقارب بين النفوس التى آلمها الفراق بتلك الصورة، فاحرصوا - أيها الناس - على هذا العفو بأن يتنازل كل فريق منكم لصاحبه عن شيء من حقه، ويتسامح معه، فإن ذلك أقرب إلى تقوى القلوب، وصفاء النفوس، ولا تتركوا أن يتفضل بعضكم على بعض بالإحسان، وحب الخير، وجميل الذكر، فالله - تعالى - بصير بأعمالكم وسيحاسبكم عليها، وسيجازى كل نفس بما عملت.

فالجملة الكريمة توجيه حكيم للناس إلى ما يدفع عنهم التشاحن والتباغض والتخاصم

خصوصًا فى حالات الطلاق التى هى من أشد الأحوال دفعًا إلى هذه الرذائل.

ولقد حفظ لنا التاريخ الإسلامى صورًا مشرقة لهذا العفو والفضل من ذلك ما ذكره الإمام الزمخشرى من أن جبير بن مطعم دخل على سعد بن أبى وقاص فعرض عليه بنتًا له فتزوجها. ثم طلقها قبل أن يدخل بها وبعث لها المهر كاملا. فقال له: لم تزوجتها؟ فقال: عرضها على فكرهت رده. فقيل له: فلم بعثت بالصداق كاملا؟ قال: فأين الفضل.

وروى أن أحد الصحابة تزوج امرأة وطلقها قبل الدخول بها فأعطاها الصداق كاملا، فقيل له فى ذلك فقال: أنا أحق بالعفو منها[1].

وهكذا نرى مبلغ استجابة السلف الصالح لتوجيهات القرآن ووصاياه، فأين المسلمون اليوم من هذه الوصايا والأحكام؟

وبعد هذا الحديث المستفيض الذى لم ينته بعد عن الطلاق وأحكامه وآدابه، أورد القرآن آيتين كريمتين تأمران بالمحافظة على الصلاة وبالمداومة على طاعة الله، وبالملازمة لذكره - عز وجل - فقال - تعالى -:

حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾

ولعل السر فى توسط هاتين الآيتين بين آيات الأحكام التى تحدثت عن الطلاق، والعدة والرضاع والخطبة... إلخ، لعل السر فى ذلك أن هذه الأمور كثيرًا ما تكون مثار تنازع وتخاصم وتقاطع بين الناس، فأراد القرآن بطريقته الحكيمة، وبأسلوبه المؤثر أن يقول للناس: إن محافظتكم على الصلاة، ومداومتكم على طاعة الله وذكره كل ذلك سيعرض فى نفوسكم المراقبة له - سبحانه -، والخشية من عقابه، وسيعينكم على أن تحلوا قضاياكم التى تتعلق بالطلاق وغيره بالعدل والإحسان والتسامح والتعاطف، لأن من حافظ على فرائض الله وأوامره، انصرفت نفسه عن ظلم الناس، وعاملهم معاملة كريمة حسنة. وقد بين القرآن فى كثير من آياته أن المحافظة على الصلاة بخشوع وخضوع لله - تعالى - وأن المداومة على ذكره،

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٨٦ بتصرف يسير.

والملازمة لطاعته كل ذلك من شأنه أن يمنع الإنسان من الوقوع فيما نهى الله عنه، قال - تعالى - : ﴿اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر﴾..

وقال - تعالى - : ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾، وقال - تعالى - : ﴿وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين﴾.

فكأن الله - تعالى - يقول للناس: لقد أمرتكم بالمحافظة على الصلاة، وبالمداومة على طاعتى وذكرى خلال حديثى عن أحكام كثيرًا ما تكون هذه الأحكام مثار تنازع بينكم، وذلك لكى تحلوا التسامح والتواصل والتقارب محل التشاحن والتدابر والتجافى، لأن من شأن المحافظة على هذه العبادات، أن تهدى الناس إلى أكمل الأخلاق والصفات.

فسبحان من هذا كلامه، ومن تلك إرشاداته وتوجيهاته ووصاياه.

وقوله - تعالى - : ﴿حافظوا﴾ من الحفظ بمعنى ضبط الشىء، وصيانته عن كل تضييع، وهو خلاف النسيان. والخطاب لجميع المكلفين من أفراد الأمة.

والمعنى: حافظوا يا معشر المسلمين والمسلمات على أداء الصلوات فى أوقاتها بخشوع وخضوع وإخلاص لله رب العالمين، وحافظوا بصفة خاصة على الصلاة الوسطى، لما لها من منزلة سامية، ومكانة عالية.

فقد أمر الله - تعالى - عباده بالمحافظة على الصلوات بصفة عامة، وأفرد الصلاة الوسطى بالذكر تفخيمًا لشأنها، وإعلاء لقدرها من بين أفراد جنسها. والمسلم يكون محافظًا على الصلاة إذا أداها فى وقتها مستوفية لآدابها وسننها وشرائعها وخشوعها وكل ما يتعلق بها، أما إذا قصر فى شىء من ذلك فإنه لا يكون محافظًا عليها تلك المحافظة التامة التى أمر الله بها.

وفى قوله - تعالى - : ﴿حافظوا﴾ تنبيه إلى أن الصلاة فى ذاتها شىء نفيس ثمين تجب المحافظة عليه، لأن هذه الكلمة تدل على الصيانة والضبط بجانب دلالتها على الأداء والإقامة والمداومة.

قال الإمام الرازى: وقوله: ﴿حافظوا﴾ بصيغة المفاعلة التى تكون بين اثنين. للدلالة على أن هذه المحافظة تكون بين العبد والرب. فكأنه قيل: احفظ الصلاة ليحفظك الإله الذى أمرك بها. وهذا كقوله: «فاذكرونى أذكركم» وفى الحديث «احفظ الله يحفظك». أو أن تكون المحافظة بين المصلى والصلاة. فكأنه قيل: احفظ الصلاة حتى تحفظك الصلاة بمعنى أنها

تحفظك من ارتكاب المعاصى، وتشفع لمصليها يوم القيامة»[١].

وللعلماء أقوال فى المراد بالصلاة الوسطى التى أفردها الله - تعالى - من بين الصلوات.

فجمهور العلماء يرون أنها واحدة من بين الصلوات الخمس المفروضة، وأن الوسطى مؤنث الأوسط أى الشيء المتوسط بين شيئين، فالصلاة الوسطى هى الصلاة المتوسطة بين صلاتين، إلا أنهم اختلفوا فى تعيينها.

فأكثر العلماء على أن الصلاة الوسطى هى صلاة العصر، لأنها تقع فى وسط الصلوات الخمس، إذ قبلها اثنتان وبعدها اثنتان، ولأنها وسط بين صلاتى النهار، وصلاتى الليل، فمعنى التوسط فيها واضح، ولأنها مظنة التقصير لمجيئها بعد وقت الظهيرة الذى يكون فى الغالب وقت كسل.

وفضلا عن ذلك فقد صرحت بعض الأحاديث بأنها صلاة العصر، وقد ساق الإمام ابن كثير عددًا من هذه الأحاديث ومنها ما جاء فى صحيح مسلم ومسند الإمام أحمد عن على بن أبى طالب قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله قلوبهم وبيوتهم نارًا، ثم صلاها بين العشاءين المغرب والعشاء، وفى مسند الإمام أحمد عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: «الصلاة الوسطى صلاة العصر».

وقد خصت صلاة العصر بمزيد من التأكيد، وبالأمر بالمحافظة عليها، وبالتحذير من التقصير فيها، مما يشهد بأنها هى الصلاة الوسطى، فقد روى البخارى ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «الذى تفوته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله» أى: سلب من أهله وماله فبقى وحيدًا بدونهما.

وقال بعضهم المراد بالصلاة الوسطى صلاة الصبح، وقيل صلاة الظهر، وقيل صلاة المغرب، وقيل العشاء، وقيل الجمعة، وقيل غير ذلك من الأقوال التى لا تبلغ فى قوتها مبلغ قول القائلين بأنها صلاة العصر، ولذا قال ابن كثير وكل هذه الأقوال فيها ضعف بالنسبة إلى التى قبلها، ومعترك النزاع فى الصبح والعصر، وقد أثبتت السنة أنها العصر فتعين المصير إليها - أى إلى أن المراد بالصلاة الوسطى صلاة العصر[٢].

ومن العلماء من اتجه فى بيان المراد من الصلاة الوسطى اتجاهًا آخر فهو يرى أن المراد بالصلاة الوسطى الصلوات كلها، وأن الوسطى ليست بمعنى المتوسطة بين صلاتين، وإنما هى بمعنى

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص ١٥٧. بتلخيص.

(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٩١ وما بعدها.

الفضلى لأن وسط الشيء خياره وأعدله وأفضله فالمقصود بها فعلها أو أداؤها بطريقة سليمة كاملة. والمعنى على هذا الرأى: حافظوا يا معشر المسلمين على الصلوات كلها، وحافظوا على أن يكون أداؤكم لها بطريقة وسطى أى فاضلة بأن تأدوها فى أوقاتها كاملة الأركان والسنن والآداب والخشوع.

قال ابن كثير: وقيل بل الصلاة الوسطى مجموع الصلوات الخمس رواه ابن أبى حاتم عن ابن عمر وفى صحته نظر. والعجب أن هذا القول قد اختاره الشيخ أبوعمر بن عبد البر إمام ما وراء البحر، وإنها لإحدى الكبر، إذ اختار مع اطلاعه وحفظه ما لم يقمَ عليه دليل من كتاب ولا سنة ولا أثر».

ومن العلماء المحدثين الذين استحسنوا هذا الرأى الشيخ محمد عبده - رحمه الله - فقد قال: «ولولا أنهم اتفقوا على أنها - أى الصلاة الوسطى - إحدى الخمس لكان يتبادر إلى فهمى من قوله: «الصلاة الوسطى» أن المراد بالصلاة الفعل وبالوسطى الفضلى أى: حافظوا على أنواع الصلاة وهى الصلاة التى يحضر فيها القلب وتتوجه بها النفس إلى الله - تعالى - وتخشع لذكره، وتدبر كلامه لا صلاة المرائين ولا الغافلين»[1].

والذى نراه أن ما عليه الجمهور من أن الصلاة الوسطى هى واحدة من بين الصلوات الخمس، وأنها صلاة العصر هو أقوى الآراء، لأنه - أولا - يتفق مع أصحاب الاتجاه الثانى الذين يقولون بأن أداء الصلاة يجب أن يكون بطريقة تامة الأركان والسنن والخشوع وما قال أحد منهم بأن تحديدها بصلاة العصر ينفى أداء بقية الفرائض بكمال واطمئنان. ولأنه - ثانيًا - قد امتاز عن رأى أصحاب الاتجاه الثانى بأنه أعمل النص الصحيح الثابت عن رسول الله ﷺ بأن الصلاة الوسطى هى صلاة العصر، ولا شك أن إعمال النص أولى من إهماله أو من تأويله تأويلا ضعيفًا.

وقوله: ﴿وقوموا لله قانتين﴾ مؤكدا لما قبله من المحافظة والمداومة على أداء الصلاة.

والقنوت: لزوم الطاعة مع الخضوع والخشوع. أى قوموا فى الصلاة مطيعين لله - تعالى - مؤيدين لها على وجهها الكامل فى خشوع وخضوع واطمئنان.

والفاء فى قوله: ﴿فإن خفتم فرجالا أو ركبانًا﴾ للتفريع أى: حافظوا على الصلاة فى كل وقت، وأدوها بخشوع واطمئنان، فإن كان بكم خوف من عدو فى حال المقاتلة فى الحرب أو من غيره لسبب من الأسباب، فصلوا راجلين أى ماشين على الأقدام، أو راكبين على ركائبكم بإيماء، سواء وليتم وجوهكم شطر القبلة أولا.

(١) تفسير المنار جـ٢ ص ٤٣٨.

و (رجالا) جمع راجل. وهو القوى على المشىَ برجليه. يقال: رَجل الإنسان يرجل رجلا إذا لم يجد ما يركبه ومشى على قدميه، والركبان جمع راكب للجمل أو الفرس أو غيرهما.

وجواب الشرط محذوف والتقدير: فإن خفتم فصلوا راجلين أو راكبين، وهذان اللفظان أى - رجالا أو ركبانًا - حالان من الضمير فى «فصلوا» المحذوف.

والآية الكريمة تدل على شدة عناية الإسلام بشأن الصلاة، فقد أمر الله - تعالى - عباده بأن يحافظوا عليها فى حالتى الأمن والخوف، والصحة والمرض، والسفر والإقامة..

وقد بسط هذا المعنى الأستاذ الإمام محمد عبده فقال ما ملخصه: وقوله - تعالى -: ﴿فإن خفتم فرجالا أو ركبانًا﴾ هذا تأكيد للمحافظة على الصلاة، وبيان أنها لا تسقط بحال، لأن حال الخوف على النفس أو العرض أو المال هو مظنة العذر فى الترك كما يكون السفر عذرًا فى ترك الصيام.. والسبب فى عدم سقوط الصلاة عن المكلف بحال أنها عمل قلبى، وإنما فرضت تلك الأعمال الظاهرة لأنها مساعدة على العمل القلبى المقصود بالذات، وهو تذكر سلطان الله - تعالى - المستولى علينا وعلى العالم كله، ومن شأن الإنسان إذا أراد عملا قلبيًا يجتمع فيه الذكر أن يستعين على ذلك ببعض ما يناسبه من قول وعمل.

ولا ريب أن هذه الهيأة التى اختارها الله - تعالى - للصلاة هى أفضل معين على استحضار سلطانه فإن قولك «الله أكبر» فى فاتحة الصلاة وعند الانتقال فيها من عمل إلى عمل يعطيك من الشعور بكون الله أكبر وأعظم من كل شىء ما يغمر روحك، ويستولى على إرادتك.. وكذلك الشأن فى سائر أعمال الصلاة.

فإذا تعذر عليك الإتيان ببعض تلك الأعمال البدنية؛ فإن ذلك لا يسقط عنكِ هذه العبادة القلبية التى هى روح الصلاة وغيرها، وهى الإقبال على الله - تعالى - واستحضار سلطانه، مع الإشارة إلى تلك الأعمال بقدر الإمكان الذى لا يمنع من مدافعة الخوف الطارىء من سبع مفترس، أو عدو مغتال، أو لص محتال.. فالآية تعلمنا أنه يجب أن لا يذهلنا عن الله شىء فى حال من الأحوال..»[1].

وقال الإمام ابن العربى: قوله - تعالى -: ﴿فإن خفتم فرجالا أو ركبانًا﴾ أمر الله - تعالى - بالمحافظة على الصلاة فى كل حال من صحة ومرض، وحضر وسفر، وقدرة وعجز، وخوف وأمن، لا تسقط عن المكلف بحال، ولا يتطرق إلى فرضيتها اختلال. وقد قال ﷺ: «صل قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب».

(١) تفسير المنار جـ٢ صفحة ٤٤٣.

والمقصود من ذلك أن تفعل الصلاة كيفما أمكن، لا تسقط بحال حتى لو لم يتفق فعلها إلا بالإشارة بالعين للزم فعلها كذلك إذا لم يقدر على حركة سائر الجوارح، وبهذا المعنى تميزت عن سائر العبادات، فإن العبادات كلها تسقط بالأعذار، ولذلك قال علماؤنا: إن تارك الصلاة يقتل، لأنها أشبهت الإيمان الذى لا يسقط بحال، ولا تجوز النيابة فيها ببدن ولا مال»[1].

ثم قال - تعالى - : ﴿فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم مالم تكونوا تعلمون﴾ أى فإذا زال خوفكم وصرتم آمنين مطمئنين، «فاذكروا الله» أى فأدوا الصلاة تامة كاملة مثل ما علمكم إياها ربكم على لسان نبيكم ﷺ وقد من الله - تعالى - عليكم بهذا التعليم الذى كنتم تجهلونه فضلا منه وكرمًا.

وعبر - سبحانه - «بإن» المفيدة للشك فى حالة الخوف، وبإذا المفيدة للتحقيق فى حالة الأمن، للإشعار بأن حالة الأمن هى الحالة الكثيرة الثابتة، وأن حالة الخوف هى الحالة القليلة الطارئة، وفى ذلك فضل جزيل من الله - تعالى - على عباده يحملهم على شكره وطاعته، حيث وهبهم الأمان والاطمئنان فى أغلب أوقات حياتهم.

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين الكريمتين قد أمرتا المسلم بأن يحافظ على الصلاة محافظة تامة، إذ فى هذه المحافظة سعادة للإنسان، ودافع له على أداء الحقوق لأربابها، وزاجر له عن اقتراف ما نهى الله عنه.

ثم ختمت السورة الكريمة حديثها عن أحكام الزواج وما يتعلق به من طلاق ووصية وعدة وغير ذلك من أحكام بقوله - تعالى - :

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

(١) أحكام القرآن لابن العربى جـ١ صفحة ٢٢٧.

والآية الأولى من هذه الآيات تبين بعض الحقوق التى شرعها الله - تعالى - للمرأة التى توفى عنها زوجها.

والمعنى : لقد شرع الله لكم فيما شرع من أحكام، أن على المسلم قبل أن يحضره الموت أن يوصى لزوجته التى على قيد الحياة بما تنتفع به انتفاعًا مستمرًا لمدة حول من وفاته، ولا يصح أن يخرجها أحد من مسكن الزوجية.

وقوله : ﴿وصية﴾ فيه قراءتان مشهورتان.

القراءة الأولى بالنصب، والتقدير : والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجًا فليوصوا وصية، أو كتب الله عليهم وصية لأزواجهم.

والقراءة الثانية بالرفع والتقدير : فعليهم وصية لأزواجهم.

وعلى قراءة النصب تكون كلمة ﴿وصية﴾ مفعولاً مطلقًا أو مفعولا به، وعلى قراء الرفع تكون مبتدأ محذوف الخبر. وقوله : ﴿لأزواجهم﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لكلمة ﴿وصية﴾ على القراءتين. أى : وصية كائنة لأزواجهم.

والمراد بقوله : ﴿متاعًا﴾ ما تتمتع به الزوجة من السكن والنفقة بعد وفاة زوجها بوصية منه. وهو منصوب على المصدر أى متعوهن متاعًا أو على المفعولية. أى جعل الله لهن ذلك متاعًا.

وقال - سبحانه - : ﴿متاعًا إلى الحول﴾ للتنصيص على أن هذه المدة تمتد حولا كاملا منذ وفاة زوجها، إذ كلمة حول تدل على التحول أى حتى تعود الأيام التى حدثت فيها الوفاة. وقوله : « غير إخراج » حال من أزواجهم أى غير مخرجات من مسكن الزوجية، فلا يصح لورثة الميت أن يخرجوهن من مسكن الزوجية بغير رضاهن، لأن بقاءهن فى مسكن الزوجية حق شرعه الله لهن، فلا يجوز لأحد أن يسلبه منهن بغير رضاهن.

ثم قال - تعالى - : ﴿فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن من معروف﴾.

أى : ﴿فإن خرجن﴾ من منزل الزوجية برضاهن ورغبتهن ﴿فلا جناح عليكم﴾ أى فلا إثم عليكم أيها المسلمون ﴿فيما فعلن فى أنفسهن من معروف﴾ أى فيما فعلن فى أنفسهن من أمور لا ينكرها الشرع كالتزين والتطيب والتزوج بعد انتهاء عدتها وهى أربعة أشهر وعشرة أيام.

هذا، وللعلماء فى تفسير هذه الآية اتجاهان مشهوران :

أما الاتجاه الأول : فيرى أصحابه أن هذه الآية منسوخة لأنها توجب على الزوج حين مشارفة الموت أن يوصى لزوجته بالنفقة والسكنى حولا، ويجب عليها الاعتداد حولا، وهى مخيرة بين السكنى فى بيته حولا ولها النفقة، وبين أن تخرج منه ولا نفقة لها، ولم يكن لها ميراث من زوجها

قالوا: وكان هذا الحكم فى ابتداء الإسلام. وقد نسخ وجوب الوصية بالنفقة والسكنى بآية المواريث وبحديث «ألا لا وصية لوارث» حيث جعل لها الربع أو الثمن عوضًا عن النفقة والسكنى ونسخ وجوب العدة حولا بقوله - تعالى - قبل ذلك: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجًا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرًا﴾ الآية.

قالوا: ومما يشهد لذلك ما أخرجه أبو داود والنسائى عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية: نسخت بآية الميراث بما فرض الله لهن من الربع والثمن «ونسخ أجل الحول بأن جعل أجلها أربعة أشهر وعشرًا»[1].

وقد حكى هذا الرأى صاحب الكشاف فقال: والمعنى: أن حق الذين يتوفون عن أزواجهم أن يوصوا قبل أن يحتضروا بأن تمتع أزواجهم بعدهم حولا كاملا، أى: ينفق عليهن من تركته ولا يخرجن من مساكنهن. وكان ذلك فى أول الإسلام ثم نسخت المدة بقوله: ﴿أربعة أشهر وعشرًا﴾ وقيل نسخ مازاد منه على هذا المقدار. ونسخت النفقة بالإرث الذى هو الربع والثمن.

واختلف فى السكنى فعند أبى حنيفة لا سكنى. ثم قال: فإن قلت كيف نسخت الآية المتقدمة المتأخرة؟ قلت: قد تكون الآية متقدمة فى التلاوة وهى متأخرة فى التنزيل. كقوله - تعالى -: ﴿سيقول السفهاء﴾ مع قوله ﴿قد نرى تقلب وجهك فى السماء﴾[2].

وعلى هذا الاتجاه سار جمهور المفسرين.

أما الاتجاه الثانى: فيرى أصحابه أن هذه الآية محكمة وليست منسوخة وممن ذهب إلى هذا الاتجاه مجاهد، فقد قال ما ملخصه: دلت الآية الأولى وهى ﴿يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرًا﴾ على أن هذه عدتها المفروضة تعتدها عند أهل زوجها. ودلت هذه الآية بزيادة سبعة أشهر وعشرين ليلة على العدة السابقة تمام الحول، وأن ذلك من باب الوصية للزوجات أن يمكن من السكنى فى بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولا كاملا ولا يمنعن من ذلك لقوله: ﴿غير إخراج﴾ فإذا انقضت عدتهن بالأربعة أشهر والعشر - أو بوضع الحمل - واخترن الخروج والانتقال من ذلك المنزل فإنهن لا يمنعن من ذلك لقوله: ﴿فإن خرجن﴾.

ومن المفسرين الذين أيدوا هذا الاتجاه الإمام ابن كثير فقد قال - بعد أن ساق قول مجاهد -

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب الطلاق باب نسخ متاع المتوفى عنها زوجها بما فرض لها من الميراث.
(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٨٩.

وهذا القول له اتجاه وفى اللفظ مساعدة له وقد اختاره جماعة منهم الإمام أبو العباس بن تيمية[١].

كما أيده أيضًا الإمام الفخر الرازى فى تفسيره، فقد قال بعد أن ساق بعض الأدلة التى تثبت ضعف قول من قال بالنسخ: «فكان المصير إلى قول مجاهد أولى من التزام النسخ من غير دليل»[٢].

والخلاصة أن أصحاب هذا الاتجاه الثانى لا يرون معارضة بين هذه الآية وبين آية ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجًا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرًا﴾ لأن الآية التى معنا لا تتحدث عن عدة المتوفى عنها زوجها وإنما تتحدث عن حقها فى البقاء فى منزل الزوجية بعد وفاة زوجها، وأن هذا الحق ثابت لها فإن شاءت بقيت فيه، وإن شاءت خرجت منه على حسب ما نراه مصلحة لها، ولأنها لا يوجد فى ألفاظها أو معانيها ما يلزم المرأة بالتربص والامتناع عن الأزواج مدة معينة.

أما الآية الثانية فنراها واضحة فى الأمر بالتربص أربعة أشهر وعشرًا، وهى العدة التى يجب أن تمتنع فيها المرأة التى مات عنها زوجها عن التزين والتعرض للزواج. إذن فلا تعارض بين الآيتين ومتى انتفى التعارض انتفى النسخ.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿والله عزيز حكيم﴾ أى: عزيز فى انتقامه ممن تعدى حدوده، إذ هو القاهر فوق عباده، حكيم فيما شرع لهم من آداب وأحكام فينبغى أن يمتثل الناس أوامره ويجتنبوا ما نهاهم عنه.

ثم بين - سبحانه - حق المطلقات فقال: ﴿وللمطلقات متاع بالمعروف حقًّا على المتقين﴾ أى وللمطلقات على أزواجهن الذين طلقوهن متاع بالمعروف أى شىء ينتفع به انتفاعًا ممتدًا لمدة من الوقت مما تعارف العقلاء عليه وعلى فائدته للمرأة، وهذا المتاع جعله الله حقا على المتقين الذين يصونون أنفسهم عن كل ما يبغضه الله - تعالى -.

وقد جعل الله هذا الحق للمطلقة على مطلقها جبرًا لوحشة الفراق وإزالة لما قد يكون بين الزوجين من شقاق، وتخفيفًا لما قد يحيط بجو الطلاق من تنافر وتخاصم وعدم وفاق.

قال ابن كثير: وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى وجوب المتعة لكل مطلقة سواء كانت مفوضة، أو مفروضًا لها، أو مطلقة قبل المسيس، أو مدخولا بها. وإليه ذهب

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٣ ص ٢٩٧ بتصرف يسير.

(٢) راجع تفسير الفخر الرازى جـ٦ ص ١٦٨.

سعيد بن جبير وغيره من السلف واختاره ابن جرير، وهو قول عن الشافعى[١].

وعلى هذا التفسير يكون المراد بالمتاع ما يعطيه الرجل لامرأته التى طلقها زيادة عن الحقوق المقررة لها شرعا ليكون التسريح بإحسان.

ومن العلماء من يرى أن المراد بالمتاع هنا النفقة التى تكون للمطلقة فى العدة قال الفخر الرازى: واعلم أن المراد بالمتاع ههنا فيه قولان:

أنه هو المتعة فظاهر هذه الآية يقتضى وجوب هذه المتعة لكل المطلقات..

والقول الثانى أن المراد بهذه المتعة النفقة، والنفقة قد تسمى متاعا، وإذا حملنا هذا المتاع على النفقة اندفع التكرار فكان ذلك أولى»[٢].

ويظهر أن مراد الفخر الرازى بقوله: «اندفع التكرار» أى ما بين هذه الآية والآية التى سبقت وهى قوله - تعالى -: ﴿ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين﴾ ولك أن تقول: إنه لا تكرار مع إرادة المتعة التى ليست هى النفقة لأنه فى السابقة بين أنها حق للمرأة حين تطلق ولم يكن قد قدر لها مهر معين، وهنا ذكرت عقب آية الوفاة لدفع ما يتوهم من أن المتوفى عنها زوجها لها حق فى المتعة إذا لم يوص لها زوجها بالنفقة.

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات المتعلقة بأحكام الأسرة بقوله: ﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾.

أى: مثل هذا البيان الحكيم الواضح الذى بين الله لكم به الأحكام السابقة، يبين لكم جميع آياته وأحكامه التى أنتم فى حاجة إليها لكى تفهموا ما فيها وتعقلوه وتعملوا به فتنالوا السعادة فى الدنيا والآخرة.

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد بينت لنا فى أكثر من عشرين آية بعض الأحكام التى تتعلق بالأسرة وصيانتها وسعادتها بأسلوب مؤثر حكيم وبطريقة تهدى إلى أفضل الأخلاق، وأقوم العلاقات بين الأفراد والجماعات، وإن المتأمل فى هذه الآيات وما اشتملت عليه من توجيهات سامية ليوقن بأن هذا القرآن إنما هو من عند الله، الذى شرع لعباده ما فيه صلاحهم وسعادتهم.

وبعد هذا البيان الحكيم عن الأسرة وما يتعلق بها من زواج وطلاق وغير ذلك، ساق القرآن من القصص ما من شأنه أن يدعو إلى التذكر والاعتبار ويحرض على الجهاد فى سبيل الله،

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٩٧.

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ١ ص ١٧٢.

ويحمل المتأملين فى توجيهاته على إقامة الأسرة على أقوى الدعائم، وأفضل المبادىء التى بها تنال الأمم عزتها وكرامتها وسعادتها. فقال - تعالى - :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

قال الآلوسى : قوله - تعالى - : ﴿ألم تر﴾ هذه الكلمة قد تذكر لمن تقدم علمه فتكون للتعجب والتقرير والتذكير لمن علم بما يأتى - كالأحبار وأهل التواريخ - وقد تذكر لمن لا يكون كذلك فتكون لتعريفه وتعجيبه، وقد اشتهرت فى ذلك حتى أجريت مجرى المثل فى هذا الباب، بأن شبه من «لم ير» الشىء بحال من رآه فى أنه لا ينبغى أن يخفى عليه وأنه ينبغى أن يتعجب منه، ثم أجرى الكلام معه كما يجرى مع من رأى، قصدًا إلى المبالغة فى شهرته وعراقته فى التعجب. ثم قال : والرؤية إما بمعنى الإبصار مجازًا عن النظر، وفائدة التجوز الحث على الاعتبار، لأن النظر اختيارى دون الادراك الذى بعده. وإما بمعنى الإدراك القلبى متضمنًا معنى الوصول والانتهاء ولهذا تعدت - أى الرؤية - بإلى فى قوله : ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا . .﴾[1].

والمعنى : قد علمت أيها الرسول الكريم أو أيها الإنسان العاقل - حال أولئك القوم الذين خرجوا من ديارهم التى ألفوها واستوطنوها، وهم ألوف مؤلفة، وكثرة كاثرة، وما كان خروجهم إلا فرارا وخوفًا من الموت الذى سيلاقيهم - إن عاجلا أو آجلا -.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٢ صفحة ١٦٠.

ومن لم يعلم حالهم فها نحن أولاء نعلمه بها ونحيطه بما جرى لهم عن طريق هذا الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

والمقصود من هذه الآية الكريمة حض الناس جميعًا على الاعتبار والاتعاظ وزجرهم عن الفرار من الموت هلعًا وجبنًا، وتحريضهم على القتال فى سبيل الله فقد قال - تعالى - بعد ذلك: ﴿وقاتلوا فى سبيل الله . .﴾ وإفهامهم أن الفرار من الموت لن يؤدى إلا إلى الوقوع فيه.

وقوله: ﴿وهم ألوف﴾ جملة حالية من الضمير فى ﴿خرجوا﴾ و﴿ألوف﴾ جمع ألف. والتعبير بألوف يفيد أنهم كانوا كثيرى العدد، ومن شأن الكثرة أنها تدعو إلى الشجاعة ولكنهم مع هذه الكثرة قد استولى عليهم الجبن فخرجوا من ديارهم هربًا من الموت.

وقيل إن معنى ﴿وهم ألوف﴾ أنهم خرجوا مؤتلفى القلوب، ولم يخرجوا عن افتراق كان منهم، ولا عن تباغض حدث بينهم. وألوف على هذا القول جمع آلف مثل قاعد وقعود وشهود. قالوا: والوجه الأول أجدر بالاتباع لأن ورود الموت عليهم وهم كثرة عظيمه يفيد مزيد اعتبار بحالهم، ولأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة.

وقوله: ﴿حذر الموت﴾ أى خرجوا لحذر الموت وخشيته، فقوله: ﴿حذر﴾ منصوب على أنه مفعول لأجله. والجملة الكريمة تشير إلى أن خروجهم كان الباعث عليه الحرص على مطلق حياة ولو كانت حياة ذل ومهانة، وأنه لم يكن هناك سبب معقول يحملهم على هذا الخروج، ولذا كانت نتيجة ذلك أن عاقبهم الله - تعالى - بالموت الذى هربوا منه فقال:

﴿فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم﴾ أى: فقال لهم الله موتوا فماتوا ثم أحياهم بعد ذلك. فجملة ﴿ثم أحياهم﴾ معطوفة على مقدر يستدعيه المقام أى، فماتوا ثم أحياهم. وإنما حذف للدلالة على الاستغناء عن ذكره لاستحالة تخلف مراده - تعالى - عن إرادته.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿فقال لهم الله موتوا﴾ قلت: معناه فأماتهم وإنما جىء به على هذه الصورة للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر الله ومشيئته، وتلك ميتة خارجة عن العادة، كأنهم أمروا بشىء فامتثلوه امتثالا من غير إباء ولا توقف كقوله - تعالى -: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون﴾ وهذا تشجيع للمسلمين على الجهاد والتعرض للشهادة، وأن الموت إذا لم يكن منه بد، ولم ينفع منه مفر، فأولى أن يكون فى سبيل الله»(١).

وقال الجمل: «فإن قلت هذا يقتضى أن هؤلاء ماتوا مرتين وهو مناف للمعروف من أن

(١) تفسير الكشاف جـ١ صفحة ٢٩٠.

موت الخلق مرة واحدة؟ قلنا فى الجواب : لا منافاة إذ الموت هنا عقوبة مع بقاء الأجل كما فى قوله فى قصة موسى : ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ وثم موت بانتهاء الأجل، وتلخيصه : أنه - سبحانه - أماتهم قبل آجالهم عقوبة لهم ثم بعثهم إلى بقية آجالهم، وميتة العقوبة بعدها حياة - أى فى الدنيا - بخلاف ميتة الأجل - فلا حياة بعدها فى الدنيا - . . »(١).

وبعد هذا البيان لمعنى الآية قد يقال : من هم أولئك القوم الذين خرجوا من ديارهم فرارًا من الموت؟ وهل الإماتة والإحياء بالنسبة لهم كانا على سبيل الحقيقة؟

للإجابة على السؤال الأول نقول : لم يرد حديث صحيح عن رسول الله ﷺ يبين لنا فيه من هؤلاء القوم وفى أى زمن كانوا، وإنما أورد بعض المفسرين عن بعض الصحابة والتابعين روايات فيها مقال، وفيها تفصيلات نرى من الخير عدم ذكرها لضعفها. ومن هذه الروايات ما جاء عن ابن عباس أنه قال : كانوا أربعة آلاف خرجوا فرارًا من الطاعون، حتى إذا كانوا بموضع كذا أو كذا ماتوا . . ثم أحياهم الله بدعوة دعاها نبيهم(٢).

ومنها أنهم - قوم من بنى إسرائيل - فروا من الجهاد حين أمرهم الله به على لسان نبيهم « حزقيل » وخافوا من الموت فى الجهاد فخرجوا من ديارهم فأماتهم الله ليعرفهم أنه لا ينجيهم من الموت شىء، ثم أحياهم وأمرهم بالجهاد . . ».

قال القرطبى بعد أن ساق هذه الرواية : وقال ابن عطية : وهذا القصص كله لين الأسانيد، وإنما اللازم من الآية أن الله - تعالى - أخبر نبيه محمدًا ﷺ إخبارًا فى عبارة التنبيه والتوقيف عن قوم من البشر خرجوا من ديارهم فرارًا من الموت فأماتهم الله ثم أحياهم ليروا هم وكل من جاء من بعدهم أن الإماتة إنما هى بيد الله لا بيد غيره، فلا معنى لخوف خائف ولا لاغترار مغتر. وجعل الله هذه الآية مقدمة بين يدى أمر المؤمنين من أمة محمد ﷺ بالجهاد. وهذا قول الطبرى وهو ظاهر وصف الآية »(٣) والذى نراه أن الرواية الثانية التى تقول : إنهم قوم من بنى إسرائيل فروا من الجهاد حين أمرهم الله به . . معقولة المعنى، ويؤيدها سياق الآيات، لأن الآيات تحض الناس على القتال فى سبيل الله، وتسوق لهم قصة هؤلاء القوم لكى يعتبروا ويتعظوا ولا يتخلفوا عن الجهاد الذى هو باب من أبواب الجنة - كما قال الإمام على بن أبى طالب - ولأن قوله - تعالى - : ﴿وهم ألوف﴾ يشعر بأنهم مع كثرة عددهم قد نكصوا على أعقابهم، وفروا من وجوه أعدائهم وهذا شأن بنى إسرائيل فى كثير من أدوار تاريخهم وما قاله ابن عطية يشير إليها فهو

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ صفحة ١٩٧. بتصرف يسير.
(٢) تفسير ابن كثير جـ١ صفحة ٢٩٨ بتلخيص.
(٣) تفسير القرطبى جـ٢ صفحة ٢٣٩.

يقول: وجعل الله هذه الآية مقدمة بين يدى أمر المؤمنين... بالجهاد. إلا أنه آثر وصفهم بأنهم قوم من البشر.

وللإجابة على السؤال الثانى وهو - هل الإماتة والإحياء بالنسبة لهم كانا على سبيل الحقيقة - نقول: مبلغ علمنا أن المفسرين السابقين مجمعون على أن الموت كان موتًا حقيقيًا حسيًا لهم، وأن إعادتهم إلى الحياة بعد ذلك كانت إعادة حقيقية حسية.

وقد خالف الأستاذ الإمام محمد عبده إجماع المفسرين هذا فرأى أن المراد بالموت فى الآية الموت المعنوى بمعنى أن موت الأمم إنما هو فى جبنها وذلتها وأن حياتها إنما تكون فى عزتها وحريتها، فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه.

«.. والمتبادر من السياق أن أولئك القوم خرجوا من ديارهم بسائق الخوف من عدو مهاجم لا من قلتهم، فقد كانوا ألوفًا أى كثيرين، وإنما هو الحذر من الموت الذى يولده الجبن فى أنفس الجبناء، فيريهم أن الفرار من القتال هو الواقى من الموت وما هو إلا سبب الموت بما يمكن الأعداء من رقاب أهله، قال أبو الطيب:

يرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللئيم

ثم قال: لقد خرجوا فارين ﴿فقال لهم الله موتوا﴾ أى أماتهم بإمكان العدو منهم... فمعنى أولئك القوم هو أن العدو نكل بهم فأفنى قوتهم وأزال استقلال أمتهم حتى صارت لا تعد أمة، بأن تفرق شملها، وذهبت جامعتها، فكل من بقى من أفرادها بقى خاضعًا للغالبين ضائعًا فيهم، لا وجود له فى نفسه، وإنما وجوده تابع لوجود غيره.

ومعنى حياتهم هو عود الاستقلال إليهم، ذلك أن من رحمة الله فى البلاء يصيب الناس أنه يكون تأديبًا لهم، ومطهرًا لنفوسهم مما عرض لها من دنس الأخلاق الذميمة. أشعر الله أولئك القوم بسوء عاقبة الخوف والجبن والفشل والتخاذل بما أذاقهم من مرارتها، فجمعوا كلمتهم، ووثقوا رابطتهم، حتى عادت لهم وحدتهم، فاعتزوا وكثروا حتى خرجوا من ذل العبودية التى كانوا فيها إلى عز الاستقلال فهذا معنى حياة الأمم وموتها»[1].

فأنت ترى أن الأستاذ الإمام يرى أن الموت والحياة فى الآية معنويان، بمعنى أن موت الأمم فى جبنها وذلتها، وحياتها فى استقلالها وحريتها.

ولعله - رحمه الله - قد اتجه هذا الاتجاه لأن الحض على القتال فى سبيل الله واضح فى هذه الآيات، ولأنه يرى أن واقع العالم الإسلامى يومئذ وما أصابه من ظلم واستبداد واستلاب

---

(١) راجع تفسير المنار جـ٢ ص ٤٥٧ وما بعدها.

للحرية يدعوه إلى أن يحرض المسلمين على القتال فى سبيل حقهم المسلوب، وأن يحذرهم من سوء عاقبة الجبن والخنوع.

ومع أننا لا نشك فى الدوافع الطيبة والبواعث الكريمة التى جعلت الأستاذ الإمام يتجه هذا الاتجاه، إلا أننا لا نتردد فى اختيار ما ذهب إليه المفسرون من أن الموت والحياة فى الآية حسيان حقيقيان، لأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة، ولأنه يتجه اتجاهًا أعم من اتجاه الإمام محمد عبده، لأن المفسرين يرون أن الآية واضحة فى إثبات قدرة الله وفى صحة البعث، وفى الحض على القتال فى سبيل الله.

قال بعض العلماء: قوله - تعالى -: ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا﴾ الآية. كان المشركون يستفتون اليهود فى كثير من الأمور وكانت هذه القصة معلومة لليهود فى أسفارهم وتواريخهم، فنزل القرآن بالإشارة إليها ليرتدع المشركون عما هم فيه من الضلال وإنكار البعث، ويعلموا أن دلائل القدرة على البعث مشهورة، وأن عند اليهود منها ما لو رجعوا إليهم فيه لعلموا أنه حق لا ريب فيه. وفى ذكر هذه القصة مع ذلك تشجيع للمؤمنين على الجهاد والتعرض للشهادة، وتمهيد لما بعد هذه الآية»[1].

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ أى: إن الله - تعالى - لصاحب تفضل دائم على الناس حيث أوجدهم بهذه الصورة الحسنة، وخلق لهم عقولا ليهتدوا بها إلى طريق الخير، وسخر لهم الكثير مما فى هذا الكون. فمن الواجب عليهم أن يشكروه وأن يطيعوه، ولكن الذى حدث منهم أن أكثرهم لا يشكرون الله - تعالى - على ما منحهم من نعم.

وفى قوله: ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ إنصاف للقلة الشاكرة منهم، ومديح لهم على استقامتهم وقوة إيمانهم.

ثم أمر الله - تعالى - عباده بالجهاد فى سبيله فقال: ﴿وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾.

والسبيل: الطريق. وسميت المجاهدة سبيلا إلى الله لأن الإنسان يسلكها فيصل إلى ما يرضى الله، ويعلى كلمته. ويعز دينه.

أى، قاتلوا أيها المسلمون فى سبيل إعلاء كلمة الله، والدفاع عن دينه، واعلموا أنه - سبحانه - عليم بكل أقوالكم صالحها وطالحها، عليم بكل ما يدور فى نفوسكم وخواطركم،

---

(١) صفوة البيان لمعانى القرآن ص ٨٠ لفضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف.

وسيجازى المحسن بإحسانه، والمسىء بإساءته.

فالآية الكريمة تحريض للمؤمنين على القتال من أجل إظهار الدين الحق، وتحذير لهم من القعود عنه، وحث لهم على صدق النية وإخلاص العمل لله، فقد سئل النبى ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أى ذلك فى سبيل الله؟ فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله»[1].

ثم أمر الله - تعالى - عباده بأن ينفقوا أموالهم فى الأعمال الصالحة التى من أعظمها الجهاد فى سبيله فقال - تعالى - : ﴿من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنًا فيضاعفه له أضعافًا كثيرة﴾.

قال القرطبى: «القرض: اسم لكل ما يلتمس عليه الجزاء. وأقرض فلان فلانا أى أعطاه ما يتجازاه. واستقرضت من فلان أى طلبت منه القرض فأقرضنى. واقترضت منه أى أخذت القرض. وأصل الكلمة القطع ومنه المقراض. وأقرضته أى قطعت له من مالى قطعة يجازى عليها... ثم قال: والتعبير بالقرض فى هذه الآية إنما هو تأنيس وتقريب للناس بما يفهمونه، والله هو الغنى الحميد، لكنه - تعالى - شبه عطاء المؤمن فى الدنيا بما يرجو به ثوابه فى الآخرة بالقرض كما شبه إعطاء النفوس والأموال فى أخذ الجنة بالبيع والشراء..»[2].

والمعنى: من هذا المؤمن القوى الإيمان الذى يقدم ماله فى الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله، وفى غير ذلك من وجوه الخير كمعاونة المحتاجين، وسد حاجة البائسين، ومساعدة الأمة الإسلامية بما يفيدها ويعلى من شأنها، ﴿فيضاعفه له أضعافا كثيرة﴾ أى: فيرد الله - تعالى - إلى هذا الباذل المعطى المقرض بدل ما أعطى وبذل وأقرض أمثالا كثيرة لا يعلم مقدارها إلا الله أكرم الأكرمين. إذ المضاعفة معناها إعطاء الشخص أضعاف أى أمثال ما أعطى وبذل.

والاستفهام فى قوله: ﴿من ذا الذى يقرض الله..﴾ للحض على البذل والعطاء، وللتهييج على الاتصاف بالصفات الكريمة، حتى لكأن المستفهم لا يدرى من هو الأهل لهذه الصفات ويريد أن يعرف من هو أهل لها.

و﴿من﴾ اسم استفهام مبتدأ، و﴿ذا﴾ اسم إشارة خبره، والذى وصلته صفة لاسم الإشارة أو بدل منه.

وقوله: ﴿قرضا حسنا﴾ حث للناس على إخلاص النية، وتحرى الحلال فيما ينفقون، لأن الإنسان إذا تصدق بمال حرام، أو قصد بنفقته الرياء أو المباهاة لا يكون عمله متقبلا عند الله،

---

(١) تفسير القرطبى جـ٣ ص ٢٣٩.

(٢) تفسير القرطبى جـ٣ صفحة ٢٣٩.

وإنما يتقبل الله العمل ويضاعفه لمن قصد به وجهه، وكان المتصدق به مالا حلالا خالصا من الشبهات. فالله - تعالى - طيب لا يقبل إلا ما كان طيبا.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾.

القبض: ضد البسط. يقال: قبضه بيده يقبضه أى تناوله. وقبض عليه بيده أى أمسكه. ويقال لإمساك اليد عن البذل قبض ومن ذلك قوله - تعالى -: ﴿ويقبضون أيديهم﴾ أى يمتنعون عن الإنفاق.

والبسط معناه المد والتوسعة. يقال بسط يده أى: مدها. وبسط المكان القوم. وسعهم.

والمعنى: والله - تعالى - بيده الإعطاء والمنع فهو يسلب تارة ويعطى أخرى، أو يسلب قوما ويعطى آخرين، أو يضيق على بعض ويوسع على بعض حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكمة والمصلحة، وما دام الأمر كذلك فلا تبخلوا بما وسع عليكم كيلا تتبدل أحوالكم من الغنى إلى الفقر، ومن السعة إلى الضيق. وأنتم جميعا سترجعون إليه وحده، وسيجازى - سبحانه - الأسخياء بما يستحقون من كريم الثواب والبخلاء بما هم أهله من شديد العقاب.

فأنت ترى أن فى هذه الآية الكريمة ألوان من الحض على الإنفاق فى وجوه الخير ومن ذلك التعبير بالاستفهام، لأنه للتنبيه وبعث النفوس إلى التدبر والاستجابة.

ومن ذلك - أيضًا - التعبير بقوله: ﴿من ذا الذى..﴾ فقد جمع هذا التعبير بين اسم الإشارة والاسم الموصولٌ فى الاستفهام، ولا يستفهم بتلك الطريقة إلا إذا كان المقام ذا شأن وخطر، وكان المخاطب لعظم قدره من شأنه أن يشار إليه وأن يتحدث عنه ومن ذلك تسميته ما يبذل الباذل قرضا، ولمن هذا القرض إنه لله الذى بيده خزائن السموات والأرض والذى سيرد للباذل أضعاف ما بذل، فكأنه - سبحانه - يقول لنا: إن ما تدفعونه لن يضيع عليكم بل هو قرض منكم لى، وسأرده لكم بأضعاف ما دفعتم وأعطيتم. ومن ذلك إخفاء مرات المضاعفة ووصفها بالكثرة فى قوله: ﴿فيضاعفه له أضعافًا كثيرة﴾ أى لا يعلم مقدارها إلا الله.

ومن ذلك التعبير بقوله ﴿والله يقبض ويبسط﴾ لأنه مادام العطاء والمنع من الله فلماذا يبخل البخلاء ويقتر المقترون؟ إن على الغنى أن يستشعر نعمة الله عليه وأن يتحدث بها بدون رياء وأن ينفق منها فى وجوه الخير حتى يزيده الله من فضله، وإلا ففى قدرة الله أن يسلبها منه، ويحاسبه على بخله حسابا عسيرًا.

هذه بعض وجوه المبالغة التى اشتملت عليها الآية لحض الناس على الإنفاق فى الجهاد وفى

وجوه الخير، ولقد استجاب السلف الصالح لهذه التوجيهات، وحكى لنا التاريخ أمثلة كريمة من سخائهم وبذلهم.

ومن خير الأمثلة على ذلك ما جاء عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت: ﴿من ذا الذى يقرض الله قرضًا حسنًا﴾ قال أبو الدحداح: يارسول الله أو إن الله - تعالى - يريد منا القرض؟ «قال نعم يا أبا الدحداح» قال أرنى يدك. فناوله النبى ﷺ يده. فقال أبو الدحداح: فإنى أقرضت الله - تعالى - حائطا فيه ستمائة نخلة. ثم جاء يمشى حتى أتى الحائط وأم الدحداح فيه وعياله، فناداها: يا أم الدحداح، قالت: لبيك قال: أخرجى قد أقرضت ربى حائطًا فيه ستمائة نخلة»[1].

وفى رواية لزيد بن اسلم أن أبا الدحداح قال للنبى ﷺ إن لى حديقتين إحداهما بالسافلة والأخرى بالعالية والله لا أملك غيرهما قد جعلتهما قرضا لله - تعالى - فقال رسول الله ﷺ «اجعل إحداهما والأخرى دعها معيشة لك ولعيالك» قال: فأشهدك يارسول أنى قد جعلت خيرهما لله وهو حائط فيه ستمائة نخلة. قال: «إذا يجزيك الله به الجنة، ثم انطلق أبو الدحداح إلى زوجته وهى مع صبيانها فى الحديثة تدور تحت النخل فأخبرها بما فعل. فأقبلت على صبيانها تخرج ما فى أفواههم وتنفض ما فى أكمامهم حتى أفضت إلى الحائط الآخر»[2].

وبهذا نرى السلف الصالح قد أمتثل ما أمره الله به من إنفاق فى سبيله ومن جهاد لإعلاء كلمته فهل آن الأوان للمسلمين أن ينهجوا نهجهم لكى يسعدوا كما سعدوا، وينالوا أشرف حياة وأعزها؟ اللهم خذ بيدنا إلى ما يرضيك.

ثم ساق القرآن قصة من قصص بنى إسرائيل مع أنبيائهم، فيها العظات والعبر، وملخص هذه القصة: أن قوما من بنى إسرائيل كانوا قد انهزموا أمام أعدائهم هزيمة منكرة جعلتهم يولون الأدبار تاركين ديارهم وأبناءهم، فقالوا لنبى لهم بعد أن ذاقوا مرارة الهزيمة: أبعث لنا ملكا يقودنا للقتال فى سبيل الله، فقال لهم نبيهم بعد أن حذرهم من عاقبة الجبن والكذب: ﴿إن الله قد بعث لكم طالوت ملكًا﴾ فاعترضوا على هذا الاختيار، ونقصوا من شأن من اختاره الله قائدا لهم، ولكن نبيهم ساق لهم من الحجج التى تدل على صلاحية طالوت لهذا المنصب ما أخرس ألسنتهم.. ثم سار طالوت بجنوده لقتال أعدائه، وفى الطريق قال لمن معه ﴿إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم﴾ ثم بعد هذه المخالفة جبن أكثرهم عن قتال أعدائهم وقالوا

(١) تفسير ابن كثير جـ١ صفحة ٢٩٩.
(٢) تفسير القرطبى جـ٣ صفحة ٢٣٧.

﴿لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾ ولكن الفئة القليلة المؤمنة منهم استطاعت أن تنتصر على كل عقبة فى طريقها، وأن تقاتل أعداءها بشجاعة وصبر واعتماد على الله، فكانت النتيجة أن انتصرت الفئة القليلة المؤمنة بقيادة طالوت على الفئة الكثيرة الكافرة بقيادة جالوت. هذا تلخيص لتلك القصة العامرة بالعظات، ولعل من الخير قبل أن نبدأ فى تفسير آياتها أن نقرأها بتدبر وتأمل كما صورها القرآن بأسلوبه البليغ المؤثر.

قال - تعالى - :

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ألم تر إلى الملإ من بنى إسرائيل من بعد موسى﴾ إلخ استئناف ثان بعد قوله قبل ذلك : ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم﴾ وقد سيق هذا الاستئناف مساق الاستدلال لقوله - تعالى - : ﴿وقاتلوا فى سبيل الله﴾ حتى تتشجع النفوس على الجهاد، وتهون عليها المصاعب فى سبيل حياة العزة والكرامة.

و ﴿الملإ﴾ الأشراف من الناس. وهو اسم للجماعة لا واحد له من لفظه. وإنما سمى الأشراف بذلك لأن هيبتهم تملأ الصدور، أو لأنهم يتمالؤون أى يتعاونون فى شئونهم. وأصل الباب الاجتماع بمالا يحتمل المزيد.

والمعنى: كما سبق أن بينا فى قوله: ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا﴾. قد علمت أيها العاقل حال أولئك القوم من بنى إسرائيل الذين كانوا بعد وفاة موسى - عليه السلام - إذ قالوا لنبى لهم أقم لنا أميرًا لكى نقاتل معه فى سبيل الله. ومن لم يعلم فها نحن أولاء نعلمه بحالهم فعليه أن يعتبر ويتعظ.

فقوله: ﴿من بعد موسى﴾ بيان للزمن الذى كان يعيش فيه أولئك الملأ من بنى إسرائيل والمراد بالنبى الذى قالوا له ﴿ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله﴾ على الراجح - «شمويل بن حنة» وكان السبب فى طلبهم هذا من نبيهم أن العمالقة أتباع جالوت كانوا قد أخرجوهم من ديارهم، وأنزلوا بهم هزائم شديدة، فطلبوا منه ذلك لكى يستردوا مجدهم الضائع، وعزهم المسلوب، على يد هذا القائد المختار من جهة نبيهم.

وفى الإتيان بلفظ هذا النبى بصيغة التنكير إشارة إلى أن محل العبرة ليس هو شخص النبى وإنما المقصود معرفة حال أولئك القوم، وما جرى لهم مع نبيهم من أحداث من شأنها أن تدعو إلى الاعتبار والاتعاظ. وهذه طريقة القرآن فى سرد القصص لا يهتم بالأشخاص والأزمان إلا بالقدر الذى يستدعيه المقام. أما الاهتمام الأكبر فيجعله لما اشتملت عليه القصة من وجوه العظات والعبر.

ويبدو أنه كان يتوجس منهم خيفة لأنه أعرف بطبيعتهم، فنراه يقول لهم كما حكى القرآن عنه: ﴿قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا﴾.

فالاستفهام للتقرير والتحذير. أى إنى أتوقع عدم قتالكم إذا فرض عليكم القتال، فراجعوا أنفسكم وقوتكم قبل أن تطلبوا هذا الطلب، لأنه إذا فرض عليكم ثم نكصتم على أعقابكم فإن عاقبتكم ستكون شرًا لا شك فى ذلك.

وعسى هنا بمعنى التوقع والمقاربة، والجملة استئناف بيانى.

قال صاحب الكشاف: والمعنى: هل قاربتم ألا تقاتلوا؟ يعنى هل الأمر كما أتوقعه أنكم لا تقاتلون؟ أراد أن يقول: عسيتم ألا تقاتلوا بمعنى أتوقع جبنكم عن القتال فأدخل ﴿هل﴾ مستفهما عما هو متوقع عنده ومظنون وأراد بالاستفهام التقرير وتثبيت أن المتوقع كائن وأنه

صائب فى توقعه. وخبر ﴿عسيتم﴾ : «ألا تقاتلوا» والشرط فاصل بينهما»[1].

ثم حكى القرآن ردهم على نبيهم فقال : ﴿قالوا ومالنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾.

أى قال الملإ من بنى إسرائيل على سبيل الإنكار والتعجب مما قاله نبيهم : وأى صارف يصرفنا عن القتال وحالنا كما ترى؟ إننا قد أخرجنا من ديارنا وحيل بيننا وبين أبنائنا وفلذات قلوبنا فكيف لا نقاتل مع أن الدواعى موجودة، والبواعث متوفرة، والأسباب مهيئة؟ فأنت تراهم فى إجابتهم هذه يستنكرون ما توقعه نبيهم منهم، ويجزمون بأن الطريق الوحيد لعزتهم إنما هو القتال وأن هذا الأمر لا مراجعة فيه ولا جدال. وهكذا شأن الجبناء والمغرورين فى كل زمان ومكان يرحبون بالمعارك قبل قدومها فإذا ما جد الجد كذبت أعمالهم أقوالهم، وأعطوا أدبارهم لأعدائهم!

ثم حكى القرآن أن نبيهم كان صاقًا فيما توقعه منهم من جبن وكذب، وأنهم قوم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم فقال - تعالى - : ﴿فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم﴾.

أى : فحين فرض عليهم القتال بعد أن الحوا فى طلبه، أعرضوا عنه، ونفروا منه إلا عددًا قليلا منهم فإنه ثبت على الحق، ووفى بعهده.

قال الآلوسى : وقوله ﴿إلا قليلا منهم﴾ وهم الذين جاوزوا النهر وكانوا ثلثمائة وثلاثة عشر عدة أهل بدر على ما أخرجه البخارى عن البراء - رضى الله عنه - والقلة إضافية فلا يرد وصف هذا العدد أحيانا بأنه جم غفير[2].

ثم ختم الله - تعالى - الآية بقوله : ﴿والله عليم بالظالمين﴾ لإفادة الوعيد الشديد لهؤلاء الذين نقضوا عهودهم، ونكصوا عن القتال عندما فرض عليهم، ولكل من يفعل فعلهم، وسار على طريقهم.

أى : والله - تعالى - عليم بالظالمين الذين يظلمون أنفسهم وأمتهم بترك الجهاد، وبترك ما أمرهم الله به بعد أن عاهدوه على عدم الترك.

ثم بين القرآن ما أخبرهم به نبيهم ليحملهم على الطاعة والامتثال فقال - تعالى - : ﴿وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكًا﴾.

أى وقال لهم بعد أن أوحى إليه بما يوحى : إن الله - تعالى - وهو العليم الخبير بأحوال عباده

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ صفحة ٢٩١.

(٢) تفسير الآلوسى جـ٢ صفحة ١٦٦.

قد بعث لكم ومن أجل مصلحتكم طالوت ليكون ملكًا عليكم، وقائدا لكم فى قتالكم لأعدائكم، فأطيعوه واتبعوا ما يأمركم به.

و ﴿طالوت﴾ اسم أعجمى قيل هو المسمى فى التوراة باسم «شاول» وقيل إن هذا الاسم لقب له من الطول كملكوت من الملك، لأن طالوت كان طويلا جسيما.

ولقد كان الذى يقتضيه العقل أن يطيعوا أمر نبيهم، ولكنهم لجوا فى جدالهم وطغيانهم وقالوا لنبيهم معترضين على من اختاره الله قائدًا لهم. ﴿أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال﴾.

﴿أنى﴾ أداة استفهام بمعنى كيف، والاستفهام هنا للتعجب من جعل طالوت ملكًا عليهم. أى قالوا لنبيهم منكرين ومتعجبين من اختيار طالوت ملكًا عليهم: كيف يكون له الملك علينا والحال أننا أحق بالملك منه لأننا أشرف منه نسبًا، إذ منا من هو نسل الملوك أما طالوت فليس من نسلهم، وفضلا عن ذلك فهو لا يملك من المال ما يملكه بعضنا فكيف يكون هذا الشخص ملكًا علينا؟

فأنت تراهم لانعدام المقاييس الصحيحة عندهم ظنوا أن المؤهلات الحقيقية لاستحقاق الملك والقيادة إنما تكون بالنسب وكثرة المال أما الكفاءة العقلية، والقوة البدنية، والقدرة الشخصية فلا قيمة لها عندهم لانطماس بصيرتهم، وسوء تفكيرهم.

قال بعضهم: «وسبب هذا الاستبعاد أن النبوة كانت مخصوصة بسبط معين من أسباط بنى إسرائيل وهو سبط لاوى بن يعقوب، وسبط المملكة بسبط يهوذا، ولم يكن طالوت من أحد هذين السبطين بل من ولد بنيامين. والواو فى قوله: ﴿ونحن أحق﴾ للحال، والواو الثانية فى قوله: ﴿ولم يؤت﴾ عاطفة جامعة للجملتين فى الحكم[1].

ثم حكى القرآن مارد به نبيهم عليهم فقال: ﴿قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم، والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم﴾.

أى قال لهم نبيهم مدللا على أحقية طالوت بالقيادة: إن الله - تعالى - ﴿اصطفاه عليكم﴾ أى اختاره وفضله عليكم واختياره يجب أن يقابل بالإذعان والتسليم. وثانيا: ﴿وزاده بسطة فى العلم﴾ أى أن الله - تعالى - منحه سعة فى العلم والمعرفة والعقل والإحكام فى التفكير المستقيم لم يمنحها لكم، وثالثًا: فى ﴿الجسم﴾ بأن أعطاه جسمًا قويًا ضخمًا مهيبًا. وهذه الصفات ما وجدت فى شخص إلا وكان أهلا للقيادة والريادة وفضلا عن كل ذلك فمالك الملك هو الذى

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ٢٠١.

اختاره فكيف تعترضون يامن تدعون أنكم تريدون القتال فى سبيل الله ؟ لذا نراه - سبحانه - يضيف الملك الحقيقى إليه فيقول : ﴿والله يؤتى ملكه من يشاء﴾ أى : يعطى ملكه لمن يشاء من عباده لحكمة يعلمها. فلا يجوز لأحد أن يعترض على اختياره، والله واسع الفضل والعطاء. « عليم ».

ثم حكى القرآن أن نبيهم لم يكتف بهذه الدلائل الدالة على صلاحية طالوت للقيادة، وإنما ساق لهم بعد ذلك من العلامات التى تشهد بحقيته بهذا المنصب ما يثبت قلوبهم، ويزيل شكهم ويشرح نفوسهم فقال - تعالى - :

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾

التابوت : بوزن فعلوت - من التوب وهو الرجوع، وتاؤه مزيدة لغير التأنيث كجبروت، والمراد به صندوق التوراة وكانوا إذا حاربوا حمله جماعة منهم ويتقدمون به أمام الجيش فيكون

ذلك سبب نصرهم. وكان عهدهم به قد طال فذكرهم بمآثره ترغيبًا فيه وحملا على الانقياد لطالوت»[١].

والسكينة: من السكون وهو ثبوت الشيء بعد التحرك: أو من السكن - بالتحريك - وهو كل شيء سكنت إليه النفس وهدأت.

والمعنى: وقال لهم نبيهم ليقنعهم بأن طالوت جدير بالملك ﴿إن آية ملكه﴾ أى علامة ملكه وأنه من الله - تعالى - ﴿أن يأتيكم التابوت﴾ أى أن يرد عليكم التابوت الذى سلب منكم ﴿فيه سكينة من ربكم﴾ أى فى إتيانه سكون لنفوسكم وطمأنينة لها أو مودع فيه ما تسكنون إليه وهو التوراة (وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون) من آثار تعتزون بها، وترون فيها صلة بين ماضيكم وحاضركم وقوله ﴿تحمله الملائكة﴾ حال من التابوت.

قال صاحب الكشاف: قوله: ﴿وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون﴾ هى رضاض الألواح وعصا موسى وثيابه وشيء من التوراة. وكان رفعه الله - تعالى - بعد موسى - عليه السلام - فنزلت به الملائكة تحمله وهم ينظرون إليه، فكان ذلك آية لاصطفائه لطالوت. فإن قلت: من هم (آل موسى وآل هارون). قلت: الأنبياء من بنى يعقوب بعدهما، ويجوز أن يراد مما تركه موسى وهارون والآل مقحم لتفخيم شأنهما[٢].

وقال ابن كثير: قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدى طالوت والناس ينظرون[٣].

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾ أى: إن فى ذلك الذى أتاكم به طالوت لآية عظيمة وعلامة ظاهرة لكم تدل على أحقية طالوت بالملك والقيادة إن كنتم مؤمنين بآيات الله وبالحق الذى جاء به أنبياؤه.

وبذلك نرى أن القرآن الكريم قد حكى لنا أن هؤلاء القوم من بنى إسرائيل قد جاءهم نبيهم بأنصع الحجج، وأوضح الأدلة، وأثبت البراهين التى تؤيده فيما يدعوهم إليه.

ثم بين - سبحانه - ما دار بين طالوت وجنوده فقال: ﴿فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر﴾.

﴿فصل﴾ بمعنى الفصل. قال الزمخشرى: فصل عن موضع كذا: إذا انفصل عنه وجاوزه.

---

(١) تفسير القاسمى جـ ١ ص ٦٤٦.

(٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٩٣

(٣) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٠١

وأصله فصل نفسه. ثم كثر: حذف المفعول حتى صار فى حكم غير المتعدى كانفصل. وقيل: فصل عن البلد فصولا. ويجوز أن يكون فصله فصلا، وفصل فصولا كوقف وصد ونحوهما. والمعنى انفصل عن بلده»(١).

و (النهر) بالفتح والسكون - : المجرى الواسع الذى يجرى فيه الماء مأخوذ من نهر الأرض بمعنى شقها.

أى: فلما انفصل بهم عن المكان الذى كانوا يقيمون فيه، وتوجهوا معه لقتال جالوت وجنوده، قال لهم ﴿إن الله مبتليكم بنهر﴾ أى مختبركم وممتحنكم بنهر، وكان طالوت قد سار بهم فى أرض قفرة فأصابهم عطش شديد. وفى هذا الابتلاء اختبار لعزيمتهم، وامتحان لصبرهم على المتاعب حتى يتميز من يصبر على الحرب ممن لا يصبر، ومن شأن القواد الأقوياء العقلاء أنهم يختبرون جنودهم قبل اقتحام المعارك حتى يكونوا على بينة من أمرهم. ثم بين لهم موضع الاختبار فقال: ﴿فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده﴾.

﴿يطعمه﴾ أى يذقه من طعم الشىء يطعمه إذا ذاقه مأكولا أو مشروبًا.

﴿الغرفة﴾ - بالضم - اسم للشىء المغترف وجمعه غراف. وأما الغرفة - بالفتح - فهى اسم للمرة الواحدة من الغرف وقيل: هما لغتان بمعنى واحد.

أى قال لهم طالوت: من شرب من هذا النهر فليس من شيعتى، فعليه أن يتركنى ولا يصاحبنى فى خوض هذه المعركة لأنه ثبت ضعفه وخوره، ومن لم يذقه أصلا فإنه من شيعتى وحزبى الذى سيكون معى فى هذه المعركة الخطيرة. ثم أباح لهم أن يغترفوا من النهر غرفة يخففون بها من عطشهم فقال: ﴿إلا من اغترف غرفة بيده﴾ فإنه لا يخرج بذلك عن كونه منى.

وفى هذه الجملة الكريمة قدم - سبحانه - جواب الشرط على الاستثناء من الشرط فقد قال ﴿ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده﴾ والتأليف المعهود للناس أن يقال: (ومن لم يطعمه إلا من اغترف بيده فإنه منى) ولكن الآية الكريمة جاءت بتقديم الجواب على الاستثناء لحكمة بليغة، وهى المسارعة إلى بيان الحكم، وإثبات أن أساس الصلة التى تربطهم بنبيهم أن يمتثلوا أمره وألا يشربوا من النهر، ثم رخص لهم بعد ذلك فى الاغتراف باليد غرفة واحدة.

وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذا المعنى فقال: فإن قلت: مم استثنى قوله ﴿إلا من اغترف﴾؟ قلت: من قوله: ﴿فمن شرب منه فليس منى﴾ والجملة الثانية فى حكم المتأخرة إلا

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٩٤.

أنها قدمت للعناية.. ومعناه: الرخصة فى اغتراف الغرفة باليد دون الكروع»[١].

ثم ختم - سبحانه - ما كان من بنى إسرائيل نتيجة لهذا الامتحان فقال: ﴿فشربوا منه إلا قليلا منهم﴾.

أى: فشربوا من النهر حتى امتلأت بطونهم مخالفين بذلك أمر قائدهم فى وقت تعظم فيه المخالفة لأنه وقت إقدام على الحرب، إلا عددًا قليلا منهم فإنهم لم يشربوا إلاكما رخص لهم قائدهم. وعلى هذا التفسير - الذى قال به جمهور المفسرين - يكون جميع الذين مع طالوت قد شربوا من النهر إلا أن كثيرًا منهم قد شربوا حتى امتلأت بطونهم مخالفين أمر قائدهم، وقلة منهم شربت غرفة واحدة وهى التى رخص لهم قائدهم فى شربها.

وبعض المفسرين يقسم اتباع طالوت ثلاثة أقسام:

قسم شرب كثيرًا مخالفًا أمر طالوت.

وقسم شرب غرفة واحدة بيده كما رخص له قائده.

وقسم لم يشرب أصلا لا قليلًا ولا كثيرًا مؤثرًا العزيمة على الرخصة وهذا القسم هو الذى اعتمد عليه طالوت اعتمادًا كبيرًا فى تناوله لأعدائه.

وممن ذكر هذا التقسيم من المفسرين الإمام القرطبى فقد قال: «قال ابن عباس: شربوا على قدر يقينهم، فشرب الكفار شرب الهيم[٢]، وبقى بعض المؤمنين لم يشرب شيئًا، وأخذ بعضهم الغرفة، فأما من شرب فلم يرو بل برح به العطش، وأما من ترك الماء فحسنت حاله وكان أجلد ممن أخذ الغرفة»[٣].

ثم بين - سبحانه - ما كان من أتباع طالوت بعد اجتيازهم للنهر معه فقال: ﴿فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقه لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾.

أى: فلما جاوز طالوت ومن معه النهر وتخطوه، وشاهدوا كثرة جند جالوت، قال بعض الذين مع طالوت لبعض بقلق ووجل: لا قدرة لنا اليوم على محاربة أعدائنا ومقاومتهم فهم أكثر منا عَددًا، وأوفر عُددا.

والضمير ﴿هو﴾ فى قوله: ﴿هو والذين آمنوا معه﴾ مؤكد للضمير المستكن فى جاوز. والقائلون، هذا القول هم بعض المؤمنين الذين عبروا معه النهر، ولم يقولوا ذلك هروبًا أو

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٩٥.

(٢) الهيم: الإبل التى يصيبها داء فلا تروى من الماء واحدها أهيم والأنثى هيماء.

(٣) تفسير القرطبى جـ٣ صفحة ٢٥٤.

نكوصًا عن القتال، وإنما قالوه كمظهر من مظاهر الوجل الذى يعترى بعض النفوس عند الاستعداد للقتال، لأن الذين عصوا الله وخالفوا طالوت بشربهم من النهر جبنوا عن لقاء العدو ولم يسيروا معه لقتالهم. أما المؤمنون الصادقون الذين اتصلت قلوبهم بالله، والذين أذعنوا أنه لا نصر إلا منه ولا اعتماد إلا عليه، فقد حكى القرآن موقفهم المشرف فقال: ﴿قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾.

أى: قال الذين يتيقنون أنهم ملاقو الله يوم القيامة فيحاسبهم على أعمالهم. قالوا مشجعين لإخوانهم الذين تهيبوا قتال أعدائهم: كم من جماعة قليلة بإيمانها وصبرها تغلبت بإذن الله وتيسيره على جماعة كثيرة بسبب كفرها وجبنها وتفككها، والله - تعالى - بعونه وتأييده مع الصابرين.

وعلى هذا التفسير يكون المراد بلقاء الله الحشر إليه بعد الموت، ومجازاة الناس على ما قدموا من عمل، ويكون المراد بالظن اليقين لأن كل مؤمن متيقن بأن البعث حق.

ويجوز أن يكون المراد بلقاء الله قربهم من رضاه يوم القيامة، وإثابتهم على جهادهم بالجنة، وعليه يكون الظن على معناه الحقيقى وهو الاعتقاد الراجح، لأن خواتيم الحياة لا يعلمها كيف تكون سوى علام الغيوب.

و ﴿كم﴾ فى قولهم ﴿كم من فئة﴾ خبرية للتكثير، وفى هذا التعبير الذى حكاه القرآن عنهم دليل على قوة إيمانهم وصفاء نفوسهم وثقتهم فى نصر الله ثقة لا تحد، لأنهم أتوا بصيغة التكثير حتى لكأنما أن القاعدة العامة هى انتصار الفئة القليلة على الفئة الكثيرة الكافرة.

وفى تعليقهم النصر على إذن الله للإشعار بأنهم لم يعتمدوا على قوتهم وثباتهم وشجاعتهم فحسب وإنما جعلوا اعتمادهم الأكبر على تأييد الله لهم. وهذا شأن العقلاء يبذلون أقصى جهدهم فى بلوغ غايتهم مستعينين على ذلك بتأييد الله وتوفيقه.

ورحم الله الإمام القرطبى الذى عاصر دولة الإسلام فى الأندلس وهى تسير فى طريق الضعف والتدهور فقد قال فى ختام تفسيره لهذه الآية: قلت: هكذا يجب علينا أن نفعل؟ لكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة، منعت من ذلك حتى انكسر العدد الكبير منا أمام اليسير من العدو وكما شاهدناه غير مرة، وذلك بما كسبت أيدينا! وفى البخارى: وقال أبو الدرداء: إنما تقاتلون بأعمالكم. وفى البخارى - أيضًا - أن النبى ﷺ قال: «هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم» فالأعمال فاسدة والضعفاء مهملون والصبر قليل، والاعتماد ضعيف، والتقوى زائلة!! قال - تعالى -: ﴿اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله﴾ وقال: ﴿وعلى الله فتوكلوا﴾ وقال: ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ وقال: ﴿ولينصرن

الله من ينصره﴾ وقال: ﴿إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون﴾. فهذه أسباب النصر وشروطه وهى معدومة عندنا غير موجودة فينا، فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما أصابنا وحل بنا»[1].

ثم حكى القرآن بعد ذلك ما قاله المؤمنون الصادقون عندما برزوا للقاء أعدائهم فقال:

وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

وقوله: ﴿برزوا﴾ أى صاروا إلى براز الأرض وهو ما انكشف منها بحيث يصير كل فريق من المتقاتلين يرى صاحبه، ومنه سميت المبارزة فى الحرب لظهور كل قرن إلى قرنه. أى: وحين برز طالوت ومن معه لقتال جالوت وجنوده، وأصبح الفريقان فى مكان متسع من الأرض بحيث يرى كل فريق خصمه اتجه المؤمنون إلى الله - تعالى - بالدعاء قائلين بإخلاص وخشوع:

﴿ربنا أفرغ علينا صبرًا﴾ أى: أفض علينا صبرا يعمنا، ويملأ قلوبنا ثقة بنصرك، ويحبس نفوسنا على طاعتك.

قال الإمام الرازى ما ملخصه، الإفراغ: الصب. يقال أفرغت الإناء إذا صببت ما فيه. وقولهم هذا يدل على المبالغة فى طلب الصبر من وجهين:

---

(١) تفسير القرطبى جـ٣ صفحة ٢٥٥.

أحدهما : أنه إذا صب الشيء فى الشيء فقد أثبت فيه بحيث لا يزول عنه وهذا يدل على التأكيد.

والثانى : أن افراغ الإناء هو إخلاؤه وذلك يكون بصب كل ما فيه، فمعنى أفرغ علينا صبرا، أى أصبب علينا أتم صب وأبلغه - حتى تتحقق فينا صفة الصبر كأحسن ما يكون التحقق »[1].

أما الدعوة الثانية فقد قالوا فيها - كما حكى القرآن عنهم - ﴿وثبت أقدامنا﴾ أى هب لنا من كمال القوة والرسوخ عند القتال ما يجعلنا نثبت أمام أعدائنا، ونتمكن من رقابهم دون أن يتمكنوا منا. فهذا الدعاء كناية عن أن يمنحهم - سبحانه - الثبات عند الزحف، وعدم الفرار عند القتال.

وفى قوله : ﴿وثبت أقدامنا﴾ تعبير بالجزء عن الكل، لأن الأقدام هى التى يكون بها الفرار، فتثبيتها إبعاد عن الفرار، ومتى حصل الثبات كان النصر متوقعاً، والصبر متحققًا.

ثم ختموا دعاءهم بأن قالوا : ﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾ أى اجعل الغلبة لنا عليهم، لأننا مؤمنون بأنك المعبود المستحق للعبادة وهم يكفرون بذلك.

والمتأمل فى هذه الدعوات الثلاث يراها قد جمعت أسمى ألوان الأدب وحسن الترتيب، فهم قد صدروا دعاءهم بالتوسل بوصف الربوبية فقالوا ﴿ربنا﴾ أى يا خالقنا ويا منشئنا ويا مربينا ويا مميتنا، وفى ذلك إشعار أنهم يلجأون إلى من بيده وحده النفع والضر، والنصر والهزيمة. ثم افتتحوا دعاءهم بطلب الصبر عند المخاوف لأنه هو عدة القتال الأولى، وركنه الأعلى، إذ به يكون ضبط النفس فلا تفزع، وبه يسكن القلب فلا يجزع. ثم التمسوا منه - سبحانه - أنْ يثبت أقدامهم عند اللقاء لأن هذا الثبات هو مظهر الصبر، ووسيلة النصر، وعنوان القوة.

ثم ختموا دعاءهم بما هو ثمرة ونتيجة للصبر والثبات وهو النصر على الأعداء.

فماذا كانت نتيجة هذا الدعاء الخاشع الخالص؟ كانت نتيجته النصر المؤزر الذى حكاه القرآن فى قوله : ﴿فهزموهم بإذن الله﴾.

وأصل الهزم فى اللغة الكسر. ومنه سقاء منهزم أى انثنى بعضه على بعض مع الجفاف. ويقال للسحاب هزيم، لأنه يتشقق بالمطر. والفاء هنا فصيحة أوسببية أى أنهم بسبب دعائهم المخلص، وإيمانهم القوى، واستجابتهم لما أمرهم الله به، استطاعوا أن يكسروا أعداءهم

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٦ صفحة ١٩٩.

ويهزموهم، وقوله : ﴿بإذن الله﴾ أى بتوفيقه وتيسيره وتأييده. والباء إما للاستعانة والسببية وإما للمصاحبة.

ثم قال - تعالى - : ﴿وقتل داود جالوت﴾ أى : وقتل داود بن إيشا - وكان فى جيش طالوت - جالوت الذى كان يقود جيش الكفر، وبقتله مزق أتباعه شر ممزق، ورزق الله طالوت ومن معه النصر والغلبة.

ثم بين - سبحانه - ما منحه لداود من نعم فقال : ﴿وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء﴾ والحكمة المراد بها هنا النبوة، ولم يجتمع الملك والنبوة لأحد قبله فى بنى إسرائيل، وورثه فيهما ابنه سليمان - عليه السلام -.

أى : وأعطى الله - تعالى - عبده داود ملك بنى إسرائيل وأعطاه النبوة التى هى أشرف من الملك زيادة فى ترقيته فى درجات الشرف والكمال، وعلمه - سبحانه - مما يشاء من فنون العلم، ومن أمور الدين والدنيا كمعرفته لغة الطيور، وكلام الدواب، وصناعة آلات الحرب وغير ذلك من ألوان العلوم المختلفة التى لا تحدها إلا مشيئة الله وإرادته.

وفى قوله - تعالى - : ﴿وعلمه مما يشاء﴾ بعد الإخبار بأنه - سبحانه - آتى داود الحكمة، إشعار بأن الإنسان لا يستغنى عن التعلم سواء أكان نبيا أم لم يكن، لأن داود - عليه السلام - مع حصوله على النبوة لم يستغن عن تعليم الله إياه، وقد أمر الله - تعالى - نبيه محمدًا ﷺ أن يلتمس المزيد من العلم فقال : ﴿وقل رب زدنى علما﴾.

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله على عباده فقال : ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾.

أى : ولولا أن الله - تعالى - يدفع أهل الباطل بأهل الحق، لفسدت الأرض، وعمها الخراب لأن أهل الفساد إذا تركوا من غير أن يقاوموا استطارت شرورهم، وتغلبوا على أهل الصلاح والاستقامة، وتعطلت مصالح الناس، وانتشر الفساد فى الأرض.

فلولا فى الجملة الكريمة حرف امتناع لوجود. أى : امتنع فساد الأرض لأجل وجود دفع الناس بعضهم ببعض.

فالجملة الكريمة تأمر الأخيار فى كل زمان ومكان أن يقفوا فى وجوه الأشرار، وأن يقاوموهم بكل وسيلة من شأنها أن تحول بينهم وبين الفساد والطغيان.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾.

أى : ولكن الله - تعالى - صاحب فضل عظيم، وإنعام كبير على الناس أجمعين، لأنه وضع

لهم هذا التنظيم الحكيم الذى أوجب فيه على المصلحين أن يدافعوا المفسدين، وأن يقاوموهم بالطريقة التى تمنع فسادهم حتى ولو أدى ذلك إلى رفع السلاح فى وجوههم، لأن السكوت عن فساد المفسدين سيؤدى إلى العقاب الذى يعمهم ويصيب معهم المصلحين.

ثم ختم - سبحانه - قصة هؤلاء القوم من بنى إسرائيل بقوله: ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين﴾.

أى: تلك الآيات التى حدثناك فيها عن قصة أولئك القوم وما جرى لهم هى آيات الله التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، نتلوها عليك يا محمد عن طريق جبريل الأمين تلاوة ملتبسة بالحق الثابت الذى لا يحوم حوله الباطل، وإنك يا محمد ﴿لمن المرسلين﴾ الذين أرسلهم الله - تعالى - ﴿بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾.

فالإشارة فى قوله ﴿تلك آيات الله﴾ إلى الآيات المتلوة من قوله - تعالى - : ﴿ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل﴾ إلى آخر القصة. وقيل إليها وإلى القصة التى قبلها وهى قصة القوم ﴿الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت﴾.

وكانت الإشارة للبعيد، لما فى ذلك من معنى الاستقصاء للآيات، ولعلو شأنها، وكمال معانيها، والوفاء فى مقاصدها.

وأضيفت الآيات إلى الله لأنها جزء من هذا القرآن الذى أنزله - سبحانه - على نبيه محمد ﷺ ليكون هداية للناس، وليحملهم على تدبرها والاعتبار بها لأنها من عند الله الذى شرع لهم ما يسعدهم.

وجعل - سبحانه - تلاوة جبريل للقرآن تلاوة له فقال: ﴿نتلوها عليك بالحق﴾ للإشعار بشرف جبريل، وأنه ما خرج فى تلاوته عما أمره الله به، فهو رسوله الأمين إلى رسله المكرمين.

وجملة ﴿نتلوها عليك﴾ فى محل نصب حال من الآيات والعامل فيها معنى الإشارة.

وقوله: ﴿بالحق﴾ فى موضع نصب حال من مفعول نتلوها أى ملتبسة باليقين الذى لا يرتاب فيه عاقل. أو من فاعله أى: نتلوها عليك ملتبسين بالحق والصواب.

وأكد - سبحانه - قوله ﴿وإنك لمن المرسلين﴾ بحرف «إن» وباللام فى «لمن» وبالجملة الإسمية، للرد على من شكك فى صدق رسالته ﷺ ولتسليته عما يقوله الجاحدون فى شأنه.

وبعد: فهذه قصة الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى، وإن فيها لعبرا متعددة، وعظات متنوعة لقوم يعقلون. من العبر التى تؤخذ منها:

١ - أن الشعور بالظلم والهوان، والابتلاء بالمحن والهزائم، والوقوع تحت أيدى المعتدي،

كل ذلك من شأنه أن يصهر النفوس الحرة الكريمة، وأن يدفعها بقوة إلى الذود عن كرامتها المسلوبة، وعزتها المغصوبة، حتى تنال حقها ممن سلبه منها أو تموت دونه، لأن النفوس الأبية تشعر دائمًا بأن الموت مع العزة خير من الحياة مع الذلة. يدل على ذلك قوله - تعالى - : ﴿قالوا : ومالنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾.

٢ - أن الناس فى كل زمان ومكان، يلجأون - خصوصًا عندما تنزل بهم الشدائد إلى من يتوسمون فيهم الخير والصلاح، لكى يرشدوهم إلى مايأخذ بيدهم إلى طريق السعادة، ولكى يهدوهم إلى أفضل السبل التى تنقذهم مما هم فيه من بلاء، ولكى يختاروا لهم من يقودهم إلى النصر والفلاح. ألا ترى إلى الملأ من بنى إسرائيل كيف لجأوا إلى نبى لهم ليقولوا له بعد أن أصابهم من الذل ما أصابهم : ﴿ابعث لنا ملكًا نقاتل فى سبيل الله﴾؟ إنهم لم يلجأوا إلى زعيم من زعمائهم، أو إلى أمير من امرائهم، وإنما لجأوا إلى نبيهم يبثون إليه شكواهم، ويطلبون منه أن يختار لهم من يقودهم للقتال فى سبيل الله، لأنهم يرون فيه الأمل المرتجى، والعقل السليم، والخلق القويم، والأسوة الحسنة.

٣ - أن القائد يجب أن تتوفر فيه صفتان : قوة العقل، وقوة الجسم لأنه متى توفرت فيه هاتان الصفتان استطاع أن يقود أتباعه بنجاح، وأنه قبل أن يلتقى بأعدائه يجب عليه أن يختبر جنده ليعرف مبلغ إيمانهم وقوتهم وطاعتهم وثباتهم وألا يكلفهم بما لا يستطيعونه حتى يحارب أعداءه وهو على بينة من أمره. انظر إلى طالوت كيف اختبر جنده قبل أن يخوض المعركة بأن قال لهم : ﴿إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده﴾ وهكذا القواد العقلاء يقدمون على حرب أعدائهم وهم على بصيرة من أمرهم.

٤ - ان الفئة القليلة المؤمنة كثيرًا ما تنتصر على الفئة الكثيرة الكافرة؛ لأن المؤمنين الصادقين يحملهم إيمانهم على اليقين بلقاء الله، وعلى التضحية من أجل إعلاء كلمته، وعلى الإقدام الذى يرعب الكافرين، ويخيف الفاسقين، وصدق الله إذ يقول ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾.

٥ - أن هزائم الأمم يمكن إزالتها متى توفر لتلك الأمم القادة العقلاء الأقوياء، والجند الأشداء على أعدائهم، الرحماء فيما بينهم، وأن من شأن المؤمنين حقا أنهم مع مباشرتهم للأسباب، وإحكامهم لكل ما يحتاج إليه القتال، وإحسانهم لكل وسيلة تعينهم على النصر، مع كل ذلك لا يغترون ولا يتطاولون بل يعتمدون على الله - تعالى - اعتمادا تامًا، ويتجهون إليه بالضراعة والدعاء ويلتمسون منه النصر على أعدائه وأعدائهم انظر إلى الصفوة المؤمنة من جند

طالوت ماذا قالت عندما برزت لجالوت وجنوده، لقد قالت كما حكى القرآن عنها: ﴿ربنا أفرغ علينا صبرًا، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين. فهزموهم بإذن الله﴾.

٦ - أن من سنن الله فى خلقه أنه - سبحانه - جعل الحياة صراعًا دائماً بين الحق والباطل، ونزاعًا موصولا بين الأخيار والأشرار، ولولا أن الله - تعالى - يدفع بعض الناس الفاسقين ببعض الناس الصالحين لفسدت الأرض، لأن الفاسقين لو تركوا من غير أن يدافعوا ويقاوموا لنشروا فسوقهم وفجورهم وطغيانهم فى الأرض، ولكنه - سبحانه - أعطى لعباده الصالحين من القوة والثبات ما جعلهم يقاومون الظالمين ويعملون على نشر الخير والصلاح بين الناس.

٧ - أن القصة الكريمة تصور لنا ما جبل عليه بنو إسرائيل من نقض للعهد وكذب فى القول ﴿فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم﴾ ومن تطاول على أنبيائهم، وعصيان لأوامرهم، واعتراض على توجيهاتهم، وتفضيل للجاه والمال على العقل والعلم ﴿قالوا: أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه، ولم يؤت سعة من المال﴾ ومن خور عند الابتلاء والاختبار، وحماس فى ساعة السلم ونكوص فى ساعة الجد، تأمل قوله - تعالى - ﴿فشربوا منه إلا قليلا منهم. فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾.

وبعد هذا الحديث الحكيم عن الملإ من بنى إسرائيل من بعد موسى. وبعد أن شهد الله - تعالى - لنبيه محمد ﷺ بأنه من المرسلين الذين أرسلوا لينصروا الحق، وليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، بعد كل ذلك بين الله - تعالى أن الرسل وإن كانوا قد بعثوا جميعًا لهداية البشر إلا أنهم يتفاضلون فيما بينهم فقال - تعالى - :

۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾

الإشارة بتلك فى قوله: ﴿تلك الرسل﴾ إلى جماعة الرسل الذين تقدم ذكرهم فى السورة والذين أرسلهم الله - تعالى - لهداية البشر، وأمرنا - سبحانه - بالإيمان بهم.

أى أولئك الرسل الذين أرسلناهم لهداية الناس ﴿فضلنا بعضهم على بعض﴾ أى جعلنا لبعضهم مناقب وخصائص ومزايا لم تتوافر للبعض الآخر.

و ﴿تلك﴾ مبتدأ و ﴿الرسل﴾ عطف بيان لتلك. وجملة ﴿فضلنا بعضهم على بعضهم﴾ هى الخبر. وكانت الإشارة باللفظ الدال على البعيد، لبيان سمو مكانة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وأنهم هم المصطفون الأخيار.

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر التفضيل فقال: ﴿منهم من كلم الله﴾ أى منهم من فضله الله بتكليمه إياه كموسى - عليه السلام - فقد وردت آيات صريحه فى ذلك، منها قوله - تعالى - : ﴿وكلم الله موسى تكليما﴾ وقوله - تعالى - : ﴿قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى﴾ وقوله - تعالى - ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه﴾.

ثم قال - سبحانه - : ﴿ورفع بعضهم درجات﴾ أى: ومنهم من رفعه الله على غيره من الرسل مراتب سامية ومنازل عالية.

قيل كإبراهيم الذى اتخذه الله خليلا، وإدريس الذى رفعه الله مكانًا عليًا، وداود الذى آتاه الله النبوة والملك.

والذى عليه المحققون من العلماء والمفسرين أن المقصود بقوله - تعالى - ﴿ورفع بعضهم درجات﴾ هو سيدنا محمد ﷺ لأنه هو صاحب الدرجات الرفيعة والمعجزة الخالدة الباقية إلى يوم القيامة والرسالة العامة الناسخة لكل الرسالات قبلها.

وقد صرح صاحب الكشاف بذلك فقال: قوله ﴿ورفع بعضهم درجات﴾ أى ومنهم من رفعه الله على سائر الأنبياء، فكان بعد تفاوتهم فى الفضل أفضل منهم درجات كثيرة. الظاهر أنه أراد محمدًا ﷺ لأنه هو المفضل عليهم، حيث أوتى مالم يؤته أحد من الآيات المتكاثرة المرتقية إلى ألف آية أو أكثر. لو لم يؤت إلا القرآن وحده لكفى به فضلا منيفًا على سائر ما أوتى الأنبياء، لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر دون سائر المعجزات. وفى هذا الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى، لما فيه من الشهادة على أنه العلم الذى لا يشتبه، والمتميز الذى لا يلتبس. ويقال للرجل: من فعل هذا؟ فيقول: أحدكم أو بعضكم، يريد به الذى تعورف واشتهر بنحوه من الأفعال فيكون أفخم من التصريح، وسئل الحطيئة عن أشعر الناس، فذكر زهيرًا والنابغة ثم قال: ولو شئت لذكرت الثالث، أراد نفسه، ولو قال: ولو شئت لذكرت

نفسى لم يفخم أمره[1].

ثم قال - تعالى - : ﴿وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس﴾.

﴿البينات﴾ : هى المعجزات الظاهرة البينة. وروح القدس : هو جبريل - عليه السلام - والروح هنا بمعنى الملك الخاص. القدس أصل معناه الطهارة، وهو يطلق على الطهارة المعنوية وعلى الخلوص والنزاهة. فإضافة روح إلى القدس من إضافة الموصوف إلى الصفة. قيل القدس اسم الله كالقدوس فإضافة روح إضافة للتشريف أى روح من ملائكة الله.

والمعنى : وأعطينا عيسى بن مريم الآيات الباهرات، والمعجزات الواضحات كإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، وإخبار قومه بما يأكلونه ويدخرونه فى بيتهم، وفضلا عن هذا فقد قويناه بجبريل - عليه السلام - لأن عيسى - عليه السلام - قد عاش حياته محاربا من أعدائه الرومان ومن قومه الذين أرسل إليهم وهم بنو إسرائيل ولم يؤذن له بالقتال ليدافع عن نفسه بل تولى الله - تعالى - الدفاع عنه بجنده الذين من بينهم جبريل - عليه السلام -.

قال الزمخشرى : فإن قلت لم خص موسى وعيسى من بين الأنبياء بالذكر؟ قلت : لما أوتيا من الآيات العظيمة والمعجزات الباهرة ولقد بين الله وجه التفضيل حيث جعل التكليم من الفضل وهو آية من الآيات. لما كان هذان النبيان قد أوتيا ما أوتيا من عظام الآيات خصا بالذكر فى باب التفضيل. هذا دليل بين على أن من زيد تفضيلا بالآيات منهم فقد فضل على غيره. ولما كان نبينا محمد ﷺ هو الذى أوتى منها ما لم يؤت أحد فى كثرتها وعظمها كان هو المشهود له بإحراز قصبات الفضل غير مدافع ».

وقال الإمام القرطبى ما ملخصه : هذه الآية تثبت التفاضل بين الأنبياء وهناك أحاديث تقول : « لا تخيرونى على موسى » و « لاتخيروا بين الأنبياء » و « لا تفضلوا بين الأنبياء » أى لا تقولوا فلان خير من فلان، ولا فلان أفضل من فلان فكيف الجمع ؟ فالجواب أن هذا كان قبل أن يوحى إليه بالتفضيل وقبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم، وأن القرآن ناسخ للمنع من التفضيل أو أن قوله هذا من باب الهضم والتواضع. أو المراد النهى عن الخوض فى ذلك لأن الخوض فى ذلك ذريعة إلى الجدال والجدال قد يؤدى إلى أن يذكر بعضهم بما لا ينبغى أن يذكر به، وقد يؤدى إلى قلة احترامهم. ثم قال. وأحسن من هذا القول من قال : إن المنع من التفضيل إنما هو من جهة النبوة التى هى خصلة واحدة لا تفاضل فيها، وإنما التفضيل فى زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والألطاف والمعجزات، وأما النبوة فى نفسها فلا تتفاضل، وإنما

(١) تفسير الكشاف جـ١ صفحة ٢٩٧.

تتفاضل بأمور أخرى زائدة عليها، ولذلك فهم رسل، وأولو عزم، ومنهم من كلمه الله . . فالقول بتفضيل بعضهم على بعض إنما هو بما منح من الفضائل، وأعطى من الوسائل. وبذلك نكون قد جمعنا بين الآية والأحاديث من غير النسخ.

ثم قال - تعالى - : ﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعدما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر﴾.

أى : ولو شاء الله - تعالى - ألا يقتتل الذين جاؤا بعد كل رسول من الرسول وبعد أن جاءهم الرسل بالبينات الدالة على الحق، لو شاء الله ذلك لفعل،ولكن الله - تعالى - لم يشأ ذلك، لأنه خلق الناس مختلفين فى تقبلهم للحق، فترتب على هذا الاختلاف أن آمن بالحق الذى جاءت به الرسل من فتح له قلبه، واتجه إليه اختياره، وأن كفر به من آثر الضلالة على الهداية واستحب العمى على الهدى، وترتب عليه - أيضًا أن تقاتل الناس وتحاربوا.

ومفعول المشيئة محذوف دل عليه جواب الشرط أى لو شاء الله ألا يقتتل الذين جاءوا من بعد الرسل ما اقتتلوا.

وقدم - سبحانه - المسبب وهو الاقتتال على السبب وهو الاختلاف كما يشهد له قوله : ﴿ولكن اختلفوا . .﴾ للتنبيه على سوء مغبة الاختلاف، وللتحذير من الوقوع فيه، لأن وقوعهم فيه سيؤدى إلى أن يقتل بعضهم بعضًا، وللإشارة إلى أنه - سبحانه - قادر على إزالة الاقتتال فى ذاته حتى مع وجود أسبابه، لأنه - تعالى - هو الخالق للأسباب والمسببات.

وفى قوله : ﴿من بعد ما جاءتهم البينات﴾ إشارة إلى ما جبلت عليه بعض النفوس من العناد الذى يؤدى إلى التنازع والاختلاف والتقاتل حتى بعد ظهور الحق، وانكشاف وجه الصواب، لأن هذه النفوس قد آثرت الهوى على الرشاد، واتخذت طريق الغى طريقًا لها.

وفى قوله : ﴿ولكن اختلفوا﴾ إشارة إلى أنه - سبحانه - لم يشأ أن يزيل القتال الذى حدث بين المقاتلين، لأن هذا القتال قد نشأ بينهم بسبب اختلافهم، وسوء اختيارهم، وعدم استجابتهم للهدايات والتوجيهات والبينات التى جاءتهم بها الرسل - عليهم السلام -.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾ أى : لو شاء الله عدم اقتتالهم لأى سبب من الأسباب لما اقتتلوا، ولكنه - سبحانه - يفعل ما يريد حسب ما تقتضيه حكمته، وترتضيه مشيئته، فهو الكبير المتعال الذى كل شيء عنده بمقدار فالآية الكريمة تبين أن الرسل - عليهم السلام - يتفاضلون فيما بينهم، وتنهى الناس فى كل زمان ومكان عن الاختلاف والتنازع لأنهما يؤديان إلى أوخم العواقب، وأسوأ النتائج.

ثم وجه القرآن نداء إلى المؤمنين أمرهم فيه ببذل أموالهم فى سبيل الدفاع عن الحق، حتى يكونوا أهلا لرضا الله ومثوبته.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾

الخلة : الصداقة والمودة مأخوذة من تخلل الأسرار بين الصديقين، وسميت بذلك لأنها تتخلل النفس أى تتوسطها، أو لشدة الحاجة إليها. ومنه سمى الخليل خليلا لاحتياج الإنسان إليه.

والشفاعة مأخوذة من الشفع بمعنى الضم، وتطلق على انضمام شخص إلى آخر لنفعه أو نصرته، وأكثر ما تستعمل فى انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى ماهو دونه.

والمعنى : عليكم أيها المؤمنون أن تنفقوا فى وجوه الخير كإعانة المجاهدين ومساعدة الفقراء والبائسين من أموالكم التى رزقكم الله إياها بفضله وكرمه، ومن قبل أن يأتى يوم القيامة الذى لا يكون فيه تجارة ولا مبايعة حتى تقدموا عن طريقها ما تفتدون به أنفسكم، ولا يكون فيه صديق يدفع عنكم، ولا شفيع يشفع لكم فيحط من سيئاتكم إلا أن يأذن رب العالمين بالشفاعة تفضلا منه وكرمًا.

فالآية الكريمة تحض المؤمنين على الإنفاق فى سبيل الله، لأنه أهم عناصر القوة فى الأمة، وأفضل وسيلة لإقامة المجتمع الصالح المتكافل.

والمراد بالإنفاق هنا ما يشمل الفرض والنفل، والأمر لمطلق الطلب، إلا أن هذا الطلب قد يصل إلى درجة الوجوب إذا نزلت بالأمة شدة لم تكف الزكاة عن دفعها.

وقوله : ﴿مما رزقناكم﴾ إشعار بأن هذا المال الذى بين أيدى الأغنياء ما هو إلا رزق رزقهم الله إياه، ونعمة أنعم بها عليهم، فمن الواجب عليهم شكرها بألا يبخلوا بجزء منه على الإنفاق فى وجوه الخير، لأن هذا البخل سيعود عليهم بما يضرهم.

وفى قوله : ﴿من قبل أن يأتى يوم﴾ .. إلخ حث آخر على التعجيل بالإنفاق، لأنه تذكير للناس بهذا الوقت الذى تنتهى فيه الأعمال، ولا يمكن فيه استدراك ما فاتهم، ولا تعويض

ما فقدوه من طاعات. فكأنه - سبحانه - يقول لهم : نجوا أنفسكم بالمسارعة إلى الإنفاق من قبل أن يأتى يوم لا منجاة فيه إلا بالعمل الصالح الذى قدمتموه.

و ﴿من﴾ فى قوله ﴿مما رزقناكم﴾ للتبعيض. وفى قوله ﴿من قبل﴾ لابتداء الغاية : ومفعول أنفقوا محذوف والتقدير أنفقوا شيئًا مما رزقناكم.

والشفاعة المنفية هنا هى التى لا يقبلها الله - تعالى - وهى التى لا يأذن بها، أما شفاعة النبى ﷺ فقد أذن الله له بها وقبلها منه، وقد وردت أحاديث صحيحة بلغت مبلغ التواتر المعنوى فى أن النبى ﷺ ستكون له شفاعة فى دفع العذاب عن أقوام من المؤمنين وتخفيفه عن أهل الكبائر من المسلمين، ومن ذلك ما أخرجه البخارى عن جابر بن عبد الله. أن رسول الله ﷺ قال : أعطيت خمسًا لم يعطهن نبى قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر. وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا فأيما رجل أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ أى والكافرون الجاحدون لنعمه هم الظالمون لأنفسهم، لأنهم حالوا بينها وبين الهداية بإيثارهم العاجلة على الآجلة، والغى على الرشد، والشر على الخير، والبخل على السخاء.

أما المؤمنون فليسوا كذلك لأنهم سلكوا الطريق المستقيم، وبذلوا الكثير من أموالهم فى سبيل إعلاء كلمة الله، وفى إعانة المحتاجين.

وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد حضت المؤمنين على المسارعة فى إنفاق أموالهم فى وجوه الخير من قبل أن يأتى يوم لا ينفع فيه ما كان نافعًا فى الدنيا من أقوال وأعمال وأنها قد توعدت من يبخل عن الإنفاق فى سبيل الله بسوء العاقبة، لأنه تشبه بالكافرين فى بخلهم وإمساكهم عن بذل أموالهم فى وجوه الخير.

وبعد أن أمر الله المؤمنين بالإنفاق فى وجوه الخير، وذكرهم بأهوال يوم القيامة، أتبع ذلك بآية كريمة اشتملت على تمجيده - سبحانه - فبينت كمال سلطانه، وشمول علمه. وسابغ نعمه على خلقه. استمع إلى القرآن الكريم وهو يصف لك الخالق - عز وجل - بأكمل الصفات وأعظمها فيقول :

﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾

قال بعضهم : هذه آية الكرسى أفضل آية فى القرآن. ومعنى الفضل أن الثواب على قراءتها أكثر منه على غيرها من الآيات. هذا هو التحقيق فى تفضيل بعض آيات القرآن على بعض. وإنما كانت أفضل لأنها جمعت من أحكام الألوهية وصفات الإله الثبوتية والسلبية ما لم تجمعه آية أخرى. جاء فى الحديث الشريف عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : لكل شىء سنام وإن سنام القرآن البقرة، وفيها آية هى سيدة القرآن - أى أفضله - وهى آية الكرسى »[1].

وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر جمل فيها ما فيها من صفات الله الجليلة - ونعوته السامية. أما الجملة الأولى والثانية فتتمثل فى قوله - تعالى - : ﴿الله لا إله إلا هو الحى القيوم﴾.

ولفظ الجلالة ﴿الله﴾ يقول العلماء : إن أصله إله دخلت عليه أداة التعريف « أل » وحذفت الهمزة فصارت الكلمة الله.

قال القرطبى : قوله : ﴿الله﴾ هذا الاسم أكبر أسمائه - تعالى - وأجمعها، حتى قال بعضهم إنه اسم الله الأعظم ولم يتسم به غيره، ولذلك لم يثن ولم يجمع، فالله اسم الموجود الحق الجامع لصفات الألوهية، المنعوت بنعوت الربوبية المنفرد بالوجود الحقيقى، لا إله إلا هو - سبحانه - »[1].

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ صفحة ٢٠٦.
(٢) تفسير القرطبى جـ ١ صفحة ١٠٢.

ولفظ ﴿إله﴾ قالوا إنه من أله فلان يأله أى عبد. فالإله على هذا المعنى هو المعبود، وقيل هو من أله أى تحير. وذلك أن العبد إذا تفكر فى صفاته - سبحانه - تحير فيها؛ ولذا قيل: «تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله»(١).

و﴿الحى﴾ أى الباقى الذى له الحياة الدائمة التى لافناء لها. لم تحدث له الحياة بعد موت، ولا يعتريه الموت بعد الحياة، وسائر الأحياء سواه يعتريهم الموت والفناء.

و﴿القيوم﴾ أى: الدائم القيام بتدبير أمر الخلق وحفظهم، والمعطى لهم ما به قوامهم. وهو مبالغة فى القيام. وأصله قيووم - بوزن فيعول - من قام بالأمر إذا حفظه ودبره.

والمعنى: الله - عز وجل - هو الإله الحق المتفرد بالألوهية التى لا يشاركه فيها سواه، وهو المعبود بحق وكل معبود سواه فهو باطل، وهو ذو الحياة الكاملة، وهو الدائم القيام بتدبير شئون الخلق وحياطتهم ورعايتهم وإحيائهم وإماتتهم.

والجملة الثالثة قوله - تعالى -: ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ وهى جملة سلبية مؤكدة للوصف الإيجابى السابق، فإن قيامه على كل نفس بما كسبت، وعلى تدبير شئون خلقه يقتضى ألا تعرض له غفلة، ولأن السنة والنوم من صفات الحوادث وهو - سبحانه - مخالف لها.

والسنة: الفتور الذى يكون فى أول النوم مع بقاء الشعور والإدراك. ويقال له غفوة. يقال: وسن الرجل يوسن وسنًا وسنة فهو وسن ووسنان إذا نعس والمراد أنه - سبحانه - لا يغفل عن تدبير أمر خلقه أبدًا، ولا يحجب علمه شىء حجبًا قصيرًا أو طويلا، ولا يدركه ما يدرك الأجسام من الفتور أو النعاس، أو النوم.

وتقديم السنة على النوم يفيد المبالغة من حيث إن نفى السنة يدل على نفى النوم بالأولى، فنفيه ثانيًا صريحًا يفيد المبالغة لأن عطف الخاص على العام يفيد المبالغة ولأن عطف الخاص على العام يفيد التوكيد أى لا تأخذه سنة فضلا عن أن يأخذه نوم.

وفى قوله: ﴿لا تأخذه﴾ دلالة على أن للنوم قوة قاهرة تأخذ الحيوان أخذًا وتقهر الكثير من أجناس المخلوقات قهرًا، ولكنه - سبحانه - وهو القاهر فوق عباده - منزه عن ذلك، ومبرأ من أن يعتريه ما يعترى الحوادث.

وقوله - سبحانه - فى الجملة الرابعة: ﴿له ما فى السموات وما فى الأرض﴾ تقرير لانفراده

---

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى صفحة ٢١.

بالألوهية إذ جميع الموجودات مخلوقاته، وتعليل لا تصافه بالقيومية، لأن من كانت جميع الموجودات ملكا له فهو حقيق بأن يكون قائما بتدبير أمرها.

والمراد بما فيهما ما هو أعم من أجزائهما الداخلة فيهما ومن الأمور الخارجة عنهما المتمكنة فيهما من العقلاء وغيرهم. فالجملة الكريمة تفيد الملكية المطلقة لرب العالمين لكل ما فى هذا الوجود من شمس وقمر وحيوان ونبات وجماد وغير ذلك من المخلوقات. وصدرت الجملة بالجار والمجرور «له» لإفادة القصر أى ملك السموات والأرض له وحده ليس لأحد سواه شيء معه.

والاستفهام فى قوله فى الجملة الخامسة ﴿من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه﴾ للنفى والإنكار أى: لا أحد يستطيع أن يشفع عنده - سبحانه - إلا بإذنه ورضاه قال - تعالى - ﴿وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئًا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾.

والمقصود من هذه الجملة - كما يقول الآلوسى - بيان كبرياء شأنه - تعالى - وأنه لا أحد يساويه أو يدانيه بحيث يستقل أن يدفع ما يريده دفعا على وجه الشفاعة والاستكانة والخضوع فضلا عن أن يستقل بدفعه عنادًا أو مناصبة وعداوة. وفى ذلك تيئيس للكفار حيث زعموا أن آلهتهم شفعاء لهم عند الله»[1].

وقوله - سبحانه - فى الجملة السادسة: ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ تأكيد لكمال سلطانه فى هذا الوجود، وبيان لشمول علمه على كل شيء.

والضمير فى (أيديهم) و(خلفهم) يعود إلى (ما) فى قوله قبل ذلك ﴿له ما فى السموات وما فى الأرض﴾ وعبر بضمير الذكور العقلاء، تغليبًا لجانبهم على جانب غير العقلاء.

والعلم بما بين أيديهم وما خلفهم كناية عن إحاطة علمه - سبحانه - بماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم، وما يعرفونه من شئونهم الدنيوية وما لا يعرفونه.

وقوله - تعالى - فى الجملة السابعة: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ معطوف على قوله ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ لأنه مكمل لمعناه. والمراد بالعلم المعلوم. والإحاطة بالشيء معناها العلم الكامل به.

أى: لا يعلمون شيئًا من معلوماته - سبحانه - إلا بالقدر الذى أراد أن يعلمهم إياه على ألسنة رسله. فهو كقوله - تعالى -: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدًا، إلا من ارتضى من رسول﴾.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٣ صفحة ٩.

فالجملة الكريمة بيان لكمال علم الله - تعالى -، ولنقصان علم سواه، إذ أن البشر لم يعطوا من العلم إلا القليل، وهذا القليل ناقص لأنه ليس على إحاطة واستغراق لكل ما تشتمل عليه جزئيات الشيء ووجوده وجنسه وكيفيته وغرضه المقصود به وبإيجاده، إذ العلم الكامل بالشيء لا يكون إلا لله رب العالمين.

ثم قال - تعالى - فى الجملة الثامنة : ﴿وسع كرسيه السموات والأرض﴾.

قال الراغب : الكرسى فى تعارف العامة : اسم للشيء الذى يقعد عليه، وهو فى الأصل منسوب إلى الكرس أى الشيء المجتمع، ومنه الكراسة لأنها تجمع العلم.. وكل مجتمع من الشيء كرس »[1].

وللعلماء اتجاهان مشهوران فى تفسير معنى الكرسى فى الجملة الكريمة. فالسلف يقولون : إن لله - تعالى - كرسيا علينا أن نؤمن بوجوده وإن كنا لا نعرف حقيقته، لأن ذلك ليس فى مقدور البشر.

والخلف يقولون : الكرسى فى الآية كناية عن عظم السلطان، ونفوذ القدرة، وسعة العلم، وكمال الإحاطة.

ولصاحب الكشاف تلخيص حسن لأقوال العلماء فى ذلك، فقد قال - رحمه الله - وفى قوله : ﴿وسع كرسيه﴾ أربعة أوجه :

أحدها : أن كرسيه لم يضق عن السماوات والأرض لبسطته وسعته وما هو إلا تصوير لعظمته ولا كرسى ثمة ولا قعود ولا قاعد.

والثانى : وسع علمه، وسمى العلم كرسيا تسمية بمكانه الذى هو كرسى العالم.

والثالث : وسع ملكه تسمية بمكانه الذى هو كرسى الملك.

والرابع : ماروى أنه خلق كرسيا هو بين يدى العرش دونه السموات والأرض وهو إلى العرش كأصغر شيء. وعن الحسن الكرسى هو العرش[2].

هذا وقد روى المفسرون عن ابن عباس أنه قال « كرسيه علمه »[3] ولعل تفسير الكرسى بالعلم كما قال حبر الأمة هو أقرب الأقوال إلى الصواب، لأنه هو المناسب لسياق الآية الكريمة.

---

(١) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى صفحة ٤٢٨ بتلخيص.

(٢) تفسير الكشاف جـ١ صفحة ٣٠١.

(٣) تفسير القرطبى جـ٣ صفحة ٢٧٦.

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالصفتين التاسعة والعاشرة فقال - تعالى - : ﴿ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم﴾.

﴿يؤوده﴾ معناه يثقله ويشق عليه. يقال آدنى الأمر بمعنى أثقلنى وتحملت منه المشقة.

و ﴿العلى﴾ هو المتعالى عن الأشياء، والأنداد، والأمثال، والأضداد وعن أمارات النقص ودلالات الحدوث. وقيل هو من العلو الذى هو بمعنى القدرة وعلو الشأن.

والمعنى : ولا يثقله ولا يتعبه حفظ السموات والأرض ورعايتهما، وهو المتعالى عن الأشباه والنظائر، والمسيطر على خلقه، العظيم فى ذاته وصفاته، ففى هاتين الجملتين بيان لعظيم قدرته، وعظيم رعايته لخلقه، وتنزيهه - سبحانه - عن مشابهة الحوادث.

وبعد، فهذه آية الكرسى التى اشتملت على عشر جمل، كل جملة منها تشتمل على وصف أو أكثر من صفات الله الجليلة، ونعوته المجيدة، وألوهيته الحقه، وقدرته النافذة، وعلمه المحيط بكل شىء، قد أقامت الأدلة الساطعة على وحدانية الله - تعالى - ووجوب إفراده بالعباده.

وقد تكلم العلماء طويلا عن تناسق جملها، وبلاغة تراكيبها ووجوه فضلها ومن ذلك قول صاحب الكشاف : «فإن قلت : لم فضلت هذه الآية على غيرها حتى ورد فى فضلها ماورد؟ قلت : لما فضلت له سورة الإخلاص من اشتمالها على توحيد الله وتعظيمه وتمجيده وصفاته العظمى ولا مذكور أعظم من رب العزة. فما كان ذكرًا له كان أفضل من سائر الأذكار»[1].

ومن الأحاديث التى ساقها الإمام ابن كثير فى فضلها ماجاء عن أبى بن كعب أن النبى ﷺ سأله : «أى آية فى كتاب الله أعظم؟ قال الله ورسوله أعلم. فرددها مرارا ثم قال : آية الكرسى. فقال له الرسول ﷺ «ليهنك العلم أبا المنذر».

وأخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن رسول الله ﷺ أنه قال : إن أعظم آية فى القرآن هى آية الكرسى».

وروى أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - خرج ذات يوم على الناس فقال : أيكم يخبرنى بأعظم آية؟ فقال ابن مسعود على الخبير سقطت سمعت رسول الله ﷺ يقول : أعظم آية فى القرآن ﴿الله لا إله إلا هو الحى القيوم﴾.. الآية[2].

وبعد أن ساق - سبحانه - فى آية الكرسى الأدلة الواضحة على وحدانيته وعظمته وتنزيهه

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٣٠٣.

(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٠٤ وما بعدها.

عن صفات الحوادث، عقب ذلك ببيان أن الدين الحق قد ظهر وتجلى لكل ذى عقل سليم، وأنه لا يقسر أحد على الدخول فيه فقال - تعالى - :

لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

الإكراه معناه : حمل الغير على قول أو فعل لا يريده عن طريق التخويف أو التعذيب أو ما يشبه ذلك. والمراد بالدين دين الإسلام والألف واللام فيه للعهد.

والرشد : الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه، مصدر رشد يرشد ويرشد أى اهتدى. والمراد هنا : الحق والهدى.

والغى ضد الرشد. مصدر من غوى يغوى إذا ضل فى معتقد أو رأى،ويرى بعض العلماء أن نفى الإكراه هنا خبر فى معنى النهى، أى : لا تكرهوا أحدًا على الدخول فى دين الإسلام فإنه بين واضح فى دلائله وبراهينه، فمن هداه الله له ونور بصيرته دخل فيه على بصيرة، ومن أضله وأعمى قلبه لا يفيده الإكراه على الدخول فيه.

وقال بعض العلماء إن الجملة هنا على حالها من الخبرية والمعنى : ليس فى الدين - الذى هو تصديق بالقلب، وإذعان فى النفس - إكراه وإجبار من الله - تعالى - لأحد، لأن مبنى هذا الدين على التمكين والاختيار، وهو مناط الثواب والعقاب، لولا ذلك لما حصل الابتلاء والاختبار، ولبطل الامتحان.

أو المعنى : كما يرى بعضهم - إن من الواجب على العاقل بعد ظهور الآيات البينات على أن الإيمان بدين الإسلام حق ورشد. وعلى أن الكفر به غى وضلال، أن يدخل عن طواعية واختيار فى دين الإسلام الذى ارتضاه الله وألا يكره على ذلك بل يختاره بدون قسر أو تردد.

فالجملة الأولى وهى قوله - تعالى - : ﴿لا إكراه فى الدين﴾ : تنفى الإجبار على الدخول فى الدين، لأن هذا الإجبار لا فائدة من ورائه، إذ التدين إذعان قلبى، واتجاه بالنفس والجوارح إلى الله رب العالمين بإرادة حرة مختارة فإذا أكره عليه الإنسان إزداد كرهًا له ونفورًا منه. فالإكراه والتدين نقيضان لا يجتمعان، ولا يمكن أن يكون أحدهما ثمرة للآخر.

والجملة الثانية وهى قوله - تعالى - : ﴿قد تبين الرشد من الغى﴾ بمثابة العلة لنفى هذا الإكراه على الدخول فى الدين، أى قد ظهر الصبح لذى عينين، وانكشف الحق من الباطل، والهدى من الضلال وقامت الأدلة الساطعة على أن دين الإسلام هو الدين الحق وغيره من الأديان ضلال وكفران ومادام الأمر كذلك فقد توافرت الأسباب التى تدعو إلى الدخول فى دين الإسلام، ومن كفر به بعد ذلك فليحتمل نتيجة كفره، وسوء عاقبة أمره.

ثم قال - تعالى - : ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها﴾.

الطاغوت : اسم لكل ما يطغى الإنسان، كالأصنام والأوثان والشيطان وكل رأس فى الضلال وكل ما عبد من دون الله. وهو مأخوذ من طغا يطغى - كسعى يسعى - طغيًا وطغيانًا، أو من يطغو طغوا طغوانًا، إذا جاوز الحد وغلا فى الكفر وأسرف فى المعاصى والفجور.

والعروة:فى أصل معناها تطلق على ما يتعلق بالشىء من عراه أى من الجهة التى يجب تعليقه منها، وتجمع على عرى. والعروة من الدلو والكوز مقبضه، ومن الثوب مدخل زره.

والوثقى : مؤنث الأوثق، وهو الشىء المحكم الموثق. يقال وثق - بالضم - وثاقة أى : قوى وثبت فهو وثيق أى ثابت محكم.

والانفصام. الانكسار، والفصم كسر الشى وقطعة.

والمعنى : فمن خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة غير الله، وآمن بالله - تعالى - إيمانًا خالصًا صادقًا فقد ثبت أمره واستقام على الطريقة المثلى التى لا انقطاع لها وأمسك من الدين بأقوى سبب وأحكم رباط.

والفاء فى قوله : ﴿فمن يكفر﴾ للتفريع. والسين والتاء فى استمسك للتأكيد والطلب، وقوله : ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ فيه - كما يقول الزمخشرى - تمثيل للمعلوم بالمنظور والاستدلال بالمشاهد المحسوس حتى يتصوره السامع كأنما ينظر إليه بعينه فيحكم اعتقاده والتيقن به، وجملة «لا انفصام لها» استئناف مقرر لما قبله أو حال من «العروة» والعامل «استمسك».

ثم ختم - سبحانه الآية بقوله : ﴿والله سميع عليم﴾ أى سميع للاقوال، وهمسات القلوب، وخلجات النفوس، عليم بما يسره الناس وما يعلنونه، وسيجازيهم بما يستحقون من ثواب أو عقاب.

قال القرطبى ما ملخصه : قيل إن هذه الآية منسوخة بقوله - تعالى - : ﴿يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين﴾ لأن النبى ﷺ قد أكره العرب على دين الإسلام وقاتلهم ولم يرض منهم إلا الإسلام. وقيل إنها ليست بمنسوخة وإنما نزلت فى أهل الكتاب خاصة، وأنهم لا يكرهون على الإسلام إذا أدوا الجزية. . والحجة لهذا القول ما رواه زيد ن أسلم عن أبيه قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول لعجوز نصرانية : أسلمى أيتها العجوز تسلمى، إن الله بعث محمدًا بالحق. قالت أنا عجوز كبيرة والموت إلى قريب. فقال عمر : اللهم اشهد وتلا : ﴿لا إكراه فى الدين﴾[1].

والذى تسكن إليه النفس أن هذه الآية محكمة غير منسوخة، لأن التدين لا يكون مع الإكراه - كما أشرنا من قبل - ولأن الجهاد ما شرع فى الإسلام لإجبار الناس على الدخول فى الإسلام إذ لا إسلام مع إجبار، وإنما شرع الجهاد لدفع الظلم ورد العدوان وإعلاء كلمة الله، والرسول ﷺ ما قاتل العرب ليكرههم على الدخول فى الإسلام وإنما قاتلهم لأنهم بدأوه بالعداوة.

ولأن الروايات فى سبب نزول هذه الآية تؤيد أنه لا إكراه فى الدين، ومن هذه الروايات ما جاء عن ابن عباس أنه قال : نزلت فى رجل من الأنجر من بنى سالم بن عوف يقال له الحصين كان له ابنان نصرانيان وكان هو مسلما، فقال للنبى ﷺ ألا استكرههما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية فأنزل الله هذه الآية[2] وفى رواية أخرى أنه حاول إكراههما على الدخول فى الإسلام فاختصموا إلى النبى ﷺ فقال الأنصارى : يارسول الله أيدخل بعضى النار وأنا أنظر إليه فنزلت الآية.

ولأن النسخ لا يصار إليه إلا إذا لم يمكن التوفيق بين الآيتين وهنا يمكن التوفيق بأن نقول : إن الآية التى معنا تنفى إكراه الناس على اعتقاد ما لا يريدون وآية ﴿يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين﴾ جاءت لحض النبى ﷺ وحض أصحابه على قتال الكفار الذين وقفوا فى طريق دعوته، حتى يكفوا عن عدوانهم وتكون كلمة الله هى العليا.

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين، وسوء عاقبة الكافرين فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير القرطبى جـ٣ صفحة ٣٨٠.
(٢) تفسير ابن كثير جـ١ صفحة ٣١١.

ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

﴿الولى﴾ : الناصر والمعين والحليف. مأخوذ من الولاية بمعنى النصرة

والمعنى : الله الذى بيده ملكوت كل شيء ﴿ولى الذين آمنوا﴾ أى معينهم وناصرهم ومتولى أمورهم، فهو - سبحانه - الذى يخرجهم من ظلمات الكفر، ومن ضلالات الشرك والفسوق والعصيان إلى نور الحق والهداية والتحرر من الأوهام. أما الذين كفروا فأولياؤهم ونصراؤهم الطاغوت الذى يتمثل فى الشياطين والأصنام والأوهام الموروثة والكبرياء والمضلين، وهؤلاء يخرجونهم بسبب انطماس بصيرتهم وانتكاسهم فى المعاصى من نور الإيمان والهداية إلى ظلمات الكفر والضلالة. أولئك الموصوفون بتلك الصفات القبيحة أصحاب النار هم فيها خالدون خلودا مؤبدًا.

وأفرد - سبحانه - النور وجمع الظلمات، لأن الحق واحد أما الظلمات فقد تعددت فنونها وألوانها وأسبابها. وفى تقديم ﴿الذين كفروا﴾ فى قوله :

﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت﴾ إشارة إلى أنهم هم الذين ارتضوا أن يكون الطغيان مسيطرًا على قلوبهم لأن كفرهم بالله - تعالى - هو الذى جعل الشيطان ينفذ إلى أقطار نفوسهم بسهولة ويسر.

وقوله : ﴿والذين كفروا﴾ مبتدأ و ﴿أولياؤهم﴾ مبتدأ ثان، و ﴿الطاغوت﴾ خبره والجملة خبر المبتدأ الأول.

ولم يقل - سبحانه - والطاغوت ولى الذين كفروا للاحتراز عن وضع اسم الطاغوت فى مقابل لفظ الجلالة.

فإن قيل : وهل كان الكافرون فى نور ثم أخرجوا منه؟ فالجواب أن المراد بخروجهم من النور الفطرى الذى جعل عليه الناس كافة أو من نور الحجج الواضحات التى من شأنها أن تحمل كل عاقل على الدخول فى الإسلام. وقيل المراد بهؤلاء المخرجين من النور إلى الظلمات أولئك الذين آمنوا بالنبى ﷺ قبل بعثته ثم كفروا به بعدها والإشارة فى قوله : ﴿أولئك﴾ تعود

إلى الذين كفروا. وفى التعبير «بأصحاب النار» إشعار بأنهم ملازمون لها كما يلازم المالك ما يملكه والرفيق رفيقه. وقوله ﴿هم فيها خالدون﴾ تأكيد لبقائهم فيها واختصاصهم بها.

وبذلك تكون الآية الكريمة قد ساقت أحسن البشارات للمؤمنين، وأشد العقوبات للكافرين الذين استحبوا العمى على الهدى.

ثم ساق القرآن بعد ذلك بعض الأمثلة للمؤمنين المهتدين وللضالين المغرورين.

فقال - تعالى - :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

﴿حاج﴾ أى جادل وخاصم والمحاجة: المخاصمة والمغالبة بالقول يقال حاججته فحججته أى خاصمته بالقول فتغلبت عليه وتستعمل المحاجة كثيرًا فى المخاصمة بالباطل ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن﴾. وقوله - تعالى - : ﴿وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان﴾.

والمعنى: لقد علمت أيها العاقل صفة ذلك الكافر المغرور الذى جادل إبراهيم - عليه السلام - فى شأن خالقه عز وجل - ومن لم يعلم قصته فهانحن أولاء نخبره بها عن طريق هذا الكتاب العزيز الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

والاستفهام للتعجب من شأن هذا الكافر وما صار إليه أمر غروره وبطره والمراد به - كما قال ابن كثير - نمرود بن كنعان بن كوس بن سام ابن نوح ملك بابل، وكان معاصرًا لسيدنا إبراهيم - عليه السلام -

وأطلق القرآن على ما دار بين هذا الملك المغرور وبين سيدنا إبراهيم أنها محاجة مع أنها مجادلة بالباطل من هذا الملك، أطلق ذلك من باب المماثلة اللفظية أو هى محاجة فى نظره السقيم ورأيه الباطل.

والضمير فى قوله : ﴿فى ربه﴾ يعود إلى إبراهيم - عليه السلام - وقيل يعود إلى نمرود لأنه هو المتحدث عنه فالضمير يعود إليه والإضافة - على الرأى الأول - للتشريف، وللإيذان من أول الأمر بأن الله - تعالى - مؤيد وناصر لعبده إبراهيم. وقوله : ﴿أن آتاه الله الملك﴾ بيان لسبب إقدام هذا الملك على ما أقدم عليه من ضلال وطغيان. أى سبب هذه المحاجة لأنه أعطاه الله - تعالى - الملك فبطر وتكبر ولم يشكره - سبحانه - على هذه النعمة، بل استعملها فى غير ما خلقت له فقوله : ﴿أن أتاه﴾ مفعول لأجله، والكلام على تقدير حذف لام الجر، وهو مطرد الحذف مع أن وأن.

وقوله : ﴿إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت﴾ حكاية لما قاله إبراهيم عليه السلام لذلك الملك فى مقام التدليل على وحدانية الله وأنه - سبحانه - هو المستحق للعبادة أى قال له : ربى وحده هو الذى ينشىء الحياة ويوجدها، ويميت الأرواح ويفقدها حياتها، ولا يوجد أحد سواه يستطيع أن يفعل ذلك.

وقول إبراهيم - كما حكاه القرآن - : ﴿ربى الذى يحيى ويميت﴾ مفيد للقصر عن طريق تعريف المبتدأ وهو ﴿ربى﴾ والخبر هو الموصول وصلته.

وعبر بالمضارع فى قوله : ﴿يحيى ويميت﴾ لإفادة معنى التجدد والحدوث الذى يرى ويحس بين وقت وآخر.

أى ربى هو الذى يحيى الناس ويميتهم كما ترى ذلك مشاهدًا فى كثير من الأوقات، فمن الواجب عليك أن تخصه بالعبادة والخضوع وأن تقلع عما أنت فيه من كفر وطغيان وضلال.

وقوله : ﴿إذ قال ابراهيم﴾ ظرف لقوله : ﴿حاج﴾ أو بدل اشتمال منه، وفى هذا القول الذى حكاه القرآن عن إبراهيم - عليه السلام - أوضح حجة وأقواها على وحدانية الله واستحقاقه للعبادة، لأن كل عاقل يدرك أن الحق هو الذى يملك الإحياء والإماتة ويملك بعث الناس يوم القيامة ليحاسبهم على أعمالهم وهو أمر ينكره ذلك الملك الكافر.

قال الإمام الرازى ما ملخصه : والظاهر أن قول إبراهيم ﴿ربى الذى يحيى ويميت﴾ جواب لسؤال سابق غير مذكور. وذلك لأنه من المعلوم أن الأنبياء بعثوا للدعوة إلى الله، ومتى ادعى الرسول الرسالة فإن المنكر يطالبه بإثبات أن للعالم إلهًا. فالظاهر هنا أن إبراهيم ادعى الرسالة فقال له نمرود : من ربك؟ فقال إبراهيم : ربى الذى يحيى ويميت، إلا أن تلك المقدمة حذفت لأن الواقعة تدل عليها، ودليل إبراهيم فى غاية الصحة لأن الخلق عاجزون عن الإحياء والإماتة وقدم ذكر الحياة على الموت هنا. لأن من شأن الدليل أن يكون فى غاية الوضوح والقوة، ولا شك أن عجائب الخلقة حال الحياة أكثر، واطلاع الإنسان عليها أتم فلا جرم

وجب تقديم الحياة هاهنا فى الذكر»[1].

ثم حكى القرآن جواب نمرود على إبراهيم فقال : ﴿قال أنا أحيى وأميت﴾ أى قال ذلك الطاغية : إذا كنت يا إبراهيم تدعى أن ربك وحده الذى يحيى ويميت فأنا أعارضك فى ذلك لأنى أنا - أيضًا أحيى وأميت وما دام الأمر كذلك فأنا مستحق للربوبية. قالوا : ويقصد بقوله هذا أنه يستطيع أن يعفو عمن حكم بقتله، ويقتل من شاء أن يقتله.

ولقد كان فى استطاعة إبراهيم - عليه السلام - أن يبطل قوله، بأن يبين له بأن ما يدعيه ليس من الاحياء والإماتة المقصودين بالاحتجاج، لأن ما قصده إبراهيم هو إنشاء الحياة وإنشاء الموت، كان فى استطاعة الخليل - عليه السلام - أن يفعل ذلك، ولكنه آثر ترك فتح باب الجدال والمحاورة، وأتاه بحجة هى غاية فى الإفحام فقال له - كما حكى القرآن : ﴿فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب﴾.

أى قال إبراهيم لخصمه المغرور: لقد زعمت أنك تملك الإحياء والإماتة كما يملك الله - تعالى - ذلك، ومن شأن هذا الزعم أن يجعلك مشاركًا لله - تعالى - فى قدرته فإن كان ذلك صحيحًا فأنت ترى وغيرك يرى أن الله - تعالى - يأتى بالشمس من جهة المشرق عند شروقها فأت بها أنت من جهة المغرب فى هذا الوقت فماذا كانت نتيجة هذه الحجة الدامغة التى قذفها إبراهيم - عليه السلام - فى وجه خصمه؟ كانت نتيجتها - كما حكى القرآن - ﴿فبهت الذى كفر﴾ أى : غلب وقهر، وتحير وانقطع عن حجاجه، واضطرب ولم يستطع أن يتكلم، لأنه فوجىء بما لا يملك دفعه. و﴿بهت﴾ فعل ماض جاء على صورة الفعل المبنى للمجهول - كزهى وزكم - والمعنى فيه على البناء للفاعل. وقوله : ﴿الذى كفر﴾ هو فاعله. والبهت : الانقطاع والحيرة، وقرىء بوزن - علم ونصر وكرم.

والفاء فى قوله : ﴿فإن الله يأتى بالشمس﴾ .. إلخ فصيحة لأنها أفصحت عن جواب لشرط مقدر أى إن كنت كما تزعم أنك تحيى وتميت وأن قدرتك كقدرة الله فإن الله - تعالى - يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب.

وعبر عن هذا المبهوت بقوله : ﴿الذى كفر﴾ للإشعار بأن سبب حيرته واضطرابه هو كفره وعناده.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿والله لا يهدى القوم الظالمين﴾ أى لا يهديهم إلى طريق

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٧ ص ٢٥ طبعة عبد الرحمن محمد بتصرف وتلخيص.

الحق. ولا يلهمهم حجة ولا برهانًا. بسبب ظلمهم وطغيانهم وإيثارهم طريق الشيطان على طريق الرحمن.

وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد حكت للناس لونًا من ألوان رعاية الله لأوليائه وخذلانه لأعدائه لكى يكون فى ذلك عبرة وعظة لقوم يعقلون.

ثم ساقت السورة الكريمة قصتين تدلان أبلغ دلالة على قدرة الله - تعالى - وعلى صحة البعث والنشور استمع إلى القرآن وهو يحكى هاتين القصتين بأسلوبه البليغ فيقول:

أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

قال الآلوسى ما ملخصه: قوله: ﴿أو كالذى مر على قرية﴾ معطوف على سابقه - وهو

قوله : ﴿ألم تر إلى الذى حاج﴾ والكاف اسمية بمعنى مثل معمولة لأ رأيت محذوفًا. أى أو أرأيت مثل الذى مر على قرية. . وحذف لدلالة ﴿ألم تر﴾ عليه. وقيل : إن الكاف زائدة والتقدير : ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم أو الذى مر على قرية. . وقيل : إن العطف هنا محمول على المعنى كأنه قيل : أرأيت شيئًا عجيبًا - كالذى حاج إبراهيم فى ربه، أو كالذى مر على قرية»[1].

والذى ﴿مر على قرية﴾ قيل هو عزير بن شرخيا، وقيل حزقيال بن بوزى وقيل غير ذلك، والقرية قيل المراد بها بيت المقدس وكان قد خربها «بختنصر» البابلى. . والقرآن الكريم لم يهتم بتحديد الأشخاص والأماكن لأنه يقصد العبرة وبيان الحال والشأن. وجملة ﴿وهى خاوية على عروشها﴾ فى موضع الحال من الضمير المستتر فى ﴿مر﴾ والواو رابطة بين الجملة الحالية وبين صاحبها والإتيان بها واجب لخلو الجملة من ضمير يعود على صاحبها وقيل هى حال من قرية، وسوغ إتيان الحال منها مع كونها نكرة وقوعها بعد الاستفهام المقدر وهو أرأيت ومعنى ﴿وهى خاوية على عروشها﴾ أن جدرانها ساقطة على سقوفها، أى أن الخراب قد عمها والدمار قد نزل بها، فأصبحت خالية من أهلها وفارغة ممن كان يعمرها وأصل الخواء الخلو. يقال خوت الدار وخربت تخوى خواء إذا سقطت وخلت.

والعروش جمع عرش وهو سقف البيت ويسمى العريش، وكل شىء يهيأ ليظل أو يكنّ فهو عريش وعرش.

وقوله - تعالى - : ﴿قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها﴾ حكاية لما قاله ذلك الذى مر على تلك القرية ورأى فيها ما رأى من مظاهر الخراب والدمار والمعنى : أو أرأيت مثل الذى مر على قرية وهى ساقطة حيطانها على سقوفها، وفارغة ممن كان يسكنها، فهاله أمرها، وراعه شأنها، وقال على سبيل التعجب كيف يحيى الله هذه القرية بعد موتها، بأن يعيد إليها العمران بعد الخراب، ويجعلها عامرة بسكانها الذين خلت منهم. فقوله : ﴿أنى يحيى هذه﴾ بمعنى كيف فتكون منصوبة على الحالية من اسم الإشارة ويجوز أن تكون ﴿أنى﴾ هنا بمعنى متى أى : متى يحيى الله هذه القرية بعد موتها فتكون منصوبة على الظرفية.

وقال القرطبى : قوله : ﴿أنى يحيى هذه الله بعد موتها﴾ معناه من أى طريق وبأى سبب، وظاهر اللفظ السؤال عن إحياء القرية بعمارة وسكان، كما يقال الآن فى المدن الخربة يبعد أن تعمر وتسكن أى : أنى تعمر هذه بعد خرابها. فكأن هذا تلهف من الواقف المعتبر على مدينته التى عهد فيها أهله وأحبته»[2].

---

(١) تفسير الألوسى جـ٣ ص ١٩.

(٢) تفسير القرطبى جـ٣ صفحة ٢٩٩.

وقوله هذا إنما هو تساؤل عن كيفية الإعادة لا عن أصل الإعادة لأنه كان مؤمنا بالبعث والنشور، إلا أنه لما رأى حال القرية على تلك الصورة من الخراب تعجب من قدرة الله على إحيائها، وتشوق إلى عمارتها واعترف بالعجز عن معرفة طريق الإحياء. فماذا كانت نتيجة هذا التساؤل؟ كانت نتيجته كما حكاها القرآن: ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت؟ قال لبثت يوما أو بعض يوم﴾.

أى: بعد أن قال هذا الذى مر على تلك القرية الخاوية على عروشها ما قال، ألبثه الله - تعالى - فى الموت مائة عام ﴿ثم بعثه﴾ أى أحياه ببعث روحه إلى بدنه ﴿قال كم لبثت﴾ أى كم مدة من الزمان لبثتها على هذه الحال؟ ﴿قال لبثت يومًا أو بعض يوم﴾.

وقال - سبحانه - : ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾ ولم يقل ثم أحياه، للدلالة على أنه عاد كهيئته يوم مات عاقلا فاهما مستعدا للنظر والاستدلال وكان ذلك بعد عمارة القريةوللإشهار بسرعته وسهولة تأتيه على البارى - سبحانه -.

قال ابن كثير: كان أول شىء أحيا الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه كيف يحيى بدنه فلما استقل سويًا قال الله له بواسطة الملك ﴿كم لبثت﴾؟ ﴿قال لبثت يوما أو بعض يوم﴾ وذلك أنه مات أول النهار ثم بعثه الله فى آخر النهار فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم فقال: ﴿أو بعض يوم﴾(١).

وقوله: ﴿قال كم لبثت﴾ استئناف مبنى على سؤال كأنه قيل: فماذا قال له بعد بعثه؟ فقيل: قال كم لبثت ليظهر له العجز عن الإحاطة بشئون الله - تعالى - على أتم وجه وتنحسم مادة استبعاده بالمرة.

وكم منصوبة على الظرفية ومميزها محذوف والتقدير كم يوما أو وقتا والناصب لها قوله: ﴿لبثت﴾.

وفى هذه الجملة الكريمة بيان للناس بأن الموت يشبه النوم، وأن البعث يشبه اليقظة بعده وأنه لا شىء محال على الله - تعالى - فهو القائل: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾.

وفى الحديث الشريف: والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا، وإنها لجنة أبدا، أو لنار أبدا».

وقوله - تعالى - : ﴿قال بل لبثت مائة عام﴾ معطوف على مقدر، أى: ليس الأمر كما قلت إنك لبثت يوما أو بعض يوم بل إنك لبثت مائة عام ثم أرشده - سبحانه - إلى التأمل فى أمور

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ صفحة ٣١٤.

فيها أبلغ دلالة على قدرة الله تعالى وعلى صحة البعث فقال - سبحانه - : ﴿فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه، وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما﴾.

قوله : ﴿لم يتسنه﴾ أى لم يتغير بمرور السنين الطويلة ولم تذهب طراوته فكأنه لم تمر عليه السنون ولفظ يتسنه : مشتق من السنة، والهاء فيه أصلية إذا قدر لام سنة هاء، وأصلها سنهة لتصغيرها على سنيهة وجمعها على سنهات كسجدة وسجدات، ولقولهم : سانهته إذا عاملته سنة فسنة، وتسنه عند القوم إذا أقام فيهم سنة. أو الهاء للوقف نحو كتابيه وجزمه بحذف حرف العلة إذا قدر لام سنه واوا، وأصلها سنوه لتصغيرها على سنية وجمعها على سنوات.

وقوله : ﴿ننشزها﴾ أى نرفعها. يقال : أنشز الشيء إذا رفعه من مكانه. وأصله من النشز - بفتحتين وبالسكون - وهو المكان المرتفع. وقرئ ﴿ننشرها﴾ - بضم النون والراء - أى نحييها من أنشر الله الموتى أى أحياهم. والمعنى : قال الله - تعالى - لهذا الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها إنك لم تلبث يوما أو بعض يوم فى الموت كما تظن بل لبثت مائة عام فإن كنت فى شك من ذلك فانظر إلى طعامك وشرابك لتشاهد أمرا آخر من دلائل قدرتنا فإن هذا الطعام والشراب كما ترى لم يتغير بمرور السنين وكر الأعوام بل بقى على حالته. وانظر إلى حمارك كيف نخرت عظامه، وتفرقت أوصاله مما يشهد بأنه قد مرت عليه السنوات الطويلة.

وقوله : ﴿ولنجعلك آية للناس﴾ معطوف على محذوف متعلق بفعل مقدر قبله بطريق الاستئناف مقرر لمضمون ما سبق، والتقدير : فعلنا ما فعلنا لترى وتشاهد بنفسك مظاهر قدرة الله، ولنجعلك آية معجزة ودليلا على صحة البعث وقوله : ﴿وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما﴾ أى انظر وتأمل فى هذه العظام كيف نركب بعضها فى بعض بعد أن نوجدها.

وقيل المعنى : وانظر إلى العظام أى عظام حمارك التى تفرقت وتناثرت لتشاهد كيف نرفعها من الأرض فنردها إلى أماكنها فى جسده.

قال ابن كثير : قال السدى وغيره : تفرقت عظام حماره يمينا وشمالا حوله فنظر إليها وهى تلوح من بياضها، فبعث الله ريحا فجمعتها من كل موضع، ثم ركب كل عظم فى موضعه، وذلك كله بمرأى من العزير»[1].

وجاء الضمير فى قوله : ﴿لم يتسنه﴾ بالإفراد مع أن المتقدم طعام وشراب، لأنهما متلازمان

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣١٤.

بمعنى أن أحدهما لا يكتفى به عن الآخر فصارا بمنزلة شىء واحد، فكأنه قال: انظر إلى غذائك.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير﴾ أى: فلما تبين له بالأدلة الناصعة، وبالمشاهدة الحسية قدرة الله - تعالى - على الإحياء والإماتة، وعلى البعث والنشور قال أعلم أى أستيقن وأومن وأعتقد أن الله - تعالى - على كل شىء قدير، وأنه - سبحانه - لا يعجزه شىء. والفاء فى قوله: ﴿فلما تبين له...﴾ عاطفة على مقدر يستدعيه المقام فكأنه قيل: رفع الله العظام من أماكنها وأكساها لحما فلما تبين له ذلك، وتيقنه قال أعلم أن الله على كل شىء قدير. وفاعل ﴿تبين﴾ مضمر يفسره سياق الكلام والتقدير: فلما تبين له كيفية الإحياء أو فلما تبين له ما أشكل عليه من أمر إحياء الموتى قال أعلم أن الله على كل شىء قدير.

تلك هى القصة الأولى التى ساقها الله - تعالى كدليل على قدرته وعلى صحة البعث والنشور. أما القصة الثانية التى تؤكد هذا المعنى فقد حكاها القرآن فى قوله: ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى﴾ أى: واذكر أيها العاقل لتعتبر وتتعظ وقت أن قال إبراهيم - عليه السلام - مخاطبًا خالقه - سبحانه -: رب أرنى بعينى كيف تعيد الحياة إلى الموتى.

وفى قوله: (رب) تصريح بكمال أدبه مع خالقه - عز وجل - فهو قبل أن يدعوه يستعطفه ويعترف له بالربوبية الحقة، والألوهية التامة، ويلتمس منه معرفة كيفية إحياء الموتى، فهو لا يشك فى قدرة الله ولا فى صحة البعث - وحاشاه أن يفعل ذلك - فهو رسول من أولى العزم من الرسل، وإنما هو يريد أن ينتقل من مرتبة علم اليقين إلى عين اليقين، ومن مرتبة البرهان إلى مرتبة العيان، فإن العيان يغرس فى القلب أسمى وأقوى ألوان المعرفة والاطمئنان.

وقد ذكر المفسرون لسؤال إبراهيم - عليه السلام - أسبابا منها: أنه لما قال للنمرود ﴿ربى الذى يحيى ويميت﴾ أحب أن يترقى بأن يرى ذلك مشاهدة. وقد أجاب الخالق - عز وجل - على طلب إبراهيم بقوله: ﴿أولم تؤمن﴾ أى: أتقول ذلك وتطلبه ولم تؤمن بأنى قادر على الإحياء وعلى كل شىء؟

فالجملة الكريمة استئناف مبنى على السؤال، وهى معطوفة على مقدر، والاستفهام للتقرير. وهنا يحكى القرآن جواب إبراهيم على خالقه - عز وجل - فيقول: ﴿قال بلى ولكن ليطمئن قلبى﴾. أى قال إبراهيم فى الرد على سؤال ربه له ﴿أو لم تؤمن﴾؟ بلى يارب آمنت بك وبقدرتك وبوحدانيتك إيمانا صادقا كاملا، ولكنى سألت هذا السؤال ليزداد قلبى سكونا واطمئنانا وإيمانا لأن من شأن المشاهدة أن تغرس فى القلب سكونا واطمئنانا أشد، وإيمانا

أقوى، وأنا فى جميع أحوالى مؤمن كل الإيمان بقدرتك ووحدانيتك يارب العالمين.

قال القرطبى ما ملخصه : لم يكن إبراهيم شاكافى إحياء الله الموتى قط وإنما طلب المعاينة، وذلك أن النفوس مستشرفة إلى رؤية ما أخبرت به، ولهذا جاء فى الحديث (ليس الخبر كالمعاينة)، قال الأخفش : لم يرد إبراهيم رؤية القلب وإنما أراد رؤية العين. وقال الحسين : سأل ليزداد يقينا إلى يقينه.

وأما قول الرسول ﷺ : نحن أحق بالشك من إبراهيم فمعناه أنه لو كان شاكا لكنا نحن أحق بالشك منه، ونحن لا نشك فإبراهيم - عليه السلام - أحرى ألا يشك، فالحديث مبنى على نفى الشك عن إبراهيم. . وإذا تأملت سؤاله - عليه السلام - وسائر الفاظه الآتية لم تعط شكا، وذلك أن الاستفهام بكيف إنما هو سؤال عن حالة شيء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسئول، وكيف هنا إنما هى استفهام عن هيئة الإحياء والإحياء متقرر، - فسؤال إبراهيم إنما هو عن الكيفية لا عن أصل القضية. . »[1].

وقال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف قال له ﴿أولم تؤمن﴾ وقد علم أنه أثبت الناس إيمانا؟ قلت : ليجيب بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجليلة للسامعين. و ﴿بلى﴾ إيجاب لما بعد النفى معناه : بلى آمنت. وقوله : ﴿ولكن ليطمئن قلبى﴾ أى ليزداد سكونا وطمأنينة بمضامة علم الضرورة - أى علم المشاهدة - إلى علم الاستدلال الذى يجوز معه التشكيك بخلاف العلم الضرورى، فأراد بطمأنينة القلب العلم الذى لا مجال فيه للتشكيك. فإن قلت : بم تعلقت اللام فى قوله : ﴿ليطمئن﴾ قلت بمحذوف تقديره : ولكن سألت ذلك إرادة طمأنينة القلب »[2].

ثم حكى القرآن بعد ذلك ما كان من جواب الخالق - عز وجل - على نبيه إبراهيم فقال : ﴿قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيًا﴾.

قوله : ﴿فصرهن إليك﴾ أى فاضممهن إليك - قرئ بضم الصاد وكسرها وتخفيف الراء - يقال : صاره يصوره ويصيره، أى أماله وضمه إليه. ويقال - أيضًا صار الشيء بمعنى قطعه وفصله والمعنى : قال الله - تعالى - لإبراهيم : إذا أردت معرفة ما سألت عنه فخذ أربعة من الطير فاضممهن إليك لتتأملهن وتعرف أشكالهن وهيئاتهن كيلا تلتبس عليك بعد الإحياء، ثم اذبحهن وجزئهن أجزاء ﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا﴾ أى ثم اجعل على كل مكان

---

(١) تفسير القرطبى جـ٣ ص ٢٩٧.

(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص ٣٠٨.

مرتفع من الأرض جزءا من كل طائر من تلك الطيور ثم نادهن يأتينك مسرعات إليك. والفاء فى قوله ﴿فخذ﴾ هى التى تسمى بالفاء الفصيحة لأنها تفصح عن شرط مقدر أى: إذا أردت ذلك فخذ..

وقوله: ﴿من الطير﴾ متعلق بمحذوف صفة لأربعة أى فخذ أربعة كائنة من الطير، أو متعلق بقوله ﴿خذ﴾ أى خذ من الطير. والطير اسم جمع - كرَكْب وسفر - وقيل هو جمع طائر مثل تاجر وتجر. قالوا: وهذه الطيور الأربعة هى الطاووس والنسر والغراب والديك.

ومما قالوه فى اختيار الطير لهذه الحالة: أن الطير من صفاته الطيران، وأنه لا يستأنس بالإنسان بل يطير بمجرد رؤيته، ولسهولة تأتى ما يفعل به من التجزئة والتفرقة.

وقوله: ﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا﴾ معطوف على محذوف دل عليه قوله: ﴿جزءا﴾ لأن تجزئتهن إنما تقع بعد الذبح والتقدير: فاذبحهن ثم اجعل.. إلخ. وقوله: ﴿ثم ادعهن﴾ أى قل لهن تعالين بإذن الله.

وقوله ﴿يأتينك﴾ جواب الأمر فهو فى محل جزم، ﴿سعيًا﴾ منصوب على المصدر النوعى، لأن السعى نوع من الإتيان فكأنه قيل: يأتينك إتيانًا سريعًا:

قال الفخر الرازى: أجمع أهل التفسير على أن المراد بالآية: قطعهن، وأن إبراهيم قطع أعضاءها ولحومها وريشها ودماءها وخلط بعضها ببعض - وفعل كما أمره الله، ثم قال لهن تعالين بإذن الله فأقبلن مسرعات إليه بعد أن انضم كل جزء إلى أصله - ثم قال: ولكن أبا مسلم أنكر ذلك وقال: إن إبراهيم لما طلب إحياء الميت من الله - تعالى - أراه الله مثالا قرب به الأمر عليه، والمراد بصرهن إليك: الإمالة والتمرين على الإجابة. أى: فعود الطيور الأربعة أن تصير بحيث إذا دعوتها أجابتك وأتتك، فإذا صارت كذلك فاجعل على كل جبل واحدا حال حياته، ثم ادعهن يأتينك سعيًا، والغرض منه ذكر مثال محسوس فى عود الأرواح إلى الأجساد على سبيل السهولة..»[1].

والذى يطمئن إليه القلب هو رأى الجمهور لأن الآية مسوقة لتحقيق معجزة تجرى على يد إبراهيم وهى إحياء الموتى بالمشاهدة كما جرى إحياء الرجل الذى أماته الله مائة عام والذى جاء ذكره فى الآية السابقة، ولأن ظاهر الآية صريح فى أنه حصل تقطيع لأجزاء الطير ثم وضع كل جزء منها على مرتفع من الأرض، وما دام الأمر كذلك فلا يجوز حمل المعنى على غير هذا الظاهر، كما لا يجوز تحميل الألفاظ ما لا تحتمله. وما ذهب إليه أبو مسلم هو قول بلا دليل فضلا عن مخالفته لما عليه إجماع المفسرين.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٤٤.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ أى واعلم أن الله - تعالى - غالب على أمره، قاهر فوق عباده، حكيم فى كل شئونه وأفعاله وبذلك نرى أن الآيتين الكريمتين قد ساقتا أبلغ الأدلة والشواهد على قدرة الله - تعالى - وعلى أنه هو المستحق للعبادة والخضوع، وعلى أن ما أخبر به من صحة البعث والنشور حق لا ريب فيه.

ثم حض الله - تعالى - عباده على الإنفاق فى سبيله، ووعدهم على ذلك بجزيل الثواب، فقال - تعالى - :

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾

ذكر بعض المفسرين أن هاتين الآيتين نزلتا فى صدقة عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان، وذلك أن رسول الله ﷺ لما حث الناس حين أراد الخروج إلى غزوة تبوك، جاء عبد الرحمن بأربعة آلاف درهم فقال : يا رسول الله كانت لى ثمانية آلاف فأمسكت لنفسى ولعيالى أربعة آلاف، وأربعة آلاف أقرضتها لربى، فقال رسول الله ﷺ «بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت». وجاء عثمان بألف دينار فى جيش العسرة فصبها فى حجر الرسول ﷺ قال عبد الرحمن بن سمرة - راوى الحديث - فرأيته ﷺ يدخل يده فيها ويقلبها ويقول : «ماضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم اللهم لا تنس هذا اليوم لعثمان». وقال أبو سعيد الخدرى : رأيت النبى ﷺ رافعا يديه يدعو لعثمان ويقول : «يا رب عثمان إنى رضيت عن عثمان فارض عنه».

ونزول هاتين الآيتين فى شأن صدقة هذين الصحابيين الجليلين لا يمنع من شمولهما لكل من نهج نهجهما، وبذل من ماله فى سبيل الله.

و «المثل»، الشبه والنظير. ثم أطلق على القول السائر المعروف لمماثلة مضربه لمورده الذى ورد فيه أولا. ثم استعير للصفة أو الحال أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة، وعلى هذا المعنى يحمل المثل فى هذه الآية.

و « الحبة » كما يقول القرطبى - اسم جنس لكل ما يزدرعه ابن آدم ويقتاته، وأشهر ذلك البر فكثيرا ما يراد بالحب.

وسنبلة - بوزن فنعلة - من أسبل الزرع إذا صار فيه السنبل، أى استرسل بالسنبل كما يسترسل الستر بالاسبال. وقيل: معناه صار فيه حب مستور كما يستر الشيء بإسبال الستر عليه. والجمع سنابل(١).

والمعنى: مثل صدقة الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله، أى: فى طاعته، كمثل حبة ألقيت فى أرض طيبة، أصابها الغيث، فخرجت الحبة على هيئة زرع قوى جميل فأنبتت فى الوقت المناسب لإنباتها سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة.

فأنت ترى أن الخالق - عز وجل - قد شبه حال الصدقة التى يبذلها المؤمن فى سبيل الله فيكافئه الله - تعالى - عليها بالثواب العظيم، بحال الحبة التى تلقى فى الأرض النقية فتخرج عودا مستويا قائما قد تشعب إلى سبع شعب، فى كل شعبة سنبلة، وفى كل سنبلة مائة حبة. وفى هذا التشبيه ما فيه من الحض على الإنفاق فى وجوه الخير، ومن الترغيب فى فعل البر ولا سيما النفقة فى الجهاد فى سبيل الله.

قال ابن كثير: وهذا المثل أبلغ فى النفوس من ذكر عدد السبعمائة. فإن هذا فيه اشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله - تعالى - لأصحابها كما ينمى الزرع لمن بذره فى الأرض الطيبة »(٢).

وقال - سبحانه - : ﴿كمثل حبة أنبتت﴾ فأسند الإنبات إلى الحبة، مع أن المنبت فى الحقيقة هو الله، وذلك لأنها سبب لوجود تلك السنابل المليئة بالحبات، ولأنها هى الأصل لما تولد عنها.

ثم قال - تعالى - : ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾ أى والله - تعالى - يضاعف الثواب والجزاء أضعافا كثيرة لمن يشاء من عباده، فيعطى بعضهم سبعمائة ضعف، ويعطى بعضهم أكثر من ذلك، لأن الصدقة يختلف ثوابها باختلاف حال المتصدق، فمتى خرجت منه بنية خالصة، وقلب سليم، ونفس صافية، ومن مال حلال، ووضعت فى موضعها المناسب، متى كانت كذلك كان الجزاء عليها أوفر، والمضاعفة لها تزيد على سبعمائة ضعف. إذ عطاء الله لمن يشاء من عباده ليس له حدود، وثوابه ليس له حساب معدود.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٣ ص ٣٠٢، ٣٠٦.
(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣١٦.

ولذا ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿والله واسع عليم﴾ أى والله - تعالى - عطاؤه واسع، وجوده عميم، وفضله كبير، وهو - تعالى - عليم بنيات عباده وبأقوالهم وبأفعالهم وبسائر شئونهم، فيجازى كل إنسان على حسب نيته وعمله.

وقوله - تعالى - : ﴿الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله﴾ استئناف جىء به لبيان كيفية الإنفاق الذى يحبه الله، ويجازى عليه المنفقين بالجزاء العظيم.

وقوله : ﴿ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى﴾ تحذير للمتصدق من هاتين الصفتين الذميمتين لأنهما مبطلتان لثواب الصدقة.

والمن معناه : أن يتطاول المحسن بإحسانه على من أحسن إليه، ويتفاخر عليه بسبب ما أعطاه من عطايا. كأن يقول على سبيل التفاخر والتعبير : لقد أحسنت إليك وأنقذتك من الفقر وما يشبه ذلك.

قال الإمام الرازى ما ملخصه : والمن فى اللغة على وجوه : فقد يأتى بمعنى الإنعام. يقال : قد من الله على فلان. إذا أنعم عليه بنعمه. وقد يأتى بمعنى النقص من الحق والبخس له. قال - تعالى - : ﴿وإن لك لأجرا غير ممنون﴾ أى غير مقطوع وغير ممنوع ومنه سمى الموت منونا لأنه يقطع الأعمار، ومن هذا الباب المنة المذمومة لأنها تنقص النعمة وتكدرها، والعرب يمتدحون بترك المن بالنعمة.

والمراد بالمن فى الآية المذموم الذى هو بمعنى «إظهار الاصطناع إليهم»[١].

وقال صاحب الكشاف : المن : أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه، ويريد أنه اصطنعه وأوجب عليه حقاله، وكانوا يقولون : إذا صنعتم صنيعة فانسوها. ولبعضهم.

وإن أمرؤ أسدى إلى صنيعة وذكرنيها إنه للئيم

وفى نوابغ الكلم : صنوان : من منح سائله ومنَّ، ومن منع نائله وضن»[٢] والمراد بالأذى فى الآية : أن يقول المعطى لمن أعطاه قولا يؤذيه، أو يفعل معه فعلا يسىء به إليه، وهو أعم من المن، إذ المن نوع من الأذى لكنه نص عليه لكثرة وقوعه.

وجاء العطف بثم فى الجملة الكريمة، لإظهار التفاوت الشديد فى الرتبة بين الإنفاق الذى يحبه الله، وبين الإنفاق الذى يصاحبه المن والأذى، وللإشعار بأن المن والأذى بغيضان عند

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٤٩.
(٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣١١.

الإنفاق وبعده، فعلى المنفق أن يستمر فى أدبه وإخلاصه وقت الإنفاق وبعده حتى لا يذهب ثوابه، إذ المنّ والأذى مبطلان للثواب فى أى وقت يحصلان فيه.

قال الشيخ ابن المنير مبينًا أن ﴿ثم﴾ هنا تفيد استمرار الفعل بجانب إفادتها للتفاوت فى الرتبة : وعندى فيها - أى فى ثم - وجه آخر محتمل فى هذه الآية ونحوها. وهو الدلالة على دوام الفعل المعطوف بها وإرخاء الطول فى استصحابه. فهى على هذا لم تخرج عن الإشعار ببعد الزمن، ولكن معناها الأصلى تراخى زمن وقوع الفعل وحدوثه، ومعناها المستعار إليه دوام وجود الفعل وتراخى زمن بقائه. وعليه حمل قوله - : ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ أى : داوموا على هذه الاستقامة دواما متراخيا ممتد الأمد. . وكذلك قوله هنا « ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى » أى يدومون على تناسي الإحسان وعلى ترك الاعتداد به والامتنان والأذى. . [(1)].

وكرر - سبحانه - النفى فى قوله : ﴿ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى﴾ لتأكيده وشموله لأفراد كل واحد منهما، أى يجب ألا يقع منهم أى نوع من أنواع المن ولا أى نوع من أنواع الأذى. حتى لقد قال بعض الصالحين : « لئن ظننت أن سلامك يثقل على من أنفقت عليه بنفقة تبتغى بها وجه الله، فلا تسلم عليه ».

ثم ختم - سبحانه - الآية ببيان عاقبة المنفقين بلا من ولا أذى فقال : ﴿لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أى : لهم جزاؤهم العظيم مكافأة لهم على أدبهم وإخلاصهم، عند مربيهم ومالك أمرهم، ولا خوف عليهم مما سيجدونه فى مستقبلهم، ولاهم يحزنون على ماضيهم، وذلك لأن الله - تعالى - قد أحاطهم برعايته فى دنياهم وأخراهم وعوضهم عما فارقوه خير عوض وأكرمه.

ثم كرر - سبحانه - التحذير من المن والأذى، مناديا المؤمنين بأن يجتنبوا فى صدقاتهم هاتين الرذيلتين، مبينا أن الكلمة الطيبة للفقير خير من إعطائه مع إيذائه، استمع إلى القرآن الكريم وهو يسوق هذه المعانى وغيرها بأسلوبه البليغ المؤثر فيقول :

۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟

---

(١) حاشية تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣١١ للشيخ أحمد بن المنير.

صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

والمعنى : ﴿قول معروف﴾ بأن تقول للسائل كلاما جميلا طيبا تجبر به خاطره، ويحفظ له كرامته «ومغفرة» لما وقع منه من إلحاف فى السؤال، وستر لحاله وصفح عنه، ﴿خير من صدقة يتبعها أذى﴾ أى خير من صدقة يتبعها المتصدق أذى للمتصدق عليه.

لأن الكلمة الطيبة للسائل، والستر عليه، والعفو عنه فيما صدر منه، كل ذلك يؤدى إلى رفع الدرجات عند الله، وإلى تهذيب النفوس، وتأليف القلوب وحفظ كرامة أولئك الذين مدوا أيديهم بالسؤال. أما الصدقة التى يتبعها الأذى فإن إيتاءها بتلك الطريقة يؤدى إلى ذهاب ثوابها، وإلى زيادة الآلام عند السائلين ولا سيما الذين يحرصون على حفظ كرامتهم، وعلى صيانة ماء وجوههم، فإن ألم الحرمان عند بعض الناس أقل أثرا فى نفوسهم من آلام الصدقة المصحوبة بالأذى، لأن ألم الحرمان يخففه الصبر الذى وراءه الفرج، أما آلام الصدقة المصحوبة بالأذى لهم فإنها تصيب النفوس الكريمة بالجراح التى من العسير التئامها وشفاؤها.

قال القرطبى : روى مسلم فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : «الكلمة الطيبة صدقة، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق». فعلى المسئول أن يتلقى السائل بالبشر والترحيب، ويقابله بالطلاقة والتقريب ليكون مشكورا إن أعطى ومعذورًا إن منع. وقد قال بعض الحكماء : الق صاحب الحاجة بالبشر فإن عدمت شكره لم تعدم عذره»[1].

وقوله : ﴿قول معروف﴾ مبتدأ وساغ الابتداء بالنكرة لوصفها وللعطف عليها. وقوله : ﴿ومغفرة﴾ عطف عليه وسوغ الابتداء بها العطف أو الصفة المقدرة إذ التقدير ومغفرة للسائل أو من الله وقوله : ﴿خير﴾ خبر عنهما وقوله ﴿يتبعها أذى﴾ فى محل جر صفة لصدقة.

ثم ختم الله - تعالى - الآية بقوله : ﴿والله غنى حليم﴾ أى والله - تعالى - غنى عن إنفاق المنفقين وصدقات المتصدقين. وإنما أمرهم بها لمصلحة تعود عليهم. أو غنى عن الصدقة

---

(١) تفسير القرطبى جـ٣ ص ٣٠٩.

المصحوبة بالأذى فلا يقبلها. ﴿حليم﴾ فلا يعجل بالعقوبة على مستحقها، فهو - سبحانه - يمهل ولا يهمل.

والجملة الكريمة تذييل لما قبله مشتملة على الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب.

وقوله - تعالى - : ﴿يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾ نداء منه - سبحانه - للمؤمنين يكرر فيه نهيهم عن المن والأذى، لأنهما يؤديان إلى ذهاب الأجر من الله - تعالى - وإلى عدم الشكر من الناس ولذا جاء فى الحديث الشريف : «إياكم والامتنان بالمعروف فإنه يبطل الشكر ويمحق الأجر».

ثم أكد - سبحانه - هذا النهى عن المن والأذى بذكر مثلين فقال فى أولهما : ﴿كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾.

والمعنى : يا من آمنتم بالله - تعالى - لا تبطلوا صدقاتكم بأن تحبطوا أجرها، وتمحقوا ثمارها، بسبب المن والأذى، فيكون مثلكم فى هذا الإبطال لصدقاتكم بسبب ما ارتكبتم من آثام، كمثل المنافق الذى ينفق ماله من أجل أن يرى الناس منه ذلك ولا يبغى به رضاء الله ولا ثواب الآخرة، لأنه كفر بالله، وكفر بحساب الآخرة.

وفى هذا التشبيه تنفير شديد من المن والأذى لأنه - سبحانه - شبه حال المتصدق المتصف بهما فى إبطال عمله بسببهما بحال هذا المنافق المرائى الذى لا يؤمن بالله واليوم الآخر.

وقوله : ﴿كالذى . .﴾ الكاف فى محل نصب على أنها نعت لمصدر محذوف أى : لا تبطلوها إبطالا كابطال الذى ينفق ماله رئاء الناس . . . أو فى محل نصب على الحال من فاعل ﴿تبطلوا﴾ أى لا تبطلوها مشابهين الذى ينفق ماله رئاء الناس.

وقوله : ﴿رئاء﴾ منصوب على أنه مفعول لأجله أى : كالذى ينفق ماله من أجل رئاء الناس.

وأما المثال الثانى فقال - سبحانه - : ﴿فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدًا لا يقدرون على شىء مما كسبوا﴾.

﴿الصفوان﴾ اسم جنس جمعى واحده صفوانة كشجر وشجرة وهو الحجر الكبير الأملس، مأخوذ من الصفاء وهو خلوص الشىء مما يشوبه. يقال : يوم صفوان أى صافى الشمس. وقيل هو مفرد كحجر. و﴿الوابل﴾ المطر الشديد. يقال : وبلت السماء تبل وبلا ووبولا. اشتد مطرها و﴿الصلد﴾ هو الشىء الأجرد النقى من التراب الذى كان عليه. ومنه رأس أصلد إذا كان لا ينبت شعرًا، والأصلد الأجرد الذى لا ينبت شيئًا مأخوذ من صلد يصلد صلدا فهو صلد.

والمعنى : يأيها المؤمنون لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى فيكون مثلكم كمثل المنافق الذى ينفق ماله من أجل الرياء لا من أجل رضا الله، وإن مثل هذا المنافق فى انكشاف أمره وعدم انتفاعه بما ينفقه رياء وحبًا للظهور كمثل حجر أملس لا ينبت شيئًا ولكن عليه قليل من التراب الموهم للناظر إليه أنه منتج فنزل المطر الشديد فأزال ما عليه من تراب، فانكشف حقيقته وتبين للناظر إليه أنه حجر أملس صلد لا يصلح لإنبات أى شىء عليه.

فالتشبيه فى الجملة الكريمة بين الذى ينفق ماله رياء وبين الحجر الكبير الأملس الذى عليه قدر رقيق من التراب ستر حاله، ثم ينزل المطر فيزيل التراب وتنكشف حقيقته ويراه الرائى عاريًا من أى شىء يستره. وكذلك المنافق المرائى فى إنفاقه يتظاهر بمظهر السخاء أمام الناس ثم لا يلبث أن ينكشف أمره لأن ثوب الرياء يشف دائمًا عما تحته، وإن لم يكشفه فإن الله كاشفه.

ومن المفسرين من يرى أن التشبيه فى الجملة الكريمة بين المنفق الذى يبطل صدقته بالمن والأذى وبين الحجر الأملس، وأن الضمير فى قوله : ﴿فمثله كمثل صفوان﴾ يعود إلى هذا المبطل لصدقته بالمن والأذى. فيكون المعنى : لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى فيكون مثلكم كمثل الحجر الأملس الذى عليه تراب كان يرجى أن يكون منبتًا للزرع فنزل المطر فأزال التراب فبطل إنتاجه، فالمن والأذى يبطلان الصدقات ويزيلان أثرها النافع، كما يزيل المطر التراب الذى يؤمل منه الإنبات من فوق الحجر الأملس.

والذى نراه أن عودة الضمير فى قوله : ﴿فمثله﴾ على الذى ينفق ماله رئاء الناس أظهر لأنه أقرب مذكور، ولأن التشبيه فى قوله : ﴿فمثله كمثل صفوان﴾ قد جاء بلفظ المفرد وهو المناسب للذى ينفق ماله رئاء الناس لأنه مفرد مثله، بخلاف قوله : ﴿لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾ فإن الضمير فيه بلفظ الجمع، فمن الأولى أن يعود الضمير فى قوله : ﴿فمثله﴾ إلى المرائى لتوافقهما فى الأفراد.

ثم قال - تعالى - : ﴿لا يقدرون على شىء مما كسبوا﴾ أى أن الذين يبطلون صدقاتهم بالمن والأذى، والذين يتصدقون رياء ومفاخرة لا يقدرون على تحصيل شىء من ثواب ما عملوا لأن ما صاحب أعمالهم من رياء ومن أذى محق بركتها، وأذهب ثمرتها، وأزال ثوابها.

أو المعنى : أن أولئك المنانين والمرائين ليس عندهم قدرة على شىء من المال الذى بين أيديهم وإنما هذا المال ملك لله وهو - سبحانه - الذى أنعم به عليهم، فعليهم أن يشكروه على هذه النعمة، وأن ينفقوه بدون من أو أذى أو مراءاة، حتى يظفروا بحسن المثوبة منه - سبحانه -.

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿والله لا يهدى القوم الكافرين﴾ أى لا يهديهم إلى ما ينفعهم لأنهم آثروا الكفر على الإيمان.

والجملة الكريمة تذييل مقرر لمضمون ما قبله، وفيها إشارة إلى أن الإنفاق المصحوب بالمن والأذى والرياء ليس من صفات المؤمنين وإنما هو من صفات الكافرين، فعلى المؤمنين أن يجتنبوا هذه الصفات التى لا تليق بهم.

والذى ينظر فى هذه الآيات الكريمة يرى أن الله - تعالى - قد حذر المنفقين من المن والأذى فى ثلاث آيات متواليات، كما حذرهم من الرياء، وساق أكثر من تشبيه لتقبيح الصدقات التى لا تكون خالصة لوجه الله فلماذا كل هذا التشديد فى النهى؟

والجواب عن ذلك: أن المن والأذى فى الإنفاق كثيرًا ما يحصلان بسبب استعلاء كاذب، أو رغبة فى إذلال المحتاج وإظهاره بمظهر الضعيف: وكلا الأمرين لا يليق بالنفس المؤمنة المخلصة، ولا يتلاقى مطلقًا مع الحكم التى من أجلها شرعت الصدقات بل إنه ليتنافر معها تنافرًا تامًا لأن الصدقات شرعها الله لتهذيب النفوس وتطهير القلوب ولتربط بين الأغنياء والفقراء برباط المحبة والمودة والإخاء، فإذا ما صاحبها المن والأذى أثمرت نقيض ما شرعت له، لأنها تثير فى نفس المعطى بسبب ذلك الكبر والخيلاء وغير ذلك من الصفات الذميمة، وتثير فى نفس الآخذ شعورًا بالحقد والانتقام ممن أعطاه ثم آذاه وبذلك تنقطع الروابط، ويتمزق المجتمع، وتتحول المحبة إلى عداوة.

ولقد تحدث الإمام الرازى عن الآثار السيئة للمن والأذى فقال ما ملخصه:

وإنما كان المن مذمومًا لوجوه:

الأول: أن الفقير الآخذ للصدقة منكسر القلب لأجل حاجته إلى صدقة، فإذا أضاف المعطى إلى ذلك إظهار الإنعام زاد ذلك فى انكسار قلبه فيكون فى حكم المضرة بعد المنفعة، وفى حكم المسيء إليه بعد أن أحسن إليه.

والثانى: أن إظهار المن يبعد أهل الحاجة عن الرغبة فى صدقته إذا اشتهر من طريق ذلك.

الثالث: أن المعطى يجب أن يعتقد أن هذه النعمة من الله - تعالى - عليه - وأن يعتقد أن لله عليه نعما عظيمة حيث وفقه لهذا العمل ومتى كان الأمر كذلك امتنع عن أن يجعل ما ينفقه منة على الغير.

الرابع: أن المعطى فى الحقيقة هو الله، ومتى اعتقد العبد ذلك استنار قلبه، أما إذا اعتقد غير ذلك فإنه يكون فى درجة البهائم الذين لا يترقى نظرهم عن المحسوس إلى المعقول، وعن الآثار إلى المؤثر... وأما الأذى فيتناول كل ذلك وغيره مما يسيء إلى الفقير بأن يقول له: فرج الله عنى منك، وأنت أبدا تأتى إلى بما يؤلم. إلخ[1].

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٧ ص ٤٩.

هذا، وقد ساق الإمام ابن كثير عددًا من الأحاديث الشريفة التى نهت عن المن والأذى ومن ذلك ما جاء فى صحيح مسلم عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: المنان بما أعطى، والمسبل إزاره، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب» وروى النسائى عن ابن عباس عن النبى ﷺ أنه قال: «لا يدخل الجنة مدمن خمر، ولا عاق لوالديه، ولا منّان»[1].

وبعد أن بين القرآن سوء عاقبة الذين يراءون فى صدقتهم، ويفسدون ثمارها بالمن والأذى، أتبع ذلك ببيان حسن عاقبة الذين ينفقون أموالهم ابتغاء رضا الله، فقال - تعالى:

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾

التثبيت: تحقيق الشىء وترسيخه،

والجنة - كما يقول الراغب - كل بستان ذى شجر يستر بأشجاره الأرض. وأصل الجن ستر الشىء على الحاسة، يقال: جنه الليل وأجنه أى ستره. وسميت الجنة بذلك لأنها تظلل ما تحتها وتستره. ﴿والربوة﴾ - بضم الراء وفتحها - المكان المرتفع من الأرض. وأصلها من قولهم: ربا الشىء يربو إذا ازداد وارتفع ومنه الربا للزيادة المأخوذة على أصل الشىء.

والمعنى: ومثل الذين ينفقون أموالهم طلبا لرضى الله - تعالى - ﴿وتثبيتا من أنفسهم﴾ أى: وتوطينا لأنفسهم على حفظ هذه الطاعة وعلى ترك ما يفسدها كمثل جنة بموضع مرتفع من الأرض نزل بها مطر كثير فأخرجت ثمرها (ضعفين﴾ أى ضعفًا بعد ضعف فتكون التثنية للتكثير، أو فأعطت صاحبها أو الناس مثلى ما كانت تثمر فى سائر الأوقات بسبب ما أصابها من المطر الغزير. أو فأخرجت ثمرها ضعفين بالنسبة إلى غيرها من الجنان.

والمقصود تشبيه نفقة هؤلاء المؤمنين المخلصين فى زكائها ونمائها عند الله بتلك الحديقة اليانعة المرتفعة التى تنزل عليها المطر الغزير فأتت أكلها مضاعفًا وأخرجت للناس من كل زوج بهيج.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣١٨.

وقوله : ﴿ابتغاء﴾ مفعول لأجله أى يبذلون نفقتهم من أجل رضا الله -عز وجل - أو حال من فاعل ينفقون. أى ينفقون أموالهم طالبين رضا الله.

وقوله : ﴿وتثبيتا من أنفسهم﴾ معطوف على سابقه، وقد ذكر صاحب الكشاف أوجها فى معنى هذه الجملة الكريمة فقال : قوله : ﴿وتثبيتا من أنفسهم﴾ أى وليثبتوا منها ببذل المال الذى هو شقيق الروح على سائر العبادات الشاقة وعلى الإيمان، لأن النفس إذا ريضت بالتحامل عليها وتكليفها، ما يصعب عليها ذلت خاضعة لصاحبها وقل طمعها فى اتباعه لشهواتها وبالعكس، فكان إنفاق المال تثبيتا لها على الإيمان واليقين. و ﴿من﴾ على هذا الوجه للتبعيض، مثلها فى قولهم : هز من عطفه وحرك من نشاطه. ويجوز أن يراد من قوله - تعالى - : ﴿وتثبيتا من أنفسهم﴾ أى : وتصديقا للإسلام وتحقيقا للجزاء من أصل أنفسهم لأنه إذا أنفق المسلم ماله فى سبيل الله، علم أن تصديقه وإيمانه بالثواب من أصل نفسه ومن إخلاص قلبه. و ﴿من﴾ على هذا الوجه لابتداء الغاية، كقوله - تعالى - ﴿حسدا من عند أنفسهم﴾ ويحتمل أن يكون المعنى : وتثبيتا من أنفسهم عند المؤمنين أنها صادقة الإيمان مخلصة فيه، وتعضد هذا المعنى قراءة مجاهد : وتبيينا من أنفسهم : فإن قلت : فما معنى التبعيض؟ قلت : معناه أن من بذل ماله لوجه الله فقد ثبت بعض نفسه، ومن بذل ماله وروحه معًا فهو الذى ثبتها كلها كما فى قوله - تعالى - : ﴿وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم﴾[1].

وخصص الجنة بأنها بربوة لأن الأشجار فى المكان المرتفع من الأرض تكون عادة أحسن منظرا، وأزكى ثمرا، للطافة هوائها، فكان من فوائد هذا القيد إعطاء وجه الشبه - وهو تضعيف المنفعة وجمالها قوة ووضوحًا، كما أن من فوائده تحسين المشبه به تحسينا يعود أثره إلى المشبه عند السامع.

ثم قال - تعالى - : ﴿فإن لم يصبها وابل فطل﴾.

والطل : هو المطر القليل وجمعه طلال، وهو مبتدأ محذوف الخبر أى فطل قليل يصيبها يكفيها.

والمراد أن هذه الجنة لطيبها وكرم منبتها تزكو وتثمر كثر المطر النازل عليها أو قل فكذلك نفقة المؤمنين المخلصين تزكو عند الله وتطيب كثرت أو قلت، لأن إخلاصهم فيها جعلها عند الله - تعالى - مضاعفة نامية.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿والله بما تعلمون بصير﴾.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ صفحة ٣١٣ بتصرف يسير.

أى أنه – سبحانه – عليم بأحوال عباده لا تخفى عليه خافية، وسيجازى المخلصين بما يرضيهم كما سيجازى المنانين والمرائين بما يستحقون. ففى الجملة الكريمة ترغيب وترهيب ووعيد.

وبذلك نرى القرآن الكريم قد ساق فى هذه الآية وسابقتها حالتين متقابلتين: حالة الذى يبطل صدقته بالمن والأذى والرياء، وكيف تكون عاقبته ونهايته. وحالة الذى ينفق ماله طلبًا لرضا الله وتعويدًا لنفسه على فعل الطيبات وكيف يكون جزاؤه عند العليم الخبير ولقد صور القرآن هاتين الحالتين تصويرًا مؤثرًا بديعًا، من شأنه أن يهدى العقلاء إلى فعل الخيرات، وإخلاص النيات، واجتناب السيئات.

ثم ساق القرآن آية كريمة حذر فيها الناس من ارتكاب مانهى الله عنه وبين فيها كيف أن المن والأذى والرياء وما يشبه ذلك من رذائل يؤدى إلى ذهاب الشىء النافع من بين يدى صاحبه وهو أحوج ما يكون إليه. استمع إلى القرآن وهو يصور نهاية هذا الإنسان البائس.

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

قوله: ﴿أيود﴾ هو من الود بمعنى المحبة الكاملة للشىء وتمنى حصوله، والاستفهام فيه للإنكار و﴿الإعصار﴾ ريح عاصفة تنعكس من الأرض إلى السماء مستديرة كالعمود، وهى التى يسميها بعض الناس زوبعة. وسميت إعصارًا لأنها تعصر ما تمر به من الأجسام، أو تلتف كما يلتف الثوب المعصور. والريح مؤنثة وكذا سائر أسمائها إلا الإعصار فإنه مذكر ولذا قيل ﴿فيه نار﴾ أى سموم وصواعق.

والمعنى: أيحب أحدكم – أيها المنانون المراءون – أن تكون له جنة معظم شجرها ﴿من

نخيل وأعناب﴾ تجرى من تحت أشجارها ﴿الأنهار له فيها من كل الثمرات﴾ النافعة، والحال أنه قد أصابه الكبر الذى أقعده عن الكسب من غير تلك الحديقة اليانعة، وله فضلا عن شيخوخته وعجزه ذرية ضعفاء لا يقدرون على العمل، وبينما هو على هذه الحالة إذا بالجنة ينزل عليها إعصار فيه نار فيحرقها ويدمرها ففقدها صاحبها وهو أحوج مايكون إليها وبقى هو وأولاده فى حالة شديدة من البؤس والحيرة والغم والحسرة لحرمانه من تلك الحديقة التى كانت محط آماله.

فالآية الكريمة قد اشتلمت على مثل آخر لحالة الذين يبطلون أعمالهم وصدقاتهم بالمن والأذى والرياء، وغير ذلك من الأفعال القبيحة والصفات السيئة فقد شبه - سبحانه - حال من يعمل الأعمال الحسنة ثم يضم إليها ما يفسدها فإذا كان يوم القيامة واشتدت حاجته إليها وجدها محبطة ذاهبة، شبه هذا الإنسان فى حسرته وألمه وحزنه بحال ذلك الشيخ الكبير العاجز الذى له ذرية ضعفاء لا يملك سوى حديقة يانعة يعتمد عليها فى معاشه هو وأولاده فنزل عليها إعصار فيه نار فأحرقها ودمرها تدميرًا.

وحذف - سبحانه - حالة المشبه وهو الذى يبطل صدقته بالمن والأذى والرياء وما يشبه ذلك، لظهورها من المقام.

وقد وصف - سبحانه - تلك الجنة بثلاث صفات:

وصفها أولا: بأنها من نخيل وأعناب أى معظمها من هذين الجنسين النفيسين اللذين هما أنفع الفواكه وأجملها منظرًا.

ووصفها ثانيًا: بأنها تجرى من تحتها الأنهار، أى تجرى من تحت أشجارها الأنهار التى تسر النفس. وتبهج القلب، وتزيد فى حسن الجنة وبهائها.

ووصفها ثالثًا: بأنها زاخرة بكل أنواع الثمار التى تنفع صاحبها، وتغنيه عن الاحتياج إلى غيره، فهى جنة قد جمعت بين حسن المنظر، وكثرة النفع، وهذا نهاية ما يتمناه كل إنسان لما يملكه.

أما صاحبها فقد وصفه - سبحانه - بأنه إنسان قد أصابه الكبر وله ذرية ضعفاء أى أنه فى منتهى الاحتياج إليها لكبر سنه وعجزه عن الاكتساب من غيرها ولمسئوليته عن الإنفاق على أولاد صغار لا يعولهم أحد سواه.

تلك هى حالة الجنة وحالة صاحبها فى احتياجه إليها، فماذا حدث بعد ذلك؟ لقد أصابها ﴿إعصار فيه نار فاحترقت﴾ فماذا يكون حال هذا الإنسان الذى أصابه الكبر وله ذرية ضعفاء وهو يرى جنته ومحط أمله قد احترقت وهو فى أشد الحاجة إلى ظلها وثمارها ومنافعها؟

إن الكلمات لتعجز عن تصوير ما يصيب هذا البائس من غم وهم وحزن وحسرة، وهو يرى جنته قد احترقت وهو فى أشد أوقاته حاجة إلى ظلها وثمارها ومنافعها!؟

ولكأن الله - تعالى - يقول للناس بعد هذا التصوير البديع المؤثر: احذروا أن تبطلوا أعمالكم الصالحة بإرتكابكم لما نهى الله عنه، فلا تجدون لها نفعًا يوم القيامة وأنتم فى أشد الحاجة إليها فى هذا اليوم العصيب، لأنكم إذا فعلتم ذلك كان مثلكم فى التحسر والحزن كمثل هذا الشيخ الكبير الذى احترقت جنته وهو فى أشد الحاجة إليها.

وإنه لتصوير قرآنى فى أسمى درجات البلاغة والتأثير، وفى أعلى ألوان التأديب والتهذيب.

قال القرطبى: روى البخارى عن عبيد بن عمير قال: قال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يومًا لأصحاب النبى ﷺ فيم ترون هذه الآية نزلت وهى قوله - تعالى -: ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة﴾ الآية. قالوا الله أعلم. فغضب عمر فقال: قولوا نعلم أو لا نعلم فقال ابن عباس: فى نفسى منها شىء يا أمير المؤمنين. قال عمر: يا ابن أخى قل ولا تحقر نفسك. قال ابن عباس: ضربت مثلا لرجل غنى عمل بطاعة الله. ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصى حتى أحرق عمله. وروى ابن أبى مليكه أن عمر تلا هذه الآية وقال: هذا مثل ضربه الله للإنسان يعمل عملا صالحًا حتى إذا كان عند آخر عمره أحوج ما يكون إليه عمل العمل السىء»[1].

ثم ختم - سبحانه - هذه الآية بقوله: ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ أى: كما يبين الله فى هذه الآية ما يهديكم وينفعكم يبين لكم آياته وهداياته فى سائر أمور دينكم لكى تتفكروا فيما يصلحكم، وتعملوا ما يرضى خالقكم.

ثم وجه القرآن بعد ذلك نداء إلى المؤمنين أمرهم فيه بأن يتحروا فى نفقتهم الحلال الطيب، بعد أن حضهم على الإنفاق بسخاء وإخلاص.

فقال - تعالى -:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا
لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم

(١) تفسير القرطبى جـ٢ ص ٢١٨.

بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾

قال ابن كثير: عن البراء بن عازب - رضى الله عنه - فى قول الله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ماكسبتم﴾.. الآية قال: نزلت فى الأنصار كانت الأنصار إذا كانت أيام جذاذ النخل أخرجت من نخيلها البسر فعلقوه على حبل بين الاسطوانتين فى مسجد رسول الله ﷺ فيأكل فقراء المهاجرين منه، فيعمد الرجل منهم إلى الحشف - أى التمر الردىء - فيدخله مع أفناء البسر يظن أن ذلك جائز فأنزل الله فيمن فعل ذلك الآية»[1].

والمعنى: يأيها الذين آمنوا اجعلوا نفقتكم التى تنفقونها فى سبيل الله من أطيب أموالكم التى اكتسبتموها عن طريق التجارة وغيرها.

قال ابن عباس: أمرهم الله - تعالى - بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه، ونهاهم عن التصدق برذالة المال ودنيئة وخبيثه، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا» قال - تعالى -: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾.

وقوله: ﴿ومما أخرجنا لكم من الأرض﴾ معطوف على ماقبله أى أنفقوا من طيبات أموالكم التى اكتسبتموها ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الأرض من الحبوب والثمار والزروع وغيرها. وترك - سبحانه - ذكر كلمة الطيبات فى هذه الجملة لسبق ذكرها فى الجملة التى قبلها.

فالآية الكريمة تأمر المؤمنين بأن يلتزموا فى نفقتهم المال الطيب فى كل وجه من وجوهه، بأن يكون جيدًا نفيسًا فى صنفه، وحلالا مشروعًا فى أصله.

وقد أكد الله - تعالى - هذا الأمر بجملتين كريمتين فقال: ﴿ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٢١.

قوله - تعالى - : ﴿ولا تيمموا﴾ أى ولا تقصدوا وتتعمدوا. يقال: تيممت الشىء ويممته إذا قصدته. ويقال: يممت جهة كذا إذا قصدته. ومنه الإمام لأنه المقصود المعتمد وأصل تيمموا تتيمموا فحذفت إحداهما تخفيفا.

والخبيث هو الردىء من كل شىء وخبث الفضة والحديد ما نفاه الكير لأنه ينفى الردىء. ويطلق الخبيث على الشىء الحرام والمستقذر.

والإغماض فى اللغة - كما يقول الرازى - غض النظر وإطباق جفن على جفن، وأصله من الغموض وهو الخفاء، والمراد بالإغماض هاهنا المساهلة وذلك لأن الإنسان إذا رأى ما يكره أغمض عنه لئلا يرى ذلك. ثم كثر ذلك حتى جعل كل تجاوز ومساهلة فى البيع وغيره إغماضًا»[1].

والمعنى: أنفقوا أيها المؤمنون من أطيب أموالكم وأنفسها وأجودها، ولا تتحروا وتقصدوا أن يكون إنفاقكم من الخبيث الردىء، والحال أنكم لا تأخذونه إن أعطى لكم هبة أو شراء أو غير ذلك إلا أن تتساهلوا فى قبوله، وتغضوا الطرف عن رداءته، وإذا كان هذا شأنكم فى قبول ما هو ردىء فكيف تقدمونه لغيركم؟ إن الله - ينهاكم عن ذلك لأن من شأن المؤمن الصادق فى إيمانه ألا يفعل لغيره إلا ما يحب أن يفعله لنفسه، ولا يعطى من شىء إلا ما يحب أن يعطى إليه، ففى الحديث الشريف: «عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به».

قال الألوسى: وقوله: ﴿منه تنفقون﴾ الضمير المجرور يعود للخبيث، وهو متعلق يتنفقون، والتقديم للتخصيص، والجملة حال مقدرة من فاعل ﴿تيمموا﴾ أى لا تقصدوا الخبيث قاصرين الإنفاق عليه، أو من الخبيث أى مختصًا به الإنفاق، وأيا ما كان لا يرد أنه يقتضى أن يكون النهى عن الخبيث الصرف فقط مع أن المخلوط أيضًا كذلك لأن التخصيص لتوبيخهم بما كانوا يتعاطون من إنفاق الخبيث خاصة.

وقوله: ﴿ولستم بآخذيه﴾ حال من ضمير ﴿تنفقون﴾ أى: والحال أنكم لستم بآخذيه فى وقت من الأوقات أو بوجه من الوجوه إلا وقت إغماضكم فيه»[2]

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿واعلموا أن الله غنى حميد﴾ أى واعلموا أن الله - تعالى - غنى عن صدقاتكم وإنما أمركم بها لمنفعتكم، ﴿حميد﴾ يجازى المحسن أفضل الجزاء، وهو - سبحانه - المستحق للحمد الحقيقى دون سواه، فمن الواجب عليكم أن تبذلوا فى سبيله الجيد من أموالكم شكرًا له على نعمه حتى يزيدكم من عطائه وآلائه.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٦٨.

(٢) تفسير الألوسى جـ ٣ ص ٣٩ بتلخيص.

ثم حذر الله - تعالى - المؤمنين من وساوس الشيطان وخطواته فقال: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾.

قوله: ﴿يعدكم﴾ من الوعد، وهو فى أصل وضعه لغة شائع فى الخير والشر، وأما فى الاستعمال الشائع فالوعد فى الخير والإيعاد فى الشر. وقد استعمل هنا فى الشر نظرًا إلى أصل الوضع، لأن الفقر مما يراه الإنسان شرًا ولذلك يخوف الشيطان به المنفقين فيقول لهم: لا تنفقوا الجيد من أموالكم لأن إنفاقكم هذا يؤدى إلى فقركم ونضوب ما بين أيديكم من أموال.

والفقر هو ما يصيب الإنسان من سوء فى الحال ومن ضعف بسبب قلة المال، وأصل الفقر فى اللغة كسر فقار الظهر، ثم وصف الإنسان المحتاج الضعيف بأنه فقير تشبيها له بمن كسر فقار ظهره فأصبح عاجزاً عن الحركة لأن الظهر هو مجمع الحركات، ومنه تسميتهم المصيبة فاقرة، وقاصمة الظهر.

والفحشاء والفحش والفاحشة ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال، ويرى كثير من العلماء أن المراد بالفحشاء فى الآية البخل الشديد فإن كلمة الفاحش تطلق فى لغة العرب على البخيل الشديد البخل، ومن ذلك قول طرفة بن العبد.

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد[1]

والمعنى: الشيطان يوعدكم إذا أنفقتم بالفقر وضياع الأموال ويحذركم من الصدقة بما يوسوس فى نفوسكم من شرور وآثام، ويغريكم بارتكاب المعاصى التى من أقبحها البخل الشديد، والشح المهلك، فعليكم أن تحذروه وأن تنفقوا من أموالكم فى سبيل الله ما يوصلكم إلى رضوانه ورحمته.

قال الجمل: وفى هذه الآية لطيفة وهى أن الشيطان يخوف الرجل أولا بالفقر ثم يتوصل بهذا التخويف إلى أن يأمره بالفحشاء وهو البخل، وذلك لأن البخل صفة مذمومة عند كل أحد فلا يستطيع الشيطان أن يحسن له البخل إلا بتلك المقدمة وهى التخويف من الفقر فلهذا قال. ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾[2].

وروى الترمذى عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: إن للشيطان لمة بابن آدم، وللملك لمة - أى همة وخطرة تقع فى القلب - فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب

---

(١) يعتام: أى يختار. والعقيلة: أكرم المال. والفاحش: البخيل والمعنى: أرى الموت يختار الكرام ويختار أفضل مال البخيل ومادام الأمر كذلك فلا فائدة من البخل.

(٢) تفسير الجمل جـ١ صفحة ٢٢٣.

بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾[1].

هذا ما يعده الشيطان للإنسان، فما الذى يعده الله -تعالى- لعباده؟ لقد بين -سبحانه- ذلك فقال: ﴿والله يعدكم مغفرة منه وفضلا، والله واسع عليم﴾.

أى: إذا كان الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء، فالله - تعالى - يعدكم مغفرة منه لذنوبكم على ما تنفقونه من أموالكم فى سبيله ففى الحديث الشريف «الصدقة تطفىء الخطيئة». ويعدكم - أيضًا - ﴿فضلا﴾ أى نماء وزيادة فى أموالكم، فإن الصدقات تزيد البركة فى الرزق فيصير القليل منه فى يد السخى كثيرًا بتوفيق الله وتأييده.

وصدر له سبحانه - الجملة بلفظ الجلالة، للإشارة إلى أن الوعد الذى وعد به المنفقين وعد حق لا يمكن أن يخالطه شك أو ريب، لأنه وعد من الله الذى لا يخلف وعده، وإذا كان الشيطان يهدد الناس بالفقر عند العطاء، ويأمرهم بالفحشاء، فالله - تعالى - يبشر عباده بمغفرته ورضوانه، بسبب إنفاقهم فى السراء والضراء ويعدهم على ذلك بالرزق الوفير، والفضل الكبير فى الدنيا والآخرة.

وقد ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿والله واسع عليم﴾ تأكيدًا لوعده الذى وعد به عباده المتقين المتصدقين بأن يزيدهم من فضله، أى والله - تعالى - واسع الجود والعطاء والرحمة، وسيحقق لكم ما وعدكم به من المغفرة وتضعيف ما تنفقونه، وهو مع ذلك عليم بأحوال عباده صغيرها وكبيرها، وسيجازى الذين اتبعوا أوامره بجزيل الثواب، كما سيجازى الذين اتبعوا وسوسة الشيطان بسوء العذاب.

ثم قال - تعالى - : ﴿يؤتى الحكمة من يشاء، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرًا كثيرًا﴾.

قال الإمام الرازى: «اعلم أنه - تعالى - لما ذكر فى الآية المتقدمة أن الشيطان يعد بالفقر ويأمر بالفحشاء، وأن الرحمن يعد بالمغفرة والفضل نبه على أن الأمر الذى أوجب لأجله ترجيح وعد الرحمن على وعد الشيطان هو أن وعد الرحمن ترجحه الحكمة والعقل ووعد الشيطان ترجحه الشهوة والنفس من حيث إنهما يأمران بتحصيل اللذة الحاضرة واتباع أحكام الخيال والوهم. ولاشك أن حكم الحكمة والعقل هو الحكم الصادق المبرأ عن الزيغ والخلل، وحكم الشهوة والنفس يوقع الإنسان فى البلاء، فكان حكم الحكمة والعقل أولى بالقبول، فهذا هو وجه النظم»[2].

---

(١) تفسير القرطبى جـ٣ صفحة ٣٢٩. (٢) تفسير الفخر الرازى جـ٧ ص٧٢.

و﴿الحكمة﴾ مشتقة من حكم بمعنى منع، لأنها تمنع صاحبها من الوقوع فى الخطأ والضلال ومنه سميت الحديدة التى فى اللجام وتجعل فى فم الفرس حكمة لأنها تمنعه من الجموح. أو هى فى الأصل مصدر من الإحكام وهو الإتقان فى علم أو عمل أو قول أو فيها كلها.

والحكمة بالنسبة للإنسان صفة نفسية هى أساس المعرفة السليمة التى توافق الحق، وتوجه الإنسان نحو عمل الخير، وتمنعه من عمل الشر، فهى فيه مانعة ضابطة تسير به نحو الكمال والاستقامة

وللعلماء فى المراد بها فى الآية الكريمة أقوال كثيرة أرجحها أن المراد بها إصابة الحق فى القول والعمل، أو هى العلم النافع الذى يكون معه العمل به.

والمعنى: أن الله - تعالى - الفاعل لكل شىء يؤت الحكمة لمن يشاء من عباده ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرًا كثيرًا﴾ لأن الإنسان إذا أوتى الحكمة يكون قد اهتدى إلى العلم النافع، وإلى العمل الصالح الموافق لما علمه، وإلى الإيمان بالحق وإلى الاستجابة لكل خير والابتعاد عن كل شر، وبذلك يكون سعيدًا فى دنياه وأخراه.

وفى الصحيحين عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «لا حسد - أى لا غبطة - إلا فى اثنتين: رجل اتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله - تعالى - الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها».

ثم قال - تعالى -: ﴿وما يذكر إلا أولو الألباب﴾.

والألباب جمع لب وهو فى الأصل خلاصة الشىء وقلبه، وأطلق هنا على عقل الإنسان لأنه أنفع شىء فيه.

والمراد بأولى الألباب هنا أصحاب العقول السليمة التى تخلصت من شوائب الهوى، ودوافع الشر، فقد جرت عادة القرآن ألا يستعمل هذا التعبير إلا مع أصحاب العقول المستقيمة.

أى: وما يتعظ بهذه التوجيهات القرآنية، وينتفع بثمارها إلا أصحاب العقول الراجحة والنفوس الصافية التى اهتدت إلى الحق وعملت به، والتى أنفقت فى سبيل الله أجود الأموال وأطيبها لا أصحاب العقول الفاسدة التى استحوذ عليها الشيطان فأنساها ذكر الله، والتى ترى أن البخل بالمال هو الحكمة، وأن الإنفاق فى سبيل الله هو نوع من الإسراف والتبذير.

فالجملة الكريمة تذييل قصد به مدح أولئك المؤمنين الصادقين، الذين استجابوا لتوجيهات دينهم، فأصابوا الحق فى أقوالهم وأعمالهم.

ثم بين - سبحانه - أنه عليم بما ينفقه المنفقون من صدقات سواء أكانت سرًا أو جهرًا وسيجازيهم عليها بما يستحقون من ثواب فقال - تعالى - :

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾

النفقة : هى العطاء العاجل فى باب من أبواب الخير. أما النذر : فهو التزام قربة من القربات أو صدقة من الصدقات بأن يقول : لله على نذر أن أفعل كذا من أنواع البر. أو إن شفى الله مريضى فسأفعل كذا.

والمعنى : وما أنفقتم - أيها المؤمنون - من نفقة عاجلة قليلة أو كثيرة، أو التزمتم بنفقة مستقبلة وعاهدتم الله - تعالى - على القيام بها، فإنه - سبحانه - يعلم كل شىء، ويعلم ما صاحب نياتكم من إخلاص أو رياء، ويعلم ما أنفقتموه أهو من جيد أموالكم أم من رديئها، وسيجازى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته. فالآية الكريمة بيان لحكم كلى شامل لجميع أفراد النفقات إثر بيان حكم ما كان منها فى سبيل الله - تعالى -

و ﴿ما﴾ فى قوله : ﴿وما أنفقتم﴾ شرطية أو موصولة والفاء فى قوله : ﴿فإن الله يعلمه﴾ رابطة لجواب الشرط إذا اعتبرنا ما شرطية، ومزيدة فى الخير إذا اعتبرناها موصولة و ﴿من﴾ فى قوله : ﴿من نفقة﴾ بيانية أو زائدة.

وقوله : ﴿فإن الله يعلمه﴾ كناية عن الجزاء عليه، لأن علم الله - تعالى - بالكائنات لا يشك فيه السامعون، فأريد لازم معناه وهو الجزاء. وإنما كان لازما له لأن القادر لا يصده عن الجزاء إلا عدم العلم بما يفعله المحسن أو المسىء.

وهذه الجملة الكريمة مع إيجازها قد أفادت الوعد العظيم للمطيعين والوعيد الشديد للمتمردين، لأن الإنسان إذا أيقن أن الله تعالى لا تخفى عليه خافية من شئون خلقه، فإن هذا اليقين سيحمله على الطاعة والإخلاص، وسيحضه على المسارعة فى الخيرات، خصوصًا وإن

الجملة قد صدرت بإن المؤكدة، وتليت بلفظ الجلالة الدال على الاستحقاق الكامل للألوهية.

قال بعضهم: وإنما قال - سبحانه -: ﴿فإن الله يعلمه﴾ ولم يقل يعلمها لوجهين:

الأول: أن الضمير عائد إلى الأخير - وهو النذر -، كما فى قوله - تعالى -: ﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئًا﴾.

والثانى: أن الكناية عادت إلى ما فى قوله: ﴿وما أنفقتم من نفقة﴾ لأنها اسم كقوله: ﴿وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به﴾[1].

وقوله: ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ وعيد شديد للخارجين على طاعة الله أى: ليس للظالمين أى نصير أو مغيث يمنع عقوبة الله عنهم.

والمراد بالظالمين: الواضعون للأشياء فى غير موضعها التى يجب أن توضع فيها، والتاركون لما أمرهم الله به، فيندرج فيهم الذين يبطلون صدقاتهم بالمن والأذى والرياء والذين يتصدقون بالردىء من أموالهم، والذين ينفقون أموالهم فى الوجوه التى نهى الله عنها، والذين لم يوفوا بنذورهم التى عاهدوا الله على الوفاء بها كما يندرج فيهم كل من ارتكب ما نهى الله عنه أو أهمل فيما كلفه الله به.

ثم بين - سبحانه - أن الصدقة متى صدرت عن المسلم بالطريقة التى دعت إليها تعاليم الإسلام فإنها تكون مرجوة القبول عند الله - تعالى - سواء أفعلها المسلم فى السر أم فى العلن، فقال - تعالى -: ﴿إن تبدوا الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير﴾.

الصدقات: جمع صدقة وهى ما يخرجه المسلم من ماله على جهة القربة، وتشمل الفرض والتطوع، وهى مأخوذة من الصدق بمعنى صدق النية وتخليصها من كل ما نهى الله عنه، وسمى - سبحانه - ما يخرجه المسلم من ماله صدقة لأن المال بها يزكو وينمو ويطهر.

والفاء فى قوله: ﴿فنعما هى﴾ واقعة فى جواب الشرط، و﴿نعمّا﴾ أصلها نعم ما، فأدغمت إحدى الميمين فى الأخرى، ونعم فعل ماض، وما نكرة تامة بمعنى شيء، وهى منصوبة على أنها تمييز، والفاعل ضمير مستتر فى نعم.

والمعنى: إن تبدو صدقاتكم - أيها المؤمنون - وتظهروها فنعم شيئًا إبداؤها وإعلانها، لأنه يرفع التهمة ويدعو أهل الخير إلى الاقتداء بهذا الفعل الحسن.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٧٤.

وجاء التعبير بمدح المعلنين صدقتهم بقوله «فنعما هى» للإشارة إلى أن المسلم متى دفع صدقته لمستحقيها بنية خالصة، فإنه يكون ممدوحًا من الله - تعالى - وممدوحًا من الناس الذين شاهدوا عمله الصالح.

هذه صدقة الجهر إذا خلصت من الرياء أما صدقة السر فقد أثنى الله على فاعلها بقوله: ﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ أى: وإن تخفوا الصدقات وتعطوها للفقراء سرًا، دون أن يراكم أحد من الناس، فعملكم هذا خير لكم عند الله لأنكم بإخفائكم للصدقة ودفعها للفقير سرًا تكونون قد ابتعدتم عن الرياء، وسترتم حال هذا الفقير المحتاج.

وقوله: ﴿ويكفر عنكم من سيئاتكم﴾ أى أنه - سبحانه - يستر السيئات التى يرتكبها الشخص، ويخفيها ولا يظهرها عند إثابته إياه على فعله الحسن لأن ما فعله من حسنات مسح ما فعله من سيئات فهو كقوله - تعالى -: ﴿وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين﴾ و﴿من﴾ فى قوله: ﴿من سيئاتكم﴾ بيانية بمعنى أن الصدقات تكفر السيئات لأن المسلم إذا بذل ماله فى سبيل الله بصدق وإخلاص، كان أهلا لمثوبة الله ومغفرته، ويجوز أن تكون للتبعيض أى يكفر عنكم بعض سيئاتكم بمقدار ما قدمتم من صدقات لأن الصدقات لا تكفر جميع السيئات.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿والله بما تعملون خبير﴾ أى أن الله - تعالى - عليم علمًا دقيقًا بكل ما تعملونه أيها المؤمنون، فعليكم أن تخلصوا له أعمالكم، وأن تراقبوه فى سركم وجهركم، وأن تسارعوا فى عمل الخيرات التى ترفع درجاتكم عند خالقكم.

وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد مدحت صدقتى الجهر والسر متى كان المتصدق متبعًا آداب الإسلام وتوجيهاته، ومبتعدًا عن كل ما يبطل الصدقات، ويحبط الأعمال.

ثم ختمت السورة حديثها عن النفقة والمنفقين ببيان حسن عاقبة من يبذل ماله فى سبيل الله، وبيان صفات بعض المستحقين للصدقة، وببيان أن هداية البشر إنما هى بيد الله - تعالى - وحده، فقال - تعالى -:

۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾

لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ليس عليك هداهم﴾ هذا الكلام متصل بذكر الصدقات، فكأنه بين فيه جواز الصدقة على المشركين. روى سعيد بن جبير مرسلا عن النبى ﷺ فى سبب نزول هذه الآية أن المسلمين كانوا يتصدقون على فقراء أهل الذمة، فلما كثر فقراء المسلمين قال رسول الله ﷺ لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم». فنزلت هذه الآية مبيحة للصدقة على من ليس من دين الإسلام. وروى عن ابن عباس أنه قال : كان ناس من الأنصار لهم قرابات من بنى قريظة والنضير كانوا لا يتصدقون عليهم رغبة منهم فى أن يسلموا إذا احتاجوا فنزلت الآية بسبب أولئك. ثم قال : قال علماؤنا : هذه الصدقة التى أبيحت لهم حسب ما تضمنته هذه الآثار هى صدقة التطوع، وأما المفروضة فلا يجزئ دفعها لكافر، لقوله ﷺ : «أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردها فى فقرائكم»[1].

والمعنى : ليس عليك يا محمد هداية من خالفك فى دينك. ولكن الله - تعالى - يهدى من يشاء هدايته إلى نور الإيمان، وطريق الحق. وما دام الأمر كذلك فعليك وعلى أتباعك أن تعاملوا غيركم بما يوجبه عليكم إيمانكم من سماحة فى الخلق، وعطف على المحتاجين حتى ولو كانوا من المخالفين لكم فى الدين.

وعلى هذا المعنى الذى يؤيده سبب النزول يكون الضمير فى قوله : ﴿هداهم﴾ يعود على غير المسلمين.

(١) تفسير القرطبى جـ٣ ص ٢٣٧.

ومن المفسرين من يرى أن الضمير فى قوله : ﴿هداهم﴾ يعود إلى المسلمين المخاطبين فى الآيات السابقة، فيكون المعنى : لا يجب عليك أيها الرسول الكريم أن تجعل المسلمين جميعًا مهديين إلى الإتيان بما أمروا به ومنتهين عما نهوا عنه من ترك المن والأذى والرياء فى صدقتهم، ولكن الله وحده هو الذى يهدى من يشاء هدايته إلى الاستجابة لتوجيهات هذا الدين الحنيف.

قال الآلوسى : وعلى هذا الرأى تكون الجملة معترضة جىء بها على طريق تلوين الخطاب وتوجيهه إلى سيد المخاطبين ﷺ مع الالتفات إلى الغيبة فيما بين الخطابات المتعلقة بأولئك المكلفين مبالغة فى حملهم على الامتثال. . ثم قال : «والذى يستدعيه سبب النزول رجوع ضمير ﴿هداهم﴾ إلى الكفار، وحينئذ لا التفات، وإنما هناك تلوين الخطاب فقط. . . .»[1].

ثم حض - سبحانه - المؤمنين على الإنفاق فى وجوه الخير فقال : ﴿وما تنفقوا من خير فلأنفسكم﴾ أى : ما تقدمونه من مال فى وجوه البر - أيها المؤمنون - فإن نفعه سيعود عليكم بالسعادة فى الدنيا، وبالثواب الجزيل فى الآخرة، فكونوا أسخياء فى الإحسان إلى الفقراء، وابتعدوا عن وسوسة الشيطان الذى ﴿يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾.

و«ما» شرطية جازمة لتنفقوا، وهى منتصبة به على المفعوليه، و«من» للتبعيض وهى متعلقة بمحذوف وقع صفة لفعل الشرط والتقدير : أى شىء تنفقوا كائنا من المال فهو لأنفسكم لا ينتفع به فى الآخرة غيرها.

قال الفخر الرازى ما ملخصه : وقوله - تعالى - : ﴿وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله﴾ يحتمل وجوها.

الأول : أن يكون المعنى : ولستم فى صدقتكم على أقاربكم من المشركين تقصدون إلا وجه الله، فقد علم الله هذا من قلوبكم، فأنفقوا عليهم إذا كنتم إنما تبغون بذلك وجه الله فى صلة رحم وسد خلة مضطر، وليس عليكم اهتداؤهم حتى يمنعكم ذلك من الإنفاق عليهم.

الثانى : أن هذا وإن كان ظاهره خبرًا إلا أن معناه نهى أى : ولا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله.

الثالث : أن قوله : ﴿وما تنفقون﴾ أى ولا تكونوا منفقين مستحقين الاسم الذى يفيد المدح حتى تبتغوا بذلك وجه الله. وفى ذكر الوجه تشريف عظيم لأنك إذا قلت : فعلت هذا الشىء لوجه زيد فهو أشرف فى الذكر من قولك : فعلته له لأن وجه الشىء أشرف ما فيه، ثم كثر حتى

(١) تفسير الآلوسى جـ٣ ص ٤٥ بتصرف وتلخيص.

صار يعبر عن الشرف بهذا اللفظ، وأيضًا فإن قولك : فعلت هذا الفعل لوجهه يدل على أنك فعلت الفعل له فقط وليس لغيره فيه شركة[١].

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ أى : أن ما تنفقونه من خير - أيها المؤمنون ستعود عليكم ثماره ومنافعه فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فإنكم بسبب هذا الانفاق تزكو أموالكم، وتحسن سيرتكم بين الناس، وأما فى الآخرة فإنكم تنالون من خالقكم ورازقكم أجزل الثواب، وأفضل الدرجات.

وقوله : ﴿وأنتم لا تظلمون﴾ أى لا تنقصون شيئا مما وعدكم الله به على نفقتكم فى سبيله.

قال الجمل. وهاتان الجملتان أى قوله - تعالى - ﴿وما تنفقوا من خير يوف إليكم﴾ وقوله : ﴿وأنتم لا تظلمون﴾ تأكيد للجملة الشرطية الأولى وهى قوله : ﴿وما تنفقوا من خير فلأنفسكم﴾. وقوله : ﴿وأنتم لا تظلمون﴾ جملة من مبتدأ وخبر فى محل نصب على الحال من الضمير فى ﴿إليكم﴾ فالعامل فيها ﴿يوف﴾ وهى تشبه الحال المؤكدة لأن معناها مفهوم من قوله : ﴿يوف إليكم﴾ لأنهم إذا وفوا حقوقهم لم يظلموا. ويجوز أن تكون مستأنفة لا محل لها من الإعراب أخبرهم فيها أنه لا يقع لهم ظلم فيندرج فيه توفية أجورهم بسبب إنفاقهم فى طاعة الله - تعالى - اندراجًا أوليًا»[٢].

هذا، والذى يتدبر هذه الآية الكريمة يراها من أجمع الآيات التى وردت فى الحض على بذل المال فى وجوه الخير، فقد كرر فيها فعل ﴿تنفقون﴾ ثلاث مرات لمزيد الاهتمام بمدلوله، وجىء به مرتين بصيغة الشرط عند قصد بيان الملازمة بين الإنفاق والثواب، وجاءت كل جملة منها مستقلة ببعض الأحكام لكى يسهل حفظها وتأملها فتجرى على الألسنة مجرى الأمثال وتتناقلها الأمم والأجيال.

ثم بعد هذا التحريض الحكيم على بذل الأموال فى وجوه الخير، خص - سبحانه - بالذكر طائفة من المؤمنين هى أولى الناس بالعون والمساعدة، ووصف هذه الطائفة بست صفات من شأنها أن تحمل العقلاء على المسارعة فى اكرام أفرادها وسد حاجتهم.

استمع إلى القرآن الكريم وهو يصور حالة هذه الطائفة من المؤمنين تصويرا كريما نبيلا يستجيش المشاعر، ويحرك القلوب لمساعدة هذه الطائفة المتعففة فيقول : ﴿للفقراء، الذين احصروا فى سبيل الله، لا يستطيعون ضربا فى الأرض، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، تعرفهم بسيماهم، لا يسألون الناس إلحافًا﴾.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٧ ص٨٣.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ٢٥٥. بتصرف يسير.

لقد وصفهم الله - تعالى - أولا بالفقراء، أى الذين هم فى حاجة إلى العون والمساعدة لفقرهم واحتياجهم إلى ضرورات الحياة.

وقوله: ﴿للفقراء﴾ متعلق بمحذوف يفهم من الكلام السابق والتقدير: اجعلوا نفقتكم وصدقتكم للفقراء لأن الكلام السابق موضوعه للإنفاق فى سبيل الله، وما يتعلق بذلك من آداب وفوائد.

والجملة استئناف بيانى، فكأنهم لما أمروا بالصدقات سألوا لمن هى؟ فأجيبوا بأنها لهؤلاء الذين ذكرت الآية صفاتهم.

ومن فوائد الحذف هنا للمتعلق: تعليم المؤمنين الأدب فى عطائهم للفقراء بأن لا يصرحوا لهم بأن ما يعطونه إياهم هو صدقة حتى لا يشعروهم بالمذلة والضعف، وأيضًا ففى هذا الحذف لون من الإيجاز البليغ الذى قل فيه اللفظ مع الوفاء بحق المعنى.

قال القرطبى: والمراد بهؤلاء الفقراء، فقراء المهاجرين من قريش وغيرهم ثم تتناول الآية كل من دخل تحت صفتهم غابر الدهر. وإنما خص فقراء المهاجرين بالذكر، لأنه لم يكن هناك سواهم، وهم أهل الصفة»[1] وكانوا نحوا من أربعمائة رجل، وذلك أنهم كانوا يأتون فقراء وما لهم أهل ولأمال فبنيت لهم صفة فى المسجد النبوى بالمدينة فقيل لهم: «أهل الصفة[2].

أما الصفة الثانية من صفات هؤلاء الذين هم أولى الناس بالعون والمساعدة فهى قوله - تعالى -: ﴿الذين أحصروا فى سبيل الله﴾.

والإحصار فى اللغة هو أن يعرض للرجل ما يحول بينه وبين ما يريده بسبب مرض أو شيخوخة أو عدو أو ذهاب نفقة أو ما يجرى مجرى هذه الأشياء.

والمعنى: اجعلوا الكثير مما تنفقونه - أيها المؤمنون - لهؤلاء الفقراء الذين حصروا أنفسهم ووقفوها على الطاعات المتنوعة التى من أعظمها الجهاد فى سبيل الله، أو الذين منعوا من الكسب بسبب مرضهم أو شيخوختهم، أو غير ذلك من الأسباب التى جعلتهم فى حالة شديدة من الفاقة والاحتياج.

وعبر فى الجملة الكريمة «بأحصروا» بالبناء للمجهول، للإشعار بأن فقرهم لم يكن بسبب تكاسلهم وإهمالهم فى مباشرة الأسباب، وإنما كان لأسباب خارجة عن إرادتهم.

---

(١) الصفة - بضم الصاد وتشديد الفاء - اسم لموضع بناه النبى ﷺ فى المسجد النبوى بالمدينة ليأوى إليه فقراء المهاجرين الذين تركوا أموالهم بمكة وهاجروا إلى المدينة لإعلاء كلمة الله.

(٢) تفسير القرطبى جـ٣ ص ٣٣٩.

وقوله : ﴿فى سبيل الله﴾ تكريم وتشريف لهم، أى أن ما نزل بهم من فقر واحتياج كان بسبب إيثارهم إعلاء كلمة الله على أى شىء آخر، ففى سبيل الله هاجروا، وفى سبيل الله تركوا أموالهم فصاروا فقراء، وفى سبيل الله وقفوا أنفسهم على الجهاد، وفى سبيل الله أصابهم ما أصابهم وهم يطلبون أداء ما كلفهم - سبحانه - بأدائه.

أما الصفة الثالثة من صفاتهم فقال فيها ﴿لا يستطيعون ضربا فى الأرض﴾ والضرب فى الأرض هو السير فيها للتكسب والتجارة وغيرهما.

أى أنهم عاجزون عن السير فى الأرض لتحصيل رزقهم بسبب اشتغالهم بالجهاد، أو بسبب ضعفهم وقلة ذات يدهم.

والصفة الرابعة من صفاتهم هى قوله - تعالى - : ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾.

والتعفف : ترك الشىء والتنزه عن طلبه، بقهر النفس والتغلب عليها. يقال عف عن الشىء يعف إذا كف عنه. والحسبان بمعنى الظن.

أى يظنهم الجاهل بحالهم، أو الذى لا فراسة عنده، يظنهم أغنياء من أجل تجملهم وتعففهم عن السؤال، أما صاحب الفراسة الصادقة، والبصيرة النافذة؛ فإنه يرحمهم ويعطف عليهم لأنه يعرف ما لا يعرفه غيره.

و﴿من﴾ فى قوله : ﴿من التعفف﴾ للتعليل، أو لابتداء الغاية لأن التعفف مبدأ هذا الحسبان.

أما الصفة الخامسة من صفاتهم فهى قوله - تعالى - : ﴿تعرفهم بسيماهم﴾ والسيما والسيماء : العلامة التى يعرف بها الشىء، وأصلها من الوسم بمعنى العلامه.

والمعنى : تعرف فقرهم وحاجتهم - أيها الرسول الكريم أو أيها المؤمن العاقل - بما ترى فى هيئتهم من آثار تشهد بقلة ذات يدهم.

قال الإمام الرازى ما ملخصه : قال مجاهد : «سيماهم» التخشع والتواضع. أى - تعرفهم بتخشعهم وتواضعهم - وقال السدى : - تعرفهم بسيماهم - أى بأثر الجهد من الفقر والحاجة. وقال الضحاك : أى بصفرة ألوانهم ورثاثة ثيابهم... ثم قال - رحمه الله - : وعندى أن كل ذلك فيه نظر والمراد شىء آخر هو أن لعباد الله المخلصين هيبة ووقعًا فى قلوب الخلق، وكل من رآهم تأثر منهم وتواضع لهم، وذلك له إدراكات روحانية، لا علامات جسمانية. ألا ترى أن الأسد إذا مر هابته سائر السباع بطباعها لا بالتجربة، لأن الظاهر أن تلك التجربة

ما وقعت، والبازى إذا طار تهرب منه الطيور الضعيفة وكل ذلك إدراكات روحانية لا جسمانية فكذا هنا. . . »[١].

وقد ذكر - سبحانه - فى الجملة السابقة أن الجاهل بحالهم يظنهم أغنياء من أجل تعففهم عن السؤال، وذكر هنا أنهم يعرفون بسيماهم، وذلك للإشعار بأن أنظار الناس تختلف باختلاف فراستهم ونفاذ بصيرتهم. فأصحاب الأنظار التى تأخذ الأمور بمظاهرها يظنونهم أغنياء، أما أصحاب البصيرة المستنيرة، والحس المرهف، والفراسة الصائبة، فإنهم يدركون ما عليه أولئك القوم من احتياج، بسبب ما منحهم الله من فكر صائب ونظر نافذ، وفى الحديث الشريف: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»[٢].

أما الصفة السادسة من صفاتهم فهى قوله - تعالى - : ﴿لا يسألون الناس إلحافًا﴾ والإلحاف - كما يقول صاحب الكشاف: هو الإلحاح بأن لا يفارق - السائل المسئول - إلا بشىء يعطاه. من قولهم: لحفنى من فضل لحافه أى أعطانى من فضل ما عنده. ومعناه: أنهم إن سألوا سألوا بتلطف ولم يلحفوا. وقيل هو نفى للسؤال والإلحاف»[٣].

والذى عليه المحققون من العلماء أن النفى منصب على السؤال وعلى الإلحاف أى أنهم لا يسألون أصلا تعففًا منهم، لأنهم لو كانوا يسألون ما ظنهم الجاهل أغنياء من التعفف، ولو كانوا يسألون ما كانوا متعففين، ولو كانوا يسألون ما احتاج صاحب البصيرة النافذة إلى معرفة حالهم عن طريق التفرس فى سماتهم لأن سؤالهم كان يغنيه عن ذلك.

وإنما جاء النفى بهذه الطريقة التى يوهم ظاهرها أن النفى متجه إلى الإلحاف وحده، للموازنة بينهم وبين غيرهم، فإن غيرهم إذا كان يسأل الناس إلحافًا فهم لا يسألون مطلقًا لا بإلحاف ولا بدونه، والنفى بهذه الطريقة فيه تعريض للملحفين وثناء على المتعففين. ولذا قال بعضهم: وإذا علم أنهم لا يسألون البتة فقد علم أنهم لا يسألون الناس إلحافًا والمراد التنبيه على سوء طريقة من يسأل الناس إلحافًا، ومثاله إذا حضر عندك رجلان أحدهما عاقل وقور قليل الكلام، والآخر طياش مهذار سفيه، فإذا أردت أن تمدح أحدهما وتعرض بذم الآخر قلت: فلان رجل عاقل وقور لا يخوض فى الترهات ولا يشرع فى السفاهات، ولم يكن غرضك من قولك لا يخوض فى الترهات وصفه بذلك لأن ما تقدم من الأوصاف الحسنة يغنى عن ذلك، بل

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٨٦.
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٢٤
(٣) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣٢٨.

غرضك التنبيه على مذمة الثانى. فالأمر هنا كذلك لأن قوله: ﴿لا يسألون الناس إلحافًا﴾ بعد قوله: ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾ الغرض منه بيان مباينة أحد الجنسين عن الآخر فى استيجاب المدح والتعظيم»[1].

هذا وقد وردت أحاديث متعددة تمدح المتعففين عن السؤال، وتذم الملحفين فيه ومن ذلك ما جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ليس المسكين الذى ترده اللقمة واللقمتان ولا التمرة والتمرتان إنما المسكين الذى يتعفف. اقرؤا إن شئتم: ﴿لا يسألون الناس إلحافًا﴾.

وروى مسلم فى صحيحه عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن النبى ﷺ قال: «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس فى وجهه مزعة لحم».

وروى مسلم - أيضًا - فى صحيحه عن عوف بن مالك قال: كنا تسعة أو ثمانية أو سبعة عند رسول الله فقال: «ألا تبايعون رسول الله؟ فقلنا علام نبايعك؟ قال: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا. والصلوات الخمس، وتطيعوا ولا تسألوا الناس. فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فلا يسأل أحدًا يناوله إياه».

والخلاصة أن السؤال إنما يجوز عند الضرورة، وأنه لا يصح لمؤمن أن يسأل الناس وعنده ما يكفيه، لأن السؤال ذل يربأ بنفسه عنه كل من يحافظ على مروءته وكرامته وشرفه.

وقوله: ﴿وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾ تحريض للمؤمن على البذل والسخاء، وترقية لنفسه على الشعور بمراقبة الله - تعالى - وعلى محبة فعل الخير.

أى: وما تنفقوا من خير سواء أكان المنفق قليلا أم كثيرًا سرًا أم علنًا فإن الله يعلمه وسيجازيكم عليه بأجزل الثواب، وأعظم العطاء.

ثم ختم - سبحانه - الحديث عن النفقة والمنفقين بقوله: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًّا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

وقوله: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًّا وعلانية﴾ استئناف المقصود منه مدح أولئك الذين يعممون صدقاتهم فى كل الأزمان وفى كل الأحوال فهم يتصدقون على المحتاجين فى الليل وفى النهار، فى الغدو وفى الآصال، فى السر وفى العلن، فى كل وقت وفى كل حال، لأنهم لقوة إيمانهم، وصفاء نفوسهم يحرصون كل الحرص على كل ما يرضى الله تعالى.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٨٧.

وقد بين الله - تعالى - فى ثلاث جمل حسن عاقبتهم، وعظيم ثوابهم فقال فى الجملة الأولى ﴿فلهم أجرهم عند ربهم﴾ أى فلهم أجرهم الجزيل عند خالقهم ومربيهم ورازقهم.

والجملة الكريمة خبر لقوله: ﴿الذين ينفقون...﴾ ودخلت الفاء فى الخبر لأن الموصول فى معنى الشرط فتدخل الفاء فى خبره جوازًا، وللدلالة على سببية ما قبلها لما بعدها أى أن استحقاق الأجر متسبب عن الإنفاق فى سبيل الله.

وقال فى الجملة الثانية ﴿ولا خوف عليهم﴾ أى: لا خوف عليهم من أى عذاب لأنهم فى مأمن من عذاب الله بسبب ما قدموا من عمل صالح.

وقال فى الجملة الثالثة: ﴿ولاهم يحزنون﴾ أى لا يصيبهم ما يؤدى بهم إلى الحزن والهم والغم، لأنهم دائمًا فى اطمئنان يدفع عنهم الهموم والأحزان وقد روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها أن على بن أبى طالب كان يملك أربعة دراهم فتصدق بدرهم ليلا، وبدرهم نهارًا وبدرهم سرًا، وبدرهم علانية فقال له النبى ﷺ: «ما حملك على ذلك؟ فقال: أريد أن أكون أهلا لما وعدنى ربى. فقال ﷺ: لك ذلك» فأنزل الله هذه الآية[1].

والحق أن هذه الرواية وغيرها لا تمنع عمومها، فهى تنطبق على كل من بذل ماله فى سبيل الله فى عموم الأوقات والأحوال.

أما بعد: فهذه أربع عشرة آية بدأت من قوله - تعالى - ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل...﴾ وانتهت بقوله - تعالى -: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًّا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم...﴾.

والذى يقرأ هذه الآيات الكريمة بتدبر وتعقل يراها قد حضت الناس على الإنفاق فى سبيل الله بأبلغ الأساليب، وأحكم التوجيهات، وأفضل الوسائل، كما يراها بينت أحكام الصدقة وآدابها، والآفات التى تذهب بخيرها وضربت الأمثال لذلك، كما يراها قد بينت أنواعها، وطريقة أدائها، وأولى الناس بها ورسمت صورة كريمة للفقراء المتعففين، وكما بدأت الآيات حديثها بالثناء الجميل على المنفقين فقد ختمته أيضًا بالثناء عليهم وبالعاقبة الحسنى التى أعدها الله لهم.

ولو أن المسلمين أخذوا بتوجيهات هذه الآيات لعمتهم السعادة فى دنياهم، ولنالوا رضا الله ومثوبته فى أخراهم.

وبعد هذه الصورة المشرقة التى ساقها القرآن عن النفقة والمنفقين أتبعها بصورة مضادة لها

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٨٨.

وهى صورة الربا والمرابين. ومن مظاهر التضاد والتباين بين الصورتين أن الصدقة بذل للمال فى وجوه الخير بدون عوض ينتظره المتصدق، أما الربا فهو إخراج المال فى وجوه الاستغلال لحاجة المحتاج مع ضمان استرداده ومعه زيادة محرمة. وأن الصدقة نتيجتها الرخاء والنماء والطهارة للمال، وشيوع روح المحبة والتعامل والتكامل والاطمئنان بين أفراد المجتمع، أما الربا فنتيجته محق البركة من المال، وشيوع روح التقاطع والتحاسد والتباغض والخوف بين الناس. ولقد نفر القرآن الناس من تعاطى الربا تنفيرًا شديدًا وحذرهم من سوء عاقبته تحذيرًا مؤكدًا فقال - تعالى - :

ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾

وقوله - تعالى - : ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس...﴾ استئناف قصد به الترهيب من تعاطى الربا، بعد الترغيب فى بذل الصدقة لمستحقيها.

ولم يعطف على ما قبله لما بينهما من تضاد، لأن الصدقة - كما يقول الفخر الرازى - عبارة عن تنقيص المال - فى الظاهر - بسبب أمر الله بذلك، والربا عبارة عن طلب الزيادة على المال مع نهى الله عنه فكانا متضادين.

والأكل فى الحقيقة. ابتلاع الطعام، ثم أطلق على الانتفاع بالشيء وأخذه بحرص وهو المراد هنا. وعبر عن التعامل بالربا بالأكل، لأن معظم مكاسب الناس تنفق فى الأكل.

والربا فى اللغة : الزيادة مطلقًا، يقال : ربا الشيء يربو إذا زاد ونما، ومنه قوله - تعالى - : ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت...﴾ أى : زادت.

وهو فى الشرع : - كما قال الألوسى - عبارة عن فضل مال لا يقابله عوض فى معاوضة مال بمال.

وقوله : ﴿يتخبطه﴾ : من التخبط بمعنى الخبط وهو الضرب على غير استواء واتساق. يقال : خبطته أخبطه خبطًا أى ضربته ضربًا متواليًا على أنحاء مختلفة. ويقال : تخبط البعير الأرض إذا ضربها بقوائمه ويقال للذى يتصرف فى أمر ولا يهتدى فيه يخبط خبط عشواء. قال زهير بن أبى سلمى فى معلقته :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطى يعمر فيهرم

والمس : الخبل والجنون يقال : مس الرجل فهو ممسوس إذا أصابه الجنون. وأصل المس اللمس باليد، ثم استعير للجنون، لأن الشيطان يمس الإنسان فيجنه.

والمعنى : ﴿الذين يأكلون الربا﴾ أى يتعاملون به أخذا وإعطاء ﴿لا يقومون﴾ يوم القيامة للقاء الله إلا قيامًا كقيام المتخبط المصروع المجنون حال صرعه وجنونه، وتخبط الشيطان له، وذلك لأنه يقوم قيامًا منكرًا مفزعا بسبب أخذه الربا الذى حرم الله أخذه.

فالآية الكريمة تصور المرابى بتلك الصورة المرعبة المفزعة، التى تحمل كل عاقل على الابتعاد عن كل معاملة يشم منها رائحة الربا.

وهنا نحب أن نوضح أمرين:

أما الأمر الأول: فهو أن جمهور المفسرين يرون أن هذا القيام المفزع للمرابين يكون يوم القيامة حين يبعثون من قبورهم كما أشرنا إلى ذلك.

قال الآلوسى: وقيام المرابى يوم القيامة كذلك مما نطقت به الآثار، فقدأخرج الطبرانى عن عوف بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إياك والذنوب التى لا تغفر. الغلول فمن غل شيئًا أتى به يوم القيامة، وأكل الربا فمن أكل الربا بعث يوم القيامة مجنونًا يتخبط» ثم قرأ الآية، وهو مما لا يحيله العقل ولا يمنعه، ولعل الله - تعالى - جعل ذلك علامة له يعرف بها يوم الجمع الأعظم عقوبة له... ثم قال. وقال ابن عطية: المراد تشبيه المرابى فى حرصه وتحركه فى اكتسابه فى الدنيا بالمتخبط المصروع كما يقال لمن يسرع بحركات مختلفة: قد جن، ولا يخفى أنه مصادمة لما عليه سلف الأمة ولما روى عن رسول ﷺ من غير داع سوى الاستبعاد الذى لا يعتبر فى مثل هذه المقامات»[1].

والذى نراه أنه لا مانع من أن تكون الآية تصور حال المرابين فى الدنيا والآخرة، فهم فى الدنيا فى قلق مستمر، وانزعاج دائم، واضطراب ظاهر بسبب جشعهم وشرههم فى جمع المال، ووساوسهم التى لا تكاد تفارقهم وهم يفكرون فى مصير أموالهم.... ومن يتتبع أحوال بعض المتعاملين بالربا يراهم أشبه بالمجانين فى أقوالهم وحركاتهم. أما فى الآخرة فقد توعدهم الله - تعالى - بالعقاب الشديد، والعذاب الأليم.

وقد رجح الإمام الرازى أن الآية الكريمة تصور حال المرابى فى الدنيا والآخرة فقال ما ملخصه: «إن الشيطان يدعو إلى طلب اللذات والشهوات والاشتغال بغير الله، ومن كان كذلك كان فى أمر الدنيا متخبطًا... وآكل الربا بلا شك أنه يكون مفرطًا فى حب الدنيا متهالكا فيها، فإذا مات على ذلك الحب صار ذلك حجابًا بينه وبين الله - تعالى -، فالخبط الذى كان حاصلا له فى الدنيا بسبب حب المال أورثه الخبط فى الآخرة وأوقعه فى ذل الحجاب، وهذا التأويل أقرب عندى من غيره»[2].

وأما الأمر الثانى: فهو أن جمهور المفسرين يرون أيضًا أن التشبيه فى الآية الكريمة على

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٣ ص ٤٩.
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ٧ ص ٩٦.

الحقيقة، بمعنى أن الآية تشبه حال المرابين بحال المجنون الذى مسه الشيطان، لأن الشيطان قد يمس الإنسان فيصيبه بالصرع والجنون.

ولكن الزمخشرى ومن تابعه ينكرون ذلك، ويرون أن كون الصرع أو الجنون من الشيطان باطل لأنه لا يقدر على ذلك، فقد قال الزمخشرى فى تفسيره : وتخبط الشيطان من زعمات العرب، يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع. والمس الجنون، ورجل ممسوس - أى مجنون -. وهذا أيضًا من زعماتهم، وأن الجنى يمسه فيختلط عقله، وكذلك جن الرجل معناه ضربته الجن، ورأيتهم لهم فى الجن قصص وأخبار وعجائب، وإنكار ذلك عندهم كإنكار المشاهدات»[1].

ومن العلماء الذين تصدوا للرد على الزمخشرى ومن تابعه الإمام القرطبى فقد قال : «وفى هذه الآية دليل على فساد إنكار من أنكر الصرع من جهة الجن وزعم أنه من فعل الطبائع، وأن الشيطان لا يسلك فى الإنسان ولا يكون منه مس. وقد روى النسائى عن أبى اليسر قال : كان رسول الله ﷺ يدعو فيقول : اللهم إنى أعوذ بك من التردى والغرق والهدم والحريق، وأعوذ بك من أن يتخبطنى الشيطان عند الموت، وأعوذ بك أن أموت فى سبيلك مدبرًا وأعوذ بك أن أموت لديغًا»[2].

وقال الشيخ أحمد بن المنير: ومعنى قول الزمخشرى أن تخبط الشيطان من زعمات العرب، أى من كذباتهم وزخارفهم التى لا حقيقة لها، كما يقال فى الغول والعنقاء ونحو ذلك. وهذا القول من تخبط - الشيطان بالقدرية - أى المعتزلة - فى زعماتهم المردودة بقواطع الشرع، ثم قال : واعتقاد السلف وأهل السنة أن هذه أمور على حقائقها واقعة كما أخبر الشارع عنها، والقدرية ينكرون كثيرًا مما يزعمونه مخالفاً لقواعدهم. . من ذلك السحر، وخبطة الشيطان، ومعظم أحوال الجن. وإن اعترفوا بشىء من ذلك فعلى غير الوجه الذى يعترف به أهل السنة وينبىء عنه ظاهر الشرع فى خيط طويل لهم،[3] والذى نراه أن ما عليه جمهور العلماء من أن التشبيه على الحقيقة هو الحق، لأن الشيطان قد يمس الإنسان فيصيبه بالجنون، ولأنه لا يسوغ لنا أن تؤول القرآن بغير ظاهره بسبب اتجاه دليل عليه.

وقوله : ﴿من المس﴾ متعلق بيقومون أى لا يقومون من المس الذى حل بهم بسبب أكلهم الربا إلا كما يقوم المصروع من جنونه.

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشرى جـ١ ص ٣٢٠.

(٢) تفسير القرطبى جـ٣ ص ٣٥٥.

(٣) الانتصاف على الكشاف لابن المنير جـ١ ص ٣٢٠ من الكشاف.

وقوله - تعالى - : ﴿ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا، وأحل الله البيع وحرم الربا﴾ بيان لزعمهم الباطل الذى سوغ لهم التعامل بالربا، ورد عليه بما يهدمه.

واسم الإشارة «ذلك» يعود إلى الأكل أو إلى العقاب الذى نزل بهم. والمعنى: ذلك الأكل الذى استحلوه عن طريق الربا، أو ذلك العذاب الذى حل بهم والذى من مظاهره قيامهم المتخبط، سببه قولهم إن البيع الذى أحله الله يشابه الربا الذى نتعامل به فى أن كلا منهما معاوضة.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: هلا قيل إنما الربا مثل البيع لأن الكلام فى الربا لا فى البيع، فوجب أن يقال إنهم شبهوا الربا بالبيع فاستحلوه وكانت شبهتهم أنهم قالوا: لو اشترى الرجل الشيء الذى لا يساوى إلا درهما بدرهمين جاز، فكذلك إذا باع درهما بدرهمين؟ قلت: جيء به على طريق المبالغة. وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم فى حل الربا أنهم جعلوه أصلا وقانونًا فى الحل حتى شبهوا به البيع»[1].

وقوله: ﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾ جملة مستأنفة، وهى رد من الله - تعالى - عليهم، وإنكار لتسويتهم الربا بالبيع.

قال الآلوسى: وحاصل هذا الرد من الله - تعالى - عليهم: أن ما ذكرتم - من أن الربا مثل البيع - قياس فاسد الوضع لأنه معارض للنص فهو من عمل الشيطان، على أن بين البابين فرقًا، وهو أن من باع ثوبًا يساوى درهما بدرهمين فقد جعل الثوب مقابلا لدرهمين فلا شيء منهما إلا وهو فى مقابلة شيء من الثوب. وأما إذا باع درهما بدرهمين فقد أخذ الدرهم الزائد بدون عوض، ولا يمكن جعل الإمهال عوضا إذ الإمهال ليس بمال فى مقابلة المال»[2].

وقوله: ﴿فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله﴾. تفريع على الوعيد السابق فى قوله: ﴿الذين يأكلون الربا..﴾ إلخ».

والمجيء بمعنى العلم والبلاغ، والموعظة: ما يعظ الله - تعالى - به عباده عن طريق زجرهم وتخويفهم وتذكيرهم بسوء عاقبة المخالفين لأوامره.

أى: فمن بلغه نهى الله - تعالى - عن الربا، فامتثل وأطاع وابتعد عما نهاه الله عنه، ﴿فله ما سلف﴾ أى فله ما تقدم قبضه من مال الربا قبل التحريم وليس له ما تقدم الاتفاق عليه ولم يقبضه.. لأن الله - تعالى - يقول بعد ذلك ﴿وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم..﴾.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٣٢١.

(٢) تفسير الآلوسى جـ٣ ص ٥٠.

وقوله : ﴿وأمره إلى الله﴾ أى أمر هذا المرابى الذى تعامل بالربا قبل التحريم واجتنبه بعده، أمره مفوض إلى الله - تعالى - فهو الذى يعامله بما يقتضيه فضله وعفوه وكرمه.

قال ابن كثير: قوله ﴿فمن جاءه موعظة من ربه﴾ . . إلخ أى من بلغه نهى الله عن الربا فانتهى حال وصول الشرع إليه فله ما سلف من المعاملة لقوله : ﴿عفا الله عما سلف﴾ وكما قال النبى ﷺ يوم فتح مكة : «وكل ربا فى الجاهلية موضوع تحت قدمى هاتين وأول ربا أضع ربا عمى العباس، ولم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة فى حال الجاهلية بل عفا عما سلف كما قال - تعالى - : ﴿فله ما سلف وأمره إلى الله﴾ أى فله ما كان قد أكل من الربا قبل التحريم»[1].

و «من» فى قوله : ﴿فمن جاءه موعظة﴾ شرطية وهو الظاهر، ويحتمل أن تكون موصولة. وعلى التقديرين فهى فى محل رفع بالابتداء، وقوله : ﴿فله ما سلف﴾ هو الجزاء أو الخبر، و ﴿موعظة﴾ فاعل جاء، وسقطت التاء من الفعل للفصل بينه وبين الفاعل أو تكون الموعظة هنا بمعنى الوعظ فهى فى معنى المذكر

وقوله : ﴿من ربه﴾ جار ومجرور متعلق بجاءه، أو بمحذوف وقع صفة لموعظة

وفى قوله : ﴿من ربه﴾ تفخيم لشأن الموعظة، وإغراء بالامتثال والطاعة لأنها صادرة من الله - تعالى - المربى لعباده.

وفى هذه الجملة الكريمة بيان لمظهر من مظاهر السماحة فيما شرعه الله لعباده، لأنه - سبحانه - لم يعاقب المرابين على ما مضى من أمرهم قبل وجود الأمر والنهى، ولم يجعل تشريعه بأثر رجعى بل جعله للمستقبل، إذ الإسلام يجب ما قبله. فما أكله المرابى قبل تحريم الربا فلا عقاب عليه فيه وهو ملك له، إلا أنه ليس له أن يتعامل به بعد التحريم، وإذا تعامل به فلن تقبل توبته حتى يتخلص من هذا المال الناتج عنه الربا.

ولقد توعد الله - تعالى - من يعود إلى التعامل بالربا بعد أن حرمه الله - تعالى - فقال ﴿ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

أى ومن عاد إلى التعامل بالربا بعد أن نهى الله عنه فأولئك العائدون هم أصحاب النار الملازمون لها، والماكثون فيها بسبب تعديهم لما نهى الله عنه.

وفى هذه الجملة الكريمة تأكيد للعقاب النازل بأولئك العائدين بوجوه من المؤكدات منها : التعبير فيها بأولئك التى تدل على البعيد فهم بعيدون عن رحمة الله، والتعبير بالجملة الاسمية التى تفيد الدوام والاستمرار والتعبير، بكلمة أصحاب الدالة على الملازمة والمصاحبة، وبكلمة

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣٢٧.

﴿خالدون﴾ التى تدل على طول المكث.

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المرابين، وحسن عاقبة المتصدقين فقال: ﴿يمحق الله الربا ويربى الصدقات.

والمحق: النقصان والإزالة للشيء حالا بعد حال، ومنه محاق القمر، أى انتقاصه فى الرؤية شيئًا فشيئًا حتى لا يرى، فكأنه زال وذهب ولم يبق منه شيء.

أى: أن المال الذى يدخله الربا يمحقه الله، ويذهب بركته، أما المال الذى يبذل منه صاحبه فى سبيل الله فإنه - سبحانه - يباركه وينميه ويزيده لصاحبه.

قال الإمام الرازى عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه: اعلم أنه لما كان الداعى إلى التعامل بالربا تحصيل المزيد من الخيرات، والصارف عن الصدقات الاحتراز عن نقصان المال، لما كان الأمر كذلك بين - سبحانه - أن الربا، وإن كان زيادة فى الحال إلا أنه نقصان فى الحقيقة، وأن الصدقة وإن كانت نقصانًا فى الصورة إلا أنها زيادة فى المعنى، واللائق بالعاقل أن لا يلتفت إلى ما يقضى به الطبع والحس والدواعى والصوارف، بل يعول على ما أمر به الشرع.

ثم قال: واعلم أن محق الربا وإرباء الصدقات يحتمل أن يكون فى الدنيا وأن يكون فى الآخرة. أما محق الربا فى الدنيا فمن وجوه:

أحدها: أن الغالب فى المرابى وإن كثر ماله أن تؤول عاقبته إلى الفقر، وتزول البركة عنه، ففى الحديث: الربا وإن كثر فإلى قل.

وثانيها: إن لم ينقص ماله فإن عاقبته الذم والنقص وسقوط العدالة وزوال الأمانة.

وثالثها: إن الفقراء يلعنونه ويبغضونه بسبب أخذه لأموالهم...

ورابعها: أن الأطماع تتوجه إليه من كل ظالم وطماع بسبب اشتهاره أنه قد جمع ماله من الربا ويقولون: إن ذلك المال ليس له فى الحقيقة فلا يترك فى يده.

وأما أن الربا مسبب للمحق فى الآخرة فلوجوه منها أن الله - تعالى - لا يقبل منه صدقة ولا جهادًا ولا صلة رحم - كما قال ابن عباس -، ومنها أن مال الدنيا لا يبقى عند الموت بل الباقى هو العقاب وذلك هو الخسران الأكبر.

وأما إرباء الصدقات فى الدنيا فمن وجوه: منها: أن من كان لله كان الله له، ومن أحسن إلى عباد الله أحسن الله إليه وزاده من فضله، ومنها أن يزداد كل يوم فى ذكره الجميل وميل القلوب إليه، ومنها أن الفقراء يدعون له بالدعوات الصالحة وتنقطع عنه الأطماع.

وأما إرباؤها فى الآخرة فقد روى مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله - تعالى - يقبل الصدقات ويأخذها بيمينه فيربيها كما يربى أحدكم مهره، أو فلوه حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد»(١).

ففى هذه الجملة الكريمة بشارة عظيمة للمتصدقين، وتهديد شديد للمرابين ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿والله لا يحب كل كفار أثيم﴾.

و ﴿كفار﴾ فعيل بمعنى فاعل فهى صيغة مبالغة من آثم، والأثيم هو المكثر من ارتكاب الآثام المبطئ عن فعل الخيرات.

أى: أن الله - تعالى - لا يرضى عن كل من كان شأنه الستر لنعمه والجحود لها، والتمادى فى ارتكاب المنكرات، والابتعاد عن فعل الخيرات.

وقد جمع - سبحانه - بين الوصفين للإشارة إلى أن إيمان المرابين ناقص إن لم يستحلوه وهم كفار إن استحلوه، وهم فى الحالتين آثمون معاقبون، يعيدون عن محبة الله ورضاه. وسيعاقب - سبحانه - الناقصين فى إيمانهم، والكافرين به بما يستحقون من عقوبات.

فالجملة الكريمة تهديد شديد لمن استحلوا الربا، أو فعلوه مع عدم استحلالهم له.

وبعد هذا التهديد الشديد للمتعاملين بالربا، ساق - سبحانه - آية فيها أحسن البشارات للمؤمنين الصادقين فقال - تعالى -:

﴿إن الذين آمنوا﴾ أى إيمانًا كاملا بكل ما أمر الله به ﴿وعملوا الصالحات﴾ أى الأعمال الصالحة التى تصلح بها نفوسهم والتى من جملتها الإحسان إلى المحتاجين، والابتعاد عن الربا والمرابين ﴿وأقاموا الصلاة﴾ بالطريقة التى أمر الله بها، بأن يؤدوها فى أوقاتها بخشوع واطمئنان ﴿وآتوا الزكاة﴾ أى أعطوها لمستحقيها بإخلاص وطيب نفس.

هؤلاء الذين اتصفوا بكل هذه الصفات الفاضلة ﴿لهم أجرهم عند ربهم﴾ أى لهم ثوابهم الكامل عند خالقهم ورازقهم ومربيهم.

﴿ولا خوف عليهم﴾ يوم الفزع الأكبر ﴿ولا هم يحزنون﴾ لأى سبب من الأسباب، لأن ما هم فيه من أمان واطمئنان ورضوان من الله - تعالى - يجعلهم فى فرح دائم، وفى سرور مقيم.

ثم ينتقل القرآن إلى أسلوب الخطاب المباشر للمؤمنين فيأمرهم بتقوى الله، وينهاهم عن التعامل بالربا فيقول: ﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾ أى اخشوه وصونوا أنفسكم عن الأعمال

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٧ ص١٠٢.

والأقوال التى تفضى بكم إلى عقابه.

وقوله : ﴿وذروا ما بقى من الربا﴾ أى : اتركوا ما بقى فى ذمم الذين عاملتموهم بالربا ولا تأخذوا منهم إلا رءوس أموالكم فحسب، فهذا مقابل لقوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿فله ما سلف﴾ أى ما سلف قبضه من الربا قبل نزول الآية فهو لكم، وما لم تقبضوه فأنتم مأمورون بتركه.

وقوله : ﴿من الربا﴾ متعلق بمحذوف على أنه حال من فاعل ﴿بقى﴾ أى اتركوا الذى بقى حال كونه بعض الربا، ومن للتعيض. أو متعلق ببقى.

و﴿ذروا﴾ فعل أمر - بوزن علوا - مبنى على حذف النون والواو فاعل، وأصله «وذروا» فحذفت فاؤه، والماضى منه «وذر».

وقوله : ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ حض لهم على ترك الربا أى إن كنتم مؤمنين حق الإيمان فامتثلوا أمر الله وذروا ما بقى من الربا مما زاد على رءوس أموالكم.

قال ابن كثير: نزل هذا السياق فى بنى عمرو بن عمير بن ثقيف، وبنى المغيرة من بنى مخزوم كان بينهم ربا فى الجاهلية فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه، طلبت ثقيف أن تأخذه منهم فتشاوروا. وقالت بنو المغيرة : لا نؤدى فى الإسلام، فكتب فى ذلك عتاب بن أسيد نائب مكة إلى رسول الله - ﷺ - فنزلت هذه الآية، فكتب بها رسول الله ﷺ إليه. فقالوا نتوب إلى الله ونذر ما بقى من الربا فتركوه كلهم. وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لكل من استمر على تعاطى الربا بعد الإنذار»[١] ثم هدد الله - تعالى كل من يتعامل بالربا تهديدًا عنيفًا فقال : ﴿فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾.

أى : فإن لم تتركوا الربا وأخذتم منه شيئًا بعد نهيكم عن ذلك، فكونوا على علم ويقين بحرب كائنة من الله - تعالى - ورسوله، ومن حاربه الله ورسوله لا يفلح أبدا.

وقوله : ﴿فأذنوا﴾ من أذن بالشيء يأذن إذا علمه. وقرئ ﴿فآذنوا﴾ من آذنه الأمر وآذنه به : أعلمه إياه : أى أعلموا من لم ينته عن الربا بحرب من الله ورسوله.

وتنكير «حرب» للتهويل والتعظيم أى فكونوا على علم ويقين من أن حربا عظيمة ستنزل عليكم من الله ورسوله.

قال بعضهم : والمراد المبالغة فى التهديد دون نفس الحرب. وقال آخرون : المراد نفس الحرب بمعنى أن الإصرار على عمل الربا إن كان من شخص وقدر عليه الإمام قبض عليه

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٣٠ بتصرف يسير.

وأجرى فيه حكم الله من الحبس والتعزير إلى أن تظهر منه التوبة. وإن وقع ممن يكون له عسكر وشوكة، حاربه الإمام كما يحارب الفئة الباغية، وكما حارب أبو بكر الصديق ما نعى الزكاة. وقال ابن عباس: من تعامل بالربا يستتاب فإن تاب فبها وإلا ضرب عنقه(١).

ثم بين - سبحانه - ما يجب عليهم عند توبتهم عن التعامل بالربا فقال: ﴿وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون﴾.

أى: وإن تبتم عن التعامل بالربا الذى يوجب الحرب عليكم من الله ورسوله، فلكم رءوس أموالكم أى أصولها بأن تأخذوها ولا تأخذوا سواها، وبذلك لا تكونون ظالمين لغرمائكم، ولا يكونون ظالمين لكم، لأن من أخذ رأس ماله بدون زيادة كان مقسطًا ومتفضلا، ومن دفع ما عليه بدون إنقاص منه كان صادقا فى معاملته.

ثم أمر الله - تعالى - الدائنين أن يصبروا على المدينين الذين لا يجدون ما يؤدون منه ديونهم فقال - تعالى -: ﴿وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة﴾.

والعسرة: اسم من الإعسار وهو تعذر الموجود من المال يقال: أعسر الرجل إذا صار إلى حالة العسرة وهى الحالة التى يتعسر فيها وجود المال.

والنظرة: اسم من الإنظار بمعنى الإمهال. يقال: نظره وانتظره وتنظره، تأنى عليه وأمهله فى الطلب.

والميسرة: مفعلة من اليسر الذى هو ضد الإعسار. يقال: أيسر الرجل فهو موسر إذا اغتنى وكثر ماله وحسنت حاله.

والمعنى: وإن وجد مدين معسر فأمهلوه فى أداء دينه إلى الوقت الذى يتمكن فيه من سداد ما عليه من ديون، ولا تكونوا كأهل الجاهلية الذين كان الواحد منهم إذا كان له دين على شخص وحل موعد الدين طالبه بشدة وقال له: إما أن تقضى وإما أن تربى أى تدفع زيادة على أصل الدين.

و ﴿كان﴾ هنا الظاهر أنها تامة بمعنى وجد أو حدث، فتكتفى بفاعلها كسائر الأفعال. وقيل يجوز أن تكون ناقصة واسمها ضمير مستكن فيها يعود إلى المدين وإن لم يذكر وذلك على قراءة ﴿ذا عسرة﴾ بالنصب وقوله: ﴿فنظرة﴾ الفاء جواب الشرط. ونظرة خبر لمبتدأ محذوف أى فالأمر أو فالواجب أو مبتدأ محذوف الخبر أى فعليكم نظرة.

ثم حبب - سبحانه - إلى عباده التصدق بكل أو ببعض ما لهم من ديون على المدينين

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٧ ص١٠٦.

المعسرين فقال - تعالى - : ﴿وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾.

أى : وأن تتركوا للمعسر كل أو بعض ما لكم عليه من ديون وتتصدقوا بها عليه، فإن فعلكم هذا يكون أكثر ثوابا لكم من الإنظار.

وجواب الشرط فى قوله : ﴿إن كنتم تعلمون﴾ محذوف. أى إن كنتم تعلمون أن هذا التصدق خير لكم فلا تتباطؤا فى فعله، بل سارعوا إلى تنفيذه فإن التصدق بالدين على المعسر ثوابه جزيل عند الله - تعالى -.

وقد أورد بعض المفسرين جملة من الأحاديث النبوية التى تحض على إمهال المعسر، والتجاوز عما عليه من ديون.

ومن ذلك ما أخرجه مسلم فى صحيحه عن أبى قتادة أن رسول الله ﷺ قال : «من نفس عن غريمه أو محا عنه كان فى ظل العرش يوم القيامة».

وروى الطبرانى عن أسعد بن زرارة أن رسول الله ﷺ قال : «من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله فلييسر على معسر أو ليضع عنه».

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : من أراد أن تستجاب دعوته وأن تكشف كربته فليفرج عن معسر»[1].

ثم ساق - سبحانه - فى ختام حديثه على الربا آية كريمة ذكر الناس فيها بزوال الدنيا وفناء ما فيها من أموال، وبالاستعداد للآخرة وما فيها من حساب فقال - تعالى - : ﴿واتقوا يومًا ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾.

أى : واحذروا أيها المؤمنون يوما عظيما فى أهواله وشدائده، وهو يوم القيامة الذى تعودون فيه إلى خالقكم فيحاسبكم على أعمالكم، ثم يجازى - سبحانه - كل نفس بما كسبت من خير أو شر بمقتضى عدله وفضله، ولا يظلم ربك أحدا.

فالآية الكريمة تعقيب حكيم يتناسب كل التناسب مع جو المعاملات والأخذ والعطاء، حتى يبتعد الناس عن كل معاملة لم يأذن بها الله - تعالى -.

قال الآلوسى : أخرج غير واحد عن ابن عباس أن هذه الآية هى آخر ما نزل على رسول الله ﷺ من القرآن. واختلف فى مدة بقائه بعدها. فقيل : تسع ليال. وقيل : سبعة أيام. وقيل : واحدا وعشرين يومًا. وروى أنه قال : اجعلوها بين آيات الربا وآية الدين..»[2].

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣٣١.
(٢) تفسير الآلوسى جـ٣ صفحة ٥٤.

هذا، والمتدبر فى هذه الآيات التى وردت فى موضع الربا، يراها قد نفرت منه تنفيرًا شديدًا، وتوعدت متعاطيه بأشد العقوبات، وشبهت الذين يأكلونه بتشبيهات تفزع منها النفوس، وتشمئز منها القلوب، وحضت المؤمنين على أن يلتزموا فى معاملاتهم ما شرعه الله لهم، وأن يتسامحوا مع المعسرين ويتصدقوا عليهم بما يستطيعون التصدق به.

وقد تكلم الفقهاء[١] وبعض المفسرين عن الربا وأقسامه وحكمة تحريمه كلاما مستفيضا، قال بعضهم : الربا قسمان : ربا النسيئة، وربا الفضل.

فربا النسيئة : هو الذى كان معروفا بين العرب فى الجاهلية، وهو أنهم كانوا يدفعون المال على أن يأخذوه فى موعد معين، فإذا حل الأجل طولب المدين برأس المال كاملا، فإن تعذر الأداء زادوا فى الحق وفى الأجل.

وربا الفضل : أن يباع درهم بدرهمين، أو دينار بدينارين، أو رطل من العسل برطلين، أو كيلة من الشعير بكيلتين.

وكان ابن عباس فى أول الأمر لا يحرم إلا ربا النسيئة وكان يجوز ربا الفضل اعتمادًا على ما روى من أن النبى ﷺ قال : « إنما الربا فى النسيئة » ولكن لما تواتر عنده الخبر بأن النبى ﷺ قال : الحنطة بالحنطة مثلا بمثل يدا بيد » رجع عن قوله. لأن قوله ﷺ : « إنما الربا فى النسيئة » محمول على اختلاف الجنس فإن النسيئة حينئذ تحرم ويباح التفاضل كبيع الحنطة بالشعير. تحرم فيه النسيئة ويباح التفاضل.

ولذلك وقع الاتفاق على تحريم الربا فى القسمين : أما ربا النسيئة فقد ثبت تحريمه بالقرآن كما فى قوله - تعالى - : ﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾.

وأما ربا الفضل فقد ثبت تحريمه بالحديث الصحيح الذى رواه عبادة ابن الصامت أن النبى ﷺ قال : « الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشعير بالشعير والتمر بالتمر. والملح بالملح. مثلا بمثل، سواء بسواء، يدًا بيد، فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كانت يدًا بيد ».

وقد اشتهرت رواية هذا الحديث حتى صارت مسلمة عند الجميع. وجمهور العلماء على أن الحرمة ليست مقصورة على هذه الأشياء الستة، بل تتعداها إلى غيرها مما يتحد معها فى العلة. وقد فسر بعضهم هذه العلة باتحاد الجنس والقدر. . »[٢].

---

(١) راجع على سبيل المثال تفسير القرطبى جـ٣ صفحة ٣٤٧. وتفسير المنار جـ٣ صفحة ١٠٦.
(٢) تفسير آيات الأحكام - بتصرف وتلخيص - للشيخ محمد على السايس جـ١ صفحة ١٦١.

ومن الحكم التى ذكرت فى أسباب تحريم الربا : أنه يقتضى أخذ مال الغير بدون عوض، ويؤدى إلى امتناع أصحاب الأموال عن تحمل المشاق فى الكسب والتجارة والصناعة، وإلى استغلال حاجة المحتاج أسوأ استغلال وكل ذلك يفضى إلى إشاعة روح التباغض والتخاصم والتحاسد بين أفراد المجتمع - كما سبق أن أشرنا -.

ومن الأحاديث الشريفة التى وردت فى التحذير من تعاطى الربا ما رواه الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : اجتنبوا السبع الموبقات - أى المهلكات - قالوا : يا رسول الله وما هن؟ قال : الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات».

وأخرج مسلم فى صحيحه عن جابر بن عبيد الله قال : لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه».

وبعد أن أمر - سبحانه - المؤمنين أن يسارعوا فى التصدق على المحتاجين، وأن يجتنبوا الربا والمرابين، وبين لهم أن أموالهم تزكو وتنمو بالإنفاق فى وجوه الخير، وتمحق وتذهب بتعاطى الربا، بعد أن وضح كل ذلك ساق لهم آية جامعة، متى اتبعوا توجيهاتها استطاعوا أن يحفظوا أموالهم بأفضل طريق، وأشرف وسيلة، وأن يصونوها عن الهلاك والضياع عندما يعطى أحدهم أخاه شيئا من المال على سبيل الدين أو القرض الحسن المنزه عن الربا. استمع إلى القرآن وهو يتكلم عن أحكام الدين وعن أحكام بعض المعاملات التجارية الحاضرة فيقول :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى
فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ
كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ
ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ
فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ
أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ
مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ

مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

قال ابن كثير: قوله - تعالى - : ﴿يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه﴾ هذا إرشاد منه - تعالى - لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها وأضبط للشاهد فيها، وقد نبه على ذلك فى آخر الآية حيث قال: ﴿ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا﴾ وروى البخارى عن ابن عباس أنه قال: أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى قد أحله الله وأذن فيه ثم قرأ ﴿يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم﴾. الآية. وثبت فى الصحيحين عن ابن عباس قال: قدم النبى ﷺ المدينة وهم يسلفون فى الثمار السنة والسنتين والثلاث فقال رسول الله ﷺ «من أسلف فليسلف فى كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم»(١).

ومعنى ﴿تداينتم﴾: تعاملتم بالدين وداين بعضكم بعضا. وحقيقة الدين - كما يقول القرطبى - «عبارة عن كل معاملة كان أحد العوضين فيها نقدًا والآخر فى الذمة نسيئة، فإن العين عند العرب ما كان حاضرا، والدين ما كان غائبا»(٢).

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ صفحة ٣٣٤.

(٢) تفسير القرطبى جـ٣ صفحة ٣٧٧.

والأجل فى اللغة هو الوقت المضروب لانقضاء الأمد، وأجل الإنسان هو الوقت المحدد لانقضاء عمره. وأجل الدين هو الوقت المعين لأدائه فى المستقبل. وأصله من التأخير، يقال: أجل الشىء يأجل إذا تأخر والآجل نقيض العاجل.

والمعنى: يأيها الذين آمنوا إذا عامل بعضكم بعضا بالدين إلى وقت معين فاكتبوا هذا الدين، لأن فى هذه الكتابة حفظًا له، وضبطًا لمقداره، ومنعًا للتنازع من أن يقع بينكم.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: هلا قيل: إذا تداينتم إلى أجل مسمى، وأى حاجة إلى ذكر الدين؟ قلت: ذكر - لفظ الدين - ليرجع الضمير إليه فى قوله: ﴿فاكتبوه﴾ إذ لو لم يذكر لوجب أن يقال: فاكتبوا الدين، فلم يكن النظم بذلك الحسن، ولأنه أبين لتنويع الدين إلى مؤجل وحال. فإن قلت: ما فائدة قوله: ﴿مسمى﴾ قلت: ليعلم أن من حق الأجل أن يكون معلوما كالتوقيت بالسنة والأشهر والأيام. ولو قال: إلى الحصاد أو الدياس أو رجوع الحاج لم يجز لعدم التسمية»[1].

وجمهور العلماء على أن الأمر فى قوله «فاكتبوه» للندب، ولأن الله - تعالى - قد قال بعد ذلك ﴿فإن أمن بعضكم بعضًا فليؤد الذى اؤتمن أمانته﴾ ولأن النبى ﷺ لم يلزم الدائنين بكتابة ديونهم، ولا المدينين بأن يكتبوها.

وقال الظاهرية: إن الأمر هنا للوجوب، ومن لم يفعل ذلك كان آثمًا، لأن الأصل فى الأمر أنه للوجوب..

وقوله: ﴿وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾ بيان لكيفية الكتابة المأمور بها وتعيين من يتولاها عقب الأمر بها على سبيل الإجمال.

أى: عليكم أيها المؤمنون إذا تعاملتم بالدين إلى أجل معين أن تكتبوا هذا الدين، وليتول الكتابة بينكم شخص يجيدها وعنده فقهها وعلمها، بأن يكون على معرفة بشروط العقود وتوثيقها، وما يكون من الشروط موافقًا لشريعة الإسلام وما يكون منها غير موافق، وعلى هذا الكاتب أن يلتزم الحق مع الدائن والمدين فى كتابته، لأن الله - تعالى - يقول: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾. فالجملة الكريمة تحض المتعاملين بالدين أن يختاروا لكتابته شخصًا تتوفر فيه إجادة الكتابة، والخبرة بشروط العقود وتوثيقها، كما تتوفر فيه الاستقامة وتحرى الحق. ومفعول ﴿يكتب﴾ محذوف ثقة بانفهامه أى وليكتب بينكم الكتابة كاتب بالعدل. والتقييد بالظرف بينكم للإيذان بأنه ينبغى للكاتب ألا يسمح لنفسه بأن ينفرد به أحد المتعاقدين، لأن فى هذا الانفراد تهمة يجب أن يربأ بنفسه عنها.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ صفحة ٣٢٥.

والجار والمجرور وهو ﴿بالعدل﴾ متعلق بمحذوف صفة لكاتب أى : وليكن المتصدى للكتابة من شأنه أن يكتب بالسوية من غير ميل إلى أحد الجانبين. أو متعلق بالفعل يكتب. أى : وليكتب بالحق.

ثم نهى الله - تعالى - من كان قادرًا على الكتابة عن الامتناع عنها متى دعى إليها فقال : ﴿ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب﴾.

أى : ولا يمتنع كاتب من أن يكتب للمتداينين ديونهما بالطريقة التى علمه الله إياها أن يتحرى العدل والحق فى كتابته، وأن يلتزم فيها ما تقتضيه أحكام الشريعة الإسلامية.

فالكاف فى قوله - تعالى - : ﴿كما علمه الله﴾ نعت لمصدر محذوف والتقدير : فليكتب كتابة مثل ما علمه الله - تعالى - بمعنى أن يلتزم الحق والعدل فيها.

ويجوز أن تكون الكاف للتعليل فيكون المعنى : لا يمتنع عن الكتابة لأنه كما علمه الله إياها ويسرها له ونفعه بها، فعليه أن ينفع غيره بها، فهو كقوله - تعالى - : ﴿وأحسن كما أحسن الله إليك﴾ وفى الحديث الشريف «إن من الصدقة أن تعين صانعًا أو تصنع لأخرق» وفى حديث آخر : «من كتم علمًا يعلمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة»[1].

وقوله : ﴿فليكتب﴾ تفريع على قوله «ولا يأب كاتب» أى : فليكتب الكتابة التى علمه الله إياها فهو توكيد للأمر المستفاد من قوله : ﴿ولا يأب كاتب﴾. ويجوز أن يكون توكيدًا للأمر الصريح فى قوله : ﴿وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾.

قال القرطبى : واختلف الناس فى وجوب الكتابة على الكاتب والشهادة على الشاهد. فقال الطبرى : واجب على الكاتب إذا أمر أن يكتب. وقال الحسن : ذلك واجب عليه فى الموضع الذى لا يقدر فيه على كاتب غيره فيضر صاحب الدين إن امتنع، فإن كان كذلك فهو فريضة، وإن قدر على كاتب غيره فهو فى سعة إذا قام بها غيره»[2].

وإلى هنا تكون الآية الكريمة قد قررت مبدأ الكتابة فى الدين، وبينت كيفية الكتابة، وأشارت إلى إجادة الكاتب لها، ونهته عن الامتناع عنها إذا دعى إليها. ثم انتقلت الآية بعد ذلك إلى بيان من يتولى الإملاء فقال - تعالى - : ﴿وليملل الذى عليه الحق، وليتق الله ربه، ولا يبخس منه شيئًا﴾.

والإملال معناه الإملاء. فهما لغتان معناهما واحد. وقد جاء القرآن باللغتين قال - تعالى - : ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٣٣٥. (٢) تفسير القرطبى جـ٣ ص٣٨٥.

أى : وعلى المدين الذى عليه الدين وقد التزم بأدائه أن يمل على الكاتب هذا الدين، وذلك ليكون إملاؤه إقرارًا به وبالحقوق التى عليه الوفاء بها. وعليه كذلك أن يراقب الله - تعالى - فى إملائه فلا ينقص من الدين الذى عليه شيئًا، لأن هذا الإنقاص ظلم حرمه الله - تعالى -.

وقد أمر الله - تعالى - بأن يكون الذى يملى على الكاتب هو المدين لأنه هو المكلف بأداء مضمون الكتابة، ولأنه بإملائه يكون قد أقر على نفسه بما عليه، ولأنه لو أفلس الدائن فربما يزيد فى الدين، أو يملى شيئًا ليس محل اتفاق بينه وبين المدين، ولأن المدين فى الغالب فى موقف ضعيف فأعطاه الله -تعالى- حق الإملاء على الكاتب حتى لا يغبن من الدائن.

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد مكن المدين من الإملاء على الكاتب حتى تكون الكتابة تحت سمعه وبصره وباختياره، ولكنه فى الوقت نفسه أوجب عليه أمرين : تقوى الله وعدم الانقاص من الدين الذى عليه، وإن ذلك لتشريع عادل حكيم لا ظلم فيه لا للدائن ولا للمدين.

ثم بين - سبحانه - الحكم فيما إذا كان الذى عليه الدين لا يحسن الإملاء فقال - تعالى - : ﴿فإن كان الذى عليه الحق﴾ وهو المدين ﴿سفيهًا﴾ أى جاهلا بالإملاء أو ناقص العقل، أو متلافًا مبذرًا لا يحسن تدبير أمره».

﴿أو ضعيفًا﴾ بأن يكون صبيًا أو شيخًا تقدمت به الشيخوخة.

﴿أو لا يستطيع أن يمل هو﴾ بأن يكون عييًا أو أخرس أو لا خبرة له بإملاء أمثال هذه المكاتبات.

﴿فليملل وليه بالعدل﴾ أى فعلى ولى أمره أو من يهمه شأنه ولا يرضى له أن يضيع حقه أن يتولى الإملاء متحريًا الحق والعدل فيما يكلف به.

وبعد هذا البيان الحكيم عن الكتابة وأحكامها فى شأن الديون، انتقل القرآن إلى الحديث عن الإشهاد فقال - تعالى - : ﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم﴾ أى : اطلبوا شاهدين عدلين من الرجال ليشهدوا على ما يجرى بينكم من معاملات مؤجلة، لأن هذا الإشهاد يعطى الديون والكتابة توثيقًا وتثبيتًا. والسين والتاء فى قوله : «واستشهدوا» للطلب.

قال الألوسى : «وفى اختيار صيغة المبالغة فى ﴿شهيدين﴾ للإيماء إلى من تكررت منه

قال الألوسى : «وفى اختيار صيغة المبالغة فى ﴿شهيدين﴾ للإيماء إلى من تكررت منه
الشهادة، فهو عالم بها مقتدر على أدائها وكأن فيه رمزًا إلى العدالة، لأنه لايتكرر ذلك من الشخص عند الحكام إلا وهو مقبول عندهم ولعله لم يقل رجلين لذلك. والأمر للندب أوللوجوب على الخلاف على ذلك»[1].

---

(١) تفسير الألوسى جـ٣ ص ٥٧.

وقوله : ﴿من رجالكم﴾ متعلق بقوله : ﴿واستشهدوا﴾ ومن لابتداء الغاية ويجوز أن يكون متعلقًا بمحذوف صفة لشهيدين ومن للتبعيض، أى من رجالكم المسلمين الأحرار فإن الكلام فى معاملتهم.

ثم بين - سبحانه - الحكم إذا لم يتيسر شاهدان من الرجال فقال : ﴿فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء﴾.

وقوله : ﴿ممن ترضون﴾ متعلق بمحذوف على أنه صفة لرجل وامرأتان. أى فإن لم يتيسر رجلان للشهادة فليشهد رجل وامرأتان كائنون مرضيون عندكم بعدالتهم.

وهذا الوصف وإن كان فى جميع الشهود إلا أنه ذكر هنا للتشديد فى اعتباره، لأن اتصاف النساء به قد لا يتوفر كثيرًا.

وقوله : ﴿من الشهداء﴾ متعلق بمحذوف حال من الضمير المفعول المقدر فى ﴿ترضون﴾ العائد إلى الموصول : أى فليشهد رجل وامرأتان ممن ترضونهم حال كونهم من بعض الشهداء لعلمكم بعدالتهم، وثقتكم بهم.

وقوله - تعالى - : ﴿ممن ترضون من الشهداء﴾ أدق فى الدلالة على صدق الشهادة من العدالة، لأن الإنسان العدل قد يكون مرضيًا فى دينه وخلقه ولكنه قد يتأثر بالمشاهد المؤثرة فتخونه ذاكرته فى وقت الحاجة إليها، أو قد يكون ممن يمنعه منصبه وجاهه ومقامه فى الناس من الكذب إلا أنه قد يرتكب بعض المعاصى، فجاء - سبحانه - بهذه الجملة الحكيمة لكى يقول للناس. اختاروا الشهداء من الذين يرتضى قولهم، ويقيمون الشهادة على وجهها الحق بدون التأثر بأى نوع من أنواع المؤثرات.

هذا، وشهادة النساء مع الرجال تجوز عند الحنفية فى الأموال والطلاق والنكاح والرجعة وكل شىء إلا الحدود والقصاص. وعند المالكية تجوز فى الأموال وتوابعها خاصة، ولا تقبل فى أحكام الأبدان مثل الحدود والقصاص والنكاح والطلاق والرجعة.

ثم بين - سبحانه - العلة فى أن المرأتين تقومان مقام الرجل فى الشهادة فقال : ﴿أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى﴾.

قال القرطبى : معنى تضل تنسى، والضلال عن الشهادة إنما هو نسيان جزء منها وذكر جزء، ويبقى المرء حيران بين ذلك ضالا»[1].

والمعنى : جعلنا المرأتين بدل رجل واحد فى الشهادة، خشية أن تنسى إحداهما فتذكر كل

---

(١) تفسير القرطبى جـ٣ ص ٣٩٧.

واحدة منهما الأخرى. إذ المرأة لقوة عاطفتها، وشدة انفعالها بالحوادث، قد تتوهم ما لم تر، فكان من الحكمة أن يكون مع المرأة أخرى فى الشهادة بحيث يتذكران الحق فيما بينهما.

والعلة فى الحقيقة هى التذكير، ولكن الضلال لما كان سببًا فى التذكير، نزل منزلة العلة. وذلك كأن تقول : أعددت السلاح خشيه أن يجىء العدو فأدفعه، فإن العلة هى الدفاع عن النفس، ولكن لما كان مجىء العدو سببًا فيه نزل منزلته.

وكما أمر الله - تعالى - الكتاب فى أول الآية بعدم الامتناع عن الكتابة أمر الشهود أيضًا بعدم الامتناع عن الشهادة فقال - تعالى - : ﴿ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا﴾ أى : ولا يمتنع الشهود عن أداء الشهادة وتحملها متى دعوا إليها، لأن الامتناع عن تحمل الشهادة وأدائها قد يؤدى إلى ضياع الحقوق. والله - تعالى - قد شرع الشهادة لإحقاق الحق، ونشر العدل بين الناس، فعلى من اشتهروا بالعدالة ووثق الناس بهم أن يؤدوا الشهادة كما أمرهم الله - تعالى -.

ثم أمر - سبحانه - بكتابة الدين سواء أكبر الدين أم صغر فقال : ﴿ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرًا أو كبيرًا إلى أجله﴾.

السأم : الضجر والملل. يقال : سئمت الشىء أسأمه سأمًا وسآمة أى مللته وضجرته.

والمعنى : وعليكم أيها المؤمنون أن لا تملوا من كتابة الدين إلى الوقت المحدد له سواء أكان هذا الدين كبيرًا أم صغيرًا، لأن الكتابة فى الحالتين أدعى إلى حفظ الحقوق وصيانتها، وإلى عدم نشوب التنازع أو التخاصم بينكم، ولأن الدين قد يكون صغيرًا فى نظر الغنى الملىء، إلا أنه كبير فى نظر الفقير المعسر، ولأن التهاون فى شأن الدين الصغير قد يؤدى إلى التهاون فى شأن الدين الكبير، لذا وجب عليكم أن تنقادوا لشرع الله وأن تكتبوا ما بينكم من ديون.

والضمير فى قوله : ﴿أن تكتبوه﴾ يعود إلى الدين أو إلى الحق، وقوله : ﴿صغيرًا أو كبيرًا﴾ حالان من الضمير. أى لا تسأموا أن تكتبوه على كل حال قليلا أو كثيرًا، وقدم الصغير على الكبير اهتمامًا به وانتقالا من الأدنى إلى الأعلى.

ثم بين - سبحانه - ثلاث فوائد تعود عليهم إذا ما امتثلوا ما أمرهم الله - تعالى - به، فقال : ﴿ذلكم أقسط عند الله﴾.

واسم الإشارة ﴿ذلكم﴾ يعود إلى كل ما سبق ذكره فى الآية من الكتابة والإشهاد ومن عدم الامتناع عنهما، ومن تحرى الحق والعدل.

و ﴿أقسط﴾ بمعنى أعدل. يقال : أقسط فلان فى الحكم يقسط إقساطًا إذا عدل فهو مقسط.

قال - تعالى - : ﴿إن الله يحب المقسطين﴾. ويقال : هو قاسط إذا جار وظلم. قال - تعالى - : ﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا﴾.

أى : ذلكم الذى شرعناه لكم فى أمر الديون من الكتابة والإشهاد وغيرهما أعدل فى علم الله - تعالى -، وكل ما كان كذلك فهو الأعدل والأفضل والأحكم فى ذاته، لأنه - سبحانه - هو الأعلم بما فيه مصلحتكم فاستجيبوا له، وتلك هى الفائدة الأولى.

أما الفائدة الثانية فهى قوله - سبحانه - : ﴿وأقوم للشهادة﴾ ومعنى ﴿أقوم﴾ أبلغ فى الاستقامة التى هى ضد الاعوجاج. أى : أثبت لها وأعون على إقامتها وأدائها.

وأما الفائدة الثالثة فهى قوله : ﴿وأدنى أن لا ترتابوا﴾ أى : أقرب إلى زوال الشك والريبة. أى أن الأوامر والنواهى السابقة إذا نفذت على وجهها كان تنفيذها أعدل فى علم الله - تعالى - وأعون على إقامة الشهادة إذ بها يتم الاعتماد على الحفظ، وأقرب إلى عدم الشك فى جنس الدين وقدره وأجله، وإذا توفرت هذه الفوائد الثلاث فى المعاملات ساد الوفاق والتعاون بين الناس، أما إذا فقدت فإن الثقة تزول من بينهم، ويحل محلها النزاع والشقاق.

ثم أباح - سبحانه - فى التجارة الحاضرة عدم الكتابة فقال : ﴿إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألاتكتبوها﴾.

والتجارة الحاضرة التى تدور بين التجار : هى التى يجرى فيها التقابض فى المجلس أو التى يتأخر فيها الأداء زمنا يسيرا. وسميت حاضرة، لأن المبيع والثمن كلاهما حاضر.

والمعنى : أن الله - تعالى - يأمركم بكتابة الديون وبالإشهاد عليها إلا أنه - سبحانه - رحمة بكم أباح لكم عدم الكتابة فى التجارة الحاضرة التى تكثرون إدارتها والتعامل فيها، لأنه لو كلفكم بذلك لشق الأمر عليكم، وهو - سبحانه - ﴿ما جعل عليكم فى الدين من حرج﴾. ولأن أمثال هذه التجارات التى يحصل فيها التقابض ويكثر تكرارها، لا يتوقع فيها التنازع أو النسيان.

والاستثناء هنا منقطع لأنه ليس هناك دين حتى يكتب، وليست التجارة الحاضرة من جنس التعامل بالديون فكأنه قيل : إذا تداينتم فتكاتبوا وأشهدوا لكن التجارة الحاضرة التى يجرى فيها التقابض لا جناح عليكم فى عدم كتابتها.

وقيل : الاستثناء متصل والجملة المستثناة فى موضع نصب لأنه استثناء من الجنس، لأنه أمر بالكتابة فى كل معاملة واستثنى منها التجارة الحاضرة والتقدير : آمركم بالكتابة والإشهاد فى كل معاملة إلا فى حال حضور التجارة فلا بأس من ترك الكتابة. و ﴿تجارة﴾ قرأها الجمهور بالرفع

على أنها اسم تكون، والخبر جملة ﴿تديرونها بينكم﴾. أو على أنها فاعل تكون إذا اعتبرناها تامة.

وقرأها عاصم بالنصب على أنها خبر تكون واسمها ضمير مستتر فيها يعود على التجارة. أى. إلا أن تكون التجارة تجارة حاضرة.

وقوله - تعالى - : ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾ أمر منه - سبحانه - بالإشهاد عند البيع، وهذا الأمر للإرشاد والتعليم عند جمهور العلماء. ويرى الظاهرية أنه للوجوب.

قال صاحب الكشاف: هذا أمر بالإشهاد على التبايع مطلقا ناجزا أو كالئا - أى مؤجلا - لأنه أحوط وأبعد مما عسى يقع من الاختلاف. ويجوز أن يراد: وأشهدوا إذا تبايعتم هذا التبايع. يعنى التجارة الحاضرة على أن الإشهاد كاف فيه دون الكتابة، وعن الضحاك: هى عزيمة من الله ولو على باقة بقل»[1].

ثم نهى - سبحانه - عن المضارة فقال: ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾.

والمضارة: إدخال الضرر. والفعل ﴿يضار﴾ يحتمل أن يكون مبنيا للفاعل، وأن أصله «لا يضارر - بكسر الراء - ويحتمل أن يكون مبنيا للمفعول. وأن أصله لا يضارر بفتح الراء الأولى.

والمعنى على الأول: نهى الكاتب والشاهد عن أن ينزلا ضررًا بأحد المتعاقدين، بأن يبخس الكاتب أحدهما، أو يشهد بغير الحق.

والمعنى على الثانى: وهو الظاهر - نهى الدائن والمدين عن أن ينزل أحدهما ضررًا بالكاتب أو الشاهد لحملهما على كتابة غير الحق أو قول غير الحق، فإنهما أمينان، والإضرار بهما قد يحملهما على الخيانة وفى ذلك ضياع للأمانة وذهاب للثقة. ولذا قال - تعالى - بعد ذلك ﴿وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم﴾.

أى: وإن تفعلوا ما نهيتم عنه أو تخالفوا ما أمرتم به، فإنكم بذلك تكونون قد خرجتم عن طاعة الله، وتلبستم بمعصيته، وصرتم أهلا لعقوبته، فعليكم أن تقفوا عند حدود الله حتى تتحقق لكم السعادة فى دينكم ودنياكم.

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالأمر بخشيته. وبتذكيرهم بنعمه فقال: ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله، والله بكل شىء عليم﴾.

أى: واتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، فهو - سبحانه - الذى يعلمكم ما يصلح لكم

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٧٧.

أمر دنياكم وما يصلح لكم أمر دينكم متى اتقيتموه واستجبتم له، وهو - سبحانه - بكل شيء عليم لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء.

وبعد: فهذه هى آية الدين التى هى أطول آية فى القرآن، تقرؤها فتراها قد اشتملت على أدق التشريعات، وأحكم التوجيهات، وأنجع الإرشادات التى تهدى إلى حفظ الحقوق وضبطها وتوثيقها بمختلف الوسائل.

تقرؤها فترى الدقة العجيبة فى الصياغة بأن وضع كل لفظ فى مكانه المناسب، وترى الطلاوة فى التعبير، والعذوبة فى الألفاظ بحيث لا تطغى دقة الصياغة على جمال العرض.

وترى الوفاء الكامل، لكل الجوانب التشريعية والاحتراس التام من كل المؤثرات التى قد تؤثر على سلامة التعاقد، والإرشاد الجامع إلى كل ما يضمن وصول الحق والعدل إلى جميع الأطراف بدون محاباة أو غبن.

وترى قبل ذلك وبعد ذلك كيف يسوق القرآن تشريعاته بطريقة تغرس فى النفوس الخوف من الله - تعالى - والمراقبة له، والاستجابة لأوامره، لا كطريقة البشر فى قوانينهم التى صاغوها فى قوالب صماء من الألفاظ لا تشعر معها بتأثير فى النفس، ولا باهتزاز فى القلب.

ولو لم يكن فى شريعة الله سوى هذا التأثير الذى تشعر به النفوس النقية الصافية عند تدبرها لكفاها ذلك دليلا على سموها وفضلها وعلى أنها من صنع الله - تعالى - ولو أن المسلمين أخذوا بها وبتوجيهاتها فى سائر شئونهم لظفروا بالسعادتين: الدينية والدنيوية.

ثم بين - سبحانه - ما يجب على المسلمين فعله إذا لم يتمكنوا من كتابة ديونهم بأن كانوا مسافرين وليس معهم كاتب فقال - تعالى -:

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾

الرهان: جمع رهن بمعنى مرهون من باب إطلاق المصدر على اسم المفعول وقرأ ابن كثير وأبو عمر ﴿فرهن مقبوضه﴾ وأصل الرهن فى كلام العرب يدل على الحبس قال - تعالى -:

﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾. ومعنى الرهن : أن يوضع شىء يناسب قيمة الدين من متاع المدين بيد الدائن توثقة له فى دينه، ليستطيع أن يستوفى حقه من هذا الشىء المرهون عند تعذر الدفع.

والمعنى : وإن كنتم. أيها المؤمنون - مسافرين وتداينتم بدين إلى أجل مسمى، ولم تجدوا كاتبًا يكتب لكم ديونكم، أو لم تتيسر لكم أسباب الكتابة لأى سبب من الأسباب، فإنه فى هذه الحالة يقوم مقام الكتابة رهان مقبوضة يقبضها صاحب الدين ضمانًا لحقه عند تعذر أخذه من الغريم.

وفى التعبير بقوله : ﴿على سفر﴾ استعارة تبعية حيث شبه تمكنهم فى السفر بتمكن الراكب من مركوبه. وفيه كذلك إشارة إلى اضطراب الحال، لأن حال المسافر يغلب عليها التنقل وعدم الاستقرار.

وجملة ﴿ولم تجدوا كاتبا﴾ معطوفة على فعل الشرط، أى : وإن كنتم مسافرين ولم تجدوا، كاتبا فتكون فى محل جزم تقديرًا. ويجوز أن تكون الواو للحال والجملة بعدها فى محل نصب على الحال.

وقوله : ﴿فرهان مقبوضة﴾ خبر لمبتدأ محذوف والتقدير : فالذى يستوثق به رهان مقبوضة. أو مبتدأ محذوف الخبر والتقدير : فعليكم رهان مقبوضة.

ومن الأحكام التى أخذها الفقهاء من هذه الآية الكريمة : أن تعليق الرهان على السفر ليس لكون السفر شرطًا فى صحة الرهان، فإن التعامل بالرهان مشروع فى حالتى السفر والحضر، وإنما علق هنا على السفر لأنه مظنة تعسر الكتابة لما فيه من التنقل وعدم الاستقرار. وقد ثبت فى الصحيحين عن أنس أن رسول الله ﷺ توفى ودرعه مرهونة عند يهودى على ثلاثين وسقًا من شعير رهنها قوتًا لأهله»[1].

ومن الواضح أن رسول الله ﷺ عند مارهن درعه لليهودى كان مقيمًا ولم يكن مسافرا.

قال القرطبى : ولم يرو عن أحد منع الرهن فى الحضر سوى مجاهد والضحاك وداود متمسكين بالآية، ولا حجة فيها لهم، لأن هذا الكلام وإن خرج مخرج الشرط فالمراد به غالب الأحوال. وليس كون الرهن فى الآية فى السفر مما يحظر فى غيره»[2].

كذلك أخذ بعض الفقهاء من قوله : ﴿فرهان مقبوضة﴾ أن الرهن لا يتم إلا بالقبض، فإذا افترق المتعاقدان من غير قبض كان الرهن غير صحيح بنص الآية وهذا مذهب الأحناف

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣٣٧.

(٢) تفسير القرطبى جـ٣ ص ٤٠٧.

والشافعية، ويرى المالكية والحنابلة أن الرهن يتم من غير القبض، لأن القبض حكم من أحكامه، فمن حق الدائن بعد تمام عقد الرهن أن يطالب بقبض العين المرهونة، فالقبض حكم من أحكام العقد، وليس ركنا من أركانه ولا شرطا لتمامه.

وقوله: ﴿فإن أمن بعضكم بعضًا فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربه﴾ تفريع على أحكام الديون السابقة، وحض على أداء الأمانة وعلى حسن المعاملة.

أى: فإن أمن الدائن المدين واعتمد على ذمته ووفائه ولم يوثق الدين بالكتابة والشهود والرهن، فعلى المدين أن يكون عند حسن ظن الدائن به بأن يؤدى ما عليه من ديون فى الموعد المحدد بدون تسويف أو مماطلة، وعليه كذلك أن يتقى الله ربه فى رعاية حقوق غيره فلا يجحدها ولا يتأخر فى أدائها لأن الله العليم بكل شىء سيحاسب كل إنسان بما قدمت يداه.

وعبر - سبحانه - بقوله: ﴿فإن أمن﴾ دون أو أودع، للإشارة إلى الجانب الذى اعتمد عليه الدائن فى المدين وهو خلق الأمانة، فهو لا يرى فيه إلا جانبًا مأمونًا لا يتوقع منه شرًا أو خيانة، وللتنبيه إلى أن صفة الأمانة والوفاء من الصفات التى يجب أن يتحلى بها المؤمنون جميعًا حتى ينالوا السعادة فى دينهم ودنياهم، عبر بقوله: ﴿فليؤد الذى اؤتمن﴾ ولم يقل فليؤد المدين لحضه: على الأداء بأحسن أسلوب، لأنه ما دام الدائن قد ائتمنه على ما أعطاه من ديون، فعلى هذا الذى اؤتمن وهو المدين أن يكون عند حسن الظن به وأن يرد إليه حقه فى موعده مع شكره على حسن ظنه به.

وقوله: ﴿أمانته﴾ أى دينه. والضمير يصح أن يعود إلى الدائن باعتباره مالك الدين، وإلى المدين باعتبار أن الدين عليه، وفى إضافتها - أى الأمانة - إلى المدين إشعار له بأنها عبء فى ذمته يجب أن يؤديه حتى يتخلص من تكاليفه، إذ الأمانة عبء ثقيل عند العقلاء الذين يشعرون بالمسئولية نحو أنفسهم ونحو غيرهم.

وجمع - سبحانه - بين صفتى الألوهية والربوبية فى قوله: ﴿وليتق الله ربه﴾ للمبالغة فى التحذير من الخيانة والمماطلة فإنهما يغضبان الله - تعالى - الذى خلق الإنسان ورباه وأسبغ عليه نعمه الظاهرة والباطنة، ولإشعار هذا المدين بأن التقوى هى الوثيقة الكبرى التى لا تعدلها وثيقة أخرى من كتابة أو شهادة أو رهان.

وبذلك نرى لونًا من ألوان التدرج الحكيم فى شريعة الله - تعالى - فأنت ترى أن الله - تعالى - قد بين قبل ذلك أن الكتابة فى الديون والإشهاد عليها مطلوبان، فإن تعذرت الكتابة والشهادة لسبب من الأسباب فإنه يترخص حينئذ بالرهن المقبوض.

فإن تعذر على المدين المحتاج أن يدفع للدائن رهنا يكون الاعتماد على الأمانة التى هى صفة من صفات الصادقين.

فياله من تشريع حكيم، بين للناس ما يصلح شأنهم فى دينهم وفى دنياهم.

ثم أمر الله تعالى - عباده بأن يؤدوا الشهادة على وجهها وألا يكتموها فقال - تعالى - : ﴿ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾. أى: وعليكم - أيها المؤمنون - ألا تمتنعوا عن أدائها إذا دعيتم إليها وألا تخفوها فإن الذى يخفيها ويمتنع عن أدائها يكون معاقبًا من الله - تعالى - بسبب ارتكابه لما نهى عنه.

وقد أسند - سبحانه - الإثم إلى القلب خاصة مع أن الإثم يسند إلى الشخص، لأن الإثم فى كتمان الشهادة عمل القلب لا عمل الجوارح، ولأن القلب أساس كل خير وكل شر، ففى الحديث الشريف: ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب».

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: هلا اقتصر على قوله ﴿فإنه آثم﴾ وما فائدة ذكر القلب والجملة هى الآثمة لا القلب وحده؟ قلت: كتمان الشهادة هو أن يضمرها ولا يتكلم بها. فلما كان إثما مقترنا بالقلب أسند إليه لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التى يعمل بها أبلغ، ألا تراك تقول إذا أردت التوكيد: هذا مما أبصرته عينى، ووعاه قلبى. ولأن القلب هو رئيس الأعضاء فكأنه قيل: ومن يكتمها فقد تمكن الإثم من أصل نفسه، وملك أشرف مكان فيه: ولئلا يظن أن كتمان الشهادة من الآثام التى تتعلق باللسان فقط. وليعلم أن القلب أصل متعلقه ومعدن اقترافه، واللسان ترجمان عنه. ولأن أفعال القلوب أعظم من أفعال سائر الجوارح، وهى لها كالأصول التى تتشعب عنها. ألا ترى أن أصل الحسنات والسيئات الإيمان والكفر. وهما من أفعال القلوب فإذا جعل كتمان الشهادة من آثام القلوب فقد شهد له بأنه من معاظم الذنوب.

وقوله: ﴿آثم﴾ خبر إن و ﴿قلبه﴾ رفع بآثم على الفاعلية كأنه قيل: فإنه يأثم قلبه. ويجوز أن يرتفع قلبه بالابتداء. وآثم خبر مقدم. والجملة خبر إن والضمير للشأن»[1].

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿والله بما تعملون عليم﴾ أى: والله - تعالى - عليم بكل أعمالكم وأقوالكم وسائر شئونكم وسيجازى المحسنين إحسانًا، والمسيئين سوءًا فعليكم أيها المؤمنون أن تستجيبوا لأوامر الله، وأن تجتنبوا ما نهاكم عنه حتى تكونوا من السعداء.

فالجملة الكريمة تذييل قصد به الوعد الحسن للمؤمنين الصادقين، والوعيد الشديد للعصاة

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ صفحة ٣٢٩.

المسيئين، حتى يزداد المؤمنون إيمانا، ويقلع العصاة عن عصيانهم وسيئاتهم.

وبعد هذا البيان الجامع الحكيم لطرق التعامل التى أباحها الله - تعالى - لعباده والتى حرمها عليهم، بين سبحانه - أن ما فى السموات والأرض ملك له، وأنه سيحاسب عباده بما يقتضيه علمه الشامل، وإرادته النافذة فقال - تعالى -.

لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)

وما دام الأمر كذلك فعليكم - أيها المؤمنون - أن تبذلوا نهاية جهدكم فى العمل الصالح الذى بين أيديكم إنما هو عارية مستردة، وأن المالك الحقيقى له إنما هو الله رب العالمين، فأنفقوا من هذا المال - الذى هو أمانة بين أيديكم - فى وجوه الخير واجمعوه من طريق حلال، وكونوا من القوم العقلاء الصالحين الذين لم تشغلهم دنياهم عن أخراهم، بل كانوا كما قالوا : ﴿ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الأخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾.

وقوله - سبحانه - : ﴿وإن تبدو ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ بيان لشمول علم الله - تعالى - لما أظهره الإنسان أو أخفاه من أقوال وأعمال، وأنه سيحاسبه على ذلك بما يستحقه من خير أو شر.

والجملة الكريمة صريحة فى أن الله - تعالى - يحاسب العباد على نياتهم وما تكسبه قلوبهم سواء أأخفوه أم أظهروه.

وقد بين المحققون من العلماء أن هذه المحاسبة إنما تكون على ما يعزم عليه الإنسان وينويه ويصر على فعله، سواء أنفذ ما اعتزم عليه أم حالت دونه حوائل خارجة عن إرادته : كمن عزم على السرقة واتخذ الوسائل لذلك ولكن لم يستطع التنفيذ لأسباب لم يتمكن معها من السرقة التى أصر عليها.

أما الخواطر النفسية التى تجول فى النفس، وتعرض للإنسان دون أن يعزم على تنفيذها، فإنها ليست موضع مؤاخذة، بل إن التغلب عليها، وكفها بعد مكافحتها يجعله أهلاً للثواب.

ففى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله - تعالى - : إذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها عليه فإن عملها فاكتبوها سيئة، وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها عشرًا[١].

وروى الجماعة فى كتبهم عن أبى هريرة قال، قال رسول الله ﷺ إن الله تجاوز لى عن أمتى ما وسوست به صدورها ما لم تعمل أو تتكلم»[٢].

قال الفخر الرازى : الخواطر الحاصلة فى القلب على قسمين : فمنها ما يوطن الإنسان نفسه عليه ويعزم على إدخاله فى الوجود، ومنها مالا يكون كذلك، بل تكون أمورًا خاطرة بالبال مع أن الإنسان يكرهها ولكنه لا يمكنه دفعها عن النفس.

فالقسم الأول يكون مؤاخذًا به.

والثانى لا يكون مؤاخذا به، ألا ترى إلى قوله - تعالى - : ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾[٣].

وقال الآلوسى : المؤاخذة على تصميم العزم على إيقاع المعصية فى الأعيان وهو من الكيفيات النفسانية التى تلحق بالملكات، وليس كذلك سائر ما يحدث فى النفس - أى من خواطر لا تصميم ولا عزم معها - قال بعضهم :

مراتب القصد خمس هاجس ذكروا … فخاطر فحديث النفس فاستمعا
يليه هم فعزم كلها رفعت … سوى الأخير ففيه الأخذ قد وقعا[٤]

وقوله - تعالى - : فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء» بيان لنتيجة المحاسبة التى تكون من الخالق - عز وجل - لعباده.

أى : أنه - سبحانه - بمقتضى علمه الشامل، وإرادته النافذه، يحاسب عباده على ما أسروه وما أعلنوه من أقوال وأعمال، فيغفر بفضله لمن يشاء أن يغفر له، ويعذب بعدله من يشاء أن يعذبه، لا راد لمشيئته ولا معقب لحكمه.

وقوله : ﴿فيغفر﴾ ويعذب، قرأه عاصم وابن عامر ويعقوب وأبو جعفر برفع الراء والباء على

---

(١) ، (٢) تفسير ابن كثير جـ١ صفحة ٢٣٩.
(٣) تفسير الفخر الرازى جـ٧ صفحة ١٣٤.
(٤) تفسير الآلوسى جـ٣ صفحة ٦٤.

الاستئناف أى فهو يغفر. وقرأ الباقون بإسكانهما عطفًا على جواب الشرط وهو قوله : ﴿يحاسبكم﴾.

وقوله : ﴿والله على كل شيء قدير﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله فإن كمال قدرته - سبحانه - على جميع الأشياء موجب لقدرته على ما سبق ذكره من المحاسبة لعباده، وإثابة من يشاء إثابته وتعذيب من يشاء تعذيبه، فهو القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير.

ثم ختم - سبحانه - سورة البقرة بآيتين كريمتين فى أولاهما أن رسالة النبى ﷺ امتداد للرسالات السماوية السابقة وخاتمة لها ومهيمنة عليها، وبين فى الثانية أنه - سبحانه - لم يكلف الناس إلا بما فى قدرتهم، وأنهم سيحاسبون على أعمالهم، وأن من شأن الأخيار أن يكثروا من التضرع إليه بخالص الدعاء. قال - تعالى - :

ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

وقوله : ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون﴾ استئناف قصد به الإخبار عن الرسول ﷺ والمؤمنين بما يشرفهم ويعلى من أقدارهم ومنازلهم.

أى : صدق الرسول ﷺ بما أنزل إليه من ربه فى هذه السورة وغيرها من العقائد والأحكام

والسنن والبينات والهدايات تصديق إذعان وإقرار وإطمئنان، وكذلك المؤمنون الذين صدقوه واتبعوه آمنوا بما آمن به رسولهم وداعيهم إلى الحق ﷺ.

وقد قرن - سبحانه - إيمان المؤمنين بإيمان رسولهم ﷺ تشريفًا لهم وللإشارة إلى أنهم متى صدقوا فى إيمانهم كانت منزلتهم عند الله - تعالى - قريبة من منازل الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -.

وفى تأخيرهم فى الذكر إشارة إلى تأخر التابع عن المتبوع، وإشارة إلى أن النبى ﷺ هو أول من آمن بما أوحى إليه من ربه، وهو أقوى الناس إيمانًا، وأصدقهم يقينا. وأكثرهم استجابه لأوامر الله.

وقوله: ﴿كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾ بيان للإيمان الكامل الذى اعتقدوه وصدقوا به.

أى: كل فريق من هذين الفريقين وهما الرسول والمؤمنون آمن إيمانًا تامًا بوجود الله - تعالى - ووحدانيته، وكمال صفاته، ووجوب الخضوع والعبادة له، وبوجود الملائكة وأنهم عباد مكرمون ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ كما آمنوا بكتب الله التى أنزلها لسعادة البشر، وبرسله الذين أرسلهم لإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

ثم بين - سبحانه - أن من صفات هؤلاء الأخيار أنهم لا يفرقون بين رسل الله - تعالى فقال: ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ أى يقولون لا نفرق فى الإيمان بين رسل الله - تعالى - وإنما نؤمن بهم جميعًا، ونصدق برسالة كل رسول أرسله الله - تعالى - ولا نقول كما قال الضالون ﴿نؤمن ببعض ونكفر ببعض﴾.

ثم حكى - سبحانه - ما قالوه مما يدل على صدق إيمانهم، ونقاء نفوسهم وطهارة قلوبهم فقال: «وقالوا سمعنا وأطعنا» أى: وقالوا سمعنا قولك وفهمناه، وامتثلنا أمرك - يا الهنا - واستقمنا عليه، وصبرنا على تكاليفه بكل رضا واستسلام. «غفرانك ربنا» أى اغفر لنا غفرانك الذى هو من فضل رحمتك ونعمك فأنت ربنا وخالقنا والعليم بأحوالنا وبضعفنا.

فقوله: ﴿غفرانك﴾ مصدر منصوب على المفعول المطلق والعامل فيه مقدر أى: اغفر غفرانك. وقوله: ﴿وإليك المصير﴾ أى: وإليك وحدك المرجع والمآب، ومنك وحدك يكون الحساب والثواب والعقاب، ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾.

وبذلك نرى أن هذه الآية الكريمة قد مدحت الرسول ﷺ مدحًا عظيمًا، ومدحت أتباعه المؤمنين الصادقين لاستجابتهم لأوامر الله ونواهيه، وتضرعهم إليه بخالص الدعاء أن يغفر لهم ما فرط منهم.

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر رحمته بعباده فقال: ﴿لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها﴾ والوسع - كما يقول الزمخشرى - : ما يسع الإنسان، ولا يضيق عليه، ولا يحرج فيه، أى لا يكلفها إلا ما يتسع فيه طوقه، ويتيسر عليه دون مدى الطاقة والمجهود. وهذا إخبار عن عدله. ورحمته كقوله - تعالى - : ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ لأنه كان فى إمكان الإنسان وطاقته أن يصلى أكثر من الخمس، ويصوم أكثر من الشهر، ويحج أكثر من حجة[1].

فالجملة الكريمة تحكى لنا بعض مظاهر فضل الله علينا ورحمته بنا، حيث كلفنا بما تسعه قدرتنا، وتستطيعه نفوسنا، وقد حكى القرآن هذا المعنى فى آيات كثيرة، منها قوله - تعالى - : ﴿ما جعل عليكم فى الدين من حرج﴾ وقوله - تعالى - : ﴿يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفًا﴾.

وإذا كانت بعض التكاليف التى كلفنا الله بها فيها مشقة، فإن هذه المشقة محتملة وفى وسع الإنسان وقدرته وطاقته، وسيثيبنا الله - تعالى - عليها ثوابا جزيلا، فهو القائل: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾.

ثم بين - سبحانه - أن كل نفس ستجازى بما عملت فقال: ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ أى لها وحدها ثواب ما كسبت من حسنات بسبب أعمالها الصالحة، وعليها وحدها عقاب ما اكتسبت من سيئات بسبب أعمالها القبيحة.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: لم خص الخير بالكسب، والشر بالاكتساب؟ قلت. فى الاكتساب اعتمال، فلما كان الشر مما تشتهيه النفس وهى منجذبة إليه وأمارة به، كانت فى تحصيله أعمل وأجد، فجعلت لذلك مكتسبة فيه، ولما لم تكن كذلك فى باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال»[2].

وقال الأستاذ الإمام محمد عبده: «لا شك أن الميل إلى الخير مما أودع فى نفس الإنسان، والإنسان يفعل الخير بطبعه وتكون فيه لذته. ولا يحتاج إلى تكلف فى فعل الخير، لأنه يعلم أن كل أحد يرتاح إليه ويراه بعين الرضا وأما الشر فإنه يعرض للنفس بأسباب ليست من طبيعتها ولا من مقتضى فطرتها ومهما كان الإنسان شريرًا فإنه لا يخفى عليه أن الشر ممقوت عند الناس وصاحبه مهين عندهم.. وهكذا شأن الإنسان عند اقتراف كل شر يشعر فى نفسه بقبحه، ويجد

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ صفحة ٣٣٢.

(٢) تفسير الكشاف جـ ١ صفحة ٣٣٢.

من أعماق سريرته هاتفا يقول له : لا تفعل، ويحاسبه بعد الفعل ويوبخه إلا فى النادر . . »[١].

وبعد بيان سنة الله - تعالى - فى التكليف وفى الجزاء عليه، ختم - سبحانه - السورة الكريمة بتلك الدعوات الجامعات للسعادة حتى يكثر المؤمنون من التضرع بها فقال - تعالى - : ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ أى : ربنا يا واسع العفو والمغفرة لا تؤاخذنا أى لا تعاقبنا ﴿إن نسينا﴾ أمرك ونهيك ﴿أو أخطأنا﴾ ففعلنا خلاف الصواب جهلا منا بوجهه الشرعى.

فأنت ترى أن هؤلاء الذين اتقوا ربهم، فصفت نفوسهم، وطهرت قلوبهم، وخشعت جوارحهم، يتضرعون إلى الله أن يغفر لهم ما فرط منهم نسيانا أو خطأ، وذلك لأن المؤمن عندما يصل إلى هذه الدرجة من التقوى والصفاء يشعر بأن الله - تعالى - يحاسبه على مالا حساب عليه، ويشعر بأن حسناته - مهما كثرت - فهى قليلة بجانب هفواته وسيئاته، فهو لشدة خشيته من الله يرجح جانب المؤاخذة على جانب العفو فيكثر من الضراعة والدعاء.

وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذا المعنى بقوله : فإن قلت : النسيان والخطأ متجاوز عنهما فما معنى الدعاء بترك المؤاخذة بهما؟ قلت : . . . لأنهم كانوا متقين الله حق تقاته، فما كانت تفرط منهم فرطة إلا على وجه النسيان والخطأ. فكان وصفهم بالدعاء بذلك إيذانًا ببراءة ساحتهم عما يؤاخذون به. كأنه قيل : إن كان النسيان والخطأ مما يؤاخذ به، فما فيهم سبب مؤاخذة إلا الخطأ والنسيان. ويجوز أن يدعو الإنسان بما علم أنه حاصل له قبل الدعاء من فضل الله لاستدامته والاعتداد بالنعمة فيه»[٢].

هذا هو الدعاء الأول الذى حكاه القرآن عن المؤمنين الصادقين.

أما الدعاء الثانى فهو قوله - سبحانه - : ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا﴾.

والإصر فى اللغة : الثقل والشدة. مأخوذ من أصر بمعنى حبس، فكأنه يحبس صاحبه فى مكانه فيمنعه من الحركة.

والمعنى : أن أولئك يضرعون إلى الله - تعالى - ألا يلقى تكاليف وأعباء شديدة، يثقل عليهم حملها ويعجزون عن أدائها، كما كان الحال بالنسبة للذين سبقوهم؛ فقد كلف الله - تعالى - بنى إسرائيل بتكاليف شاقة ثقيلة بسبب تعنتهم وفسوقهم عن أمره، ومن ذلك

---

(١) تفسير المنار جـ٣ صفحة ١٤٦.

(٢) تفسير الكشاف جـ١ صفحة ٣٣٢.

تكليفهم بقتل أنفسهم إذا أرادوا أن يتوبوا توبة صادقة، وتحريم بعض الطيبات عليهم بسبب ظلمهم قال - تعالى - : ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم...﴾.

قال الرازى : والمؤمنون إنما طلبوا هذا التخفيف لأن التشديد مظنة التقصير. والتقصير موجب للعقوبة، ولا طاقة لهم بعذاب الله - تعالى - فلا جرم التمسوا السهولة فى التكاليف[1].

أما الدعاء الثالث فهو قوله - تعالى - : ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾.

الطاقة - كما يقول الراغب - : اسم لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقة، وذلك تشبيه بالطوق المحيط، فقوله - تعالى - : ﴿لا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾ أى ما يصعب علينا مزاولته، وليس معناه لا تحملنا مالا قدرة لنا به»[2].

فالطاقة على هذا تكون فيما فعله بأقصى القدرة والقوة.

أى: ونسألك يا ربنا ألا تحملنا ما هو فوق طاقتنا وقدرتنا من المصائب والعقوبات وغير ذلك من الأمور التى لا نستطيعها.

وهذا الدعاء هو تدرج مترتب على الدعاء السابق، فهم هنا يلتمسون منه - سبحانه - ألا ينزل بهم ما هو فوق قدرتهم وطاقتهم من بلايا ومحن، بعد أن التمسوا منه ألا يكلفهم بتكاليف شاقة ثقيلة كما كلف الذين من قبلهم.

ثم حكى القرآن دعاءهم الرابع والخامس والسادس فقال: ﴿واعف عنا، واغفر لنا، وارحمنا﴾ أى نسألك يا ربنا أن تعفو عنا بأن تمحو عنا ما ألممنا به من ذنوب وتتجاوز عنها، وأن تغفر لنا سيئاتنا بأن تسترها ولا تفضحنا بإظهارها فأنت وحدك الغفار الستار. وأن ترحمنا برحمتك السابغة التى شملت كل شيء، فإننا مع تقصيرنا فى طاعتك نأمل ألا تحرمنا من رحمتك فأنت تراهم قد تضرعوا إلى ربهم أن يعفو عنهم بأن يسقط عنهم العقاب وأن يغفر لهم بأن يستر عليهم ذنوبهم فلا يفضحهم بها، وأن يشملهم بعطفه ورحمته.

وهى دعوات تدل على رقة إحساسهم، ونقاء نفوسهم، وشدة خشيتهم من ربهم، وشعورهم نحوه بالتقصير مهما قدموا من أعمال صالحة.

ثم ختموا دعاءهم بقوله - تعالى -: ﴿أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ أى: أنت مولانا وناصرنا وحافظنا ومعيننا وممدنا بالخير والهدى فانصرنا يا ربنا على القوم الكافرين لكى تكون

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٧ صفحة ١٥٧.

(٢) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى صفحة ٣١٢.

كلمتك هى العليا، وكلمة الذين كفروا هى السفلى.

وقولهم: ﴿أنت مولانا﴾ يدل على نهاية خضوعهم وتذللهم وطاعتهم لله رب العالمين، لأنهم قد اعترفوا بأنه - سبحانه - هو المتولى لكل نعمة يصلون إليها.

قال ابن كثير: وقد ورد فى صحيح مسلم عن النبى ﷺ - أن الله - تعالى - قال عقب كل دعوة من هذه الدعوات: قد فعلت.

وروى البخارى والجماعة عن ابن مسعود قال: قال رسول الله - ﷺ -: من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه».

وروى الإمام أحمد عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: أعطيت خوانيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطهن نبى قبلى».

وبعد فهذه هى سورة البقرة التى اشتملت على ما يشفى الصدور، ويهدى القلوب، ويصلح النفوس: من توجيهات سامية، وآداب حميدة، وعقائد سليمة، وتشريعات حكيمة، وأمثال هادية، وقصص من شأنه أن يغرس فى النفوس الخلق القويم، وأن يغريها بالاتعاظ والاعتبار حتى تكون ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه.

ولقد سبق لنا أن تكلمنا قبل البدء فى تفسيرها عن وقت نزولها، وعن فضلها وعن مقاصدها الإجمالية...

والله نسأل أن ينفعنا بها وبكتابه الكريم، وأن يجعل أقوالنا وأعمالنا خالصة لوجهه، ونافعة لعباده.

اللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور أبصارنا وبصائرنا، وجلاء همنا وحزننا، وأعنا على إتمام ما قصدناه بفضلك ورعايتك يا أكرم الأكرمين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن سار على طريقته إلى يوم الدين.



الفهرس

رقم الآية	الآية المفســـــرة	رقم الصفحة

رقم الآية	الآية المفســـــرة	رقم الصفحة

رقم الآية	الآية المفســـرة	رقم الصفحة
٢١٩	يسألونك عن الخمر	٤٧٩
٢٢٠	ويسألونك عن اليتامى	٤٨٥
٢٢١	ولا تنكحوا المشركات	٤٨٨
٢٢٢	ويسألونك عن المحيض	٤٩٣
٢٢٣	نساؤكم حرث لكم	٤٩٧
٢٢٤	ولا تجعلوا الله عرضة	٤٩٩
٢٢٥	لا يؤاخذكم الله باللغو	٥٠١
٢٢٦	للذين يؤلون من نسائهم	٥٠٢
٢٢٧	وإن عزموا الطلاق	٥٠٤
٢٢٨	والمطلقات يتربصن	٥٠٥
٢٢٩	الطلاق مرتان	٥١٣
٢٣٠	فإن طلقها فلا تحل له	٥١٨
٢٣١	وإذا طلقتم النساء	٥٢٠
٢٣٢	وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن	٥٢٣
٢٣٣	والوالدات يرضعن	٥٢٧
٢٣٤	والذين يتوفون منكم	٥٣٢
٢٣٥	ولا جناح عليكم فيما عرضتم	٥٣٦
٢٣٦	لا جناح عليكم إن طلقتم	٥٤٠
٢٣٧	وإن طلقتموهن من قبل أن	٥٤٣
٢٣٨	حافظوا على الصلوات	٥٤٥
٢٣٩	فإن خفتم فرجالا	٥٤٨
٢٤٠	والذين يتوفون منكم ويذرون	٥٥٠
٢٤١	وللمطلقات متاع	٥٥٣
٢٤٢	كذلك يبين الله لكم آياته	٥٥٤
٢٤٣	ألم تر إلى الذين خرجوا	٥٥٥
٢٤٤	وقاتلوا فى سبيل الله	٥٥٩
٢٤٥	من ذا الذى يقرض الله	٥٦٠
٢٤٦	ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل	٥٦٣
٢٤٧	وقال لهم نبيهم إن الله قد	٥٦٥

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة

رقم الآية	الآية المفســــرة	رقم الصفحة
٢٧٧	إن الذين آمنوا وعملوا	٦٣٨
٢٧٨	يأيها الذين آمنوا اتقوا الله	٦٣٨
٢٧٩	فإن لم تفعلوا	٦٣٩
٢٨٠	وإن كان ذو عسرة	٦٤٠
٢٨١	واتقوا يوما ترجعون	٦٤١
٢٨٢	يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم	٦٤٣
٢٨٣	وإن كنتم على سفر	٦٥٢
٢٨٤	لله ما فى السمٰوات	٦٥٦
٢٨٥	آمن الرسول بما أنزل إليه	٦٥٨
٢٨٦	لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها	٦٦٠